رسائل إخوان الصفاء

وخلان الوفاء

المجلد الثالث

الجسمانيات الطبيعية

والنفسانيات العقليات

دار صادر

بيروت

رسائل إخوان الصفاء

٣

الرسالة الثالثة عشرة

من الجسمانيات الطبيعيات

في كيفية نشوء الأنفس الجزئية في الأجساد البشرية الطبيعية

(وهي الرسالة السابعة والعشرون من رسائل إخوان الصفاء)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، وسلام على عباده الذين اصطفى ، آللهُ خيرٌ أمّا يشركون ؟

فصل

اعلم أيها الأخ البار الرحيم ، أيدك الله وإيانا بروح منه ، أنه لما فرغنا من بيان قول الحكماء إن الإنسان عالَم صغير ، نريد أن نذكر في هذه الرسالة كيفية نشوء الأنفس الجزئية فنقول :

اعلم أن هذا الجسد لهذه الأنفس في المِثال بمنزلة الرَّحِم للجنين ، وذلك أن الجنين إذا استَتَمّت في الرَّحِم بنيتُه ، وتكمّلت هناك صورته ، خرج الى هذه الدار تامّ الخِلقة ، سالم الحواسّ ، وانتفع بالحياة فيها ، وتمتع بنعيمها الى وقت معلوم ، فهكذا يكون حال الأنفس في الدار الآخرة ، وذلك أن الأنفس الجزئية ، إذا استتمت ذواتِها بالخروج من القوة الى حيز الفعل بما تستفيده من العلوم والمعارف بطريق الحواس ، واستكملت صورتها بما تكتسب من الفضائل بطريق المعقولات والتجارب والرياضات ، وما يدبَّر في

هذه الدار من السياسات من إصلاح أمر المعاش على الطريقة الوسطى ، وتمهيد أمر المَعاد على سُنن الهدى وتهذيب النفس بالأخلاق الجميلة والآراء الصحيحة والأعمال الصالحة ، كلُّ ذلك بتوسط هذا الجسد المؤلف من الدم واللحم .

ثم إن فارقته على بَصيرةٍ منها ومن أمرها ، وقد عَرفتْ جوهرَها ، وتصوَّرتْ ذاتَها ، وتبيَّنتْ أمر عالمها ومبدئها ومعادها ، كارهةً للكون مع الجسد ، بقيت عند ذلك مفارقة للهَيُولى ، واستقلَّت بذاتها ، واستغنت بجوهرها عن التعلق بالأجسام ، فعند ذلك ترتقي إلى الملإ الأعلى ، وتدخل في زُمرة الملائكة ، وتشاهد تلك الأمور الروحانية ، وتعاين تلك الصور النورانية التي لا تُدركها بالحواس الخمس ، ولا تتصور في الأوهام البشرية ، كما ذُكِر هذا في الرموزات النبوية أن في الجنة ما لا عَين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خَطَر على قلب بشر من النعيم واللذة والسرور والفرح والرَّوْح والرَّيحان ، كما قال الله تعالى :« فيها ما تشتهيه الأنفس وتَلَذُّ الأعين وأنتم فيها خالدون » وقال: « فلا تعلم نفس ما أُخفي لهم من قُرَّة أعين جَزاء بما كانوا يعملون » .

فأما إذا لم تستتمّ خِلقةُ الجنين في الرَّحِم ، ولا استُكمِلت هناك صورته ، أو عرض له عارض من النفس والاعوجاج في عُضوٍ من الأعضاء ، فإنه لا ينتفع بالحياة في هذه الدار على التمام ، ولا يكملُ له نعيمها كالعُميان والخُرْس والطّرشان والزَّمْنى والمفاليج وأشباههم ، فهكذا تكون حال النفوس الجزئية عند مفارقة الأجساد البشرية .

وذلك أن الجُزئية إذا لم تَستتِمّ بالعلوم والمعارف ، فإنها ما دامت مرتبطة بالأجساد البشرية متهيئاً لها إدراكُ المحسوسات، فلا تستكمل صُورَها بمعرفة حقائق الأشياء ما دام لها العقل والتمييز والرويّة ، ولا هي تهذبت بالأخلاق الجميلة ما دام يُمكنها الاجتهاد والعزيمة ، ولا هي قوَّمت اعوجاجها من الآراء الفاسدة ، وقد أرهقتها أعمالها السيئة وأثقلتها أفعالها القبيحة ، فإنها

عند مفارقة الأجساد لا تنتفع بجوهرها ولا تستقلّ بذاتها ، ولا يمكنها النهوض إلى الملإ الأعلى من ثِقل أوزارها ، ولا يُعرَج بها إلى ملكوت السماء ، ولا تستأهل للدخول في زُمَر الملائكة ، وتُغلَّق دونها أبواب السماء ، ويفوتها ذلك الرَّوْح والريحان ، كما ذكر الله عز وجل : « لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط » لأنه لا يليق بها ذلك المكان الشريف ، ما دامت النفس مذمومةً بهذه الصّفات ، غير مهذبة بالأخلاق الجميلة ، مقيّدةً بأخلاق دنيّة وسيرة جائرة وعادات رديئة ، واعتقادات فاسدة ، وجهالات متراكمة ، وأعمال سيئة تبقى مربوطة محبوسة ، لأنه لا يليق بها ذلك المنزل النُّوراني والعالم الروحاني ، كما لا يليق بالعُميان والزَّمْنى والجهال والبُكماء مجالسُ الملوك ومنادمتهم لنقصانهم ، فإذا فاتها ذلك المكان الشريف ، بقيت مقيّدةً في الهواء تهوي دون السماء ، وتجرّها شياطينها التي تتعلق عليها من الشهوات الجسمانية والآراء الفاسدة والاهتمام بالأمور الهَيُولانية ، راجعةً إلى قعر الأجسام المدلهمّة ، وأسر الطبيعة الجسَدانية ، وتدفعها أمواج الشهوات المُحرقة المؤدّية إلى أودية الهاوية ، حيث لا أنيس لها ، وتجرها الشياطين كما تُجَرّ العُميان والزَّمْنى متجنّبين طُرُقات الناس ، كما ذكر الله تعالى عز وجل : « ومن يعشُ عن ذكر الرحمن نقيّض له شيطاناً فهو له قرين » وقال : « وقيّضنا لهم قرناء فزينوا لهم ما بين أيديهم » وقال : « وقال قرينه هذا ما لدي عتيد » فيصيبها عند ذلك وهَج الأثير تارةً ، وبرد الزّمهرير تارة ، ووحشة الظلام والألم والعذاب إلى أن تقوم القيامة . يكون ذلك حالها كما ذكر الله عز وجل : « النار يُعرَضون عليها غدوّاً وعشيّاً ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب » وقال : « ومن ورائهم برزخ إلى يوم يُبعثون » كلُّ ذلك لشدة شوقها إلى الجسمانية التي قد اعتادتها وقد فارقتها ، ولم تحصل لها اللذات الروحانيات ، وقد خسرت الدنيا والآخرة « ذلك هو الخسران المبين » .

فصل

اعلم أيها الأخ الكريم البار الرحيم ، أيدك الله وإيانا بروح منه ، أن العلم والحكمة للنفس كتناول الطعام والشراب للجسد . وذلك أن الأجساد ترضَع أولاً ثم تتناول الطعام والشراب اللذين هما غِذاء الأجساد ، لينشو صغيرها ، وينمو ناقصها ، ويسمن مهزولها ، ويقوى ضعيفها ، ويكتسي رونقها وكمالها ، ويبلغ إلى أقصى مدى غاياتها ومنتهى نهاياتها ومحاسنها باللّبن ثم بالطعام والشراب اللذين هما غِذاؤها ومادتها . فهكذا أيضاً حالات الأنفس مماثلة لحالات الأجساد بالطعام والشراب الذي هو غِذاؤها ومادتها في تصاريفها لاقتران ما بينهما في كون الحياة .

وذلك أن الأنفس الجزئية تتصور بالعلوم جواهرُها ، وتنمو بالحكمة ذواتُها ، وتـُضيء بالمعارف صوَرُها ، وتقوى بالرياضيات فِكَرُها ، وتُنير بالآداب خواطرُها ، وتتسع لقَبول الصور المجردة الروحانية عقولها ، وتعلو إلى اشتياق الأمور الخالدة هِمَّتها ، ويشتد على البلوغ إلى أقصى مَـدّ غاياتها عزَماتُها من الترقي في المراتب العالية بالنظر في العلوم الإلهية ، والسُّلوكِ في المذاهب الروحانية الربَّانية ، والتعبّدِ في الأمور الشريفة من الحكمة على المَذهب السُّقراطي ، والتصوّفِ والتزهّدِ والترهّب على المَنهجِ المسيحي ، والتعلق بالدين الحنيفي ، وهو التشبه بجوهرها الكلي ، ولحوقها بعالَمها العُلْوي ، والتوصل إلى عِلتها الأُولى ، والاعتصام بحبل عِصمته ، وابتغاء مَرْضاته ، وطلب الزُّلفى لديه بالاتحاد بأبناء جنسها في عالمها الروحاني ومَحلّها النوراني في دارها الحيواني كما قال الله تعالى: « وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون » .

فإذا كانت الدار هي الحيوان ، فما ظنّك يا أخي بأهل الدار كيف تكون صفتهم ونعيمهم إلاّ كما قال الله تعالى وتقدس : « في مقعد صدق عند

مليك مقتدر » فافهم هذه الاشارات والمرامي والمرموزات .

ثم اعلم أن النفس ، إذا انتبهت من نوم الغفلة ، واستيقظت من رقدة الجهالة ، واجتهدت وألقت من ذاتها القُشور الجسمانية ، والغشاوة الجِرمانية ، والعادات الطبيعية ، والأخلاق السَّبُعيّة ، والآراء الجاهلية ، وصفَتْ من دَرَن الشهوات الهيولانية ، تخلصت وانبعثت وقامت فاستنارت عند ذلك ذاتُها وأضاء جوهرها وأشرقت أنوارها واحتدّ بصرُها . فعند ذلك ترى تلك الصورة الروحانية ، وتعاين تلك الجواهر النورانية ، وتشاهد تلك الأُمور الخفيّة والأسرار المكنونة التي لا يُمكن إدراكُها بالحواسّ الجسمانية ، والمشاعر الجِرمانية ، ولا يشاهدها إلاّ من تخلصت نفسه بتهذيب خُلُقه ، إذا لم تكن مربوطة بإرادة طبيعية ، ومقيدةً بشهوات جسمانية يلوح فيها فيعاينها .

فإذا عاينتْ تلك الأمور تعلقتْ بها تعلق العاشق بالمعشوق ، والتزمتها التزام الحبيب المحبوب ، واتحدت بها اتحاد النور بالنور ، فتبقى معها ببقائها وتدوم مع دوامها ، وتفرح برَوْحها ورَيحانها ، وتشم بنفحتها ، وتلَذ بلذاتها التي عجزت الألسن الإنسانية عن التعبير عنها ، وقصّرت أوهامُ المتفكرين عن أن تتصورها بكُنْه صفاتها كما قال الله تعالى : « فلا تعلم نفس ما أُخفي لهم من قُرّة أعين جزاء بما كانوا يعملون » وقال: « فيها ما تشتهيه الأنفس وتَلَذّ الأعين وأنتم فيها خالدون » .

فصل

ثم اعلم أنه إذا خرج الجنين من الرّحِم سالماً من الآفات العارضة، صحيح الحواسّ قويّ البدن ، واشتدت أركانه وانبسطت قُوى النفس في الجسد ، باشرت القُوى الحساسة ذوات المحسوسات وإدراكها على هيئاتها . ثم أدت رسومها إلى القوة المتخيلة التي في مقدّم الدماغ، ودفعتها المتخيلة إلى المفكرة . ثم غابت المحسوسات عن مشاهدة الحواسّ ، وبقيت آثار تلك الرسوم مصوّرةً في فكرة النفس، فاستقلّت بذاتها ، واستغنت بجوهرها عن حواسها، وتصرفت فيها من غير أن يشاركها شيء خارجٌ من ذاتها ، ويتأملها من غير أن يحتاج إلى غير نفسها . فإذا تأملتها النفس وميّزتها بعقلها ، لا تجد شيئاً سوى صور تلك المحسوسات منتزعة من هَيُولاتها ، ومصورةً في جوهر النفس ، فيكون جوهر النفس لتلك المصوّرة في ذاتها كالهيولى ، وتلك الرسوم فيها كالصورة .

وهكذا أيضاً حُكم صور المعقولات في النفس ، وذلك أنها ليست شيئاً سوى صور الأجناس والأنواع انتزعتها النفس بقوتها المتفكرة وصوّرتها في ذاتها ، وحملتها كما حمل الهواء صوت المسموعات ، وذلك أن الهواء يحمل الأصوات والنغمات المختلفة ويؤديها إلى المسامع ؛ ويحمل أيضاً الروائح ويؤديها إلى المَشامّ بهيئاتها لا يغيّر منها شيئاً إلا بعارض يَعرِض لها ، لأن الهواء جسم لطيف روحاني حافظ للصورة . وهكذا الضياء أيضا يَحمِل الأشكال والألوان ويؤدّيها إلى الأبصار ، ولا يَخلِط بعضها ببعض . فهكذا أيضا النفس تقبل صور المعلومات من المحسوسات والمعقولات في ذاتها ، وتصوّرُها بفكرها ، وتحفظها بالقوة الحافظة من غير أن تخلِط بعضها ببعض ، لأن جوهر النفس أشدّ روحانية من جوهر الهواء وجوهر الضياء جميعاً ، فاستغنت بنفسها ، واستقلّت بذاتها ، وفرحت بنجاتها ، واستبشرت

بخلاصها ، وساحت في الملكوت ، وتبوّأت من الجنة حيث شاءت فنِعمَ أجرُ العاملين !

ثم اعلم أنه كما يَعرِض للأجسام أمراضٌ وأعلال تُخرجها من الاعتدال ، وتميل بها عن صحة مزاجها ، حتى تُسقمها ، فلا تنتفعُ بالحياة في هذه الدار ، ولا تنتفع بنعيمها على التام ، ولا يُهنيها عيشُها على الكمال . فهكذا يعرض للنفوس الجُزئية الحيوانية أمراضٌ تُخرجها عن الاعتدال والطريقة الوسطى والصحة والحقّ والصّراط السويّ والهُدى ، وتميل بالإنسان عن قَصْدِ سُنَن الهدى ، حتى لا تنتفع بالحياة في الأولى ، ولا تنال السعادة في الأخرى .

وإن أمراضها أربعة أنواع وهي الجهالات المتراكمة ، والأخلاق الردية ، والآراء الفاسدة ، والأعمال السيئة . ثم تتفرّع هذه كلها للنفوس الجزئية البشرية لشدة ميلها إلى الشهوات الجسمانية التي هي نيران واقدة تتوقد على الأفئدة بأنواع الغموم المُقلقة والهموم المحرقة ، لشدّة غرورها باللذات الجِرمانية التي هي استراحاتٌ عن الآلام الطبيعية والمؤذيات الهَيُولانيّة .

فصل

ثم اعلم أن لمرض النفوس علاجاتٍ وطِبّاً تُداوى بها ، كما أن لمرض الأجساد طِبّاً يُعالج به ، وعقاقيرَ يُداوى بها ، ولها كتب وضعتها الحكماء موصوفٌ فيها علاجاتها ؛ فهكذا أيضاً لمرض النفوس كتب وقوانين علمية جاءت بها الأنبياء والحكماء ، مذكورٌ فيها علاجات الأمراض النفسية ، وهو لاقتداء بسنّة الناموس ، واجتناب المحارم والانتهاء عن المناهي ، والأخذ بسنّته الحسنة ، والسير بسيرته العادلة ، ولزوم طلَب المعارف ، والتّخلّق بالأخلاق الجميلة ، ولزوم سُنّة الهدى على الطريقة الوسطى في طلب مَعيشة الحياة الدنيا والسعي بالأعمال الصالحة في طلب نعيم الآخرة، ومُداواةِ النفوس

المريضة ، بتذكيرها أمرَ مبدئها ، وما قد نسيته من أمر معادِها بضروب الأمثال بالوعد والترغيب في جزيل الثواب والمدح والثناء لمن تاب وأناب لعلهم يذكرون .

ثم اعلم أنه ذُكر في كتب الطب أصلُ تركيب الجسد ، ومِزاج الأخلاق وأسبابُ الأمراض وكيفية المداواة من مفردات الأدوية ومركّباتها التي تختلف شَرباتها بحسب اختلاف الأمزجة والأهوية والعادات . فهكذا ذُكر وتبيَّن في كتب الأنبياء المنزلة، عليهم السلام ، الذين هم أطبّاء النفوس، وبيان ماهيّة النفس ، وبدء كون العالم ، وسبب كَون عصيان النفوس التي هي مرضُها ومَسقطها عن مراتبها الذي هو موتها الأوّل ، وسبب صحتها ، وسبب تغيّرها وفسادها وأنواع أمراضها . ووُصِف كيفية مداواة النفوس المريضة بالندم والتوبة ، وحُسن الأخلاق والأفعال الحسنة والاجتناب عما نهى الله تعالى ورسوله ، وبالتذكار لأمر المَعَاد والأفعال الحسنة ، والتوكّل على الله في جميع الأمور كما قال تعالى :

« يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوأتهما » وقال : « وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين » وقال : « بعث الله النبيين مبشّرين ومنذرين » « لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل » « ليهلك من هلك على بينة ويحيا من حي عن بينة » .

ثم اعلم أن طائفة من العقلاء قد مالوا وأعرضوا عن الحق والديانات النبوية إلى الآراء الحِكمية ، وذلك لقصور فهمهم عن صُور تلك الأمور التي أشارت إليها الأنبياء ، عليهم السلام ، في إشاراتهم ورموزهم، فعجزوا عن إدراك حقائق تلك المعاني التي ألقتها إليهم الملائكة من الوحي والإلهام والتأييد والإشارات ؛ وإنما قبلت الأنبياء الوحي من الملائكة بصفاء جوهر نفوسها، ومجانسة أرواحها

لأرواحهم ، لا لقياسات منطقية ولا برياضات حِكمية مثل الأدوية الشافية والعقاقير النافعة يدرون سبب شفائها وخاصّية منفعتها .

ثم اعلم أن من سُنّة الناموس والآداب الحسنة تناول الطعام الذي هو غذاء الجسد بثلاثة أصابع ، فهذه السُّنّة كأنها إشارة من واضع الناموس للنفوس والتنبيه لها والحثّ على أنه وُاجبٌ طلبُ العلوم من ثلاث طُرقات ، لأن العلم غذاء النفس ، كما أن الطعام غِذاء الجسد . وأحوالُ النفس مماثلةٌ لأحوال الجسد لشدة اقتران ما بينهما . فأحدُ الطرق التي تنال بها النفس العلوم قوّة الفكر الذي تُدرِك به النفسُ الموجودات المعقولات . ومن هذا الطريق أخذت الأنبياء ، عليهم السلام ، الوحي من الملائكة . والطريق الآخر السمعُ الذي تقبل به النفسُ معاني اللغات ، وما تدلُّ عليه الأصوات من الأخبار الغائبة . والآخر طريق النظر الذي به تشاهدُ النفوسُ الموجودات الحاضرة . فهذه الثلاث الطرقات يجب أن تتناول العلوم بها كما بينّا وكما نبّهنا الله ، عزّ وجلّ ، وقال : « جعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلًا ما تشكرون » وذمَّ من لا ينتفع بالنِّعَم فقال : « لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم آذان لا يسمعون بها ولهم أعين لا يبصرون بها أُولئك كالأنعام بل هم أضل » وقال : « صمٌّ بكمٌ عميٌ » فهم صمٌّ عن الحقائق ، بُكمٌ عن الدقائق ، عُميٌ عن المُبصَرات المعنوية العقلية بعين القلب . وليس يريد بهذا الذمّ بحيث أنهم لا يسمعون الأصوات ، ولا يُبصرون الألوان ، ولا يعرفون ولا يفقهون أمر المعاش ، بل إنما ذمّهم بحيث أنهم لا يَعقِلون أمر المَعاد كما قال تعالى : « يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون » .

واعلم أن العلم قِنيَةٌ للنفس كما أن المال قِنية للجسد ، لأن المال يراد لصلاح أمر الجسد ، والعلمَ يراد لصلاح أمر النفس . فمتى لم تنل النفسُ العلمَ من هذه الطرقات الثلاث ، وذلك تناولُه بثلاثة أصابع ، إلاّ من طريقة واحدة أي بإصبع واحد ، فمثلُه كمثَلِ المريض الذي ليس له حظ من ماله إلاّ الثُّلثُ لأن

المريض واقف بين رجاء الحياة وخوف الممات . وهذا مثلُ أهل التقليد الذين لا يعرفون أَمر الدين إلاَّ من طريق السمع، فهم موقوفون بين الشك واليقين. والشكُّ مرض النفوس ، واليقين صحتها ، فهؤلاء ليس لهم من العلم إلاَّ الشكُّ من أَجل مرض نفوسهم .

ثم اعلم أن السائلين اثنـان : سائل سأَل حاجة من عرَض الدنيـا لصلاح الجسد المستحيل الفاني ، وسائلٌ سأَل مسأَلةً من العلم يكون فيه خلاص النفس من ظلم الجهل ، وإصلاحُ الدين وأمرُ المعاد ، وطلبُ نعيم الآخرة الباقي .

وهكذا المجالس اثنان : مجلس للأَكل والشرب والغناء واللذات الجسمانية من نبات الأَرض ولحوم الحيوان لصلاح هـذا الجسد المستحيل المتغير الفاني ، ومجلس للعلم والحكمة والسَّماع واللـّذات من نعيم الآخرة الباقية للنفوس الخالدة التي لا يبيد جوهرها ، ولا تفنى لذتها ، ولا ينقطع سرورها .

ثم إن كل ما يؤكل من الطعام والشراب يتبين النقصان في مـال صاحبه . وإذا أَكل وشرب قـَدْرَ ما بلغ الشِّبَع والرِّيّ وزاد على ذلك ، صارت اللذة أَلماً . وإذا مكثت تلك المأكولات المشتهَيات في المعـدة ساعةً واستمرأَت ، وأَخذت الأَعضاءُ كلُّ واحد قسطاً منها ، تغير ما بقي واستحال ، واحتيج إلى إخراجها ، وإلاَّ صارت اللذة أَلماً ومَشقّة ومرضاً وأَعلالاً .

وأَما مجالس العلم والحكمة والاستماع منها فليست تَمَلُّ النفس منها ، لأَنها لذاتٌ روحانيـة من نعيم الآخرة وأُنموذَجها ولا ينقُص من علم العـالِم المُرشِد ، وإن كَثُر المتعلمون والسامعون ، لأَنها من كنوز رموز الآخرة .

فصل

ثم اعلم أنه ليس في كثرة الأكل افتخارٌ ولا يُحتاج من الأكل والشرب إلاّ إلى مقدار ما يُسكّن الجوع والعطش . فإذا سكن ذلك كان سكونه بألوان من المأكولات أو بكسرة من خبز الشعير ، أو بشرب الماء القراح كما قال عيسى ، عليه السلام ، للحواريين : « إن أكل خبز الشعير ، وشرب الماء القَراح اليوم في الدنيا لكثيرٌ لمن يريد أن يدخل الفِردَوس غداً . »

ثم إن الافتخار والثناء ينبغي أن يكون في اقتناء الفضائل الحِكمية ، وفي الاستضاءة بنور العلم ، والاستبصار بالآيات والدلالات على معرفة حقائق الأشياء ، والحكمةِ والتألّهِ والزّهد والتصوّف ، ولزوم مذاهب الرّبانيين ، والتهاونِ بأمر الجسد ، والاهتمام بأمر النفس ، والحِرْص على خلاصها من ظلمة الجهالة ، واستنقاذها من بحر الهَيُولى ، وعِتْقها من أسر الطبيعة ، والخروج من قعر الأجسام ، والصعود إلى عالم الأرواح ، والدخول في زُمَر الملائكة كما ذكر الله تعالى : « إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه » يعني به روح المؤمنين . وقال : « إن الأبرار لفي نعيم » وقال : « إن كتاب الأبرار لفي عليين وما أدراك ما عليون » يعني به أنفس الأبرار . وقال : « حتى إذا جاؤوها وفُتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين » وقال : « والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار » .

واعلم يا أخي ، أيدك الله وإيانا بروح منه، أن الجسد إذا خرج من الرحم سالماً من الآفات العارضة ، صحيح الحواس ، وقَوِيَ بدنُ الطفل ، استَتَبَّت وانبسطت قوى النفس في الجسد، وباشرت القوى الحساسة ذوات المحسوسات، وأدركتها على هيئتها؛ ثم أدّت رسومها إلى القوى المتخيلة التي في مقدّم الدماغ، وأدتها المتخيّلةُ إلى القوةِ المتفكرة . ثم إذا غابت المحسوسات عن مُشاهدة

الحواس لها ، بقيت تلك الرسوم مصوّرة في فكر النفس ؛ فاذا تأملتها النفس وميزتها بعقلها ، فليست تجد شيئاً سوى صورة تلك المحسوسات منتزعة الى هَيُولاها ، ومصوّرة في جوهر النفس ، فيكون جوهر النفس لتلك الصورة فيها كالهَيُولى ، وتلك الرسوم فيها كالصورة .

وهكذا أيضاً حالُ الصور المعقولة في النفس، فإنها ليست شيئاً سوى صور الأجناس والأنواع انتزعتها النفس بقوّتها المفكره، وصوّرتها في ذاتها ، وحملتها كحمل الهواء صور المحسوسات . وذلك أن الهواء يحمِل الأصوات المختلفة ، ويؤدّيها إلى المسامع ، ويحمل الروائح ويؤديها إلى المشامّ بهيئتها لا يغير منها شيئاً الا أن يَعرِض عارضٌ لها ، لأن الهواء جسم لطيف روحانى حافظ للصورة .

وهكذا الضياء يحمِل الألوان ويؤديها إلى الأبصار بأصباغها ، ولا يخلِط بعضها ببعض . لأن جوهر النفس أشدُّ روحانية من جوهر الهواء والضياء جميعاً .

ثم اعلم يا أخي أن النفوس الجزئيّة يفضُل بعضُها على بعض بإحدى هذه الخصال الأربع : إحداها معارفُها التي استفادتها بكونها مع الجسد . والثانية أخلاقها التي عددناها . والثالثة آراؤها التي اعتقدتها . والرابعة أعمالها التي اكتسبتها .

فإذا كانت النفس كثيرة المعارف في العلوم ، وحسنة الأخلاق ، صحيحة الآراء ، صالحة الأعمال ، صوّرتها هذه الخصال صورة حسنة ، صحيحةً بهيّة ، بهجة روحانية . فإذا فارقت الجسد ، واستقلّت بذاتها ، واستغنت بجوهرها عن التعلق بالأجسام ، وانجلت عنها أصداء الطبيعة ، أبصرت ورأت عند ذلك ذاتها ، وتراءت لها صورتها، فعاينت جمالها ورونقها ، فرأت كلّ ما عملت من خير مُحضَراً ، وكلما لاحظت ذاتها ازدادت فرحاً وسروراً ولذّة ، وذلك هو جزاؤها ونعيمها وجنتها ، لا نُقْلة لها أبداً كما قال تعالى : « يوم تجد كل

نفس ما عملت من خير مُحْضَراً ».

وإذا كانت أعمالها سيئة، وسيرتها جائرة، وآراؤها فاسدة، وأخلاقها رديّة، ومعارفها باطلة، أكسبتها هذه الخصالُ صورة قبيحة سمجة وَحْشة، وهي لا تُحِسُّ بها ما دامت مربوطة بالجسد، مشغولة بالمحسوسات، مستروحةً إلى بهجة الطبيعة، وزينة الهَيولى. فإذا جاءت سكرة الموت وحسرة الفَوْت بالحق؛ التي لا بد لكل شخص من ذلك؛ ولكل أجل مسمًّى، وهي مفارقة النفس الجسد، فارقته على رغمٍ منها جبراً وقهراً، وبطلت آلاتُ الحواسّ التي تُنال بها اللذات الجسمانية، وبقيت فارغةً، نظرت عند ذلك إلى ذاتها، فرأت ما عملت من سوء مُحضَراً، وتحيّرت، وهي صورة قبيحة سمجة وحْشة، واغتمّت وحزنت واستوحشت «كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم» وودت أن لو كان بينها وبينه أمد بعيد، وتبقى على تلك الحالة متألمةً معذبة في ذاتها، فذلك هو جزاؤها وأليمُ عذابها وجحيمها وعِقابها، كما قال النبي، صلى الله عليه وسلم: انما هي أعمالكم التي تُردُّ إليكم، وكما قال الله تعالى: «وأن ليس للإنسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يُرى» «إن الأبرار لفي نعيم وإن الفجار لفي جحيم» فأما أصحاب اليمين ففي سِدْر مخضود، وأما أصحاب الشمال ففي سَموم وحميم. وفقك الله وإيانا وجميع إخواننا للسَّداد، وهداك وإيانا وجميع إخواننا سبيل الرشاد، وصلى الله على النبي محمد وآله الأمجاد.

تمت رسالة نشوء النفس ويتلوها رسالة طاقة الإنسان في المعارف

الرسالة الرابعة عشرة
من الجسمانيات الطبيعيات

في بيان طاقة الإنسان في المعارف والى أي حد هو ومبلغه من العلوم والى أي غاية ينتهي وأي شرف يرتقي

(وهي الرسالة الثامنة والعشرون من رسائل إخوان الصفاء)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، وسلام على عباده الذين اصطفى ، آلله خيرٌ أمّا يشركون ؟

فصل

اعلم أيها الأخ ، أيدك الله وإيانا بروح منه ، بأنّا قد فرغنا من بيان كيفية نشوء الأنفس الجزئية في الأجساد البشرية ، فنريد ان نذكر في هذه الرسالة طاقة الإنسان في المعارف ، وإلى أي حد ينتهي ، فنقول :

اعلم أن الله تعالى لما خلق جسد آدم ، عليه السلام ، أبي البشر من التراب، وصوّره في أحسن تقويم ، وأحسن صورتَه ، وأحكم بِنيته ، ثم نفخ فيه من روحه ، صار ذلك الجسد الترابي بتلك الروح الشريفة حيّاً عالماً قادراً . ثم فضّله بما علّمه من الأسماء على بعض الملائكة لا عليهم كلهم، وأمرهم بالسجود له من أجل تلك الروح الشريفة التي نفخ فيه ، لا من أجل الجسد الترابي . وإبليس اللعين لما نظر إلى الجسد الترابي ، وعرف ورأى تلك الروح الشريفة

الفاضلة العالمة قال : « أنا خير منه ، خلقتني من نارٍ وخلقته من طين » اذ النار خير من التراب ، لأن النار جسم مُضيء متحرك يطلب العلو ، والترابُ جسم مظلم ساكن يطلب السُّفْل. وكان هذا منه قياساً خطأً ، لأن السجود لم يكن للجسد الترابي ، بل لتلك الروح الشريفة ، لأن الإنسان إنما يأكل ويشرب وينام من أجل الجسد ، ويتحرك ويُحس ويتكلم ويعلم بالنفس الشريفة التي من أمر الله .

ثم اعلم أن العلم غِذاء للنفس وحياة لها ، كما أن الطعام وجميع المتناوَلات غذاء وشراب للجسد وحياة له .

ثم اعلم أن العلم بالأشياء ، بعضُه طبيعي غريزي مثلُ ما يُدرَك بالحواس ، ومثل ما في أوائل العقول؛ وبعضُه تعليمي مكتسَب مثل الرياضات والآداب، وما يأتي به الناموس. فمن الناس من لا يرغب في التعلم والتأدب، بل يتكل على ما تدركه الحواس أو ما في قرائح العقول. ومنهم من يرغب في التعلم والتأدب، لكن من الناس من لا يقبل من العلم إلاَّ ما يتَصوَّر في نفسه أو يقوم عليه بُرهان هندسي أو مَنطِقي . ومنهم طائفة لا تقبل إلاَّ ما يَدُل عليه قول الشاعر؛ وطائفة لا تقبل إلا برواية وخبر. ومنهم طائفة لا تقبل إلاَّ بالاحتجاج والجدل . ومنهم من يرضى بالتقليد ويقنع بذلك .

وينبغي لنا أن نبين مبلغ قوة الإنسان في إدراك المعلومات والمحسوسات إلى أي نهاية ، وهي جُهده وطاقته في معرفة حقائق الأشياء ، وإلى أي حد ينتهي . لأن في الناس طائفة من العقلاء لما تفكروا في حدوث العالم ، وبحثوا عن العلة المُوجبة لكونه، بعد أن لم يكن ، لم يعرفوها ولم يتصوروا في عقولهم بَدء كون العالم ، فدعاهم جهلهم عند ذلك إلى القول بقِدَم العالم . ومنهم من لاح له شيء غير ما لاح للآخر، فاختلفت أقاويلهم في حدوث العالم والعلة الموجبة لكونه ، بحسب ما لاح لواحد واحد . ونحن قد بيّنا في رسالة لنا في المبادىء ما تلك العلة ، فاعرِفْها من هناك .

فصل

ثم اعلم أن من تفكر في كيفية حدوث العالم وعلة حدوثه بعد أن لم يكن ، ويريد أن يعرفها أو يتصور كيف كان ذلك ، وهو جاهل لا يعرف كيفية تركيب جسده ، ولا يتفكر في بنية هيكله ، ولا يدري كيف كان بدء كون ذاته ، ولا يعلم ماهيّة جوهر نفسه ، ولا كيفية ارتباطها بجسده ، ولا لأي علة رُبطت به بعد أن لم تكن مربوطة ، ولا لأي علة تفارق الجسد في آخر العمر عند انقضاء الأجل ، ولا تدري أين تذهب إذا فارقت الجسد ، ولا من أين جاءت قبل ذلك ؛ هو يريد أن يعرف بدء كون العالم وكيفية حدوثه ، وما تلك العلة الموجبة لكونه مع جهله بما ذكرنا من هذه الأشياء التي هي أقرب إلى فهمه ، وأسهل لتعليمه ، وأمكن لتصوّره ، فمثله كمثل رجل لا يُطيق حمل مائة رطل ، فهو يتكلف حمل ألف رطل ، أو كمثل من لا يقدر على المشي ، وهو يريد أن يعدو ، أو من لا يُبصر يده إذا أخرجها ، وهو يريد أن يرى ما وراء الحُجُب .

ثم اعلم أنه إذا اعتُبر أحوالُ الإنسان ومجاري أموره من ذلك ، وحالُ جُثته ، فإنه متوسط بين الصِّغَر والكِبَر ، فلا صغير جدّاً ولا كبير مفرطاً ، فهكذا حال بقائه فهو لا طويل العمر في الدنيا ، ولا قصير المدة فيها . وهكذا حال وجوده ، فلا هو متقدم الوجود على الأشياء ، ولا متأخر عنها ، لأن من الموجودات ما هو أقدم وجوداً منه كالأركان والأفلاك ، ومنها ما هو متأخر الوجود عنه كالموجودات الصناعية .

وهكذا حال مكانه متوسّط ، فلا هو من الطرَف الأقصى من العالم ، ولا هو في المركز سَواء .

وهكذا حال رُتبته في الشرف والدّناءة متوسّط ، لأن من الموجودات ما هو أشرف منه كالملائكة المقرّبين ، ومنها ما هو أدون منه كالبهائم .

وهكذا حاله في القوة والضعف متوسط ، فلا هو قوي متين ، ولا ضعيف

متهين ، لان من الحيوانات ما هو أقوى منه كالأسد ، ومنها ما هو أضعف منه كالحيوانات الصغار .

وهكذا حاله في الجهل والعلم متوسط ، فلا هو راسخ في العلم كالملائكة ، ولا هو جاهل مُهمَل كالبهائم .

وهكذا حال معلوماته متوسط المقدار بين الطرفين . وذلك أن الإنسان غير مُحيط بالأشياء المُفرطة الكثيرة كتَضاعُف العدد الكثير ، وهو مُدرك للأشياء القليلة كالجزء الذي لا يتجزأ الذي هو في جِذر العَشرة وما شاكله .

وهكذا حال قدرته على الموزونات ، فإنه لا يمكنه وزنها إلاَّ المتوسّطَ منها بين الثقيل المفرط الثّقَل كالجبال ، وبين الخفيف النزر الخفة كالذرة .

وهكذا حال قدرته على مساحة الأبعاد والمقادير ، لا يقدر على مساحة إلاَّ المتوسّطَ منها بين الواسع المفرط السّعة كالبراري والبحار ، وبين الضيق اللطيف كجرم الإبرة وجرم الخردلة .

وهكذا حال قوة حواسّه على إدراك المحسوسات ، فلا يُحس منها إلاَّ المتوسّطات بين الطرَفين . وذلك أن القوة الباصرة لا تقوى على إدراك الألوان في الظلمة الظّلماء ، ولا على إدراكها في النور الباهر كالنّظر إلى عين الشمس في نصف النهار في يوم الصيف .

وهكذا قوة السمع لا تُطيق استماع الصاعقة لشدتها وجلالتها ، ولا تقوى أيضاً على إدراك دبيب النملة لخفائها وخمولها .

وهكذا القوّة الذائقة والقوة الشامّة والقوة اللامسة لا تقوى على إدراك محسوساتها إلاَّ المتوسطات منها ، وذلك أن الحرّ المفرط والبرد المفرط يُفسدان المِزاج ويخرجانه عن الاعتدال .

وهكذا الطّعم المفرط ، وهكذا الرائحة المفرطة يفسدان آلات الحواس ، ويغيران المِزاج والاحساس ، وهذا يكون من اعتدال المِزاج . وقد بينّا في رسالة لنا كيفية إدراك الحواس لمحسوساتها واحداً واحدا ، فاعرفه من هناك .

وهكذا قوة علم الإنسان ومعرفته بالأمور الماضية وأخبار الماضين مع الزمان البعيد ، لا يمكنه علمها إلا ما قَرُبَ كَونه من زمانه ، مثل معرفتنا بآبائنا وأجدادنا القريبين منا ، ومثل علمنا بأخبار بني إسرائيل ، وما كان بعد الطوفان أو قبل ذلك إلى آدم ، عليه السلام . فأما ما كان قبل آدم ، عليه السلام ، من أخبار الملائكة وقصة الجان الذين كانوا يُفسدون في الأرض قبل خلق آدم ، عليه السلام ، فليس للبشر علم بها ولا لهم ميل إلى معرفتها ، إلا من طريق الوحي عن الملائكة تسليماً .

وهكذا علم الإنسان بالأمور الآتية في الزمان المستقبل ، لا يمكنه معرفتها والاستدلال على كونها بدلائل النجوم ، إلا ما يكون قريب الكون مثل استدلال المنجّمين بالقرانات التي تكون في كل عشرين سنة مرةً ، وفي كل مائتين وأربعين سنة مرة ، وفي كل تسعمائة وستين سنة مرة . وأما القِرانات التي تكون في كل ثلاثة آلاف وثمانمائة وأربعين سنة مرةً ، وفي كل سبعة آلاف سنة ، فليس على معرفة الاستدلال بها على الكائنات سبيل لبعدها من الزمان المستقبل .

وهكذا قوة عقل الإنسان متوسطة لا يقوى على تصور الأشياء المعقولة ، إلا ما كان متوسطاً بين الطرفين من الجلالة والخفاء . وذلك أن من الأشياء المعقولة ما لا يمكن عقل الإنسان إدراكه وإحاطة العلم به لجلالته وشدة ظهوره وبيانه ووضوحه ، مثل جلالة الباري ، عز وجل ، فإنه لا يقوى عقلُ الإنسان على إدراكه وإحاطة العلم بماهيّة ذات جلالته ، وشدة ظهوره ، ووضوح بيانه ، لا لخفاء ذاته وشدة كتمانه . ومثل عجز الإنسان عن تصوّر صورة العالم بكليته ، لشدة كِبَره وظهوره ، لا لصِغَره وخفائه . ومثل عجزه أيضاً عن إدراك الصُّوَر المجرّدة عن الهَيُولى لشدة صفائها ولطافتها ونفوذها في الأشياء .

ومن الأشياء ما لا يمكن إدراكها وتصوّرها لخفائها ودِقّتها وصِغَرها مثل الجُزْء الذي لا يتجزأ ، ومثل الهَيُولى الأولى المجرّدة من الصُّوَرِ والكيفيات ،

ومثل عجزه أيضاً عن معرفة كيفية تصوير الجنين في الرحم ، وخلقة الفرخ في جوف البيضة ، والحب في الغُلُف ، والثمر في الأكمام .

ثم اعلم أن هذه الأشياء التي تُدرَك حساً مفروغٌ من صَنعتها ، فأما في وقت تكوينها فالحِس لا يدركها والوهم لا يتصوّرها . فمن يريد أن يعلم كيفية حدوث العالم وعِلّةَ كونه ، فينبغي أن يتفكر أولاً في هذه الأشياء ، فيعلمها ويتصوّر كيفية حدوثها ، ثم بعد ذلك يتفكر في كيفية حدوث العالم وعلة كونه . فمن ادعى أنه يعرف ذلك ، فليخبرنا عن صورة العالم كيف هي على ما هي عليه الآن ، لأن حواسه هي تُباشِرها وتشاهدها ، ودع ما كان مضى مع الزمان الماضي لنسيانه عن ذلك ، أو الذي يكون في الزمان المستقبل كيف يكون . أو فليُخبِرنا عن عِلة كثرة الكواكب ، وعلة أبعادها ومقاديرها وأعظامها وحركاتها ، وما هي عليه الآن ، وما العلّةُ في ذلك . أو فليُخبِرنا عن المجَرّة وما هي ، فإنا لم نجد إلى وقتنا هذا أحداً من الحكماء قد قال فيها قولاً مَرضِيّاً ، أو فليُخبِرنا عن شيء واحد وهو الأثر الذي نراه في وجه القمر ما هو، والناس يشاهدونه دائماً، ودع ما لا يشاهدونه من كون العالم . أو فليُخبِرنا عن عِلة اختلاف أجناس المعادن ، وأشكال الناس ، وهياكل الحيوان بما هي عليه الآن ، وما العِلةُ في ذلك .

فصل

ثم اعلم أنه ليس إلى معرفة عِلل هذه الأشياء وصولٌ إلاّ أن تؤخذ من الأنبياء ، عليهم السلام ، تقليداً كما أخذوها عن الملائكة تسليماً .

ثم اعلم أن نِسبة علم البشر إلى علم الملائكة ومعرفتهم ، كنسبة علم حيوان البحر إلى حيوان البر ومعرفتها بأمورها ، وكعلم حيوان البر إلى علم البشر ومعرفته بأمورها. وذلك أن حيوان الماء لها حس وحركة وتمييز تتصرف فيها

من طلب غذائها ومصالحها ومنافعها والهرب من عدوها وعرفانها ذُكرانها وإناثها وأبناء جنسها . فأما احساسها بأحوال حيوان البر ومعرفتها بأمورها ، فليس لها إلى معرفة ذلك إلاّ شيء يسير .

وهكذا علم حيوان البر بأحوال البشر ومعرفتها بأمور الناس ، فليس لها إلاّ شيء يسير .

وهكذا علم البشر بأحوال الملائكة ، ومعرفتهم بأمور الذين في فضاء الأفلاك وطبقات السموات ، فليس لهم بها علم إلاّ شيء يسير .

وهكذا أحوال الملائكة في مراتبها ومقاماتها متفاوتة متباينة ، الأوّلُ فالأوّلُ ، والأشرفُ فالأشرفُ ، وفوق كل ذي علم عليم ، وإلى ربك المنتهى كما أخبر ، عزّ وجل ، عن أحوال الملائكة في مراتبها ومقاماتها فقال تعالى : « قل هو نبأٌ عظيم أنتم عنه معرضون ما كان لي علم بالملإ الأعلى إذ يختصمون » وقال في حكاية عن الملائكة: « وما منا إلاّ له مقام معلوم وإنا لنحن الصافّون وإنا لنحن المسبّحون» وقال : «لا يعلم جنود ربك إلاّ هو وما هي إلاّ ذكرى للبشر » يعني أجناس الملائكة وقبائل الجن والإنس والحيوانات أجمع .

ثم اعلم أن علم جميع الخلائق بالنسبة إلى علم الله تعالى ليس إلاّ كالجزء اليسير ، كما قال تعالى : « ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعد سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله » يعني علم الله ، قال : « ولا يحيطون بشيء من علمه إلاّ بما شاء » . ونحن قد جعلنا هذه الرسالة تنبيهاً لإخواننا على نهاية مبلغ طاقة الإنسان في العلوم والمعارف، وتوبيخاً لأقوام جُهّال يعارضون العلماء بالكلام والجدال ، ويسألونهم عن عِلل أشياء ليس في طاقة الإنسان معرفتُها، وهم قد تركوا البحث عن أشياء واجبٌ عليهم تعلّمها والبحثُ عنها، ثم لا يسألون عنها ولا يتفكرون فيها لجهلهم .

فصل

اعلم أنه ليس من علم ولا عمل ولا تجارة إلاّ وبين أهلها فيها منازعة وخُلف. فمن ذلك الخُلفُ الذي بين العلماء في حدوث العالم وقدمه ، وهما طائفتان : الفلسفية والشريعة . فالأنبياء، عليهم السلام ، كلهم يرون ويعتقدون أن عالم الأجسام مُحدَث لا شك فيه . وهكذا يرى بعضُ الفلاسفة الفضلاء الراسخون في العلم. فأما المتفلسفة الناقصون فشاكّون فيما يقولون، متحيرون فيما يزعُمون من قِدَم العالم .

وهكذا حكم كثير من أتباع الأنبياء ، عليهم السلام ، والمقرّين بما خبرت به ، فإنهم شاكّون أيضاً فيما يقلّدون، ومتحيّرون فيما يعتقدون. وأُعيذُكِ، أيها الأخ الفاضل ، بالله أن تكون منهم ، لأن ما مثَلهم في هذه الرسالة وما يختلفون فيها إلاّ كمثل أولئك الصبيان الأغبياء البُله الجُهلاء . وذلك أنه كان رجل حكيم له أولاد صغار ، وكان فيهم جماعة أذكياء فُهماء نُجَباء ، وكان فيهم جماعة أغبياء بُله جهلاء ، فنظر أولئك الأخوة يوماً في بعض خزائن أبيهم ، فوجدوها مملوءة بالحلاوة ، مختلفة الطعام والألوان والروائح والأشكال ، فتأمّلوها وفكروا فيها، فوقع في أفكارهم أن قالوا: ألا تُرى من عَمِل هذه العجائب ، وصَوّر هذه الأشكال ، ومن صنع هذه الألوان ؟

فمن كان منهم ذكيّاً فهيماً مُدركاً نجيباً ، علم أنه عمل صانع حكيم . ومن كان منهم غبيّاً أبله ساهياً ، خفي عليه ذلك وانغلق .

ثم تفكر الذين علموا أنه صَنعة الحكيم: أتُرى من أي شيء عملها، وبأي شيء صوّرها ؟

فمن كان منهم أذكى وأفهم ، علم أنه من شيء آخر عملها . ومن كان دونهم في الفهم والذكاء خفي عليه ذلك .

ثم تفكر الذين علموا أنه من أي شيء عملها : تُرى كيف عملها ، ولِمَ

صوّرها بهذه الأشكال ؟

فمن كان منهم أذكى وأفهم وأنجب ، عقَلَ ذلك وتصوّرها ، وتحقق واستغنى عن سؤال لِمَ وكيف . ومن كان منهم دون ذلك في المرتبة خفي عليه وقَصُر فهمه عنه وتوقف يتفكر ويتروّى في ذلك .

ثم عند ذلك سألوا أخوة لهم بالِغين عاقلين عن هذه الحلاوة ، فأجابوا أنها عملها الحلواني . فقالوا : من الحلواني ؟

فقالوا : صانع حكيم . فمنهم من فهم وعقل وصدّقهم . ومنهم من خفي عليه لغباوته ، فكذّب وأنكر ، إذ لم يرَ الحلواني قبل ذلك ، ولا سمع بذكره .

ثم سأل أولئك الأخوة الصغار إخوانهم الكبار البالغين العقلاء : أتُرى من أي شيء عمِل الحَلواني هذه العجائب ؟ فأجابوهم أنه عمِلها من السُّكّر والدُّهن والنَّشاء .

فمنهم من صدّقهم إذ كان موفّقاً هادئاً مؤيداً رشيداً . ومنهم من كذّب وأنكر ، إذ لم يروا هذه الأشياء عياناً ، ولم يعرفوها عقلاً .

ثم قالوا : أرُونا منها شيئاً .

فقالوا لهم : لم يُبقِ الصانعُ منها شيئاً بل استعملها كلها .

فمنهم من كان موفقاً فصدقهم ، ومنهم من كذّب وأنكر ولم يُرشَد .

ثم إنهم سألوهم : كيف عمِل الحَلواني هذه ؟ قالوا : بنى الدبكدان ، وأوقد النار ، ونصب الطّنْجير [1] ، وصبّ فيه الدُّهن ، وطرح فيه السكر ، وحرّكها بإسطام [2] ، وعقَدها بالنَّشاء .

---

١ الطنجير : وعاء يعمل فيه الحلواء كالخبيص .

٢ الاسطام : المسعار ، وهو حديدة تحرك بها النار

فمن كان منهم أذكى فهماً تصوّره بجودة ذكائه وحسن رويّته ، وفريحة قلبه ، وصفاء جوهر نفسه ، وضياء نور عقله . ومنهم من عَميت عليه الأنباء، إذ لم يكن له ذكاء ، ولا لقلبه صفاء ، ولا لنور عقله ضياء .

ثم إن أولئك الأخوة اختلفوا فيا بينهم ، وصاروا فِرَقاً يتجادلون فيا بينهم في هذه المسألة ، ويتنازعون ويتخاصمون وشبّت بينهم نيران الفتنة والبغضاء .

ثم إن والدهم الشفيق رثى لهم ورحمهم لما رأى ما وقعوا فيه من المِحنة والبَلوى ، وأمر بعض إخوانهم العقلاء المُستبصِرين أن يكونوا قضاة وعُدولاً بينهم ، ويقضوا الحُكم بأرفق ما يقدرون عليه . فقال لهم : إذا سألكم أخوتكم وتحاكموا إليكم فيا يختلفون فيه ، فأرشدوهم ودلّوهم على ذلك . فكان من جواب أولئك الأخوة القضاة ، إذا سئلوا عن عمل هذه الحلاوات ، أجابوا أخوتهم بأنها من عمل أبيهم ، فسكنت نفوس أولئك الأخوة الصغار الى قولهم ، لأن معرفتهم بأبيهم أقربُ إلى فهمهم من معرفتهم بالحلواني .

وإذا سألوهم: من أي شيء عُمِل ؟ قالوا : لا من شيء تعرفونه ، فسكنت نفوسهم إلى قولهم أكثر من سكونهم الى قول من أجاب أنه عُمِل من السُّكّر والشيرج والنشاء ، لأن الصبيان قد تبيّن لهم بأن أشياء كثيرة ما رأوها بعد ولا عرفوها .

وإذا سألوهم: كيف عملها وكيف صوّرها ؟ قالوا : كما شاء وكيف شاء. وكانت هذه الجوابات أسكن لنفوسهم من قول من يُطوّل فيه الخَطبَ ، وقال كيت وكيت وفعلَ وصنَع .

فهذا مثل اختلاف العلماء في حدوث العالم وقِدَمه ، والسائلين لهم واخوتهم المجيبين عنه . فمثل العالم بما فيه من العجائب وطرق أجناس الموجودات وغرائبه وصنوف صنائع المصنوعات ، كمثل تلك الخزانة المملوءة من الحلاوة . ومثل السائلين عن حدوث العالم وكيفية صنعته وعن هَيُولاه

وصنائعها ، كمثل سؤال أولئك الأخوة الصغار الضعفاء العقول القليلي الفهم . ومثلُ أولئك الأخوة العقلاء الذين سُئِلوا فأجابوا بشرح طويل ، فأوقعوا الخُلف بين الأخوة ، كمثل الفلاسفة في أجوبتهم عن كيفية حدوث العالم والهيُولى والصورة والعنصر والطبيعة وما شاكلها من الألفاظ الغريبة المعاني البعيدة التصور . ومثل أولئك الأخوة القضاة والعُدول في أجوبتهم ، كمثل الأنبياء ، عليهم السلام ، وخلفائهم. ومثل ذلك الأب الشفوق الرحيم هو الباري تعالى باعث الأنبياء ، عليهم السلام ، ليكونوا قضاة بين خلقه في ما يختلفون فيه من هذه المسائل ويجيبوهم بحسب ما يليق بعقولهم ومَبلغ فهمهم .

فصل

ثم اعلم أنّا قد أخبرنا عن علة حدوث العالم ، وبيّنا كيفية صَنعته وماهيّة هَيُولاه وصورته في المبادىء العقلية مثل ما ذكر القُدماء الفضلاء الموحّدون منهم القائلون بحدوث العالم. ولكن يحتاج الناظر فيها والسائل عن هذه المسائل أن تكون له نفس زكية، وفهم دقيق، وقوّةٌ رويّة، وجودة تصوُّر روحانية كي يفهمها . فمن لم يفهم ما وصفنا ، فينبغي له أن يقنع بما قالت الفلاسفة إن العالم معلول وعلته الباري . وربما قالت الأنبياء بأجمعها ، عليهم السلام ، إن العالم بأسره مخلوق وإن الله ، عزّ وجلّ ، هو خالقه ومبدعه ومخترعه .

فإن لم يعقل ما قالت الفلاسفة وما أخبرت عنه الأنبياء ، عليهم السلام ، ولم يثق بقولهم، ولم تسكن نفسه إلى حُكمهم، ولم يطمئن إلى قولهم، ويتكل على ما تخيّلهُ القوّة الوهميّة ، فلا ينبغي له أيضاً أن يثق بحكمها ، ولا أن يسكن إلى تخيُّلها ، لأنه تخيُّلٌ ما له حقيقة ، وما لا حقيقة له فلا يوثق به ولا يُحكم بصحته ، كما لا يوثق ولا يُحكَم بصحة القوّة الباصرة ، إذا أرتك لون شيء من الطعام بأن تحكُم على حقيقته إلاّ بعد أن تستعين بالقوّة الشامّة. فإن عرفتَ حقيقته ، وإلاّ استعنت بالقوّة الذائقة .

فهكذا ينبغي لك يا أخي إذا شككتَ في مسألة مُشكلة أن لا تثق بنفسك دون أن تستشير فيها إخوانك الكرام الفضلاء ، كما تستعين في أمور الدنيا ، إذا لم تنهض بشيء منها ، بإخوانك وجيرانك وأصدقائك الفضلاء الكرام . فهكذا يجب أن تكون سيرتك في أمر الدين وطلب الآخرة . وفّقكَ الله أيها الأخ للسداد ، وهداك إلى سبيل الرشاد وجميع إخواننا حيث كانوا في البلاد .

فصل

ثم اعلم أن الحكماء الأولين قد تكلمت في فنون من العلوم ، وضُروب من الآداب ، وغرائِبَ من الحِكَم كثيرة لا يحصي عددها إلاّ الله الواحد القهار . فمنها من تكلم في تركيب الأفلاك وأحكام النجوم . وتكلّموا أيضاً في الطب والطبائع والكائنات التي تحت فلك القمر . وقومٌ من العلماء الشرعيين ينكرون أكثره ، إما لقصور فهمهم عما وصَف القوم ، أو لتركهم النظر فيها ، واشتغالهم بعلم الشرع وأحكامه أو لعناد بينهما . وكذلك أيضاً ان أكثر من ينظر في العلوم الحِكمية ، من المبتدئين فيها والمتوسطين من بينهم ، يتهاونون بأمر الناموس وأحكام الشريعة ويُزرُون بأهله ، ويأنفون من الدخول تحت أحكامه ، إلا خوفاً وكرهاً من قوة الملك الذي هو أخو النبوّة . كل ذلك لقصور فهم الفريقين جميعاً عن معرفة حقائق هذه الأشياء المذكورة ، ولقلة علمهم أيضاً بماهيّات الكائنات .

ولما كان مذهب إخواننا الفُضلاء الكرام النظر فيها جميعاً ، والكشف عن حقائق أشيائها ، أعني العلوم الحكمية والنبوية جميعاً ، وكان هذا العلم بحراً واسعاً ومَيداناً طويلاً ، احتجنا أن نتكلم في ما دعت الضّرورة إلى عمل هذه الرسائل التي هي إحدى عشرة وخمسون رسالة ، والكلامِ فيها بأوجز ما يمكن ،

وإيراد النكَت التي هي اللُّب ، ولا يُفهم ذلك إلا بأمثال تُضرَب ، ليَقرُب من فهم المبتدي النظرُ في العلوم ، ويَسهُلَ تصوُّر الحقائق للمتأملين .

ثم اعلم أن العلوم الحكميَّة والشريعة النبوية كلاهما أمران إلهيّان يتفقان في الغرض المقصود منهما الذي هو الأصل ، ويختلفان في الفروع . وذلك أن الغرض الأقصى من الفلسفة هو ما قيل إنها التشبه بالإله بحسب طاقة البشر ، كما بيَّنا في رسائلنا أجمع . وعِمدتها أربع خصال : أولاها معرفة حقائق الموجودات ، والثانية اعتقاد الآراء الصحيحة ، والثالثة التخلُّق بالأخلاق الجميلة والسجايا الحميدة ، والرابعة الأعمال الزكية والأفعال الحسنة .

والغرض من هذه الخصال هو تهذيب النفس والترقّي من حال النّقص إلى التمام ، والخروج من حدّ القوة إلى الفعل بالظهور ، لتَنال بذلك البقاء والدوام والخلود في النّعَم مع أبناء جنسها مع الملائكة .

وهكذا الغرض من النُّبوة والناموس هو تهذيب النفس الإنسانية وإصلاحُها وتخليصها من جَهنم عالم الكون والفساد ، وإيصالها إلى الجنة ونعيم أهلها في فُسحة عالم الأفلاك وسَعة السموات ، والتّنسُّم من ذلك الرَّوْح والريحان المذكور في القرآن . فهذا هو المقصود من العلوم الحكمية والشريعة النبوية جميعاً .

وأما اختلافهما في الطرق المؤدّية إليها فمن أجل الطبائع المختلفة والأعراض المتغايرة التي عرضت للنفوس ، وبذلك اختلفت موضوعات النواميس ، وسُنن الديانات ، ومفروضات الشرائع ، كما اختلفت عقاقير الأطباء وعلاجاتها ، بحسب اختلاف الأمراض العارضة للأجساد من الآلام والأوجاع ، وبحسب اختلاف الأزمنة والأمكنة .

ومثال آخر في اختلاف سُنن الديانات النبوية والفلسفية جميعاً ، وفنون مفروضات النواميس ، والمقصدُ واحد ، كاختلاف طُرُقات القاصِدين نحو

بيت الله الحرام ، وتوجُّهِهم شَطرَه بحسب مواضع بُلدانهم ومَراحلهم ومَرافِقِهم من البيت شرقاً وغرباً وجَنوباً وشمالاً كما بينّا في رسالة جغرافيا .

فصل

ثم اعلم أن الموجودات كلَّها نوعان : كلية وجزئية . فالموجوداتُ الكليةُ الدائمةُ الوجودِ والبقاء ، لأنها ابتدأت في الترتيب من أشرفها وأتمّها إلى أدْوَنها وأنقصها كما بيّنّا في رسالة المبادىء العقلية .

والموجوداتُ الجُزْويات دائمة في الكون ، متوجهةٌ نحو التام ، لأنها تبتدىء بالكون من أنقص الوجود متوجّهة إلى أتم الوجود ، ومن أدون الأحوال مترقيةً إلى أشرفها وأتمها .

ثم اعلم أن الإنسان هو من الأمور الجُزويّة ، وهو مجموع من جوهرين، أحدهُما هذا الجسد الجسماني ، والآخر هو النفس الروحانية . فأنقص حالات جسده ابتداؤه من النُّطفة متوجّهاً إلى أن يصير رجلاً جَلْداً. وأنقص حالات نفسه وأدْونُها أن تكون ساذجة لا تعلم شيئاً كما قال الله تعالى : « والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً » . وأتمُّ حالاتها أن تُخرِج كل ما في قوتها من الفضائل إلى الفعل ، وهو أن يصير الإنسان مؤمناً حقّاً عالماً ربّانيّاً حكيماً فيلسوفاً مُحقّقاً كما قال تعالى : « وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم » وقال : « علّم الإنسان ما لم يعلم » وقال : « كونوا ربانيين ».

ثم اعلم أن كل عمل مُتقَن فمن صانع حكيم في أوّلية العقل . وكل فاعل حكيم فله في فعله غرض ما . والغرضُ هو غاية يَسبُق إليها وَهمُ النفس . وإذا بلغ الفاعل إلى الغاية قطع الفعل .

ثم اعلم أن دوران الأفلاك فعل مُتقَنٌ ، ففاعله إذاً حكيم ، فله إذاً في إدارة الأفلاك غَرَضٌ ما . فإن كان قد بلغ إلى غرضه ، فسبيله أن يقطع

الفعل ليقف الفلك عن الدوران .

فأمّا الأجسام فإن أفضلها ما كان يظهر عنه أفضل فعلٍ ، وأجلّ النفوسِ ما بدا منها العلم وزال عنها الجهل .

ثم اعلم أن ألذّ ما يأكل الإنسان هو العسل ، وأنعمُ ما يَلبَسُ هو الإبريسَم . فإن كان الفاعل لهما هي الدودة والزّنابير ، فإذاً أصغرُ الأجسام أكرمُها فعلاً . وقد قام البرهان بأن الجسم لا فعلَ له البتّةَ .

ولا يخفى عليك بأن الزرع والشجر في إخراج الحَبّ والثمر ، وغايتهما الحَصادُ ، وتمام الغرض منهما بعد ذلك تمامُ الحيوان في الإدراك ، وغايته النتاجُ ، وحَصادُه وصَرامُه الموت .

فالغرض من الحيوان إذاً بعد الموت كذلك الحَبّ إذا لم يتمّ ولمْ يستحكم قبل حَصاد الزرع ، لا يُنتفَع به بعد الحصاد . كذلك الثمر إذا لم ينضَج وينعقد قبل إخراجه ، لم يُنتفَع فيما يراد منه .

وهكذا حكم النفس الإنسانية ، إذا هي لم تتمّ بالمعارف الحقيقية صُورتها ، ولم تستتمّ بالأخلاق الجميلة جوهرَها ، ولا بالآراء الصحيحة عقلها ، ولا بالأعمال الزكية ذاتها في الدنيا ، لا تنتفع بعد مفارقة الجسد بحياتها ، ولا تستقلّ بذاتها ، ولا تلتذ بالنعيم في الآخرة على التمام والكمال ، كما أن الجنين إذا لم تَستتمّ في الرَّحِم خلقته ، ولم تَستكمَل هناك صورته ، لا يَنتفع بالحياة في الدنيا .

فهكذا حكم النفس لأن موت الجسد ولادةُ النفس، كما أن الطَّلْق ولادة الجنين ؛ فانتبه أيها الأخ من نوم الغفلة ورقدة الجهالة ، فإن الغرض في ذلك أن تصير مَلَكاً بالفعل ، فاجتهد غاية الجَهد ، وقَوّ ظهرك بالحبل المتين ، واعتصم بحبل الله « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين.» واجتهد أن تتوجه نحو الصّراط المستقيم ، إذ ذلك أقربُ طرُق من الخط المعوجّ إلى الغرض الأقصى ، لتنال بذلك السعادة وبقاء الأبد ، وتتلذذ بلذات

النعيم من الرَّوح والريحان ، والحُور والغلمان . وفقك الله وإيانا وجميع إخواننا للسَّداد ، إنه رؤوف بالعباد ، وبحق محمد وآله الأمجاد ، صلواتُ الله عليهم إلى يوم التّناد .

تمت الرسالة في بيان طاقة الإنسان ،

ويتلوها رسالة حكمة الموت والحياة .

الرسالة الخامسة عشرة
من الجسمانيات الطبيعيات
في حكمة الموت والحياة

(وهي الرسالة التاسعة والعشرون من رسائل إخوان الصفاء)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وسلامٌ على عِباده الذين اصطفى ، آللهُ خيرٌ أمّا يُشرِكون ؟

فصل

اعلم أيها الأخ البارّ الرحيم ، أيدك الله وإيانا بروح منه ، أنه لما فرغنا من بيان طاقة الإنسان في المعارف إلى أي حدّ تنتهي ، وبينّا الغرض من النواميس الشرعية النبوية والعلوم الحِكمية الحقيقية ، وهو تهذيب النفس فحسب ، واستدعاء الخلق إلى الله تعالى ، فنريد أن نذكر في هذه الرسالة ماهيّة حكمة الموت والحياة ، وما الحكمة في وجودهما ، فنقول : اعلم أن افتتاح جميع العلوم الحقيقية هو في معرفة الإنسان نفسه . ولما كان الإنسان هو جملة مجموعة من جوهرين متباينين وأعراضٍ تَحلهما ، أحدُهما هذا الجسد الجسماني ، والآخر هو النفس الروحانية ، كما بينّا في الرسالة التي ذكرنا فيها أن الإنسان عالَم صغير؛ وكان جوهر النفس أشرف من جوهر الجسد ،

صار علم الإنسان بجوهر النفس وأحوالها أشرف من علمه بجوهر الجسم وأحواله . وقد بيّنّا ماهيّة الجسم وصفاته المخصوصة به في رسالة الهَيُولى ورسالة الحاسّ والمحسوس ، ونريد أن نتكلم هاهنا في علم النفس وأحوالها فنقول :

لما كان علم الإنسان ومَباحِثُه بالمعلومات من تسعة أوجه ، كما بيّنّا في رسالة الصنائع العلمية ، وهي : هل هو ، وما هو ، وكيف هو ، وكم هو ، وأين هو ، ومتى هو ، ولم هو ، ومن هو ، كما بيّنّا ذلك في رسالة قاطيغورياس

ثم نريد أن نذكر من هذه المباحث في أمر النفس الجُزْئية الإنسانية طرَفاً فنقول : ما هي ، وكيف هي ، وكم هي ، مع هذا الجسد ، وأين كانت قبل رباطها ، وكيف تكون حالها اذا فارقته ، ولم رُبطت بالجسم ، وما الغرض في ذلك ؟

واعلم أنه قد بيّنّا ماهيّتها في رسالة العقل والمعقولات ، وكميّتها في رسالة العالَم إنسان كبير ، وأين كانت النفس الجزئية قبل رِباطها بالأجساد في رسالة مَسقَط النُّطفة ، وأين تكون إذا فارقت الجسد في رسالة البعث والقيامة ، ونريد أن نذكر في هذه الرسالة الملقّبة بحكمة الموت كيف كونها مع الجسد ، ولم رُبِطت بالجسم ولِمَ تُفارِقُه ؟

ولما كانت الأنفس الجزئية قوى منبثّة من النفس الكلية في الأجسام الجزئية التي تحت فلك القمر ، احتَجنا أن نذكر أولاً النفس الكلية التي هي نفس العالم بأسره ، ولِمَ رُبطت بالجسم الكلي الذي هو جملة العالم من أقصى فلك المحيط الى منتهى مركز الأرض بعون الله تعالى .

فصل

في غرض رباط النفس الكلية بالجسم الكلي حسب ما تبين هاهنا

فنقول : إنه لما كانت الموجودات كلّها مرتّبة بعضُها تحت بعض ، متعلّقة في الوجود بالعلة الأُولى الذي هو الباري تعالى كتعلّق العدد وترتيبه عن الواحد الذي قبل الاثنين ، كما بيّنا في رسالة المبادىء العقلية ، وكانت النفس أحد الموجودات ، وكانت مرتبتها دون العقل وفوق الجسم المطلق ، وكان الجسم فارغاً من الأشكال والصور والنقوش والحياة ، قابلًا لها بالطبع ؛ وكانت النفس حيّة بالذات ، علّامة بالقوة ، فعّالة بالطبع ، ولم يكن من الحكمة الإلهية والعناية الرّبانية أن تُترك النفسُ فارغةً غير مشغولة بضرب من الحكمة ، وأن يكون الجسم ، مع قَبُوله للتمام ، عاطلًا ناقص الحال ؛ ولم يكن للنفس أن تتحكم على الموجودات التي فوق رتبتها الذي هو العقل الفعال ، عطفَت النفس بواجب الحكمة على الجسم المُطلق ، إذ كان دونها في الرتبة ، فتحكمت فيه بالتحريك له والشكل والتصاوير والنقوش والأصباغ ، ليتِمّ الجسم بذلك ، وتكملَ النفس أيضاً بإخراج ما في قوّتها من الحكمة والصنائع إلى الفعل والظهور والإظهار ، تشبّهاً بحكمة الباري تعالى ، إذ لم يقتصر على علمه بالكائنات قبل كونها حتى أخرجها إلى الوجود بعد العدم ، ليَظهرَ الكلُّ للجزء ، ويشاهدَ الجزءُ الكلّ ويخرُج ما في القوّة من الحكمة والصنائع إلى الفعل والظهور .

فمن أجل هذا رُبطت النفس الكلية بالجسم الكلي المطلق الذي هو جملة العالم من أعلى فلك المحيط إلى منتهى مركز الأرض ، وهي سارية في جميع أفلاكه وأركانه ومولّداته ، ومُدبّرة لها ومُحركة بإذن الله تعالى وتقدّس .

فصل

في سريان النفس الكلية في الجسم الكلي

واعلم يا أخي ، أيدك الله وإيانا بروح منه ، أنه إذا فاضت قُوى النفس الكلية الفلكية في الجسم الكُلّي الذي هو جملة العالم الجسماني ، ابتدأت من أعلى فلك المحيط متوجهةً نحو مركز العالم ، وسرت في الأفلاك والكواكب والأركان الأربعة والأوقات الزمانية أولاً فأولاً ، حتى إذا بلغت إلى منتهى مركز العالم ، اجتمعت كلُّها هناك ، ويكون ذلك سبباً لكون الأجسام الجُزئية الكائنة الفاسدة التي دون فلك القمر ، وهي الحيوانات والنبات والمعادن، لأنها إذا علَت إلى أقصى مدى غاياتها الذي هو الغرض الأقصى بطول الزمان، وعطفت عند ذلك راجعة ، أعني تلك القُوى ، نحو المحيط ، فيكون سببَ بعث الانفس الجُزئية الإنسانية الكلية من الأجسام الفاضلة ، وهذا قولٌ مُجمَلٌ يحتاج أن نشرحه ونبيّن أيضاً أن الموت حكمة .

واعلم أن الحيوانات كلّها تكره الموت وتحب الحياة ، ولكن من أجل أن كثيراً من العقلاء يقولون إن الموت حق ، وفي ذلك حكمة ولا يدرون ما تلك الحكمة ، ويحتجّون بقوله تعالى : « هو الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً » ولا يدرون معنى قوله تعالى وما المرادُ في ذلك . ثم إنهم مع اقرارهم بذلك كلّهم يحبون الحياة ويكرهون الموت ، ثم يذمون الحياة عند تنغيص العيش ويتمنون الموت عند الشدائد ، احتجنا أن نبين ما الموتُ وما الحياة ، ولم يُكرَه الموتُ وتُحَبّ الحياة ، وما الحكمة في خلقتهما .

فصل في اعتبار الموت والحياة

فاعلم أنه إذا فكر العاقل العالِم في تركيب هذا الجسد وما هو عليه من إتقان البنية وإحكام الصنعة ، كما ذُكر في كتاب التشريح وكتاب منافع الأعضاء بشرح طويل من عجائب تأليف أعضائه ، وغرائب تركيبه ، وحسن هندام مفاصله ، وكيفية تشعُّب الأعصاب الممتدة على أعضائه وعظامه المؤتلفة عليها ، المتمكنة بمفاصلها ، المنتشرة إلى أطراف بدنه ، المنشأة منها الأوتاد اللينة الرقيقة للحس وللشعور ، وكيفيةِ تشعُّبِ العروق الواردة التي منشأُها من عُمق الكَبِد المنتشرة في خلل اللحم ، الموردة للدم الى أطراف البدن ؛ وكيفية تشعب العروق الضاربة التي منشأُها من القلب ، المنتشرة في عمق البدن ، الموصلة للنَّبْض إلى أطراف الجسد ؛ وكيفية طبقات بِنية بدنه بعضها فوق بعض ، كما بيَّنا في رسالة تركيب الجسد والأوعية المعدَّة للأغراض المختلفة ، لجر المنفعة أو لدفع المضرة ؛ وكيفية ابتدائه من النُّطفة وتتميمه في الرحم ونشوئه في أيام الصبا ، وتكميله في أيام الشباب ، وتنضيجه في أيام الكهولة ، فيرى أنه غاية الكمال والحكمة والصواب والإتقان .

ثم إذا تفكر في أيام الشيخوخة وفي ذهاب قوته وتغييرات رونقه وإدباره ونقصانه ثم هَدمِه بالموت وتغيّره بعد ذلك بالانتفاخ والنّتن وفساده ؛ ثم كيف يبلى في التراب ويضمحلّ ولا يعرف ما وجه الحكمة فيه ، فيتحير ويتشكك ويضلّ عن الصواب . فمن أجل هذا احتجنا أن نذكر في هذه الرسالة الموت والحياة ، ونبين ما الحكمة في خلقهما وكونهما .

واعلم أنه إذا فكر العاقل اللبيب في خِلقة الرَّحِم وحال المَشيمة[1] وكونِ الجنين من النُّطفة ، وكيفية ذلك المكان ، وما قد أُعِدّ هناك من المَرافق

---

[1] المشيمة : محل الولد تخرج معه عند الولادة .

والمَرافِق لتتميم الخلقة وتكميل الصورة ، فيراها في غاية الحكمة وإتقان الصنعة من الصواب ، وما يتعجب منه أولو الألباب .

ثم إذا فكر في حال الولادة، وكيف ينقلب في الرحم، وتنخرق المشيمة، وتنقطع تلك الأوتار ، وتسترخي تلك الرّباطات التي كانت تُمسك الجنين هناك ، وكيف يسيل الدم والرُّطوبات المُعَدّة التي كانت هناك لمرافقه ، وما تلقاه الوالدة من الجهد والشدة ، فإنه يرى شيئاً يُدهش العقل ويحيّر أُولي الأبصار والألباب .

ولكن لما كان من حال ما يُنقَل إليه الجنين من فُسحة هذا العالم وطيب نسيمه وإشراق أنواره ، وما يستأنف الطفل من العمل في مستقبل العمر من لذة العيش والتمتع بنعيم الدنيا ، وإذا قدّر ونجاه الله من ذلك المكان الضيق المُظلم الناقص الحال بالإضافة إلى أحوال هذه الدار من التصرف والتقلب ، فيرى أن الحكمة والصواب كان في الخروج من هناك .

فهكذا ينبغي لك يا أخي أن تعتبر لتعلم أن حال النفس مع الجسد كحال الجنين في الرحم ، وأن حالها بعد الموت كحال الطفل بعد الولادة ، لأن موت الجسد ولادة النفس ، وكذلك ولادة الطفل ليست شيئاً سوى خروجه من الرحم ، وكذلك ولادة النفس ليست هي شيئاً سوى مفارقة النفس إياه .

فصل في ماهية الحياة

فنقول: اعلم أن الموت والحياة نوعان: جسداني ونفساني، والحياة الجسدانية ليست شيئاً سوى استعمال النفس الجسد ، والموتُ الجسداني ليس شيئاً سوى تركها استعماله ، كما أن اليَقَظة ليست شيئاً سوى استعمال النفس الحواسّ ، وليس النوم شيئاً سوى تركه استعمالها .

فأما النفس فحياتها ذاتية لها ، وذلك أنها بجوهرها حيّة بالفعل ، علاّمة

بالقوّة ، فعّالة في الأجسام والأشكال والنقوش والصور طبعاً، وان موتها هو جَهالتها بجوهرها ، وغفلتها عن معرفة ذاتها ؛ وان ذلك عارضٌ لها من شدة استغراقها في بحر الهَيُولى ولبعد ذهابها في هاوية الأجسام ، ولشدة غرورها في الشهوات الجسمانية . والناسُ أكثرهم لجهالاتهم بجوهر نفوسهم ، وغفلتهم عن حياتها الأبدية ، لا يعرفون إلاّ هذه الحياة الدنيا الجسدانية الدنيّة المتقطعة « وما الحياة الدنيا إلاّ متاع الغرور » « إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد » فصاروا يريدون البقاء في الدنيا ويتمنون الخلود فيها كما قال تعالى : « يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون » وقال : يريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة « والآخرة خير وأبقى » وقال : « والآخرة خير لمن اتقى » وقال : « وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون» وآياتٌ كثيرة في ذم الذين يريدون الحياة الدنيا ، هي حياةُ الجسد ، ويغفلون عن الحياة الآخرة التي هي حياة النفس بالحقيقة ، وتلك حياة أبداً دائماً . فأما ماهيّة حياة الجسم فنقول :

اعلم أن الجسد ميّت بجوهره ، وأن حياته عرَضية لمجاورة النفس إياه ، كما أن الهواء مظلم بجوهره ، وإنما ضياؤه بإشراق نور الشمس عليه والقمر والكواكب . والدليل على أن الجسد ميّت بجوهره ما يُرى من حاله بعد مفارقة النفس له كيف يتغير ويفسد ويتلاشى ويرجع إلى التراب، كما كان بديئاً « منها خلقناكم وفيها نعيدكم . »

فصل في غرض رباط النفس الجزئية بالجسد الجزئي

فنقول ؛ اعلم انما رُبطت الأنفس الجزئيّة كيما تكمل بالرياضة وتُخرِج ما في جوهرها من الحكمة والصنائع والفضائل من حد القوة إلى حد الفعل لِتتمّ الهَيُولى الجزئية ، وتكمل هي أيضاً ، ويتشبه ذلك الجزء بالكل ، وهو أن تتعلم النفس الجُزئية السياسة والتدبير والتهذيب بالأخلاق الجميلة والآراء الصحيحة والأعمال الزكية والمعارف الحقيقية . وهكذا تَشبُّه الجُزء بالكل كما قيل في حد الحكمة إنها التشبُّه بالإله بحسب الطاقة الإنسانية .

وإذا بلغت النفس الإنسانية إلى أقصى مدى غاياتها ، وكملت بما أظهرت من الفضائل وهَدم الجسد، نُقِلت هذه الأنفس بعد مفارقة الجسد إلى حالة أخرى ونشوء آخر أعلى وأشرف من هذا الجسد المؤلّف من اللحم والدم والأخلاط الأربعة القابلة للكون والفساد كما قال الله تعالى : « وننشئكم فيما لا تعلمون ».

ثم إن الله يُنشيء النشأة الآخرة ، فتكون نِسبة تلك الحال التي تُنقَل إليها النفس بعد مفارقة الجسد بالإضافة إلى هذه الحال كنِسبة حال الجسد في الرّحِم إلى الحال التي نقِل إليها بعد الولادة من فُسحة هذا العالم وطيب نسيمه وإشراق نوره بالإضافة إلى ظُلمة الأحشاء والمَشيمة والرّحِم التي هي ثلاث ظلمات .

ثم اعلم أن النفس لا تُحس تلك الحال التي تُنقل اليها إلا بعد مفارقة الجسد، كما أن الجنين لا يُحس بأحوال هذه الدنيا إلاّ بعد الولادة . فمن أجل هذا قال النبي ، صلى الله عليه وآله : الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا ، وإنما نومهم غفلتُهم عما بعد الموت .

فإذا جاءت سكرة الموت بالحق التي هي مفارقة النفسِ الجسدَ ، وعاينت الحقيقة التي كانوا بها يوعَدون كما قال الله تعالى: « فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد ». وقال لنبيه ، عليه السلام : « واعبد ربك حتى يأتيك اليقين »

يعني الموت بعد مفارقة الجسد . وقال : « كل نفس ذائقة الموت ثم إلينا يرجعون » فإذاً الموت حكمة ، إذ لا رجوع لها إلى ربها الرحمن الرحيم إلا بعد الموت ، ولا وصول للنفس إلى ما وعد الله ورسوله إلاّ بعد مفارقتها الجسد : « يا أيتها النفس المطمئنة ، ارجعي إلى ربك راضية مرضية » فإذاً الموت حكمة ومِنّة من الله تعالى على عِباده ، بل بالموت سبب بقاء الحياة الجسدانية وسبب فناء الجسد .

فصل في حكمة الموت

اعلم بأن لكل كون ونشوء أولاً وابتداءً ، وله غاية ونهاية إليها يُرتقى ، ولغايتها ثمرة تُجتنى ، فمسقط النُّطفة كونٌ قد ابتُدِىء ، وغايته الولادة التي إليها المنتهى . والولادة أيضاً كون قد ابتُدِىء ، والموتُ غايته التي إليها المنتهى . وكما أن ثمرة مسقط النُّطفة لا تكون إلا بعد الولادة ، لأن الطفل لا يتمتع إلا بعد الولادة ، فهكذا النفس لا تتمتع إلاّ بعد مفارقة الجسد ، لأن موت الجسد ولادة النفس وهي الروح . وذلك أن موت الجسد ليس شيئاً سوى مفارقة النفس له ، كما أن ولادة الجنين ليست شيئاً سوى مفارقة الرّحم ، فإذاً الموت حكمة كما أن الولادة حكمة . وكما أن الجنين إذا تمّت في الرحم صورتُه ، وكملت هناك خلقتُه ، لم ينتفع في الرحم بل ينتفع بعد الولادة في الحياة الدنيا ، كذلك النفس إذا كملت صورتها وتمت فضائلها بكونها مع الجسد ، انتفعت بعد مفارقتها الجسد في الحياة الآخرة. فإذاً الموتُ حكمة ، إذ البقاء الأبدي لا يتيسّر إلاّ بعد حصول الموت ، فالموت سبب لحياة الأبد ، والحياة الدنيا سببٌ للموت في الحقيقة ، إذ الإنسان ما لم يدخل في هذا العالم لا يمكن له أن يموت ، فإذا وُجِد الإنسان فتكون حياته سبباً لموته ، وموتُه سبباً لحياته الباقية أبد الآبدين .

واعلم يا أخي أن مَثَل النفس مع الجسد كمَثَل الصبي في المكتب ليتعلم

ويتأدب ويرتاض ؛ فإذا تعلم وأحكم ذلك ، فليس حالٌ أخرى إلاّ الخروج من المكتب والانتفاع بما حصّل في المكتب ، لأنه قد تم ما يراد منه وبقي الإكرام والمُجازاة . فهكذا حكم النفس مع الجسد إذا أحكمت ما يراد منها بكونها معه . فليس من طريقةٍ إلاّ المفارقة . وكما أن الصبي إذا أحكم ما يراد منه في المكتب ، استغنى عن حمل اللوح والدواة والمداد والقلم وسواده ، لأنه كان يكتسب به ويقرأ منه ويمحو ليُحصّل العلم في نفسه محفوظاً من القرآن والأخبار والأشعار والنحو واللغة وما شاكلها ممّا يحفظ الصبيان في المكتب ، فهكذا حُكم النفس مع الجسد إذا هي أحكمت أمر المحسوسات بطريق الحواس ، وأمر المعقولات بطريق الفكر والروية ، وعرفت حقائق أمور هذا العالم من الكون والفساد ، وارتقت بعد ذلك بطريق الرياضيات التي هي البراهين إلى معرفة الأمور الغائبة عن الحواسّ ، وارتاضت فيها وعرفتها حق معرفتها ، واستبان لها أمر عالمها ومبدئها ومعادِها، وعاينت بعين البصيرة أحوال أبناء جنسها من السابقين الذين مضوا على سُنن الهدى، وارتقوا إلى ملكوت السماء وفُسحة الأفلاك وسَعتها ، اشتاقت هي عند ذلك الصعود إلى هناك واللحاق بأبناء جنسها، ولا يمكنها ذلك بهذا الجسد الثقيل إلاّ بتركها ومفارقتها إياه ، وهو الموت ، فلو لم يكن الموت لكانت ممنوعة من الوصول إلى هناك ، فإذاً الموتُ حكمة ونعمة ورحمة وفضلٌ ورضوان من الله ، عزّ وجلّ ، للنفوس المخيّرة المُستبصِرة .

فصل في حكمة أخرى من حكمة الموت

واعلم يا أخي بأن الجسد كالسفينة ، والنفس كالملاّح ، والأعمالَ الصالحة كالبضاعة والأمتعة للتاجر ، والدنيا كالبحر ، وأيامَ الحياة كالمَعبَر ، والموتَ كالساحل المُتوجَّه إليه ، والدار الآخِرة كمدينة التاجر ، والجنة هي الربح ، والله تعالى هو الملك المجازي ؛ كما أن التاجر إذا عبرَ البحر وسلمت أمتعته وبضاعته ، ولما لم يخرج من السفينة ، لا يمكنه الدخول إلى مدينةٍ للتجارة ، ويفوته ربح بضاعته ، فهكذا حُكم النفس مع الجسد أيضاً ، وذلك أنها إذا قطعت أيام الحياة الدنيا بالأعمال الصالحة ، وسارت سيرة عادلة ، وتخلقت بالأخلاق الجميلة ، واعتقدت آراء صحيحة ، ونظرت في أمور المحسوسات فعرفتها معرفة صحيحة، وبحثت عن حقائق المعقولات وأحكمتها وبلغت آخر العمر وهُدم الجسد ، فليس التدبير والحيلة إلاَّ الفراقَ الذي هو موت الجسد ، فلو لم يكن الموت ، لما أمكنها الصعود إلى ملكوت السماء ولا الدخول في زُمرة الملائكة ، ولا الوصول إلى الجنة ، وكان يفوتها لقاء الله تعالى ونعيمُ الدار الآخرة ، كما يفوت الجنينَ مشاهدةُ هذا العالم على حقيقته ، لو لبِث في المشيمة ، ولم يظهر منها ؛ فإذاً الموتُ حكمة ورحمة ونعمة ، إذ لا وصول لنا إلى ربنا إلاَّ بعد خروجنا من هذا الهيكل ومفارقة أجسادنا : « كل نفس ذائقة الموت ثم إلينا ترجعون » .

فصل في حكمة الموت

اعلم أن الدنيا كالميدان ، والأجسادُ خيل عِتاق ، والنفوس السابقة إلى الخيرات فرسانٌ ، والله تعالى الملك الجوادُ المجازي . وكما أن الفارس السابق إذا بلغ باب الملك إن لم ينزل عن فرسه ، لا يمكنه الدخول إلى حضرة الملك فتفوته جائزته والخِلَعُ والكرامة ، فهكذا حكم نفوس السابقين في الخيرات والأعمال الصالحة إذا قطعوا أيام الحياة الدنيا سبقاً إلى الخيرات كما مدحهم الله تعالى : « إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً وكانوا لنا خاشعين » .

فإذا فني العمر وهُدم الجسد وشاخ ، ونبت النفس وكملت ، إن لم تفارقه ، لا يمكنه الصعود إلى ملكوت السماء ، لأن هذا الجسد الثقيل المتغيّر الفاسد لا يليق بذلك المكان العالي الشريف ، بل النفس هي التي يمكنها الصعود إلى هناك لتجازى بما عملت من خير ، فإذاً الموتُ حكمة ورحمة .

وأيضاً إن الدنيا مزرعة ، وأرحامُ النساء كالحَرْث كما قال الله تعالى : « نساؤكم حرث لكم . » والنُّطفةُ كالبذر ، والولادة كالنبت ، وأيامُ الشباب كالنشوء ، وأيام الكهولة كالنُّضج ، وأيام الشيخوخة كاليَبس والجَفاف . فبعد هذه الحالات لا بد من الحصاد والصّرام ، وهو الموت والصّراط والآخرة ، كالبَيدر ، فكما أن البيدر يجمع الغلاّت من كل جنس ويَدرُس وينقّي ويرمي القشور والورق والتبن والحب والثمر ، ويجعل علفاً للدواب وحطباً للنيران . فهكذا تجتمع في الآخرة أممُ الأولين والآخرين من كل دين ، وتنكشف الأسرار ، ويميز الله الخبيث من الطيّب ، فيجعل الخبيث بعضَه على بعض فيَركمه جميعاً ، فيجعله في جهنم ، وينجّي الله الذين اتقَوا بمفازتهم ، لا يمسّهم السوء ولا هم يحزنون .

وهذا كله بعد الموت هو حكمة ورحمة ونعمة من الله تعالى لأوليائه ،

فلأجل هذا يتمنى أولياؤه الموت ، كما عاتب من ظن أنه منهم بغير حق : «قل يا أيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين . » فدل بهذه الآيات علامة أولياء الله تعالى أنهم يتمنون الموت إذا علموا أنهم إلى ربهم راجعون بعد الموت؛ فإذاً الموت حكمة ونعمة.

فصل في حكمة الموت أيضاً

واعلم يا أخي أن النفوس كالصُّنّاع ، والأجسادَ كالدكاكين، وأعضاء الجسد كالأدوات ، كما بينّا في رسالة تركيب الجسد . ثم اعلم أن الصُّنّاع يجتهدون في الصنائع ، ويحملون مشقّة العمل لكسب المال وطلب الغناء ، فإذا استغنى واحد منهم ترك الدكان والأدوات واستراح من العمل ، فهكذا حكم النفوس إذا هي أحكمت ما يُراد منها بكونها مع الجسد من الزاد للآخرة ، استغنت عن الجسد ، فاستقلت بذاتها . فلو لم يؤخذ منها الجسد ، لكان وبالاً عليهما ومانعاً لها من الصعود إلى ملكوت السماء ، والدخول في زمرة الملائكة ، والسيحانِ في عالم الأفلاك ، والسّريان في فُسحة فضاء السموات ، والتنسم من الرّوح والريحان ؛ فإذاً الموتُ حكمة ونعمة من الله تعالى لعباده الصالحين .

وقال يوسف الصّدّيق : « رب قد آتيتني من المُلك وعلمتني من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض أنت وليي في الدنيا والآخرة توفني مسلماً وألحقني بالصالحين . » أما ترى أنه ، عليه السلام ، تمنى الموت بقوله : « توفني مسلماً » لما علم أن اللحاق بالصالحين لا يكون إلاّ بعد الموت ؟ فإذاً الموتُ حكمة ونعمة .

وقال خليل الرحمن، عليه السلام: «الذي خلقني فهو يهدينِ والذي يطعمني ويسقينِ وإذا مرضت فهو يشفينِ والذي يميتني ثم يحيينِ والذي أطمع أن يغفر

لي خطيئتي يوم الدين ، رب هب لي حكماً وألحقني بالصالحين واجعل لي لسان صدق في الآخرين واجعلني من ورثة جنة النعيم» فإذاً الموتُ حكمة إذ كانت وراثة الجنة لا تتيسر إلاّ بعد الموت .

ثم اعلم أن الكرامة للنفس من الله ، واردة للنفس خاصة لا للجسد ، لأن الجسد قد بلي في التراب ، وإنما أُلحقت بالصالحين نفسُه .

فصل في كيفية خروج النفس من القوّة إلى الفعل

فنقول : اعلم أنار الله برهانك بأن نفوس الصبيان عاقلة بالقوة ، ونفوس البالغين عاقلة بالفعل ، ونفوسَ العقلاء علاّمة بالقوة ، ونفوس العلماء علاّمة بالفعل . والعلماء نفوسهم فلسفية بالقوة ، والفلاسفة نفوسهم حكماء بالفعل ، والحكماء الأخيار ملائكة بالقوة ، فإذا فارقت نفوسُها أجسادها كانت ملائكة بالفعل ؛ فإذاً الموتُ حكمة ورحمة .

واعلم يا أخي أن المعادن تستحيل إلى أجسام النبات ، وأجسام النبات تستحيل إلى أجسام الحيوان ، وأشرفُ الحيوان الإنسان ، فصورة النبات صِراطٌ منكوس إلى العمق وقد جازتها النفس الحيوانية ونجت منها. وصورة الحيوان صِراطٌ ممدود على السّطح، وقد جازتها النفسُ الإنسانية ونجت منها . وصورة الإنسان صراط مستقيم كالخط قائماً منتصباً بين الجنة والنار وهيَ أُخْرياتُ جهنم ، فأي نفس جازتها نجت من جهنم ودخلت الجنة التي هي صورة الملائكة ، وإلاّ رُدّت إلى أسفل السافلين ، كما ذكر الله تعالى : « لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين ، إلاّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون . »

فانظر يا أخي في هذا الباب وتفكّرْ فيه فإنك على خطر عظيم . وقد بلغتَ قريباً من باب الجنة ، فإن بادرتَ قبل مفارقة الجسد للنفس ،

واستعدّيتَ وتزودت بالأعمال الصالحة والآراء الصحيحة والأخلاق الجميلة والعلوم الحقيقية، رجوتُ لك أن تنجو من نيران الهاوية التي هي عالم الكون والفساد، وتصل إلى الجنة بالصعود إلى عالم الأفلاك وفُسحة السموات عالَم الدوام والبقاء والخلود في النعيم والسرور مع النبيين والصّدّيقين والشهداء والصالحين، وحسُنَ أولئك رفيقاً، ذلك الفضلُ من الله!

فصل في غرض السياسات

اعلم أن الجسد مَسُوسٌ، والنفسَ سائسٌ، فأيّ نفس ارتاضت في سياسة جسدها كما يجب، أمكنها سياسةُ الأهل والخدام والغلمان. ومَن ساس أهله بسيرة عادلة، أمكنه أن يسوس قبيلة، ومن ساس قبيلة كما يجب، أمكنه أن يسوس أهل المدينة كلهم؛ ومن ساس أهل المدينة كما يجب، أمكنه أن يسوس الناموس الإلهي؛ ومن ساس الناموس الإلهي، أمكنه الصعود إلى عالم الأفلاك وسَعة السموات عالم الدوام ليُجازى هناك بما عمل من خير، فإذاً الموتُ حكمة.

فإن لم يستوِ لك يا أخي سياسةُ الناموس الإلهي، فكن حاذقاً فيه فلعلك تنجو من جهنم بشفاعة أهلها[1]، وتصعّد إلى ملكوت السماء بمعاونتهم، وتدخل الجنة برحمة الله وفضله وسَعة رحمته، وفقك الله يا أخي للصواب، وهداك الرشاد وجميعَ إخواننا حيثُ كانوا في البلاد إنه رحيم جواد.

---

١ شفاعة أهلها: اي شفاعة اهل سياسة الناموس الإلهي.

فصل في عيوب الجسد ومثالبه

فاعلم يا أخي أنّا قد بيّنا في رسالة تركيب الجسد ، ورسالة الإنسان عالَم صغير ، ورسالة الحاسّ والمحسوس ما تستفيد النفس بكونها معه من الحكمة والعلوم والفوائد ، وما ترتاض من اتخاذ الصنائع والسياسات والتدبير والربوبية والتشبّه بالإله بحسب الطاقة الانسانية ، إذا أخذت النفس طريق ذات اليمين ، لأن هذا الجسد لهذه النفس صِراط ممدود بين الدنيا والآخرة . فإذا عبرت النفس على هذا الصّراط وسَلِمت من آفاته ، سَهُل عليها سائرُ ما بعد ذلك .

فمن عيوب هذا الجسد كونُ النفس كمحبوسٍ في كَنيف، لأن الكنيف بالحقيقة هو هذا الجسد ، فهو يَنبوع لكلّ قاذورات من وسخ وبول وغائط ومُخاط وبُصاق ودمٍ وصَديدٍ ولُعاب وعَرق نَتْن وبَخَر وصُنان . وإن كل ما يكون في الكنيف من القاذورات فمنه يخرج وفيه يتكون، فأوله نُطفة قَذِرة ، وآخره جيفة منتنة ، وما بين الحالتين مملوء عَذِرة[1] ، والنفسُ على دوام الأوقات في تنظيفه وغسله وتنقيته ومداواته وستر عوراته وحفظه من آفات الحر والبرد والجوع والعطش والصدمة والضربة والآفاتِ العارضة التي لا يُحصى عددها .

وبالجملة ، فليس في العالم نتَن ولا نجاسة ولا قاذورة ولا جيفة إلاّ منه . ومن وجهٍ آخر ، فنقول مَثَلُ النفس مع الجسد كعابد صنم يعبُده بالليل والنهار ، وذلك أن النفس إذا تركت تعلُّم العِلم وعبادةَ الله ، عز وجل ، والنظرَ في أمور مَعادها بعد فراق الجسد ، والاستعداد له والتزوّد للرّحلة من الدنيا إلى الآخرة ، واشتغلت بما يكون فيه صلاحُ الجسد من الأكل والشرب واللباس والمسكن والمركب وما شاكلها من أنواع زينة الدنيا ،

١ العَذِرة : الغائط .

فتكون كأنها هُودي[1] يعبد صنماً كما ذكر الله تعالى : « أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون » .

ومن وجه آخر فنقول : الجسد كأنه كافر محجوب عن الله تعالى ، لا يعرفه ، ولا يدري من خلقه ورزقه .

ومن وجه آخر، كأنه صاحب بدعة يدعو إلى هواه ، ويريد أن تكون الأمور بمراده .

ومن وجه آخر، كأنه جاهل عَجُول لا ينظر في العواقب، وأيضاً كأنه عدو للنفس يظهر الصداقة ويكتم العداوة . وأيضاً كأنه شيطان من كثرة الوساوس . وأيضاً كأنه إبليس يدعو إلى العداوة . وأيضاً كأنه ميت على جنازة حملتها النفس على كتفها لا تستريح منه ، يا ويلتها ، حتى إذا دفنته في التراب . وأيضاً كأنه غيم بين أبصار الناظرين ونور الشمس ، لأن ظلمات أخلاط الجسد تمنع عن النظر إلى نور العقل ، وهو يُمطر الآمالَ ويُنسي الآجال . وأيضاً مثلُ هذه النفس الجزئية ، مع شرفها وشرف جوهرها ، وما هي عليه من غُربتها في هذا العالم الذي تحت الكون والفساد ، وما ابتليت به من آفات هذا الجسد وفساد هَيُولاه ، كمثَلِ رجل حكيم خبير في غُربة قد ابتُلي بعشق امرأة رعناء فاجرة ، جاهلة سيئة الخُلق رديئة الطبع ، فهي دائم الأوقات تطالبه المأكولات الطيبة ، والمشروبات اللذيذة ، واللباس الفاخر ، والمسكن المزخرَف ، والشهوات الرديئة ؛ وإن ذلك الحكيم من شدةِ محنته بمحبتها وعِظَم بلائه بصُحبتها قد صرف كل همته إلى إصلاح أمرها ، وأكثرَ عنايته بتدبير شأنها ، حتى نسي أمر نفسه ، وصلاح شأنه ، وبلدته التي خرج منها ، وأقرباءه الذين نشأ معهم ، ونعمته التي كان فيها بدءاً ، فكأنه قد قُرِن بشيطان مَريدٍ وعدو مُبين . فهذا الشيطان هو الذي قال الله تعالى : « يا بني

---

١ هودي : يهودي .

آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة » فهو إذاً إبليس الذي أخرج آدم من الجنة .

ثم اعلم أن جوهر النفس جوهر سماوي، وعالَمها عالمٌ روحاني، وهي حية بذاتها، غيرُ محتاجة إلى الأكل والشرب واللباس والمسكن وما شاكل ذلك مما يحتاج إليه الجسد في قِوام وجوده ومادة بقائه ، وإن كل ما يحتاج إليه الإنسان من أعراض هذه الدنيا فإنما هو من أجل هذا الجسد المستحيل الفاسد، ولإصلاح شأنه ، وقِوام وجوده ، وجر المنفعة إليه ، ودفع المضرّة عنه ، وهو لا يثبُت على حالة واحدة طرْفةَ عين .

ثم اعلم أن النفس ما دامت مع هذا الجسد إلى الوقت المعلوم فإنها متعوبة بكثرة غمومها لإصلاح أمر هذا الجسد ، شقيّةٌ بشدة عنايتها فيما تتكلف من الأعمال الشاقّة ، والصنائع المتعبة لاكتساب المال والمتاع والأثاث، وما يحتاج اليه الإنسان في طول حياته الدنيا .

ثم اعلم أن النفس ما دامت مربوطة بالجسد، لا راحة لها دون مفارقتها هذا الجسد ، كما أن ذلك الرجل الحكيم المُبتلى بعشق تلك المرأة الفاجرة الرعناء لا راحة له مما قد ابتُلي به إلاّ بمفارقتها والتسلي عن حبها وعشقها ، فإذاً الموتُ حكمة ورحمة ونعمة لنفوس الأخيار بعد بَوار الأجساد، فما الموت إلاّ نعمة وسرور ، وما الحياة الدنيا إلاّ متاع الغرور .

الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن ، إن ربنا لغفور شكور[1] ، وفقك الله وإيانا وجميع إخواننا للسداد إنه رحيم رؤوف بالعباد .

تمت الرسالة الخامسة عشرة في ماهية الحياة والموت ،

ويتلوها رسالة اللذات .

---

[1] الشكور : من أسماء الله تعالى ، وهو الذي يزكو عنده القليل من أعمال العباد يضاعف لهم الجزاء . فشكره لعباده مغفرته لهم .

الرسالة السادسة عشرة
من الجسمانيات الطبيعيات

في خاصية اللذات وفي حكمة الحياة والموت وماهيتهما

(وهي الرسالة الثلاثون من رسائل إخوان الصفاء)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، وسلام على عباده الذين اصطفى ، آللهُ خيرٌ أمّا يشركون ؟

فصل

اعلم أيها الأخ ، أيدك الله وإيانا بروح منه ، أنّا قد فرغنا من بيان حكمة الموت والحياة ، وبيان ماهيّتهما ، وقلنا ما الحكمة من وجودهما في عالم الكون والفساد ، وما العِلّة في كراهية نفوس الحيوانات الموتَ ومحبتها الحياة ، ونريد أن نذكر في هذه الرسالة ماهيّة اللذة والألم والغم والفرح والسرور والحزن والراحة والتعب ، ونبين أنها كلها أخواتٌ متضاداتٌ أو متشاكلات .

واعلم يا أخي ، أيدك الله وإيانا بروح منه ، بأن اللذة والألم نوعان : جسمانية وروحانية ، وهكذا حُكم أخواتها .

فأما اللذات الجسمانية فهي الراحة التي تُحسّ بها النفوس الحيوانية عند زوال

الآلام . وأما الآلام التي تُحس بها النفوس الحيوانية عند خروج المِزاج عن الاعتدال من الأمر الطبيعي إلى أحد الطرفين من الزيادة والنُّقصان بسبب من الأسباب ، فهي كثيرة لا يُحصي عددها إلاّ اللهُ تعالى ، ولكن نذكر منها طرَفاً لتعلم ماهيّة الآلام واللذة وكيفيّة حدوثهما .

فمن ذلك ماهية لذة الأكل والشرب. أقول: إن حرارة مَعِدة الحيوانات ذواتِ المَعِدة والقوانص فيها بمنزِلة نار السراج المشتعلة بالفتيلة ، فإذا فني الغِذاء ، اشتعلت في رُطوبات جِرم المعدة فأفنَتها ، واحترقت تلك العصَبات المنسوجة هناك كما يشتعل نار السِّراج في الفتيلة إذا فني الدُّهن ، فعند ذلك يُحسّ تلك النفوس بالألم ، فتنهض أجسادُها في طلب الغِذاء ، لتَخلُف على المعِدة بدلاً مما قد فني وعوَضاً عنه ، فإذا أوردت تلك الموادّ إلى المعِدة ، واشتعلت فيها تلك الحرارةُ للنّضج ، فيَسكُنُ ذلك اللهيبُ من جِرم المعِدة ، ويجد الحيوان عند ذلك راحة ولذة ، وبحسَبِ شدة لهيب تلك الحرارة وسكونها تكون لذة الأكل .

وهكذا أيضاً حكم العطش من لهَب حرارة الكبِد ، فلا يزال الحيوان يجد لذة الأكل والشرب إلى أن تستوفي الطبيعة حاجتها ، فعند ذلك تزول تلك اللذة وتسكن ، حتى إنه إن زيد على مِقدار الحاجة ، صارت اللذة ألماً ، فيمسك عند ذلك الحيوان عن الأكل والشرب إلى أن يستمرىء ما أكل ويهضم وتمرّ إلى أطراف الجسد تلك الموادُّ لتَخلُفَ ما تحلّل من هناك، لأن الحيوان في دائم الأوقات في الذوبان والسَّيلان لا يقف لحظةً ولا طرفة عين. يعلم حقيقةَ ما قلنا وصحة ما وصفنا أهلُ البصائر من الأطباء والطبيعيين .

وأما اللذة التي يجدها الحيوان من الجِماع فإن تلك المادة التي تسمى المنيّ وهي زُبدة الدم إذا كثُرت في بدن الحيوان، واجتمعت في المواضع المُعَدّة لها ، وجدت الطبيعةُ عند ذلك ثِقَلا وتمدداً ، كما تجد عند اجتماع البول في المَثانة والغائِط في المِعى ، فتطلقها الإرادةُ عند ذلك للبروز ، فهكذا حكم

المنيّ ، وقد جعلت الحكمة الإلهية والعناية الربانية شهوةً مركوزة في جبلة الذُّكْران للاجتماع مع الإناث من أبناء جنسها ، وكذلك في طباع الإناث الاجتماعُ مع الذُّكران ليكون منهما التناسل والنّتاجُ ليبقى النسل في بقاء الأشخاص والصورةُ في الهَيُولى إذا كانت الأشخاصُ لا بقاء لها دائماً في عالم الكون والفساد لِعلل يطول شرحها . وقد ذكرنا طرَفاً منها في رسالة البعث والقيامة ، وطرفاً في رسالة العلل والمعلولات . فإذا خرجت تلك النُّطفة من بدن الحيوان الفَحل خفّ عن الطبيعة ما كان يجده من الثّقَل ووجد الحيوان عند ذلك راحة ولذة .

وأما اللذة والراحة التي يجدها الحيوان عند السكون والهدوء والنوم فهي من أجل أن الحركة التي تُسخّن مِزاج أبدانها ، وتجفّف رطوبات العضلات والأعصاب المحرّكة للأعضاء ، فتضعُفُ عند ذلك عليها الحركة ، فإذا سكنت وتمددت وهدأت ، بردت أبدانُها وتولدت من السكون برودةٌ ، ومن البرودة رطوبة ، فلانت الأعصابُ والأوتار المحرّكة لتلك الأعصاب والعضَلات ، وسَهُلت الحركة ، وهكذا أيضاً حكمُها عند وضع أحمالها وأثقالها تجد راحة ، لأن الحركة المُفرطة والثّقَلَ يسخّنان المِزاج ويخرجانه من الاعتدال .

وأَما اللذة والراحة التي يجدها الحيوان عند الحر والبرد فهو من أجل أن الحر إذا دام عليها ، سَخّن مِزاجَ أبدانها ، وأخرجها من الاعتدال ، فيؤلمها ذلك ، فعند ذلك يطلب ما يُضادّها من برد الظلال والأفياء والمواضع الباردة ، فإذا دامت هناك زماناً طويلاً ، أَفرطت البرودةُ في أبدانها ، وخرجت من الاعتدال إلى الجانب الآخر ، فعند ذلك تطلب الدفء والشمس والنيران وما يُضادُّ البرودة .

فقد تبين بما ذكرنا أن الحيوانات في دائم الأوقات تتفرّج وتستريح تارة من ألم الحرارة إلى ضده ، وتارة من ضده إليه ؛ وتبين أيضاً أن اللذات

الجسمانية إنما هي من خروج الألم، فهو خروج من الاعتدال إلى أحد الطرفين إما إلى زيادة أو إلى نقصان ، أو من حر إلى برد ، أو من برد إلى حر ، أو من حركة إلى سكون ، أو من سكون إلى حركة ، أو من جوع وعطش ، إلى شِبَع ورِيّ ، أو من شِبَعٍ ورِيّ إلى جوع وعطش . وعلى هذا المثال والقياس يوجد حُكم سائر اللذات والآلام الجسمانية . وذلك أن الذي تجده النفس من اللذة بالنظر إلى محاسن الموجودات ، أو بالاستماع للنغمات ، والشم للروائح الطيبات ، واللمس للملموسات ، فهي كلها تكون بحسب مُشاكِلات المزاج الموافقات ، وألَمُها بحسب المُخالِفات المُتضادّات ، وذلك أن كل محسوس يُخرج مِزاج الحاسّ من الاعتدال، فإن الحاسّة تتألم منه وتكرهه ؛ وكل محسوس يرُدّ الحاسّ إلى الاعتدال والمِزاج الطبيعي ، فإن الحاسّة تلتذ به وتحبه وتحِنّ إليه .

فإذا تأملت يا أخي ما ذكرنا، علمت وتبين لك بأن هذه الآلام واللذات الجسمانية إنما جُعلت لنفوس الحيوانات عند خروج مِزاج أجسادها من الاعتدال ورجوعها إلى الاعتدال ، لكيما تدعوها تلك الآلامُ إلى حفظ أجسادها وصيانة هياكلها مِن الآفات العارضة لها ، وتحثّها تلك اللذاتُ على طلب جرّ المنفعةِ إليها أو دفع المضرّة عنها ، إذ كانت الأجساد أجساداً أمواتاً لا تقدر على دفع مضرّة عنها ولا جَرّ منفعة إليها ، ولا تحترز من الأشياء المُهلِكة لها أو المُخرِجة لمزاجها من الاعتدال . والدليل على صحة ما قلنا وحقيقة ما وصفنا ، أن الأجساد لا تقدر على دفع مَضرّة ولا جر منفعة ، ما نرى من حالها عند مفارقة نفوسها مستسلمةً إلى المُهلكات مما لا خفاء به من حال جُثة الموتى .

فأما اللذات والفرح والسرور الذي تجده عند وجدانها ومنافعها ومحبوباتها، وما تجده من الشفقة والتحنن على صِغار نتاجها ، وما يَعرِض من الغم والهمّ عند فِقدانها ، أو ضررٍ ينالها ، فكل ذلك حَثٌ للنفوس على صيانة الأجساد

إلى وقت معلوم .

وأما الشهوات المركوزات في جِبلة الحيوانات فقد ذكرنا طرفاً من عِللها في رسالة الأخلاق ، ولكن نذكر هاهُنا ما لا بد من ذكره ، وذلك أن كل ما في كل طبيعة جسد وجِبلة كلّ مِزاج من الشهوات المركوزة هي ما يوافق طِباعها ، ويُصلِح مِزاجها ، وذلك أن الحيوانات الآكلة اللُّحمان لا تشتهي الحشائش إلا عند الضرورة وفقدان اللحم، وكالطيور والحيوان الآكل للعُشب والحَبّ لا يشتهي اللحم ولا يلتذ به . وهكذا الإنسان لا يشتهي ولا يأكل إلاّ ما يوافق طبعه ومِزاجه أو ما قد اعتاد أكله على ممر الأيام والأوقات . وأما شهوة العليل لما يضره فلأسباب أُخَر يطول شرحها .

فقد تبين أن الجوع والعطش بحسب الحاجة إلى الطعام والشراب ، وأن اللذة بحسب الكفاية ، والشهوة بحسب الموافقة للمزاج والطبع ، ونريد أن نذكر في هذه الرسالة الملقّبة باللذة والآلام كونَ العلةِ في كراهية نفوس الحيوانات الموت ومحبتها للحياة فنقول :

اعلم أن لمحبة الحيوانات الحياة وكراهيتها الموت علّتين : إحداهما ما يلحق نفوسها من الأوجاع والآلام . والثانية ما في طباع الموجودات من محبةٍ للبقاء وكراهيةٍ للفناء هو من أجل أن الباري تعالى لما كان هو علّةُ الموجودات وسببُ الكائنات ، كما بينّا في رسالة المبادىء ، وهو أبديُّ الوجود ، دائمُ البقاء ، صارت من أجل ذلك في جِبلة الخليقة محبةُ البقاء وكراهيةُ الفناء الذي هو ضد البقاء .

ثم اعلم أن الموجودات نوعان : كليات وجزئيات . فالكليات تبتدىء من أتمّها ثم الأدون فالأدون إلى آخرها ، وهي تسع مراتب : أولها وأوّلاها الباريء تعالى الذي هو علّتها كلها ، ثم العقل ، ثم النفس ، ثم الطبيعة ، ثم الهَيولى الأُولى ، ثم الجسم المُطلق ، ثم الفلك ، ثم الأركان الأربعة ، ثم المولّدات الثلاثة وهي آخرها ، كما بينّا في رسالة المبادىء .

والأمور الجزئية تبتدىء من أنقص الحالات ، ثم ترتقي أولاً فأولاً إلى أن تنتهي إلى أفضل الحالات ، كما بيّنّا في رسالة مسقط النطفة ، ورسالة نُشوء الأنفس الجزئية ، ورسالة البعث والقيامة ، ورسالة الكون والفساد ، فمن أراد علمَ ذلك ، فليرجع إلى هناك ليعلم صحة ما قلناه وحقيقة ما بيّنّاه .

فصل

في ما العلة في وصول الآلام والأوجاع إلى النفوس الحيوانية دون سائر النفوس التي في العالم

فنقول : اعلم أنّا قد بيّنّا ماهيّة اللذة والآلام ، وكيفية إحساس النفوس بهما ، ونريد أن نذكر في هذا الفصل ما العِلّة والحكمةُ في رِباط النفوس الجُزئية بالأجساد الحيوانية، ووصول الآلام والأوجاع إلى النفوس الحيوانية دون سائر النفوس النباتية والموجودات التي في العالم .

فاعلم أنه لما كانت النفوس الحيوانية من الأمور الجُزئية، ولم يكن للنفوس الجُزئية أن تبلغ إلى أتم الحالات وأكمل المراتب إلاّ بأن تقترن بالأجسام الجُزئية التي هي أجساد الحيوان، وكانت الأجساد تَعرِض لها الآفاتُ المفسدة قبل تَمامها وكمال نفوسها ، ولم يكن الأجساد مَقدِرة على دفع تلك الأشياء المُفسدة لها ، لأن جواهر الأجسام عاجزة ، جاهلة ، ميتة ، ناقصة الحال ، مُنفعلة حَسْبُ . فبواجب الحكمة الإلهية جعل لنفوسها أن تَلحقها الآلامُ والأوجاع من الأشياء المُفسدة لأجسادها ، كيما تدعوها تلك الآلام وتحثها تلك الأوجاعُ على دفع تلك الأشياء المُفسِدة لأجسادها ، وتحفظها من الآفات المُهلكة ، وتصونها عن عوارض التلف إلى أن تَتِمَّ تلك الأجسادُ وتكملَ أيضاً تلك النفوس . ثم يجيئها الموت الطبيعي ، إن شاءت النفوس أو أبت ، كما يجيء الطَّلْق للوِلادة ، إن شاء الجنين أو أبى ، لأن موت الجسد ولادةُ

النفس ، كما بيّنا في رسالة حكمة الموت . ولو لم تَعرِض للنفـوس الآلامُ من الأشياء المُفسدة لأجسادها ، لتهاونت بها وتركتها مُتعرّضة للآفات ، وكانت تُفسد أكثرَهـا قبل تمامها وكمالِ نفوسها .

وذلك أن النفس الإنسانية لم يكن نشوؤهـا ولا تتميمها ولا تكميلها إلاّ بتوسّط هذا الجسد المملوء من آثار الحكمة ، كما بيّنا في رسالة تركيب الجسد ، ورسالة الحاسّ والمحسوس ، وقـد بيّنا ذلك في رسالة الإنسان عـالم صغير . فبواجب الحكمة الإلهية رُبطت بالأجساد البشرية ، وذلك أن النفس الإنسانية لا تعرِف حقائق المحسوسات ، ولا تتصور معاني المعقولات ، ولا تقدر على عمل الصنائع ، ولا تتخلق بالأخلاق والأعمال الحميدة إلا بتوسّط هذا الجسد طولَ حياته إلى آخر العمر ، كما قال تعالىٰ : « والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً » وقال : « فلما بلغ أشُدّه واستوى آتيناه حكماً وعلماً . » فلو لم يَعرِض للنفس الألمُ من الأشياء المُفسدة للجسد ، لكان الإنسانُ مثلاً إذا نام فاستغرق في نومه ، ثم مد يده ورجله فدخلتا في نار إلى جنبه فاحترقتا ، ولم يكن يُحسّ به حتى ينتبه من نومه ، فإذا هو بلا يدين ولا رجلين ، وكان يبقى طولَ عمره بلا آلة للمشي ولا أداة لاتخاذ الصنائع . وعلى هـذا القياس حُكم نفوس سائر الحيوانات ، لو لم يكن يعرض لنفوسهـا الألم من الأشياء المُفسدة لأجسادها ، لتهاونت بها وتركتها متعرضةً للآفات والهلاك ، كما أنه لو لم يكن يجعل لها شفقةً على صغارِ أولادها وتحنّناً عليها ، لتركتها وتهاونت بها ، ولم تحتمل المشقة في تربيتها ، وكانت تهلِك كلّها قبل التمام ، وكان مصير ذلك سبباً لانقطاع النسل ودُثور الصورة من المادة . وقيـل لبعض الحكماء : أيُّ أولادك أحب إليك ؟ فقال : صغيرُهم حتى يكبَر ، وعليلهم حتى يبرأ ، وغائبهم حتى يرجع . فإذاً بواجب الحكمة جعلت تُحس ما يلحقها من الآلام لحفظ أجسادها من التلف ، وتحنّنها على صيانتها من عوارض الآفات والآلام .

فصل في ماهية الألم واللذة و كيفيتهما ..

فنقول : ان اللذات والآلام التي تحفظ أجسادها من التلف ، وتحثّها على صيانتها نوعان : جسماني وروحاني . فاللذات الجسمانية هي التي تجدها النفسُ عند الخروج من الألم ، والآلامُ التي تُحسّها النفس عند خروج مزاج الأجساد عن الاعتدال الطبيعي إلى حد الطّرفين من الزيادة والنُّقصان بسبب من الأسباب هي كثيرةٌ لا يُحصَى عددُها ، مثالُ ذلك الجوعُ أحد الآلام تُحسّ به النفسُ عند خلو المَعِدة من الطعام ، وذلك أن الحرارة الغريزية التي تُنضج الطعام في المَعِدة إذا لم تجد هناك طعاماً تكون مشتغلةً ، فإذا اشتغلت في جِرم المعدة فنيت رطوباتها المعدّة هناك لمَصالحها ، فإذا فنيت تلك الرطوبات انفسد جِرمُ المعِدة ، فإذا أحسّت النفس بالآلام ، انتهض الجسدُ في طلب القوت ليزيلَ عنه الفساد وعن ذاتها الألم ، فإذا وصل ذلك إلى المعِدة رَجعت تلك النارُ عن جِرم الجسد ، واشتغلت عن ذلك الطعام ، وسكن الالتهابُ عن جِرم المعِدة ، فتجد النفسُ لذلك راحةً ، فتسمّى تلك الراحة لذّةً . وهكذا العطش فإنه حرارةٌ تلتهب في جِرم الكبد، ولا تسكُن إلاّ بشرب الماء . فتُحسّ النفس عند التهاب تلك الحرارة ألماً ، وعند سكونها راحةً ، فهاتان الخَلّتان تحُثّان النفس الحيوانية على طلب مادّة أجسادها ، لتَخلُف عليها بدَلَ ما يتحلل منها إذ كانت ذاتُ الجسد دائماً في الذوبان والسّيلان من أسباب خارجة وأسباب داخلة ، ولو لم تعرض لنفوسها الآلامُ والأوجاع عند الجوع والعطش ، لما نهضت أجسادُها في طلب غِذائها وفي مادة بقائها ، وكان يُبطِلُ أجسادَها الذوبانُ قبل تمامها وكمالها . فإذاً قد بان من الألم واللذّة أنما هي حثٌّ النفوس على ما يُصلح الأجساد ، لأن في صلاح الأجساد صلاحَ النفوس ، كما بيّنا قبلُ . وهذه اللذة التي تجدها النفوس الحيوانية عند تناول الغِذاء هي أيضاً تجدها النفوسُ النباتية ، وهي التي تحثّها على جَذب الرطوبات

إلى أصول النبات وإلى أعلى فروعها ، فإذا لم تجد ذلك جَفّت أجسامها وهو موتها ، ولكن لا يَعرض لنفوسها الألم عند فِقدان الغِذاء كما يعرض للنفوس الحيوانية ، فمن أجلّ هذا لم تُجعَل لها حِيلةُ التنقل من مكان إلى مكان في طلب الغِذاء كما للحيوان ، ولا فراراً من المؤذيات ، لأنه لا يليق بالحكمة الإلهية أن تجعل لها ألماً وتمنعها حيلة الدفع .

وأما النفوس الحيوانية لما جُعلت لها حيلةُ الدفع عن أجسادها الأشياء المفسِدة لها ، جُعِل لها ألمٌ يحثّها على ذلك إما بالطلب ، وإما بالهرب ، وإما بالتحرّز ، كما بيّنا في رسالة الحيوان .

... وأما لذة الانتقام فهي أيضاً خروج من الألم . وذلك أن الغضب نار وحرارة تشتعل في جِرم القلب وهو شهوة الانتقام من المؤذي الذي أثار الغضب ، فإن وصل إلى الانتقام، سكنت تلك الحرارة وخمدت نارها . وإن لم يقدر على ذلك ولم يصل إليه ، صار الغضبُ حُزناً ومصيبة ، مثال ذلك ، إذا قُتِل لأحد قتيلٌ أوقَدت نارُ غضبه على القاتل شهوةَ القوّة ، فإن قتَلَ القاتلَ سكنت تلك الحرارة ، وإن قتله الموت صار حزناً ومصيبة ، لأنه لا يمكن أن يؤخذ من الميت القوة . وعلى هذا القياس سائر الشهوات نيرانٌ تشتعل في الأجساد وتحسّ النفوس آلامها .

ثم اعلم أن الأجساد كلها نيرانٌ بالقوة جامدة ، فإذا أصابتها نار بالفعل ، صارت نيراناً بالفعل . والدليل على ذلك أنها كلها يمكن أن تُحرَق بالنار. فلو لم تكن من النار لما أمكن إحراقها بها. وهكذا حُكم مأكولاتها وملبوساتها كلها نيران جامدة كُوّنت من النار والهواء والماء والأرض ، وإليها تستحيل بعد مفارقة النفوس لها . ومن أجل هذا قال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم: « أهل النار خُلقوا ومن النار يأكلون ، وعلى النار يتقلبون » وهذه حال الأجساد ومرافقها ومادّتها كلها نيران جامدة، إذا اشتعلت التهبت على الأفئدة كما قال الله ، عز وجل : « نار الله الموقَدة التي تطّلع على الأفئدة إنها عليهم

مؤصدة في عمد ممددة » وهي آمالٌ طِوال وآجال قصار « لابثين فيها أحقاباً لا يذوقون فيهـا برداً ولا شراباً إلاَّ حميماً وغَسَّاقاً» إشارة إلى ما ذكرنا ، كلما نَضِجت جلودهم ، يعني أجسادهم ، بالبِلى بدّلنا لهم جلوداً غيرَها ، بُدّلوا بالكون ثانياً .

فصل

اعلم يا أخي بأن الله ، عزّ وجل، قد أكثر في القرآن مدح المؤمنين وذمّ الكافرين، لأنهما خَلَّتان بينهما بُعدٌ بعيد: إحداهما مجمع الخير كله ، وفضيلة الإنسانية فيها كلها ، وهي الإيمان، والأُخرى ضدها وهي الكفر ، وهو مجمع الشرور كلها . وقد بيّنا في رسالة الناموس ورسالة المؤمنين معنى قولنا ما الإيمان ومن المؤمن ؟ ونذكر في هذا الفصل ما الكفر ، ليُعلم من الكافرون بالحقيقة ، فنقول :

اعلم أن الكفر في لغـة العرب الغِطاء ، وهو شيء يَعرض للنفس من جهة الجسد، وذلك أنه إذا استقرت النفس في الجهالة تغطّى عليها أمرُ ذاتها، وذهب عليها معرفةُ جوهرها ، وتنسى مبدأهـا ، ولا تذكرُ من أَمر مَعادها ، حتى تَبلُغ من جَهالتها ألاَّ تعلم بأن لهـا وجوداً خِلواً من الجسد ، حتى تظن أنها جسمٌ كما يَظُن ويقول كثيرٌ ممن يتعاطى النَّظَر في العلوم ، وهو قولهم: ان الإنسان هو هذا الجسد الطويل العريض العميق ، المؤلّف من اللحم والدم . ولا يدرون أن مع هذا الجسد جوهراً آخر وهو المُحرِّك له ، وهي النفس المُطهَّرةُ به ، ومنه أفعالها .

فمن لا يعرف جوهر النفس فهو لا يعرف شيئاً من الأُمور الروحانية ولا يتصورها ، وإذا سَمِع ذكرها أنكرها لشدة استغراقه في بحر الهَيُولى وظُلُمات الجهالات . فهؤلاء إذا سمعوا بذكر جهنم ، لا يتصورونها إلاَّ أمراً صِناعيّاً ،

وهو أنهم يظنون أن جهنم هي خندق محفور ، كبير واسع ، مملوء من نيران تشتعل وتلتهب ، وأن الله تعالى يأمر الملائكة قصداً منه وغيظاً على الكفّار أن يأخذوهم ويرموا بهم في ذلك الخندق . ثم إنه كلما أحرقت أجسادُهم وصارت فحماً ورماداً ، أعاد فيها الرطوبة والدم حتى يشتعل من الرأس ثانياً كما اشتعل أول مرة . وهكذا يكون دأبهم أبداً ، ويحتجون بقوله تعالى : «كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب .» ولا يدرون معنى قوله تعالى ولا تأويل كتابه ، انهم إذا سمعوا أن الله غفور رحيم حنّان منّان رؤوف ودود ، وما شاكل ذلك من أسمائه الحسنى ، وتفكروا فيها أنكرت عليهم عقولهم ما اعتقدوا فيه من الحقد وقلة الرّحمة لخلقه ، فعند ذلك يتحيرون ويتشكّكون فيما أخبرت به الأنبياء ، عليهم السلام ، إذ لا يعرفون شيئاً عن صفة جهنم وعذاب أهلها ، ولا يعرفون تأويل كتبهم ولا معاني إشاراتهم ورموزاتهم ودقائق أسرارهم .

فهكذا إذا سمعوا ذكر الجنة ونعيمها وسرور أهلها ولذاتهم ، فلا يتصورونها إلاّ أموراً جسمانية شبه بساتين فيها أشجارٌ وعليها ثمار ، وقصورٌ بينها أنهار ، وفي تلك القصور حُور وغِلمان وولدان مُردان على أمثال أبناء الدنيا ونعيم أهلها . وإذا سمعوا بأن أهل الجنة في جوار الرحمن حيثُ قال: في مقعد صدقٍ عند مليكٍ مقتدر ، وأنهم يزورون رب العالمين فيرونه وينظرون إليه ، كما قال تعالى : « وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة » ، وأن الملائكة يزورونهم بالهدايا والتُّحَف كما قال الله تعالى: «والملائكة يدخلون عليهم من كل باب » وما شاكل هذا من وصف أهل الجنة من شرب الشّراب أو مباشرةٍ مع الأبكار ، وأنهم أحياء لا يموتون ، وشبان لا يهرَمون ، وأصحّاء لا يمرضون ولا يجوعون ولا يعطشون ، ويأكلون ويشربون ولا يَبُولون ولا يتغوّطون وما شاكل هذه من الصفات التي لا تليق بأجسام الطبيعة الكائنة الفاسدة فضلًا بالأشياء الروحانية .

فإذا فكروا فيها تحيروا أيضاً فيما يعتقدون من أمر الجنة ونعيمها وحالات أهلها ، فيشكّون أيضاً في الجنة وما خبّرت به الأنبياء ، عليهم السلام ، من وصف الجِنان ونعيم أهلها وحالاتهم ، وما يُقصّر الوصفُ عنها . فإذا ذهب عليهم معرفتُها وتغطّى عليهم علمُها ، أنكروها بقلوبهم ، وإن كانوا لا يظهرونها بألسنتهم مخافةَ السيف والصّلب كما قال الله تعالى : « الذين يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون » .

فهذا هو حقيقة الكُفر والضّلال والجَهالة وعمَى البصر ، لأن هؤلاء لا يؤمنون بظواهر الآيات والأخبار ، ولا يتفحصون عن حقائق أسرار كلام الله ، وأسرار الأخبار النبوية ، حين قالوا وبيّنوا . فجملة ذلك حقٌّ وصدق لا مردّ عليه حسَبَ ما اقتضى العقلُ حقيقة ذلك ، كما لا يفهم هؤلاء الظَّلَمةُ الكَفَرةُ ، أعاذنا الله وإياك ، أيها الأخ ، من الكُفر والنّفاق والفِسق والعصيان ، ورزقك وإيانا الإيمانَ والغفران ، إنه رؤوف رحيم بالعباد .

فصل

ثم اعلم وتيقّنْ ولا تشكّ في أن جهنم هي عالم الكون والفساد الذي هو دون فلك القمر ، وأن الجنة هي عالَمُ الأرواح وسَعة السموات ، وأن أهل جهنم هي النفوس المُتعلّقة بأجساد الحيوانات التي تنالها الآلامُ والأوجاع دون سائر الموجودات التي في العالم . وأن أهل الجنة هي النفوس المَلَكيّة التي في عالم الأفلاك وسَعة السموات في رَوْحٍ وريحان ، البريئةُ من الأوجاع والآلام . والدليل على ذلك قوله تعالى : « انطلقوا إلى ظلٍّ ذي ثلاث شعب . » إشارة إلى النفوس المتّحدة بالأجسام ذات الطول والعرض والعُمق التي دون فلك القمر . وذلك أن تلك النفوس لما جَنَت هناك الجناية التي ذُكِرت في قصة آدم ، عليه السلام : « وقيل اهبطوا منها جميعاً بعضكم لبعض عدو ولكم

في الأرض مستقر ومتاع إلى حين » وقال : فيها تحيون ، يعني في الأرض ، وفيها تموتون ، ومنها تخرجون عند النفخ في الصور .

وإنما قيل إن جهنم هي سبعُ طبقـات ، لأن الأجسام التي دون فلك القمر سبعة أنواع: أربعة منها هي الأمهات المستحيلات التي هي الأركان الأربعة وهي النار والهواء والماء والأرض ، وثلاثة هي المولّدات الكائنات الفاسدات التي هي المعادن والنبات والحيوان .

ثم اعلم أن تلك النفوس لما أُخرجت من الجنة عالم الأفلاك ، أُهبطت إلى الأرض عـالم الكون والفساد الذي دون فلك القمر ، وهي ساكنة في عُمق هذه الأجساد ، وغريقة في بحر الهَيُولى القابل للكون والفساد ، وغائصة في هيـاكل هذه المتولّدات منقطعةً فيها كما قال تعالى : « وقطعناهم في الأرض أمماً منهم الصالحون ومنهم دون ذلك . » وقال : « وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلاّ أمم أمثالكم » .

وإنما قال لها سبعة أبواب لكل باب منها جزء مقسوم ، لأن كلّ ما يجري في عـالم الكون والفساد فبدلائل هـذه السبعة السيارة ، وإنما قال عليها تسعة عشر ، لأن دلائلها لا تظهر في عالم الكون والفساد إلاّ بسيرها في هذه البروج الاثني عشر ، فجملتها تكون تسعة عشر ، وهي التي بها يكون تقلّب أحوال الدنيا وما تقتضيه موجبات أحكامها في مواليد هذه الأجساد ، وما يدل عليها مما يُصيبهم من الآلام والأوجاع ، والأسقام والأمراض والأحزان ، من الجوع والعطش ، والحر والبرد ، والفقر والغنى ، والذّل والعبودية ، والغموم والهموم ، ونوائب الحدثان ، وعداوة الأقران ، وحسد الجيران ، وجَور السلطان ، ووساوس الشيطان ، ونكبات الزمـان ، ومصـائب الإخوان ، وخوف الموت ، ووعيد ما بعد الموت المذكور في القرآن ، وما شاكل هذه المصائب التي لا يُحصى عددها التي هي النفوسُ المرهونة بها ما دامت مع هذه الأجساد .

فإذا فكّر العاقل اللبيب في حال النفوس المتجسّدة وما يلحقها من المِحَن والمصائب بتوسط هذه الأجساد ، وما يَعرِض لها من الآلام والأوجاع والمناحِس كما بيّنّا قبلُ ، وتفكر أيضاً في حالات النفوس التي هي أهل الجنة وعالم الأفلاك الذين هم سكان السموات ، إذا سمع بأنهم أحياءٌ لا يموتون ، وشبان لا يهرَمون ، وأغنياءُ لا يفتقرون ، وجيران لا يتحاسدون، وإخوان على سُرُر ، متقابلين متنعمين متلذذين ، خالدون فيها ، آمنون لا يخافون ولا يحزنون ، فهم في رَوح وريحان ورضوان ، رغبت نفسُه إلى ما هناك ، وزهِدت في الكون هاهُنا .

فكلما نظر بعين رأسه إلى جسده في عالم الكون والفساد معذّباً من ابناء جنسه ، استعاذ بالله وسأله الخلاص والنجاة مما هو فيه من مشاركة أبناء الدنيا؛ وكلما نظر بعين عقله إلى نفسه وأبناء جنسه في عالَم الأفلاك ، وما هم فيه من الرَّوْح والريحان ، تمنى الوصول إلى هناك ، وسأل ربّه اللحاقَ بهم ، كما سأل يوسف الصِّدّيق ، عليه السلام ، وكذلك إبراهيمُ ، عليه السلام ، وعند ذلك تصير الدنيا عليه سجناً كما قال ، عليه الصلاة والسلام : « الدنيا سجن المؤمن وجنّة الكافر . » ويكون عند ذلك من أصحاب الأعرافِ الذين هم أهلُ المعارف، كما وصفهم الله تعالى: « وبينهما حجاب وعلى الأعراف رجال يعرفون كلاً بسيماهم ونادوا أصحاب الجنة أن سلام عليكم لم يدخلوها وهم يطمعون. » وإذا صرفت أبصارهم تلقاء « أصحاب النار » يعني أهل الدنيا التي في عالم الكون والفساد : « قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين . » وهؤلاء الرجال الذين على الأعراف هم الذين مدحهم الله تعالى بقوله : « رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة » وقال : « تتجافى جنوبهم عن المضاجع » فهؤلاء هم أولياء الله الذين هم يتمنون الموت لما قد تبين لهم ما بعد الموت من الوجود المَحْض والبقاء الدائم والرَّوح والرّيحان والنجاة من الآلام والأوجاع والأسقام التي كلها جهنم ونيران .

وأما من لا يعرف ما وصفنا له ، لا يَعقِلُ ما بيّن اللهُ تعالى في كتابه على ألسنة أنبيائه إلاّ هذه الدنيا التي كلُّها آلامٌ جسدانية من الشهوات الجسمانية واللذات الحيوانية ، فهو لا يرغب إلاّ فيها ولا يتمنى إلاّ الخلود معها ، كما وصفهم الله تعالى فقال : « أيود أحدهم لو يعمر ألف سنة وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر » فهؤلاء هم الكفار الذين تَغطّى عليهم الصفاتُ الحقيقيـة والأسرارُ الخفيّة التي كلها رموز أُخرَويّة ثابتةٌ للنفوس الناجية من نيران الهاوية . نجانا الله وإياك أيها الأخ ، ورزَقنا وإياك الدخولَ في زُمَر الملائكة .

فصل

في كيفية وجدان اللذة والآلام معاً في وقت واحد

فنقول : اعلم أن الإنسان في دائم الأوقات لا يخلو من ألم ولذة جسمانية وروحانية من عِدّة وجوه . مثال ذلك العاشق يرى معشوقه وهو على خيانة ، فتسره رؤيته له ويلتذ بها ، وتَغمُّه خيانته له وتؤلمه كما قال :

قايستُ بين جماله وفِعاله ، فإذا الملاحةُ بالقَباحة لا تفي

وكمِثل من يأكل طعاماً يشتهيه وله رائحةٌ مُنكَرة تؤذيه ، مثل الصّحنى[1] والمامياه[2] لساكن السواحل ، فهو يلتذ بأكله وتؤلمه رائحته. ومثل من يسمع لحناً طيباً ونغمة لذيذة كغناء أبيات من الشعر فيها هجوٌ له ، فإنه يلتذ باستماع اللحن اللطيف ، ويغمّه هجوه في وقت واحد. ومثل من يسمع بموت مُورث له تَركَته ، فيغتم لخبر موته ، ويسرُّه ما وَرِث . ومثل من به جربٌ مؤذ يحكّه ، فيجد له لذةً وغمّاً في وقت واحد ، وألمين متضادّين وراحة بينهما .

---

١ الصحنى : ادام من السمك الصغير المملوح .

٢ الماميامه : الظاهر انه ضرب من السمك ، ولعله المارماهي ، وهو الأنكليس .

وكمن هو يعمل عملاً متعباً أو صناعة شاقة يرجو عليها ثواباً جزيلاً وأجرةً وافرة، فهو يجد ألماً من عمله المتعب، ولذة وفرحاً لما يرجو من ثوابه. وعلى هذا القياس حكم سائر الآلام واللذات الجسمانية كما قال القائل:

ومن نكد الأيام أن صروفَها إذا سَرَّ منها جانب، ساءَ جانبُ

أو كمن سكن عنه وجعُ العين وضربُ ضرسه، فإنه يجد ألماً وراحة في وقت واحد. وكمن له خُلق حسن وخُلق سيّء، فإنه يجد من أحدهما راحة ومن الآخر ألماً في وقت واحد. ومثل من يرى صديقاً قد غاب دهراً، وأُخبر بسوء حاله، فيسره رؤيته ويغمه سوء حاله. أو كمثل من يضع إحدى رجليه في ماء بارد، والأخرى في ماء مَغليّ، وإحدى يديه في ماء فاتر، فإنه يجد لذة وألماً في حالة واحدة. ومثل من عمل عملاً حسناً يرجو جَزاءً عليه، وعملاً سيئاً يخاف عقوبة عليه، فيكون متألماً ملتذّاً في وقت واحد. وعلى هذا المثال إذا اعتَبَرَ أحوالَ الناس، فلا يخلو من ألم يؤذيه وراحة من ألم قد زال عنه، فيكون الإنسان الواحد في وقت واحد ملتذّاً متألماً، معاقَباً مُثاباً.

وإنما ذكرنا هذه الإشارات وأوردنا هذه الأمثلة من أجل أن كثيراً ممن يتكلم في علم النفس، ويبحث عن ماهيّة جوهرها، وكيفية تشخيصها، يرى ويعتقد أنها أشخاص متباينة كثيرة. فأكثرُ ما يُقوّي رأيَ مَن ظنّ أن النفس أشخاص كثيرة ما يظهرُ من اختلاف أحوالها وأفعالها وأخلاقها وآرائها وأعمالها، وأن بعضها ملتذة وبعضها متألمة، فحكَمَ بهذا الاعتبار أنها أشخاص كثيرة منفصلة متباينة كتباين الأشخاص الجسمانية المركّبة. ثم ناقض رأيه بقوله بأنها جواهر بسيطة، كأنه لا يدري ما معنى البسيطة. ونحن قد أخبرنا بأنها نفس واحدة تجنّست أجناسها وتنوعت أنواعها، وقد تشخّصت بحسب اختصاصها بالأجناس الجسمانية وأنواعها وأشخاصها، لأنها في ذاتها

متكثّرة منفصلة متباينة، لأن اختلاف أفعالها بحسب استعمالها الأجساد المختلفة الأجناس والأنواع والأشخاص، كما بيّنا في رسالة تركيب الجسد أن اختلاف أفعال نفس إنسان واحد هو من أجل اختلاف أشكال أعضائه، وفنون مفاصله، وأن نفس الإنسان نفسٌ واحدة. وقد ظن كثير من أهل العلم أن للإنسان الواحد ثلاثُ نفوس: شهوانية وغضبية وناطقة. ونحن قد بيّنا بأن هذه الأسماء تقع على نفس واحدة بحسَب أفعالها المختلفة، وذلك أنها إذا فعلت في الجسم الغِذاء والنموّ، سميت نباتية وشهوانية، وإذا فعلت الحِسّ والحركة، سميت حيوانية غضبيّة؛ وإذا فعلت النُّطق والتمييز والرويّة والفكر، سميت ناطقة، كما أن الرجل الواحد حدّادٌ نجّارٌ بنّاءٌ، إذا كان يُحسنها كلّها ويَعقِلها.

فصل

فنقول: لما فرغنا من ذكر الآلام واللذات الجسمانية، وبيّنا أنها كلها هي راحة تجدها النفس عند رجوع الأمزجة إلى الاعتدال بعد خروجها من الاعتدال، وأن الآلام هي إحساس النفس بتغيير مزاج الجسد وخروجه عن الاعتدال الطبيعي، أو عضو من أعضائه عند ملاقاة الأشياء المفسدة لها، كما بينّا في رسالة الحاس والمحسوس، وقد بينّا أيضاً عِلّة كراهية الحيوان للموت، وما العلّةُ في وصول الآلام والأوجاع إلى النفس الحيوانية دون سائر النفوس الجزئية التي في العالم بأسرها، نريد أن نذكر في هذا الفصل ما اللذاتُ الروحانية التي تجدها النفس بمجرّدها وما آلامُها التي تنفرد بها دون الجسد التي عبرت عنها الشريعة النبوية بالثواب والعقاب فنقول:

اعلم، أرشدك الله تعالى، أن اللذات أربعة أنواع: شهوانية طبيعية، وحيوانية حِسّيّة، وإنسانية فِكرية، وملَكية روحانية. فاللذات الشهوانية الطبيعية هي التي تجدها النفس عند تناول الغذاء من الطعام والشراب. وأما اللذات

الحيوانية أيضاً فهي نوعان : إحداهما ما تجدها النفس عند الالتئام ، وهي لذة الجماع ، والأُخرى ما تجدها عند الانتقام وهي شهوة تهيج عند الغضب . والفكرية ما تجدها النفس من اللذة عند تصوّرها معاني المعلومات ، ومعرفتها بحقائق الموجودات . والروحانية الملكية هي ما تجدها النفس من الراحة واللذة بعد مفارقتها الجسد التي هي الرّوح والريحان .

فاللذة الشهوانية مشتركة بين الإنسان والحيوان والنبات . والحيوانية الحِسّيّة مشتركة بين الإنسان والحيوان دون النبات. والفكرية مشتركة بين الإنسان والملائكة دون الحيوان . والملكية الروحانية مختصة بالنفوس المُفارقة للأجسام الناجية من بحر الهيولى .

فالنفوس النباتية لها لذّات وليس لها ألم كما قلنا قبلُ في رسالة كراهية الحيوان للموت . والنفوس الملكية لها أيضاً لذة وليس لها ألم ، كما قد تقدّم بيان ذلك ؛ لكن لها الخوف والإشفاق كما قال تعالى : « يخافون ربهم من فوقهم » وقال تعالى : « وهم من خشية ربهم مشفقون » . فالنفوس الحيوانية لها لذة وألم جميعاً ولكن لذاتها كلها جسمانية . فأما الأنفس الإنسانية فلها كل اللذات والآلام الجسمانية والروحانية جميعاً ، لذلك نحتاج أن نبين ونشرحها واحدة بعد واحدة لتتضح وتتصوّر بحقائقها فنقول :

اعلم أن جميع اللذات التي تجدها النفس الإنسانية نوعان : منها ما تجدها بمجرّدها، ومنها ما تجدها بتوسُّط الجسد، وهي سبعة أنواع: أحدها المُدرَكات بطريق النظر من محاسن الألوان والأشكال والنقوش والتصاوير والأصباغ الطبيعية منها والصناعية جميعاً. والثاني المُدرَكات بطريق السمع من الأصوات والألحان والنغَم والمدح والثناء وما شاكلها . والثالث المُدرَكات بطريق الذوق من الطعوم الموافقة لشهواتها . والرابع الملموسات المُقوّية لأخلاط جسدها . والخامس المشمومات الملايمة لمِزاج أخلاطه . والسادس لذة الجِماع . والسابع لذة الانتقام .

فهذه كلها لذات تجدها النفس بتوسط الجسد مرتين : إحداهما عند مباشرة الحواس لها ، والأخرى عند ذكرها بعدها . مثال ذلك إذا رأى المرء وجهاً حسناً أو زينة من محاسن الدنيا، فإن النفس تجد عند رؤيتها لها سروراً ولذّة. ثم إذا غابت عن رؤية العين ، بقيت رسوم تلك المحاسن مصوّرةً في فكر النفس ، وكلما لمحت هي ذاتها ونظرت إلى جوهرها ، رأت تلك الرسوم المصوّرة في فكرها ، فسُرّت بها والتذّت ، وتذكرت تلك المحسوسات التي انطبعت فيها منها هذه الرسوم . وهكذا سائر المحسوسات حكمها إذا تذكرتها النفسُ التذّت وسُرّت بها من غير شركة الجسد . وهكذا حكم أضدادها التي هي الآلام ، وذلك أن الإنسان إذا رأى منظراً وحشياً أو صورة قبيحة ، أو سمع صوتاً هائلا مُفزعاً ، فإنه يؤلمه رؤيته لها في وقته ، واستماعُها ، وبعد مغيبها ، إذا تذكرها وفكّر فيها وليس التذكُّر والتفكر شيئاً سوى لمحات النفس ذاتِها ونظرها إلى جوهرها ورؤيتها رسومَ تلك المحسوسات مطبوعة في ذاتها ، كما ينطبع نقشُ الفَصّ في الشمع المختوم . فهذه الملاذّ والآلام ، وإن كانت لا تصل إلى النفس إلاّ بتوسط الجسد ، فقد تجدها بعد غَيبة المحسوسات عن مُباشرة الحواسّ لها ، فيدل هذا على أن النفس لها لذّة تجدها بعد مفارقة الجسد أيضاً ، كما تجد لذّة المحسوسات بعد مفارقتها وغيبتها .

فصل في اللذات الروحانية

فنقول : أما اللذات الروحانية التي تجدهـا النفس بمجرّدها فهي نوعان : إحداهما ما تجدهـا وهي مفارقة للجسد ، والثانية ما تجدهـا وهي مقارنة له . فالتي تجدها وهي مفارقة له نوعان : إحداهما ما يرِدُ عليها من خارج كما بيّنا قبل هذا ، والآخر من ذاتها . والتي تجدها وهي مقارنة له فهي أربعة أنواع : فمنها ما تجدها من اللذة والسرور والفرح عند تصورها حقائق الموجودات من المحسوسات والمأكولات جميعاً . والثانية ما تجدها عند اعتقادها الآراء الصحيحة ومذاهبها الحميدة . والثالثة ما تجدهـا عند عذوبة أخلاقهـا الكريمة وعاداتها الجميلة . والرابعة ما تجده من الفرح والسرور واللذة عند ذكر أعمالها الزكية وأفعالها الخيّرة . وهـذه اللذات مشتركة بين الإنسان وبـين الملائكة ، وأضدادُها من الآلام ، ومشتركة بين الإنسان والشياطين كما سنبين بعد هذا الفصل .

وأما بيان ما يلحق النفوس من اللذة والألم في اعتقاداتها ومعارفها وجهالاتها وأخلاقها وأعمالها ، فاعلم أن الإنسان، إذا كانت أعماله سيئة ، وأفعالهُ قبيحة، فإن نفسه أبـداً تكون مرتابة مرعوبة مضطربة متألمة ، كما ذكر الله تعالى في صفة المنافقين فقال: « يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو فاحذرهم قـاتلهم الله » فإذا كانت أعمالهم صالحة وأفعالهم جميلة ، فإن نفوسهم أبـداً تكون ساكنة هادئة مستريحة .

وهكذا إذا كانت أخلاق الإنسان جميلة، وسجاياه سَهْلة ، ومعاملته طيبة، ومخالطته عَذبة ، فإن نفسه تكون أبداً في القلوب محبوبة ومن الغوائل آمنة . وإن كانت أخلاقه شرّيّة ، وطباعه وحشية ، وهمته سَبُعيّة ، يكون من يصحبه أبدا في عَناء، وهو من نفسه في جهل وبلاء . فهكذا حكم الاعتقادات والآراء ، وذلك أن بعضهـا مؤلم لنفوس معتقديـهـا ومُحَيّر ومشكك كما

قيل (شعرا) :

ألم تر أني، مُذ ثلاثين حِجّة، أروح وأغدو دائم الحسرات؟

ومثل من يعتقد أن ربّه قتلته اليهود . ومثل من يعتقد أن إمامه مختفٍ من خوف مخالفيه . ومثل من يعتقد أن رب العالمين خَلَق خلقاً وناصبهم العداوة وهو إبليس وجنوده . ومثل من يعتقد أن رب العالمين حَقُود حَنِق يغتاظ على الكفّار والعصاة من خلقه . ومثل من يرى ويعتقد أن أمر العالم غيرُ منتظم ، وأن مُدبّره وصانعه قد أهمل أمر عالَمه حتى يجري فيه أشياء على غير مُراده ومشيئته . ومِثل من يعتقد ويرى أن رب العالمين الغفور الرحيم الودود البارّ المحسن الحنّان المنّان الجواد الكريم الجميل يأمر الملائكة بأن يأخذوا الكفار والعُصاة ويرموا بهم في خَنْدق من النار ، وكلما احترقت جلودهم ، وصاروا فحماً ورماداً ، أعاد فيها الرطوبة والحياة ليذوقوا العذاب. ومثل من يعتقد أنه يُباشِر في الجنة مع الأبكار ويلتذّ منها ويُزيل البَكارَة ، ثم تعود البَكارة . ومثل من يعتقد ويرى أنه يَشرَب الشّرابَ في الجنة ويكون باديه ساقيه . ومثل من يعتقد أنه يتمنى في الجنة الطيور المَشوِيّة الحاصلة عنده ، فيتحصّلُ بعد تمنّيه في الحال ، ثم يأكل منها حتى الشبع ، ثم بعد ذلك تطير الطيُور كما تطير في حال الحياة . ومثل من يعتقد أن الإنسان إذا مات بطَلت نفسه ووجودها. ومثل من لا يرجو الجنة إلاّ بعد خراب السموات وطيّها كطي السّجلّ للكتب . ومثل من يعتقد أن الكواكب تتناثر وتتساقط في القيامة . ومثل من يعتقد أن أعمال الإنسان تُجعل في كِفّتَين من كِفتي الميزان . ومثل من يعتقد سُؤال مُنكَرٍ ونكير في القبر من جسد الميت . ومثل من يعتقد ويرى أن في الجحيم تَنانِين وثَعابين وأفاعيَ يأكلون الفُسّاق ، ويصيرون أحياء بعد ذلك ، وما شاكل هذه من الاعتقادات المؤلمة لنفوس مُعتقديها . مع أن جميع ما نطق به

الأنبياء ، عليهم السلام ، من صفة الجنة ونعيم أهلها وعذاب النار والعقاب وأحوال القيامة كلّها حق وصدق لا مرية فيها ، ولكن ليس الأمر كما يعتقد هؤلاء الظّلَمة الكَفَرة ، بل أمر وراء ذلك لا يعلمه إلاّ الله والراسخون في العلم .

وأما من يرى ويعتقد ويعلم أن للعالم بارئاً حكيماً ، قادراً حليماً ، جواداً كريماً ، غفوراً رحيماً ، وأنه قد أحكم أمرَ عالَمه على أحسن نظام ، ورتّب تدبير الخليقة على أتقن حكمة ، ولم يترك فيه خَلَلاً ، ولا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء ، ولا يرى في خلق الرحمن من تَفاوُتٍ ، فإن نفسه أبداً ساكنة هادئة مستريحة من الألم والآراء الفاسدة وأوجاع الاعتقادات الزائفة ، ومن وَحشة ظُلُمات الجَهالات المتراكمة، وهو في راحة من نفسه، والخَلقُ في راحة منه. ومن جهةٍ في أمانٍ لا يُريد بأحد سوءاً ، ولا يرى له عليهم فضلاً ، ولا يطالبهم بحق ، ولا يشكوهم من جفاء ، ولا يُصيبهم منه أذى ، فهذه صفة إخوانك الكرام .

فهل لك يا أخي أن ترغب في صُحبتهم ، وتتبع منهاجهم ، وتسير سيرتهم، وتتخلق بأخلاقهم ، وتنظر في علومهم وسياستهم ، لتعرف أسرارهم واعتقاداتهم ، أو تحضر مجلِسَهم لتسمع كلامهم وأقاويلهم ، أو تقرأ رسائلنا هذه لعلّك توفّق لفَهم معاني ما تضمنته ، وتنتبه لنفسك من نوم الغفلة ، وتستيقظ من رقدة الجهالة ، وتنفتح لها عينُ البصيرة ، فتحيا حياةَ العلماء ، وتعيش عيش السعداء ، وتصعد إلى ملكوت السماء ؟

فصل

ثم اعلم أن من الآراء والاعتقادات ما هو مُؤلم لنفوس معتقديها ، ومؤذ لها ؛ ومنها ما هو مُفرِّح ومُسِر ومُلِذّ لها ، كما بيّنا قَبلَ هذا ، ولكن نَضرِب مثلًا لذلك كيما يتضح .

(حكاية)

ذكروا أنه كان رجل من أرباب النّعَم متديّناً ، وكان له ابن متجاهر بالسُّكر وكان الرجل كارهاً لذلك منه . فقال له يوماً : يا بُني ، انتَهِ عن السُّكر ، حتى أعطيك شطراً من مالي وعَقاري ، وأفرِد لك داراً ، وأزوجك بحسناء إحدى بنات أرباب النّعم .

فقال ابنه : يا أبت ، ماذا يكون ؟

فقال : تعيش فرحاً مسروراً ملتذّاً إمّا بَقِيت .

فقال ابنه : إن كان الغرض هو هذا فهو حاصل لي .

فقال له أبوه : كيف ذلك ؟

قال : لأني إذا سكرت وجدت في نفسي من الفرح واللذة والسرور ، حتى أظن معه أن مُلْكَ كِسرى كله لي ، وأتخيل في نفسي من العظمة والجلال حتى أرى العصفور مثلًا قَدْرَ البعير .

فقال له أبوه : ولكن إذا صحوت لا ترى لذلك حقيقة .

قال : أعود فأشرب ثانياً حتى أسكر فأرى مثل ذلك .

فهكذا القياس في حكم المعتقدين ببقاء النفس بعد مفارقتها الجسد في وجدان لذاتهم ، لأنه إن كان الغرض من الحياة في الدنيا ليس إلاّ لأجل اللذة والفرح والسرور والراحة بعد الموت كما قال تعالى: «وترجون من الله ما لا يرجون» بعد الموت الذي ليس هو شيئاً سوى مفارقتها الجسد كما بينّا قبل هذا ، وقد

بيّنّا أيضاً في رسالة حِكمة الموت ، ولا ينقص هذا الاعتقادُ من لذاتهم في الدنيا شيئاً .

أما معتقدو فنائها فإنهم لا يخلو إما أن يكونوا من سعداء أبناء الدنيا أو من أبناء أشقيائها . فلو كانوا من أبناء سعدائها ، فإن هذا الرأي والاعتقاد يؤلم نفوسهم ويؤذيها ، وذلك أنهم كلما فكروا في الموت والفناء ، تنغّص عليهم عيشُهم ، وأدخِل الحزن على نفوسهم ، ونقص من لذاتهم في دنياهم ، لأنهم قد أيقنوا بذَهابها وفنائها ، ولا يرجون غيرها ، ولا يؤملون سواها . وإن كان هؤلاء المعتقدون بفناء النفس من أبناء أشقياء الدنيا ، فهم يعيشون في غمّ وحُزن طول أعمارهم في الدنيا ويموتون آخِرَه بحسرة ومصيبة .

ثم اعلم ان الاعتقادات الرديئة والآراء الفاسدة المؤلمة لنفوس معتقديها المؤذية لها كثيرةٌ لا يمكن إحصاؤها وبيان صفاتها ، ولكن نذكر المحمودة منها ونصفها لتَعرِفَ ، وتتمسك بها وتجتنب سواها . وقد بيّنّا في رسالة النواميس طرفاً من ذلك ، وفي رسالة اعتقاد إخوان الصفاء ، ورسالة ماهيّة الإيمان وخصال المؤمنين المحققين الذين وعدهم الله الجنة ، وشرحنا طريقتهم وأخلاقهم وآراءهم وعلومهم وأعمالهم في إحدى وخمسين رسالة ، وبيّنّا فيها صفاتهم وكيفيّة أحوالهم ، لكن نذكر جُملةً هاهُنا منها بقول وجيز مختصر ، وهو أن الإنسان العاقل يرى ويعتقد أن للعالم صانعاً بارئاً حكيماً قديماً حيّاً عالماً ، وأنه قد نظّم أمر عالمه نِظاماً مُحكَماً ، ورتّب الموجودات ترتيباً مُتقَناً ، ولا يخفى عليه من أمر عالمه صغيرة ولا كبيرة إلاّ وهو يعلمها ويُدبّرها تدبيراً واحداً بحسب ما يليق بواحدٍ واحدٍ من الموجودات والكائنات ، وبحسب الاستعدادات الحاصلة من الكائنات ، وأن يجري حُكم عالمه بجميع خلائقه من الأفلاك والبروج والكواكب والأركان والمولودات كمَجرى حكم إنسان واحد وحيوان واحد ، وأن سريان قُوى ملائكته في أطباق سمواته وفَضاء أفلاكه كسريان قُوى نفس إنسان واحد في جميع

بدنه ومفاصل جسده . وهذا قول مجمل قد شرحنا تفسيره وبيّناه في جميع رسائلنا أجمع ، ولكن لا بد من أن يصادره المتعلمون في أول الأمر ، والمبتدئون بالنظر في هذا الشأن العظيم ، كما يصادرون سائر العلوم والصنائع ثم في آخر الأمر يعرفون حقيقته وتتبين لهم صحته .

فصل

ثم اعلم أن غرض إقرار المبتدئين، واعتقاد المتعلمين في مبدإ كل صناعة ، على تحقيق أصولها قبل معرفتهم بها تقليداً ، هو من أجل أنه لا يتبين ذلك إلاّ بعد التبحّر فيها والبحث والكشف عنها .

واعلم أنه كما أن المتوسطين في كل علم وصناعة لا يرضون بالتقليد ، إذ قد يمكنهم البحث والكشف عنه بالبراهين ، فهكذا أيضاً ينبغي للمُقرّين بكتب الأنبياء ، عليهم السلام ، وما فيها من الأسرار والإشارات المكنونة والعلوم الشريفة. والمتوسطون في العلوم لا يرضون بالتقليد مثل الصبيان والنساء وضعفاء العقول، بل يجب عليهم البحث عنه والكشف عن الأسرار والإشارات . ذلك بأن ليس غرض الأنبياء ، عليهم السلام ، فيما وصفوا من مجلس الجنان ولذّات أهلها هو الإقرار باللسان حَسْبُ بلا اعتقاد ، ولا الاعتقاد حَسْبُ بلا تحقيق يظهر لهم، بل الغرضُ هو التصوّر لها بحقائقها كيما تقع الرغبة فيها والطلب لها ، لأن الإنسان لا يطلب ما لا يرغب فيه ، ولا يرغب فيما لا يتحققه، ولا يتحقق ما لا يتصوره ، ولا يتصور الشيء الخفي الغائب إلاّ بالوصف البليغ بالمحاسن . فمن أجل هذا أكثرَ في القرآن من وصف محاسن الجِنان وسرور أهلها ولذات نعيمها ، فتارةً وصفَها أوصافاً جِسمانية على قَدر طاقة القوم مثل قوله تعالى: « على سرر موضونة متكئين عليها متقابلين يطوف عليهم ولدان مخلدون بأكواب وأباريق » الآية . ذكَرَ هذا وبيّنَ على قَدْرِ قَبُول أفهامهم ،

لا بمعنى أن هذه الأشياء ستوجد في الجنة على حالات جسمانية ، بل ستوجد أشياء روحانية : .« ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .» وقال تعالى أيضاً : « في سدر مخضود وطلح منضود وظل ممدود وماء مسكوب » وما شاكلها من أوصاف الأمور الجسمانية .

وتارة وصفها بأوصاف روحانية على قدر فهم المتوسطين مثل قوله تعالى: « في مقعد صدق عند مليك مقتدر » وقال : « فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون » وقال : « فيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين » وقال : « وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة » وما شاكلها من الأوصاف الروحانية التي لا تليق بالأجسام الطبيعية .

وتارة وصفها بأوصاف هي بين الروحانية والجسمانية مثل قوله تعالى : « مَثَلُ الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى ولهم فيها من كل الثمرات » .

أما ترى يا أخي أنه قال : مَثَلُ الجنة على سبيل التشبيه والتمثيل ، ليُقرّب من الفهم تصوُّرَها ، لأنه يقصُر الوصفُ عنها بحقائقها ، وإنما خاطب كل طائفة منَ الناس بحسب عقولهم ومراتبهم في المعارف والفهوم ، لأن دعوة الأنبياء ، عليهم السلام ، عموم للخاص والعام جميعاً ومَن بينهما من طبقات الناس . وقد صرّح المسيح ، عليه السلام ، في وصف الجنان ونعيم أهلها بأوصاف غير جسمانية ، فقال للحَوَاريّين في وصية لهم: « إذا فعلتم ما فعلتُ وما قلتُ لكم ، تكونون معي غداً في ملكوت السماء عند أبي وأبيكم ، وترون ملائكته حول عرشه يُسبّحون بحمده ويقدّسونه ، وأنتم هناك ملتذّون بجميع اللذات بلا أكل ولا شرب . » وإنما صرح المسيح ، عليه السلام ، ولم يرمُز لأن خطابه كان مع قوم قد هذّبتهم التوراة وكتبُ الأنبياء ، عليهم السلام ، وكتبُ الحكماء أيضاً ، وكانوا غير محتاجين إلى

الإشارات والتنبيهات ، بل كانوا متهيئين لصوَرها مستعدّين لقَبُولها .

فأما سيد الأنبياء وخاتم المرسلين ، صلى الله عليه وآله ، فقد اتفق مَبعثُه في قوم أُميّين من أهل البوادي ، غير مرتاضين بالعلوم ، ولا مُقرِّين بالبعث والنشور ، ولا عارفين بنعيم ملكوت الدنيا فضلًا عن معرفة نعيم أهل السموات الذين هم ملكوت الأفلاكِ والآخرة وأهل الجِنان فجعل أكثر صفة الجنان في كتابه جسمانية ، ليقربها من فهم القوم ، ويُسهّل تصوّرَها عليهم ، وترغب نفوسُهم بها . ونحن قد جعلنا بحثنا عن أسرار الكتب الإلهية ، وبيّنا في أكثر رسائلنا معنى أسرار التنزيلات النبوية، وكشفنا عن أكثر الرموزات والإشارات وعن الموضوعات الناموسية. وذلك لأن خطابنا لا يكون إلاّ مع أقوام علماء فضلاء مارسوا إخوان الصفاء ، ورسخوا في العلم ، وارتاضوا بالرياضيات الحِكمية المقرونة بأسرار الكتب الإلهية وإشارات الأنبياء عليهم السلام .

فإن كنت أيها الأخ واحداً منهم ، فهلمّ إلى صُحبة إخوان لك فضلاء ، وأصدقاء كرماء ، علومُهم حِكمية ، وآدابهم نبوية ، وسيرتهم مَلَكية ، ولذاتهم روحانية ، وهممهم إلهية . واترُكْ صُحبة إخوان الشياطين الذين لا يريدونك إلاّ لجر منفعة الأجساد ، أو لدفع المَضرة عنها . وكن يا أخي من المؤمنين الذين بعضُهم أولياءُ بعض يأمرون بالمعروف وينهَون عن المُنكَر ، حتى تكون من الذين أشار إليهم بقوله: « إن عبادي ليس لك عليهم سلطان » وتكون من الذين مدحهم الله تعالى بقوله : « الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلاّ المتقين » .

وإذ قد فرغنا من ذكر اللذات والآلام الجسمانية التي تجدها النفسُ بمفارقتها الجسد ، وما تجدها بمجرّدِها وهي مع الجسد ، فنريد أن نذكر ما تجده بعد المفارقة من اللذة والآلام التي هي جزاؤها وثوابها على ما عَمِلت من شر وعرفان وإنما المُعبّرُ عنه في الشريعة النبوية بالثواب والجزاء والعذاب الأليم .

فصل

في كيفية وصول الآلام إلى النفوس الشريرة بعد مفارقة أجسادها وكيف تكون من جنود إبليس وحزب الشياطين

فنقول: اعلم أن الإنسان العاقل، إذا سمع أوامر الناموس ونواهيه ووعيده وزواجره، ثم لم يأتمِرْ بحدوده ولم ينقد لأحكامه؛ أو سمع العلوم الحِكمية، فلم يَقُم بواجبها، ثم أهمل أمر نفسه وأعرض عن النظر في مصالحها بعد مفارقتها الجسد، بل جعل أكثر عنايته في إصلاح شأن هذا الجسد واهتمامه في تربيته، واشتغل الليل والنهار بما يُصلِح الجسد من المأكولات والمشروبات واللُّبس والمركَب والمسكن وجمع المال والأثاث وزينة الدنيا، واستغرق في الشهوات الجسمانية، وغاص في اللذات الجِرمانية، لا يفكر في غيرها ولا يهمه سواها، وتمنى الخلود في الدنيا، مع أنه يتيقن بأنه لا يُترَكُ هاهُنا، وأفنى عمره كله ساهياً ولاهياً إلى الممات؛ ثم جاءته سكرة الموت بالحق التي هي مُفارقةُ النفسِ الجسدَ على كره منها وإجبار منها، وتلك شَربةٌ لا بدّ من شُربها لكل من دخل في عالم الأجساد والأجسام الطبيعية الهَيُولانية، وبقيت عند ذلك نفسُه بلا جسد وقد سُلِبت آلات الحواسّ التي كانت تنال بها اللذات الجسمانية وقد اعتادتها بطول الدُّرْبة فيها، فانطبع في هِمَّتها النزولُ إليها، ولا وصولَ لها إلا بهذا الجسد وأعضائه، وقد مُنِعت ذلك لكون مَثَلها عند ذلك كمَثَلِ من سُلَّت عيناه، وصَمَّت أذناه، وشَلَّت يداه، وقُطِعت رجلاه، وخَرِس لسانه، وشُدّ مَنخِراه، وعمي قلبه، وفارقته أحبابه، وجفاه أصدقاؤه، وتركه إخوانه، وهجره جيرانه، وظفر به أعداؤه، وشَمِت به حُسّاده، وما بقي معه إلا الروح في الجسد معذَّباً، فلا هو حيٌّ يلذّ بالعيش، ولا ميتٌ يستريح من العذاب كما قال تعالى:

« لا يموت فيها ولا يحيا » ، فتبقى تلك النفوسُ عند ذلك تائهةً هائمة بهمومها في طلب ما قد فاتها بما اعتادته من لذات هذه المحسوسات ، وقد مُنِعت الوصولَ إليها والعودَ ، فعند ذلك تتمنى وتقول بهِمّتها : « يا ليتنا نُرَدُّ فنعملَ غير الذي كنا نعملُ ، يا ليتني كنت تراباً ! فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا ؟ » ثم يقول الله سبحانه : « ولو رُدُّوا لعادوا لما نُهُوا عنه . » فعند ذلك تبقى بحسرتها ، ندامتها متألمة بذاتها ، معذبة من سوء عاداتها ، عمياء فى جهالاتها ، دون فلك القمر ، سائحةً في قعر الأجسام المُدْلهِمّة ، غريقة فى بحر الهيولى، هائمةً هاويةً في عالم الكون والفساد مع أبناء جنسها من الأمم الخالية إخوان الشياطين وجنود إبليس أجمعين ، كما ذكر الله تعالى : « كلما دخلت أمة لعنت أختها » إلى آخر الآية ، وهم متعلقون بأبناء جنسها من النفوس المتجسدة بالوسوسة لها إلى ما في طباعها من شهوات هذه اللذات المحسوسات، ضالّين مُضلّين في جهنم خالدين، كما ذكر الله تعالى: «فكبكبوا فيها هم والغاوون » ؛ وذلك هو العِقابُ والعذاب الأليم والجزاء للنفوس الشريرة الجاهلة والغافلة عن الحقائق والعلوم الشرعية .

فصل في ماهية الشياطين وجنود إبليس أجمعين

اعلم أن النفوس المتجسدة الخيّرة ملائكةٌ بالقوة ، فإذا فارقت أجسادها ، كانت ملائكة بالفعل ، كما بينّا في رسالة صفات المؤمنين المحققين ورسالة البعث . كذلك النفس المتجسدة الشريرة هي شياطين بالقوّة ، فإذا فارقت أجسادها كانت شياطين بالفعل. فهذه النفوس الشيطانية بالفعل توسوس للنفوس الشيطانية بالقوّة ، لتُخرجها إلى الفعل ، كما قال تعالى : « شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً . » فشياطينُ الإنس هي النفوس المتجسدة الشريرة آنستْ بالأجساد ، وشياطينُ الجنّ هي النفوس الشريرة المفارقةُ للأجسام المحتجبةُ عن الأبصار . ومَثَلُ وسوسة هذه النفوس المفارقة لهذه النفوس المتجسّدة كمَثَلِ من قَوِيت شهوته للطعام والشراب ، وضعفت حرارتُه الهاضمة عن نضجها ، فهو يشتهي ولا يستمرىء ، فعند ذلك تكون همّته أن يَرى الطعام والآكلين ، لينظر إليهم ، فيستريح عنها لضَعفِ الآلة ، وبُطلان فعل القوة ؛ وكمَثَلِ من ضعُفت آلة جِماعه لا يقومُ عليه ، فهمّتُه أن يَرى الفاعلين لعله يُقوّي طبيعته ويُنهِض آلته .

وهذه حكمُ النفوس المفارقة ليست لها آلة تنال بها اللذات المحسوسة ، فهي تُحبّ وتوسوس إلى أبناء جنسها ممن لها تلك الآلة على الفعل . فهكذا وسوسة النفوس الشريرة المُبغضة ، إذا فارقت أجسادها ، تعلقت بأبناء جنسها من النفوس المتجسدة المُبغضة الشرّيرة بالوسوسة لها إلى القتال والخصومات والعداوات ، وإلى هذه النفوس أشار بقوله تعالى : « من شر الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس من الجِنّة والناس» .

فهكذا حكم أبناء الدنيا ، يا أخي ، الجاهلين بأمر المَعاد ، المشتغلين بالأجساد ، الغافلين عما بعد الموت ، المُنظَرين إلى يوم الوقت المعلوم كما ذكر الله تعالى: « ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون » كما بيّنا في رسالة البعث والقيامة ، فاطلب

من هناك .

وإذ قد فرغنا من ذكر الآلام الروحانية التي تصل إلى النفوس الشريرة بعد مفارقتها أجسادها التي كانت جنّة لها ، فنريد أن نذكر اللذات الروحانية التي تجدها النفوس الخيّرة الفاضلة بعد مفارقتها أجسادها التي كانت كالسّجن لها ، كما بيّنا في رسالة كراهيّة الحياة والموت .

ثم اعلم يا أخي أن اللذة والراحة والسرور والفرح والنعيم التي تجدها النفوس الخيّرةُ الفاضلة المَلَكيةُ بعد مفارقتها الجسد المُعَبَّر عنها في الشريعة بالثواب والجزاء ، يَقصُر الوصفُ بحقائقها ، ولا يبلُغ البشر كُنْهَ معرفتها ، لأنها روحانية أبدية سَرمدية . قال تعالى : « فلا تعلم أنفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاءً بما كانوا يعملون . » وقال ، عليه السلام : « فيها مِن اللذات ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر من الرّوح والرّيحان . »

ولكن نذكر منها طرَفاً ونُشير إليها إشارة وهمية حسبَ ما جرت عادة الإخوان الأصدقاء في ذلك، ونضرب لذلك مثلًا شِبهَ الرموز والإشارة والتنبيه ، كيما يَقرُبَ من فهم المتفكرين ويتصوّرَ في أفكار المريدين، فنقول:

اعلم أنه كان في الأزمان الماضية فتى من أولاد الملوك، شابّاً ظريفاً، حسن الوجه ، كامل البِنية ، تام الصورة ، جميل الأخلاق ، كريم الأفعال ، عادل السيرة ، عشق جارية حسناء من أقاربه من بنات الملوك ، فتزوجها وزفّها كما يليق بأولاد الملوك من الكرامات ، وعاش معها زماناً طويلًا في عِزّ سلطانه ونعيم مملكته ، ولذة شبابه ، وسرور نعمته ، آمنين هادئين بلا تنغيص من عوارض الحِدثان . ثم فرق الدهر بينهما بموتها ، وزال الفتى عن مُلكه بغَلَبة عدو ظهر عليه ، واغترب عن بلاده وساح في الأرض على حالة الغُرباء ، وافتقر وأصابه الذّل والهَرم، وضَعُف بدنه، وذهبت قوته ، وكَلّ بصره ، وثَقُل سمعه ، وأصابه العريُ والجوع والعطش ، وتمنى الموت مما هو

فيه من المِحنة والبَلوى والجَهد والشّدة ، فدخل خِرْبةً ونام فيها على مَزْبَلة ورماد يستريح بلين وِطائها ، فوجد راحةً ، فنام ، فرأى في منامه كأنه شاب طريٌ كهيئة ما كان عليه في صباه ، وقد رجَعت إليه قوة بدنه ونشاط نفسه وأيامُ شبابه ، وكأنه على سريرٍ في مُلكه وعز سلطانه ونعيم اثاثه وسرور أيامه ، إذ هو بتلك الجارية كهيئتها يومَ عشِقها وزمانَ تزوجها بحُسنها وجمالها ، فعانقها والتزمها شهوةً ونال منها شهوته ، كما كان يُدرك بَدْءاً ، وهما على سريرِ المُلك يحملهما الريحُ حيث أرادا. فمن شدة ما وجد من اللذة والفرح اضطرب من نومه وتحرك وانتبه ، فإذا هو في تلك الخِربة وفي تلك المَزْبلة وكلابٌ حوله تنبحُ عليه .

فماذا ترى أيها الأخ كم بين حالِ نفسه في ذلك المنام ، وما وجد من اللذة والسرور والفرح ، وبين حالتها لمّا استيقظت من الغموم والأحزان والشدائد والبلوى والجَهد ؟ فهكذا القياس بين حال النفوس الخيّرة وكونِها مع الأجساد وبين كونها مفارقةً للأجساد من اللذة والفرح والسرور ، وبالإضافة إلى حالها مع الأجساد وما يلحقها من الهموم والغموم والأحزان والمصائب والشدائد. نجّانا اللهُ وإياكَ وجميعَ إخواننا من ألم نيران جهنم عالَمِ الكون والفساد ، وأوصَلكَ وإيانا إلى نعيم الجِنان عالَمِ الأرواح والأفلاك من ملكوت السماء وجِوار الملائكة المقرّبين مع النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين .

تمت رسالة الآلام واللذات ، ويتلوها رسالة في بيان علل اختلاف اللذات.

الرسالة السابعة عشرة
من الجسمانيات الطبيعيات

في علل اختلاف اللغات ورسوم الخطوط والعبارات

(وهي الرسالة الحادية والثلاثون من رسائل إخوان الصفاء)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وسلامٌ على عِباده الذين اصطفى ، آللهُ خيرٌ أمّا يُشرِكون ؟

فصل

اعلم أيها الأخ البار الرحيم ، أيّدك الله وإيانا بروح منه ، انه لما فرغنا من ذكر اللذات والآلام الجسمانية والروحانية ، وذكر عِلّة كراهية الحيوان للموت ، نريد أن نذكر في هذه الرسالة التي في آخر الطبيعيات بيان اختلاف علل اللغات فنقول :

إن معرفة عِلل اختلاف اللغـات والكلام والأصوات ، ورسوم الخطوط والكتابات ، وكيفيّـة مبادىء المذاهب واعتقادات الآراء والديانات ، وأصل تكوينها ومَبدئها وظهورها ومنشئها وتزيينها ونموها وكثرتها ، واختلاف أهلها فيهـا وآرائهم ومناهجهم ، ودثور قومٍ وكون آخرين منهم قرنـاً بعد قرن وأمة بعد أمة ، لا تكون إلاّ بعد البيان والإيضاح عن الأصل الذي تفرّعت

عنه هذه الأمور التي ذكرناها ، والإخبار عن كيفية تركيبها وتحليلها ، وحركتها في مبدئها ، وكونها بذاتها، وعن اختلاف مجاريها وينبوعاتها في سائر الأجسام، وشدّة بيانها عن الحواسّ، وسريانها في الأجناس، وإثارتها للحواس، وصفة حدوثها بسُرعة وانتقال ، وخروجها بحركة وانفصال ، وذهابها بعدم واضمحلال ، وكيفية وجودها في عالم الإنسان ، وكيف كانت فيه في مبدئها وكيفيّتها فيما دونه من الحيوان وغير الحيوان ، تؤدّيها إلى حاسة السمع من جُملتها ، ومن يحملها وكيفيّة حملها ، وما السببُ الموصِلُ لها إلى الحاسّة المتحققة بها ، ولم يدركها من الحواسّ غيرُ هذه الحاسّة ، وما العلّةُ في ذلك ، وكيف يعرِف الإنسانُ بخاصة هذه الحاسّة مفهومها وغير مفهومها بالبرهان .

وهذه أمور غامضة نحتاج فيها إلى بحث دقيق ؛ والإخبارُ بها من غايات الأسرار، ونريد أن نذكر منها في هذه الرسالة طرفاً بحسب التوفيق، ليكون مَدخلًا إلى علم ذلك، ومقدّمة بين يديه ليَسهُل الباقي ، ويكون بأوجز قول يؤدّي إلى الفهم ، وأوضح دليل يَسهُل به العلمُ من غير تطويل يشتبه على قارئه ، ولا إسهابٍ يُضجر راويه ، ونبدأ من ذلك في ذكر الأصل والعلم في مبادئه فنقول :

اعلم أن هيُولى الحِكمة تتحد من إرادة الهيئة ، لأنها هَيُولى قابلة لجميع الأشياء ، وهي مادة سماوية ، وقوّة فلكية وأسباب علْوية ، وقوة عقلية متصلة بجواهر روحانية وأشخاص نفسانية ، ترتبط بأفلاك دائرة ، وتتصل بكواكب سائرة ، وتشرق على نجوم طالعة ، وتضيء بأنوار ساطعة ، وترمي إلى ما دونها أنوارها وتودع المُصطفين في الأشخاص الإنسانية أسرارها، وتجعل فيهم ودائع الخيرات ، وتجعلهم مفاتيح البركات ، وذلك بما يتخالف إليها ويتعاقب عليها من اتصال وافتراق ، واختلاف واتفاق ، من غير خَلَلٍ في نظام الابتداء ، ولا تنقّص عن تمام البلوغ والانتهاء . وإن تلك المادة الفاعلة لجميع المكوّنات لا تُدرَك إلاّ بلطائف الحواسّ ، ولا يُبلَغُ تناولها إلاّ

بالالتماس، وكيف لا يكون ذلك كذلك، وهو السبب الذي لا تنقضي عجائب مادته ولا تفنى مواد كميته ، فنقول:

اعلم يا أخي أن المعرفة لها والعلم بها درجةٌ صعبةُ الارتقاء ، ومسافة بعيدة الانتهاء، وهي درجة العارفين ومَقامُ المُستبصِرين الناظرين إلى آثارها، العارفين بأخبارها من طريق العِناية عن الحواس الحيوانية ، والطريق الجِرمانية ، إذ كانت آثارها روحانيّة ، ومواردُها نفسانية ، وعنها صدرت القوّة المتصلة بالحكماء ، وهي روح القُدُس النازلة على الأنبياء ، عليهم السلام ، بالوحي من السماء ، وعليها معوّل العلماء ، وربما وردت أشياء كثيرةُ الاختلاف ، بعيدة الائتلاف ، متباينة القوانين ، مختلفة الموازين .

وذلك أن ما كانَ منها في هذا المكان الأرضي والمركَز السُّفلي تَضعُفُ الحواسُّ عن إدراك معرفتها ، وتعجز المشاعر البشرية التي هي من أسباب الهَيُولى عن بلوغ إدراكها . فإذا كانت الأشياء على هذا المِثال مَنشؤها ، وبهذا الترتيب مَبدؤها ، وكانت القوة التي هي مادّة المعرفة بالحِسّ في العالم الإنسي ، وسبب القَبُول في الجسم المجبول يعجزان عن البلوغ ، ويضعُفان عن الوصول ، وكانت مدّة الزمانية التي هي سبب الحياة الإنسانية، تقصّر عن الطلب ، وتفنى قبل بلوغ الأرب ، وتضيق عن الإحاطة بمعرفة ذلك السبب؛ وإذا كان الأمر على ما وصفنا ، كان أوّلَ ما قصده العاقل وتوخّاه ، واعتمد عليه الفاضل وتحرّاه، معرفةُ ما طاوعه عليه حِسّه ، وساعده على قَبُوله جوهرُ نفسه ، وتلقاه أيام مدته ، وأعمل فيه فكرته ، زادت فيه بصيرته ، فمن لا حِسّ فيه لا معرفة له ، ومن لا معرفة له لا جوهر له ، ومن لا جوهر له لا بلوغ له ، ومن لا بلوغ له لا مقرّ له ، ومن لا مقرّ له لا وجود له ، ومن لا وجود له فهو العدم .

فصل

ثم اعلم أن الغرض من اتحاد المركّبات كلّها هو معرفة السبب المُوجب لذاتها ، المُنشىء لمباديها ، المؤلّف لكيفيّاتها ، وكيف كان منشأُ الابتداء ، وإلى أين تؤول العاقبة في الانتهاء، وكيف كان التئام التأليف، واتفاقُ اللطيف بالكثيف ، وازدواجُ التركيب ، وكيف يكون افتراق المجتمع ، وانفراد المزدوج ، وانحلال المنعقد، واتحادُ منفردها ، وعدم وجودها ، ونفادُ أجزائها بعد صحة وجودها وسلامة معهودها ، ووثاقة معقودها . فإذا أنت علمته وتصوّرته وتبيّنته وتأملته بانَ لك ، إذا ساعدك عليه حسُّك وأوصلك إلى معرفة قَبول جوهرة نفسك ، وتأملته تأمل التحقيق ، وبانَ لك كيفيّة التأليف والتركيب ، واقترانُ اللطيف بالكثيف اللذين بهما وبصحة معرفتهما وجود مادّتهما ، وإحداهما مادّة أرضيّة وقوة جِسميّة ، والأُخرى صورة روحانية وشهوة ملكية ، فيا لها من قصّةٍ عجيبة ظريفة من اجتماع ما علا مع ما دنا ، وارتباط ما لطُف بما كَثُف ، حارت في ذلك عقول الحكماء ، وتاهَتْ فيه أذهان العُقلاء ، وانسدّت الطرقات ، وانطمست العلامات ، وتعذّرت الدلالات، إذ كان من المنكَر في هذا العالم على من له حكمة ونظر أن يقرُن العالم بالجاهل، وأن يجمع بين الجوهر والحجر في مقرٍّ واحد، اللّهم ألاّ يكون أراد تعذيب العالم بالجاهل ، جزاء له بذنب عَمله وجُرم قدّمه ، أو مُقارنةَ الجوهر بالحجر وكونهما في مكان واحد ، ليكون الحجر ستراً على الجوهر وواقِياً له وغِطاء عليه وحِجاباً بين يديه، لا أن يكون العالم والجاهل عنده في مقام واحد . وكذلك الحجر والجوهر إذا كانا في مقام من جهة الصُّورة الجسمانية والهَيُولى الجِرمانية ، منعكسان في فيء الهَيُولى ، فإنهما لا يعرفان ما اتحد بهما بفيء الظل والجوهر من المواد المُضيئة والرتب العُلوية ، أعني العالم ، والحجرُ عدِم ذلك فليس يقال بأنه عالم .

ولما كان ذلك كذلك ، زالت الشبهة والإنكار لوجود معرفة ذلك السبب الموجب الاجتماع ، ووجب للطالب إذا طلب معرفة ذلك السبب ، ومن بعد وجود اجتماعها حصولَ افتراقهما ووجودَ أحدهما بجملةٍ ، وعدمَ الآخر وتفرقته ، وإذا عرفتَ ذلك بان لك الفرقُ بين الجسم والعَرَض، وأدركت المرادَ والغرض . وسأبينُ من ذلك طرفاً يُعينك على ذلك ، ويبلغك إلى معرفة ما وصفتُ لك ، إذ قد فرغنا من ذلك ، رجعنا إلى الإبانة عن تركيب الأصوات واختلاف اللغات، ومبادىء الخطوط والكتابات والألفاظ والعبارات واستخراج الحروف والمؤلّفات ، ومن أين تخرّجت وعمن أُحدِثت ، وفي أي مكان وُجِدت ، والله وَليُّ التوفيق .

فصل

ثم اعلم أنه لما سرت القوة النفسانية في الجسم الذي هو العالَم بأسره بعد كونها لا سريانَ لها ، ساكنة في حظيرة القُدُس في روضة الأنس ، حيثُ سرَيان القوة العُلْوية فيها وإشراقُها عليها، وكونها مُرتّبة بحيث رتّبها باريها كما قال تعالى : « ولقد علمتم النشأة الأولى » وهي الكونُ في وقت الابتداء . فلما امتلأت من الفضائل والخيرات وما بلغ إليها من الإفاضة ، وكانت ذاتَ فكر وتخيُّل ، فتفكرّت ثم تخيّلت ، ثم نظرت ، فأرادت أن تكون ذات مِنّةٍ وتفضّل ، وأن تكون رياسة ونَفاسة ، وأن تكون مفيدة ، فبدا لها في ذلك التخيّل الذي تخيلته ، والمثالِ الذي مثلته ، وانبثَّ السرَيان فيه والارتباط به من جسم العالم ، ومكّنها الله تعالى من ذلك وجعله جسداً لها ، وأراها خِلافَ ما ظنّته ، فلما دارت أفلاكه وسارت أملاكه ، وزَهَرت كواكبه ، وبدت عجائبه ، أقبلت تُمثّل فيه ما كان مُمثّلا فيها ، وتخرجه من القوة إلى الفعل ، ومن المعقول إلى المحسوس ، الشيء بعد الشيء ، ثم إن

جميع الموجودات وسائر المصنوعات ، لما بدت ووُجِدت في العالم وقع الاختلاف فيها والسؤالُ عنها من جهة ثلاثة أنواع يحصرها جنس واحد. فأولُ ذلك الترتيبِ الأوّلِ المرتّبِ كان في النفس أولاً بالقوة والأمور العقلية المعقولة ، وهي صورة أعيانِ بسائطِ المركّبات والموجوداتِ بالترتيب ؛ والثاني هي الأمور المحسوسة ثم البرهان يقتضي عِلّتَها ويبيّن معانيَها، ويعرف الناظرُ فيها والسائلُ عنها معرفةَ كيفيتِها معقولةً في غاية التجرّد النفساني ، وكونها بعدها محسوسةً في العالم الجسماني .

فأما تفصيل ذلك فنقول : أما الصورة العقلية فهي آثار العقل الكُلّي في النفس الكُلّي لقَبُولها منه وكونِها بالقُرب منه ، وهي أنوار مضيئة تخرُج عن حَدّ الوصف بالعبارة الجسمانية من حيثُ التركيب ، إذ كانت في غاية البساطة والتجريد ، إلى الأمور المحسوسة ، فهي صورةٌ في الهَيُولى تدركها الحواسّ بالمباشَرة لها ، وتنفعل منها بخاصة القوة فيها .

وأما الأمور المُبَرهنة فهي أشياء لا تُدرَك إلاّ بمواد العلم وصحة العقل ، وهي أمور يكون مبدؤها من أمور إلهية وأشخاص مَلَكية ، تضطر العُقول إلى الإقرار بها والإذعانِ لصحتها والتمسُّكِ بمعرفتها ، كما بُيِّن في كتب الهندسة وصحة الدليل على ما قد قال أهلها / إن أشكال الأشياء لا يُحاط بأطرافها ، ولا تدرك أقدارُها ، ولا تُرى أقطارُها ، ولا يمكن رؤيتها إلاّ مُدوّرةً بأي شكل شُكّلت ، وأي مِثالٍ مُثّلت كما قال أقليدِس في كتابه : إن مِقدار ظل أي نهاية ، جِسماً كان أو سطحاً ، أو خطّاً ، فإنه يُمكن أن يوجد منه دائماً ولا يفنى أبداً . فهذه حِكمة لا تدركها الحواسُّ ولا تتصورها الأوهامُ البتّةَ من غير تعريف .

وقد تكلم أُقليدِس أيضاً في مقدّمات كتابه عن البرهان وقال: إن البرهان مقدّمات الحجة على تحقيق الخبر .

فأما التام فهو العلم بالمعلوم بجميع ما ذكرنا . قال أُقليدِس : وإنما النُّقطة

هي التي لا جُزْء لها ، والخط هو طول بلا عَرْض ، وطرفا الخط نُقطتان ، والخطُ المستقيم هو الموضوع في مُقابَلة كل واحدة من نُقطتَتي طرفَيه على سَمْتٍ واحد. فهذا يَدلُّ على أنّ النُّقطة وهمية لا تتحقق إلاّ بالبرهان ، ولا تعرف إلاّ بالخبرة ، فقد تبين إذاً أن الأُمور المُبرهَنة لا تُدركها الحواس ولا تتصوّرها الأوهام ، ولكن البرهان الضروريّ والحجة القاطعة يضطران العقلَ إلى الإقرار بهما ، لأن البرهان ميزانُ العقل كما أن الكَيلَ والوزنَ والذَّرْع ميزانُ الحواسّ ، فاعرف ما ذكرنا وتحقّق ما وصفنا ، وأدِمْ فيه فِكرَك ، وأعمِل رويّتكَ ، فإنك بذلك تنال غرَضك ، فتبلُغ مُرادك وطلبتك .

فصل في معرفة الأصوات الفلكية

فنقول: اعلم أن الأصوات هي الأعراض الحادثة من الجواهر ، والجواهرُ جنسان ، فما علا ولَطُف قيل: جواهرُ عُلْوية ، وما دنا وكَثُف قيل: جواهرُ سُفليّة وأصواتٌ هي أعراض لا يكون حدوثها إلاّ عن الجواهر ، وحدوثها لا يكون إلاّ من مُحرّك يحركها تارةً يعلِنّ الصوت ويتصل بسمع الحاضرين ، وتارة يُسكّنها فيَسكُن الصوت . ولما كان ذلك كذلك وضح البرهانُ على أن أصل الحركة هو النفسُ ، وأن الصوت منفعلٌ من حركتها وسرَيان قواها في الأجسام .

ولما كانت الأفلاك دائراتٍ ، والكواكبُ والنجوم متحركاتٍ ، وجب أن يكون لها أصواتٌ ونغمات. ولما كانت مستويةً في نظامها ، محفوظة عليها صورةُ تمامها وكمالها ، وجب أن تكون حركاتها منفصلةً ، وأصواتها متصلةً ، وأقسامُها معتدلةً ، ونغماتها لذيذة ، وألحانها بديعة ، ومقالتُها تسبيحاً وتقديساً وتكبيرا وتهليلاً تفرَحُ بها نفوسُ المستمعين لها ، والحافّين بها من الملائكة والنفوس

التي تقدم عليها ، وتصعد إليها . وتلك الحركاتُ والأصوات هي مِكيال الدهور والأزمان التي بها يُحكَم على عالمها بالبقاء من حيث هي ، كما أن الأصوات اللذيذة والألحان المُطربة والنغمات الحسنة في عالم الأبدان تفرح بها نفوس السامعين لها ، وتحِنّ إلى استماع ما كان لذيذاً منها ، وتُسَرّ بقربها ، وتُسلّي عنها الغموم ، وينجلي عنها الهموم ، ويكون منها سكوناتٌ فاصلة بين تلك النغمات والحركات ، فتصير عند ذلك مكيالاً للزمان ، وذرعاً له ، ومحاكيةً لحركات الأشخاص الفلكية ، والأصوات الملكية ، ومناسبةً لها ، وتلك هي الأصل في جميعها ، وهذه فروعها . وقد استمعتها النفوسُ وهي في عالم الكون والفساد ، فتذكرت بها عالم الأفلاك ولذات النفوس التي هناك من فُسحة الجنان وروضة الريحان ، وعلمت أنها في أحسن الأحوال ، وأطيب اللذات ، وأتم الأشكال ، وأدوَم السرور ، لأن تلك النغمات والأصوات هي أضعافُ هذه الألحان ، وهي أطيب ، لأن تلك أحسن ترتيباً ، وأصحُّ تأليفاً ، وأجودُ هنداماً ، وأقومُ نظاماً ، وأصفى جوهراً ، ومناسباتُ حركاتها أصحُّ تأليفاً .

فإذا تخيلت النفوس الجزئية التي في عالم الكون والفساد ما في عالم الأفلاك، وتيقّنتْ حقيقة ما وصفنا ، تشوّقت عند ذلك إلى الصعود إلى هناك ، واللّحاق بأبناء جنسها ، والوصول إلى حظيرة الفلك وروضة الأُنس .

ولما بان لنا أن الفلك طبيعةٌ خامسة ، وأنها ليست بمُخالِفة لهذه الأجسام التي دون فلَك القمر في كل الصفات ، وذلك أن منها ما هو مُضيء كالنار وهي الكواكب، ومنها صقيلُ الوجه كوجه المرآة وهو جرم القمر ؛ ومنها ما يقبل النور والظُّلمة مثلُ الهواء وهو فلك القمر وفلكُ عُطارد . وهذه كلُّها أوصاف الأجسام الطبيعية ، تشاركها الأجسامُ الفلكية ، فقد بان بأن الفلك ، وإن كان طبيعةً خامسة ، فليس بمُخالِف للأجسام الطبيعية في كل الصفات ، بل في بعضٍ دون بعض ، وذلك أنه ليس بحارٍّ ولا باردٍ ، ولا

رطبٍ ولا يابس ، بل هو صُلْب أشدُّ صَلابةً من الياقوت ، وأشفُّ من البِلَّور ، وأصقلُ من المرآة ، وأنه يَاسٌ بعضه بعضاً ، ويصطَكُّ ويحتكُّ ويطِنُّ كما يطِنُّ النُّحاس ، ويكون لنغماته وأصواته مناسباتٌ مؤتلفةٌ ، وألحان موزونةٌ كما بيّنا في رسالة الموسيقى بأكثرَ من هذا البيان ، وأقمنا عليه البرهان من صناعة العود وضَرْبِ الأوتار، وما يستعمله أهلُ هذه الصناعة من النسبة . وهي أصحُّ نسبةٍ تكون ، وأفضلها ، لأنها نسبةٌ روحانية .

فصل

ثم اعلم أنه لو لم يكن لحركات أشخاص الأفلاك أصواتٌ ونغمات ، ولا للملائكة كلامٌ ولا تسبيح ولا تقديس ، فليسوا هم إذاً أحياء ، فهم أموات ، لأن الصمت بالموتى أولى ، ولربما احتكَّ بعضُ الأحجار ببعضٍ ، فيَحدُث من بينهما قَرْعٌ في الهواء . ولو كان الفلك ومن فيه بغير كلام ولا صوت ولا نُطقٍ ، لكان ما يكون تحته مُشاكِلاً له ، وكان من يكون ساكناً بغير حركة .

ولما كان هذا من الأصل في البداية ، وجب أن يكون ما تحته مُناسباً له لكن هو الأعلى زيادة عليه ، إذ كان هو الفاعلَ وهذا المنفعل ، وأيُّهما الأولى بالنُّطق والحركة والكلام والتسبيح والتكبير والتقديس والتهليل : أهلُ السماوات والأفلاك أم أهلُ الأرض من عالَم الإنسان والحيوان والجمادات؟ وأيُّهما أولى بالسَّمع والأبصار والأذهان والأفكار والخواطر والأذكار والعلم والعقل : أهلُ السماوات أم أهلُ الأرض ؟ فأهل السماوات هم المسبِّحون المستغفرون لمن في الأرض ، لا يَفتُرون عن التسبيح ، ولا يسكتون عن التقديس بألحان طيِّبة ونغمات لذيذة ألذّ من نغمات العيدان، ونَقْر الأوتار والطنابير ، ومُجاوَبة المزامير في الميادين الفسيحةِ والأنبوبات القائمة. وإن تلك النغمات والألحان تذكّر تلك النفوس البسيطة التي هناك سرور عالم الأرواح

ومَحلّ الأشباح التي فوق فلك الأفلاك التي جواهرُها أشرفُ وألطفُ من جواهر عالم الأفلاك الذي هو عالم النفوس ودارُ الحيوان ، التي نعيمُها كلّه رَوحٌ وريحان في درجات الجنان . ولذلك صارت النفوس الجزئية التي في عالم الكون والفساد ، إذا سمعت الأصوات الطيبة والنغمات اللذيذة ، مثل قراءة الإنجيل ، وتلاوة القرآن ، وألحان الداوديّة ، وألحان القُرّاء في المجالس ، تذكرت رسومَ الأفلاك ، ومحلّ السماوات ، وتشوقت إلى ما هناك. ولذلك قالت الحكماء: إن الموجودات والمعلومات هن التي تحاكي أحوال الموجودات الأُولى التي هي عِللٌ لها . وقولُهم إن الأشخاص الفلكية عِللٌ وآلات لهذه الأشخاص التي في عالم الكون والفساد ، وإن حركات تلك عِلةٌ لحركات هذه، وحركات هذه تحاكي حركات تلك، فواجبٌ أن تكون أصوات هذه ونغماتها تحاكي ما هو عِلةٌ لها ، كمحاكاة الصبيان أصواتَ آبائهم وأمهاتهم وحركاتهم في لعبهم، فإنهم يحاكون أفعال الآباء والأُمهات . وهكذا التلامذة يحاكون أفعال الأُستاذين . وأكثرُ العقلاء والعلماء من الناس يعلمون أن الأشخاص الفلكية وحركاتِها المنتظمة وأصواتَها الموزونة على النّسبة الفاضلة ، متقدّمةُ الوجود على الحيوانات التي تحت فلك القمر ، وحركاتِها عِلةٌ لحركات هذه ؛ وأن عالم النفوس مُتقدّمُ الوجود على عالَم الأجسام كما بيّنا في رسالة المبادىء العقلية . ولما وُجد في عالم الكَون والفساد حركاتٌ وأجسامٌ ذواتُ أصوات وحيوانات ناطقة ، دل على ذلك أن في عالم السماوات أشخاصاً ناطقات ولطائف متحركة ، وأن لتلك الحركات نغماتٍ متناسبات مُفرّحة لنفوسها ، ومُشوّقة لها إلى فوقها ، كما يوجد في طباع الصبيان اشتياقٌ إلى أحوال الآباء والأُمهات ، وفي طباع المتعلمين والتلامذة اشتياقٌ إلى أحوال الأُستاذين ، وفي طباع الجنود والخدَم اشتياق إلى أحوال الملوك والرؤساء ؛ وفي طباع العقلاء والفضلاء اشتياقٌ إلى أحوال الملائكة وتَشبّهٌ بهم ، كما قيل في حد الفلسفة إنها تَشبّهٌ بالإله بحسَب طاقة الإنسان .

وقد قيل إن فيثاغورس سمع بصفاء جوهره وذكاء قلبه نغمات حركات الأفلاك ، وأصوات حركات الكواكب ، واستخرج بجودة فكره أصواتَ نغمات الموسيقى وأوضاعَ ألحانها المُطربة ، وهو أول من تكلم في هذا العلم، وخبّر عن هذا السر من الحكماء ، ثم نيقوماخس وبطليموس وأقليدس وغيرهم من الحكماء تصرّفوا في ذلك وأتقنوا كما ينبغي .

وقد ذكرنا في هذا المعنى واستقصينا البيان بإقامة الدلالة عليه في رسالة الموسيقى ، فقد بان بما ذكرنا وتحقق بما وصفنا أن السماوات عامرة بأهلها مسكونة ، ولسكانها أصوات ونغمات ، والأصوات والنغمات والحركات ، التي هي أعراضٌ تحدثُ من حركات الأجسام الحيوانية وغير الحيوانية ، إنما تظهر وتبرز بحسب بروز تلك الأصوات في ذلك العالم .

وهكذا أيضاً تتبعُ هذه الحركات الجزئية تلك الحركات الكلية . وهذه حركات ناقصة ، وتلك حركات كاملة . وهذه حركات فانية ، وتلك حركات باقية صالحة . وتلك الحركات والأصوات والنغمات كلها مفهومة ، وهذه غير مفهومة ، وتلك مستوية ، وهذه غير مستوية .

والعِلّة في ذلك صفاء هَيُولى تلك ، وكدر هَيُولى هذه . وهيولى هذه فانية فاسدة ، وتلك باقية صالحة . وتلك الحركات مكايل الدهور النفسانية ، وهذه مكايل الأوقات الزمانية . وهذه مركّبة ، وتلك بسيطة . وهذه فيها اختلاف وتغيير ، وتلك لا اختلاف فيها ولا تغيير ، والنغماتُ اللذيذة والأصوات الطيبة في هذا العالم قليلة الوجود ، معدومةٌ على الحال الأكثر ، يتخصص بها الملوك والكبار ، ويتنافسون فيها ، ويكثر غيرُ المخصوص بها لشرفها وجلالتها في النفوس . ولذلك صارت النفوس الجزئية إذا سمعت نغمة طيبة وصوتاً حسناً تنجذب إليه وتصبو نحوه ، وتُنصِت إليه أسماعها لقلته وكثرة أضداده من الأصوات المُنكرة . وهكذا ميلُها إلى الصورة الحسنة والأشخاص المليحة لقلتها وكثرة أضدادها، فلذلك صارت المستحسَناتُ مرغوباً

فيها ، محبوبةٌ لكثرة التنافس فيها ، ولقلة وجودها .

فأما ذلك العُلويُّ فكله رَوح وريحان ، ونغمات لذيذة وألحان طيبة ، وصور حِسان ، وهو مسكن الحُور والوِلدان ، وسرورٌ وخيرٌ معرًّى من الشوائب المُنغّصة والأخلاق الموحِشة . فلذلك قيل إنه لا يصل إلى هناك إلاَّ من حسنت أفعاله وزكت أعماله ، فيكون ذلك مُعيناً له على الارتقاء إلى هناك ، واللّحاق بذلك العالم الفاضل الشريف الكامل . ولذلك قيل حُسنُ الصوت زيادةٌ في الرزق ، وقيل سماحةُ الصوت نصف الزمانية .

فصل

ثم اعلم أن من لدن فلك المحيط إلى منتهى فلك القمر أصواتاً مرتفعة وألحاناً مُطربة ، ونغماتٍ لذيذةً ، ولغات مختلفة ، وحركات مؤتلفةً ناطقةً كلُّها بالتسبيح والتهليل والتكبير والتحميد . فقد بان لك بهذا الوصف معرفةُ الأصوّات الفلكية والحركات السماوية . وسنذكر بعد ذلك الأصوات الأرضية والنغمات السُّفلية .

فصل في معرفة أصول الأصوات الأرضية

فنقول : اعلم أن أصل الأصوات هو ما حدث من تصادُم الأجرام وحركات الأجسام . والصوت قَرعٌ يحدُث من الهواء إذا صدمت الأجسامُ بعضُها بعضاً ، فتحدُث بين ذينِكَ الجسمين حركةٌ عَرَضية تسمى صوتاً ، بأي حركة تحركت ، ولأي جسم صدمت ، ومن أي شيء كانت . وهذه الأصوات تنقسم قسمين : حيوانية وغير حيوانية . والحيوانية تنقسم أقساماً وتتفرق أجناساً على حسب اختلاف الحيوان في أجناسها وتباينِها في أصواتها .

وسنأتي على بيان ذلك في موضعه إن شاء الله. والأصواتُ التي هي غير حيوانية أيضاً تنقسم قسمين وتوجد في نوعين ، وذلك أنها طبيعية وآليّة . فالطبيعيةُ كصوت الرعد والريح والبرق وكصوت الأجسام التي لا أرواح فيها كالجمادات ، ومثل صوت الحديد والحجر والخشب وما أشبه ذلك . والآليّة هي الأجسام الصناعية كصوت الطبل والبوق والزّمْر والوتر والمَناقِر . وجميعُ هذه ، طبيعيةً وآليةً ، لا يحدُث فيها صوت ولا يُسمَع لها حركة إلا من تصادُم بعضِها ببعضٍ ، وامتزاج بعضِها ببعض . فإنه لولا أن الزامر ينفخ في الناي ، والمغني يحرّك الوتر ، والناقر ينقُر الحجر ، لم يوجد لذلك صوت ولا يُسمَع له حِسّ .

وأما أصوات الرعد فقد قالت الحَشْويّةُ [١] إنه للمَلَكِ يَزجُر السحاب ويسوقه ويفرّقه يميناً وشمالاً ، وإن الملائكة عن يمينه وشماله يسبّحون بتسبيحه ويسكتون بسكوته . سبحانك هذا بُهتانٌ عظيم ، فلم يكن عند علماء هذه الطائفة الحَشوية أكثرُ من هذا العمى ببصيرتهم وقِلّة عقلهم وتمام جَهالتهم .

وقال غيرهم ممن يدّعي معرفة علم الهيئة إنه يحدث من تصادم السّحاب واصطِكاك الغيوم . وهذا خطأ لأن السحاب جسمٌ منعقدٌ من البُخار يتصاعد من الأرض لطيفاً ، ثم يتكاثف من التئام بعضه إلى بعض ، وهو جسم لا صوت له .

وقال آخرون هو الريح يخرُق السحاب ، والريح إذا خرَق السحاب ، فرّقه وقطّعه ، ولم يحدُث من بينهما صوت .

بقي القول في الصواب ، وهو أن يَطلُعَ البخارُ بلطافته ، حتى يتعلق في عِنان الهواء ، وهو على ضَرْبين رَطب ويابس . فإذا اجتمعا وتكاثفا امتزجا وتعاقدا ، فعُقِد البخارُ الرطب مع البخار اليابس بقوة كثافته وشدة رطوبته ،

[١] الحشوية : طائفة اسلامية تمسكوا بالظواهر وذهبوا إلى التجسيم وغيره .

ولا يكون له منفذ إلاّ بشدة شديدة ، فيجتمع بقوته ويخترق الهواء بلطافته ، فيحدُث منه ذلك الصوت على قدر كثرته وقلته. وربما طلب العُلُوَّ فلم يكن له منفذ ، فانعكس البخار اليابس ، فطلب السُّفل ، فقدح ناراً أو يحدُث منه صوت هائل ، وهو الذي يسمى الصاعقة ، كما يحدُث من الزّق المنفوخ ، إذا وقع عليه حجر ثقيل من شاهق ، وشقّه وخرج منه الهواء الذي كان فيه دفعةً واحدة ، وحدث منه صوت هائل، وهو الذي يسمى صاعقة، يسمعه من بقرب تلك البُقعة ، وربما يتحول ذلك البخارُ فيصير ريحاً يدور في جَوف السَّحاب ، ويطلب الخروج منه ، ويُسمَع له دوي وقرقرة كما يُسمَع من أجواف الحيوان والإنسان من الريح التي تحدُث في الجوف من جهة المأكول الذي يحدُث فيه .

فصل

ثم اعلم أنه ، لولا العناية الإلهية والسياسة الربّانية ورحمة الله تعالى بخلقه ورأفتُه بعباده بأن جعل كُرة النسيم عاليةً عن كُرة السحاب ، مرتفعةً بعيدةً من الأرض بمقدار الحاجة ، وجعل من شأن السحاب أنه إذا انخرق طلب الصعود إلى فوق، ومن شأن فَرْغ الهواء إذا حدث أن تكون حركته إلى فوق ، ولولا ذلك ، لكانت أصواتُ الرعد ولمعانُ البرق تضرُّ بمسامع الحيوان وأبصارها ، ولأهلكتها كما يكون ذلك في بعض الأحايين. وذلك أن السحاب إذا تزاحم ودفع بعضُه بعضاً ، حتى ينضغط فينتقل من قرب الأرض، وتحدُث منه الرعود ، وتنخرق السُّحُب من أسفل ، فيحدث من ذلك فَرعٌ في الهواء ، وتدافُعٌ مُنحطٌ في الأرض، فيكون من ذلك صوت هائل يسمى صاعقةً ، وتقتلُ كثيراً من الحيوان الذي يقرُب من ذلك المكان ، وربما أحرقت بعض الأجسام الرخوة لأنها نار لطيفة . وأما الأجسام الصُّلبة فإنها

قلّ ما تفعل فيها ، وقد ذكرنا طرَفاً من هذا في رسالة الآثار العُلوية ، ولولا خروجنا عمّا له قصدنا ، لشرحنا ذلك شرحاً تامّاً كاملاً .

ثم اعلم أنه كما لا يجوز في العقل أن يكون حيوانٌ إلاّ من مُماسّة أسبابٍ أو نكاح أجسام ، كذلك لا توجد الأصوات إلاّ في الأجسام ، ولا تصوّت الأجسام إلاّ بحركات .

ثم إن الأصوات أعراضٌ حادثة ، والجواهر أجسام حاملة لها ، فإن زعم زاعمٌ أو اعترض معترض، فقال إنه قد توجد أصوات في غير أجسام ومن غير حركات الأجسام ، وذلك أنه إذا تكلم مُتكلمٌ في سَفح جبل، أو صاح في قعر بئر أو نهر، أجابه مجيبٌ بمثل كلامه، يسمع المتكلّمُ جوابه من غير جسم ولا حركة جسم . وقد يُرى أيضاً حيوانٌ يتكوّن من غير نِتاج ولا نِكاح مثل دود الخلّ وسُوس التمر وما يتكوّن من العُفونات ومن النّداوات وما أشبه ذلك ، فليعلم هذا المعترض وهذا القائل أنه ليس القول كما زعم ، فإنه جاهلٌ بهذه الأشياء وبهذه الأسباب الموجبة لحدوثها منهـا وكونها عنهـا ، فغَلِط فيما رأى من موجوداتها، وكان قليلَ المعرفة بمعلوماتها، وإنه لما سمع الصوت من الجبل والبئر، ظنّ بأنه أجابه بجوابه ورد عليه بكلامه إما من حيوان لا يراه وشيء لا يعـاينه ، أو أن الجبل نطق بجوابه وقَعرَ البـئر ردّ كلامه . فهذا تخيُّل من لا عقلَ له ولا معرفة عنده . فالصوت الذي يسمعه إنمـا هو صوته والحركة التي بدت منه في الهواء، وذلك أنه صاح في سَفح الجبل وقَعر البئر إلى جانب الحائط، فخرج من جَوف المتكلم شَكلٌ كُرَويٌ ونقشٌ عرضيٌ يأخذه الهواء إلى أن يؤدّيَـه إلى ذلك الموضع ، فيصادفه مـا يمنعه من النفوذ والانتشار ، فيرتدّ راجعاً ، فيُسمَع منه ذلك الصوت وهو الصّدى ، وسنأتي على شرح ذلك كما ينبغي في موضعه .

فصل

واعلم أن الأصول في أصوات ذوات الأصوات أن معرفتها تكون بمعرفة الطبائع الأربع التي هي الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة ، والأركان الأربعة المعلومة ، وكيفيّة استحالة بعضها إلى بعض، وامتزاج بعضها ببعض في الأزمان والأماكن، وما يحدُث منها في البِقاع والمعادن. فمن بحثَ عن ذلك بفكره ونافذِ بصيرته وجَودة تأمله وثاقب نظره ، علم أن الأركان الأربعة لها جِهات أربعٌ من الشرق والغرب والشمال والجنوب. ولهذه الجهات أوتادٌ أربعة وهي الطالع ، والغارِبُ ، ووتَدُ تحت الأرض ، ووتَد وسط السماء . وهذه الأسباب الأربعة ممثّلةٌ على حدود أربعة ترجع إلى سببٍ واحد . ولمعرفة هذه الحدود أقوامٌ إذا سألتهم عنها عرّفوك، وإذا قصدتهم أرشدوك، فإن الكائنات التي هي من استحالة هذه الأركان أربعةُ أنواع :

فمنها حوادثُ الجو ، والتغيُّراتُ الهوائية ، والكائنات منها مثلُ الرياح والأمطار والرعد والبرق والثلج والهالاتِ والشُّهُب وذواتِ الأذناب واحمرار الشفق والنيران الحادثة في الأفق .

ومنها الكائناتُ التي في باطن الأرض كالبُخار المحتقِن هناك ، والهواء المُنحصِر ، وما يحدث من الزلازل والرّجَفات والخَسْف والهدّات، وما قد أحكمته الطبيعة في باطن الأرض ، وأسْخَنَته ببخارها وطبخته بنارها من مائع وجامد وكائنٍ وفاسد، مثلِ معادن الذهب والفضة والنُّحاس والحديد والرصاص والزيبق والكِبريت والنّفْط والملح والشّبّ والزاج وسائر المعدِنيّات الذائبة والجامدة . وهذا علمُ معرفةٍ كثيرة الفائدة . وقد ذكرنا طرَفاً في رسالة المعادن .

ومنها الكائناتُ على وجه الأرض التي تسمّى النامية ، وهي على ضربين : نامٍ بالقوة وهو سائر النبات، ونامٍ بالحياة وهو جميع الحيوان. وكون جميع

قلّ ما تفعل فيها ، وقد ذكرنا طرَفاً من هذا في رسالة الآثار العُلوية ، ولولا خروجنا عمّا له قصدنا ، لشرحنا ذلك شرحاً تامّاً كاملاً .

ثم اعلم أنه كما لا يجوز في العقل أن يكون حيوانٌ إلاّ من مُماسّة أسبابٍ أو نكاح أجسام ، كذلك لا توجد الأصوات إلاّ في الأجسام ، ولا تصوّت الأجسام إلاّ بحركات .

ثم إن الأصوات أعراضٌ حادثة ، والجواهر أجسام حاملة لها ، فإن زعم زاعمٌ أو اعترض معترض، فقال إنه قد توجد أصوات في غير أجسام ومن غير حركات الأجسام ، وذلك أنه إذا تكلم مُتكلمٌ في سَفح جبل، أو صاح في قعر بئر أو نهر، أجابه مجيبٌ بمثل كلامه، يسمع المتكلّمُ جوابه من غير جسم ولا حركة جسم . وقد يُرى أيضاً حيوانٌ يتكوّن من غير نِتاج ولا نِكاح مثل دود الخلّ وسُوس التمر وما يتكوّن من العُفونات ومن النّداوات وما أشبه ذلك ، فليعلم هذا المعترض وهذا القائل أنه ليس القول كما زعم ، فإنه جاهلٌ بهذه الأشياء وبهذه الأسباب الموجبة لحدوثها منها وكونها عنها ، فغَلِط فيما رأى من موجوداتها، وكان قليلَ المعرفة بمعلوماتها ، وإنه لما سمع الصوت من الجبل والبئر، ظنّ بأنه أجابه بجوابه ورد عليه بكلامه إما من حيوان لا يراه وشيء لا يعاينه ، أو أن الجبل نطق بجوابه وقَعرَ البئر ردّ كلامه . فهذا تخيُّل من لا عقلَ له ولا معرفة عنده . فالصوت الذي يسمعه إنما هو صوته والحركة التي بدت منه في الهواء، وذلك أنه صاح في سَفح الجبل وقَعر البئر إلى جانب الحائط، فخرج من جَوف المتكلم شَكلٌ كُرَويٌ ونقشٌ عرضيٌ يأخذه الهواء إلى أن يؤدّيَه إلى ذلك الموضع ، فيصادفه ما يمنعه من النفوذ والانتشار ، فيرتدّ راجعاً ، فيُسمَع منه ذلك الصوت وهو الصّدى ، وسنأتي على شرح ذلك كما ينبغي في موضعه .

فصل

واعلم أن الأصول في أصوات ذوات الأصوات أن معرفتها تكون بمعرفة الطبائع الأربع التي هي الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة ، والأركان الأربعة المعلومة ، وكيفيّة استحالة بعضها إلى بعض، وامتزاج بعضها ببعض في الأزمان والأماكن، وما يحدُث منها في البِقاع والمعادن. فمن بحثَ عن ذلك بفكره ونافذِ بصيرته وجَودة تأمله وثاقب نظره ، علم أن الأركان الأربعة لها جِهات أربعٌ من الشرق والغرب والشمال والجنوب. ولهذه الجهات أوتادٌ أربعة وهي الطالع ، والغارِبُ ، ووتَدُ تحت الأرض ، ووتَد وسط السماء . وهذه الأسباب الأربعة ممثّلةٌ على حدود أربعة ترجع إلى سببٍ واحد . ولمعرفة هذه الحدود أقوامٌ إذا سألتهم عنها عرّفوك، وإذا قصدتهم أرشدوك، فإن الكائنات التي هي من استحالة هذه الأركان أربعةُ أنواع :

فمنها حوادثُ الجو ، والتغيُّراتُ الهوائية ، والكائنات منها مثلُ الرياح والأمطار والرعد والبرق والثلج والهالاتِ والشُّهُب وذواتِ الأذناب واحمرار الشفق والنيران الحادثة في الأفق .

ومنها الكائناتُ التي في باطن الأرض كالبُخار المحتقِن هناك ، والهواء المنُحصِر ، وما يحدث من الزلازل والرّجَفات والخَسْف والهدّات، وما قد أحكمته الطبيعة في باطن الأرض ، وأسْخَنَته ببخارها وطبخته بنارها من مائع وجامد وكائنٍ وفاسد، مثلِ معادن الذهب والفضة والنُّحاس والحديد والرصاص والزيبق والكبريت والنّفْط والملح والشّبّ والزاج وسائر المعدِنيّات الذائبة والجامدة . وهذا علمُ معرفةٍ كثيرة الفائدة . وقد ذكرنا طرَفاً في رسالة المعادن .

ومنها الكائناتُ على وجه الأرض التي تسمّى النامية ، وهي على ضربين : نامٍ بالقوة وهو سائر النبات، ونامٍ بالحياة وهو جميع الحيوان. وكون جميع

الحيوان على ضربين « نِتاج وتكوين » فالنتاج من مماسّة الأجسام الحيوانية بعضها لبعض ، وقد ذكرنا في رسالة الحيوانات المتكوّن منها بغير مماسّة ما هو من امتزاج الطبائع بعضها ببعض ، وهو النكاح الأول وهو الأصل . فإذا امتزجت الطبائع ونكحت بعضُها بعضاً نِكاحاً طبيعيّاً ، أخذت القوّةُ المنفعلة عن القوّة الفاعلة بمقدار هَيُولى ذلك المكان ، وما في هيئات ذلك الزمان مما يَسهُل قَبُوله ، فيحدث من بينهما حيوان . والدليل على ذلك أن ما فيه طبيعة واحدة لا يحدُثُ منه حيوان ، وسائرُ الأجسام الصلبة لا يوجدُ فيها حيوانٌ لامتناع الهواء أن يتخلّلها . وكلُّ مكان لا يدخله الهواء لا يوجَد فيه حيوان ، وإنما الهواء يجمع بين قُوى الطبائع ويؤلّف بينها ويحرّكها حركةَ الاختِلاط والإمتزاج، ويُكسِبها النّداوة والعفونة والتحليلَ والتركيب، ويُكوّن الحرارةَ فيَلقَحُ ذلك المكانُ ويقبَلُ العفونة من الهواء ، فتتحد الطبيعة بالطبيعة وتختلط القوّتان فيكون البُخارُ الحار اليابس كالذكَر ، والباردُ الرّطبُ كالأُنثى ، واجتماعُهما كالنّكاح ، فيَحدُث من بينهما حيوان . وقد ذكر الله تعالى ذلك في القرآن إذ يقول : « وأرسلنا الرياح لواقح » الرياحُ هاهنا فاعلةٌ ، والأصلُ في هذه الكلمة موضوعها في اللغة العربية على ما أجمع عليه النّحويّون مَلاقِح[1] فيصير هاهنا على القلب والتبديل . والعربُ تَقلِبُ الشيء إلى الشيء ، وتُبدِل وتُقدّم إذا كان المعنى مفهوماً ، وكان المُخاطَبُ به يفهم من المخاطِب. والدليل على أنها مَلاقحُ قولهم في اللغةِ لقِحت الأرضُ والنّخلة فهي لاقحةٌ ، والجمع لواقح ، فجعل لفظة الفاعل هاهنا لفظةَ المفعول على القلب كما قال تعالى : « ماء دافِق » وإنما هو مدفوق ، لأن الرباعيّ الذي اسم الفاعل منه مُفعِل والثلاثيّ الذي اسم المفعول منه فعيل ، وقد يكون الفعيلُ مرّةً للفاعل ومرّةً للمفعول ، والمعنى يدُلّ عليه ، كقولك : قتيلٌ

١ الملاقح : الفحول التي تلقح الاناث ، واحدها مُلقح .

وجريحٌ وصريع ، إذا أردت المفعول ، وكريمٌ ورحيم وعليم ، إذا أردت الفاعل .

وكذلك تجدها في حُكم الطبيعة أن الرياح هي المُلقِحة للشجرة وغيرها ، فقد تبيَّن إذاً كيف يكون ذلك من المُمازَجة والاختلاط ، وبطَل أن يكون من غير ممازجةٍ . وقولُنا نِكاحاً طبيعيّاً إنما هو على المجاز يَعني به امتزاج الطبائع بعضِها ببعض . فقد أقمنا الدليل على أنه لا حيوان إلاّ من نِكاح ، ولا صوتٌ عرَضيٌ إلاّ من جوهر ، ثم نرجع إلى الأصل في الأصوات .

فصل

ثم اعلم أن الأصوات على ضربين : مفهومة وغير مفهومة . فالمفهومة هي الأصوات الحيوانية ، وغير المفهومة أصواتُ سائر الأجسام مثل الحجر والمدر[1] وسائر المَعدنيات . والحيواناتُ أيضاً على ضربين : مَنطِقية وغير منطقية . فغير المنطقية هي أصوات الحيوانات غير الناطقة ، وهي نغمات تسمّى أصواتاً ولا تسمى مَنطِقاً لأن النُّطق لا يكون إلاّ في صوت يخرُج من مخرَجٍ يُمكِن تقطيعُه بالحروف التي إذا خرَجت عن صفة الحروف ، أمكن اللسانَ الصحيحَ نظمُها وترتيبُها ووزنُها ، فتخرج مفهومة باللغة المتعارَفة بين أهلها ، فيكون بذلك النُّطق الأمرُ والنهي والأخذ والإعطاء والبيعُ والشّراء والتوكيل وما شاكل ذلك من الأمور المخصوصة بالإنسان دون الحيوان . فهذا فرقُ ما بين الصوت والنطق .

فأما مخارجها من سائر الحيوان فإنها من الرّئة إلى الصدر ، ثم إلى الحلق ،

[1] المدر : قطع الطين اليابس .

ثم إلى الفم ، ثم يخرُجُ من الفم شكلٌ على قدَرِ عِظَم الحيوان وقوة رئته وسَعة شِدقِه ، وكلما اتسع الحُلقوم وانفرج الفكّانِ وعَظُمَت الرئة ، زاد صوتُ ذلك الحيوان على قدر قوته وضَعفه .

وأما الأصواتُ الحادثة من الحيوان الذي لا رئة له مثلِ الزنابير والجنادب والصَّرصَر والجُدجُد[1] وما أشبه ذلك من الحيوانات ، فإنه يستقبل الهواء ناشراً جَناحَيه ، فاتحاً فاه ، ويصدم الهواء ، فيحدث منه طنينٌ ورنين يشبه صوتاً .

وأما الحيوان الأخرس كالحيات والديدان وما يجري هذا المَجرى ، فإنه لا رئة له ، وما لا رئة له لا صوت له .

وأما الحيوان الإنسيّ فأصواته على نوعين : دالّةٍ وغير دالة . فأما غيرُ الدالّة فهي صوتٌ لا هِجاء له ولا يتقطع بحروف مُتميِّزة يفهم منها شيء مثل البكاء والضحك والسُّعال والأنين وما أشبه ذلك . وأما الدالة فهي كالكلام والأقاويل التي لها هجاء في أي لغة كانت وبأي لفظ قيلت .

وكل هذه الأصوات مَفهومِها وغير مفهومها ، حيوانها وغير حيوانها ، إنما هي قَرعٌ يحدُث في الهواء من تصادُم الأجرام وعَصْرِ حُلقوم الحيوان . وذلك أن الهواء ، لشدة لطافته وصفاء جوهره وسُرعة حركة أجزائه ، يتخلّلُ الأجسام كلها ويسري فيها ويصل إليها ويحرّك بعضَها إلى بعض . فإذا صدَم جسمٌ جسماً ، انسلّ ذلك الهواء من بينهما ، وتدافع وتموّج إلى جميع الجهات ، وحدث من حركته شكلٌ كُرَويٌّ يتسع كما تتسع القارورة من نفخ الزجاج . وكلما اتسع ذلك الشكلُ ، ضَعُفت قوة ذلك الصوت إلى أن يسكُن . ومثال ذلك إذا رميت في الماء الهادىء ، الواقف في مكان واسع ، حجراً ، فيحدُث في ذلك الماء دائرةٌ من موضِع وقْعِ الحجر ، فلا تزال

---

١ الجدجد : طويئر شبه الجراد .

تتسع فوق سطح الماء وتتموّج إلى سائر الجهات . وكلما اتسعت ضَعُفت حركتها حتى تتلاشى وتذهب . فمن كان حاضراً في ذلك الموضع أو بالقرب منه من الحيوان ، سمع ذلك الصوت ، فبلغ ذلك التموُّج الذي جرى في الهواء إلى مسامعه ودخل صِماخه ، وتحرّك الهواء المستقر في عُمق الأُذنين بحسب القوة السامعة بذلك التموُّج والحركةِ التي تنتهي إلى مؤخّر الدماغ . ثم يقف فلا يكون له مخرج ، فيؤديه إلى الدماغ ، ثم يؤديه الدماغُ إلى القلب ، فيفهم القلب من هذه الحاسة ما أدته إليه من ذلك الحادث . فإن كان صوتاً مفهوماً يدل على معنى ، توجهت المعرفة بذلك ؛ وإن كان غير مفهوم ، فإنه لا بد أن يَستَدِلّ بصفاء جوهره على ذلك الصوت ، ومن أي جوهر حدث ، وعن أي حركة عرض ، وهو يَستدِل على ذلك من ماهيّة الصوت وكيفية التموج والقَرْع والحركة الواصلة إلى حاسّة السمع . ومثالُ ذلك طنين الطاس ، فإنه إذا سمعه الإنسان قال : هذا طنين الطاسُ حدث من قرْع شيءٍ آخر أصابه ، إما من جهة حيوانٍ أو حدوث شيء وقع عليه من غير قصد ولا تعمد .

وكذلك صوت الحديد والذهب والفضة وغير ذلك ، فإن أصواتها إذا حدثت تكون مختلفةً بحسب اختلاف جواهرها ، وتبايُن طباعها من الصلابة والرخاوة واللين واليبوسة . ومثالها في ذلك مثالُ أصوات الحيوانات ، فكلما كان في نفسه أمثلَ ورئتُه أقوى ، كان صوته أعظم وأبعدَ مسافةً في الهواء لشدة حركته .

وكذلك ما كان من الجواهر المعدنية أشدّ صلابة وأكثر يُبوسة ، كان أرفع طنيناً وأشدّ تصويتاً . فإذا اتفق أن يكون مصنوعاً لذلك والقصدُ منه التصويتُ والطنين مثل الجَلاجل والطَرْجَهارات [1] للحصون التي تُستعمَل

---

[1] الطرجهارات : جمع طرجهارة ، وهي شبه كأس يشرب فيها .

على الاسوار والثغور ، فإن أصواتها وطنينها يمكث في الهواء على قدر اتساع تلك الأواني وضيقها . وصوت النحاس خفيفٌ صافٍ ليُبسه وصلابته وقوّة الحرارة فيه . ولا يمكن أن تُتخذ من الرصاص آلةُ الطنين والتصويت كما يُتخذ من النُّحاس . والحديدُ إذا خالط النحاس كان له أيضاً تصويتٌ وطنين. والذهب له صوت يختص به يشابه طبيعته وله طنين يسير، وهو معتدل الحرارة ليِّن الطبيعة قد تساوت فيه أجزاء طبائعه. والفضة دون ذلك وهي أشفُّ من الذهب وأحسنُ صوتاً منه إذا نُقِرت. كذلك الرَّصاص لا صوت له كصوت النُّحاس والحديد، وذلك لغلبة الأجزاء الأرضية عليه وكثافة جسمه . وصوته يُشاكِلُ صوت الحجر وما بينهما . وعلى هذا المثال وُجِد مَنطِق الإنسان على الاعتدال ، لا بالجهير الخارج عن الحد كصوت الأسد وصهيل الفرس ونهيق الحمار وما شاكل ذلك ، ولا صامت كصموت السمك ، ولا خفيف كخُفُوت أصوات كثيرٍ من الحيوانات ، لكنه متوسط بين ذلك .

ومن أراد أن يكون له صوت طويل يمكث في الهواء ، فليتعمّد ذلك ويجتهد في جمع الهواء ، حتى يكون إرسالُه بحسب ما اجتمع فيه فيدرك بذلك ما يريد ، وإن تأذى وتألم . وإنما كان صوته متوسطاً لتوسط طبائعه واعتدالها ، مثل ما اعتدلت طبيعة الذهب ، وكان أشرف الجواهر الذائبة بالنار . وكذلك الإنسانُ أشرفُ الحيوانات المتحركة بالحياة .

وللنبات أصواتٌ منها ما كان أشدّ صلابة وأكثر اجتماعاً ، ولا طبيعة لها كبقية الأصوات ، إذا قُرِع انقرع ، كالساج[1] والآبنُوس وما شاكلهما . وما كان يتخلل جسماً ضعيف الحرارة ، كخشب التين والجُمَّيْزِ وما شاكل ذلك ، يكون أضعف صوتاً إذا قُرِع وتحرّك بجسم يحدُث في الهواء من قوّة حركة المحرّك ، وكونِ ذلك الصوت عن المصوّت ، وما هو مجبول

[1] الساج : شجر هندي عظيم .

عليه من طبيعته . وبحسب قوته يكون اتصالُ ذلك الحادث في الهواء بمسامع الحيوان من الإنسان وغيره . فالإنسان إذا سمع صوت الخشب والحديد والماء والريح أمكنه أن يُخبِر عن صوت كل واحد منها ويَنسبه إلى ما حدث عنه وخرج منه . والحيوانُ لا يعرف ذلك ولا يمكنه أن يعبِّر عنه ويُفصِّل كما عبر الإنسان بقوّة النُّطق والبيان عما سمع . وبهذا فضلُ الإنسان على غيره دن الحيوان . وكذلك يجري حالُه في حاسة السمع ، فإنه من جهة الهواء يتصل به ذلك ، ويخبر عن كل رائحة بما هي به ، ويَنسبها إلى الذي فاحت منه . وكذلك يُخبر عن حاسّة اللمس إذا لمست الأجسام وعرَفت الحاسّةُ ما كان رطباً ويابساً ، وحارّاً وبارداً ، وليناً وخشناً ، وما شاكل ذلك . وأما حاسّة البصر فإنما تحتاج في معرفة محسوساتها إلى حواسّ أخر ، لأنها ربما كذبتها محسوساتُها مثل ما ترى الكبير صغيراً ، لبعد ما بينها وبينه من المسافة ، والصغيرَ كبيراً في الأرض الواسعة ، والمُستويَ معوجّاً كالمِجذاف في الماء وما شاكل ذلك .

فصل

ثم اعلم أن منتهى كل حاسّة إلى القلب مَقرُّها ، وعنده مَوئِلُها ، ولكل حاسةٍ محسوسةٌ مختصةٌ بها ، مجعولةٌ لها ، لا تتعداها ، ولا تتعرض لسواها . فالبصر مختص بالنظر ، والأذن مختصة بالسمع ، والفم مختص بالذوق ، والأنف مختص بالشم . وكل حاسة من هذه الحواس تؤدي محسوساتها إلى القلب ، ويُفهَم منها حاسةُ القلب .

ثم إن قوة حاسة القلب إذا أدركت من الحواس شيئاً وقَبِلته منها ، أدّته إلى العقل ليدركه . ولولا قوة حاسة القلب ، لبطلت هذه الحواس ، كما

أن الأَكْمَهَ[1] الذي يولد كذلك لا يُمكنه أن يتصور السماء ولا موضِعَها من الجهات ، لأنه لم يرَ جهة فتؤدّيها الحاسة الناظرة إلى حاسة القلب المناسبة لها ، لأن حاسة البصر تؤدي آثار محسوساتها إلى قوة عاقلة مناسبة لها ، حافظةٍ لما يؤدّى إليها . ولذلك قال تعالى : « فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور » وقد بيّنا في رسالة الحاس والمحسوس شيئاً من هذا بغير هذا الشرح .

ثم اعلم أن القلب في الجسد مُصوّر على صورة الإنسان ، ولذلك صار أفضلَ الأعضاء التي في أجسام الحيوان ، وذلك أن له بصيرةً يُبصر بها ما غاب من حاسة النظر من خارج ، وله مسامع يُدرك بها الأصوات ويؤدي إلى حاسّة السمع ما يُدركه بها ، وله حاسة اللمس فهو يتشوّق إلى محسوساتها إذا فقدها ، مثل ما يشتاق العاشق عناق معشوقه والتزامه .

وكذلك الأكمهُ لا يتصور بقلبه صوَر الأشياء ، لأن حاسة البصر لم تؤد إلى الحاسة المختصة بالقلب شيئاً ، فتبقى تلك الحاسة فارغةً معطّلة ، مُغلَقة الباب ، لا يطرقها طارق فيكون لها به معرفة . ولكل حاسّة من هذه الحواس مُدرَكاتٌ بالذات ومُدرَكات بالعرَض وهي لا تُخطىء في المدرَكات بالعرض . مثال ذلك البصر فإن المُبصَرات له بالذات هي الأنوار والضياء والظُّلَم . فأما إدراكها الألوانَ فإن ذلك بتوسط النور والضياء . وأما سائر الأجسام وسطوحها وأشكالها وأوضاعها وأبعادها وحركاتها فهي بتوسّط الألوان ، لأن كل جسم لا لونَ له لا يُرى ولا يُدرَك البتّةَ . والمحسوساتُ التي له بالذات لا واسطة بينها وبينه في إدراكها ، لأنه لا يحتاج البصرُ في إدراك الضياء والنور إلى شيء آخر ، ولا في إدراك الظلمة أيضاً ، وصار بينه وبين النظر إلى الألوان واسطةٌ واحدة وهي النور ، وصار بينه وبين إدراكه

[1] الأكمه : الاعمى من الولادة .

كيفيّة الأجسام وأسبابَها النورُ والألوانُ. وكلما كثُرت الوسائطُ بينه وبين النظر ، كان الخطأ فيه أكثرَ ، واحتاجت الحاسةُ فيه إلى دليل آخر يحقّق نظرَها ويُصدّق خبرَها . من ذلك السَّرابُ فإنه آخِذٌ من لون الماء بياضَه، ومن الضياء إشراقَه ، فحار فيه النظرُ وحال البُعد فيما بين النظر وبينه عن الحُكم عليه بما هو به ، فظنّه ماءً ، فلما جاءه لم يجده شيئاً ؛ وكالمجذاف الذي هو غائص في الماء ، فإن البصر لا يُدركه إلاَّ مُعْوجّاً ، لأنه قد زاد فيما بينه وبينه واسطةٌ أخرى وهي الماء ، وكذلك ما يكون في الماء من الأشياء ، فإن البصر لا يُدركها على ما هي به . وكذلك حال الشيء البعيد فإن الوسائط بينه وبين البصر كثيرةٌ وهي الضياء والهواء ، وكلما بعد ازداد في الصّغر والتلاشي في البصر إلى أن يغيب .

وأما حاسة السمع فإنها لا تَكذِب وقلما تُخطىء ، وذلك لأنه ليس بينها وبين محسوساتها إلا واسطةٌ واحدة وهي الهواء ، وإنما يكون خطؤها بحسب غلظ الهواء ورقّتِه ، وذلك أنه ربما كانت الريح عاصفةً والهواءُ متحركاً حركةً شديدة ، فيصوّت المصوّتُ في مكان قريب من المسامع ، فلا يُسمَع من شدة حركة الهواء وهيجانه ، فتكون حركة ذلك الصوت يسيرة في شدة حركة الهواء وهيجانه ، فيَضعُف عن الوصول إلى الحاسة السامعة . وإذا كان الهواء ساكناً ، وصل ذلك الصوت إلى الحاسة ، إذا كان في مكان يمكن أن يتصل به ذلك التموّجُ والحركةُ الحادثةُ في الهواء. فأما إذا كانت المسافة بعيدة فإنها لا تُدركه وتتلاشى تلك الحركةُ وتَنفَد قبل وصولها إليها .

وهكذا حاسة الشم فإنها تُدرِك من ذلك بحسب غِلظ الهواء ورقّته وسكونه وحركته ، وذلك أنه إذا كان الهواء غليظاً فإنه قل ما تجد الروائح في الجهات وقل ما تسري فيه . وإذا كان صافياً رقيقاً والمسافةُ قريبة ، فإنها تتصل بمشّامّ الحاضرين، وإذا بعُدت تفرقت تلك الروائحُ في الجهات ولم يُدرَك شيء منها. وأما قَبُول الهواء للأصوات والروائح فإني أشرحه لك بعون الله.

فصل

ثم اعلم أن جميع الجواهر تختلف في أنواعها وتتباين في عناصرها وتركيبها، وكلُّ جوهر هَيُولاني يكون ألطفَ جوهراً وأشدَّ روحانية وأعم خاصيّة ، وإنه يكون لقَبول الصورة وحَمل الأعراض أسرعَ انفعالاً وأسهلَ قَبولاً من غيره . مثال ذلك الماءُ العذبُ لما كان ألطفَ جوهراً من الماء المالح وأصفى ، صار لقَبول الطعوم والأصباغ أكثر قَبولاً . ولا بد أنه للحيوان أكثرُ امتزاجاً ومخالطةً وأكثرُ نفعاً وصلاحاً ، وبذلك صار حياةَ الأجسام ومادّةَ الحيوان والنبات .

وهكذا لما كان الضياء ألطَف من الهواء، صار قَبوله الألوانَ والأشكالَ أسرعَ انفعالاً ، وأشد روحانية وبساطة ، وألطفَ سرَياناً .

وكذلك جوهرُ النفس ألطفُ وأشدُّ روحانية من جوهر النور والضياء ، والدليلُ على ذلك قَبُوله رسومَ سائر المحسوسات والمعقولات جميعها، فلهاتين العِلّتين صار الإنسانُ يَقدِر بالقوة المُتخيّلة أن يتخيل ويتوهم ما لا يَقدِر عليه بالقوى الحاسّة ، لأن هذه روحانيةٌ وتلك جسمانيّةٌ ، ولأنها تُدرِك سائر محسوساتها في الجواهر الجسمانية من خارج ، والقوةُ المتخيّلةُ إنما تتخيلُها وتتصوّرها في ذاتها . والدليلُ على ما قلنا أفعالُ الصُّنّاع البشريين. وذلك أن كل صانع يبتدىء ويفكّر ويتخيل ويتصوّر في وهمه صورةً مصنوعة بلا حاجة إلى شيء خارج عنه. فإذا أراد إظهار ما في نفسه إلى الفعل عمَد إلى هَيُولى ما ، في مكان ما ، في زمان ما ، فيتصوّر فيها ما كان متصوّراً في ذاته بأدواتٍ ما وحركات ما . وذلك أن كل حيوان لا يبصر، فهو لا يتخيّل الألوان العَرَضيّة والأجسام الجوهرية . وما لا سمعَ له لا يتصوّر ولا يتخيّل الأصوات الكلامية ولا يتوهم الألفاظ المَنطِقية. فأما الإنسان الصحيح التركيب، السالم الحواس، فإنه لما كان يفهم الكلام صار يُمكنه أن يتخيل المعنى إذا وصف . والغرضُ

من الكلام تأديةُ المعنى وكل كلام لا معنى له فلا فائدة للسامع منه والمتكلم به . وكل معنى لا يمكن أن يُعبَّر عنه بلفظٍ ما في لغةٍ ما ، فلا سبيلَ إلى معرفته ، وكل حيوان ناطقٍ لا يُحسن أن يُعبِّر عما في نفسه فهو كالعَدم الزائلِ والجَماد الصامت .

فصل

ثم اعلم أن المعاني في الكلام كالأرواح، وألفاظها أجسادٌ لها ، فلا سبيل إلى قيام الأرواح إلاّ بالأجساد . والكلامُ ضربان : مفيدٌ وغير مفيد . والفائدة واقعة في الإخبار من جهة المجهول ، والمجهولُ هو المُخبَر عنه. والخبرُ دالٌ وغيرُ دالّ . والخبرُ هو كل قول جاز تصديقُ قائله فيه وتكذيبه لغيبته عن العيان أو لمُضيّه عن الزمان ووصفِه أنه مسموع من قائله ، مثل مُخبرٍ أن مدينة كذا عامرةٌ بأهلها ، وأن فلاناً الذي مات كان من أمره وصفته كذا، فقد جاز لمن يسمعه أن يصدّقه وأن يكذبه لغيبة ما ذكره من أمر المدينة عن العيان وغيبةِ المائت في الزمان .

وأيضاً فإن الإخبار على ثلاثة أقسام : إمّا عن ماضٍ من الزمان ، أو عن غائبٍ عن العيان ، أو عن موجودٍ في زمان ومكان . وامتحانُ ذلك بكان ويكون وكائن . فكان لزمان ماضٍ ، ويكون لزمانٍ آتٍ ، وكائن لما هو موجود في الحال . وكل هذه الأقسام تدخلها الموجبة والسالبة والموضوعُ والمحمولُ ، وهذه أقسام الخبر. وهو أيضاً غير خارج من معانٍ ثلاثة واجبٍ وجائزٍ وممتنع. فالواجبُ والممتنع معروفان مستغنيان عن الدلالة على أحوالهما في الصحة والفساد. مثالُ ذلك إذا سمع رجلٌ قائلًا يقول الأرض تحتي والسماء فوقي ، فإنه لا يشكّ في صدقه ولا يحتاج إلى إقامة دليل على ذلك . وهذا ، وإن كان كلاماً مستقيماً ، لا يستغني عن الدليل على كذبه ، فإنه ما لا يقع

منه فائدةٌ ، ولا فائدة أيضاً في قوله ولا في سماع ذلك ، ولا يُعَدّ هذا من المتكلم به فضيلةً بل ربما من هُجْرِ قوله [1].

وكذلك لو سَمِع قائلًا يقول: إني قد حملت الجبل وخُضْت النار ورأيت شجرة على سطح البحر نابتة ، فإنه لا يَشُكُّ في كَذبه وبُطلان قوله ، فهذا القسم الممتنع .

وأما الجائز أن يكون صدقاً وأن يكون كَذباً فهو الذي يجب أن يُطلب الدليلُ عليه ، والفائدة واقعة فيه ، وبه يستفيد السامع ، وعنه يسأل السائل ، والمعنى الذي به يوصِل إلى علم الحقيقة ما كان عند الإخبار ممكِناً أن يكون صدقاً وكَذباً ، وهو أن يكون متيقناً عند من بلغه عنه الكذب والصدق يقيناً ، ويعلم أن ذلك ثابت بحيث يثبُت عليه نظرُ أهل العقول كمعرفة من أخبر بعمارة المدينة أو حال الميت بما وصف به المُخبرُ عنه ، فقد صار كَذب المُخبِر منفيّاً ، وعند من تقدمت عنه صِحّتُه . وكذلك ما حكمت عليه العقول وقضت به البراهين عند العارفين ، فإنهم يعرفون ما غاب كعلم ما حضر ، ويصير الدليل والبرهان كالمِثال ، لأن المثالَ صورةُ المخبِر عنها ، المدلولُ بصفاتها على معنى الخبر ، فاعلمْ ذلك .

[1] هجر القول : هذيانه .

فصل

في معرفة أصل الصوت وعن الأجسام التي في الابتداء دون فلك القمر قبل خلق الانسان والحيوان

فنقول مُعوِّلين على الله تعالى : بأنه لما خلق الله السموات بمشيئته ، وأتقنها بصَنعته ، ورتّبها بحكمته ، وجعل الأرض بساطاً تحتها ، وبخلق الهواء فسحةً فيما بين السماء والأرض ، ثم أرسله يميناً وشمالاً على وجه الأرض ، ويَسري على البحار ويحرّكها ويموّجها ، كان كالأرواح السارية في الأجساد ، فأقام الهواء على تلك الحال ، والسَّريانُ في الجهات الأربع يخلِط البحارَ بالتراب ، ويَمزج الطبائع بعضَها ببعض ، كما ذُكِر أولاً في هذه الرسالة ، فتَحدُث بحركته أنواعُ الأصوات ، والصفير ، والطنين ، ومجاوَبةُ الجبال ، وأصواتُ أمواج البحار ، وهبوبُ الرياح في الفلوات والقفار ، فتكوّنت المعادن في البقاع المخصوصة بكونها فيها ، وانعقد البُخار ، وارتفعت الأنداء، وتراكمت الغيومُ ، وارتفعت إلى آخر كُرَة النسيم ، وتعلّقت تحت كُرَة الزمهرير ، وعصَرَها وهيجُ الأثير ، واستولت الكواكبُ المائية ، فأرسلت الأمطار على وجه الأرض ، ولحقها الهواء وسرى عليها ، وأشرقت الكواكب بأنوارها ، ولحظتها الشمسُ وسرت فيها قوة النفس النامية ، وكان أولَ ما ابتدأ على وجه الأرض بالنموّ والزيادة على سطحها صورةُ النبات ، وقامت على تلك الحال ، والأرض ليس فيها إلاّ البحارُ والجبال والنباتُ والأشجارُ ، على ما ذكره بعضُ العلماء ، ثلاثة آلاف سنةٍ ، والرياحُ تهُبُّ عليها ، والأصوات الهوائية تُجيب بعضها بعضاً ، والنفسُ سارية في الهواء ، متصلةٌ بقوة النور والضياء ، تُدبّر الأمور الجسمانية ، وتؤلف الطبائع الجِرْمانية ورُوحانياتِ الكواكب ، متّصلةٌ بعالم الهواء ، فهم سكانُ الأرض قبل آدم عليه السلام .

فلما تمت هذه المدة المُقدَّرة بهذه الصفة ، وابتدأ الدورُ الجديد ، وأراد الله إنشاء النشأة الثانية ، وإبراز الصورة الإنسانية ، خلق آدم وحوّاء من الطين، وأسكنهما الجنة الموصوفة ، وهي الياقوتُ في ناحية المَشرق ، وكان من أمرهما ما كان ، وقد ذكر هذه القصةَ من أولها إلى آخرها رجلٌ من أهل فارس عالمٌ بحساب النجوم بكتاب بيَّن فيه هذه الأمور . ولو كان هذا ما قصدنا وإياه ما أردنا ، لذكرنا منه طرَفاً ، ولكنا نشير إلى بعض ذلك . فلما فَطَر آدمَ وسوّاه ، ونفخ فيه من روحه ، وأسجد له ملائكته ، وكان ظهور آدم وحواء بعد كون الحيوان ، وعِمارة الأرض ، وظُهور الأقوات فيها على تمام أجناسها واستيفاء أنواعها ، وكان ظهورُ الحيوان بعد ظهور النبات وانبساطِه على وجه الأرض وعلوّه عليها ، وكان أول بروز النبات بحِذاء برج السُّنْبُلة وكان في وسط السماء ، والحيوانُ بحِذاء الثور ، وآدم وحواء بحذاء الجوزاء من أرض المشرق ؛ ولذلك قيل للجوزاء ذاتُ جسدين ، وكانت البداية من الحمَل وقد حلّ فيه زُحَل وهو هابط ، فصار المركزُ مهيّأً من الطين ، وكان أكثرهُ مُظلماً ، وصار ثقيلا رزيناً ، وصارت الجبال راسيات مستقرّة. وكان أولَ معدنٍ انعقد في بطن الأرض الأُسْرُبُ، ولذلك صارت الأرض مقر الثّقَل ومستقر الكثائف من أجل زُحَل وكونه في ذلك التقدير بمشيئة الله تعالى . فأقام آدمُ وحواءُ والحيوانُ مدة ما ذُكِر في الكتاب من غير مُماسّةٍ ولا التئام ، ثم ألهم الله تعالى عُطارِد صاحب المَنطِق النُّطقَ ، ونطقت حواء ، وعلّم اللهُ آدم الأسماء كلّها ، فصار يعرفها ويُلقي على كل جنس وشكل ونوع وشخص من النبات والمعادن والحيوان وجميع المَرئيات الأسماء والصفات . ثم لم يزالا على ذلك حتى أكلا من الشجرة ، وأُهبطا من الجنة إلى الأرض مسخوطاً عليهما ، فأقاما في الأرض مدة معلومة ، وكانا مع سائر الحيوانات يأكلان من ثمر الأشجار ، ويشربان من ماء العيون والأنهار ، إلى أن سلّمَ الحَمَلُ الدور إلى الثّور ، إذ هو أحد منافع الدنيا ، وسببُ

العمــارة ، وهو بيت الزُّهَرة . وكانت حسنَة الحال مستقيمة في مسيرهـا ، صاعدة في أوجِها ، مشرقةً أنوارُها ، وكان في هــذا الحدّ اجتماع آدم وحواء وبماسّتُهما ، فحملت منه، وكان ذلك ابتداء النسل . وجرى حالُ الحمْل على ما ذكرنا في رسالة مَسقَط النُّطفة . فلمــا كثرت أولادهما تولى آدم تعليمهم وتأديبهــم وتهذيبهم ، وعلمهــم كيفيّــة الحَرْث والزرع وازدواج الذكور والإناث ، وعمروا العالم وعاينوا الحيوانات وما تصنعه بعضُهــا ببعض ، وما يُطلَب من منافعها، فاقتدوا بها في أفعالهم، وأيّدَ الله تعالى آدم، عليه السلام، بوحيه وإلهامه لمّا تاب عليه بما يكون له به صلاح، ولذرّيته فلاحٌ ، وأقام على ذلك مُدّة ما أراد الله تعــالى ، ثم نقله إلى رحمته وخَلفه مَن خلفه في ذُرّيته وأولاده . ولم يزل الأمر على ذلك وبنو آدم مع والدهم يتكلمون بالسريانية ، وقال بعضُهم بالنّبَطية ، ويفهم بعضٌ عن بعضٍ المعاني وما قصدوا وأرادوا . ووصفوا كل شيء بصفته إلاّ أنهــا لم تكن الحروف مجتمعةً بعضُها إلى بعض ، ولا مؤلفةً بالكتابة ، وإنما كان آدم، عليه السلام ، يعلمهم تلك الأسماء تلقيناً وتعريفاً ، كما يعلّم الأشياء ويُعرّف من لا علمَ له بالكتابة والهجاء . ولذلك يقال لمن لا يكتب ولا يقرأ أمّي. وكان الخَلق يحفظون تلك الأسماء والصفات عن السّلف ، إلى أن سلّم الدورَ الثورُ إلى الجوزاء ، وظهرت الكتابة من أجل أنه بيت عُطاردَ وشَرفُ الرأس، وهُبوطُ الذنب، وصارت الحروف في ذلك أربعةً وعشرين حرفاً ، وهي الكتابة اليونانية ، لأنها قَسِمت لكل برج حرفين ، فصارت أربعةً وعشرين حرفــاً ، فقُيّدت تلك الألفــاظ وكُتِبت الأسماء بالحروف على لغة أهل ذلك العصر .

فانظر أيها الأخ إلى هذه الحكمة الصحيحة والصّنعة المُحكمة المُتقَنة كيف تأتي بكل شيء في وقته المقــدّر وزمــانه المُيسّر . وانظر كيف سرت هذه القوى التي هي الأصوات والنغمات أولاً في عالم السموات، ثم في حركات الهواء، ثم في حركات النبات ، ثم في أجسام الحيوان ، ثم في عالم الإنسان . فالصوت

في الحيوان يسمّى بأسماء مختلفة ، مثل قول القائل : صهيل الفرس ، ونهيق الحمار، ونُباح الكلب ، وخُوار الثور، وزئير الأسد ، ونَعيب الغُراب وغير ذلك . وأما الصوت المخصوص به الإنسان فإنه يقال له كلام وافظ مُتكلّم كقول القائل : فلان يتكلم بالعربية والفارسية والرومية وغير ذلك، وسنأتي على شرحه وبيانه ، ونفرُق بين الصوت والكلام .

فصل في الفرق بين الصوت والكلام

اعلم يا أخي أن الكلام هو صوت بحروف مقطّعةٍ دالّة على معانٍ مفهومة من مخارج مختلفة . وأبعدُ مخارج الحروف أقصى الحلق ، وهو مما يلي أعلى الصدر . والصوتُ من الجسم في الرئة بيت الهواء ، كما أن أصل الصوت ، في العالَم الكبير الذي هو بمنزلة إنسان كبير ، الهواءُ فيما دون فلك القمر ، والنفسُ في عالَم الأفلاك . ولذلك توجد في الإنسان الذي هو عالَم صغير ، في الرئة وفي قوة نفسه ، معاني ما يدل عليه الصوتُ . وكذلك الحركات والأصواتُ التي دون فلك القمر إنما هي مِثالاتٌ ودلالاتٌ على تلك الأصوات الفاضلة والحركات المُنتظِمة ، وتلك أرواحٌ وهذه أجساد . وأصل الأصوات في الرئة هواءٌ يصعد إلى أن يصير إلى الحلق ، فيُديره اللسانُ على حسَب مخارجه . فإن خرج على حروف مقطّعةٍ مؤلفةٍ ، عُرف معناه وعُلم خَبَره . وإن خرج على غير حروف لم يُفهَم، كان كالنُّهاق والرُّغاء والسُّعال وما أشبه ذلك . فإن رده اللسان إلى مخرَجه المعلوم في حروف مفهومة ، يُسمّى كلاماً ونُطقاً ، بأي لفظة كانت على حسَب الموافقة ومُساعدة الطبيعة ، لكل قومٍ في اتساع حروفهم وسُهولة تصرُّفهم في مخارج كلامهم ، وخِفّة لغاتهم بحسَب مِزاج طبائعهم ، وأهْوية بُلدانهم ، وأغْذِيتهم ، وما أوجبت لهم دلائلُ مواليدهم ، وما تولاّهم من الكواكب في وضع أصل تلك اللغة في الابتداء

الوضعيّ والمِنهاج الشرعيّ، وما تفرع من ذلك الأصل، وما ينقسم من ذلك النوع .

ثم اعلم أن أصل الاختلاف في اللغات إنما هو لما كثرت أولاد بني آدم، وانتشروا في جهات الأرض، ونزلت كلُّ طائفة منهم إقليماً من أقاليمها وقُطراً من أقطارها من الرُّبع المسكون، تولّى كلَّ قومٍ، في وقت نزولهم ذلك الإقليم، كوكبٌ من الكواكب السبعة المدبِّرات، فعقد لهم عقداً نشأ عليه صغيرهم، ومات عليه كبيرهم .

ثم اعلم أن الكلام الدالَّ على المعاني مخصوصٌ به عالم الإنسان، وهو النُّطق التامّ بأي حروف كُتِب . والحيوان لا يَشركُ الإنسانَ فيه من الجهات المنطقية والعبارات اللفظية، لكن من جهة الحركة الحيوانية والآلة الجسمانية، والحاجة فيها إلى ذلك . لأنك تجد كثيراً من الحيوانات تريد بأصواتها دفعَ المضارّ وجذبَ المنافع، تارةً لأنفسها، وتارةً لأولادها، مثل صياح البهائم إذا احتاجت إلى الأكل ومُنِعت منه، وإلى شرب الماء وذيدت عنه ؛ ومثل استدعاء أولادها وما غاب عنها ؛ وما شاكل ذلك من الطيور التي تحاكي الإنسان، ومحاكاة القرد للإنسان في جميع أفعاله وأكثر أعماله .

فهذه الأشياء، لمّا يُريد الحيوانُ التطريبَ والتصويتَ والصُّياح لها ومن أجلها، فإنه لا يقال لها معانٍ علمية، وإنما يقال لها إرادات طبيعية . فأجساد الحيوانات مجبولة عليها، وإنما استدعاؤها إياها بالتصويت في بعض الأوقات، إذا عَدِمتها وحيلَ بينها وبين ما تريد، وقلَّ ما يكون دالاًّ بأصواتها على الأمر الأعمّ، ولا معنى لها، ولا يُعرَف المراد منها ولا القصدُ كصُياح الطيور في أكثر أوقاتها . منها ما يصوِّت بالليل، ومنها ما يصوِّت بالنهار، وكذلك الحيوانات أكثرُها . ولكن المراد بها منها كلّها اجتماعُ الجنس وقيام الشكل إلى الشكل، وبحسب ما في كل شخص من أشخاصها من قوّة الحرارة الغريزية وحركة النفس الحيوانية، فإن كل شخص أكثر حرارةً وأقوى حركة

وأحيى نفساً ، كان أكثر صوتاً وأدْوَمَ كلاماً في عموم الأوقات . وما كان دون ذلك ، كان بحسب ما فيه ، وما هو مجبول عليه .

وبالجملة إن الصوت الحادث بحركة نفسانية حيوانية فهو مخصوصٌ به الحيوانُ. وأما ما يُسمَع من الأصوات من غير الحيوان، فإنما يقال له قَرْعٌ ووقعٌ وطنين وصفير وزمير ونَقرٌ ودقّ وقرقعة ، كصوت البوق وضرب الدفّ والطبول والدبادب وما شاكل ذلك .

فهذه المِثالات لهذه الأصوات مخصوصةٌ بما يحدُث من حركات الأجساد الصامتة التي لا يحدُث صوتٌ وحسٌ عنها إلاَّ بمُحرّك من غير جنسها يرفعها ويضعها وينقرُها ويقرع بعضَها ببعض. فالمحرّكُ لها إما بعمدٍ وقصدٍ كالإنسان فيما يتخذه من هذه الآلات للتصويت بالحركة ، أو كحيوان يُحدِث ذلك بغير قصد ، كاحتكاك الدابّة بالباب ودفعها للإناء وغيره ، فيحدُث من تلك الحركة وذلك الدفع صوتٌ . أو من حركة الرياح والهواء للأجساد والنبات والأشجار ، وحفيف أوراقها ، واحتكاك قضبانها ، وسلوك الهواء بينها ، وسرَيانه بين الحيطان والبُنيان ، وخرقه منافِذَ الجبال والغدران والكهوف، فيحدُث منه أنواعُ الصفير والتصويت . وما يحدُث من أصوات حوادث الجو ما قد ذكرناه مثل ما يحدث من حركات المياه ، إذا انحدرت وتدافعت من أعلى الجبال إلى بطون الأودية ، ومثل أصوات الدواليب والأرْحِيَة والطواحين والمجاذيف ، وجرَيان السفن في البحر ، وجَرْي العجل في البر . وكل ماء إذا تحرك أو تصرّف فيه المُحرّك ظهر منه الصوت وقَرْعُ الهواء .

فهذه كلها أصواتٌ ، فما كان منها عن أجسام الحيوان قيل : أصواتٌ ونغماتٌ . وما كان منها عن حركة الهواء قيل : صفير وزمير . وما كان عن حركة الماء قيل : دويّ وخرير وأمواج . وما كان من المعدنيات والأحجار والخشب قيل : وقعٌ وطنين ونقرة وما شاكل ذلك . وما كان من جهة

الإنسان قيل : كلام ولفظ ومنطِق بالجملة ، وعند التفصيل والتقسيم فكثرة الألوان والفنون مثلُ كلام الخطيب ، وإنشاد الشعر ، وقراءة القرآن ، وما شاكل ذلك ، وينسب ذلك الكلام إلى المعنى المقصود إليه به .

فقد بان بما ذكرنا الفرقُ بين الصوت الحيواني والكلام الإنساني ، وما يحدث من حركة الهواء ، وما يظهر من أجسام النبات والمعادن . وإذا تأملتَ ذلك وميّزته بفكرتك ، وأعملتَ فيه رويّتك ، ورأيت تلك الحركات ، وسمعت تلك الأصوات والنغمات والمُجاوَبات ، وتبينت أن العبارات كلّها تأديةٌ عن النفوس الجُزئية بما أمدّتها النفسُ الكلية .

وكذلك الحركاتُ الكلية العرَضية أصلها الحركة الذاتية ؛ وهذه أعراضُها وتلك جواهرها ، وهذه فانية وتلك الحركات باقية . لأن مركز هذه سُفليٌّ ومقرّ تلك عُلويٌّ . وهذه منها فاضلة ومنها غير فاضلة ، وتلك فاضلة كلها . وبعض هذه حيٌّ وبعضها ميت ، وتلك كلها حيّة . وبعض هذه متكلمة ناطقة وبعضها مصوّتة ، وتلك ناطقة كلها . وبعض هذه أصواتها مفهومة وبعضها أصواتها غير مفهومة ، وتلك أصواتها كلها مفهومة . وبعض هذه الأصوات دالٌّ وبعضُها غيرُ دالٍّ ، وتلك كلها دالةٌ . ومعاني هذه الأصوات مضمّنةٌ في حروفها ، وتلك كلها معانٍ . وأهل هذه يحتاجون إلى من يكشف لهم معانيها ويدلهم على مراميها ، وأولئك لا يحتاجون إلى ذلك ، وهؤلاء يضجرون من الكلام ويملّون ، واولئك لا يضجرون ، وهؤلاء أكثرهم غيرُ طيّبي النغمة ولا لذيذي الصوت ولا حسَني الكلام ، وأولئك كلهم طيّبو النغمة ذوو ألحان لذيذة . وبعض هذه الأصوات معكوسٌ يشبه أصوات أهل جهنم ، وزفيرُهم وشهيقُهم كنعيق الكلاب ونهيق الحمار وزعقات البوم وصياح السباع ، وما يحدث في القلوب من الوحشة والنُّفور والفزع والرُّعب ، وما تضجر منه النفوس ، وما شاكل هذه الأصوات والمصوّتات. ثم اعلم أن كل صوت يُسمَع

فإنما يخرج عن هيئة الجسم الذي يصوّته بحسب قوته وصفاء طبيعته وغِلَظها ، ونحتاج هاهُنا إلى بيانٍ ووضوح برهانٍ ، ونحن نذكره بشرح مُبين .

فصل

ثم اعلم أن اختلاف الناس في كلامهم ولغاتهم ، على حسب اختلافهم في أجسادهم وتركيباتهم . وأصل الاختلاف في اللغات هو اختلاف مخارج الحروف ونقصُها عن تأدية ما يؤدّيه البليغ منها . وقد زعم بعضُهم أن فساد الكلام من فسادِ التركيب وفسادِ المِزاج ، وليس هو كما زعم ، وإنما هو من اختلاف مخارج الحروف في قوّتها وضَعفها ، وهو فَساد في اللسان يقلبُ ويَعدِل الحروف عن مخارجها . ولو كان من فَساد المِزاج لكانت اللغة كلّها في حرف واحد من مخرج واحد ، ولكانت ترجع إلى الاستواء عند صَلاح المِزاج كما يحدث بالفصيح الكلام ، وضَعْفُ الصوت من فساد المزاج وغلبة بعض الطبائع . وإذا عاد إلى الأمر السالم عاد كلامه إلى المعهودِ منه أولاً ، واللّغة ليست كذلك ، والناس فيها مختلفون ، وغير متفقين في الحروف التي يقع الخطأ فيها والعدولِ بها عن استوائها إلى خِلافها ، وهي أعراض كثيرة تختص باللسان ، وتعرض فتُفسد الكلام ، وهي زَمانةٌ لازمة مثلُ الحُلسة[1] ، والفأفأة[2] ، والتمتمة ، والعَقلة[3] ، والحُكلة[4] ، والرُّتة[5] ، واللُّثغة[6] ، وما أشبه ذلك .

١ الحلسة : اختلاط اللفظ فلا يبين الكلام .
٢ الفأفأة : اخراج الكلمة بجهد بعد ابتدائها بما يشبه الفاء .
٣ العقلة : اعتقال اللسان عن الكلام .
٤ الحكلة : عجمة في اللسان لا يبين معها الكلام .
٥ الرتة : عجمة وحكلة في اللسان .
٦ اللثغة : تحـوّل اللسان من حرف الى حرف كتحوله من الراء الى الغين ، ومن السين الى الثاء .

وإذا كان الكلام يثقل على الرجل قيل في لسانه خلسة ، وإذا أدخل بعض حروف العرب في بعض حروف العجم قيل في لسانه لكنة، وإذا عجز عن سرعة الكلام قيل في لسانه عقلة ، والحُكْلة إنما هي نقصان آلة المنطق وعجزها عن أداء اللفظ حتى لا يعرف معناه إلاَّ القليل وهو قريب من كلام البهائم والخرس ونحو ذلك .

فصل في المعاني

فأما إفهام المعاني فإنها تُفهَم من الكل من اللُّكْن والفصحاء ، وإنما يتفاضل الناس في البلاغة ، وهو عند الحَشْويّة والعَوامّ والنساء والصبيان حُسنُ الصوت وحلاوة المنطق وصفاء الكلام .

وليس كل من حَسُن صوته وصفا كلامه كان بليغاً في إبانة المعنى، وإقامة الدليل والحُجة في إزالة الشُّبهة عن النفس الساهية ، وانتباه الجاهل عن رقدته، وإصحاء السكران من سكرته بالتّذكِرة والموعظة ، فإن صاحب النغمة الطيبة والكلام الصافي ربما استعمل ذلك في الأغاني والملاهي .

وسبب كل ذلك محبة اللذات الدنيّة والشهوات الحِسّية، وما يتضمن الكلام من السُّخف والمجون وأمثاله ، فإن معانيها لا حقيقة لها ، والكلامُ بها إنما هو تصويت وهذيان لاحِقٌ بأصوات الحيوان والمجانين والسُّكارى والصبيان والنسوان ومن لا عقل لهم .

وأصل المعاني أنها المقالات المدلول بصحتها في الإخبار بها عن معرفة حقائقها ، ومقاصد طرائقها . وحَدُّ المعنى أنه هو كل كلمة دلت على حقيقة ، وأرشدت إلى منفعة ، ويكون وجودها في الإخبار بها صدقاً ، والقولِ عليها حقّاً . والأخبارُ على أربعة أقسام : خبر واستخبار وأمر ونهي. وقد جعلها قوم ستة ، وآخرون عشرة ، وأصلها هذه الأربعة ، فثلاثة منها ما لا يدخله

الصدق والكذب ، وواحد منها يدخله الصدق والكذب وهو الخبر ، ويوجد في ذلك السالبة والمُوجِبة والمُمكن والممتنع .

فصل

/ ثم اعلم أن جميع هذه المعاني وما يتعاقبها من مدح أو ذم ، ويدخلها من صدق وكذب وبلاغة وحصر ، فلا بد من أن يقع على مُسمًّى باسم من مدح أو ذم ، وكل مُسمًّى باسم فيه مدح من سائر المعاني فهو واقع بين اثنين متضادين : عدلٌ بين حاشيتي جورٍ . فالعلم واقع بين أمرين: إما علم ما لا يجب أو جهل ما يجب ، فصار العدل بين حاشيتين : إفراطٍ وتفريط . وعلى هذا المثال الفهمُ عدلٌ بين الاعتراف بما لا يمكن وإنكار ما يمكن . واللب أيضاً عدلٌ بين الحصر عن التفهيم والتراخي عن التوهم . والعزمُ عدل بين التهور والجبن . والجودُ عدل بين التقتير والتبذير . والشجاعة عدل بين الإقدام والإحجام . وعلى هذا المثال يقع كل اسم من أسماء القصد والحزم ، وكل وصف يستحق به صاحبه المدح ، وبإزائه ما يستحق عليه الذم .

/ واعلم أن حقيقة مطالِب معنى العدل بأن تَتصرّف في فنون المُسمَّيات ، وتُقسَم في وجوه العبارات ، وذلك أن القصد هو الذي لا يَجزي ما دونه ولا ينفع ما فوقه / فهو راجع إلى معنى العدل الذي ما نقص عنه كان ضعفاً ، وما زاد عليه كان إسرافاً . وكذلك الحزم أيضاً ما لم يَمِل إلى إحدى حاشيتيه اللتين إحداهما الفشلُ والأخرى التهور . وكذلك الحياءُ الذي طرفاه الفتور والقِحَة . وكلٌّ يرجع من العدل إلى انقباض بين ازدياد على حدّة وانتقاص ، ويؤول إلى انبساط منه وتفريط وإفراط .

فمن طلب العدل في جميع الصفات، وجده متوسطاً بين ضدين ، أحدُهما يتطرّق دونه إلى بَخس ونُقصان، والآخر يتطرق فوقه إلى إفراط وعُدوان.

والعدل في الطلب هو ما لم يَمِل إلى الإلحاح في المسألة ، ولا إلى الابتهال والخضوع . والحر لا يكون مَهيناً والكريم لا يكون لجوجاً . ولهذا قيل : القُنوع خيرٌ من الخضوع ، والعدل في السياسة ما لم يمِلْ إلى عُبوس موحِش ولا مَلَق مُدهش. فإن العُبوس يَشين المودة ، ويزيل ما في القلب من صفاء المحبة ، والمَلَق يذهب برونق المروءة . ولهذا قيل من كَثُر مَلَقُه لم يُعرف وُدُّه . والعدل في البلاغة ما لم يقصُر عن دَرَك البُغية ، وإصابة المعنى ، وقصد الغرض. ألا ترى أن الهَذر في المنطِق بعد بلوغ الغاية لا يُحتاج إليه ، ولو كانت البلاغة هي البلوغ إلى غايات المعاني ، لكان العالمُ كلهم بلغاء ، خاصُّهم وعامّهم . لأنه ما من أحد إلاّ وهو إذا عبَّر عمّا في نفسه بلغ غرضه في إفهام السامع عنه ما يريده منه ، على حسب استطاعته وما تساعده عليه آلاته . وإنما البلاغة هي التوصُّل إلى إفهام المعنى بأوجز مقال وأبلغ كلام ، ليُعرَف به المراد بأسهل المسالك وأقرب الطرق بواضح البيان وصادق المقال. والإيجازُ في ذلك ما بُلِغَت غاياته بيسير اللفظ ، والإطنابُ ما بُلِغَت غاياته بالتطويل ، فصارت البلاغة حينئذ التوسط بين الحالتين ، والتوصل إلى إدراك الغاية من أقرب الطرق . وقيل البلاغةُ معرفة مواضع المفاصل المطلوبة بألفاظ مفهومة ، والبليغُ هو الذي لا يؤتى سامعُه من سوء إفهامه ، والفهيم الذي لا يأتي بسوء فهم من يريد إفهامه بتقصيرٍ عن البلاغة في خطابه أو كتابه ، فيخرُق بفهمه وصفاء ذِهنه تلك الحُجُب الحائلة بينه وبين المعنى الذي يقدِر على الفهم ، لأنه يجرّده من تلك الشوائب المعوّقة له عن البيان والإيضاح . والبلاغة في اللغة مِن بالَغتَ في كذا وكذا ، وهي مشتقّة من المبالغة . يقال بلغتُ أبلغُ بلوغاً ، فالمصدر منه بلاغة ، فأنا بالغٌ . وتقول أبلغتُ الكلام وبلّغته إلى فلان أي أدّيته إليه .

واعلم أن المعاني تنطق بها أفواه السُّوقة والعوامّ في الأسواق والطرق ، ولكن قلّ من يحسن العبارة عنها . وربما أراد المعنى فعبَّر عن غيره وهو يظن

أنه قد عبّر عنه . والمعاني هي الأُصول وهي الاعتقاد الذي أول ما يتصوّر في النفس ، والألفاظ هَيولى لها . والمعاني كالنفوس ، والألفاظ كالأجسام . والمعاني كالأرواح ، والحروف كالأبدان .

فصل

ثم اعلم أن الهَيولى إذا قبلت آثار النفس قبولاً تامّاً ، ظهرت أفعالُ النفس في الغرض والمُراد مُضيئةً بهيئتها ؛ وإن عجَزت عن القَبول ، كانت دون ذلك . وكذلك الألفاظ إن قَبِلت التأدية عن المعاني ببلاغة ، فُهِمت المعاني ولاحت دلائلها بغير تطويل ولا إسهاب ؛ وإن عجزت الألفاظ عن تلك التأدية ، احتاجت إلى التطويل . والتطويل ذهاب البلاغة ، والتقصير هو ضعف الدلالة والحُجة . وفي النـاس من يجول في قلبه المعنى الصحيح فيعبّر عنه باللفظ الركيك ، فيحيله عن معناه وإن لم يُرد الإحالة ولكنه عجزٌ في اللفظ ، فيصير اللفظُ غير مؤدٍّ عن المعنى ، لا لعجز المعنى ، ولكن لعجز اللفظ ، كما أن الطبيعة تفعل أشياء ، فتعجز عنها الهيولى القابلة ، فتنقص عن الكمال ، لا لعجز الطبيعة ، بل لعجز الهيولى . فتأمّل هذا الكلام فإنه من الأسرار العجيبة والرموز الدقيقة والمعاني الغامضة وفيه غرض غامض .

وأنت أيها الأخ ينبغي لك أن تراجع نفسك النائمة الساهية . فانتبه من نوم غفلتك ، وأنعِم النظر في جميع ما قلناه ، وافهم جميع ما بينّاه من الإشارات والرموزات ، ولا تظن بنا ظن السوء ، لأن إفشاء سرّ الربوبية كفرٌ .

فصل في كيفية إدراك القوة السامعة للأصوات

فنقول : اعلم أن الأصوات نوعان : حيوانية وغير حيوانية . وغيرُ الحيوانية قسمان : طبيعية وآليّة . فالطبيعية كالصوت من الحجر ، والحديد، والصُّفْر[1] ، والخشب ، والرعد ، والريح ، وخرير الماء ، وسائر الأجسام التي لا روح فيها من الجمادات . والآليّةُ كصوت البوق ، والطبل ، والدُّف ، والمزمار ، والأوتار ، وما شاكلها . والحيوانيةُ أيضاً نوعان : منطقية وغير منطقية . فغير المنطقية أصواتُ سائر الحيوان التي ليست بناطقة. وأما المنطقية فهي أصوات الناس ، منها دالّةٌ ، ومنها غير دالّة . فغير الدالة الضَّحِكُ والبكاء والأنين والأصواتُ التي لا هِجاء لها . وأما الدالّة فهي الكلام والقول الذي له هِجاء . وكل هذه الأصوات إنما هو قَرْعٌ يحدث في الهوامّ عن تصادم الأجرام . وذلك أن الهواء ، بشدة لطافته وخِفة جوهره وصفاء طبعه وسُرعة حركة أجزائه ، يتخلّل الأجسام كلها ، فإذا صدم جسمٌ جسماً آخر ، انسلّ ذلك الهواء وتدافع إلى جميع الجهات ، وحدث منه شَكْلٌ كما ذكرنا أولاً ، فيصل بمسامع الحيوان .

فأما كيفيّة إدراك الحاسّة السامعة للصوت الحيواني وغير الحيواني وتمييزها لكل واحد منها كما تُميّز القوةُ الذائقة طُعومَ الأشياء، وتخبر الناطقة عن كل شيء بما يخصه من طَعمه ، وكذلك القوة الشامّة . فأما الذائقة فهي أكثر تأثراً من الشامة ، وكذلك الحاسّة السامعة فإن قُواها في تمييزها الأصواتَ بعضَها من بعض ألطف وأشرفُ . والحاسّة اللامسة أكثفُ من الجميع . واختلف العلماء في حاسّة النظر وحاسة السمع أيُّهما ألطف وأشرف . فقال بعضهم : حاسّةُ السمع أشرفُ ، وكان برهان من قال ذلك أن محسوسات

[1] الصفر : النحاس الذي تصنع منه الاواني .

السمع كلها روحانية ، وأن النفس بطريق السمع تُدرك من هو غائب بالمكان والزمان ؛ وأن محسوسات البصر كلها جسمانية ، لأنها لا تُدرك إلاَّ ما كان حاضراً في ذلك الوقت . وقال إن السمع أدقُّ تمييزاً من البصر ، إذ يعرف جَودة الذوق ، وجَودة الحِس ، والكلامَ الموزون ، والنغمات المختلفة ، والفرقَ بين السقيم والصحيح والمستَوي والمُنزحِف ، وصوتَ الطير من صوت الكلب ، وصوت الحمار من صوت الجمل ، وأصوات الأصدقاء من أصوات الأعداء ، وما يحدُث من أصوات الأجسام التي لا روح فيها ، وأصوات الناس على اختلافهم ، وأشكالَ كلامهم ، فتخبر عن كل صوت بما هو دأبه ، وتنسبه إلى الذي بدا منه ، ولا يحتاجُ إلى البصر في ذلك وفي إدراكه . والبصرُ يخطىء في أكثر مُدرَكاته ، فإنه ربما يرى الصغير كبيراً ، والكبير صغيراً ، والبعيد قريباً ، والقريب بعيداً ، والمتحرِّكَ ساكناً ، والساكن متحرِّكاً . فصح بهذا القول أن السمع ألطفُ وأشرف من البصر ، ولنِعْمَ ما قيل :

الشمسُ تَستصغِرُ الأجسامُ جثّتها ، فالذنبُ للعينِ لا للشمس في الصِّغَر

فإذا كان كذلك ، كانت الحواسُّ الخمس الموجودة في الإنسان المستوي البِنية ، التامّ الخِلقة ، مناسِبةً للطبائع الخمس في جسم العالم الذي هو الإنسان الكبير . فحاسة اللمس مناسِبةٌ لطبيعة الأرض ، لأن الإنسان يُحس بجسمه كلّه . وحاسّة الذوق التي هي اللسان مناسبة لطبيعة الماء ، إذ بالمائيّة والرطوبة التي في اللسان والفم تُدرِك طعوم الأشياء ، وسنشرحها إذا انتهى بنا القول إلى تفصيل ذلك وبيانه . وحاسّة الشم مناسبة لطبيعة الهواء لأن القوة الكامنة هوائية وهي المُستنشِقة للهواء ، وبه تُدرِك روائح الأشياء . والحاسة الباصرة مناسِبةٌ لطبيعة النار ، إذ بها وبالنور تُدرك محسوساتها ، والحاسة السامعة مناسِبةٌ لطبيعة الفلك الذي هو مسكَن الملائكة الذين شعارُهم

وشُغلهم ، ليلَهم ونهارَهم ، وكلامُهم كلّه تقديسٌ وتسبيحٌ وتهليل . ويلتذُّ بعضُهم بسَماع بعض ، ويقوم لهم في ذلك العالم العُلْوي مَقام الغِذاء الجسماني في العالم السُّفليّ . وذلك أن حاسة السمع محسوساتُها كلُّها روحانية . ولذلك قيل إن فيثاغورس الحكيم سمع بصفاء طبيعته وصفاء جوهره، نغماتِ الأفلاك، وإنه استخرج الآلة التي تُسمَّى العود ؛ وإنه أول من ألف الألحان ، ومَن بَعدَهُ من الحكماء الذين اقتدوا به وبان لهم حقيقةُ ما وصفه ، فصدَّقوه وتابعوه واتّسعوا في فعل ذلك ، كلٌّ بقدر ما اتسع له زمانُه ، وساعده عليه إمكانه .

فصل

ثم إن لكل صوت صفةً روحانيةً تختص به خلاف صوتٍ آخر ، فإن الهواء ، من شرف جوهره ولطافة عنصره ، يحمِل كل صوت بهيئته وصيغته ، ويحفظها لئلا تختلط بعضها ببعض فيُفْسِد هيئاتها ، إلى أن يُبلغها إلى أقصى غاياتها عند القوّة السامعة ، لتؤديها إلى القوة المفكرة . ذلك تقدير العزيز العليم الذي جعل لكم السمع والأبصار والأفئدة ، قليلًا ما تشكرون . فإن قال قائلٌ : ما العلة التي أوجبت للهواء هذه الفضيلة الشريفة والحركة الخفيفة ؟ فنقول : لقد سألتَ عن أمرٍ يجب السؤال عنه ، إذ كان من أكثر الفوائد ، فيجب أن تعلم أن جسم الهواء لطيف شريف ، وهو متوسط بين الطرفين ، فما هو فوقه ألطف منه وهو النور والضياء، وما دونه أكثفُ وهو الماء والتراب، ولما كان الهواء أصفى من الماء وألطفَ وأشرفَ جوهراً وأخفّ حركةً ، صار النورُ يسري فيه ويصبغه بصبغته ويودعه روحانيّته ، لأنه قد قاربه وجانسه بما فيه من اللطافة . ولما كان النور والضياء أصله ومبدأه من أشرف الجواهر الغالية ، صار له اتصال بالنفوس والأرواح ، وصارت سارية فيه ، وهو المعراج الذي

تعرُج به الأرواح وتنزل به النفوس إلى عالم الكون والفساد ومجاورة الأجساد. ولما كان للهواء هذه الفضيلة ، صار يحفظ لكل شيء صورته تامةً ويحوطه حتى يبلغه إلى الحال المقصود به، بحسَب ما جعله فيه باريه، جلّت قُدرته، بحكمته، ليكون بذلك إتقان الصنعة وإحكام الخِلقة ، فلذلك صارت تدركها بما هي به، إذا كانت الحاسّةُ سالمةً والأداة كاملة .

وهكذا حاسة الشم تقبل من الهواء ما يحمِله من الروائح ، فإنه يحفظها ويتبع الإحاطة بما يَعرض من الروائح عن كثير من الأجناس ، ثم تؤديها إلى حاسة الشم ، فتخبرها عن كل رائحة بما هي به وعمّا فاحت عنه ، ولذلك قيل : عالَمُ الأرواح رَوْح ورَيحان ، ونغمات وألحان ، وكذلك النور يحفظ الألوان على الأجسام ، ولا يَخلِط بعضها ببعض ، وتدركها القوة بما هي به ، إذا كانت الحاسة سالمة . ثم إنه متى حدث ببعض الحواس حادث أوجب تغيُّرَ إدراك الحاسة ، فليس ذلك لفساد في الهواء والضياء ، ولكن لفساد المزاج واضطراب البنية . فإذا كانت الحاسة سالمة ، وجاءتها الأشياء بخلاف ما تَعهَد ، فليس ذلك لفساد فيها ، لكن للحادث الذي حدث في الهواء والضياء . وذلك أن الهواء يتغير ويتكدر ، والضياء يُظلِم ، ولذلك صار البصر لا يُدرك بعد مغيب الشمس ما كان يدركه وقت طلوعها . وكذلك السمع لا يُدرك من الأصوات في وقت هيجان الريح وحركة الهواء ما كان يُدرك من ذلك في وقت سكون الهواء وهدوء الرياح .

فصل

ثم إن ما دون فلَك القمر لطيف وكثيف يجري عليه التغيُّرُ والاستحالة ، وذلك أن النار تستحيل فتصير هواء ، والهواءَ يستحيل فيصير تراباً ، والترابَ يستحيل فيصير ماء ، والماءَ يستحيل فيصير هواء ، والهواءَ يستحيل فيصير نوراً . فالنارُ صار أولها يتصل بالهواء وآخرُها يتصل بالنور . وأول طرَف الهواء متصلٌ بالماء وآخره متصل بالنار . وأول الماء متصل بالتراب وآخره متصل بالهواء . فمن جهة طرَفه الأعلى يتصل بما فوقه وبطرفه الأدنى يتصل بما دونه ويستحيل إليه .

فانظر يا أخي كيف أوجبت الحكمة التغيير والاستحالة والزوال والانتقال من حال إلى حال في الموجودات الطبيعية ، والعلة في ذلك هو جَزاءُ النفوس بما كسَبت ، وعقوبتها بما جنَت ، لأن عالم الأرواح لا تَغيُّرَ فيه ولا تبديل ولا زوال ولا انتقال .

ثم اعلم أن كيفية إدراك الحاسة السامعة بجميع أصوات ما في العالم من الإنس وسائر الحيوان والنبات والرياح والأشجار وما شاكل ذلك من كل شيء له صوت وحركة ينقسم عددها إلى ثلاثة أقسام : أحدُها حي ، والآخر ميت ، والثالث لا حي ولا ميت . وكلامُ الإنسان وصوتُ الحيوان حيٌّ ذو حركات نَفسانية . وصوت الحجر والخشب والحديد والنحاس وما شاكلها ميت . والقسم الثالث لا حي ولا ميت مثلُ صوت الهواء إذا تدافع وصدم بعضُه بعضاً ، وحدث منه الصفير والزمير ، وصوت تدافع الماء في التلاليع ، وأمواجِ البحار وجريانِ الأنهار ، وصوت زفير النار ، فإن هذه لا يقال لها حيّة كما يقال للإنسان والحيوان إنه حي ذو حركة يَقصِدُ لغرضٍ يناله بحركته ، ولا يقال إنها ميتة كموت الحجر والخشب ، لأنها متحركة بالاتفاق لا بالقصد ، ولأنها تُقوّي مرةً حركةَ الهواء ومرةً تُسكّنها ، وكذلك الماءُ والنار . ثم يجمع

هذه الأصواتَ كلّها شيءٌ واحد وهو هَيُولاها ولولاها لما كانت .

فأما كيفية الأصوات التي تـُعليم الإنسان أنها صدوت عن أجسام حية فهو أن يكون وصولها إلى حاسة سمعه بسُرعة وخِفـّة ، ويجـد لنفسه التي تفهمها وتقبلها سُرعةَ الإخبار عنها بما هي به ، بخلاف تلك الأصوات الصادرة عن الأجسام المائية التي لا يوصل إليها إلاّ بالفكرة والرويّة .

وأيضاً فإن الإنسان يأنس بأصوات الحيـة إذا كان في فلواتٍ بعيدة في موضع منقطع عن العمران فيستوحش، فإذا سمع نُباح كلب أو صوت إنسان استأنس وقويت نفسه ، وعلم أنه بقرب عمران ، وبخلاف ذلك إذا سمع صوت الوحش يخاف منه على نفسه ، وأيضاً صوتَ هبوب الرياح العواصف ، وجرَيان الأودية ، وأمواج البحـار ، واهتزاز الأشجار ، ووقع الأحجار ، إذا سمعها الإنسان الفريد الوحيد في المواضع النائية عن الناس استوحش منها غاية الاستيحاش . ولذلك قيل إن في الفلوات والقفار جبالاً تنقطع وتنكسر وتـَخِرّ فيُسمَع منها أصوات مرتفعة ، فإذا سمع الإنسان ذلك يستوحش ولا يأنس بها .

وقيل أيضاً إن النار والهواء والماء لا يُحكم عليها بموت ولا حياة ، وهي ، وإن كانت مادة للحياة والحركة، فإن ذلك يكون باجتماعها بقوّة طبيعية وحركة نـَفسانية بمشيئة إلهية . وأما إذا تفرد كلٌ منها بذاته ، فلا يقال لها حية ولا ميتة ، ولكن كل واحد منها ذو طرفين : طرفٍ متصل بالحياةِ ، وطرفٍ متصل بالموت ، وهو متوسط بين ذلك . فالتراب طَرَفُه الأعلى وما لـَطـُف منه متصلٌ بالماء ، فهو ذو حياة بما يُخرجه ويُبرزه من النبات الذي به حياةُ الحيوان . وَطرفُه الآخر هو ما كـُثـُف منه مثلُ الجبال والصخور والسّباخ، فإنها أموات لا تقبل الماء ولا تـُحِس به ، ولا يكون منها نبات ، ولا ينتفع بها حيوان . والطـّرفُ المتصل بالماء يقال له عُمران ، والذي بَعُد من الماء يقال له خرابٌ ، وهو بالموت أشبَهُ من طرَفِه العامر .

والماء أيضاً ذو طرفين ، طرَفُهُ الاعلى متصل بالهواء وهو بالحياة أشبَهُ ، وطرَفه الأدنى متصل بالتراب ، والترابُ لا حياة فيه ولا حركة له . فالطرف المتصل بالتراب بالموت أشبَهُ ، والطرَفُ المتصل بالهواء بالحياة أشبَهُ . والهواء طرَفه الأدنى متصل بالماء ، والماءُ بالموت أشبَهُ ، لأن الماء ربما صار جامداً ثقيلاً، وإذا جمد صار مَواتاً، وكانت منه صخور وجماد، وهو بالموت أشبَهُ، وطرَفُه الأعلى متصل بالنار ، والنار بالحياة أشبه .

والنار أيضاً ذات طرفين ، طرفٍ منها متصل بالهواء ، وطرَفٍ منها متصل بالنور والضياء . وذلك أن النار إذا قَدحت خرجت من احتكاك الأجسام بحدوث ذلك القَرْع في الهواء؛ وإذا برزت مع الهواء اتصلت بالأجسام النباتية والحيوانية ، فأكلتها وأحرقتها وزالت بزوالها واضمحلت باضمحلالها ، فيقال خمِدت النار وانطفأ السِّراج ، فصار هذا الطرَف أشبهَ بالموت ، ولها طرَف آخر يطلب العُلْوَ أبداً متصلٌ بالإشراق والنور والضياء . وهذا الطرف ، لاتصاله بالنور ومُشاكَلتِه إياه ، بالحياة أشبَهُ .

وكذلك آخِرُ المعادن متصل بأول النبات ، وآخرُ النبات متصل بأول الحيوان ، وآخر الحيوان متصل بأول عالَم الإنسان ، وآخِر الإنسان متصل بأول مرتبة الملائكة . وكذلك آخِرُ التراب متصل بأول مرتبة الماء ، وآخِرُ الماء متصل بأول مرتبة الهواء ، وآخر الهواء متصل بأول مرتبة النار ، وآخِرُ النار متصل بأول مرتبة الضياء .

كذلك ما حدث من الأصوات يجري على هذا المِثال ، فصوت الأحجار يُشبه أصوات النبات ، لأن النُّحاس إذا خُلِط بالحديد وجُمِع بينهما ، كان له طنين كطنين العيدان ، وذلك أن العود نباتٌ صنعه الناس وحرَّكوه ، وصارت له نغمة ظاهرة ناطقة مُعبِّرة عما في أفكار النفوس . وكذلك صوت نقَرات الأجراس وطنينِ النُّحاس ، وليس للحجر الغير المعدِنيّ مثلُ ذلك . فالطرَف الأعلى من أصوات النبات نغماتُ العيدان وما شاكلها ، وهي لاحقة

بأصوات الحيوان وكلام الإنسان ، والطرفُ الآخر الأدنى المتصلُ بأصوات الحجارة المواتِ كصوت الدُّف ودويّ الأوتاد في الأرض وما شاكلها .

والطرَفُ الأعلى من أصوات الأحجار المعدنية ، كما قلنا ، هو صوت النُّحاس وما كان له طنين وزمير ، وهو اللاحق بأصوات النبات مثلُ العيدان والطنابير وما شاكل ذلك .

والطرف الأدنى من أصوات الحيوان لاحقٌ بصوت النبات مثلُ أصوات البهائم الخُرْس التي لا يتبيّن لها صوت يمكن تقطيعه ووزنه مثل النهيق . والحيوانات التي لا أصوات لها لاحقةٌ بالجمادات والموات. والطرف الأعلى لاحقٌ بكلام الناس مثلُ كلام الفصحاء من الطيور والهزارداستان والبلبل وما شاكل ذلك مما حَسُنَ صوته من الحيوان .

والإنسان أيضاً كلامه ذو طرفين ، طرَفه الأدنى متصل بالحيوان مثلُ الفأفاء والتمتام والأخرس والألثغ وما شاكل ذلك. والطرَف الأعلى منه متصل بمنطق الملائكة مثل كلمات الفصحاء والبلغاء وذوي النغمات والألحان المُطربة مثل نغمات داود ، عليه السلام ، والقُرّاء والمُلحّنين في المساجد ، وقراءة المزامير مثل أصوات قِراءة التوراة في الكنائس والبِيَع والقرآنِ في المساجد، والخطباء على المنابر ، والرهبان في الصوامع، وما شاكل ذلك ، ولكل صوت من هذه الأصوات عند الحاسة السامعة كيفيّةٌ وماهيّةٌ . فماهيّةُ صوت الإنسان أنه غرض مفهوم دالٌ على معنى، فتحتاج القوة المفكرة إلى أن تفكر فيه وتفتش عن معناه، وأصوات الحيوانات غير مفهومة، لكن القوة المفكّرة تقضي عليها أنها ما صوّتت إلاّ لحاجة ، وما أرادت به إلاّ سبب أكلٍ وشُرب ونِكاح . فهذه الأقسام من الصوت مختصة بالأجسام الحيّة .

فأمّا صوت الحجارة والخشب فإن القوّة المفكّرة لا تقضي عليها بأنها ما بدت لغرض ولا لقصد ، إلاّ أن تكون آليّةً لحركة الإنسان مثل البوق والزّمْر والعود وما شاكل ذلك ، وأنها تنسبها إلى الحركة التي كانت هي

السبب في تصويتها مثلَ بوق ومِزمار وعود وصفّارة وما شاكل ذلك . وكل هذه أصوات إنسانية أودَعَتها النفسُ الجُزئية هذه الأشكال النباتية بالصّناعة التي اتخذتها حيلةً للمعاش والكسب .

وأما صوت هبوب الرياح، والرعد ، وخرير الماء إذا انحدر من عُلُوٍ إلى أسفَل ، واضطراب موج البحار ، واهتزاز الأشجار ، فإن القوّة المفكّرة لا تعبأ بذلك ولا تفكر فيه ، وإنما تمر على الحاسّة السامعة شِبه الخُوار ولا حاجة إليه ، وربما ضَجِر الإنسان منه وتأذّى من مداومة سماعه .

وإذ فرغنا من ذكر ماهيّة الأصوات وكيفيّة حدوثها ، وكيف تدركها القوة السامعة ، فلنذكُرْ ما بين هذه الحاسة وبين ما تُدركه هذه الأصوات من المناسَبة والمُشاكلة والمُجانَسة والمطابقة .

فصل

فنقول : اعلم أن إدراك الحاسة السامعة لصوت الحجر، والجواهر المعدنية، والجمادات الغير النامية والحية كنمو النبات وخُوار الحيوانات ، فهذا لما بينها وبين تلك من المناسبات والمجانسات من جِهة الجِسميّة والطبيعة الأرضية ، وذلك أن جسم الإنسان مائل إلى التراب. وأما إدراكه أصوات الخشب وكلّ ما يصوّت ويتحرّك من النبات والأشجار، فلأجل المُناسَبة بينه وبين ذلك ، وذلك أن الإنسان يشارك النبات في النمو والزيادة والكِبَر بعد الصِّغَر.

وأما إدراكه أصوات الحيوان ومعرفته بها وإخباره عنها فلما بينه وبين الحيوان من المناسبة ، وذلك أن الإنسان مشاركٌ للحيوان في الحياة والحِس . والنفسُ الحيوانيةُ جاريةٌ بينهم متصلٌ بعضُها ببعض أكثر اتصالاً من النفس النامية بين النبات والحيوان . وذلك أن الإنسان يُشارك النبات من جهة واحدة وهي النمو فحسبُ ، ويشارك الحيوان من جهات كثيرة وهي النمو

والشهوة والأكل والشرب والنكاح والحِسّ والألم واللذة والأُمور الحيوانية. والإنسان إنما يتميز عن الحيوان بالنُّطق والتمييز والقوة العاقلة . وقيل إن لبعض الحيوانات فكراً وتمييزاً وهي النحل والنمل .

وأما إدراكه أصوات الهواء والنار فلما بينه وبينها من المناسبة لأنه مُهيّأ منها كما ذكرنا في رسالة الهَيُولى والصورة .

واعلم يا أخي أنه لولا المناسبة التي بين الحيوان الحيّ وبين الجمادات الميتة، لما كان يُدرِك من المعرفة بها والإحاطة بخبرها قليلاً ولا كثيراً . فإن قال قائل : لمَ لا يَعرف الصبي الصغير هذه الأشياء على حقيقتها ، وبينه وبينها النسبةُ موجودةٌ ؟ قيل : إن ذلك لعجز في الهيولى عن القبول ، لا لغلط من الخالق تعالى « ذلك تقدير العزيز العليم » يخلُق ما يشاء كما يشاء بلا اعتراضٍ عليه ، ويحكم ما يريد بلا غرض ، جلّ جلاله !

فصل في اختلاف الاصوات في الصغر والكبر

فنقول : اعلم أن حدوث الأصوات يكون من تصادُم الأجسام بعضِها ببعض ، فنقول : إن كل جسمين تصادما برفق لا يُسمَع لهما صوتٌ ، لأن الهواء ينسلُّ من بينهما قليلاً قليلاً ، فلا يُحدِث صوتاً ، وإنما يَحدُثُ الصوتُ من تصادم الأجسام إذا كانت صَدمتُها بسُرعة ، فينضغط الهواء عند ذلك ، وتتدافع أمواجه ، وتتموّج حركته إلى الجهات الست بسُرعة ، فيحدُث الصوتُ ويُسمَع كما بيّنّا فيما تقدم . والأجسام الكبار العظام إذا تصادمت يكون اصطدامها أعظم من أصوات ما دونها، لأن تموُّج هوائها أكثرُ . وكل جسمين من جوهر واحد ، مقدارُهما واحدٌ وشكلُهما واحدٌ ، إذا تصادما معاً ، فإن صوتيهما يكونان متساويين. فإن كان أملس فإن صوتيهما يكونان أملسِ من السطوح المشتركة ، والهواءُ المشترَكُ بينهما أملس . والأجسام

الصُّلبة المجوّفة كالأواني وغيرها والطرجهارات إذا نُقِرت طنّت زماناً طويلاً، لأن الهواء يتردد في جوفها ويَصدِم في حافاتها، ويتموّج في أقطارها، وما كان منهـا أوسع كان صوتـُه أعظم ، لأن الهواء يتموّج فيهـا ويَصدِم في مروره مسافة بعيدة . والحيوانات الكبيرة الرّئة، الطوالُ الحلاقيم، الواسعةُ المناخِر والأشداقِ تكون جهيرة الأصوات ، لأنها تستنشق هواءً كثيراً ، وتـُرسِله بشدة . فقد تبين بمـا ذكرنا أن علة عِظم الصوت إنمـا هو بحسب عِظم الجسم المصوّت وشدة صدمة الهواء ، وكثرة تموّجه في الجهات. وأن أعظم الأصوات صوتُ الرعد ، وقد بيّنّا علة حدوثه فيما تقدم في رسالة الآثار العُلويّة . وأما أصوات الرياح وشدة حدوثها فليست شيئـاً سوى تموّج الهواء شرقاً وغربـاً وجنوباً وشمالاً وفوقاً وتحتاً . فإذا صدم بحركته وبجريانه الجبال والحيطان والأشجار والنبات ، وتخللهـا ، حدثت من ذلك فنونُ الأصوات والدويّ والطنين مختلفة الأنواع ، كلُّ ذلك بحسب كِبَر الأجسام المصدومة وصِغَرها وتجويفها لعِلل يطول شرحها .

فأما أصوات المياه في جريانها وحدوثها وتصادُمها بالأجسام ، فإن الهواء ، بلطافـة جوهره وسرَيان عنصره ، يتخللهـا كلها ، ويكون حـدوثُ تلـك الأصوات وفنونُ أنواعها بحسب تلك الأسباب التي ذكرنا في أمر الرياح .

وأمـا أصوات الحيوانات من ذوات الرئـات واختـلاف أنواعهـا وفنون أقسامهـا ، فبحسب تلـك الأقسام والأسباب التي ذكرناهـا من أمر الرياح ، وبحسب طول أعناقهـا وقِصرها وسَعة حلاقيمها وتركيب حناجرهـا ، وشدة استنشاقها للهواء ، وقوّة إرسال أنفاسها من أفواهها ومناخِرهـا . وكل ذلك لأسبابٍ وعِلل يطول شرحها .

وأما أصوات الحيوانات التي لا رئـة لهـا كالزنابير والجَراد والصّراصر وأشباهها ، فإنها تحرّك الهواء بجَناحين لهما سُرعة وخفة ، فتَحدُث من ذلك أصواتٌ مختلفة كما يَحدُث من تحريك الأوتار والعِيدان ، وتكون فنونهـا

متباينةٌ وأنواعها مختلفة وصِغَرها وكبرها بحسب لطافتها ، أعني أجنحتَها ، وغِلظها وطولها وقِصَرها وكِبَرها وصِغَرها وسُرعة تحريكها .

وأما الحيوانات الخُرْس كالسمك والسلاحف وما شاكلها فإنها صُمُتٌ ، لأنها ليست لها رئة ولا جَناحان فلا يكون لها أصوات .

وأما أصوات الجواهر المَعدنية كالحديد والنُّحاس والزُّجاج والحجارة وما شاكلها ، فإن اختلاف الأصوات يكون بحسب يُبسها وصلابتها وكمّية مقاديرها من الصّغَر والكِبَر والطول والقِصَر والسَّعة والضيق .

وأما أصوات النبات فبحسب صلابتها ورخاوتها ، وما يُتَّخذ منها بالصناعة من الآلات المصنوعة كما قدمنا ذكره . وكذلك حالُ ما يُتَّخَذ منها لمثل ذلك من الجواهر المَعدنية واختلافها في الأصوات والطنين ، وما يبدو عنها من أنواع النغمات والأصوات كصوت الطبل والبوق والدُّفّ والسرناي والزَّمْر ، فهو يختلف بحسب أشكالها . فإن كل صوت إنما يبدو مُناسباً للجسم الذي يكون منه ، وبحسب صفاء جوهره وكدَره الذي يكون مُتَّخَذاً منه ، وكبر أجسامه وصِغَرها ، وطولها وقِصَرها ، وسَعة أجوافها وضيق ثُقبها ، ودِقّةِ أوتارها وغِلَظِها ، وبحسب تحريك المُحرّك لها والمُصوّت بها.

ومنها وسائط بين الإنسان والهواء في التصويت مثلُ البوق والزّمر والصّفّارة ، وجميع ما يجعله الإنسان في فيه ، ويُرسِل فيه الهواء من جوفه بقوة أنفاسه .

ومنها الوسائط بين الآلة والصوت من حركة الإنسان كصوت الطبل ونقرة الدُّفّ وما أشبه ذلك ، فما يكون من هذه الآلة مُصوّتاً بالفم، فإنه يكون ممتدّاً مستطيلاً مُجتَمِع الأجزاء لا سكونَ فيه إلاّ أن يَسكُنَ الصوتُ مرةً واحدة .

وأما الأصوات بحركة اليدين فإن بين أجزائها سُكوناتٍ ودقّةً في أثر دقّةٍ ، ونقرةً تَعقُب نقرةً ، كما بيّنا في رسالة الموسيقى. وهذه الأصوات ،

أعني صوت الزَّمْر والبوق ، تُشبه أصوات الأحجار والمعادن ، إذا نقره المُحرّك كان له دوي وطنين يمكث في الهواء ممتدّاً لا ينقطع إلى أن يسكن، لا تقطيع فيه من أصوات الحيوانات مثل أصوات الزنابير وما شاكلها .

فأما أصوات ذوات الأوتار ، وما يُستَعمل منها في أنواع الأغاني بحركات اليدين موازيةً لحركة اللسان والإيقاع ، مستويَ اللحن ، صحيح الوزن ، وما كان بخلاف ذلك ، كان مناسباً لأصوات الطيور الثّقال الطبع كالإوَزّ وما جانسها ، وككلام الثقيل الكلام من الناس، ويكون ذلك لفساد الحركة وبُعدِها من النّسبة الفاضلة ، كما عَجَزَت هَيُولى الإنسان عن قَبُول ما جُعِلَ فيها . وعَجزُها بإظهارها إياه من القوة إلى الفعل ، وكان ذلك عجزاً من المصنوع لا من الصانع ، كما أن صانع العود ، إذا أحكم صَنعته وشدّ أوتاره وأصلح مَضاربه ، وأخَذَه من لا يعرف الصناعة ، ولا يُحسن العَمَل به فنَقَره ، فإنه لا يأتي من تصويته مثلُ ما يأتي به العارف بعلمه وصَنعته ، ولا يُنسَبُ ذلك إلى فسادٍ في الآلة وإلى فساد من الصانع ، وإنما يُنسَب إلى عجز المُحرّك . فإذا رأيتَ آلة العود مُفردةً ، والأوتارَ مقطعة ، وحركة الحاذق بالصناعة لم تساعده على ما يُريد بإظهار صناعته ، فليس ذلك منسوباً إلى عجزه فيه ، ولكن إلى عجز الآلة ونُقصانها عن التام . فمن كلا الوجهين الصانِعُ بريء من العجز ، إذا كانت صَنعةُ الأشياء على النّسبة الفاضلة ، وقصدُه في صنعته الإتقان والإحكام .

وإنما حدث النّقصُ والفساد من جهة الهَيُولى ، كما أن المعلم إنما غرَضُه أن يُعَلّم تلميذه ما يحسنه ، حتى يكون حاذقاً فيه ، فيكون مثله وحافِظاً لعلمه . فإذا لم يقبل المتعلم منه وأخذ ألفاظاً مستويةً فأحالها عن وجهها، فليس ذلك منسوباً إلى المعلم ، لكن إلى عجز المتعلم عن البلوغ إلى ما يُعلّمه الأستاذ دفعة واحدة ، لا بالتدريج ليعرف الشيء بعد الشيء .

فصل في السكون والحركة

فنقول : اعلم أن الحركة هي النقلة من مكان إلى مكان في زمان ثانٍ ، وضدُّها السكونُ وهو الوقوف والثبات في مكان واحد بين زمانين. والحركة تكون سريعة وبطيئة . فالسريعة هي التي يقطع المتحرّك بها مسافةً طويلة في زمان قصير ، والبطيئة هي التي يقطع المتحرّك بها مسافة قصيرة في زمان طويل . وعلى هذا المثال تعتبر الحركات والمتحركات .

ثم اعلم أن الحركات تنقسم من جهة الكيفية إلى ثمانية أنواع ، كلُّ نوعين منها متقابلين من جنس المضاف . فمنها الكبير والصغير ، والسريع والبطيء ، والدقيق والغليظ ، والثقيل والخفيف . فأما الكبير والصغير من الأصوات فإن المِثال فيها أصوات الطبول الكبار والصغار . وذلك أن أصوات طبول المواكب ، إذا أُضيفت إلى أصوات اللهو ، كانت كبيرةً ، وإذا أُضيفت إلى أصوات طبول الكُوس [1] كانت صغيرة ، وإذا أُضيف صوت طبول الكُوس إلى صوت الرعد كان صغيراً . وعلى هذا المثال تعتبر الأصواتُ في الصِّغَر والكِبَر بإضافة بعضها إلى بعض ، وهي التي تكون أزمان السكونات ما بين نقراتها وحركاتها صغيرةً بالإضافة إلى غيرها . والمثالُ على ذلك أصوات مداقّ القصّارين ومطارق الحدّادين ، فإنها سريعة بالإضافة إلى أصوات مداقّ الرزّازين [2] والجصّاصين ، فهذه بطيئة بالإضافة إليها ، وأما بالإضافة إلى أصوات مجاذيف الملاّحين فهي سريعة. وعلى هذا المثال تُعتَبر سُرعة الأصوات وبطؤها بإضافة بعضها إلى بعض .

وأما الدقيق والغليظ من الأصوات فبإضافة بعضها إلى بعض كأصوات

١ الكوس : الطبل معرب .

٢ الرزازون : باعة الرز .

نغمة الزير [١] بإضافتها إلى نغمة البَم [٢] ونغمة المثنى [٣] إلى المِثلَث [٤] . وأما بالعكس فإن صوت البَمّ بالإضافة إلى المِثلَث غليظٌ ، وكذلك المِثلَث إلى المَثنى ، والمثنى إلى الزّير . ومن وجه آخر فإن صوت كل وتر على غليظ بالإضافة إلى ما دونه أيّ وترٍ كان . فعلى هذا القياس تُعتَبر حِدّة الصوت وغِلَظُها بإضافة بعضها إلى بعض .

وأما الجهيرُ الخفيف من الأصوات فبحسب قوّة الحركة وضَعفها . والمثال في ذلك صوتُ العليل السقيم بالقياس إلى صوت الصحيح المُعافى ، وصوتُ العليل إلى من هو أضعفُ منه وأسقمُ حتى يكون أجهرُ الأصوات من الناس ما كان في غاية الصحة وسلامة الحَواسّ واستواء الآلة ، وأخفاهُنّ ما كان في الغاية بخلاف هذه الصفة لما به من ضعف القوة وقلة الحركة وفساد الجُملة وغير ذلك .

فصل في معرفة قسمة الأصوات من جهة الكمية

فنقول : الأصوات من جهة الكمّيّة نوعان : متصلة ومنفصلة . فالمنفصلة هي التي بين أزمان حركاتها في النقرات زمان سكونٍ محسوسٍ ، مثلُ نقرات الأوتار وإيقاع القُضبان . وأما المتصلة من الأصوات فمثلُ أصوات المزامير والنايات والدواليب ونحو ذلك كما ذكرنا في فصل قبل هذا . والأصوات المنفصلة تنقسم نوعين : حادّة وغليظة ، فما كان من النايات والمزامير أوسع تجويفاً وثقباً ، كان صوته أغلظ ، وما كان أضيق تجويفاً ، كان صوته أحدّ .

١ الزير : الدقيق من الأوتار .

٢ البم : الوتر الغليظ من اوتار المزهر .

٣ المثنى : من اوتار العود ما بعد الوتر الأول .

٤ المثلث : الثالث من الأوتار .

ومن جهة أخرى أيضاً ما كان من الثُّقب إلى موضع النفخ أقرب ، كانت نغمته أحدّ ، وما كان أبعد ، كان أغلظ . وهكذا تنقسم الأصوات المتصلة أيضاً على هذا المثال غليظةً وحادّةً ، وقد بيّنّا في رسالة الموسيقى ذلك .

وأما معرفة طبائع الأصوات وائتلافها واختلافها بحسب ما نبيّن هاهُنا فنقول : إن الأصوات الحادّة والغليظة تتضادان ، فإذا جمع بينهما على نسبة تأليفية ، ائتلفت وامتزجت واتحدت وصارت كلاماً موزوناً ونظماً مؤتلفاً، فعند ذلك يستلذه السامع وتُسَرّ به الأرواح وتأنس به النفوس. وإذا كانت على غير هذه النسبة، تنافرت وتباينت ولم تأتلف ، ولم يستلذها السامع بل ينفر منها ويشمئز . والأصواتُ الغليظة باردة وهي رطبة ، وتنقسم قسمين : ضارّة ونافعة . فأمّا الضارّ فهو الذي إذا ورد على السامع يعوقه وهي الأصوات الخارجة عن الاعتدال . وقد استعمل الحكماء اليونانيون آلة لذلك كانوا يستعملونها عند ملاقاة الأعداء وهي صوتٌ بلا زعيق . والأصواتُ المعتدلة المناسبةُ تعدّل مِزاج الأخلاط الحارّة والكيموسات اليابسة فهذه تابعة لها . والأصوات الغليظة التي يحدث منها فساد المِزاج باردةٌ يابسة ، لأنه ربما جاء منها ماء يميت الحيوانات الصغار مثل فراخ الطيور ، والأطفال من الصبيان . والأصواتُ المناسبة باردةٌ رطبة . والأصواتُ الحادة حارّةٌ ، فما كان منها على غير النسبة المعتدلة ، أفسد المِزاج وأحرق الطبيعة ، وما كان منها على النسبة الفاضلة والاعتدال، أصلح المِزاج ولطّف البرودة. فالقسمُ الأول حارٌ يابس ، والقسم الثاني حارّ ليّن .

وقد اتخذ الحكماء لهذه الأصوات ميزاناً يعرفون به طبائعها على النسبة الفاضلة بحدّ الاعتدال، وهي الآلة التي تسمى العود، وقد ذكرنا كيفيّة بنيته والعمل به في رسالة الموسيقى .

فصل

في معرفة الأصوات من جهة طبيعة الإنسان والحيوانات واختلافهم فيها

فنقول: اعلم أن أمزِجة الأبدان كثيرة الفنون، وطبائع الحيوانات كثيرة الأنواع، ولكل مِزاج وطبيعةٍ نغمةٌ مُشاكلة ولحنٌ ملائمٌ لها لا يحصي عددها إلاّ الله تعالى. والدليل على ذلك أنك إذا تأملتَ وجدتَ لكل أمّةٍ من الناس ألحاناً ونغماتٍ وأصواتاً يستلذونها ويفرحون بها لا يستلذها غيرهم ولا يسَرُّ بها سواهم، وذلك لاختلاف لغاتهم وتباين أمزِجتهم وطباعهم وما جرت به العادات والأخلاق. وهكذا يجري في أصحاب لغةٍ واحدة: أقوام يستلذون ألحاناً ونغمات وأصواتاً لا يستلذها غيرهم من لغتهم، وهكذا ربما تجد إنساناً واحداً يستلذ وقتاً لحناً ما ويعافه وقتاً آخر. وهكذا تجد حُكمهم في مأكولاتهم ومشروباتهم ومسموعاتهم وملبوساتهم وسائر الأنواع من الملاذّ والزينة، كلُّ ذلك بحسب تغيير أمزجتهم واختلاف طبائعهم وما جرت به عاداتهم، وما تولأهم من الأسباب الفلكيّة والأحكام السماوية في أوقات مَواليدهم ومَساقِط نُطَفِهم.

وكذلك تجد الحيوانات ربما استلذت بعض الأصوات وأنِست بها وجاءت إلى المواضع التي تكون فيها، فإن بعض صيادي الطيور ومتّخذي آلة الصفير يَصفِرون ويحاكون بها صوتاً لبعض أجناس الطيور، فتجتمع إليه وتدور حوله، فربما تقع في شِباكهم.

وكذلك ما يستعمله الجمّالون من الحِداء والنغمات التي إذا سمعتها الجمال في ظُلمة الليل أنست بها ونشِطت للسير والمشي وخفت عليها الأثقال. ويستعمل مثلَ ذلك رعاةُ الأغنام والمواشي والخيل عند ورودها الماء أنواع الصفير، ويستعملون غناءً آخر عند حلب ألبانها. وكل ذلك بحسب مناسباتٍ تقع في

الطبـاع واتفاقاتٍ في المواليد . والأصواتُ الحسان المعتدلة تستلذهـا مسامعُ الحيوان وتأنس بها الأرواح وتسكـُن إليها النفوس . والأصوات الخارجة عن الاعتدال عند الحيوانات كلها بالعكس من ذلك . وكل جنس من أجنـاس الحيوان فإنما يأنس ويُسرّ بما كان من نغمات جنسه ويجتمع بـه ويألفه بحسب ما جرت عادته وألِفت طبـاعه ، وينفر من صوت آخر يكون من جنس غيره ولم تجر عادته بسَمـاعه ولا ألِفته . وكذلك جميـع الأُمم من أصناف الناس .

وإذ قد فرغنـا من ذكر اختلاف الأصوات وبيانهـا وصفاتهـا وحركاتها والمنفصلِ منهـا والمتصل ، والفرقِ بـين أصوات الحيوان وكلام الإنسان ، وأصوات الأشجار والمعادن وكيفيّة أصواتها ومُصوّتاتها ، وما يكون منها بالقصد الأول وغير القصد ، وأصواتِ النار والهواء والماء والحركات الصغـار والكبار ، الخفيف والجهير ، وطبائِعها ومضارّها ومنافعها ، وكيفية حمـل الهواء لها وقَبُول الحاسة السامعة لهـا ، وكيفية اختصاصها بهـا دون سائر المحسوسات ، ومـا بين الإنسان والأصوات في إدراكه لهـا من الوسائط والمناسَبات ؛ وذكر عِلَـل هذه الأشياء ومعلولاتها وجواهرها وأعراضهـا وبدايتها في الأُصول ، وكَونها في شكل واحد فيما علا ، ووجودِها في أشكال كثيرة فيما دَني ، واتفاقِها في الأُصول ، واختلافها في الفروع ، وتشكـُّلهـا بأشكال الأجسام البادية عنها ، والآلة المتخذة لهـا والحاجة الداعية إليها ، والمعاني الموضوعة عليها والحقائق المضمّنة بها ، وما منها مفهومٌ لا يحتاج سامعه الى من يُعرّفه لوضوحه وتمامه ، وما يحتاج السامع إلى من يُفهِمه إياه لانغلاقه وكِتمانه .

وإذ قد أتينا على كثير ممـا يُحتاج إليه في هـذا الباب ، فلنذكـُر الآن اختلاف اللغات من جهة الحروف والكتابات ، وكيف كان مبدؤهـا ، ومن أين كان منشؤها ، والعِلة في اختلافها وأوزانها ، وانفراد كل أمة بشكل منها

عمن سواها ، وبلغة عن غيرها ، ونوضح ذلك إيضاحاً يكون لك به الاطلاع على ما أرَدت منه وسألتَ عنه .

فصل في معرفة بداية الحروف

فنقول : اعلم أن الله تعالى لما خلق آدم ، عليه السلام ، الذي هو أبو البشر ومَبدؤه ، جعله ناطقاً متكلماً فصيحاً مُميّزاً بالقوة الناطقة والروح الشريفة والقوة العاقلة القُدسيّة، وجعل صورته أحسن الصور، وشكله أفضلَ الأشكال، وطبيعتَه أصفى الطبائع الأرضيَّة ، ومِزاجَه أعدلَ الأمزجة مما هو خارج عنه ؛ وجعله سيد الحيوانات كلها ، ومليكاً عليها وأميراً ورئيساً فيها ، وملّكه إياها ، وألزمها طاعته ، والسجودَ له طوعاً وكرهاً ، كما قال تعالى للملائكة : « إني جاعل في الأرض خليفة » فلما جعله بهذا المِثال ، فليس من الحِكمة أن يكون صامتاً كالجماد ، ولا سكوتاً كالحيوان الذي لا يَنطِق ، بل قائماً ناطقاً متكلماً معلّماً مُفهِّماً عاقلاً حكيماً ، لأنه ، سبحانه وتعالى ، نفخ فيه من روح قُدسه ، وأيّده بكلمته ، وعلّمه الأسماء كلّها وصفاتِ الأشياء كلها ، وجعل له العقل العاقل لها والمُحيطَ بمعرفتها ، وأخرج سائر الموجودات من المعادن والنبات والحيوان إليه ليديرها ويسوقَ إليه منافعَها ويدُلها على ما يكون به صلاحها وبقاؤها وتزايُدُها ونماؤها وسلامتها من الآفات ، ويضع كلَّ شيء منها في موضعه ويوفّيه قِسطه من حفظ النّظام وبلوغ التمام. وجمع له هذه الأشياء كلها صغيرها وكبيرها ، جليلَها وحقيرها ، في تسع علامات بأشكالٍ مختلفة مسمّاةٍ بأسماء قد جمعت أسماء جميع الموجودات، وانعقدت بها المعاني كلّها كما اجتمعت أجزاء الحساب كلّها والأعداد بأسرها في التسعة الأعداد التي من واحد إلى تسعة . وكذلك وجودها في العالم العُلويّ على هذه النسبة . وهذه الحروف هي التي علّمها الله ، سبحانه وتعالى ، آدم عليه

السلام ، وهي التي يستعملها أهل الهند على هذه الصفة (٩٨٧٦٥٤٣٢١) .

وقد كان بهذه الحروف يَعرِف أسماء الأشياء كلها وصفاتها على ما هي عليه وبه موجودة من أشكالها وهيأتها . ولم يزل كذلك إلى أن كثر أولاده وتكلم بالسريانية، وتشكّل الفلك بشكل أوجب التغير والاستحالة بعد مُضيّ آدم ، عليه السلام،ُ ولم يكن يكتب في زمانه كتاباتٍ أو يخطّ بقلم، وإنما كان تلقينٌ بألفاظ وكلامٌ يُحفَظ لقلة العدد ، ولأنه ما كان في الأرض من العالم الإنساني أكثرُ من بيت واحد ، والكلام بينهم فيما يحتاجون إليه فقط ، ولم يكن لهم حديث في ما مضى ، ولا حاجة بهم إليه ، ولا بقيةٌ من آثار من كان قبلهم في كتاب ولا طومار [1] . ولأن كلام الملائكة لا يُكتَب في الأجسام الطبيعية وإنما هَيُولاها الجواهر النفسانية ، وكما أن الناس في هذا الوقت لا يحتاج الرجلُ منهم هو وأهلُ بيته أن يكتبوا جميع ما يحتاجون إليه ، ولا أن يُثبِتوا جميع ما في بيوتهم من كتابٍ يذكرون فيه كلّ ما عندهم من مأكول ومشروب وما يُنتَفع به ، وإنما حاجتهم إلى علم أسماء ذلك ، فهم يُعلّمون ذلك أولادَهم حتى يعرفوه وينشأوا عليه بأي لفظ كان .

ثم ذهب السلف وبقي الخلف ، وتفرقوا في الأقاليم وتقطعوا في الأرض وذهبوا في الأطراف ، فأوجبت الحكمةُ الإلهية والعناية الرّبّانية تقييدَ تلك الأسماء والألفاظ والحروف بصناعة الكتابة ، ولولا ذلك لبعد من الخلف ما كان يستعمل السلَفُ من التي كانت حاجتهم إليها. ولما كان اللسان يُحيل بينهم وبين ما يحتاجون إليه من ذلك بالكذب ، وكانوا لا يعلمون أخبار من كان معهم في الأرض إذا غابوا عنهم بالمكان ، لأن الرسول لا يُمكنه حفظ جميع ما في قلب مُرسله ؛ فلما كان ذلك كذلك ، أظهر الله تعالى صناعة الكتابة ،

[1] الطومار : الصحيفة .

فزادوا فيها وعرفوها ومهروا فيها وألِفوها واعتادوها . وبعث الله فيهم من الأنبياء ، عليهم السلام ، وأقام فيهم من الحكماء من أظهر فيهم الصنائع ، وكثرت بينهم الصُنّاع والمتعلمون والعلماء والأُستاذُون ، وعُمِرت الأرض وانتقلت أخبارُ بعضهم إلى بعض . ولم تزل الحروف تزيد ويظهر الشيء بعد الشيء ، وصناعةُ الكتابة تتسع وتتفرّع إلى أن كمل عدد الحروف ثمانيةً وعشرين حرفاً ، ثم وقفت على هذا العدد ولم تزد على ذلك . وذلك أن هذا العدد من الأعداد التامّة ، والأعداد التامّة أفضلُ من الأعداد الزائدة والناقصة ، وذلك أن هذا العدد عزيز الوجود ، وأنه يوجد منها في كل مرتبة من مراتب الأعداد عددٌ واحدٌ لا غير ، كالستة في الآحاد ، وثمانية وعشرين في العشرات ، وأربع مئة وستة وتسعين في المئات ، وثمانية آلاف ومئة وثمانية وعشرين في الألوف . وأيضاً إن هذا العدد يمكن أن يُقسَم بالسويّة مرةً أو مرتين . وكانت صناعة الكتابة في اللغة العربية خاتمةَ الكتابات وتمامَ عدد الحروف ، كما أن شريعة الإسلام آخِرُ الشرائع كلّها ، ومحمد ، عليه الصلاة والسلام ، خاتم النبيّين وأصحاب الشرائع ، وعلى شريعته تقوم القيامة .

فصل

ثم اعلم أن الحكيم واضعَ الخط العربي اقتفى فيما وضعه من ذلك آثارَ حكمة الله تعالى وكان حكيماً فاضلاً . وقيل إن الحكمة هي التشبُّهُ بالإله بحسب طاقة البشر . ومعنى هذه الحكمة أن يكون الرجل حكيماً في مصنوعاته ، متحققاً في معلوماته ، خبيراً في أفعاله . فوضعَ ذلِك على مُوجب الحكمة في العالم لتكون حروف (ا ب ت ث) وهي حروف الجُمّل مشتملةً على كل الأشياء ، مطابقة للأعداد الموجودات في الأصل وما تتفرع منه ويحدث عنه مما لا يحصي ذلك إلاّ الله تعالى .

فمن الموجوداتِ التي عدّتها ثمانية وعشرون في العالم الكبير مَنازِلُ القمر فإنها ثمانيةٌ وعشرون منزلاً ، أربعة عشر فوق الأرض ، وأربعة عشر تحت الأرض، وهي في موضع اليمين واليسار، منها أربعة عشر في البروج الشّمالية، وأربعة عشر في الجَنوبية من البروج .

وكذلك يوجد في جسم الإنسان أعضاءٌ مُشاكِلة لهذه العدّة ، لأن اللغة التامة لغةُ العرب ، والكلام الفصيح كلام العرب ، وما سوى ذلك ناقص . فاللغة العربية في اللغات مثلُ صورة الإنسان في الحيوان . ولما كان خروجُ صورة الإنسان آخرَ صورِ الحيوانية ، كذلك كانت اللغة العربية تمام اللغة الإنسانية وختامَ صناعة الكتابة . ولم يَحدُث بعدها شيء يَنسَخُها ولا يُغيِّرها ولا يزيد عليها ولا يَنقصها . وفي كل أمةٍ وبكل إقليمٍ وجزيرةٍ وموضع أهلُ خطٍّ وحروفٍ وكتاباتٍ وعلاماتٍ ، يجمعها كلّها هذه الثمانيةُ والعشرون حرفاً . ولولا خوف الإطالة لأتينا على ذكر كثير من اللغات وكتابات أهلها وأعدادِ حروفهم ، مثل ما يوجد في اللغة السّريانية والعبرانية واليونانية والرومية وما يتفرع منها ويتكون عنها في سائر الأجناس والأمم من بني آدم .

ثم اعلم أن أصل هذه الحروف كلّها والخطوط بأجمعها خطابان لا ثالث لهما ، ومن بينهما ومنهما وعنهما تركّبت هذه الحروف، حتى بلغت إلى نهاياتها كحدوث الإنس كلهم من الشخصين اللذين هما آدم وحواء ، عليهما السلام . وكذلك العالم بأسره ، السمواتُ ومن فيها والأرضُ ومن عليها من جوهرين وهما السابق والتالي ، أو البسيط والمركب ، وهما العقل والنفس . والله تعالى مُبدِعهما وهو الواحد المنزّه عن جميع ما حدث منهما ، المتعالي بكبريائه عنهما ، وذلك من الخطّ المستقيم الذي هو قُطر الدائرة ، والخطّ المقوّس الذي هو محيطُها. فأول الحروف هو الخط المستقيم الذي هو الألف، والثاني الباء، وبإزائه في العالم العُلويّ السابق وهو العقل، والتامّ هو النفس . وذلك أن النفس مرتبة تحت العقل ، ومن بينهما كان حدوث الأشياء كلها في

العالم السُّفليّ مثل آدم وحواء فهما الأبوان الذكر والأُنثى ، والأُنثى مرتَّبة تحت الذكر ومن بينهما كان العالم. وكذلك الحيوانات كلها وأشكال النبات لا تخرج عن هذا الحدّ والشكل ، وصورةُ الإنسان شِبهُ الخط المستقيم ، وصورةُ الحيوانات شبه الخط المقوّس ، والنباتُ والحيوانُ مرتَّبان تحت الإنسان. وهكذا عالمُ الأفلاك وسكان السموات أشكالُها مستقيمة ، وصورهـا كاملة ، فهم الخط المستقيم ، وما دون فلك القمر بمنزلة الخط المُعوَجّ . وهكذا يوجد في الأعداد الناشئة من الواحد والاثنين ، فالواحد كالخط المستقيم ، والاثنان كالمعوَجّ ، وهما أصل الأعداد وينبوعها ، وعنهما يكون تزايدها ونماؤها .

فصل

ثم اعلم أن لسان الإنسان إذا كان متحركاً إلى جهة كل حرف من هـذه الحروف الثمانية والعشرين ، يخرجه من تلك الجهة ، ولا يَعدِل به إلى غيرها ، ولا يخلِط بعضَها ببعض ، ولا يحيلها عما هي به في اللفظ ، فهو لسانٌ صحيحٌ وكلام فصيح من جهة بيان الحروف ووضعها على مـا هي بـه في أي كتابة كانت وبأي لغة اتفقت كان الكلامُ بها . وأصح الكتابات وأتمّها وأحسنها ما كانت على النسبة الفاضلة في وضعها ومقادير حروفها بعضِها من بعض .

وقد ذكرنا من هذا الفن طرفاً في رسالة الموسيقى ، ويختص بهذا المكان شيء من ذلك بعينه ليكون دلالةً على مـا قاله أهلُ صِنـاعة الكتابة في لغـة العرب إذ كانت تمام اللغات . وليس بنا حاجة في وقتنا إلى كتابة غيرها ولا إلى لغةٍ سواهـا ، غير أنّا نحب الإحاطة بجميع العلوم ومعرفة سائر اللغات وتعلُّم سائر أنواع الكتابات . ولذلك وضعنا لهم هذه الرسالة لتكون مُهذّبة لنفوسهم ، مؤدّبة لأخلاقهم ، وجعلناهـا مُقدّمات ومداخل وطُرُقات إلى سائر المعلومات والمصنوعات من المعقولات والمحسوسات .

ولما كانت اللغة العربية والكتابة بحروفها التامة يُحتاج إليها في قراءة كتاب الله تعالى الذي ختم بنزوله كتب الأنبياء، عليهم السلام، وذكر فيه ما كان وما يكون إلى يوم الوقت المعلوم، فإنه لا يجب أن يُكتب إلاّ بأحسن الخطوط وأقومها وأتمّها وأكملها، ولا يجب أن يُكتب بالخطوط الناقصة التي ليست بموزونة ولا معتدلة، لئلا يتصحّف على قارئه ويكثُر الخطأ واللحن والزلل فيه عند القراءة.

قال المحرر الحاذق المهندس المُستبصر في تصحيح كتابة العربية: ينبغي لمن يريد أن يكون جيّد الخط، صحيح الكتابة، أن يجعل له أصلاً يبني عليه خطوطه. ومثال ذلك أن يبتدىء فيخطّ الألِف بأي قَدْرٍ شاء، ويجعل غِلَظه مناسباً لطوله وهو الثُّمن، ويجعل طوله قُطر دائرة ما، ثم يبني سائر الحروف مناسباً لطول الألِف، ويلحَظُ تلك الدائرة التي الألِفُ مناسبٌ لقُطرها، فيجعل الباء وأختيها، كلٌّ واحدة طُولاً ما، ولطولِ الألِف ورؤوسها إلى فوقُ ثُمنُ طولها مثلُ هذا (ا ب ت ث).

ويجعل الجيم واختيها، كل واحدة مَدّتُها من فوق نصفُ الألف، وتقويسها إلى أسفل نصف مُحيط الدائرة التي الألفُ مناسِبٌ لقُطرها مثل هذا (ج ح خ).

ثم يجعل الدال والذال كلٌّ واحدةٍ منهما رُبعَ محيط الدائرة مُقوّساً مثل هذا (د ذ).

ثم يجعل الراء والزاي كلٌّ واحدة رُبعَ تقويس الدائرة مثل هذا (ر ز).

ثم يجعل السين والشين وأسُ كلٌّ واحد إلى فوق ثُمنُ الألف، ومَدّتها إلى أسفل نصف محيط الدائرة المقدّم ذِكرُها مثل هذا (س ش).

ويجعل الصاد والضاد طولُ كل واحد إلى فوق ثُمنُ الألف، ومَدّتها إلى أسفل نصفُ محيط الدائرة المقدّم ذِكرُها مثل هذا (ص ض).

ويجعل الطاء والظاء كلٌّ واحدةٍ مَدّتها إلى فوق بطول الألف، وفتحتُها

مثلُ ثُمنِ الألف ، ورؤوسهما إلى فوق بطول الالف مثل هذا (ط ظ).

ويجعل العين والغين كلّ واحدة تقويسةَ رُبع الدائرة المذكورة ، مَدَّتهُ إلى خلف نصفُ الدائرة مثل هذا (ع غ) .

وعلى هذا المثال باقي الحروف فاجعل هذا دُستورك في الكتابة .

فصل في أن الكلام صنعة منطقية

فنقول : إن المصنوعات كلّها محكمَة مُتقَنة بمقتضى الحكمة ، ومنها صنعة الكلام والأقاويل . وذلك أن أحكم الكلام ما كان أبينَه وأبلَغَه ؛ وأتقنُ البلاغةِ ما كان أفصحَها ، وأحسنُ الفصاحة ما كان موزوناً مُتّفقاً ، وأصحُّ الموزونات من الأشعار ما كان غيرَ مزحِف . والمزحِف من الأشعار هو الذي حروفه السواكن متحركةٌ والمتحركةُ ساكنة ، والمستوي ما كان مُتّفق التأليف . والمثال في ذلك الطويل والمديد والبسيط ، فإنها مركّبة من ثمانية مقاطع كما ذكره العَروضيون ، فالطويل :

فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن

وكهذا المصرع الثاني . وهذه الثمانية الأجزاء مركبةٌ من اثني عشر سبباً وثمانية أوتاد ، وجملتُها ثمانية وأربعون حرفاً ، عشرون منها سواكن، وثمانية وعشرون متحركات . والمصراع منه أربعة وعشرون حَرفاً ، عشرة سواكن وأربعة عشر متحركات. ونصف المصراع الذي هو ربع البيت اثنا عشر حرفاً، خمسة منها سواكن ، وسبعة متحركات . ونسبةُ سواكن حروف رُبعِها إلى متحركاتها كنِسبة سواكن نِصفها إلى متحركاتها ، ونسبةُ سواكن نصفها إلى متحركاتها كنِسبة سواكن حروفها كلّها إلى متحركاتها كلها .

وهكذا تجد حكم الوافر والكامل فإن كل واحد منهما مركب من ستة مقاطع وهي هذه :

مفاعلتن مفاعلتن متفاعلن متفاعلن

ست مرات . فنسبة سواكن نصف حروفه إلى متحركاته كنِسبة حروفه كلها السواكن إلى متحركاته كلها . وعلى هذا المثال يوجد كلُّ بيت من الشعر، إذا سلِم من الزّحف ، مُنصّفاً كان أو مُربّعاً أو مُسدّساً ، وكذلك حكم الأزمان التي بينها. وقد وُضعت لها دوائرُ وعلامات لتبيّن ذلك للناظرين فيها والمتأمّلين لهـا في كتب العروض، فاستدلّ بهذه المقدمة على ما وصفته لك فنقول :

اعلم أَن الوقوف على ما تضمنته هذه الصناعة الكلامية والألفاظ المَنطِقية يكون بها انتباهٌ للنفوس الساهية والأرواح اللاهية الغَريقـةِ في بحر الهَيُولى وأسر الطبيعة وقَيد الإلفِ والعادة . ومن أمثال ذلك أيضاً صِناعة الكتابة التي هي أشرفُ الصناعات وبها يفتخر الوزراء وأهل الأدب في مجالس الملوك والرؤساء ، مع كثرة أنواعها وفنون فروعها ، وما اختلف فيه الأمم من اللغات ، وأشكال الكتابات وفنون التأليفات، مثل ما لأهل الهند ، وهي الحروف التي أُخرِجت مع آدم، عليه السلام ، من الجنة ، وبها يُعرَف أسماء جميع الموجودات .

وأما كونُ عدد حروفها تسعةً حسب ما بيّنا ورسمنا قبل هذا ، وذلك لمناسبة الأفلاك التسعة الحاوية لجميع الموجودات بأسرها ، ثم تفرعت بعد ذلك ، واختص بها أَهلُ الهند دون سواهم من الأمم ، لأن آدم ، عليه السلام ، كان هناك لما هبط من الجنة .

والسريانية لغة ولها حروف وكتابة وصناعة ونسبةٌ تجتمع عليها الحروف، ولها أسماء تختص بها موافقةٌ للغتهم ؛ وهكذا أيضاً للرومية لغـةٌ وكتابة

أُخرى بشكل موافق لكلامهم ولسانهم ؛ وهكذا لليونانيين ولاهل فارس وغيرهم من الأمم أجناسُ من اللغات وفنون من العبارات . ولكن أَصل الحروف كلها في أي لغة كانت وبأي نقشٍ صُوِّرت، وإن كثُرت وتنوعت، هو الخطُّ المستقيم الذي هو قُطر الدائرة ، والخط المُقوّس الذي هو مُحيط الدائرة كما ذكرنا قبلًا . وأما سائر الحروف ، فمركبة منها ، ولو تأملت عند انفكاك الحروف العربية ، وجدت بعضَها خطّاً مستقيماً كالألِف ، وبعضها مُدوّراً كالقاف والميم ، وبعضَها مُقوّساً كالحاء والخاء. وعلى هذا المثال توجد كتابات سائر الأمم الذين ذكرناهم ، وغيرِهم ممن لم نذكرهم ، وقد استغنينا بذكر الأصل والمشهور المعروف عند الجمهور عن ذكر من سواهم لطول الشرح .

فصل

ثم اعلم أن صناعة الكتابة ذاتُ طرَفين ، طرف كأنه البداية ، وطرَف كأنه النهاية . فالطرف الأول هو الكلام والنُّطق بالحروف التسعة التي يستعملها أهل الهند إلى وقتنا هذا . والطرف الآخر الذي هو النهاية ، فهي الحروف الثمانية والعشرون التي هي حروف اللغة العربية وما سوى ذلك فهو بين هذين الطرفين .

وإنما مثل الحروف كمثل شجرة نبتت وتفرّعت وتفرقت فروعُها ، وكثرت أوراقها وثمارها ، وتقسّمها الأقوام ، فأخذ كلُّ قوم بحسب ما اتفق لهم في أصول مواليدهم ، وبحسب اجتهاد رئيسهم ، وما أعمل فيه فِكرَته وأنتَجته قَريحتُه ، وأوجبته رويّتُه بتأييد ربه تعالى وإلهامه ، فيأخذ صُوَر هذه الحروف ، فيُلقي عليها أسماء من ذاته ، فإن كان حكيماً ، فبتأييد الله له وإلهامه ، وإن كان نبيّاً مُرسَلًا كان بوحي الله إليه وكلامه من وراء حجاب

عظمته ، أو بوحيه على ألسِنة ملائكته ، ويقيدها بصورة أُخرى من الكتابة ، وينطِق بلغة أخرى غير اللغة الأُولى ، وينسَخ الأسماء من اللغــة الأولى إلى اللغة الثانية . فإذا تم ذلك له ونطق به ، وأكمل الصّناعة النُّطقية ، وقيدهــا بحروف الكتابة ، وضم الأشكال إلى أشكالها ، والخطوط إلى أمثالهــا ، ثمّ عرّفَهــا أقربَ الناس إليه وأكرَمهم لديه ، فيصطلح عليها هو وأهـــل بيته وعشيرته ثم أهل مدينته ، وبعد ذلك أهلُ بقعته ثم أهل إقليمه . ثم تنتشر في العالم وينشأ عليها الصغير ، ويأنس بها الكبير من تلك الأُمة ، وينقل الشريعة والملّةَ من اللغــة الأُولى إلى الثــانية ، ويجــدّد الأحكام والأوامر والنواهي والصلاة وأحكام الشريعة إلى تلك اللغة التي نطـَق بها والأُمةِ التي أُرسِل إليها.

وكل حكيم من الحكماء أو ملك من الملوك إذا أراد نقلَ علم أو حكمة أو دين أو شريعة من لغة إلى لغة ، أو من أمة إلى أمة ، فإنه يتهيأ ذلــك له بتوفيق الله تعالى ومُوجِب مَولِده وسعادته ، حتى يتمكن من ذلك ويَقدِر عليه مثل ما فعل سليمان ، عليه السلام ، لما آتاه الله المُلكَ وجعـــل له القوة والقُدرة ، كيف نقل العلومَ والحكمة من جميع اللغات ، حين قهر ملوكها وذلّل رؤساءها ، إلى اللغة العبرانية. وكذلك فعل ملك الروم ، فإنه لما غلب اليونان وقهرهم ، نقل علومهم وحِكَمهم من اللغة اليونانية إلى اللغة الرومية . وكذلك فعل ملوك يونان بمن غلبوا عليهم ، فلذلك اختلفت اللغات وتباينت الآراء والديانات ، وكان ذلك لعِللٍ وأسباب يطول شرحهــا . وكل ذلــك بأمور فلكية وأحكام سماويةٍ ومشيئةٍ إلهية ، ذلك تقدير العزيز العليم .

فصل

ثم اعلم أن لكل أهل مِلَّةٍ وشريعةٍ كتابٌ بأمرٍ ونهي ، وحلالٍ وحرام ، وقضايا وأحكام ، وصناعة من الكلام والكتابة والألحان والنغمات. وفيهم من هو عارف بكلّية ذلك ، ومنهم دونه في المعرفة ، ومنهم من قد عَدِم صناعَة الكتابة إلاّ أنه عارفٌ بالأسماء والمُسمّيات ، وينطِق بحروف الأسماء ، ولا يعرف صُوَرها ، ولا يحسن أن يخطّها بيده ، ولا أن يؤلّف بينها بنظره ، ويأخذ جميع ما يُلقَى إليه تلقيناً ، وربما تجده جيّدَ الخطّ ، قليلَ المعرفة ولا يحسن سوى الخط المسطور من غير تصوُّرٍ، ويكون منفعةُ ذلك لغيره لا له .

ومنهم من يكون جيّدَ المعرفة ، قليل النسيان ، فغرضُه أن يعرف الأشياء التي يحتاج إليها مخافة أن ينساها ، ويستظهر منها ما تدعو حاجته إليه . وكذلك كان آدم ، عليه السلام ، في البداية بهذه الصفة ، يحفَظ أسماءَ الحروف ، ويتكلم باللفظ ، وينطِق بالمعنى ويدُلُّ عليه ، ولم يخُطّ بيده بقلم ما شاء الله ؛ بقي على ذلك إلى أن أظهر الله تعالى صناعة الكتابة ، في الوقت الذي قَدّره ، والزمان الذي يَسّره ، والخلقُ لا تدري بصناعة الكتابة ، لُطفاً منه بخَلقِه ورأفةً بعباده .

واعلم بأن لهم من الحاجة إلى ذلك ما لا غِنىً عنه ، ولا بد لهم منه ، فصار يَحدُث في وقت كل قِرانٍ ، وبموجب كل زمان نوع من أنواع الكتابات ، وجنس من أجناس اللغات والخطوط والعبارات . ويحدث في ذلك من كل أمة وكل لغة أنواعُ الكلام والنّظم والألحان والنغمات ، وأشياءُ كثيرةٌ لا يُحصيها إلاّ الله عز وجل .

ثم اعلم أنه قيل إن أوّل من نطق باللغة العربية كان يَعرُبُ بن سامٍ ، ثم لم تزل تتسع مع الزمان وتتزايد على كثرة العرب وانتشارهم في الأرض ،

بحسب اتفاقاتٍ تقع لهم في مواليدهم وبِقاعهم وأمزِجَتهم وطِباعهم وأبدانهم وأهْوِيتهم ، حتى صارت أنواعاً كثيرةً ، وصار لكل قبيلة من قبائل العرب لغةٌ يُعرَفون بها ، وكلامٌ يُنسَب إليهم ويتميزون به عن غيرهم . واختلفوا في أسماء الأشياء ، حتى صار الشيءُ الواحد من الموجودات له في لغة العرب أسماءٌ كثيرة يُعرَف بها ويُشار إليه بها كلّها ، ولذلك صار علم اللغة العربية من العلوم الكبار ، وصار الناسُ من الحاجة إليه بحيثُ لا يسعهم تركه ، بل يجب عليهم عِلمُه ، ولا ينبغي الجهل بشيء منه ، وذلك من حكمة البارىء تعالى أنه خلق الموجودات ، وألقى عليها الأسماء والصّفات ، وجعل لها في كل طائفة وفي كل لغة أسماءً تُعرف بها ويُشار بها إليها خلاف ما في لغة أخرى .

ولو تأملتَ واعتبرتَ لغات العرب ، لرأيتَها من العجائب الطريفة ، والحكمة الشريفة . فانظُرْ كيف اختلفوا في كثير من كلامهم وما هم محتاجون إليه من أسماء مأكولهم ومشروبهم ، وقد جمعتهم لغة واحدة ، وشريعة واحدة ، حتى إن القُرّاء اختلفوا في قراءاتهم وتباينوا في رواياتهم .

وكذلك تجد في اللغات غير اللغة العربية أكثرَ ، والأمرَ فيها أصعب ، وعلى هذا المثال في الآراء والديانات أيضاً ، حتى إن كثيراً من العرب الذين يسكنون البراري البعيدة من العُمران من يجري في لغته أسماءٌ كثيرة لا يعرفها من باقي العرب أكثرُهم ، ولا يعرفها العرب الحاضرة إلاّ بعد البيان والإيضاح ، ويحتاج فيه إلى معرفة اشتقاقاتها ، حتى تتصوّر له ، ثم يسمّي ذلك الشيء بذلك الاسم ، كل ذلك لعلل وأسباب يطول شرحها .

وكذلك اختلفت المذاهب والآراء والديانات والاعتقادات فيما بين أهل دين واحد ، لافتراقهم في موضوعاتهم ، واختلاف لغاتهم وأهوية بلادهم ، وتَبايُن مواليدهم ، وتصوُّر رؤسائهم وعلمائهم وأستاذِيهم الذين يختلفون فيما بينهم طلَباً لرياسات الدنيا . وقد قيل في المثل خالِفْ تُذْكَر ، لأنه لو لم يقع بين رؤساء علمائهم الاختلافُ ، لم تكن لهم رياسة ، وكانوا شَرعاً سَواء،

لان أكثرهم متفقون في الأصول، مختلفون في الفروع. مثاله أنهم مقرّون كلهم بتوحيد الله ووصف الباري تعالى بما يليق به من الصفات ، ومُقرّون بالنبي المبعوث إليهم ، متمسكون بالكتاب المنزل من جهة الرسول المُرسَل إليهم، مُقِرّون بإيجاب الشريعة ، مختلفون في الروايات عنه ، والمعاني التي وسائطها رجالٌ أخذوها منه ، فرواها كلٌ من أخذ بلسانه ، لأن النبي ، صلى الله عليه وآله ، من معجزاته وفضله أنه كان يُخاطِب كلّ قوم بما يفهمون بـه بحسب ما هم عليه من حيث هم، وبحسب ما يتصوّرونه في نفوسهم وتُدركه عقولهم، فلذلك اختلفت الروايات ، وكَثُرت مذاهب الديانات ، واختلفوا في خليفـة الرسول ، عليه الصلاة والسلام، وكان ذلك من أكبر أسباب الخلاف في الأُمة إلى حيث انتهينا .

وأيضاً فإن أصحاب الجَدَل والمناظرات، ومن يَطلُب المنافسة في الرياسة اخترعوا من أنفسهم في الديانات والشرائع أشياء كثيرةً لم يأتِ بها الرسول ، عليه السلام ، وما أمر بهـا ؛ وابتدعوها وقالوا للعوام من الناس : هذه سُنّة الرسول ، عليه السلام ، وسيرتُه . وحَسّنوا ذلك لأنفسهم حتى ظنوا أن ما قد ابتدعوه حقيقةٌ ، وأن النبي ، عليه السلام ، أمر به . وأحدثوا في الأحكام والقضايا أشياءَ كثيرةً بآرائهم وقياسهم ، وعدلوا بذلك عن كتاب ربهم وسُنّة نبيهم ، عليه السلام ، واستكبروا عن أهل الذّكْر الذين بينهم ، وقد أُمِروا أن يَسألوهم عمـا أَشكَل عليهم . وظنوا بسخـافة عقولهم أن الله قد ترك أمر الشريعة وفرائض الديانة ناقصةً، حتى يحتاج هؤلاء إلى أن يبينوه بآرائهم الفاسدة وقياساتهم الكاذبـة ، واجتهادهم البـاطل ، ويخترعوه ويبتدعوه من ذواتهم . وكيف يكون ذلك وهو يقول تعالى : « ما فرّطنـا في الكتاب من شيء » وقال : « تبياناً لكل شيء . » وإنما فعلوا ذلك طلباً للرياسة كما بيّنا آنِفاً ، وأوقعوا الخلاف والمنازعة في الأمّة ، فهم يهدِمون الشريعة ، ويوهِمون من لا يعلم أنهم ينصرونها .

وبهذه الأسباب تفرّقت الأُمّـة وتحزّبت ووقعت بينها العداوة والبغضاء أبداً ، وصاروا إلى الفِتن والحروب، واستحل بعضُهم دماء بعض. فإن اتّعظ بعض من يعرف الحق من العلمـاء ، وخـاطب رؤساءهم في ذلك ، وخوّفهم وأرهبهم من عذابه ، عدلوا إلى العوامّ ، وقالوا لهم : هذا فلان ! ويُغرُون به العوامّ ، وينسِبون إليه من القول ما لم تأتِ به شريعة ، ولا قاله عاقل . ولا يتمكـّن ذلك العالِمُ أن يبيّن للعوامّ كيف جريُ الأمر في الشريعة ، وينبههم على فساد مـا هم عليه ، لمـا قد غلب عليهم من العصبيّة التي ألِفوهـا ونشؤوا عليها ، وأخذها خلَفٌ عن سلَف .

ولما رأى رؤساؤهم ذلك ، وأن العلماء قد اشمأزوا من العوامّ ، جعلوا ذلك سوقاً لهم عندهم ، وأوهموهم أن ذلك انقطاعٌ منهم عن الحُجّة والقيام بإيرادها ، وأن سكوتهم وتخفّيَهم إنما هو لبُطلان ما معهم ، وأن الحقّ ما هو إلاّ ما اجتمعنا عليه نحن الآن . فلا يزال ذلك دأبهم ، والرؤساء الجهّال فيهم يتزايدون في كل يوم ، واختلافهم يزيـد ، واحتجاجاتهم ومناظراتهم تكثر ، وجدالهم ينتشر ، حتى ينَسَخوا أحكام الشريعة، ويُغيّروا كتاب الله بتفسيرهم له بخلاف ما هو به كما قال : « يحرّفون الكلم عن مواضعه. » وفي أصل أمرهم قد حوّلوا الشريعة من حيث لا يَشعرون ، وأوّلوا أخبار النبي ، عليه السلام، بتأويلات اخترعوها من تِلقاء نفوسهم ما أنزل الله بهـا من سُلطان ، وقلبوا المعاني ، وتكلموا بها على ما يريدون بما يُقوّي رياستهم ، ويقبّح أهل العلم عند العوامّ . وذلك دأبُهم يتوارثونه ابنٌ عن أبٍ ، وخلفٌ عن سلف، وكابر عن كابر ، إلى أن يشاء الله إهلاكهم ، ويقضي بانقراضهم وفنائهم . ولم يزل هؤلاء الذين هم رؤساء العوامّ أعداء للحق في كل بلد وقرية، فكم نبي قتلوه، ووصيّ جَحدوه، وعالِم شرّدوه. وهم بأفعالهم كانوا السبب في نسخ الشرائع وتجديدها في سالف الدهور ، إلى أن يتمّ ما وعد الله تعـالى بقوله : « إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد وما ذلك على الله بعزيز » و « العاقبة للمتقين» « ولقد كتبنا

في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون إن في هذا لبلاغاً لقوم عابدين » .

فهذه العلة هي السبب في اختلاف الآراء والمذاهب . وإذا كان كذلك ، يجب على طالب الحق والراغب في النجاة أن يطلب ما يُقرّبه إلى ربه ويخلّصه من بحر الاختلاف ، والخروجَ من سجون أهل الخلاف ، وما الذي ينبغي له أن يعمَل حتى يتخلص من هذه الورْطة ، وينتبه من هذه الرقدة ، ويستيقظ من هذه الغفلة ، وينظر في أيام حياته قبل دنوّ وفاته ، فإن الأمل مدّةٌ ممدودة ، وللأعمال أيام معدودة ، وآجال محدودة ، وإنما خُلِق الإنسان في الدنيا ليكون متوجّهاً إلى ربه تعالى ، مستعدّاً لمقابلته بعمله ، لأنه يَنفُذ من غير أن يستأذن . فإن كان معه زادٌ وجده كما قال تعالى : « وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله » فإنه الزاد . وإن لم يكن معه زاد كان ممن يقول : « يا ليتنا نُردّ فنعمل غير الذي كنا نعمل » والله تعالى يقول : « قد خسروا أنفسهم » ووبخ قوماً فقال لهم : « ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة » أي صِفراً من الزاد . وقال : « أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون » وقال تعالى : « ووفيت كل نفس ما عملت وهو أعلم بما يفعلون . » وآياتٌ كثيرة في القرآن تدلّ على أن الديانات والشرائع ووظائف العبادات إنما جعلها الله طرقات ومسالك يسلكها العبدُ إلى رحمة خالقه ويمشي القاصد بها طالباً لجنّته والقرار بجواره .

وإن غفَل عن مصالحه ، وأعرض عن مقاصده ، وترك طريق الحق وأهله ، والدين الذي لا اختلاف فيه ، وانضم إلى أهل الخِلاف والشّقاق ، وإلى طالبي الرياسة من العوامّ ، واستحسن نسَق الكلام وزُخرُف القول ممن يريد العُلوّ والرياسة في دين الله تعالى تشبُّهاً برسوله الذي أرسله ، ونبيه الذي بعثه ، وهو يُوهم الناس أنه رُكنٌ من أركان الدين والشريعة ، وأنه برأيه وقياسه واجتهاده قد أقام معوجّها وأبان مُعجَمَها ، نعوذ بالله من الميل والانضمام إلى

هؤلاء ، كان ذلك سبب بواره وهلاكه وبُعدِه عن جِوار الله ، وقُربِه ، وقُرِن بالشياطين أعداء الله كما قال تعالى : « ومن يعشُ عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين » فهكذا يكون حاله مع عالمه وغيره ، تراه جميعُ العوامّ ، حاله شقيةٌ ، وكلامه وتهذيبه وألفاظه بعيدة من حيث لا يشعر ، لأنه إذا حلّل بقوله وحرّم برأيه فقد عبده كما قال تعالى : « إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون » وقال تعالى : « إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب . » فعليك أيها الأخ بأهل العلم ومواظبة الذين هم أهل الذّكر من أهل بيت النبوّة المنصوبين لنجاة الخَلق ، فقد قيل : استعينوا في كل صنعة بأهلها .

ثم اعلم بأن أهل الذّكر في بعض الوجوه هو العقلُ الذي يُذكّر النفسَ ما غاب عنها من أمر عالمها الروحاني ومَحلّها النوراني ، ويُحرّضها على المتاجر الرابحة ، ويَحثّها على الأعمال الصالحة . وأن النفس متى عدلت عنه وخالفته وتركت وصيّة ربها ، ومـا أمر مولاها ، وأقبلت على الطبيعة ومالت إلى استحسانها ، وطلبِ الرياسة والعلو ، والتعصب والتعدي ، أصابها مثلُ ما أصاب المُقعَد والأعمى اللذين خالفا وصية صاحب البستان .

حكاية

ذُكِر فيما يروى من الأمثال أنه كان ببلاد الهند رجلان : أعمى ومقعد ، اصطحبا في طريق ، فعبرا بستاناً ، فمالا إليه ، فرآهما صاحب البستان ، وشاهد فقرهما ومسكنتهما ، فرحمهما وقال لهما : ما تقولان في أن أدخلكما بستاني هذا ، فتأويان إليه ، وتتناولان منه بحسب الحاجة ما يكفيكما مما آتيكما . فلا تُولَعا بالثمار فتفسداها .

فقالا : وكيف نؤذيك في بستانك ، ونحن على ما ترى من الزمانة[1] وسوء الحال ، أحدُنا أعمى والآخر مقعد . وأي حيلة لنا في تناول شيء من الثمار وهي على رؤوس الأشجار ؟

فقال صاحب البستان لهما : ادخُلا ذلك المكان ، وتبوّآ مكاناً منه . وأوصى بهما الناطور الموكّل بالبستان ، وقال له : احفظهما وأحسن إليهما وأتِهما من ثمرة هذا البستان ما يكون فيه صلاحُ شأنهما .

فقال : سمعاً وطاعة .

ومضى صاحب البستان لشأنه ، وأقاما على ذلك مدة ، والناطور يتعهدهما بما فيه كفاية لهما . وأينعت الثمار ، وكثُرت وحسنت ، فقال المقعد يوماً للأعمى : ويحك ، إنك صحيح الرّجلين ، وإن في هذه الأشجار التي في هذا البستان أنواعاً من الثمرات وأجناساً من الطيبات ، وهذا الناطور لا يحمِل إلينا من هذا الجيّد شيئاً ، فما الحيلة في تناول ذلك ؟

فقال الأعمى : قد شوّقتني إلى ما ذكرت ، وإنك ترى وتعاين من هذه الطيبات وأصناف الثمرات ، فما الحيلة في ذلك ؟

فلم يزالا يفكّران ويُعمِلان الرويّة إلى أن قال المُقعَد للأعمى: ويحك، أنا صحيحُ العين أرى ما غاب عنك ، فاحملني على كتفك لأطوف بك في البستان ، فكلما رأيت ثمرة مليحة طيبة ، قلت لك : قدّمني يمنةً ويسرةً وتطاولْ وتقاصرْ ، فأقطفها لك فآكلُ منها وأطعمك ، وما اعتذر وصولُ يدي إليه ، أضربه بعصاك إلى أن يقع ، فتشيله بيدك أنت ، وليكنْ ذلك إذا غفل الناطور .

فقال الأعمى : نِعمَ ما رأيت ، وأنا أفعل ذلك غداً .

فلما كان الغدُ ، ذهب الناطور في حوائجه ، وأغلق باب البستان ، فركب

---

[1] الزمانة : العاهة .

المُقعَد عنق الأعمى ، وطاف به البستان ، فأفسدا فيه ذلك اليوم ما قَدَرا عليه ، ووصل المُقعَدُ عليه . ثم رجعا إلى موضعهما ورقدا . فلما جاء الناطور لم يخفَ عليه ما حدث في البستان من فساد الثمار ، وما كان غُيِّر عليه منها في أشجار معلومة أراد قطافها ليُهديها إلى بعض رؤساء الناحية فلم يجده على الشجرة . فجاء إليهما وسألهما : هل دخل ذلك البستان أحدٌ في غيبتي ؟

فقالا له : ما ندري. فقال الأعمى: تَرى حالي أني لا أبصر. وقال المُقعدُ: وأنا كنت نائماً .

فصدقهما الناطور . فلما كان الغد خرج الناطور على الرَّسْم ، فقاما وفعلا أقبحَ من فعلهما الأول . وعاد الناطور ورأى الفساد قد تضاعف عما كان بالأمس ، فخاف الملامة من صاحب البستان ، وأنه يقول : لعلك تبيع ثماري أو لست تحفظها. فقال: كيف أعمل حتى أعلم من الذي يُصيب هذا البستان ، ومن يفعل ذلك في البستان؟

فلما كان من الغد أوهمهما أنه قد خرج لعادته ، واستتر ببعض حيطان البستان ، فقاما إلى ما قد عوَّلا عليه من الفساد وارتكاب المحظور . فلما رآهما الناطور علم أن الفساد من جهتهما ، وكان رجلاً حليماً رحيماً لطيفاً ، فتركهما حين رأى ما يعمَلانه ، وقبيحَ ما يصنعانه ، إلى أن عادا إلى مكانهما ، فأقبل عليهما وقال لهما : ويحكما ، ما الذي استحقَّ به صاحبُ البستان ما فعلتماه ومن هذا العبَث والفساد في البستان ؟

فبهتا ... فقال الناطور : إني نظرت إليكما وقد قمتَ أيها المقعد في كتِف عنق الأعمى، ومشى بك تحت الشجرة ، فما وصلتَ إليه أخذتَه بيدك ، وما لم تصل إليه ضربته بعصاك .

فلما سمعا منه ذلك تحقق كلاهما أنه قد رآهما ، فقالا له : قد فعلنا ذلك ، فلا تخبر به صاحب البستان ، فإنَّا نتوب على يديك ، ولا نعاود .

فقبل منهما، وأقبل الناطور يعظهما ، وقال: أنا آتيكما بكلّ ما تريدان من

الثمار والفواكه من حيث لا أضرّ ببستان صاحبي ولا أضرّ به ، ولا أرتكب ما نهى عنه لئلا تأكلا إلاّ من حِلّة .

فقالا : سمعاً وطاعة ! وتركاه حتى غاب الناطور ، وعادا إلى ما كانا عليه، بل أقبح . فرجع الناطور ورأى أثر فسادهما ، فأعاد عليهما النصيحة ووعظهما وخوّفهما بالله تعالى ، فلم يقبلا وارتكبا ما نهاهما عنه . فاتفق دخول صاحب البستان إليه ذلك اليوم ، فلم يجد الناطور بُدّاً من إعلامه بما كان من أمر الأعمى والمقعد . فقال صاحب البستان : قد كنت أقدّر أن يركب المقعد ظهر الأعمى ، ويطوف به في البستان ، فيفسدا عليّ المعيشة .

فقال له الناطور : هكذا عملا ، وقد نهيتهما فما انتهيا .

فقال صاحب البستان : إنهما قد استحقا العقوبة بما فعلا من قبيح ما ارتكباه .

ثم أمر عبيده وأعوانه أن يعاقبوا المقعد والأعمى أشدّ العقوبة ، وأن يخرجوهما من البستان إلى بريّة لا يجدان فيها مُعتَصَماً ولا ملجأً ، حتى يأكلهما الوحش ويهلكهما الجوع والعطش . ففُعِل بهما ذلك وأُخرجا من البستان ورُمي بهما في البرية كما فُعِل بآدم وحواء ، عليهما السلام ، لما ذاقا الشجرة .

تفسيره — فاعلم ، أيها الأخ ، أنه إذا ضربت حكماءُ الهند هذا المثل ، فما ذلك إلاّ لأنهم شبّهوا النفس بالمُقعَد ، وذلك لأنها لا تَبطِش إلاّ بالآلة الجَسدانية، وبهذه الآلة تتمكن من الطاعة والمعصية. وشبهوا الجسد بالأعمى، وذلك أنه ينقاد حيث ما تقوده النفس ، ويأتمر لما تأمره به . وشبهوا البستان بدار الدنيا ، والثمارَ بطيّبات الدنيا من الشهوات ، وصاحبُ البستان هو الله تعالى . وشبهوا الناطور بالعقل الذي هو يدلّ على المنافع ، ويأمر بالعدل والإحسان ، وينهى عن الفحشاء والمُنكَر والعُدوان ، وهو ينصح النفس ويدُلها على ما يكون لها به من الصلاح والسلامة في الدين والدنيا جميعاً ، وأخذِ الأشياء من حيث يجب . فإذا لم تقبل النفسُ منه وعدَلت إلى الشهوات الجسمانية والمحاسن الطبيعية والملاذّ الجِرْمانية التي يكون بها صلاحُ الجسم

وحسن حاله في الدنيا ، فبذلك تكون إماتتُها وخسرانُ آخرتها ، وتحيط بها سيئاتُ ما عملت في البستانِ ، وقبائحُ ما اكتسبته في الدنيا ، وتكون من تناوُل الشهوات غافلةً عن مصلحتها ، مُتردّية في ضلالتها ، حتى تأتيها ملائكة الله الغِلاظُ الشدادُ وزَبانِيتُه وجنوده ، وتخرجها من دار الدنيا بالكَرْه والإجبار ، فعند ذلك تندم على ما عملت من سوء ، ومن قبائح ما اكتسبته من سوء آدابها ، وقد خسرت الدنيا والآخرة . ذلك هو الخسرانُ المُبين . وعند نَزْعِ النفس يأتيها الخبرُ ، وينجّي الله الذين اتّقوا بمَفازتِهم لا يمسُّهم السوء ولا هم يحزنون .

فاحذر ، أيها الأخ ، أن لا تغترّ بهذه الدنيا ، ولا بمصاحبة الجسد الفاني المضمحل المتغير الفاسد ، وإنما هي أيام يسيرة ، ولذّة حقيرة ، ومُدّة قصيرة ، واعدِلْ إلى الحق والعقل ، فإنهما يؤدّيانك إلى ربك ويَدلأنك على الأعمال الصالحة التي يكون لك بها الدرجةُ العليا والوصولُ إلى الجنة المأوى في مقام الكرام حيث لا تحتاج إلى جسدك الفاني، ولا تذوق الموت، ولا يصل إليك الألم ، ولا يجِدُ بك السّقمُ ، ولا تُبتَلى بمفارقة الأحباب ومُبايَنة الأصحاب ، ولا يلحقك غمُّ الفقر ولا ذُلّ القهر ولا ضيق القبر ، ولا كَربُ الاشتياق ، وتكون في حظيرة القُدُس وروضة الأُنس آمناً من المصائب والنكبات وحوادث الزمان ، ولا ترى إلاّ ما تُحب وتؤثر ، وتأمَنُ من النوائب الزمانيّة وما يُدفع إليه أهلُ الدنيا من الكدر والنصَب والتعب والعناء والجوع والسغَب ونكَد الزمان وجَور السلطان وحَسد الحيوان ، وما هو موجود بين أهل الديانات والمقالات من العداوات والمباغَضات والمُلاعَنات ، وما يستحلُّ بعضهم من بعض من سفك الدماء وأخذ الأموال وهتك الحُرَم .

فإذا تأملت في أُمور الدنيا، وجدتَها كدارٍ قد مُلِئت أجناس حيوانات تُعادي بعضها بعضاً عداوةً طبيعية مركوزة في الجِبِلّة كعداوة البوم

والغِربان ، وعداوة الكلب والسنانير ، وهي تهِرّ بعضُها على بعض ، وتحسد بعضُها بعضاً كغلبة السباع والكلاب ، وكما يفعل الملوك والسلاطين لمن دونهم إذا غلَبوا عليهم وأخذوا أموالهم ، وكما تفعل الكلاب بالسنانير التي تخالفها في الصورة إذا وصلت إليها وقدَرت عليها ، حسداً لها على ما تأكله من دور الناس ، ومن الدّعة والرفاهة التي هي فيها ومحبة الناس لها وإكرامِهم إياها .

فهكذا أمورُ الدنيا ، وأهلُها الأشرارُ أعداءُ الأخيار ، والفقراءُ أعداء الأغنياء ، يتمنون لهم المصائب ، وإذا قَدِموا على شيء من أموالهم أخذوه ونهبوه . وكذلك أهل الشرائع المختلفة يقتل بعضُهم بعضاً ، ويلعن بعضُهم بعضاً ، كما يفعل النواصِبُ والروافضُ والجبريّة والقَدَريّة والخوارج والأشاعرة وغير ذلك . وكذلك في المِلّة العبرانية مثلُ العينيّة والسمعية ، وفي المِلّة السريانيّة كالنُّسطورية واليعقوبية وما بينهما من الخلاف . وكذلك في المِلّة الصابئية . وكذلك تجد المختلفين في اللغات يستوحش بعضُهم من بعض ، ويثقُل على كل واحد منهم ما لم يألَفْه من لغة . وهذا لا يخفى على من تأمّله وتفكّر فيه .

ثم اعلم أنه لا يُصلِح بين أهل الديانات ولا يؤلف بين المتعاديات ولا تُزيل من النفوس العداوات والأحقاد الطبيعية إلاّ المعرفةُ بالحق الذي يجمعهم على كلمة التقوى ، ويدعوهم إلى سبيل الله تعالى كما قال سبحانه وتعالى : « واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألّف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً » وقال تعالى لرسوله ، عليه السلام : « لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم » وقال تعالى : « إخواناً على سررٍ متقابلين » وقال تعالى : « يحبون من هاجر إليهم » وقال تعالى : « قل هذه سبيلي أدعو الله على بصيرة أنا ومن اتبعني » فمن رأى نفسه معاديةً لطائفة من الطوائف حَنِقَ عليها ، فهو لا يزدَرِع الحقَّ في قلبه ، ولم تخالط الهدايةُ لُبَّه .

فصل

ثم اعلم أن الدين والشريعة في أزمان النبي المبعوث ، عليه السلام ، إلى قومه هما من الله تعالى، ولا يكون فيهما اختلاف ولا تباغُضٌ ولا عداوة ، ويكون رأي المؤمنين في زمانه رأياً واحداً ، وتكون محبة بعضِهم لبعض خالصة لا تشوبها كدورة ، ويكونون مطمئنين مساعدين على إقامة الدنيا ومُجاهدة الكافرين ؛ وإنما مجاهدتُهم الكفارَ لا لعداوة منهم للكفار ، بل ليردُّوهم إلى الحق ، ليكون المسلمون فارغي البال من كيدهم ونهبِهم ، ويقنعوا من الكفار بالجِزْيَة ، إن لم يقبلوا الدين ، لأنهم لا يأمنونهم إن تركوهم ولم يطلبوهم في بعض الأوقات بالجِزية ، فقد قيل في المثل: إن الروم إن لم تُغزَ غزَتْ . فهذا سببُ قتالهم الكفار، وإلاّ فليس لهم رغبةٌ في سفك الدماء وإتلاف النفوس وخراب الديار ، وبالرغم منهم يجري ذلك على أبدانهم ضرورةً لما أعلمتُك ، لأن ظاهر هذا الفعل من فعل الأشرار الذين لا رأفة لهم ولا رحمة . ولذلك كان رسول الله ، صلى الله عليه وآله ، إذا أراد قتال المُشرِكين ، أرسل إليهم من ينذِرهم ويحذّرهم ويبيّن لهم فساد ما هم فيه ، ويدعوهم إلى ما معه من الحق ، كما أمر الله تعالى بقوله : « ادعُ إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن . » وأمره بالملاطفة فقال تعالى : « وقولوا لهم قولاً سديداً وقل لهم قولاً معروفاً . » وقال لموسى ، عليه السلام ، لما أرسله هو وهرون ، عليهما السلام ، إلى فِرعون : « فقولا له قولاً ليّناً لعله يتذكر أو يخشى . » ففعل النبي ، عليه السلام ، ذلك .

فلما أبوا واستكبروا ، وقالوا : لا نرضى بدينك ، وكانوا من أهل الكتاب، أمرهم على بذل الجِزية بعد أن تجري عليهم أحكامنا ، ويكفّوا أذيتهم عنا ، ليكون إذلالاً لهم ، لئلا يحدّثوا أنفسهم بغلَبَتهم على المؤمنين ، ويكون ذلك

كالغمغمة والمذلّة ، فإن أبوا الجزية ، فعند ذلك أمرهم بقتالهم ، وأمر أصحابه أن لا يَبدَؤوا حتى يَبدَؤوهم ، وإذا ظفروا بهم أن لا يقتلوا أسيراً حتى يعرضوا عليه الدين والإسلام ، فإن أبى أُلزِم الجزية ، فإن أبى قُتِل .

وإذا ملكوا دارَ الكفر ، ووضعت الحربُ أوزارها ، أمرهم أن لا يقتلوا شيخاً كبيراً ، ولا صبياً صغيراً ، ولا امرأة إلاّ أن يُقاتلوا ، ولا راهباً ولا قسّيساً ولا شمّاساً ولا مُطراناً ولا جاثليقاً ، ولا من يكون من خدَم البِيَع والكنائس ، كلُّ ذلك رأفة بهم ورحمة عليهم . فمن أبى واستكبر وناصَب العداوة ، أمر بجهاده ، فقال الله تعالى : « يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم . »

ألا ترى ، أيها الأخ ، إلى هذه الرأفة أنه لم يأمره بقتالهم إلاّ بعد إنذارهم وتذكارهم والملاطفة بهم ، وذلك سُنّة الله في الذين خَلَوا من قبلُ ولن تجد لسنّة الله تبديلاً كما قال تعالى: « سنّة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا.» وقال: « ما من أمة إلاّ خلا فيها نذير . » وآياتٌ كثيرة في القرآن في هذا المعنى .

فما دام هذا الخلافُ واقعاً في الآراء والمذاهب ، فإن العداوة بينها قائمة ، والحرب لا تنطفي نارها، لأن كل واحد يُقيم الحجة والدليلَ برأيه وقياسه على صحة مذهبه وبُطلان مذهب غيره ، ولا يبالي أن يَكذِب على الله تعالى ورسوله ، ويُسخِطهما لرضى نفسه وتعجيل منفعته .

وكذلك السلطان الذي إذا رأى في أحد رعيته أو بعض سكان مدينته من له نعمة حالٍ ، رغِب فيها وحسده عليها ، وطلبه عليها الحُجَج حتى يُوقِع به ، ويأخذَ ذلك الغرَض اليسير الحقير في جنب ما ملّكه اللهُ تعالى من ذلك البائس ، ويجعله فقيراً مسكيناً متحيّراً مغتمّاً ، وربما مدّ عليه الضربَ وطالبه بما ليس في وُسعه فقتله .

وكذلك إذا عَلِم أن رجلاً له امرأة نظيفة أو جاريةٌ حسنة ، حسده عليها ، ولا يزال يتحيّل إلى أن يُفسِدها عليه ، فإن صحّ له مُراده ، وإلاّ عدَل عن

إفسادها إلى ادّعائها في التزوج ، ولا يزال يواسلها في ذلك إلى أن يطرح بينها وبين زوجها الشرّ ويفرّق بينهما ، ويأخذها لنفسه ، كما حكي عن داود النبي ، عليه السلام ، بامرأة أوريّا بن حنان كيف قدّمه أمام التابوت حتى قُتِل وتزوج بامرأته . وأيضاً ذكروا أن تلك المرأة أمّ سليمان ، وكان الأصل في ذلك الهوى والحسد الغالب . ومثل ما فعله حكيمُ بن هشام المعروف بأبي جهل برسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وقد علم أنه رسول الله ، ولكن حمَله على فعلِه الحسدُ ، وودّ أنه لو كان النبيّ المبعوث . كذلك أبو لهَب وجماعة من قريش وبني عبد المُطّلِب الذين خالفوا رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وناصبوه العداوة والبغضاء . وهكذا جرت أحوال الأمم السالفة في الأيام الخالية والأدوار الماضية ، ولم تزل الأممُ على هذه الصفة التي ذكرنا .

فصل

ثم اعلم أن الاختلاف ينقسم قسمين : محمود ومذموم . فالمحمود منه كاختلاف القُرّاء وما جرى مجراه من اختلاف الفقهاء في رواياتهم، إذا لم يختلفوا في المعاني ولم يزيلوا الألفاظ من مواضعها ، ولم يُبدّلوها تبديلاً ، مع اعتمادهم على صدق المُخبرين لهم بأن ذلك من صاحب الشريعة . وإذا صح لهم ذلك ، كان اختلافهم منفعةً ، لأن في العرب من يخالفُ بعضُهم بعضاً في كثير من اللغة العربية .

وأما الاختلاف المذموم فهو ما كان منه في المذاهب والآراء ، فإذا زال الخلاف ، ظهر دين الإسلام على جميع الأديان ، واللغةُ العربية على جميع اللغات ، ويكون الدين واحداً كما قال الله تعالى : « هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون » وإظهار دين النبي على جميع الأديان ، ولغته على سائر اللغات من أجل أن القرآن أكرمُ

قرآنٍ أنزله الله تعالى ، وأشرَفُ كتاب أحكَمَه ، وأنه لا يقدر أحد من الأمم على اختلافهم في لغاتهم أن يُحيله عما هو به من اللغة العربية إلى لغةٍ غيرها ، لأنه لا يمكن أن يُنقل البتّةَ إلى لغةٍ على ما هو به من الاختصار والإيجاز ، وهذا لا خفَاء به . ولا يكون اجتماعُ الناس على كلمةٍ واحدة إلاّ بمُجاهَدة المجاهدين المحقّين لأهل الباطل ، وأن يكون الخادمون في الناموس آمرين بالمعروف فاعلين له، والناهون عن المنكر مُنتهين عنه، الذين لا تأخذهم في الله لومة لائم ، وأرجو أن يُبلّغنا الله ذلك الزمان ، إنه عليه يسير .

ثم اعلم أنه إنما وقع الخلاف في الشريعة بعد خروج النبي ، عليه السلام ، من الدنيا ، لما تنازعوا فيما بينهم لطلب الرياسة والمنزلة ، وكان منهم ما كان إلى أن جرى ما جرى من هتك حرمة النبوّة وقتل آل بيت الرسالة وإهباط الوحي ، وما فعله ابن زياد بكربلاء ، وما كان من الفتنة التي شملت أهل الشريعة المحمدية والعُصبةَ الهاشميّة من قتل بعضِهم بعضاً . فلذلك كثرت الآراء والمذاهب ، فقال قوم لم يجر ذلك كلّه إلاّ بقضاء الله وقدَره ، ولعمري ، إن الأمر كما قالوا ، لكن إنما قصدُ القائلين بذلك براءة نفوسهم فيما عملوا ، فإنهم إنما فعلوا ذلك على ما علمه ربهم ، وأنه إذا علمه فقد أراده ، وإذا كان ذلك كذلك ، فلا ذنب لهم ولا وِزْر ولا لوم ولا وبال .

فصل

إن هذا الرأي يُجرّىء الإنسان على فعل المعصية وارتكاب الفاحشة ، وإنما يُستخرج هذا الرأيُ في الناس أصحاب الكبائر من الذنوب، لما علموا أن ذنوبهم إذا ظهرت وانتشرت في العالم بعد ذهاب أيامهم وانقراض دولهم، يكثُرُ لعنُهم وسبُّهم وشتمُهم . فإذا جرى ذلك كان في العالم من يحفظ هذا الرأي منهم ، فيذبُّ ذلك عنهم ، ويقول لمن يسمع هذا منه : أمسِكْ ، فإن كل شيء إنما

كان بقضاء الله وقدَرِه وحُكمِه عليهم ، وإن ما حكَمه الله تعالى لا يَقدِر أحدٌ على دفعه ، فيكون هذا تسكيناً لما سُمِع من ذكرهم وأفعالهم وأعمالهم وقبائح ما أتوه من أفعالهم ، فوسوسوا لجهّال الناس والنساء خصوصاً أن ما يفعلونه إنما هو محكوم عليهم به ، لا يمكنهم دَفعُه ، فجَعلوا هذا الاعتقاد مذهباً ، وأقدموا على المعاصي بهذه الحُجة . وإن ردَّ واحد قولهم ، قيل له : أنت كافرٌ قَدَريٌّ[1]. فيقول : إنما قضاءُ الله تعالى وقدَرُه، يمكِنُ أن يُحترَز منه . ولم يعلموا ما القضاءُ والقدرُ ، ولم يطلبوا عِلمَه من أهلِه ، ونشأ على ذلك الصغيرُ ، واعتاده الكثيرُ ، وإلى حيث انتهينا هو مذهب أكثر العوامّ وبعضِ من عنده أنه مُتميّز . وإنما ذكرتُ هذا بحسب ما أوجَبه ذكرُه في هذا الفصل .

ثم اعلم أن أصل العداوة في الدنيا والدين الحسد كما قال الله تعالى : « أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله . » وقال تعالى : « ومن شر حاسد إذا حسد . » فالحسدُ يخرُب الديارَ ويوقعُ الفتن ويورث البغضاء والحقدَ والغضب والتعدّي والظُّلم والجورَ وما شاكل ذلك . وهو أيضاً من أكبر الأسباب في اختلاف الآراء والمذاهب ، وذلك إذا اتخذ رجلٌ مذهباً ومال الناس إليه ورغبوا فيما عنده ، فيراه آخرُ من أبناء جنسه ، فيحسده ، ويجيل فِكرَه ويُعمِل رأيه إلى أن يَنحت له من الحُجج والكلام ما يُفسِد به ما أورَدَه . ولا يزال يطعن عليه ويسعى في فساده ويَلغَط في أصله ووضعه . فهذا يكون سبب الاختلاف وتكثّرِ المذاهب، مع اعتمادهم على صدق صاحب الشريعة الذي أُنزل عليه القرآن .

وإذا صح ذلك لهم ، كان في اختلافهم منفعةٌ ، لأن في العرب كثيراً ممن يخالف بعضُهم في كثير من اللغة العربية ، وإنما أراد الله تعالى إفهام الكل

...

[1] القدري : من ينكر القدر .

والإفصاحَ عما تُهمُّ الحاجة إليه من أمر الدين والدنيا .

وكان النبي ، صلى الله عليه وسلم ، يجيب السائل من أمته بلغته ويُكلّفه ويكلمه بلسانه . فأما غيرهم فإنه يكلمهم ، صلى الله عليه وسلم ، بكلامهم ، وإنما بُعِث إليهم وأقام فيهم ، وعلّمهم وأرشدهم ، وسهّل عليهم الألفاظ ، وضَرَبَ لهم المعاني ، وأخذهم بالملاطفة ، حتى فهموا الدين ، وتعلموا القرآن بلسان فصيح لا يُخطِىء فيه ولا يغيّره ولا يُبدّله ، إذا كان صحيح الحفظ مُتقَنَ التلقين . ولذلك ما يقال في الصلاة وفي الحج من التّلبِية والإحرام والدُّعاء والابتهال إلى الله تعالى ، يقال فيه ولا يُفهَم ما سوى ذلك .

ثم اعلم أن مثَلَ الأمة ، إذا تركَتْ وصيّة نبيها ، واختلفت من بعده ، واعتمدت على رأيها ، وأرادت أن تُملّك عليها ملكاً ، وتُنصّب فيما بينها خليفةً بغير معرفة من الرسول ولا وصيّةٍ منه ولا إرشادٍ ، ورأت في اجتماعها منفعةً لها وصلاحاً لأمورها من غير نَصٍّ ولا إشارةٍ ، فمَثَلُها ، كما يُذكر ، مَثَلُ الغِربان والبُزاة فيما قيل في أمثال الهند إن الغِربان كان عليهم ملك منهم ، وكان بهم رحيما وإليهم مُحسناً ، وإن ذلك الغراب مات ، واختلفوا من جهة من يُملّكونه عليهم من بعده ، وتحاسدوا وخافوا أن تقع بينهم العداوة . فقال بعضهم لبعض : تعالوا حتى نجتهد في الرأي ونجمع العلماء وأهلَ الفضل فينا ، ونعقُد مجلساً للمشاورة فيمن يَصلُح لهذا الأمر ، وفيمن ينبغي أن يكون ملكاً علينا .

فاجتمعوا وتشاوروا وقالوا : لا نرضى بأحد من أهل المَلك الذي كان فينا ، مخافة أن يعتقد ويظُنّ أن المُلكَ إنما ناله وارثاً من أبيه وأقاربه ، فيسومنا سوء العذاب ، وإذ كنا نحن نتولّى إقامة من نُقيمه ، كنا نحن أصحابَ المِنّة عليه والإحسان عليه .

قال أحدهم : وإذا كان الأمر على هذا ، فعليكم بأهل الورَع والدين ، فإن صاحب الورع والدين لا يكاد يهجُم على الأمور الدُّنيوية ولا يرغب في الدنيا .

فقالوا له : كيف لنا بذلك ؟

فقال لهم: طوفوا واطلبوا مَن هذه صفتُه، فإنكم إن تظفَروا به قدّموه .

وكان بالقرب منهم باز قد كبر وخَرِف وضعُفَت قوته عن الصيد ، وأنحِل جسمُه ، وتناثر ريشه من قلة المعيشة وتعذّر القوت ، فبلغه خبر الغِربان وما أجمعوا عليه ، فبرز من وكره إلى حيث ممرُّهم عليه ، وأقبل يُكثِر التهليلَ والتسبيح ، ويُظهر التخضُّعَ والتورُّع ، فأقبلت الطيور تطير على رأسه ، فلا يُولَع بها ولا يمشي إليها . فلما رأته الغربان على تلك الحال ، ظنوا أنه يفعل ذلك صلاحاً وديانة، فاجتمع بعضُهم إلى بعض، وقالوا: ما نرى في جماعة الطيور مثل هذا البازي ، وما هو عليه من الديانة والزُّهد ، فهلمُّوا بنا نُوَلّه علينا .

فأتوا إليه وأخبروه بما عزموا عليه فانقبض من ذلك ، وأراهم من نفسه الزّهادة فيما عزموا عليه . فلم يزالوا به حتى قبل منهم ، فصار خليفة فيهم وملِكاً عليهم . فقال في نفسه : كنتم تحذرون من البلاء وما أُرَاه إلاَّ وقد وقع بكم .

فلما تمكن منهم وقوي عليهم بما كانوا يأتونه من الرزق ويجعلون له من الأُجرة على ذلك ، وقوي جسمه ونبتَ ريشه ، وعادت إليه صحته ، أقبل يُخرِ ج كلّ يوم عدّةً من الغِربانُ فيُخرجُ عيونها ، ويأكل أدمغتها ، ويطرح ما سوى ذلك من أجسادها . فأقام فيها مدة . فلما دنت وفاته اعتمد على بعض أبناء جنسه فملّكه عليهم ، فكان أشدّ منه وأعظم بليّة وأكبر رزيّة . فقالت الغربان بعضُها لبعض : بئسَ ما صنعنا بأنفسنا ، وقد أخطأنا . فندموا من حيثُ لم تنفعهم الندامة ، وكان ذلك سببَ الخُلْف والمنازعة .

فتفكر أيها الأخ في هذا المثل واعتَبِر به في أحوال من مضى ، ولا تغفلْ هذه الإشارات ، وإياك وإظهارَ المُخالفة والعداوة ، والدُّخولَ فيما دخل فيه

أهل الخلاف ، فتهلِكَ بهلاكهم ، ويُصيبَك ما أصاب العَقعَق حيث وافق الحمامَ في ذلك الوقت ، ونحن نذكر هاهنا ما جرى بينهما .

فصل

يقال إن جماعة من الحمام البرّيّ كانت تطير في الهواء لطلب الرعي ، فرآها عَقعقٌ وقال في نفسه : ما لي لا أكون معها ؟ فلعلها تمضي إلى موضع يكون به مَعاشٌ .

فصار في جملتها ، وانتهوا إلى موضع أفْيَح مُراحٍ من الأرض ، وكان سبق إليه صياد فنصب شِباكه ودفن فِخاخَه ، وطرح فيها حبوباً كثيرة ، وكمن في موضع لا يُرى . فقال الحمام بعضُه لبعض : نمضي إلى مكانٍ . وقال بعضُها : بل نَنزِل في هذا الموضع . واختلفت وتنازعت فيما بينها حتى تضاربت وتحاربت ، ولم تزل كذلك حتى تقطعت إلى تلك الأرض ، ورأت تلك الحبوبَ ، فأقبلت الجماعةُ على التقاطها ، فأطبق الصيادُ عليها شِباكَه ، فهبطن فيها جميعاً . فأخذها الصياد وأهلكها عن آخرها ، وهلَك العقعق مع الحمامات جميعاً .

وإيّاك والمكانَ الذي تكون فيه المنازعَةُ والخلافُ ، وإن جرى وأنت فيه ، فاخرُج وابعُد عنه ... وإيّاك والظُّلمَ والتعدّي على من هو دونك ، فإنك إن فعلت ذلك أصابك ما أصاب الذّئبَ الذي جار على الثعالب وغصَبها وأرادَ قتلها وقَطْعَ أرزاقها .

فصل

وقد قيل في أمثال الهنـد إن ثعالب خرجت في طلب مـا تأكل ، فرأت جملًا ميتاً ، ففرحت به ، وقلن : قـد وجدنا ما نعيش بـه دهراً ، ولكنا نتخوف أن يضرِب بعضُنا بعضـاً ؛ ولا نَدَعْ قويّنا يغلب ضعيفنا ، ويجب أن نؤمّر علينا في قِسمة هـذا الرزق من هو أقوى منا ليعطي كل واحد منا حقه ، ويأخذَ لنفسه قِسمةً كالواحد منا . فرضوا بذلك .

فبينما هم كذلك إذ مرَّ بالثعالب ذئب ، فقلن : هذا ذئب قـد جاءَنـا وهو قوي أمين ، وكان أبوه ملِكاً في بعض الأزمان ، وكان محسناً إلينا ، وقـد عوّلنا في ذلك عليه ، وهو لنـا رضًى . فخاطبوه في ذلك وعرضوا عليـه ما أرادوه ، فأجابهم إليـه بعد مُراوَداتٍ كثيرة ، وقـال لهم : ستجـدونَ كما تحبون . وتولّى أمرهم وقسَم في ذلك اليوم بعض ذلك بينهم بالعـدل . فلما كان الليـل تفكر الذئب في نفسه فقال : إن في قسمة هذا الجمـل على هذه الثعالب عجزاً وسخافة رأي ، وما ينبغي لي أن أفعل ذلك لأني ذو قوة وليس لهم قدرة ، وهذا رزق ساقه الله إلي وخصّني به دونهم ، فما الذي يدعوني إلى إطعامها إياه ، والله يَقسِم لهم غيره وأنا أدّخره لنفسي .

فلما كان من الغـد أصاب الجوعُ جماعة الثعالب ، فاجتمعت عليه ، فدفع إليها نصف الجمل فقسـمه بينها كما فعل بالأمس وقال: لا تَعدُنَ إلي بعد يومكنّ هذا ، فلا رزق لكنّ عندي ، وإن عاودتنّ جرى عليكن مني مكروه. فعند ذلك علمت الثعالب أنها وقعت في بلية ، فقال بعضها لبعض : إن صاحبنا هذا خبيث فاجر ، ونراه يريد ظلمنا والتعـدي علينا لأنه ذو قوة ، وقـد علم أنه ليس فينا من يقوى عليه وقد طمع في الفوز بأرزاقنا . وقال بعضهم : لعله إنما حمله على ذلك مـا كان فيه من الضُرّ ، ولعـله إذا شبـع منه قسم الباقي علينا ، وفي هذا اليوم يشبع فإن جثة الجمل عظيمة ، وتلك الساعة يَرجِع إلى

خُلُق الكرام ، فقد قيل في المثل : لا مروءة لضعيف ولا ضيافة عند جائع ، ولا بدّ لنا من مُعاوَدته ومخاطبته .

فلما كان من الغداة أتاه جماعة الثعالب وقلن : يا أبا جَعْدةَ ، إنا جعلناك أميراً علينا ووليّاً حتى لا يَظلِمَ بعضُنا بعضاً، ورجونا في فعلنا ذلك عدلَك، وفي أول يوم عدلتَ بيننا في أول ولايتك ، وأطمعتنا في مُروءتك. ثم أتيناك أمس فدفعت إلينا النصف مما دفعتَ في اليوم الأول ، وأتبعته باليأس مما لنا عندك دفعةً واحدةً ، وأغلظتَ القول علينا ، فانصرفنا عنك وقد ظننا بك خيراً ، فكن عند ظننا بك ، ولا تَقصِدْ ظُلمنا ونحن ضعاف ، وقد أصابنا الجوع الشديد ، وقد رزقنا الله تعالى هذا الرزق ، فكُلْ منه ما يكفيك ، وأطعِمْنا منه وتصدّقْ علينا ، إن الله يَجزي المتصدقين ولا يُضيع أجر المحسنين . فأبى عليها وردّها وزاد في الغِلَظ لها وأيأسَها من كل خيرٍ لها عنده .

فلما لم تجد حيلة اجتمعن وقلن : كيف نعمل في أمر هذا الغادر الجائع ؟ فاجتمعت آراؤهن على أن يرفعن أمرهنّ إلى الأسد إذ هو أقوى منه وهو ملك السباع كلها ، وأن يَقصُصن عليه قِصّتهن من أولها إلى آخرها ، وجعلن له الجمل جُعْلًا على إهلاكه ، ثم يذهب كل واحد من هذه الثعالب بعد ذلك في طلب رزقه من ربه كما وعد وله الفضلُ علينا. فاجتمعت على ذلك وحضَرت عند الأسد ، وقصت عليه القصة ، وتظلّمت من الذئب ، فاغتاظ الأسد منه وأمرها أن تسير بين يديه ، فأتوه ووجدوه باركاً على جثة الجمل يأكلها ، فقبض الأسد عليه فقطعه قطعة قطعة ومزّقه ، ورد جثة الجمل على الثعالب وخلى بينه وبينهن . ولذلك قيل ما من طامّةٍ إلاّ وفوقها طامّة .

فصل

ثم اعلم أن السلطان الجائر قصيرُ العمر ، لأن الله قاصِمُ كل جبـار عنيد ، ومُهلك كل مارد ومُعتَدٍ ، وهو مُنصف المظلوم من الظالم ، فإنه ، جَلَّت قُدرتُه ، يقول في بعض الكتب المنزلة : « أيها السلطان إنما جعلتك خليفتي في أرضي ، وألقيت عليك اسماً من أسمائي ، وملّكتك رقاب عبادي ، وبسطت يديك في بلادي لتُنصف المظلوم من الظالم. فإذا كنت أنت الظالمَ وتعدّيتَ على الضعفاء من خلقي والمساكين من عِبـادي ، وصرت أنت الظـالم ، وهم المظلومون ، فأنا مَلِك الملوك وسلطان السلاطين ، وأنا آخُذ الحق منـك. ثم آذَن للمُهلكين في إهلاكك وتخليدك في العذاب الأليم . »

ثم اعلم أنك إن أقبلت على شهوات الدنيا وملاذّها، واغتررتَ بما فيها من الطيبات ومحاسن المَرئيّات ، واشتغلت بها عما لك فيـه صلاح ونجاح في دار المَعاد ، يوشك أن يأتيك ما أصاب رجلًا اجتاز في طريق كان يَسلُكه في نهر جَرّار ينحدر من جبال وعليه جسر يَعبُر عليه الناس . وانه لما صار على ظهر الجسر ، وقف ينظر إلى جريان المـاء ، فبينا هو كذلك إذ نظر إلى سمكـة كبيرة من أحسن أجناس السمك ، فقال في نفسه : ما أنصرف في يومي هـذا إلى بيتي بأحسنَ من هذه السمكة ، فأشويها وأجمعُ عليها أهـلي وأولادي ، وآكل منها أكلة طيبة . ولكن أخشى من جريان الماء أن يحولَ بيني وبـين السمكة . ثم قويت شهوتـُه ورام مَقام السمكة بحيث يراها، وقويت طبيعتُه في أخذها ، فنزع ثيابه ورمى بنفسه وغاص وراءها إلى أن قبض عـلى السمكة بإحدى يديه ، وفرح بظفره بهـا ، واشتغل عن السباحـة مخافـة أن تُفلِت السمكة منه ، فغلبه الماء لشدة جريانه فزحزحه عن الموضع الذي نزل منه ، وأشرف على الهَلَـكة . وشَحّ على السمكة أن يُفلتها وينجو بنفسه، فلم يزل ذلك حالـُه وهو يروم الخلاص بنفسه مع السمكة حتى حدَرَه الماءُ إلى جُرُف

عظيم يَنصبُّ إلى وَهدةٍ تحت الأرض فغاص به ، فأتاه عامرُ النهر وكان يسكُن ذلك الموضع ، فقال : ما تفعل في هذا المكان الذي لا يقع فيه أحد إلاّ غرقَ وهلك ؟

فقال : أنا الذي تركتُ الطريق الواضح والمَحجّةَ اللائحة التي فيها النجاة والسلامة ، ووقعتُ في هذه المَهلَكة من أجل لذة يسيرة وشهوة حقيرة .

فقال له : هلاّ خلّيتَ ما في يدك ونجوتَ بنفسك !

فقال : الطمعُ مني في السلامة والفوز بما كنتُ حدّثتُ به نفسي .

فقال : إنك جاهل ، وما أرى أحداً أولى منك بالغرق ! فوضع يدَه على رأسه فغرّقه . فإذا تفكرت يا أخي في هذه الأمثال والإشارات ، وقرأتَ على إخواننا ، أيّدهم الله ، كان ذلك ذكرى لك ولقومك ، ونعوذ بالله أن تكون ممن تنطبق عليه هذه القصة ، ولا أحَدٌ من إخواننا ، ولكن اتباعاً لقول الله تعالى حيث يقول لرسوله : « فذكّر فإن الذكرى تنفع المؤمنين » .

فصل

وقد حكي أن بعض ملوك الهند لما دنت وفاته ، وكان مسلماً قد أحضر ولداً له قد كان أهلاً للمُلك بعده ولم يكن له ولد سواه ، وقد علّمه شيئاً من الحكمة وعرّفه شيئاً من سياسة الملك . فقال له : يا بُني أوصيك بتقوى الله وطاعته وخَشيته ومراقبته في أمر دنياك بعشر خصالٍ تنتفع بها في الآخرة : أولُها وأولاها الإقرارُ بالتوحيد والابتهالُ إليه بالدعاء والتضرُّع بالليل والنهار . والثانيةُ الإقرار برسُله وتصديقُهم والقَبولُ منهم . والثالثةُ التصديق بالكتب المُنَزّلة من عنده عليهم . والرابعة حِفظُ الناموس وسياسة الناس . والخامسةُ التواضُع لله وترك الفخر . والسادسة تركُ الظلم والجور ،

فإن من ظلم عباد الله كان الله تعالى خصمه ؛ ومن كان الله خصمه فهو مخذول لا محالة . والسابعة تركُ مخالطة النساء والاجتماع معهنّ والإصغاء إلى قولهنّ ، فإنهـا تفسُد عقولُ الرجال إذا أصغوا إليهن . والثامنة تركُ شرب المُسكِر فإنه عدو العقل ، والعقلُ خليفة الله الباطِنُ ، فمن سلّط على خليفة الله عدوّه دمّره اللهُ وذهب عقلُه بدخول عدوه عليه ، فإذا ذهب العقلُ فلا دين ولا علم ولا مروءة ولا حياء ولا مُراقبة . ومن عَدِم هذه الخصال كان موته صلاحاً عامّاً . والتاسعة الكرمُ والسخـاء وسماحة النفس والتفضُّلُ على سائر النـاس صديقٍ أم عدوٍّ ، فإنه خُلُقٌ يُشرّف صـاحبَه . والعـاشرة صِدقُ القول وأداءُ الأمانة إلى البَرّ والفاجر .

وعليك ، يا بُنيَّ ، بعشر خِصال أُخرى تنفعك في دنياك وترى بها الخير والبِرّ والبركة وزيادة الرزق : أولها حُسن الخُلُق . وثانيها حُسن الأدب . وثالثهـا صدق الوعد والوفـاءُ بالعهد . ورابعها العفو عند القُدرة . وخامسها اصطنـاع الرجال وتركُ الحسد . وسادسها أن تحرِص على أن لا يكون لك عدو ، وإن كان لك عدوٌّ فيكون إحسانك إليه عُقوبَتَك له ، فإن الله يكفيك مَؤونته ويُمكّنك من ناصيته . وسابعها تركُ التفريط فيما لديك من وديعـة الله عندك ، وأن لا تفعل إلاّ ما يُقرّبك إليه . وثامنها أن تكون مُروءتُك غالبةً لشهواتك . وتاسعها أن لا تُؤثر دنياك على آخرتك ، فـإن الله سبحانه إذا علم منك ذلك آتاك الدنيا ، فإنه يقال إن الله عزّ وجل أوحى إلى الدنيا: يا دُنيا من خدمك فاستخدميه ، ومن خدمني فاخدِميه . وعاشرُها تركُ النظر فيما لا يعنيك ، وأن لا تشتغل إلاّ بما يَشغَلك الله تعالى به .

وعليك ، يا بُنيَّ ، بعشر خصال أُخرى يُصلِـح الله تعـالى بهـا مُلكك ويثبّت بها سلطانك : أولها أن تكون متفقداً لأهل مملكتك ، حتى لا يغيب عنك شيءٌ من أمور صغيرهم وكبيرهم ، بل يكون علمك محيطاً بجميع أعمالهم. والثانية أن تقابل كلّ واحد من رعيتك على قدر عمله . والثالثة أن يكون

عدلُك شاملًا لهم . والرابعة أن لا تجور عليهم . والخامسة أن لا تُسوّي بين علمائهم وجُهّالهم في العطية والمنزلة . والسادسة أن تُولّي عليهم من قِبَلك الأخيار والأحرار ، وإياك أن تولي عليهم العبيد والسُّوقة وأولاد الزّنى . ثم اعلم أن أعمال وُلاتِك إليك منسوبةٌ ، إن عَدَلوا قيل : عدل السلطان ؛ وإن جاروا قيل : جار السلطان . والسابعة أن لا تستعمل من أصحاب الرأي والمشورة من هو مخالفٌ لك في دينك ، فإنه لا ينصحك ، وإن نصحك في أول مرة ، غشّك في أخرى . والثامنة أن يكون وزيرُك أرفعَ أهل زمانك درجةً في الدين والدنيا جميعاً ، ويكون من الأخيار ، فقد قيل : إن من لا أصل له فلا فرع له ، ومن لا فرع له لا ثمرة له ، وكل شجرة لا ثمرة لها ، فالنار أولى بها . والتاسعة إنصافُ المظلوم من الظالم ومنعُ القوي من التعدي على الضعيف . والعاشرة ردُّ الحق إلى أهله والانتصارُ لهم. فإذا كَمُلَت لك هذه الخصالُ الثلاثون ، رجوتُ لك كمالَ الأمور في الدين والدنيا والملكِ والسلطان ، واستوجبت أن تكون مَلِكاً عادلاً ، فتنال بذلك الحُظوة من الله تعالى وحُسن العاقبة في المَعاد والمُنقلب إليه .

فتأمل، أيها الأخ، هذه الوصية، وتدبّرها وانظُر شفقة هذا الملك العادل على ولده كيف رضي له ما كان يرضى لنفسه ، فهكذا يجب على الحكيم أن يوصي تلامذته ، وعلى النبي أن ينصح أمته ومن يخلفه فيهم لمقامه وخلافته من بعده . وكان مما أوصى هذا الملك رعيّته ما يأتي ذكره في هذا الفصل .

فصل

ويقال إنه لما فرغ من وصية ولده الذي أهّله للملك بعده ، جمع علماء أهل مملكته وأولي الفضل والشرف فيهم من أهل المنازل والرُّتب الذين هم أصحابه وأسبابه ، فقال : أيها العلماء الذين كانوا وُلاة أمري وأهل سِرّي وبِطانتي ، قد كنتم لي نصحاء ومطيعين ، وحَسُنت طاعتكم لي بنيّةٍ صادقة ، وكانت ألسنتكم بشكري ودعائي وحسن الثناء عليّ ناطقة ، وكنتُ لكم مُكرماً ، ولحقّكم عارفاً ، وعليكم مشفقاً ، وإلى جماعتكم محسناً ، فكونوا لهذا الغلام مثل ما كنتم لي، يكنْ لكم مثلَ ما كنتُ لكم. ثم قال لجمعهم: اتقوا الله وأصلِحوا ذات بَينكم ، وأطيعوا وُلاتكم، وإياكم والخِلاف والنّفاق والعداوَة والمنازَعة والمجادَلة في أديانكم وآرائكم ومذاهبكم، فإن في ترك ذلك صلاحاً لكم ولأنفسكم وجمعَ شملكم ودعةً لقلوبكم ودفاعاً عن بلادكم ، ولا يطمع فيكم عدوُّكم ما دمتم على ذلك. وإن تركتم ما هو خيرٌ لكم، واستبدلتم به ما هو شرٌ لكم ، فعند ذلك يطمع فيكم عدوّكم وتخرَب بلادكم وتكون نَفَقَتكم في ذلك أموالكم وأنفسكم. وربما لا يكون لكم قوة بذلك، فتهلكوا على بَكرَةِ أبيكم. ولا تتعادوا في المذاهب ولا تتلاعنوا فتهلكوا على بَكْرَة أبيكم . واعلموا أن في اجتماع الكلمة وترك الخِلاف بَركةً لمن أقبل عليها ، وحصناً لمن التجأ إليها ، فإن القضيبين إذا جُمعا وكانا ضعيفين ، وضم إليهما من جنسهما أضعافٌ عديدة حتى تكون قبضةً ، فإنه يعسُر كسرُها ، وإذا فُرّقت كُسِرت بأهون سَعي . وقد علمتم الذي عاهدتموني عليه وما وصّيتُكم به في أمر هذا الغلام الذي بيني وبينكم ، فإياكم والتغييرَ عليه ونقضَ العهد له، فليس المنكوث عليه بأسوأ حالاً من الناكث، فعليكم بالسمع والطاعة، وأوفوا له يوفِ اللهُ لكم ، وقُوا له يَقِ الله لكم ، وتمّموا له فيه ما بدأتم ، يُتمّ الله لكم أفضل أموركم ويحسنْ حالكم على يديه. فهذا هو ملككم ! وأخذ

بعضُده ودعـــا له ، وأشهـد بعضَهُم بذلك على بعض ، وأشهد اللهَ تعـالى عليهم .

ولحقته سكرةُ الموت واعتُقِـــل لسانه وضَعُف جَنانه وعَرِق جبينه ، واعتنقه ولده ، وفاضت روحه ، وحزن عليه أهل مملكته . ثم قضى الله فيمن بعده بما أحبّه وتصرّفت بهم الأحوال. وإنما ذكرتُ لك ذلك لعلّك تنتبه من نوم الغفلة ورقدة الجهالة، وتكون هذه الرسالة تذكرةً لك ولجميع من وقف عليها ، وعساهـا تكون تَذكِرةً لمن تذكّر وعِبرةً لمن اعتبر ، وفقّك الله تعالى وإيانا وجميع إخواننا السدادَ إنه رؤوف بالعباد .

تمت رسالة علل اختلاف اللغات بتمامها،
وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم .

الرسالة الاولى
من النفسانيات العقليات

في مبادىء الموجودات العقلية على رأي الفيثاغوريين

(وهي الرسالة الثانية والثلاثون من رسائل إخوان الصفاء)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وسلامٌ على عِباده الذين اصطفى ، آللهُ خيرٌ أمّا يُشرِكون ؟

فصل

اعلم ، أيها الأخ ، أنّا قد فرغنا من بيان عِلل اختلاف اللغات والكلام والأصوات ، ورسوم الخطوط والكتابات ، وكيفية مبادىء المذاهب والاعتقادات والآراء والديانات، وختمنا الكلام في الطبيعيّات عند ختمِنا تلك الرسالة . ونريد الآن أن نشرع في القسمة الثالثة من النّفسانيات العقليّات حسبما وعدنا في صدر كتابنا، ونذكر فيها ما يتعلق بتلك الرسائل على التوالي ، منها هذه الرسالة الأولى في مبادىء الموجودات . فنقول على رأي فيثاغورس الحكيم الذي هو أول من تكلم في عِلم العدد وطبيعته ، قال :

إن طبيعة الموجودات بحسب طبيعة العدد ، فمن عرَفَ العدد وأحكامه وطبيعته وأجناسه وأنواعه وخواصه، أمكنه أن يَعرِف كميّة أجناس الموجودات

وأنواعها، وما الحكمةُ في كميّاتها على ما هي عليه الآن ولِمَ لم يكن أكثر من ذلك ولا أقلّ منه، وذلك أن الباري تعالى لما كان هو مُبدِعَ عِلّة الموجودات، وخالق المخلوقات ومخترعها، وهو واحد بالحقيقة من جميع الوجوه، لم يكن من الحكمة أن تكون الأشياء كلُّها شيئاً واحداً من جميع الجهات، ولا مُتباينةً منْ جميع الوجوه، بل يجب أن تكون الأشياء كلُّها واحداً بالهَيُولى، كثيرةً بالصورة، ولم يكن أيضاً من الحكمة أن تكون الأشياء كلُّها ثُنائِيّة وثُلاثية ورُباعية وخُماسيّة وسُداسية، وما زاد على ذلك بالغاً ما بلغ، بل كان الأحكَمَ والأتقنَ أن تكون على ما هي عليه الآن بحسب الأعداد والمقادير، وكان ذلك هو في غاية الحكمة والإتقان، وذلك أن من الأشياء ما هي ثُنائية، ومنها ما هي ثُلاثية ورُباعية، وخُماسيّات ومُسدّسات ومُسبّعات ومُثمّنات ومُتسّعات ومُعشّرات، وما زاد على ذلك بالغاً ما بلغ.

فالأشياء الثُّنائيــة مثلُ الهَيُولى والصورة، والجوهر والعَرَض، والعلّة والمعلول، والبسيط والمركّب، واللطيف والكثيف، والمُشفّ وغير المُشِفّ، والمُظلِم والمنير، والمتحرك والساكن، والعالي والسافل، والحار والبارد، والرّطْب واليابس، والخفيف والثقيل، والضارّ والنافع، والخير والشرّ، والصواب والخطأ، والحق والباطل، والذكر والأنثى. وبالجملة من كل زوجين اثنين كما قال الله تعالى: «ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون».

وأما الأشياء الثلاثية فمثلُ الأبعاد الثلاثة التي هي الطولُ والعرضُ والعمقُ، ومثل المقادير الثلاثة التي هي الخطّ والسطح والجسم، ومثل الأزمان الثلاثة التي هي الماضي والحاضر والمستقبل، ومثل العناصر الثلاثة التي هي المُمكِن والمُمتنِع والواجب؛ ومثلُ الأمور الثلاثة التي منها رياضية وطبيعية وإلهية. وبالجملة كل أمر ذي وسط وطَرَفين.

وأمـا الأشياء الرباعيّة فمثلُ الطبـائع الأربع التي هي الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة ، ومثل الأركان الأربعة التي هي النــار والهواء والماء والأرض ، ومثل الأخلاط الأربعة التي هي الصفراء والدم والبلغم والسوداء ؛ ومثل الأزمان الأربعة التي هي الربيع والصيف والخريف والشتاء ؛ ومثـل الجهات الأربع التي هيَ المَشرِق والمَغرِب والشَّمال والجَنوب ؛ والأوتاد الأربعة التي هي الطالِعُ والغــارِب ووتِدُ الأرض ووتِدُ وسط السماء ؛ ومراتب الأعداد التي هي الآحاد والعشرات والمِئون والألوف . وعلى هـذا القياس إذا اعتبرتَ ، وجدتَ أشياء كثيرةً مخمَّسات ومسدَّسات ومسبَّعات، بالغاً مـــا بلغ . وقد توغلت المُسبّعةُ [١] في الكشف عن الأشياء السُّباعية ، فظهر لهم منها أشياء عجيبة ، فشغفوا بها وأطنبوا في ذِكرها ، وأغفلوا مـا سوى ذلك من المعدودات . وكذلك أيضاً الثَّنَوية [٢] أطنبوا في الكشف عن الموجودات الثنائية ، فظهر لهم منها أشياءُ عجيبة ، فشغفوا بها وأغفلوا ما سوى ذلك من الموجودات . وهكذا النصـارى في التثليث والمثلَّثات ، وهكذا الطبيعيون أطنبوا في الطبائع الأربع والمُربَّعــات من الأمور ، وهكذا الخُرَّمية [٣] أطنبوا في المخمَّسات من الأمور ، وأهل الهند أيضـاً أطنبوا في المُتسَّعات من أمور العدد والمعدودات .

---

١ المسبعة أو السبعية : فرقة من غلاة الشيعة ذهبوا إلى أن النطقاء بالشريعة سبعة وهم آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد ومحمد المهدي سابع النطقــاء . وبين كل اثنين من النطقاء سبعة ائمة . ولا بد في كل شريعة من سبعة يقتدى بهم .

٢ الثنوية : مذهب المانوية نسبة إلى مؤسسه ماني ، وهو مذهب فارسي أتى مصدقــاً للمذهب الزرادشتي متفقاً معه على ان في الكون إلهين اثنين احدهما إله النور والخير وهو النهار ، والآخر إله الظلام والشر وهو الليل .

٣ الخرمية : جماعة اباحية ثارت على الخلافة العباسية في جبال ارمينية واذربيجان ، فروعت البلاد ، ونشرت مذهبها الذي يدعو الى استباحة النساء والأموال ، حتى قضت عليها جيوش المعتصم سنة ٨٣٦ م .

فأما الفيثاغوريون فأعطوا كل ذي حق حقه ، حتى قالوا : إن الموجودات بحسب طبيعة العدد ، يَعنُون أن الأشياء الموجودة منها ما هو اثنان اثنان ، ومنها ما هو ثلاثة ثلاثة ، وأربعة أربعة ، وخمسة خمسة ، وهكذا بالغــاً ما بلغ .

وقالوا إن الواحد أصلُ العدد ومَنشؤه ، ومن الواحد يتألف العدد قليلُه وكثيرُه وأزواجُه وأفرادُه وصحيحُه وكُسورُه ، فالواحد هو علّة العدد ، كما أن البــاري ، جلت أسمــاؤه ، علّة الموجودات ومُوجِدهــا ومُرتّبها ومُتْقنها ومُتمّمها ومُكمّلها ، وكما أن الواحد لا جُزء له ولا مِثل ، كذلك أن الباري ، جل ثناؤه ، لا شريك له ولا شِبه ولا مِثل ، وكما أن الواحد موجود في جميع الأعداد مُحيط بها ، كذلك أن الباري ، جل ثناؤه ، شاهدٌ على كل موجود مُحيط به ؛ وكما أن الواحد يُعطي اسمه لكل عددٍ ومقدارٍ ، كذلك الباري ، جل ثناؤه ، أعطى الوجود لكل موجود ؛ وكما أنه ببقــاء الواحد بقــاءُ العدد ، كذلك ببقــاء الباري ، جل ثناؤه ، بقاءُ الموجودات ودوامُها ؛ وكما أن بالواحد بعد كلّ عددٍ ومقدارٍ ، كذلك علمُ الباري تعالى محيطٌ بكل شيءٍ شاهدٍ وغائبٍ .

وقالوا : كما أن من تكرار الواحــد نشوءَ العدد وتزايُدَه ، كذلك من فيض الباري وجُودِهِ نَشأةُ الخلائق وتمامُها وكمالُها ؛ وكما أن الاثنين هو أول عددٍ نشأ من تكرار الواحد ، كذلك العقلُ هو أولُ موجود فاض من وجود الباري عز وجل ؛ وكما أن الثلاثة ترتّبت بعد الاثنين ، كذلك النفسُ ترتبت بعد العقل ؛ وكما أن الأربعة ترتّبت بعد الثلاثة ، كذلك الهَيُولى ترتّبت بعد النفس ؛ وكما أن الخمسة ترتّبت بعد الأربعة ، كذلك الطبيعة ترتّبت بعــد الهَيُولى ؛ وكما أن الستّة ترتّبت بعــد الخمسة ، كذلك الجسمُ ترتّب بعــد الطبيعة ؛ وكما أن السبعة ترتّبت بعــد الستة ، كذلك الأفلاكُ ترتّبت بعــد وجود الجسم ؛ وكما أن الثمانية ترتّبت بعد السبعة ، كذلك الأركانُ ترتّبت

بعد الفلك ؛ وكما أن التسعة ترتّبت بعد الثمانية ، كذلك المُولّدات ترتّبت بعد الأركان ؛ وكما أن التسعة آخِرُ مَرْتبة الآحاد ، كذلك المُولّدات آخِرُ مَرتَبة الموجودات الكُلّيات وهي المعادن والنبات والحيوان . فالمعادن كالعشرات ، والنباتُ كالمِئين ، والحيوان كالألوفِ ، والمِزَاج كالواحد.

وقالوا : العدد كلّه أزواج وأفراد وصحيح وكسور ، فمراتب الموجودات التي في عالم الأرواح بطبيعة الأفراد أشبَهُ ؛ ومراتبُ الموجودات التي في عالم الأجساد بطبيعة الأزواج أشبه ؛ ومراتب الموجودات التي في عالم الأفلاك بطبيعة الأعداد الصحيحة أشبَهُ ؛ ومراتبُ الموجودات التي في عالم الكون والفساد بطبيعة الأعداد الكُسور أشبَهُ .

فصل

اعلم ، أيدكَ الله وإيانا بروح منه ، أن الوجود مُتقدّم على البقاء ، والبقاء متقدّم على التمام ، والتمام متقدّم على الكمال ، لأن كل كامل تامٌ ، وكلّ تام باقٍ ، وكلّ باقٍ موجود . ولكن ليس كلُّ موجود باقياً ، ولا كلُّ باقٍ تامّاً ، ولا كل تامٍّ كاملاً. وذلك أن الباري ، جلت أسماؤه ، الذي هو علّة الموجودات ومُبدعها ومُبقيها ومُتِمُّها ومكمّلها ، أولُ فيضٍ فاض منه الوجود ، ثم البقاء ، ثم التمام ، ثم الكمال . وقد بيّنا في الرسالة التي ذكرنا فيها خواصّ العدد الفَرقَ بين التمام والكمال فاعرِفه من هناك ، إن شاء الله .

فصل

إنه ينبغي لمن يريد النظر في مبادىء الموجودات ، ليعرفها على حقائقها ، أن يُقدِّمَ أولاً النظرَ في مبادىء الأمور المحسوسة ، ليروض بها عقله ، ويُقوِّي بها فهمَه على النظر في مبادىء الأمور المعقولة ، لأن معرفة الأمور المحسوسة أقربُ من فهم المبتدئين وأسهلُ على المتعلمين، فنقول:

إن الجسم أحدُ الموجودات المحسوسة، وهو جوهر مركَّبٌ من جوهرين بسيطين معقولين : أحدهما يقال له الهَيُولى ، والآخر يقال له الصورة . فالهَيُولى هو جوهر قابل للصورة ، والصورة هي التي بها الشيء ما هو . مثال ذلك : الحديد هَيُولى لكل ما يُعمَل منه كالسكين والسيف والمنشار وغير ذلك . فالسكين إنما هي اسم للصورة ، وكذلك السيف والفأس ، لأن الحديدَ في كلّها واحد ، والصورة مختلفة، واختلافُ الأسماء بحسَبِ اختلاف الصور. وكذلك أيضاً الخشبُ فإنه هَيُولى لكل ما يُعمَل منه كالباب والسرير والكرسي .

وليس كل هَيُولى تقبل كلَّ صورة ، لأن الخشب لا يقبَل صورة القميص، ولا الشُقّةُ تقبَل صورة الكرُسي ، ولا الهَيُولى تقبل أي صورة تقدمت ، لأن القُطن لا يَقبل صورة الشُقّة ، ولا الغزلُ يقبل صورة القميص . لكن القطن أوّلُ ما يقبَلُ صورةُ الغزل ، وبتوسُّط صورة الغزل ، يقبَلُ صورةَ الشُقّة ، ثم صورة القميص . وهكذا الطعام أوّلُ ما يقبل صورةُ الدقيق ، ثم صورةُ العجين ، ثم صورةُ الخبز .

وعلى هذا المثال يكون قَبُول الهيولى للصور المختلفة : الأولُ فالأولَ على الترتيب . وذلك أن الهَيُولى الأُولى أوّلُ ما قَبِلت صورةُ الجسم الذي هو الطول والعرض والعُمق ، ثم بتوسط الجسم تقبل سائر الصور من التدوير والتثليث والتربيع وما شاكل ذلك . والهَيُولى يقال على أربع جهات ،

فأقربُها إلى الحس هَيُولى الصناعة مثل الخشب والحديد والقُطن بحسب ما بيّنا . فإن كل صانع لا بد له من هَيُولى يَعمَل فيه ومنه صِناعته . والثاني هَيُولى الطبيعة وهي النار والهواء والماء والأرض . وذلك أن كل شيء تعمَله الطبيعة التي تحت فلك القمر من الموجودات ، فإن هذه الأركان الأربعة هَيُولى لها . والثالث هَيُولى الكُل ّ أعني الجسمَ المُطلقَ الذي يَعُمّ الأفلاك والكائنات أجمع . والرابع الهَيُولى الأُولى وهو جوهرٌ قابل للصورة ، فأول صورة قَبِل هي الطول والعرض والعُمق ، وكان بذلك جسماً مُطلَقاً . وهذه الهَيُولى من المبادىء الأُولى المعقولة . وذلك أن هذه الهَيُولى أولُ معلول النفس ، والنفس أول معلول العقل ، والعقل أول معلول الباري تعالى ، وأن الباري تعالى عِلةُ كلّ موجود ومُبدِعه ومُتقنه ومُتمّمه ومُكمّله على النظام والترتيب الأشرف فالأشرف . وترتيبُ الموجودات عنه كترتيب العدد عن الواحد الذي قبلَ الاثنين ، كما بيّنا في الرسالة التي ذكرنا فيها خواصّ العدد. فالعقل هو أول موجود أوجده الباري تعالى وأبدعه من غير واسطة ، ثم أوجد النفس بواسطة العقل ، ثم أوجد الهيولى . وذلك أن العقل جوهرٌ روحاني فاض من الباري عز وجل ، وهو باقٍ تامّ كاملٌ . والنفسُ جوهرة روحانية فاضت من العقل ، وهي باقية تامّة غير كاملة . والهَيُولى الأُولى جوهرٌ روحاني فاض من النفس ، وهو باقٍ غيرُ تامّ ولا كامل .

فصل

اعلم أن عِلّة وجود العقل هو وجودُ الباري، عز وجلّ، وفَيضُه الذي فاض منه. وعِلّة بقاء العقل هو إمداد الباري، عز وجل، له بالوجود والفَيضِ الذي فاض أولاً. وعِلّة تمامية العقل هي قَبُول ذلك الفيض والفضائل واستمدادُه من الباري تعالى. وعِلةُ كمال العقل هي إفاضة ذلك الفيض والفضائل على النفس بما استفاده من الباري عز وجل. فبقاء العقل إذاً عِلةٌ لوجود النفس، وتماميّةُ العقل عِلةٌ لبقاء النفس، وكمالُه عِلّة لتماميّة النفس، وبقاءُ النفس عِلّةٌ لوجود الهَيُولى، وتماميّة النفس عِلةٌ لبقاء الهَيُولى. فمتى كملت النفسُ تمّت الهَيولى. وهذا هو الغرضُ الأقصى في رِباط النفس بالهيولى، ومن أجل هذا دَورانُ الفلك وتكوين الكائنات لتَكملَ النفسُ بإظهار فضائلها في الهيولى، وتَتمّ الهيولى بقَبُول ذلك. ولو لم يكن هذا هكذا لكان دورانُ الفلك عَبثاً.

واعلم يا أخي أن العقل إنما قَبِل فيضَ الباري تعالى وفضائِله التي هي البقاءُ والتمامُ والكمال دفعةً واحدةً بلا زمانٍ ولا حركةٍ ولا نَصَبٍ لقُربه من الباري، عزّ وجل، وشدّة روحانيته. فأما النفس فإنه لما كان وجودها من الباري، جلّ ثناؤه، بتوسُّط العقل، صارت رُتبتها دون العقل، وصارت ناقصةً في قَبول الفضائل، ولأنها أيضاً تارةً تتوجه نحو العقل لتستمد منه الخير والفضائل وتارةً تُقبِل على الهَيولى لتمدّها بذلك الخير والفضائل. فإذا هي توجّهت نحو العقل لتستمد منه الخير، اشتغلت عن إفادتها الهَيُولى ذلك الخيرَ. وإذا هي أقبلت على الهَيولى لتمدّها بذلك الفيض، اشتغلت عن العقل وقَبول فضائله.

ولما كانت الهَيولى ناقصة الرُّتبة عن تمام فضائل النفس، وغير راغبةٍ في فيضها، احتاجت النفس إلى أن تُقبل عليها إقبالاً شديداً، وتُعنى بإصلاحها

عِنايةً تامة، فتتعبُ ويَلحقُهـا العناء والشقاء في ذلك. ولولا أن الباري، عزَّ وجل، بفضله ورحمته، أيدها بالعقل وأعانها على تخليصها، لهَلكت النفس في بحر الهيُولى، كما قال الله تعالى: «ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زَكا منكم من أحد أبـداً.» وأما العقل فليس يناله في تأييده النفس وفيضه عليها فضائله تعبٌ ولا نصب، لأن النفس جوهرة روحانية سَهلةُ القَبول، تطلب فضائل العقل، وترغب في خيراته، وهي حيّة بالذات، عَلاّمة بالقوّة، فعّالة بالطبع، قادرة صانعة بالعَرَض.

وأما الهَيُولى، فلبُعدها من الباري، تعالى ذكره، صارت ناقصةَ المرتبة، عادمة الفضائل، غير طالبةٍ لفيض النفس ولا راغبةٍ في فضائلهـا، ولا علاّمة ولا مفيدة ولا حيّةٍ، بل قابلةٌ حَسْبُ. فمن أجل هذا يَلحَقُ النفسَ التعبُ والعناءُ والجَهدُ والشقاء في تدبيرها الهَيُولى وتتميمها لها. ولا راحة للنفس إلاّ إذا توجّهت نحو العقل وتعلقت به واتحدت معه. وسنشرح كيف يكون هذا فيما بعد إن شاء الله.

فصل في سؤالات عن المبادىء

كيف سريان الوجود في الموجودات؟ كيف سرَيان البقاء في الباقيات؟ كيف سريان الدوام في الدائمات؟ كيف سريان التمام في التـامّات؟ كيف سريان الكمال في الكاملات؟ كيف سرَيان الحياة في الأحياء؟ كيف سريان العلم في ذوي العلم؟ كيف سريان القـدرة في ذوي القـدرة؟ كيف سريان الرياسة في ذوي الرياسة؟ كيف سريان الربوبيـة في ذوي الأرباب؟ كيف سريان الكثرة من الوحدة المَحْضة؟

وقال بعضهم ولنِعْمَ ما قيل:

يا مُنيرَ العالم الحِسّيّ بالعقل المنيرِ أنتَ مُبدي الكلّ مازلتَ على مَرّ الدهورِ
لم يزل في علمك العالَمُ من قبل الظهورِ مُتقَنَ الصَّنعة كالصُّورة في وهم الضميرِ
ثم أظهرتَ إلى الوجدان، إظهارَ البصيرِ جُملةً أبدعتها إبداع خلّاقٍ قديرِ

فصل
في المبادىء الروحانية والجسمانية معاً ومراتبها

اعلم أيها الأخ البارُّ الرحيم ، أيدك الله وإيانا بروح منه ، أن أول شيء اخترعه الله، جل ثناؤه، وأوجده جوهرٌ بسيط روحاني في غاية التمام والكمال والفضل، فيه صورُ جميع الأشياء يسمّى العقل الفعّال؛ وأن من ذلك الجوهر فاض جوهرٌ آخرُ دونه في الرُّتبة يسمى الرُّتبة الكُلّيّة، وانبجس من النفس جوهرٌ آخرُ يسمى الهيُولى الأُولى ؛ وأن الهَيُولى الأُولى قَبِلت المِقدار الذي هو الطول والعرض والعُمق، فصارت بذلك جسماً مُطلَقاً وهو الهيولى الثانية .

ثم إن الجسم قَبِل الشكل الكُريّ ، الذي هو أفضل الأشكال ، فكان من ذلك عالَمُ الأفلاك والكواكب ما صفا منه ولطُف ، الأولُ فالأول من لَدُن الفلك المحيط إلى منتهى فلك القمر ، وهي تسعُ أُكرٍ بعضُها في جوف بعض: فأدناها إلى المركز فلك القمر، وأبعدُها وأعلاها الفلكُ المحيط، ويسمى أيضاً الفلك الحامِل للكُلّ الذي هو ألطفُ الأفلاك جوهراً وأبسطُها جسماً ؛ ثم دونه فلكُ الكواكب الثابتة ، ثم دونه فلكُ زُحَل ، ثم دونه فلك المُشتري ، ثم دونه فلك المِرّيخ ، ثم دونه فلك الشمس ، ثم دونه فلك الزُّهَرة ، ثم دونه فلك عُطارِد ، ثم دونه فلك القمر ، ثم دون فلك القمر الأركانُ الأربعة التي هي النار والهواء والماء والأرض، فالأرضُ هي المركز وهي أغلظ الأجسام جوهراً وأكثفها جِرْماً .

ولما ترتبت هذه الأُكَرُ بعضُها في جوف بعض، كما أراد باريها ، جل ثناؤه ، وكما اقتضت حكمته من لطيف نظامها وحسن ترتيبها ، ودارت الأفلاكُ بأبراجها وكواكبها على الأركان الأربعة ، وتعاقب عليها الليل والنهار والشتاء والصيف والحرّ والبرد ، واختلط بعضُها ببعض ، فامتزج اللطيفُ منها بالكثيف ، والثقيلُ بالخفيف، والحارّ بالبارد ، والرطب باليابس، تركبتْ منها على طول الزمان أنواعُ التراكيب التي هي المعادنُ والنبات والحيوان . فالمعدِن هو كل ما انعقد في باطن الأرض وقعر البحار وجوف الجبال من البُخارات المُتحللة والدخانات المتصاعدة ، والرطوبات المُحتقِنة في المغارات والأهوِيَة . والتُّرابيةُ عليها أغلبُ . وأما النبات فهو كلُّ ما نَجَم على وجه الأرض من العُشب والكلإ والحشائش والبقول والزروع والأشجار. والمائية عليها أغلبُ. وأما الحيوان فهو كل جسم يتحرّك ويُحس وينتقل من مكان إلى مكان بجثته . والهوائية عليه أغلب .

فالمعادن أشرفُ تركيباً من الأركان ، والنباتُ أشرف تركيباً من المعادن ، والحيوانُ أشرف تركيباً من النبات ، والإنسانُ أشرف تركيباً من جميع الحيوان . والناريّةُ عليه أغلبُ .

وقد اجتمع في تركيب الإنسان جميعُ معاني الموجودات من البسائط والمركّبات التي تقدم ذكرها ، لأن الإنسان مركّب من جسد غليظ جسماني ، ومن نفس بسيطة روحانية. فمن أجل هذا سمت الحكماء الإنسان عالماً صغيراً ، والعالَمَ إنساناً كبيراً . فالإنسانُ إذا ما هو عرف نفسه بالحقيقة من غرائب تركيب جسده ، ولطيف بنْية هيكله ، وفنون تصاريف قوى النفس فيه ، وإظهار أفعالها به ومنه من الصنائع المُحكَمة والمِهن المُتقَنة ، تهيأ له أن يقيس عليها جميعَ معاني المحسوسات ، ويستدلّ بها على جميع معاني المعقولات من العالمين جميعاً .

فينبغي لنا أيها الأخ ، أيدك الله وإيانا بروح منه ، إذا كنا عازمين على

معرفة حقائق الموجودات ، أن نبتدىء أولاً بمعرفة أنفسنا ، إذ هي أقربُ الأشياء إلينا، ثم بعد ذلك بمعرفة سائر الأشياء ، لأنه قبيح بنا أن ندّعي حقائقَ الأشياء ولا نعرف أنفسنا .

فصل

اعلم أيها الأخ البار الرحيم ، أيدك الله وإيانا بروحٍ منه ، أن النفس الكلية إنما هي قوة روحانية فاضت من العقل، بإذن الباري، جلّ ثناؤه ، كما ذكرنا قبلُ ، وأن لها قوتين اثنتين ساريتين في جميع الأجسام من لدُن فلك المحيط إلى منتهى مركز الأرض ، كسريان ضوء الشمس في جميع أجزاء الهواء ؛ فإحدى قوتيها علاّمة ، والأُخرى فعّالة ، فهي بقوتها الفعّالة تُتَمّم الأجسام وتكمّلها بما تنقُش فيها من الصور والأشكال والهيئات والزينة والجمال بألوان الأصباغ ؛ وبالقوّة العلاّمة تُكمّل ذاتها بما يظهر من فضائلها من حَدّ القوّة إلى حد الفعل ، من العلوم الحقيقية ، والأخلاق الجميلة ، والآراء الصحيحة ، والأعمال الصالحة ، والصنائع المُحكَمة ، والمِهَن المُتقنة ، بحسب قَبُول شخص تأثيراتها بصفاء جوهره ولطافة جِرمه .

فصل

واعلم أيها الأخ البار الرحيم ، أيّدك الله وإيانا بروح منه ، أن النفس جوهرُها لا يَبيد ، وقواها لا تفنى ، وأفعالها لا تنقطع ، لأن مادتها من العقل بالتأييد لها دائم ، وقَبولها منه الفيضَ سرمداً متصلٌ .

وهكذا تأييد الباري تعالى للعقل دائماً وأبداً ، وفيضه متصلٌ ، وقَبولُ العقل لذلك متصلٌ دائم. لأن فضائل الباري تعالى لا تفنى، وعطاياه لا تنقطع،

وفيضه لا يتناهى ، لأنه ينبوع الخيرات ، مَبدأ البركات ، ومعدِن الجود ، وسبب كل موجود . فله الحمد والثناء ، والشكر والعطاء .

فصل

واعلم أيها الأخ البار الرحيم ، أيدك الله وإيانا بروح منه ، أن النفس الكلية رتبتُها فوق الفلك المحيط ، وقواها سارية ٌ في جميع أجزاء الفلك وأشخاصِه بالتدبير والصنائع والحِكَم ، وفي كل ما يحوي الفلك من سائر الأجسام، وأن لها في كل شخص من أشخاص الفلك قوة ً مختصة ً به، مُدبّرة ً له ، مُظهِرة ً منه أفعالها ؛ وأن تلك القوّة تسمّى نفساً جُزئية لذلك الشخص. مثالُ ذلك القوة المختصةُ بجِرم ِ زُحَل المدبّرةُ له، المُظهرة منه وبه أفعالَها يسمّى نفسَ زُحَل . وهكذا القوّة المختصّة بجِرم المشتري ، المدبّرة له ، المظهرة به ومنه أفعالها يسمّى نفسَ المشتري . وعلى هذا المثال والقياس سائرُ القُوى المختصة بكوكبٍ كوكبٍ وجِرم ٍجِرم ٍمن أجرام الفلك وأشخاصه، المدبِّرة لها ، المُظهرةُ بها ومنها أفعالها تسمّى نفوساً لها .

وهذا هو حقيقة ما قد رُمِز إليه في الكتب الإلهية أنهم الملائكة والملأ الأعلى وجندُ الله الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون .

وهذا هو حقيقة ما قالت الحكماء والفلاسفة في تفصيل النفوس الجُزئية في عالَم الأفلاك والأركان المسمّين الروحانيين الموكلين بحفظ العالَم وتدبير الخلائق بإدارة الأفلاك وجرَيان الكواكب ، وتصاريف الدهور وتَغايُر الأزمان ، ومراعاة الأركان ، وتربية النبات والحيوان وحفظهما .

فصل

اعلم أيها الأخ البار الرحيم ، أيدك الله وإيانا بروحٍ منه ، أن للنفس الكلية التي هي فوق الفلك المحيط قوةً مختصةً ساريةً في جميع الأجسام التي دون فلك القمر وهي مدبِّرة لها ، متصرفةٌ فيها ، مُظهرةٌ بها ومنها أفعالَها ، ويسمّيها الفلاسفة والأطباء طبيعةَ الكون والفساد ، ويسميها الناموسُ ملَكاً من الملائكة ، وهي نفس واحدة ، ولها قوى كثيرة مُنبثّةٌ في جميع أقسام الحيوان والنبات والمعادن والأركان الأربعة من لَدُن فلك القمر إلى منتهى مركز الأرض .

وما من جنس ولا نوع ولا شخص من هذه الموجودات إلاَّ ولهذه النفس قوةٌ مختصة به، مُدبِّرة لهُ ، مظهرةٌ به ومنه أفعالها ، وإن تلك القوة تسمى نفساً جُزئيّة لذلك الشخص .

فصل

اعلم أن أول قوة لهذه النفس في هذه الأركان ، التي هي النار والهواء والماء والأرض ، هي الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة . وأن أول أفعال هذه القوى في هذه الأُسْطُقُسات[1] هو التحريك والتسكين ، والتبريد والتسخين ، والتحليل والتجميد ، والتصعيد[2] والتقطير ، والخلط والمزج ، والتأليف والتركيب ، والتصوير والتنقيش والتصبيغ وما شاكلها . وكل ذلك بفعل هذه القوى في هذه الأُسْطُقُسات بمعاونة قوى الأشخاص الفلكية لها ، بإذن الله تعالى . مثال ذلك تحريكها لرُكن النار لتسخين العالم بمعاونة قوة

١ الاسطقسات : أي الأركان الأربعة ، واللفظة يونانية معربة تعني العناصر أو الاصول .
٢ التصعيد : معالجة الشراب بالنار .

الشمس لها دائماً ، وتسكينُها لركن الأرض بمعاونة قوة زُحَل لهـا دائماً ، وتحليلُها لرُكن الماء بالسيلان بمعاونة قوة المشتري لها دائماً ؛ وتلطيفها لركن الهواء بمعاونة قوة المرّيخ لهـا دائماً ؛ وتقطيرها لرُكن البُخار الرّطْب بمعاونة قوة الزُّهَرة لهـا دائماً ؛ وتمزيجها لركن البُخار اليابس بالبخار الرّطْب بمعاونة قوة عُطارِدَ لها دائماً ؛ وإمدادُها للمُولّدات برُكن العُصارات بمعاونة رُكن قوة القمر لها دائماً .

فصل

واعلم أيها الأخ البـار الرحيم ، أيدك الله وإيانا بروح منه ، أن أولَ فعل هذه القوى ، أعني الحرارةَ والبرودةَ والرطوبة واليبوسة ، في تكوين المعادن صَنعة الزّئبَق والكبريت ، وذلك أن الرطوبات المُحتقِنة في باطن الأجسام الأرضية والبُخاراتِ المُحتبِسة فيها ، إذا تعاقب عليها حَرّ الصيف وحرارة المَعـدِن ، لَطُفت وخفت وتصاعـدت عُلُواً إلى سقوف تلك الأهـويّة والمَغارات ، وتعلقت هناك زمانـاً . فإذا تعاقب عليها بردُ الشتاء ، غَلُظت وجَمَدت وتقاطرت راجعـة إلى أسفل تلك الأهويّة والمغارات ، واختلطت بتُربة تلك البِقاع ، ومكثت هناك زماناً طويلاً . وحرارة المعادن دائماً تعمَل في إنضاجها وطبخها وتصفيتها ، فتصير تلك الرطوبةُ المائية ، بما يختلط بها من الأجزاء التُّرابية وما تأخذ من ثِقَلها وغلَظها بطول الوقت وإنضاج الحرارة لها ، زئبَقاً رَطْباً ثقيلاً ؛ وتصيرُ تلك الأجزاءُ التُّرابية التي في أسفل المعادن ، بما يمازجها من الرطوبة الدُّهنية وإنضاج الحرارة لهـا ، كبريتاً محترقاً . فإذا اختلط الزئبق والكبريت مرة ثانية وتمازجـا — والتدبيرُ بحاله — تركّبَ من امتزاجهما أجناسُ الجواهر المعدنية وأنواعها : مثالُ ذلك في تركيب الجواهر الذائبة ، أن الزّئبق إذا كان صافياً ، والكبريتَ إذا كان نقيّـاً ، واختلطا

جميعاً اختلاطاً سَوِيّاً وشرب الكبريتُ رطوبة الزئبق كما شَرب الترابُ نَداوة الماء ، واتحدت أجزاؤهما على الاعتدال ، وكان مقداراهما متناسبين ، وحرارةُ المَعدِن تُنضجهما على اعتدال ، ولم يَعرِض لهما عارض من البرد واليُبس قبل إنضاجهما ، انعقدَ من ذلك على طول الزمان الذّهَب الإبريزُ .
فإن عرض لهما البردُ قبلَ النّضج ، انعقدا فصارا فضة بيضاء . فإن عرض لهما اليُبس من فرط الحرارة صارا نُحاساً يابساً . وإن عرض لهما البرد قبل أن تتّحد أجزاءُ الكبريت بأجزاء الزئبق ، صارا من ذلك رَصاصاً قَلَعيّاً[1] .
وإن عرض لهما البرد قبل النّضج ، وكانت أجزاء الكبريت أكثرَ ، صارا حديداً . وإن كان الزئبق أكثرَ ، والكبريتُ أقلَّ والحرارةُ ضعيفةً ، انعقد منهما الأُسرُب[2]. وعلى هذا القياسِ تختلف سائرُ أجناس الجواهر المعدِنية بسبب العوارض التي تَعرِض لها من كثرة الزّئبق والكبريت وقِلّتهما ، أو فرط الحرارة والبرودة قبل وقت نضجهما ، والخروج عن الاعتدال وما شاكل ذلك .

فصل

واعلم أيها الأخ البارّ الرحيم، أيدك الله وإيانا بروحٍ منه ، أن الباري، جل ثناؤه، قد أيد النفس النباتية بسبع قُوًى فعّالة : وهي القوة الجاذبة ، والقوة الماسكة ، والقوة الهاضمة ، والقوة الدافعة ، والقوة الغاذِية، والقوة المصوّرة، والقوة النامية . وإنما تفعل بكل قوة من هذه فعلاً خلافَ ما تفعله بقوة أخرى . فأول فعلها في تكوين النبات هو جَذبُها عُصاراتِ الأركان الأربعة التي هي الأرض والماء والهواء والنار ، ومَصُّها لطائفَها وما فيها من الاجزاء

---
[1] القلعي : الرصاص الجيد .
[2] الأسرب : الرصاص الأسود الرديء .

المُشاكِلة لكل نوع من أنواع النبات ؛ ثم إمساكُها لهـا بالقوة الماسكة لئلا تسيل وتَحلّل وتنعكس راجعة ؛ ثم تَنضيجُها لها بالقوة الهاضمة لتحيلها إلى ذاتها ؛ ثم دفعُها لها بالقوة الهاضمة لتحيلها إلى ذاتها ؛ ثم دفعُها لها بالقوة الدافعة إلى أقطارها ؛ ثم تغذيتُها بالقوة الغاذِية ؛ ثم النموُّ والزيادة فيها بالقوة النامية ؛ ثم التصويرُ لها بأنواع الأشكال والأصباغ بالقوة المصوّرة . مثـالُ ذلك أن القوة الجاذبة ، إذا امتصت نَداوةَ التُّراب بعروق النبات وجذبتها ، كما يمصُّ الحَجّامُ الدم بالمِحجَمة ، أو كما تمص النارُ الدُّهنَ بالفتيلة ، انجذبتْ معهـا الأجزاءُ الترابية لشدة اتحادها بها ، فإذا حصَلت تلك المادةُ في عروق النبات، أنضجتها القوة الهاضمة ، وصيَّرتها مشاكلةً لجِرم العروق ، وتناولتهـا القوةُ الغـاذِيةُ ، وألزقتْ بكل شكل من تلك الأعضـاء والمفاصل ما يلائمه القوةُ المُصوّرةُ ؛ وزادتِ الناميةُ في أقطارها طولاً وعرضاً وعُمقاً ، وما فضَلَت من تلك المـادة ولطُفَت ورقّت دفعتها القوةُ الدافعـة إلى فوقُ في أُصول النباتات وقُضبانها وفروعهـا وأغصانها ، وجذبتها الجاذبةُ إلى مـا هناك ، وأمسكتها الماسكة كيلا تسيل راجعة إلى أسفل . ثم إن القوة الهاضمة طبختها مرةً ثانية ، وصيَّرتها مشاكلة لجِرم الأُصول والفروع والأغصان ، ومادّةً لها ، فزادت في أقطارها طولاً وعرضاً وعمقاً . وما تَقَلت من تلك المـادّة ولطُفت ورقت دفعتها الدافعةُ إلى أعلى الفروع والأغصان ، وجذبتها الجاذبة إلى هنـاك ، وأمسكتها الماسكة . ثم إن القوة الهاضمة طبختها مرةً ثالثـة ، وصيَّرتها مُشاكِلة لجِرم الورَق والنَّوْرِ والزّهر وأكمام الحَب والثمر ومـا شاكل ذلك ، ومادّةً لها ، وزادت في أقطارها طولاً وعرضـاً وعمقاً . وما لطُفت من تلك المادة ورقت صيَّرتها مادّةً للحب والثمر، وأمسكتها الماسكة هناك . ثم إن القوة الهاضمة طبختها مرةً رابعة وأنضجتها ولطّفتها ، وميَّزت منها اللطيف من الكثيف ، والغليظ من الدقيق ، وصيَّرت الغليظَ والكثيف مادّة لجِرْم القِشر والنوى ، وزادت في أقطارهـا طولاً وعرضـاً وعمقـاً ،

وصيّرت اللطيف والرقيق مـادّة للبّ والحَبّ والثمر وهي الدقيق والشّيْرَجُ والدُّهن والدُّبس والطعم واللون والرائحة .

فإذا تناول الحيوان لبّ النبات ليتغذى بـه ، وحصلت تلك المادة في المَعِدة ، فأولُ فعل هذه القوى فيها فعلُ القوة الهاضمة بالحرارة الغريزية ، ثم تصفيتها في المِعَى ، وجذبُ الكيموس إلى الكبد ، ثم تنضيجُها مرة أخرى ، ثم تمييز الأخلاط بعضِها من بعض ، وهي الدم والبلغم والمِرّتان ، ثم دفعها إلى الأعضاء والأوعية المُعَدّة لقَبولها ، ثم تقسيطُ الدم على الأعضاء والمفاصل بالأوراد ، ثم تغذيتُه لكل عُضوٍ بما يشاكله من تلك المادة ؛ ثم النموُّ والزيادة في أقطارها طولاً وعرضاً وعمقاً ، ثم استخراجُ النُّطفة من جميع أجزاء بدن الفحل عند حركة الجِماع وهي زُبدةُ الدم ، ثم نقلُها إلى رَحِم الأنثى بالآلات المُعَدّة لذلك .

وأما فعل هذه القوى في تركيب جسد الإنسان ، عند حصول النُّطفة في الرَّحِم وتدبيرها لها تسعة أشهر حالاً بعد حال إلى أن تَستتمّ بِنية الجسد ، وتستكمِل هناك صورته ، فقد شرحناها في رسالة أُخرى غير هذه .

فإذا تمت له المدة المقدّرة، التي قدّرها الباري جل ثناؤه ، ونقلته قوةُ النفس الحيوانية الحساسة ، بإذن الله تعالى ، من ذلك المكان إلى فُسحة هذه الدار ، استؤنف به تدبيرٌ آخر إلى تمام أربع سنين . ثم تَرِدُ القوة الناطقة المُعبِّرة لأسماء المحسوسات ، وتستأنف به تدبيراً آخَرَ إلى تمام خمس عشرة سنة . ثم تَرِد القوة العاقلة المُميّزة لمعاني المحسوسات ، وتستأنف به تدبيراً آخر إلى تمام ثلاثين سنة . ثم تَرِدُ القوّة الحِكْميّة المُستبصِرة لمعاني المعقولات ، وتستأنف به تدبيراً آخر إلى تمام أربعين سنة . ثم تَرِدُ القوة المَلَكية المُؤيّدة ، وتستأنف به تدبيراً آخر إلى تمام خمسين سنة . ثم تَرِدُ القوة الناموسية المُمهِّدةُ للمَعاد ، المفارقة للهَيولى ، وتستأنف به تدبيراً آخر إلى آخر العمر . فإن تكن النفسُ قد تمّت واستكمِلت ، قبل مفارقة

الجسد ، نزلت قوةُ المِعراجِ فرَقَتْ بها إلى الملإ الأعلى ، وتستأنف تدبيراً آخر . وإن لم تكن النفس قد تمّت واستُكملت ، قبل مفارقة الجسد ، رُدّتْ إلى أسفل سافلين ، ثم استؤنف بها التدبير من الرأس كما ذكر الله تعالى فقال : « لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين إلاّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون ، فما يكذّبك بعد بالدين ، أليس الله بأحكم الحاكمين » وقال تعالى : « كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين » وقال سبحانه : « ثم لتكونوا شيوخاً ومنكم من يتوفى ومنكم من يُرَدُّ إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً ».

مسألة

أتُرى ماذا يقول ويعتقد من ينظر في مبادىء الأشياء ويتكلم عليها : هل اختُرِعت كلها اختراعاً في غاية التمام والكمال والفضل ، ثم تناقصت ورَذُلَ بعضُها ؛ أم اختُرعت كلُّها في غاية النَّقص ، ثم زادت وكَمُلت وتمت وتفاضل بعضُها على بعض ؛ أم بعضُها هكذا ، وبعضها هكذا ؟

فصل

واعلم يا أخي ، أيدك الله وإيانا بروح منه ، أن الله تعالى لما كان تامّ الوجود ، كامل الفضائل ، عالماً بالكائنات قبل كونها ، قادراً على إيجادها متى شاء ، لم يكن من الحكمة أن يحبس تلك الفضائل في ذاته فلا يجود بها ولا يُفيضها . فإذا بواجب الحكمة أفاض الجود والفضائل منه ، كما يَفيضُ من عين الشمس النورُ والضياء ، ودام ذلك الفيضُ منه متصلاً متواتِراً غيرَ منقطع ، فيسمّى أولُ ذلك الفيض العقلَ الفعّالَ ، وهو جوهر بسيط روحاني ، نورٌ

محضٌ ، في غاية التمام والكمال والفضائل ، وفيه صور جميع الاشياء ، كما تكون في فكر العالِم صُوَرُ المعلومات .

وفاض من العقل الفعّال فيضٌ آخرُ دونه في الرتبة يسمّى العقلَ المُنفعِل ، وهي النفسُ الكلية ، وهي جوهرة روحانية بسيطة قابلةٌ للصور والفضائل من العقل الفعّال على الترتيب والنّظام ، كما يقبل التلميذ من الأُستاذ التعليمَ .

وفاض من النفس أيضاً فيضٌ آخر دونها في الرتبة يسمّى الهَيولى الأُولى ، وهي جوهرة بسيطة روحانية ، قابلةٌ من النفس من الصور والأشكال بالزمان شيئاً بعدَ شيء . فأولُ صورةٍ قَبِلت الهَيُولى الطولُ والعرضُ والعمقُ ، فكانت بذلك جسماً مُطلَقاً وهو الهيولى الثانية . ووقف الفيضُ عند وجود الجسم ولم يفض منه جوهرٌ آخر لنُقْصان رتبته عن الجواهر الروحانية ، وغِلظ جوهره ، وبعده من العلة الأُولى .

ولما دام الفيض من الباري تعالى على العقل ، ومن العقل على النفس ، عطفت النفسُ على الجسم فصورت فيه الصور والأشكال والأصباغ ، لتتمه بالفضائل والمحاسن ، بحسب ما يمكن من قَبُول الجسم وصفاء جوهره . فأول صورة عملت النفسُ في الجسم الشكلُ الكُريُّ الذي هو أفضل الأشكال كلّها ، وحرّكته بالحركة الدّوْريّة التي هي أفضلُ الحركات ، ورتبت بعضَها في جوف بعض من لَدُنِ الفلك المحيط إلى منتهى مركز الأرض ، وهي إحدى عشرة كرة ، فصار الكل عالَماً واحداً ، منتظماً نِظاماً كلياً واحداً ، وصارت الأرضُ أغلظَ الأجسام كلها ، وأشدّها ظُلمة ، لبعدِها من الفلك المحيط ، وصار الفلكُ المحيطُ ألطفَ الأجسام كلها ، وأشدّها روحانية ، وأشفّها نوراً ، لقربه من الهَيُولى الأُولى التي هي جوهر بسيط معقول . وصارت الهَيولى أنقصَ رُتبة من العقل والنفس لبُعدها من الباري جل وعز . وذلك أن الهَيُولى هي جوهرةٌ بسيطة ، روحانية معقولة ، غيرُ علاّمة ولا فعّالة ، بل قابلةٌ آثارَ النفس بالزمان ، منفعلةٌ لها . وأما النفسُ فإنها جوهرة

بسيطة ، روحانية ، علاّمة بالقوة ، فعّالة بالطبع ، قابلةٌ فضائلَ العقل بـلا زمان ، فعّالةٌ في الهَيولى بالتحريك لها بالزمان . وأما العقل فإنه جوهرٌ بسيط روحاني ، أبسطُ من النفس ، وأشرف منها ، قابلٌ لتأييد الباري تعالى ، علاّمٌ بالفعل ، مؤيِّدٌ للنفس بلا زمان . وأما الباري تعالى فهو مبدع الجميع وخالق الكل . فالمُبدِع لا يُشبه المُبدَع ، وكذلك الخالقُ لا يُشبه المخلوق ، والفاعل لا يُشبه المفعولَ بوجه من الوجوه وسبب من الأسباب ، فتبارك اللهُ ربُّ العالمين وأرحمُ الراحمين .

فانتبه ، أيها الأخ ، من نوم الغفلة ورقدة الجهالة قبل أن يُنفَخ في الصُّور ، وتقولَ : يا حسرتي على ما فرّطتُ ! وينادي المنادي من الملإ الأعلى : ألا قد سَعِد فلان وشَقِيَ فلان ! واجتهِدْ أن تكون من السعداء الذين هم من أصحاب اليمين، وتكون في سِدْر مخضود وطلح منضود[1] . واجتهد ألاّ تكون من الأشقياء الذين هم أصحاب الشمال في سَمُوم وحَميم ، وظِلٍّ من يَحموم[2] لا باردٍ ولا كريم . واعتصِمْ بحبل الله المتين ، واجتنبِ الشيطانَ الرجيم ، عسى أن تصير من الذين أنعم اللهُ عليهم ، ولا تصير من المغضوب عليهم ولا الضالين .

وفقك الله ، أيها الأخ البارُّ الرحيم ، وجميعَ إخواننا للسَّداد ، إنه رؤوف بالعباد .

تمت رسالة مبادىء الموجودات العقلية على رأي الفيثاغوريين ،
ويتلوها رسالة المبادىء العقلية على رأي إخوان الصفاء .

---

١ السدر : شجر النبق . مخضود : لا شوك فيه . الطلح : شجر الموز . منضود : مجموع حمله من أسفله إلى أعلاه . والمراد هنا بالسدر والطلح أشجار الجنة التي يكون فيه أصحاب اليمين كما ذكر القرآن .

٢ السموم : ريح حارة من النار تنفذ في المسامّ . الحميم : ماء شديد الحرارة . اليحموم : دخان شديد السواد .

الرسالة الثانية
من النفسانيات العقليات

في المبادىء العقلية على رأي إخوان الصفاء

(وهي الرسالة الثالثة والثلاثون من رسائل إخوان الصفاء)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى ، آللهُ خيرٌ أمّا يشركون ؟

فصل

اعلم يا أخي ، أيدك الله وإيانا بروح منه ، أنه قد بحث الفلاسفة والعلماء والحكماء في مبادىء الموجودات عن أصول الكائنات ، فسنح لقومٍ منهم غيرُ ما سنح للآخرين ، وذلك أنه سنح لقوم من الثنوية الأمورُ المَثنويّة ، ولقوم من النصارى الأمور الثُّلاثيّة ، ولقومٍ من الطبيعيين الأُمورُ الرباعية ، ولقوم آخَرين السُّداسية ، ولقوم من الخُرّميّة الأُمورُ الخماسية ، ولقوم آخَرين الأُمورُ السُّداسيّة ، ولقوم آخرين الأُمور السُّباعيّة ، ولقوم آخرين من الموسيقيين الأُمورُ الثُّمانيّة ، ولقوم آخَرين من الهند الأُمور التُّساعيّة . وأطنبت كل طائفة في ذكر ما سنح لها ، وشُغِفت به وأغفلت ما سوى ذلك. فأما الحكماء الفيثاغوريُّون فأعطوا كل ذي حق حقه ، إذ قالوا : إن الموجودات

بحسب طبيعة العدد كما سنبين طرَفاً منه في هذه الرسالة . وهذا مذهب إخواننا أيّدهم الله ، وبحسب رأيهم في وضع الأشياء مواضِعَها ، وترتيبهم حقّ مراتبها على المجرى الطبيعي والنّظام الإلهي .

فصل

في معنى قول الفيثاغوريين إن الموجودات بحسب طبيعة العدد

اعلم يا أخي ، أيدك الله وإيانا بروح منه ، أن فيثاغورس كان رجلاً حكيماً مُوحّداً من أهل حرّان . وكان شديد العنـاية بالنظر في علم العدد وكيفية نشوئه ، كثيرَ البحث عنه وعن خواصّه ومراتبه ونظامه ، وكان يقول : إن في معرفة العدد ، وكيفيّة نشوئـــه من الواحد الذي قبل الاثنين ، معرفة وَحدانيّةِ الله ، عزّ وجل ؛ وفي معرفة خواصّ الأعداد ، وكيفيّة ترتيبهـا ونظامهـا ، معرفةَ موجودات الباري تعالى ، وعلمَ مخترعاته وكيفية نِظامهـا وترتيبها ؛ وإن علم العدد مركوز في النفس يحتاج إلى أدنى تأمّلٍ ويسيرٍ من التذكار حتى يستبين ويُعرَف بلا دليل .

فصل

في مراتب الموجودات ونظـام المخترعات وأنهـا مطابقـة لمراتب الأعداد المفردات المتتاليات عن الواحد ، وأن الكل محتاج إلى الواحد . وعـلى رأي الإخوان أن الواحد وما بعده محتاج إلى الغير ، وهو العادّ .

فصل

اعلم يا أخي ، أيدك الله وإيانا بروح منه ، أن الله ، جلّ ثناؤه ، لما أبدع الموجودات ، واخترع المخلوقات نظّمها ورتّبها في الوجود كمراتب الأعداد عن الواحد، لتكون كثرتها دالةً على وَحدانيته، وترتيبها ونِظامُها دالَّيْنِ على إتقان حكمته في صنعها ؛ ولتكون أيضاً نسبتُها إلى الذي هو خالقُها ومُبدعها كنسبة الأعداد إلى الواحد الذي قبل الاثنين ، الذي هو أصلها ومبدؤها ومنشؤها كما بيّنا في رسالة الأرثماطيقي : وذلك أن الباري ، جلّ ثناؤه ، لما كان واحداً بالحقيقة من جميع الوجوه والمعاني ، لم يَجُزْ أن يكون المخلوقُ المخترَع واحداً بالحقيقة ، بل وجب أن يكون واحداً مُتكَثّراً مَثنويّاً مُزدوِجاً ، وذلك أن الباري ، جلّ ثناؤه ، أول ما بدأ بفعلٍ واحدٍ مفعولاً واحداً متّحداً بفعله الذي هو عِلة العِلَل ، فلم يكن واحداً بالحقيقة بل فيه مَثنويّة . فلذلك قالوا إنه أوجد واخترع أشياء مَثنوية مُزدوِجة ، وجعلها قوانين الموجودات وأصول الكائنات . فمن ذلك ما قالت الحكماء الفلاسفة : الهَيُولى والصورةُ ، ومنهم من قال: النور والظلمة، ومنهم من قال: الجوهرُ والعرَض ، ومنهم من قال: الخيرُ والشر، ومنهم من قال : الإثبات والنفي، ومنهم من قال : الإيجابُ والسَّلْب، ومنهم من قال : الروحاني والجِسماني، ومنهم من قال : اللوح والقلم ، ومنهم من قال : الفَيض والعقل ، ومنهم من قال : المحبة والغَلَبة ، ومنهم من قال: الحركة والسكون، ومنهم من قال: الوجودُ والعدَم، ومنهم من قال : النفس والروح، ومنهم من قال : الكون والفساد ، ومنهم من قال: الدنيا والآخرة، ومنهم من قال: العِلّة والمعلول، ومنهم من قال : المبدأ والمَعاد ، ومنهم من قال : القبض والبَسْط .

وعلى هذا القياس توجد أشياء كثيرة طبيعية مُزدوِجة أو متضادّة كالمتحرّك والساكن ، والظاهر والباطن، والعالي والسافل ، والخارج والداخل، واللطيف

والكثيف ، والحارّ والبارد ، والرّطب واليابس ، والزائد والناقص ، والجماد والنامي ، والناطق والصامت ، والذكر والأنثى من كل زوجين اثنين .

وهكذا توجد تصاريف أحوال الموجودات من الحيوان والنبات كالحياة والممات، والنوم واليقظة، والمرض والصحة، والألم واللذة، والبؤس والنعمة، والسرور والغمّة ،، والحزن والفرح ، والصلاح والفساد ، والضّر والنفع ، والخير والشر ، والسعادة والمنحسة ، والإدبار والإقبال .

وهكذا توجد أحكام الأمور الوضعيّة والشرعية كالأمر والنهي ، والوعد والوعيد ، والترغيب والترهيب ، والطاعة والمعصية ، والمدح والذم ، والعقاب والثواب، والحلال والحرام، والحدود والأحكام، والصواب والخطإ ، والحسن والقبيح ، والصدق والكذب ، والحق والباطل .

وعلى هذه الأمور توجد الأمور المثنويّة المزدوجة المتضادّة ، وبالجملة من كل زوجين اثنين .

واعلم يا أخي أنه لمّا لم يكن من الحكمة أن تكون الأمور الموجودة كلّها مثنوية مزدوجة، جعل بعضها مثلّثات، وبعضها مربّعات، ومخمسات، ومسدسات ، ومسبّعات ، وما زاد بالغاً ما بلغ كما سنذكر منها طرفاً بعد هذا الفصل إن شاء الله .

واعلم يا أخي أن الموجودات كلّها نوعان لا أقل ولا أكثر : كليّات وجزئيّات حسْبُ. فالكليات تسعُ مراتب محفوظٍ نِظامها ، ثابتة أعيانُها، وهي كتسعة آحاد : أولها الباريء الواحد الفرد جل ثناؤه ، ثم العقلُ ذو القوّتين ، ثم النفسُ ذات الثلاثة الألقاب ، ثم الهَيُولى الأولى ذاتُ الأربع الإضافات ، ثم الطبيعة ذاتُ الخمسة الأسماء ، ثم الجسم ذو السّت الجهات ، ثم الفلكُ ذو السبع المُدَبِّرات ، ثم الأركان ذاتُ الثمانية المِزاجات ، ثم المكوّنات ذاتُ التسعةِ الأنواع .

فصل

واعلم أن الباري ، جل ثناؤه ، هو أول الموجودات كما أن الواحد هو قبل كل الأعداد . وكما أن الواحد هو نشوء الأعداد، كذلك الباري مُوجِدُ الموجودات . وكما أن الاثنين أولُ الأعداد والأعدادُ ترتَّبت عن الواحد ، كذلك العقلُ أول موجود أبدعه الباري ، جل وعلا ، واخترعه . فمنه غريزي ومكتسَبٌ دليلٌ على رتبته في الموجودات. وكما أن الثلاثة ترتبت بعد الاثنين ، كذلك النفسُ ترتبت في الوجود بعد العقل ، وصارت أنواعها ثلاثة : نباتيةٌ وحيوانيةٌ وناطقة، لتكون دالةً على رتبتها في الموجودات له. ثم أوجد الباري ، جل ثناؤه ، الهيولى كما ترتبت الأربعة بعد الثلاثة . ومن أجل هذا قيل إن الهَيُولى أربعة أنواع : هَيولى الصناعة ، وهيولى الطبيعة ، وهيولى الكل ، والهيولى الأولى ، لتكون هذه الأربعةُ الأركان دالةً على مرتبتها في الموجودات. ثم الطبيعة ترتبت بعد الهيولى كما أن الخمسة ترتبت بعد الأربعة . ومن أجل هذا قيل إن الطبائع خمس : إحداها طبيعة الفلك ، وأربعٌ تحت الفلك ، ثم ترتب الجسمُ بعد الطبيعة كما ترتبت الستة بعد الخمسة . ومن أجل هذا قيل إن الجسم له ست جهات . ثم تركَّب الفلك من الجسم وترتب بعده كما ترتبت السبعة بعد الستة . ومن أجل هذا صار أمر الفلك يجري على سبعة كواكب مُدبِّرات ليكون دلالةً على رتبته في الموجودات . ثم ترتبت الأركان في جوف الفلك كما ترتبت الثمانية بعد السبعة . ومن أجل هذا قيل إنها ذات ثمانية مزاجات ، فالأرض باردة يابسة ، والماء بارد رطب ، والهواء حارٌّ رطب ، والنار حارَّة يابسة ، لتكون هذه الثمانية الأوصاف دالةً على رتبتها في الموجودات . ثم تولدت المُولَّدات الثلاثة الأجناس ، ذاتُ التسعة الأنواع ، لتكون دالةً على مرتبتها في الموجودات الكليات وهي آخرها كلها ، كما أن التسعة آخِرُ مرتبة الآحاد ، وهي الكائنات المولَّدات من الأركان

الأَربعة التي هي الأُمهات ، وهي المعادن والنبات والحيوان . والمعادن ثلاثة أنواع : تـُرابية لا تذوب ولا تحترق كالزاجات [١] والكـُحل ، وحجرٌ يذوب ولا يحترق كالذهب والفضة والنُّحاس ومـا شاكلها ، ومـائية تذوب وتحترق كالكبريت والقِير [٢] وغيرهما . والحيوان ثلاثة أنواع : منه مـا يلد ويضع ، ومنه ما يبيض ويحضُن ، ومنه مـا يتكوَّن من العفونات . والنبـات ثلاثة أنواع : منها ما يُغرَس كالأَشجار ، ومنها ما يُزرَع كالحبوب ، ومنها مـا يَنبُت كالحشائش والكلإِ .

فقد تبيَّن بما ذكرنا أن الموجودات الكليات هي هذه التسع المراتب التي ذكرناها وشرحناها. وأما الأُمور الجزئيّات فداخلةٌ في هذه الكليات التي تقدم ذكرها . وأمـا الأُمور الموجودات المـُثلـَّثات فإن من الموجودات الثلاثيّة الهَيُولى والصورة والمركـَّب منهما ، والجواهرُ والأَعراض والمؤلـَّف منهما، والروحاني والجسماني والمجموع منهما ، ومثل المقادير الثلاثة التي هي الخطوط والسطوح والأَجسام ، ومثلُ الأَبعاد الثلاثة التي هي الطول والعرض والعمق، والأزمان الثلاثة الـتي هي الماضي والحاضر والمستقبل ، والحركات الثلاث: من الوسَط، وإلى الوسط، وعلى الوسط ، والأَعداد الثلاثة : التام والزائد والناقص، والعناصر الثلاثة الـتي هي المـُمكِن والواجب والمـُمتنِـع ، وتقاسيم الأَوتاد[٣] والزوائل[٤] وما يلي الوَتد ، والمكوَّنات الثلاثة : المعادن والنبات والحيوان. وبالجملة كل أمرٍ ذي واسطة أو طرَفين .

ولمـا كانت الأَربعة من الأَعداد تاليةً للثلاثـة ، وجب أن تكون أشيـاءٌ رباعيةٌ للمثلثات في الوجود ، فجعل البـاري ، جل ثناؤه ، أشياء مُربَّعـات

١ الزاجات : جمع الزاج ، وهو ملح يصبغ به ، ويقال له الشب اليماني .
٢ القير : الزفت .
٣ الاوتاد : المنازل الرئيسة الاربع من الاثنتي عشرة منزلة من منطقة البروج .
٤ الزوائل : النجوم .

تاليات لها في الوجود . فمنها الأركان الأربعة التي هي النار والهواء والماء والأرض ؛ والطبائعُ الأربع وهي البرودة واليبوسة والرطوبة والحرارة ؛ والأخلاطُ الأربعة : الصفراءُ والسوداء والدم والبلغم ؛ والرياحُ الأربع : الصَّبا والدَّبُور والجِرْبياء والتيمن[1] ؛ والجهاتُ الأربع : المشرق والمغرب والشَّمال والجَنوب ؛ والأوتادُ الأربعة : الطالعُ والغاربُ والرابع والعاشر؛ والأزمان الأربعة : الربيع والصيف والخريف والشتاء ؛ وأيام العمر أربعة فصول : أيام الصّبا ، وأيامُ الشباب ، وأيام الكهولة ، وأيام الشيخوخة ؛ ومراتب الأعداد أربع : آحادٌ وعشرات ومئات وألوف .

وعلى هذا القياس إذا تأمل وجد كثيراً من مربّعات ومخمّسات ومسدّسات ومسبّعات ومثمّنات ومتسّعات ومعشّرات، وما زاد بالغاً ما بلغ من المئات، والألوف ، وعشرات الألوف ، ومئات الألوف ، وألوف الألوف .

وبالجملة ما من عدد من الأعداد إلاّ وقد خلق الباري ، جل ثناؤه ، جنساً من الموجودات مُطابقاً لذلك العدد ، قَلّ أو كَثُر . ونريد أن نبيّن من ذلك طَرفاً ليكون دليلاً على ما قلنا وحقيقةً لما ذكرنا .

أما المسدسات من الموجودات فأولها في طبيعة الأفلاك وأقسام البروج وحالات الكواكب ، وذلك أن البروج الاثني عشر ، ستةٌ منها ذكور ، وستةٌ منها إناث. وستةٌ نهارية ، وستة ليلية. وستة شَمالية ، وستة جَنوبية. وستةٌ مستقيمة الطلوع ، وستة مُعوَجّة الطلوع . وستة من حَيّز الشمس ، وستة من حيّز القمر . وستة تَطلُع بالنهار ، وستة تطلُع بالليل . وستة تُرى أنها فوق الأرض ، وستة لا تُرى فهي تحت الأرض .

وأما الأحوال الست التي للكواكب فهي أن تكون في أوْجاتها ، أو حَضيضها ، أو شَرَفها ، أو هُبوطها ، أو مع رأس جَوزَهْرها[2] أو مع

[1] الصبا : الريح الشرقية تقابلها الدبور . الجربياء : الريح الشمالية تقابلها التيمن .

[2] الجوزهر : من منازل القمر .

الذنب فهي ست أَحوال .

وأمـا الست الأُخرى ، فهي أن يكنّ مُقترِنات ، أو متقـابلاتٍ ، أو مربّعـاتٍ ، أو مثلّثات ، أو مسدّسات ، أو سَواقِطَ لا ينظُر بعضُهـا إلى بعض .

وأما المسدّساتُ من الأُمور التي تحت الفلك فهي الجهات الست التي تُنسَب إلى الأجسام ، والستةُ الأُخرى التي وُضِعت لمقاديرِ الأوزان من الصَّنَجاتِ[1] والأَذرُع والمكاييل والأَرطـال ، كلٌّ ذلك بفعـل الستة إذ كانت هي أول العدد التام .

وأما المسبَّعات من الأمور الموجودة فتركنا ذكرها ، إذ كان قومٌ من أهل العلم قد شُغفوا بها وأطنبوا في ذكرها ، وهي معروفة موجودة في أَيدي أَهل العلم .

وأما المـُثمَّنات فقد ذكرنا طرَفاً منهـا في رسالة الموسيقى لا يُحتـاج إلى إعادته .

وأما المتسَّعات من الأُمور فقــد شُغف بهـا أيضاً قوم من أهل الهند وأكثروا من ذكرها ؛ وأيضاً رجلٌ من أهل العلم يعرف بالكيّال قد شُغِف بها وأكثر من ذكرها في كتب له معروفة موجودة في أيدي أهل العلم . وقد ذكرنا أيضاً طرَفاً منها في بعض رسائلنا وفي فصل من هذه الرسالة مما تقدم ، وقلنـا إن الموجودات الكليات تسعُ مراتب فحسبُ ، لا أقـلَّ ولا أكثرَ ، مُطابقةً التِّسعَ الآحادِ المتفَق بين الأُمم كلّهـا على وضعها لتكون الأُمور الوضعيّةُ مطابقةً مراتِبُها للأُمور الطبيعية التي هي ليست من صُنع البشر بل صُنعةُ خالقٍ حكيم سبحانه وبحمده .

وأما الموجودات المـُخمَّسات فالكواكب الخمسة المتحيِّرة : زُحَـلُ ،

[1] الصنجات : عيار الميزان .

والمشتري ، والمِرّيخ ، والزُّهَرة ، وعُطارِد . وإنما سميت متحيِّرة لأن لها رُجوعاً واستقامة ، وليس للشمس ولا للقمر رجوعٌ ولا استقامة .

والأجسامُ الطبيعية الخمسة التي هي جسم الفلك ، والأربعةُ الأركانِ التي دونه من النار والهواء والأرض والماء .

والخمسة الأجناسِ من الحيوان هي : الإنسان ، والطير ، والسائح ، والمشّاءُ ذو الرجلين ، وذو الأربع ، والذي ينساب على بطنه .

والحواس الخمس الموجودة في الحيوان التامّ الخِلقة وهي السمع ، والبصر ، والشم ، والذوق ، واللمس .

والخمسةُ الأجزاء الموجودةِ في النبات وهي الأصل والعروق والورق والزهر والثمر .

والخمسةُ الأشكال الفاضلةِ المذكورةِ في كتاب أُقليدِسَ وهي الشكل النـاريُّ ذو الأربعة السطوح المُثلّثاتِ ، والشكل الأرضيّ ذو السطوح المربّعات، والشكل المائي ذو الثمانية السطوحِ المُثلّثاتِ، والشكل الهوائي ذو العشرين قاعدةً مثلّثاتٍ، والشكل الفلكي ذو الاثنتي عشرة قاعدةً مخمّساتٍ.

والخمس النِّسَب الفاضلة الموسيقية وهي المِثْلُ والجُزء، والمِثْلُ والأجزاء، والضّعفُ ، والضّعفُ والجزءُ ، والضّعفُ والأجزاء .

والخمسةُ أُولو العَزْم من الرسل : نوح ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، ومحمد ، صلى الله عليه وآله ، وعليهم الصلاة والسلام .

والخمسة الأيام الملَقّبِ أسماؤها بالعدد في جميع اللغات وهي بالعربية : الأحد والاثنين والثُّلاثاء والأربِعاء والخميس . وبالفارسية مثلها يك شَنْبه ، دُو شنبه ، سه شنبه ، جهار شنبه ، بَنْج شنبه .

والخمسة الأيام المشرّفة من جملة أيام السنة الفارسية في آخر أبان ماه ، وأسماؤها بالفارسية : اهند كاه ، اسهد كاه ، اسفيد كاه ، همشتر كاه ، استورست كاه .

ففي كون هذه الموجودات على هذه الأعداد المخصوصة دلالةٌ لمن كان له عقلٌ راجحٌ ، وفهم دقيق ، وفطنة بأن الله تعالى ملائكةً هم صفوتُه من خَلقِه ، وخيرتُه من بريّته ، إليهم تقع الإشارةُ بهذه الموجودات المقدّمات المخصوصات ، خلقهم لحفظ عالمه ، وجعلهم سكانَ سمواته ، ومدبِّري أفلاكه ، ومُسيّري كواكبه ، ومُربّي نبات أرضه ، ورُعاةَ حيوانه . منهم السفراء بينه وبين أنبيائه من بني آدم ، فمنهم يقع الوحي والنُّبوّات ، وهم يَنزِلون بالبركات من السموات ، ويَعرُجون بأعمال بني آدم وبأرواحهم ، وإليهم أشار في أكثر أحكام الشريعة ومفروضات سُنَنِها مثل الصلوات الخمس ، والزّكاة الخمس ، والطهارة الخمس ، وشرائطِ الإيمان الخمس . وبَنى الإسلامَ على خمس . والفضلاءُ من أهل بيت النبوّة خمسة . ومَراقي مِنبَر النبوّات خمس . وفرائضُ الحج خمس . والأيامُ المعدودات بِمِنًى وعَرفات خمسة . والحروفُ المستعملة في أوائل سُوَر القرآن من واحد إلى خمسة .

وكل هذه المُخمّسات إشارات ودَلالات على خمسة من الملائكة ، مع كل واحد منهم خمسة آلاف من الملائكة ، إلى خمسين ألفاً ، إلى خمسِ مائة ألف ، وما زاد بالغاً ما بلغ . وإليهم أشار في عدّة آيات من سُوَر القرآن مثل قوله : « تنزل الملائكة والروح » . « وما نتنزل إلاّ بأمر ربك » وقوله تعالى: « وما مِنّا إلاّ له مقام معلوم وإنا لنحن الصافون وإنا لنحن المسبحون ». وإلى الخمسة الفاضلة من الملائكة أشار النبي ، صلى الله عليه وسلم ، بقوله : « حدثني جبريل، عليه السلام ، عن ميكائيل عن إسرافيل عن اللوح عن القلم». فقد تبين بما ذكرنا معنى قول الحكماء الفيثاغوريين إن الموجودات بحسب طبيعة العدد .

فصل في بيان نَضْدِ العالم وأنه كري الشكل

اعلم يا أخي أن الباري تعالى لما أبدع الموجودات ، واخترع المختَرَعات ، رتّبها ونظّمها وجَمعها كلّها في فلكٍ واحد محيطٍ بها من كل الجهات ، كما ذكر سبحانه وتعالى بقوله : « وكلٌّ في فلك يَسْبحون » .

فصل

اعلم أن الفلك المحيط كُرِيُّ الشكل ، مستديرٌ مجوَّف ، وسائرُ الأفلاك في جوفه مستديراتٌ محيطٌ بعضُها ببعض كحَلْقة البَيض والبصل ، وهي إحدى عشرة أكْرة ، والشمس هي في أوسط الأُكَر : خمسٌ من فَوق أُكرتِها ، وخمس من دونِ أكرتِها ، فالتي فوق أُكرتِها أُكرةُ المِرّيخ ، ثم أكرة المُشتري ، ثم أُكرة زُحَل ، ثم أُكرة الكواكب الثابتة ، ثم أكرة المُحيط ، والتي دون أُكرتها أُكرة الزُّهَرة ، ثم أُكرة عُطارد ، ثم أُكرة القمر ، ثم أكرة الهواء ، ثم أكرة الأرض التي هي المركز ، وهي ليست مجوَّفة ، ولكن متخلخلة لكثرة المغاراتِ والكهوف والأهويّة . وأما الكوكب فإنه أكرياتٌ مُصمَتاتٌ [1] مستديراتٌ كما بُيِّن في المَجِسْطي بقِياس هندسي .

واعلم يا أخي أن الباري ، جلَّ ثناؤه ، جعل شكلَ العالم كُرِيّاً ، لأن هذا الشكل أفضلُ الأشكال الخمسة من المثلثات والمربعات والمخروطات وغيرها ، وهو أيضاً أوسعُها مساحةً ، وأسرعُها حركةً ، وأبعدها من الآفات ، وأقطارُه متساوية ، ومركزُه في وسطه ، ويمكنه أن يدور في مكانه ولا يُماسُّه غيره إلا على نُقطة وأجزاءٍ متقاربة ، ويمكنه أن يتحرّك مستديراً مستقيماً ، ولا يمكن أن توجد هذه الخصالُ والصفات في غيره . وقسم الفلك

---

١ مصمتات : لا أجواف لها .

الباقي إلى البحار ويختلط بمياهها المالحة ، ثم يصير بُخاراً ويرتفع في الهواء ، ويتركب ويتكاثف ويصير غيوماً وسحاباً تسوقها الرياح إلى رؤوس الجبال والبراري والقفار ، فتمطر هناك وتسيل منها أودية وأنهار، وتجري نحو البحار راجعة من الرأس ، ويكون منها البُخار والغيوم مثل ما كان عام أول ، دولابٌ يدور . و « ذلك تقدير العزيز العليم » وهكذا حكم النبات والحيوان والمعادن ، فإنها تتكوّن من هذه الأركان ؛ وتنشأ وتتم وتكمُل، ثم تَفسَد وتبلى وتصير تراباً كما كانت بديّاً . ثم إن الله تعالى يُنشيء منها ما يشاء ، كما بدأ أولاً يُعيده مرة أُخرى دولاباً يدور . وكذلك إذا نظرتَ وتأملتَ واعتبرتَ وجدتَ أكثر ثمار الأشجار وحبوب النبات وبذورها وأوراقها مستديرات الأشكال ، أو كُريّات أو مخروطاتٍ قريبة من الاستدارة . وهكذا الثُقَبُ التي في أبدان الحيوان إلى الاستدارة أقرب ما تكون . وهكذا أشكال أواني الناس ، وأدواتُ الصُنّاع وأرحيتُهم [1] ، ودواليبهم ، وآبارُهم، والكيزانُ ، والغضائر [2] والقدور ، والأقداح ، والقِصاع، والخواتم، والقلانِس ، والعمائم ، والحِلي ، والتيجانُ أقربُ إلى التدوير .

فاعلم ذلك أيها الأخ ، وتفكر فيه ، أعانك الله على المعرفة بحقائق الأشياء بمنّه ولطفه . وصلى الله على النبي الخاتم ، وعلى الوصيّ القائم ، وعلى أولاده وبنيه وعِترتِه آباء الأئمة المهتدين وأمراء المؤمنين الموحّدين ، وسلم تسليماً . وحسبنا الله ونعم الوكيل .

تمت رسالة المبادىء العقلية وتتلوها رسالة في معنى
قول الحكماء : إن العالم إنسان كبير

---

١ الارحية : جمع الرحى .

٢ الغضائر : جمع الغضارة وهي القصعة الكبيرة .

الرسالة الثالثة
من النفسانيات العقليات
في معنى قول الحكماء إن العالم إنسان كبير

(وهي الرسالة الرابعة والثلاثون من رسائل إخوان الصفاء)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وسلامٌ على عِباده الذين اصطفى ، آللهُ خيرٌ أمّا يُشرِكون ؟

فصل

اعلم أيها الأخ البار الرحيم ، أيدك الله وإيانا بروح منه ، أنّا قد فرغنا من ذكر مراتب المبادىء العقلية على رأي إخوان الصفاء ، وبيّنا فيها بكلام مُشبَع أن الوجود متقدم على البقاء ، والبقاءَ متقدمٌ على التام ، والتّمامَ متقدمٌ على الكمال. ونريد الآن أن نذكر في هذه الرسالة معنى قول الحكماء إن العالم إنسان كبير فنقول :

اعلم أن قول الحكماء إن العالم إنسان كبير ، وقولَهم إن الإنسان عالم صغير ، يجب أن نشرح معناه لتقف على حقيقته : معنى ذلك أن العالم له جسم ونفس ، يَعنُون به الفَلكَ المحيط وما يحوي من سائر الموجودات من الجواهر والأعراض ، وأن حُكمَ جسمه بجميع أجزائه البسيطة والمركبة والمولدة

يجري مجرى جسم إنسان واحد أو حيوان واحد بجميع أعضاء بدنه المختلفة الصور المفننة الأشكال ، وأن حُكْمَ نفسه بجميع قواها السارية في أجزاء جسمه ، المحرّكة المدبّرة لأجناس الموجودات وأنواعها وأشخاصها ، كحُكم نفس إنسانٍ واحد أو حيوان واحد السارية في جميع أعضاء بدنه ومفاصل جسده ، المحرّكة المدبّرة لعضوٍ عضوٍ وحاسةٍ حاسةٍ من بدنه . وذلك قول الله تعالى : «ما خلقكم ولا بعثكم إلاّ كنفس واحدة» وإذا قلنا نحن في رسائلنا: الجسمُ الكليّ ، فإنما نعني به جسمَ العالم بأسره . وإذا قلنا النفسُ الكلية ، فإنما نعني بها نفسَ العالم بأسره . وإذا قلنا العقل الكلي ، فإنما نعني به القوةَ الإلهية المؤيّدة للنفس الكلية . وإذا قلنا الطبيعةُ الكلية ، فإنما نعني بها قوةَ النفس الكليةِ ، الساريةَ في جميع الأجسام المحرّكةَ المدبّرةَ لها ، المُظهِرةَ بها ومنها أفعالها وآثارَها . وإذا قلنا الهَيُولى ، فإنما نعني به الجوهَر الذي له طول أو عرض وعمق فهو بها جسم مطلق . وإذا قلنا الأجسامُ البسيطة ، فإنما نعني بها الأفلاكَ والكواكبَ والأركان الأربعة التي هي النار والهواء والماء والأرض. وإذا قلنا الأنفسُ البسيطة ، فإنما نعني بها قُوى النفس الكلية، المحرّكةَ المدبّرةَ لهذه الأجسام، الساريةَ فيها ، وهذه القُوى نسمّيها الملائكة الروحانيين في رسائلنا . وإذا قلنا الأجسامُ المولّدة ، فإنما نعني بها أنواعَ الحيوان والنبات والمعادن . وإذا قلنا الأنفسُ الحيوانية والنباتية والمعدنية ، فإنما نعني بها قُوى النفس البسيطةِ ، المحرّكةَ المدبّرةَ لهذه الأجسام المولّدة ، الساريةَ فيها ، المُظهِرةَ بها ومنها أفعالَها . فإذا قلنا الأجسامُ الجُزئية ، فإنما نعني بها أشخاص الحيوانات والنبات والمعادن وغيرها من المصنوعات على أيدي البشر وغيرهم من الحيوان . وإذا قلنا الأنفسُ الجزئية المتحركة ، فإنما نعني بها قُوى النفوس الحيوانية والنباتية والمعدنية ، الساريةَ في الأجسام الجُزئية ، المُحرّكةَ المُدبّرة لها ، المُظهرة بها ومنها أفعالها واحداً واحداً من الأشخاص الموجودة تحت فلك القمر . فقد بان بهذا أن مجرى حُكم العالم

ومجاري اموره بجميع الأجسام الموجودة فيه مع اختلاف صورها ، وافتنان أَشكالها ، وتغاير أعراضها ، يجري مجرى جسم الإنسان الواحد من الناس أو الحيوان الواحد بجميع أجزائه المختلفة الصور ، ومفاصله المُفتّنة الأشكال ، وهيئته المتغايرة الأعراض، وأن حكم سرَيان قوى نفس العالم في جميع أجزاء جسمه ، كحكم سريان قوى نفس إنسان واحدٍ في جميع أجزاء بدنه ومفاصل جسده .

فصل

واعلم أيها الأخ البار الرحيم ، أيّدك الله وإيانا بروح منه ، أن العالم الذي سميناه إنساناً كبيراً ، في أجزائه ومَجاري أموره أمثِلةٌ وتشبيهاتٌ دالاّتٌ على مجاري أحكام العالم الذي هو إنسان صغير ، فنريد أن نذكر من تلك الأمثلة طرفاً ليكون أقرب لفهم المتعلمين ، ومن يريد أن يفهم حُكم العالم ومجاري أموره في فروع الموجودات التي في العالم من أصولها ، تلك الأصولُ من أُصول أُخَر قبلها إلى أن تنتهي إلى أصل يجمعها كلّها كمثل شجرة واحدة لها عروقٌ وأغصان ، وعليها فروع وقضبان ، وعلى تلك الفروع والقضبان أوراقٌ ، وتحتها نَوْر وثمار لها لون وطَعم ورائحة . ومن وجه آخَرَ مجاري حُكم الموجودات التي في العالم ، فروعُها من أصولها ، وأصولُها من أصولٍ أُخَر إلى أن تنتهي كلّها إلى أصل واحد، كمَجرى حُكمِ جنس الأجناس الذي تحته أنواعٌ تسمى جنس المضاف، وتحتها أنواع تسمى أنواعَ المضاف، وتحت تلك الأنواع أشخاص كثيرة مختلفةُ الصور والأشكال والهيئات والأعراض لا يحصي عددَها إلاّ اللهُ ، عز وجلّ . ومن وجه آخَرَ مَثَلُ هذه الموجودات الجنسية والنوعية والشخصية مع جنس الأجناس كمَثَلِ قبيلة لها شعوب، ولشعوبها بطونٌ، ولبطونها أفخاذٌ ، ولأفخاذها عَمائِر ، ولها عشائر وأقارب . ومن وجهٍ آخَرَ مجرى

حُكم العالم في جميع موجوداته كمجرى حُكم شريعةٍ واحدةٍ فيها مفروضاتٌ كثيرة ، ولتلك المفروضات سُنن مختلفة ، ولتلك السُّنن أحكامٌ متباينة ، ولتلك الأحكام حدودٌ مُتغايرة يجمعها كلَّها دين واحد لأهله مذاهبُ مختلفة ، ولكل أهل مذهبٍ مقالاتٌ مُتغايرة ، وتحت كل قالةٍ أقاويلُ كثيرة مُفنَّنة . ومن وجه آخَرَ حكمُ العالم ومجاري أموره من فنون تركيب أفلاكه ، واختلافِ حركات كواكبه ، واستحـــالةِ بعضِ أركانه إلى بعض ، وتولّد اختلافِ الكائنات المختلفة الأشكال وافتنان أجناس نبـاته وفنونِ جواهر مَعدِنه ، وسريانِ قُـوى النفس الكلية في هذه الأجسام ، وتحريكِها إياها ، وتدبيرِها لها وبها ومنها ، كمَجرى حُكم دُكّانٍ لصانع واحد ، وله فيه أدواتٌ وآلاتٌ مختلفة الصور ، وله بها ومنها أفعالٌ وحركات مُفنّنة ، ومصنوعاتُها مختلفاتُ الصور والأشكال والهيئات ، وقوةُ نفسه ساريةٌ فيها كلّها ، وحكمهُ جارٍ عليها بحسب ما يَليق بواحدٍ واحدٍ منها . ومن وجه آخَرَ مجاري أحكام الموجودات الجسمانية في العالم، مع اختلاف صورها وأعراضها ومنافعها للنفس الكلية ، كمجرى حُكم دارٍ فيها بيوت وخزائن ، وفي تلك الخزائن آلاتٌ وأوانٍ وأثاث لرب الدار ، وله فيها أهل وخَدَم وغلمان ، وحكمُه جارٍ فيها وفيهم جميعاً ، وتدبيرُه لهم منتظِمٌ على أتقن ما تقتضيه السياسة الربّانية والعناية الإلهية . ومن وجهٍ آخر حكمُ العالم الذي هو إنسان كبير ، ومجاري أموره في الأجسام الكليـات والبسائط والمولّـدات والمركّبات الجزئيـات وارتباط بعضِها ببعض ، وإحـاطةِ بعضها ببعضٍ من تركيب أفلاكه ونظـام كواكبه ، ومقاديرِ أجرامها ، وترتيب أركانه واستحالاتهـا ، وقرار معادنه واختلاف جواهرها ، وأنواع نباته وثبات أُصولها ، وحركات حيوانه وتصرّفها لمعايشها ، وسريان قوى النفس الكلية من أولها إلى آخرهـا ، كحكم مدينة حولها أسوارٌ ، وفي داخلها مَحالٌّ وخاناتٌ ونواحٍ ، فيها شوارعُ وطرقاتٌ وأسواقٌ ، في خلالها منازلُ ودورٌ ، فيهـا بيوت وخزائنُ ، فيهـا أموال

وأمتعة وأثاث وآلات وحوائج ، يملِكُها كلها ملِكٌ واحد، له في تلك المدينة جيوش ورعيةٌ وغلمانٌ وحاشية وخَدم وأتباع ، وحكمُه جارٍ في رؤساء جنده وأشراف مدينته وتُنَّاء[1] بلده. وحكمُ أولئك الرؤساء والأشراف والتُّنَّاء جارٍ في أتباعهم ، وحكمُ أتباعهم فيمن دونهم إلى آخره . وإن ذلك الملك يسوس تلك المدينة وأهلها على أحسنها من مُراعاة أمورهم واحداً واحداً ، صغيرَهم وكبيرَهم ، أولهم وآخرهم ، لا يُخِلّ بواحد منها .

فهكذا يجري حكم النفس الكلية في جميع أجزاء العالم من الأفلاك والكواكب والأركان والمولّدات والمركبات والمصنوعات على أيدي البشر كجريان حُكم ذلك الملك على تلك المدينة . وكذلك يسري حكمُها في الأنفس البسيطة والجنسية والنوعية والشخصية في تصريفها لها وتحريكها ، وتدبيرها للموجودات الجسمانية وأجناسها وأنواعها وأشخاصها ، صغيرها وكبيرها ، وأولها وآخرها ، وظاهرها وباطِنها .

ثم اعلم أن مثَلَ النفس الكلية كجنس الأجناس ، والأنفسُ البسيطة كالأنواع لها ، والأنفسُ التي دونها كنوع الأنواع ، والأنفسُ الجزئيةُ كالأشخاص مرتّبةٌ بعضُها تحت بعض كترتيب العدد. فالنفس الكلية كالواحد ، والبسيطةُ كالآحاد ، والجنسية كالعشرات ، والنوعية كالمئات ، والأنفسُ الجزئية الشخصية كالألوف ، وهي التي تختص بتدبير جُزئيات الأجسام ، والأنفسُ النوعيّةُ مؤيّدة لها ، والجنسيةُ مؤيّدة للنوعية ، والنفوس البسيطة مُؤيّدة للجنسية . والنفس الكلية التي هي نفس العالم مُؤيّدة للنفوس البسيطة ، والعقلُ الكليُّ مؤيّد للنفس الكلية ، والباري ، جل ثناؤه ، مؤيّد للعقل الكلي ، فهو مُبدِعُها كلها ومدبّرٌ لها من غير مُمازَجةٍ لها ولا مُباشَرةٍ ، فتبارك الله أحسنُ الخالِقين .

---

[1] التناء : جمع تانئ وهو الدهقان أي زعيم الفلاحين .

ثم اعلم أيها الأخ كما أن في تلك المدينة رجالاً ونساءً ومشايخ وشباناً وصبياناً، فمنهم أخيار وأشرار، وعلماء وجهّال، ومصلحٌ ومفسد، وأقوامٌ مختلفو الطباع والأخلاق والآراء والأعمال والعادات، فهكذا في العالم الكبير نفوسٌ كثيرة، بسيطةٌ كلّية وجزئية، مختلفاتُ الحالات: فمنها نفوسٌ علاّمة خيّرة فاضلة، ومنها نفوس علاّمة شِرّيرة رَذْلة، ومنها جاهلة شِرّيرة، ومنها جاهلة غير شريرة.

فالنفوس العلاّمة الخيّرة الفاضلة هي أجناس الملائكة، وصالحو المؤمنين، والعلماء من الجن والإنس. والعلاّمةُ الشريرةُ مَرَدَةُ الشياطين، وسحَرة الجن، والفراعنةُ والدجّالون من الناس. والجاهلةُ الشريرة أنفسُ السباع الضارية، والجهّال الأشرار من الناس. والجاهلةُ غير الشريرة أنفسُ بعض الحيوانات السليمة كالغنم والحمام وغيرها من الحيوان.

فصل

إن أجساد بعض الحيوانات حُبُوسٌ لنفوسها ومَطاميرُ لها، وبعضها صِراطٌ يجوزون عليه، وبعضُها برزخٌ إلى يوم يُبعثون، وبعضُها أعرافٌ لها هم عليها واقفون. وقد بيّنّا هذه المعاني في رسالة أخرى. وكما أن لأهل تلك المدينة، فيها مساجد وبِيَع وصَلوات[1]، ولأهل العلم والدين فيها مجالسُ وجماعات وأعياد وصلواتٌ، فهكذا يجري في فضاء الأفلاك وسَعَة السموات للملائكة جموعٌ وتسابيح ودَعوات كما ذكر الله تعالى: «يسبّحون الليل والنهار لا يفترون» وقال الله تعالى: «وترى الملائكة حافّين من حول العرش يسبّحون بحمد ربهم» وكما أن في تلك المدينة لأهلها فيها حبوسٌ

١ الصلوات: كنائس اليهود.

ومطامير ، عليها شُرَط وأعوان ، فهكذا في العالم الكبير للنفوس الشريرة جهنم ونيرانٌ وهاويةٌ عليها ملائكة غِلاظٌ شِدادٌ ، وهو عالمُ الكون والفساد .

ثم اعلم أيها الأخ أنه ليس كلُّ نفسٍ وردت إلى عالم الكون والفساد تكون محبوسة فيه ، كما أنه ليس كلُّ من دخل الحبس يكون محبوساً فيه ، بل ربما دخل الحبس من يَقصِد إخراجَ المحبوسين منه ، كما أنه قد يدخل بلاد الروم من يستنقذ أسارى المسلمين ، وإنما وردت النفوس النبويّة إلى عالم الكون والفساد لاستنقاذ هذه النفوس المحبوسة في حبس الطبيعة الغريقة في بحر الهَيُولى ، الأسيرة في الشهوات الجسمانية . وكما أن المحبوس إذا اتبع من دخل الحبس لإخراجه ، خرج ونجا ، كذلك من اتبع الأنبياء في شرائعهم وسُنَنهم ومناهجهم نجا وتخلص من جهنم ، وخرج من عالم الكون والفساد ، ونجا وفاز ولو كان بعد حين ، كما روي عن النبي ، صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : « لا يزال يخرُج من النار قومٌ بعد قوم من أُمتي بعدما دخلوها حتى لا يبقى في النار أحد ممن قال: لا إله إلاّ الله مُخلِصاً في دار الدنيا . » وذلك قول الله تعالى : « وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتماً مقضيّاً ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيّاً » . وكما أن في تلك المدينة لأهلها جناناً وميادين وأنهاراً وبساتين ، وفيها مجالس لنزهة النفوس، وبهجةٌ وسرورٌ ولذةٌ ونعيم ، فهكذا في فضاء الأفلاك وسَعَة السموات لأهلها فيها فسحة وجنانٌ ورَوْحٌ وريحان ونعمة ورضوان ، كما ذُكِر في التوراة والإنجيل والقرآن من وصف الجِنان .

فافهم يا أخي هذه الإرشادات والتنبيهات ، وانتبه من نوم الغفلة ورقدة الجهالة . وقد رُوِي في الخبر أن أرواح الشهداء في حواصِل طيرٍ خُضْرٍ تسرح في الجِنان بالنهار على رؤوس أشجارها وأنهارها وأزهارها وتأوي بالليل إلى قناديل معلقة تحت العرش ، وذلك قول الله تعالى : « ولا تحسبن الذين

قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألاّ خوف عليهم ولا هم يحزنون . يستبشرون بنعمة من الله وفضل وإن الله لا يضيع أجر المحسنين » .

وكما أن لأهل تلك المدينة فيها لأهلها صُنّاعاً وعُمّالاً لهم اجرة وأرزاق ، وفيها باعة وتجار يتعاملون بموازين ومكاييل ، ولهم مظالم وخصومات ، ولهم فيها قضاةٌ وعدول ، ولهم فِقهٌ وأحكام وفصولٌ وقضايا ، وان من سُنّة القضاة البروزَ والجلوسَ لفصل القضايا في كل سبعة أيام يومٌ واحد ، فهكذا يجري حكمُ النفس الكلية في الأنفس الجزئية في كل سبعة آلاف سنة مرةً تُعرَض النفوس الجُزئية لدى النفس الكلية، فتبرُز النفسُ الكلية لفصل القضايا بينها بالحق ، فلا تُظلَم نفسٌ شيئاً وإن كان مِثقال حبةٍ من خردل أتينا بها ، وكفى بنا حاسبين .

وروي عن النبي ، صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : « عمرُ الدنيا سبعة آلاف سنة ، بُعِثتُ في آخر ألف منها » وقال : « لا نبيّ بعدي » وعلى آخر هذه المدة تقوم الساعة . وإلى هذه المدة أشار بقوله تعالى : « وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنّا كنا عن هذا غافلين . » وهذا الخطاب كان يومَ الميثاق ، وهو يومُ العَرْض الأول ، ويوم القيامة هو يوم العرض الثاني الكائنِ بينهما مُدّةُ سبعة أيام ، كلُّ يوم كألف سنة كما قال الله تعالى : « وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدّون . » وإلى هذا اليوم أشار بقوله تعالى : « ويوم نحشر من كل أمة فوجاً ممن يكذب بآياتنا فهم يوزعون . » وقال : « يوم يجمع الله الرسل فيقول : ماذا أُجبتم ؟ قالوا : لا علم لنا إنك أنت علاّم الغيوب » وقال : « كم لبثتم في الأرض عدد سنين ؟ قالوا : لبثنا يوماً أو بعض يوم ، فاسأل العادين » .

وكما أن يوم الحُكم يقعُد القضاة ويُحضِرون العُدولَ ويُدعى الشهود ، ويُحشَرون هم والخصوم ، وتُخرَج الصكوك ، ويُفصَل الحكم ، فهكذا يومُ عَرْض الحبوس يَخرُج الوالي ويُحضِرُ الأعوان ، ويُخرجون المحبوسين ، وتتبيَّن براءةُ قوم منهم فيُطلَقون ، وقومٌ تقام عليهم الحدود ويُخلَّون ، وقومٌ يُخلَّدون في الحبس إلى يوم الفصل الثاني ، وهكذا يومُ عَرْض النفوس ، يخرج الوالي ويُخرجُ الدواوين ، ويُحضِر الكتاب ، ويدعو المُنيبين للعَرْض ، وتُعطى أرزاق المستحقين ، ويُزاد قومٌ وقومٌ يُنقصون ، ويثبُت قوم وقومٌ يسقطون . وهكذا يجري حكم النفس الكلية في الأنفس الجزئية يوم الدين ، لأن الله تعالى جعل أحكام الدنيا ومجاري أمورها أمثلةً ، وأشار بها الى أحوال القيامة ومجاري أمورها ، فاعتبروا يا أولي الأبصار وتيقنوا يا أولي الألباب : « إن ما عندكم ينفد وما عند الله باق . » وإنما ذكر الله الميزان والوزن والعدد يوم الحساب ، لأن النَّصَفة [1] بين الناس لا تتبين لهم إلا بالكيل والوزن والعدد والذَّرْع ، وهذه كلها كالموازين تعرف بها مقادير الأشياء فمن أجل هذا قال: «ونضَعُ الموازين القسطَ ليوم القيامة.» ولم يقل : « ونضع الميزان . » فإن توهم متوهم أن الذي وعده النبي، صلى الله عليه وسلم ، الناسَ يوم القيامة من وزن الأعمال من الخير والشر ، وهذه أعراض لا تثبُت وتتبين ، فكيف يكون وزنها ، فليعلم أن الوزن إنما يُحتاج إليه ليُعلم مقدارُ الشيء ليُقابَل بمثله ، أو يزاد عليه أو ينقص منه، وهذا المعنى شائعٌ في الأعراض ، جارٍ فيها مثلُ العَروض الذي هو ميزان الشعر الذي به يُعرف استواؤه وزائده وناقصه، والشعر عرَضٌ من الأعراض، ومثلُ البنكان والأصطرلاب وأمثالها من الآلات يُعرَف بها مقاديرُ الزمان من الزيادة والنقصان والاستواء ، والزمانُ عَرَضٌ من الأعراض . ومثلُ الذراع الذي يُعرَف

[1] النصفة : العدل .

به الطول والقِصَر والبُعد والقُرب والكِبَر والصِّغَر ، وهي أعراض كلها . ومثلُ المسطرة والبركار يُعرَف بهما الاستواء والاعوجاج وهما عرضان . ومثلُ الصَّنجات والأرطال يُعرَف بهما الثِّقَل والخِفة والزيادة والنقصان ، وهي أعراض كلها . فالذي يُنكِره المتوهم أن يكون لأعمال الخير والشر ميزانٌ يُعرف به مقدار الخير والشر، وله قوم يعرفون كيفية وزن الأعمال وهي صناعتهم ، كما أن لتلك الموازين التي ذكرنا لكل واحدٍ منها قومٌ هي صناعتهم ، وإخواننا الفضلاء هم أهل هذه الصناعة وإليها ندعو إخواننا الباقين .

تمت الرسالة (وبعد هذه زيادة لم توجد في سائر النسخ ولعلها زيدت من رسائل متقدمة) .

فصل

اعلم أيها الأخ البار الرحيم ، أيدك الله وإيانا بروح منه ، أن العالم بأسره كُرَةٌ واحدة تنفصل إحدى عشرة طبقة : تسعٌ منها هي أفلاك كُريَّات مجوَّفات ، مُشِفَّات ، وكواكبها أيضاً كلُّها كُريّات مستديرات مُضيئات ، وحركتها كلُّها دَوْرية . وذلك أن الفلك المُحيط بجميع ما يحوي من الأفلاك والكواكب يدور حول الأرض في كل أربع وعشرين ساعة دورةً واحدة . وكذلك كل كوكب يدور في فلكٍ مختصٍّ به أو دائرٍ حركةً دَوريّةً في زمان معلوم . وكلما دارت دورةً استأنفت ثانيةً ، كما وصفنا في رسالة مَدخَل النجوم ، ورسالة السماء والعالَم ، ورسالة الأدوار والأكوار . ودون فلك القمر كُرَتان إحداهما النار والهواء ، والأُخرى الماء والأرض . وكل واحدة منها كُريّةُ الشَّكل ، محيطاتٌ أواخِرُها ، متصِلةٌ بأوائلها . بيان ذلك أن النار متصِلٌ أولُها بفلك القمر ، وآخِرُها بطبيعة الزمهرير . والزمهريرُ

آخِرُه متصلٌ مُحيطٌ بالماء والأرض كما ذكرنا في رسالة الآثار العُلْويّة . وأما الأرض بجميع جبالها وبحارها فهي كرة واحدة ، فإذا اعتُبِر شكلُ الجبال والأنهار على بسيط الأرض وتُؤمّل ، تبيّن أن كل واحد منها كأنه قِطعةُ قَوسٍ من محيط الدائرة . وأما أشكالُ البحار فكلٌّ واحدٍ كأنه قِشرٌ من سطح جسم كُرِيٍّ .

فصل

وهكذا أحوال الكائنات إذا اعتُبِرت وتُؤمّلت تبيّن أن أكثرَها كُرِيّاتُ الشكل ومستديرات : من ذلك أن أكثر الأشجار وأوراقها وحَبّ النبات ونَوّارِها كُرِيّاتُ الأشكال ومستديرات . وهكذا أكثر مصنوعات البشر كما بيّنّا في رسالة الهندسة . وأما أحوالها فدائرة أيضاً بعَطفِ أوائلها على أواخرها مثلِ دَوَران الزمان من الشتاء إلى الربيع ، ومن الربيع إلى الصيف ، ومن الصيف إلى الخريف ، ومن الخريف إلى الشتاء . وهكذا دورانُ الليل والنهار حول كُرَة الأرض كما بيّنّا في رسالة الهَيُولى .

وكذلك الحكمُ في دوران مياه الأنهار والبحار والغيوم والأمطار ، فإنها كالدولاب الدائر . وذلك أن الغيوم والسحاب تنشأ من البُخار الصاعد من البحار والأنهار ، وتسوقها الرياحُ إلى القفار ورؤوس الجبال ، وتُمطِر هناك ، فتجتمع السيول إلى الأودية والأنهار ، فتذهب راجعة إلى البحار ، ثم تصعد ثانية ، وذلك تقدير العزيز العليم . وكذلك حالُ النبات وتكوينِه من التراب والماء والنار والهواء ، ورجوعِه إليها في دورانها كالدولاب . وذلك أن النبات يبدو وينشأ ويتِمّ ويَكمُل ، حتى إذا بلغ إلى أقصى غاياته ومنتهاها ، رجَع عند البِلى والفساد إلى ما تَكوّن منه . وبيانُ ذلك أن النبات يمتص بعروقه لطائفَ الأركان ، ويصير منه ورق وثمار يتناولها الحيوان بالاغتذاء ، فتستحيل

في بعض أبدانه لحماً ودماً ، وبَعضها ثُفْلاً [1] وسَماداً ، ويَردُ إلى أصول النبات ليتغذى منه ويصير حَبّاً وثماراً ثانياً ، ويتناوله الحيوان أيضاً . فإذا تُؤمّلَ هذا من حالها وُجِدَ كأنه دولاب دائر .

وأما أجسام الحيوان فإنها كلها تعود إلى التراب ، وتبلى وتصير تراباً ، ويكون منها ثانياً النباتُ ، ومن النبات حيوانٌ كما بيّنا قَبلُ ، فإذا تؤمّل ذلك أيضاً وُجِد كأنه دولابٌ يدور . وأما أحوالُ البَشر ، إذا اعتُبرت ، فكلّها دائرة كالدواليب ، وذلك أن الإنسان يبتدىء كَونُه من النُّطفة ، ثم ينشأ وينمو ويتمّ ويبلُغ إلى أن يتولد منه النُّطفةُ ، فينتهي العَوْدُ إلى حيث خرج لقضاء شهوته ونتاج مثلِه . وكذلك بدءُ كونه ناقصُ القوة ضعيف البِنية ، ثم يرتقي ويتزايد إلى أن يبلغ أشُدّه ، ثم يأخذ في الانحطاط والنقص إلى أن يُرَدّ إلى أرذلِ العمر [2] كما كان بديّاً ، وكما ذكر سبحانه فقال : « ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ، ثم إنكم بعد ذلك لميتون » وكما قال سبحانه : « خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمّى ثم نخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم ثم لتكونوا شيوخاً ومنكم من يُتوفى ومنكم من يُرَدّ إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً . »

---

١ الثفل : ما استقر تحت الشيء من كدورة .

٢ ارذل العمر : أسوأه .

فصل

واعلم يا أخي ، أيدك الله وإيانا بروح منه ، أن لهذه الموجودات التي تحت فلك القمر نِظاماً وترتيباً أيضاً في الوجود والبقاء ، وهي مرتّبة بعضُها تحت بعض ، متصلٌ أواخرُها بأوائلها كترتيب العدد وترتيب الأفلاك . بيان ذلك أنه لما كان ترتيب أجزاء العالم محيطاتٍ بعضُها ببعض ، وهي إحدى عشرة كُرةً ، تسعٌ منها في عالم الأفلاك ، أولها من لَدُن فلك المحيط ، وآخرها إلى منتهى فلك القمر ، وأواخرُها متصلةٌ بأوائلها كما بيّنا في رسالة السماء والعالم ، وكانت اثنتان منها دون فلك القمر وهما كرة النار والهواء ، وكرة الماء والأرض ، وهي مقسومة على أربع طبائع ، أولها الأثير وهو نار ملتهبة دون فلك القمر ، ودونه الهواءُ وهو جسم سيّال ، ودونه الزمهرير والبرد المفرط ، ودونه الماء المفرط : الرطوبة ، ودون الأرض المفرطة اليُبْسُ . وهذه الأربعة محفوظةٌ كلياتها في مراكزها ، ومتصلةٌ أواخرُها بأوائلها ، مستحيلةٌ جزئياتها بعضُها إلى بعض كما بينّا في رسالة الكون والفساد .

فأما الكائنات منها التي هي جزئياتها فهي المعادن والنبات والحيوان ، ولها نِظام وترتيب متصلٌ أواخرها بأوائلها كترتيب الأفلاك والأركان . بيان ذلك أن المعادن متصلة أوائلها بالتراب ، وأواخرها بالنبات أيضاً . والنبات متصلٌ آخرُه بالحيوان . والحيوان متصلٌ آخره بالإنسان . والإنسان متصلٌ آخره بالملائكة . والملائكة أيضاً لها مراتب ومقامات متصلةٌ أواخرُها بأوائلها كما بينّا في رسالة الروحانيات . ونريد أن نذكر في هذا الفصل مراتب الكائنات من الأركان الأربعة التي هي المعادن والنبات والحيوان فنقول : إن المعادن إذا تؤمّلَت وُجِدت إما مما يلي الترابَ فهو الجِصُّ ، وإما مما يلي الماء فهو الملح. وذلك أن الجِصّ هو تراب رملي يقبل الأمطار ثم ينعقد ويصير جِصّاً ، وأما الملح فإنه ماء يمتزج بالتربة السَّبْخة ثم ينعقد فيصير ملحاً . وأما

أواخر المعادن مما يلي النبات فهو الكمأة والقُطْر [1] وما شاكل ذلك . وذلك أن هذا الجنس من الكائنات يتكوّن في التراب كالمعدن، ثم ينبت في المواضع النديّة في أيام الربيع من الأمطار ، كما ينبت النبات ، ولكن من أجل أنه ليس له ثمرة ولا ورقة ، ويتكوّن في التراب كما تتكوّن الجواهر المعدنية وعلى أشكالها ، صار يُشبِه المعادن ، ومن جهة أخرى يُشبه النبات .

فأما باقي أنواع الجواهر المعدنية ففيما بين هذين الحدّين ، أعني الجِصّ والكمأة ، وقد بيّنّا في رسالةٍ أنواعَها وأجناسَها وخواصَّها ومنافعها .

وأما النبات ، فأقول إن هذا الجنس من الكائنات متصلٌ أوّلُه بالمعدن كما بيّنّا في رسالة المعادن ، وآخره بالحيوان أيضاً . بيانُ ذلك أن أول مرتبة النباتية وأدونها مما يلي التراب ، وهو خضراء الدِّمَن ، ليس بشيء سوى غُبارٍ يتلبد على الأرض والصخور والأحجار، ثم يُصيبه بَلل الأمطار وندَى الليل ، فتصبح بالغدَوات خضراء كأنها نبت زرعٍ وحشائش ، فإذا أصابها حرّ الشمس نصفَ النهار ، رجَعت ، ثم تصبح من غدٍ مثل ذلك من نداوة الليل وطيب النسيم . ولا تنبُتُ الكمأةُ ولا خضراء الدِّمَن إلاّ في أيام الربيع في البِقاع المتجاورة لتقارب ما بينهما ، لأن هذا معدنه نباتي ، وذلك نباتٌ مَعدِني .

---

[1] القطر : ضرب من الكمأة قتال .

فصل

وأما النخل فهو آخر مرتبة النباتية مما يلي الحيوانية، وذلك أن النخل نبات حيوانيّ ، لأن بعض أفعاله وأحواله مُباين لأحوال النبات ، وإن كان جسمه نباتاً . بيانُ ذلك أن القوة الفاعلة فيه منفصلة من القوة المنفعلة . والدليل على ذلك أن أشخاص الفُحولة منه مباينةٌ لأشخاص الإناث ، وللفحولة من أشخاصه لَقاحٌ في إناثها كما يكون ذلك في الحيوان. وأما سائر النبات فإن القوة الفاعلة منه ليست بمنفصلةٍ من المنفعلة بالشخص بل بالفعل حسَب ما بيَّنّا في رسالة النبات .

وأيضاً ، فإن النخل إذا قُطِعت رؤوسها جفَّت وبطَل نموُّها ونشوؤها وماتت ، وكذلك موجودٌ في الحيوان ، فهذا الاعتبارُ يُبيِّن أن النخل نبات بالجسم ، حيوانٌ بالنفس ؛ إذ كانت أفعاله أفعالَ النفسِ الحيوانية ، وشكلُ جسمه شكلٌ نباتي .

وفي النبات نوع آخر فعلُه أيضاً فعلُ النفس الحيوانية ، ولكن جسمه جسم نباتي وهو الكشوثى [١] وذلك أن هذا النوع من النبات ليس له أصل ثابت في الأرض كما يكون لسائر النبات ، ولا له أوراق كأوراقها ، بل إنما يلتف على الأشجار والزروع والشوك، فيمتص من رطوبتها، ويتغذّى كما يفعل الدود الذي يدِبّ على ورق الأشجار وقضبان النبات ويقرضها فيأكلها ، ويتغذى هذا النوع من النبات، وإن كان جسمه يشبه النبات، فإن فعلَ نفسِه فعل الحيوان. فقد بان مما وصفنا أن آخر رتبة النباتية متصلٌ بأول الحيوانية ، وأما سائر مراتب مرتبة النباتية ففيما بين هذين .

١ الكشوثى : نبت يتعلق بالأغصان ولا عرق له في الأرض .

فصل

واعلم يا أخي بأن أول مرتبة من الحيوانية أيضاً متّصلة ٌ بآخر النبات ، كما أن أول النباتية متصل ٌ بآخِر المعدِنيّة ، وأول المعدِنية متصل بالتراب والماء ، كما بيّنّا قبلُ .

فأدْونُ الحيوان وأنقصُه هو الذي ليس له إلاّ حاسّة واحدة فقط وهو الحلزون ، وهي دودة في جوف أُنبوبة ، تنبُت تلك الأُنبوبة على الصخر الذي في سواحل البحار وشطوط الأنهار ، وتلك الدودة تُخرج نصفَ شخصها من جوف تلك الأُنبوبة ، وتنبسط يمنةً ويسرةً تطلب مادّةً يتغذّى بها جسمها ، فإذا أَحسّت برطوبة ولين انبسطت إليه ، فإن أحسّت بخشونة أو صلابة انقبضت وغاصت في جوف تلك الأُنبوبة حذراً من مؤذٍ لجسمها أو مُفسد لهيكلها . وليس لها سمع ولا بصر ولا شم ولا ذوق إلاّ اللمسُ فحسبُ . وهكذا أكثرُ الديدان التي تتكوّن في الطين في قعور البحار وأعماق الأنهار ليس لها سمع ولا بصر ولا ذوق ولا شم ، لأن الحكمة الإلهية لا تعطي الحيوان عُضواً لا يحتاج إليه في جرّ المنفعة أو دفع المضرّة ، لأنه لو أعطاها ما لا تحتاج إليه كان وبالاً عليها في حفظها لبقائها . فهذا النوع حيوان نباتي ، لأنه ينبُت جسمه كما ينبُت بعض النبات ، ويقوم على ساقه قائماً ، وهو من أجل أنه يحرّكه حركة اختياريّةً ، حيوانيٌّ ، ومن أجل أنه ليست له إلاّ حاسّةٌ واحدة فهو أنقصُ الحيوانات رُتبةً في الحيوانية .

أما تلك الحاسة فقد شارك بها النبات ، وذلك أن النبات له حسُّ اللمس حَسبُ ، والدليل على ذلك إرساله العُروقَ نحو النهر في المواضع النديّة ، وامتناعُه عن إرسالها نحو الصخور واليَبْس . وأيضاً فإنه متى اتفق مَنبتُه في مَضيق مالَ وعَدلَ عنه طالباً للفُسحة والسّعة . فإن كان فوقه سقف يمنعه من الذهاب عُلُواً ، وتُرِك له ثُقبٌ من جانب ، مالَ إلى نحو تلك الناحية

التي إذا طالَ طلعَ من هناك . وهذه الأفعال تدُلّ على أن له حِسّا وتميزاً بمقدار الحاجة . فأما حِسُّ الألم فليس للنبات ، وذلك لأنه لم يلِقْ بالحكمة الإلهية أن تجعل للنبات ألماً ، وهي لم تجعل له حيلةَ الدفـْع ، كما جعلت للحيوان ، وذلك أن الحيوان لما جُعِل له أن يُحِسّ بالألم ، جُعِلت له أيضاً حيلة الدفع إما بالفرار والهرب ، وإما بالتحرُّز ، وإما بالممانعة . فقد بان مما وصفنا كيفية مرتبة الحيوانية مما يلي النبات ، فنريد أن نذكر ونبيّن كيفية مرتبة الحيوانية مما يلي الإنسانية — ليست من وجهٍ واحدٍ ولكن من عِدّة وجوه — وذلك أن رُتبة الإنسانية لما كانت معدِن الفضائل ويَنبوعَ المناقِب لم يستوعبها نوع واحد من الحيوان ، ولكن عـدّة أنواع ، فمنهـا ما قارب رُتبةَ الإنسانية بصورة جسده مثـلُ القرد ، ومنهـا بالأخلاق النفسانية كالفرس في كثير من أخلاقه وكالطـائر الإنسيّ أيضـاً ، ومثلُ الفيل في ذكائه وكالبَبّغـاء والهَزار ونحوهما من الأطيار الكثيرة الأصوات والألحان والنغمات ، ومثلُ ذلك النحل اللطيف الصنـائع ، إلى ما شاكل هذه الأجنـاس . وذلك أنه ما من حيوانٍ يستعمله الناس أو يأنسُ بهم إلاّ وله في نفسه شرفٌ وقربٌ من نفس الانسانية . فأما القرد فلقُرب شكل جسده من شكل جسد الإنسان صارت نفسُه تحاكي أفعال النفس الإنسانية وذلك منه متعارف بيّن .

وأما الفرسُ الكريم فإنه قـد بلـَغ من كرم أخلاقه أن صار مَركباً للملوك ، وذلك أنه ربما بلـَغ من حُسن أدبه أن لا يَبولَ ولا يَروثَ ما دام بحضرة الملك أو حامله . وله أيضـاً مع ذلك ذكاء وإقدامٌ في الهَيجاء وصبرٌ على الطعن والجراح ، كما يكون للرجل الشجـاع ، كما وصف الشاعرُ حيث يقول :

وإذا شكا مُهري إلي جِراحةً ، عند اختلاف الطعن ، قلتُ له : أقدُمَا
لمـا رآني لست أقبلُ عُذرَه ، عضّ الصّميمَ على اللـّجام وحَمحَمَا

وأمـا الفيل فإنه يفهَمُ الخطاب بذَكائه ، ويمتثل الأمرَ والنهيَ كما يمتثل الرجل العاقلُ المأمورُ المَنهيُّ . وهذه الحيوانات في آخر مرتبة الحيوانية ممـا يلي رُتبة الإنسان لما يَظهَرُ منها من الفضائل الإنسانية .

وأما باقي أنواع الحيوانات ففيا بين هاتين المرتبتين . وإذ قد فرغنا من ذكر مراتب الحيوانية ممـا يلي رُتبة الإنسانية ، فينبغي أن نذكر أوّلَ مرتبـة الإنسانية مما يلي الحيوانية .

فصل

اعلم يا أخي أن أدْوَنَ رُتبة الإنسانية مما يلي الحيوانية هي رُتبة الذين لا يعلمون مـن الأمور إلاّ المحسوسات ، ولا يَعرِفون من الخيرات إلاّ الجسمانيات ، ولا يطلبون إلاّ إصلاح الأجساد ، ولا يرغبون إلاّ في الدنيا ، ولا يتمنّون إلاّ الخلود فيها ، مع علمهم أنهم لا سبيل لهم الى ذلـك ! ولا يشتهون من اللذات إلاّ الأكل والشربَ مثل البهائم ، ولا يتنافسون إلاّ في الجماع والنّكاح كالخنازير والحمير ، ولا يحرصون إلاّ في جمع الذخائر مَتاعَ الحياةِ الدنيا ، يجمعون ما لا يحتاجون إليه كالنمل ، ويخبأون ما لا ينتفعون به كالعقـاعِق ، ولا يَعرفون من الزينة إلاّ صِبـاغَ اللبـاس كالطواويس ، يتهارشون على حُطام الدنيـا كالكلاب على الجيَف . . وإن كانت صورتُهم الجسدانية صورة الإنسان ، فإن أفعـالَ نفوسهم أفعـالُ النفوس الحيوانية والنباتية .

فصل

اعلم ايها الأخ ما عُلّمتَ واعمَلْ بما أودِعت ، أعاذك الله ، أيها الأخ البار الرحيم ، من نَزَغات الشيطان الرجيم ، ووفقك الله وإيانا وجميع إخواننا بمنّهِ الكريم .

تمت رسالة معنى قول الحكماء إن العالم إنسان كبير ،

ويليها رسالة العقل والمعقول .

الرسالة الرابعة
من النفسانيات العقليات

في العقل والمعقول

(وهي الرسالة الخامسة والثلاثون من رسائل إخوان الصفاء)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وسلامٌ على عباده الذين اصطفى، آللهُ خير أمّا يُشرِكون ؟

اعلم أيها الأخ ، أيّدك الله وإيانا بروح منه ، أنّا قد فرَغنا من بَيان قول الحكماء إن العالَم إنسان كبير ، وأوردنا المِثالاتِ والإشاراتِ والتشبيهات حسبَ ما جرت عادةُ إخواننا الكِرام . قد سبق منا ذكرُ المبادىء العقلية ، وبيّنا فيه كيفيةَ اختراع الموجودات وتكوين المخلوقات ، وكذلك قد سبق منا في رسالة الحاس والمحسوس بيانُ أن المحسوسات كلّها أعراضٌ جسمانية وهي كلّها في الهَيُولى الجسماني ، وأن إدراكَ النفس لها بطريق الحواس بقوتها الحاسة ، وأن الحواس كلها آلاتٌ جسدانية ، وأن الحس هو تغييرُ مِزاج تلك الحواس عند مُباشَرة المحسوسات لهـا ، وأن الإحساس هو شعورُ القُوى الحسّاسة بتغيير تلك الأمزِجَة . فنريد أن نذكر في هذه الرسالة الملقبة بالعقل والمعقول ونبين أن المعقولات أيضاً كلها صورٌ روحانية تراها النفسُ في ذاتها ، وتعاينها في جوهرها بعد مُشاهدتِها لها في الهَيُولى بطريق الحواسّ ، إذا هي

انتبهت من نوم الغفلة ورقدة الجهالة ، ونظرت بعين البصيرة إلى نور العقل ، واستضاءت بضيائه ، وتجمّلت ببهائه .

واعلم يا أخي أن العقل اسمٌ مُشتَرَكٌ يقال على مَعنَيين : أحدُهما ما تشير به الفلاسفة إلى أنه أولُ موجود اخترعه الباري ، جلّ وعز ، وهو جوهر بسيط روحاني مُحيطٌ بالأشياء كلّها إحاطةً روحانية . والمعنى الآخر ما يشير به جمهور الناس إلى أنه قوةٌ من قُوى النفس الإنسانية التي فعلُها التفكّر والرويّة والنُّطق والتمييز والصنائع وما شاكلها . فنريد أن نتكلم في هذه القوة ، ونبيّن أقسامها ، ونَصِف أفعالها وكيفيّةَ إدراكِها صُورَ المعلومات في ذاتِها وجوهرها .

واعلم يا أخي أنه لما كان العقلُ الذي نحن في ذِكرِه قُوةً من قُوى النفس الإنسانية هي أيضاً قوةٌ من قوى النفسِ الكلية ، والنفسُ الكلية هي فيضٌ فاض من العقل الكلي الذي هو أولُ فيضٍ فاض من الباري ، جلّ وعز ، وهي كلّها تسمى موجوداتٍ أولية ، احتَجنا أن نذكر أولاً أقسامَ الموجودات وما مَعنى الموجود ، ومعنى الوجود والعدَم ، وطُرُقَ العلمِ بها .

واعلم يا أخي أن لفظة الموجود مشتقةٌ من وجَد يجِد وِجداناً فهو واجِدٌ ، وذاك موجود . فالموجودُ يقتضي الواجدَ لأنهما من جنس المضاف . وقد بيّنا معنى جِنس المضاف في رسالة المنطِق .

واعلم أن كل واجدٍ من البشر شيئاً — إذا وجَد شيئاً — فإن وِجدانَه له لا يخلو من إحدى الطُّرُق الثلاث : إما بإحدى القُوى الحساسة ، كما بيّنا في رسالة الحاس؛ وإمّا بإحدى القوى العقلية التي هي الفِكرة والرويّة والتمييز والفهم والوهم الصادق والذّهن الصافي ؛ وإما بطريق البُرهان الضّروري كما بيّنا في رسالة البراهين التي هي طريق الاستدلال ، وليس إلى الإنسان طريقٌ إلى المعلومات غير هذه .

وأما معنى العدم فهو ما يُقابل كلّ نوع من هذه الطرق الثلاث : فيقال

معدومٌ من دَرَك الحس له ، ومعدومٌ من تصوّر العقل ، ومعدومٌ من إقامة البرهان عليه . وأما علم الباري ، جل ثناؤه ، بالأشياء فليس من هذه الطرق الثلاث ، بل أشرفُ وأعلى من هذه كلها ، وذلك أنه لا يقال للباري سبحانه إنه واجد للأشياء ، بل يقال إنه موجدٌ ومُحدث ومخترع ومبدع ومبقٍ ومتمّمٌ ومكمّلٌ .

واعلم أيها الأخ أنّا علم الإنسان بالباري، عز وجل ، ووجدانُه له بإحدى طريقتين : إحداهما عُمومٌ والأخرى خُصوص . فالعموم هي المعرفة الغريزية التي في طباع الخليقة أجمع بهويّته ؛ وذلك أن الناس كلهم : العالِمَ والجاهِلَ ، والخيّرَ والشريرَ ، والمؤمنَ والكافرَ ، كلّهم يفزَعون عند الشدائد إلى الله، ويستغيثون به ، ويتضرعون إليه ، حتى البهائمُ أيضاً في سِني الجَدْب ترفعُ رؤوسها إلى السماء تطلُب الغيث ، فهذا العلم منهم يدُلّ على معرفتهم بهويّته .

وأما معرفة الخُصوص فهي بالوصف له والتجريد والتنزيه والتوحيد، وهي التي بطُرُق البُرهان، ويختص بها فضلاء الناس وهم الأنبياء والأولياء والحكماء والأخيار والأبرار ، كما وصفهم فقال في مُحكم تنزيله : « سبحان الله عما يصفون إلاّ عباد الله المخلصين » وهي معرفةٌ ضَرُورية .

واعلم يا أخي بأن الموجودات كلّها التي أوجدها الباري، سبحانه وتعالى ، بأيّ طريق كان وِجدانُها ليست تخلو من أن تكون جواهِرَ أو أعراضاً أو مجموعاً منهما ، هَيُولى أو صورةٌ أو مركّباً منهما ، عِلَلاً أو معلولات أو مُشاراً إليهما ، جسمانيّاً أو روحانيّاً أو مقروناً بينهما ، بَسيطاً أو مركّباً أو جملتَهما . ولما كانت هذه الأقسامُ محتويةٌ على الموجودات كلّها احتَجنا أن نبيّن نفسَ معاني هذه الألفاظ الغامضة التي تاه فيها أكثرُ العلماء عن الوقوف على حقائق معانيها .

واعلم يا أخي بأن الموجودات كلّها صُورٌ وأعيانٌ غيريّاتٌ أفاضها

الباري ، عز وجل ، على العقل الذي هو أول موجود جاد به الباري وأوجده، وهو جوهر بسيط روحاني فيه جميعُ صور الموجودات غير متراكمةٍ ولا متزاحمة ، كما يكون في نفس الصانع صورُ المصنوعات قبل إخراجها ووَضعِها في الهَيُولى ، وهو فائض تلك الصور على النفس الكلية دفعةً واحدةً بلا زمان كفيض الشمس نورَها على الهواء . وأن النفس قابلةٌ لتلك الصورة تارةً ، وفائضةٌ على الهَيُولى تارة ، كما يقبل القمرُ نور الشمس تارة ، ويفيض على الهواء تارة . وأن الهيولى قابلةٌ لتلك الصور من النفس الكلية شيئاً بعد شيء على التدريج بالزمان ، كما يقبل الهواءُ نور القمر في وقتٍ دون وقت ، ومن مُسامَتةٍ دون مُسامَتة ، كما يقبل التلميذ من الأُستاذ شيئاً بعد شيء .

واعلم يا أخي أن صور الموجودات كلّها يتلو بعضُها بعضاً في الحدوث والبقاء عن العلة الأولى التي هي الباري ، عز وجل ، كما يتلو العَددُ أزواجُه وأفرادُه بعضُها بعضاً في الحدوث والنّظام عن الواحد الذي قبل الاثنين . ثم اعلم أن هذه الألفاظ كلّها ألقاب وسِماتٌ يشار بها إلى الصور ليُميَّز بين إضافات بعضِها إلى بعض ، كما يُميَّز بين الأعداد بالألفاظ ، وذلك أن الصورة الواحدة تارة تسمى هَيُولى ، وتارة تسمّى جوهرية ، وتارة تسمّى عرَضية ، وتارةً بسيطة ، وتارة مركّبة ، وتارة روحانية ، وتارة جسمانية ، وتارة علةً ، وتارة معلولةً ، وما شاكل هذه الألفاظَ ، كما يسمّى العدد الواحد تارة نِصفاً ، وتارة ضِعفاً ، وتارة ثُلثاً ، وتارة رُبعاً ، وتارةً غيرَ ذلك لإضافة بعضها إلى بعض . مثالُ ذلك أيضاً أن القميص هو أحد الموجودات الجسمانية الصّناعية المُدرَكَة بالحِسّ ، وماهيّتُه أنه صورةٌ في الثوب ، والثوب هَيُولى لها. وماهيّةُ الثوب أيضاً أنها صُورةٌ في الغَزْل والغَزْلُ هَيُولى لها. والغَزْلُ أيضاً ماهيّتُه أنه صورةٌ في القطن والقُطنُ هَيُولى لها . والقُطن أيضاً ماهيّتُه أنه صورة في النبات والنباتُ هَيُولى لها . والنباتُ أيضاً ماهيّته أنه صورةٌ في الأجسام الطبيعية التي هي النار والهواء والماء والأرض ، وكلّ

واحد منها أيضاً صورةٌ في الجسم المُطلَق كما بيّنا في رسالة الكون والفساد . والجسمُ المطلق أيضاً صورةٌ في الهيُولى الأُولى كما بيّنا في رسالة الهيولى . والهيولى الأُولى هي صورةٌ روحانية فاضت من النفس الكلية . والنفسُ الكلية أيضاً هي صورة روحانية فاضت من العقل الكلي الذي هو أول موجود أوجده الباري ، عز وجل ، كما بيّنا في رسالة المبادىء العقلية . فقد بان لك بهذا المِثال أن الموجودات كلّها صورٌ متعلقة حدوثها وبقاؤها يتلو بعضُها بعضاً ، إلى أن تنتهي إلى المُبدع الأول الذي هو الباري ، عز وجل ، كتعلق حدوثِ العددِ أزواجِه وأفراده عن الواحدِ الذي قبل الاثنين . واعلم يا أخي أن هذه الصور ، كلٌّ واحدةٍ منها مُقوّمةٌ لشيء ، إما جوهريةٌ له متمّمةٌ لشيء آخر ، أو عرَضية له . والفرق بينهما أن الصورة الجوهرية المُقوّمة للشيء هي التي إذا انخلعت عن الهيولى بطَلَ وِجدانُ الشيء . والصورةُ العرَضية المتممة هي التي إذا انخلعت عن الهَيُولى لم يَبطُل وجدانُ الهيولى . مثالُ ذلك أن الخياطة هي صورة مُقوّمة لذاتِ القميص ، جوهريةٌ له ، لأنها بها يكون الثوبُ قميصاً ، ومُتمّمةٌ للثوب عرَضيةٌ فيه . بيانُ ذلك أنه إذا انخلعت الخياطةُ عن الثوب بطَلَ وِجدانُ القميص ، ولم يَبطُل وجدان الثوب . وهكذا النّساجةُ صورةٌ في الثوب جوهرية ومُقوّمة له ، وعرَضيةٌ في الغَزْل ومتمّمة له. فإذا انسلّت صورةُ الثوب التي هي النّساجة بطل وجدانُ الثوب ولم يبطُلْ وِجدان الغَزْل . وهكذا الفَتْلُ في الغزل صورةٌ جوهرية مُقوّمةٌ لذات الغَزْل ، وعرَضيةٌ متمّمة لذات القُطن. فإذا نُكِثَ [1] الغزل من إبرامه ، بطل وجدان القطن . وهكذا صورة الزِّئبر [2] جوهرية في القطن ، مقوّمة له ، عرضيةٌ في النبات ، متممة له ؛ فإذا بطل الزئبر بطل وجدانُ القطن ، ولم يبطل وجدانُ الجسم النباتي . وهكذا إذا

١ نكث الغزل : نقض لاخلاقه ليغزل ثانية .
٢ الزئبر : المراد به الانتفاش والاجتماع .

بطلت صورة النبات ، صار تراباً ، أو ناراً ، أو ماء ، أو هواء . فإذا أطفئت النار صارت هواء ، والهواء أحد أجسام الطبيعة .

وعلى هذا القياس إذا انخلعت صورةٌ من صوَر الأركان الأربعة ، بطل أن يكون موجوداً ذلك الرُّكن ، ولكن لم يبطل أن يكون جسماً ، وإذا انخلعت الصورة الجسمية من الهيولى الأولى ، لم تبطل الهيولى أن تكون جوهراً بسيطاً معقولاً . وإن بطلت الهيولى لم تَبطُل النفس . وإن بطَلت النّفسُ لم يبطُل العقل . وإن بطَل العقلُ لم يبطُل المُبدِعُ الأول الذي هو الباري ، جلّ وعز .

ومثال هذا من العدد أن العشرة هي صورة واحدة ترتبت فوق التسعة ؛ فإذا أُسقط الواحد منها بطلت صورة العشرة ، ولم تبطل صورة التسعة ، وإن أُسقِط من التسعة واحد ، بطلت صورة التسعة، ولم تبطل صورة الثمانية. وعلى هذا القياس تنحلُّ صورة العدد واحداً واحداً، إلى أن ينتهي إلى الاثنين الذي هو أولِ العدد . وإذا أُخذ منها واحد ، بطلت صورة الاثنين أيضاً ، وأما الواحد الذي هو قبل الاثنين فلا يمكن أن يؤخذ منه شيء ، لأن صورته من ذاته ، وهو أصل العدد ومَنشَؤه ، وإليه يرجع العدد عند التحليل ، كما منه نشأ عند التركيب .

فقد بان بهذا المثال أن الموجودات كلها صورٌ غيريّاتٌ ، وهي أعيانُ الأشياء ، وأنها مُتتالياتٌ في الحدوث والبقاء ، كتَتالي العدد من الواحد ، وأنها كلها من الله مبدأها ، وإليه مَرجِعُها ، كما ذكر في كتابه على لسان نبيه فقال : « إلى الله مرجعكم جميعاً . » وقال : « وإلى الله ترجع الأمور . » وقال الله تعالى : « كما بدأنا أول خلق نعيده » كما أن العدد إلى الواحد ينحلُّ، كما أن منه تركّب في الأصل ، حسب ما بينّا ، كذلك الموجوداتُ كلها مرجِعُها ومصيرُها إلى الله الواحد الأحد .

فصل

فاعلم يا أخي أن الموجودات كلها نوعان : جسمانيٌّ وروحاني . فالجسمانيُّ ما يُدرك بالحواس ، والروحاني ما يُدرك بالعقل ويُتصوَّر بالفكر .

فأما الجسماني فهو على ثلاثة أنواع: منها الأجرامُ الفلكية، ومنها الأركان الطبيعية ، ومنها المولَّدات الكائنة .

والروحاني أيضاً على ثلاثة أنواع : منها الهيولى الأُولى الذي هو جوهر بسيط ، مُنفعِل ، معقول، قابل لكل صورة . والثاني النفس التي هي جوهرة بسيطة ، فعَّالة ، علاَّمة . والثالث العقل الذي هو جوهر بسيط ، مدرِك حقائق الأشياء .

وأما الباري ، جلّ وعز ، فليس يوصفُ لا بالجسماني ولا الروحاني ، بل هو علّتها كلها ، كما أن الواحد لا يوصفُ بالزوجية ولا الفردية ، بل هو علة الأزواج والأفراد من الأعداد جميعاً .

واعلم أن الموجودات كلها عِللٌ ومعلولات . فنبدأ أولاً بذكر العِلل الجسمانية ، لأنها أقرب لفهم المتعلمين ، وأسهل على المبتدئين بالنظر في العِلل والمعلولات الروحانية .

واعلم أن الموجودات الجسمانية ، لكلّ واحدٍ منها أربع عِلَل : عِلّة فاعلة ، وعلة صُورِيّة ، وعلة تَماميّة ، وعلة هَيُولانية . مثالُ ذلك السريرُ ، فإنه أحد الموجودات الجسمانية ، له أربع عِلَل ؛ فعِلَّته الفاعلةُ النجّارُ ، والهَيُولانيّةُ الخشبُ ، والصُّورِيّةُ التربيع ، والتماميّة القُعودُ عليه . وهكذا السكّين ، فإن علّتها الفاعلية الحدّادُ ، والهَيُولانيّةَ الحديدُ ، والصُّورِيّةَ الشكلُ الذي هو عليه ، والتماميّةَ ليُقطعَ به اللحمُ أو الحبلُ أو شيءٌ ما آخَرُ . وعلى هذا القياس ، إذا اعتُبِر ، وُجِد لكل شخص من الأجسام الموجودة هذه العِللُ الأربع .

وأما الجسم المُطلَق فعِلّته الهَيُولانيّة هو الجوهر البسيط الذي قَبِل الطولَ والعرض والعُمقَ فصار بها جسماً . وعِلّته الفاعِليّة هو الباري ، عزّ وجلّ . وعلته الصُّوريّة العقلُ ، لأَن الطول والعرض والعُمق إنما هي صورة عقلية . وعلته التّماميّة هي النفس ، لأَن الهَيُولى من أَجلها خُلِق ، وموضوعٌ لها لكيما تفعل فيه . ومنه ما يعمل ويصنع ليتِمّ الهَيُولى ويُكمّل النفس الذي هو الغرضُ الأَقصى في رِباط النفس مع الهَيُولى كما بيّنا في رسالة المبادىء .

وأما الهَيُولى الأُولى الذي هو جوهرٌ بسيط روحاني فله ثلاث عِلَل : الفاعلية وهو الباري ، عز وجل ، والصُّوريّة وهو العقل ، والتّماميّة وهي النفس .

وأَما النفس فلها علتان ، وهما الباري ، عز وجلّ ، والعقل . فالباري عِلّتها الفاعلة المُختَرِعة لها ، والصُّوريّة هي العقل الذي يُفيض عليها ما يَقبَل من الباري ، عزّ وجلّ ، من الفضائل والخير والفَيض .

وأما العقل فله عِلّة واحدة ، فاعِلةٌ ، الذي هو الباري ، عزّ وجلّ ، الذي أَفاض عليه الوجود ، والتّمام ، والبقاء ، والكمال دُفعةً واحدةً بلا زمان .

أَردنا بالعِلّة الفاعلة أنه أبدعه بلا واسطة ، فهذا العقل هو الذي أشار إليه بقوله في كتابه على لسان نبيّه محمد ، صلى الله عليه وسلم : « وما أَمرُنا إلاّ واحدةٌ كلَمحٍ بالبصَر ، أَو هو أَقرَبُ . » وإليه أشار بقوله سبحانه : « ويسأَلونك عن الروح ، قل : الروح من أَمر ربي وما أُوتيتم من العلم إلاّ قليلًا . » وقال : « أَلا له الخلق والأَمر ، تبارك الله رب العالمين » فالخلق هو الأُمور الجِسمانية ، والأَمرُ هو الجواهر الروحانيّة .

واعلم يا أَخي أن أَكثر أَهل العلم ظنّوا أَن الموجودات ليست إلاّ نوعان حَسْبُ : أَحدُهما الباري ، عزّ وجل ، والآخَرُ الجسم وما يَحلّه من الأَعراض ، وليست لهم خِبرةٌ بالجواهر الرّوحانيّة والصّوَرِ المجرّدة . ومن

أجل هذا نسبوا كلَّ ما يظهر من الأفعال والصنائع والعلوم والحِكَم على أيدي البشر باختياراتهم، وما يظهر من الحيواناتِ من الأفعال الطبيعية، إلى الجسم المؤلَّف من اللحم والدم على بنيةٍ مخصوصة؛ وإلى أعراضٍ حية فيها بزعمهم مثلِ الحياة والقُدرة والعلم وما شاكلها، ولا يدرون أن مع الجسد جوهراً آخرَ هو المُحرِّكُ له والمُظهِرُ به ومنه أفعاله.

فأما الذي يظهر في الأجسام من الأفعال الطبيعية التي لا يمكنهم أن ينسبوها إلى الحيوان، مثلِ إحراق النار لأجسام الحيوان والنبات، ومثلِ ما يستحيل في أجوافِها من الغِذاء إلى الرَّوْثِ والسِّرقِين[1]، ومثلِ ما يظهر في طِباعها من السرور وما شاكله من الأفعال الطبيعية، فَنسبوها كلَّها إلى الباري، جلَّ ثناؤه، ومنهم من نزَّه الباري، سبحانه، عن ذلك، ونسبها إلى البَخْتِ والاتِّفاق. ومنهم من نسبها إلى الطبيعة، ولا يدري ما الطبيعة. ومنهم من يُعلِّلها بعِلَل مُستَمِرَّةٍ. ووقع بينهم في ذلك من التنازع والتناقض ما يطول شرحه.

وأما الحُكماء والنُّجباء الراسخون في العلم فإنهم شاهدوا بصفاء نفوسهم، ونور عقولهم، جواهرَ أُخَرَ غيرَ جسمانية، علاَّمةً بقوتها، ساريةً في الأجسام بلطافتها، فعَّالةً فيها بِرَويّتها، هي جُندُ اللهِ ولُبُّ الخليقة، فنسبوا هذه الأفعالَ الطبيعية إليها، ونزَّهوا الباري، سبحانه، عنها، إلاَّ ما يليق به من الحكمة والسياسة والتدبير.

واعلم يا أخي أن الحكماء الذين عَرفوا الجواهِرَ الرُّوحانيّة إنما وصلوا إلى معرفتها بعد اعتبار حال الجسم والأعراضِ التي تحلّه. وذلك أن الجسم من حيث هو جسم ليس بفاعلٍ ولا مُتحرِّكٍ بل هَيُولى مُنفعِلٌ، قابلٌ للصورة والأعراض الحالَّة فيه، وكذلك الأعراضُ التي تَحُلُّ الجسم لا فِعل

---

[1] الروث: سرقين الفرس وكل ذي حافر. السرقين: الزبل.

لهـا ، لأنهـا أنقصُ حالاً من الجسم ، إذ كان لا وجود لهـا إلاّ بتوسط الجسم .

وأما الحيـاة والقدرة والعلم وما شاكلها التي زعموا أنهـا أعراضٌ حالّة في الجسم ، وبها يفعلُ هذه الأفعال ــ وهاهُنا وقعَ اللُّبْسُ ــ فإنها ليست هي أعراضاً جسمانية ، بل هي أعراض روحانية توجد في بعض الأجسام بمُقارَنةِ النفس إياها لها، وتُفقَد عند مفارقتها إياها. فصح بهذا الاعتبار أن مع الأجسام الحيوانية جواهرِ أُخرى غير جسمانية ، هي الفعّالة في الأجسام هذه الأمارات التي تظهر في بعضهـا دون بعض ، وسمّوها نفوساً . ولمـا رأوا أن النفوس تتفاضل بعضُها على بعض بأمر آخَر مُؤيّد لها ، ومُفيض عليها الخير والفضائل، علموا أنه جوهر أشرفُ وأفضلُ من جوهر النفس، وسمّوه العقل . ولما كان العقل هو المُقِرّ عـلى نفسه بأنه مَربوبٌ ، وله مدبّر خالق ، صانعٌ حكيمٌ نزّهه من جميع صِفاتِ النّقصِ ، فحينئذٍ صح لهم ، وبهذه الاعتبارات ، مـا قالوه ووصفوه من مراتب هذه الموجودات الروحـانية التي تقدّم وصفُهـا وذِكرُهـا ، وهي الهَيُولى الأُولى ، والنفس ، والعقل ، والبـاري ، جلّ ثناؤه .

واعلم يا أخي أنه قد بان بما ذكرنا أن النفس الكليّة هي جوهرةٌ روحانية فاضت من العقل الذي أشارت إليه الفلاسفة ، وأنها كالهَيُولى الموضوع له ، لما يُفيض عليهـا من الصور والفضائـل والخيرات لتَكمَل هي ، وأنهـا كالصانع المصوِّر للجسم بما تنقُش فيه من الصور والأشكال لتُتمّه بذلك .

واعـلم أن النفس الكليّة هي صورة فيهـا جميعُ الصُّوَر ، كما أن الجسم الكلّي شكلٌ فيه جميـع الأشكال، غير أن الصُّوَر في ذات النفس لا تتراكم ولا تتزاحم ، لأنها جوهرةٌ روحانية لطيفة ، حيّةٌ ، علاّمةٌ ، فعّالة .

وأما الجسم فإن الأشكال تتراكم فيه وتتزاحم من أجل أنه جوهر غليظ، كثيف ، ميّتٌ ، جاهلٌ ، منفعل ، كما بيّنّا في رسالة المبادىء .

فصل

واعلم أن النفس هي في ذاتها جوهرةٌ ، ولكن كونها مع الجسم بالعَرَض لغرضٍ ما ، والغرَضُ هو أمر سابق إلى وهم الفاعل ، فإذا بلغ الفاعلُ إليه قطَعَ الفعل .

فصل

وإذ قد فرغنا من ذكر النفس الكليّة والعقلِ الكلّي ، فنريد أن نذكُر النفس الإنسانية ، إذ هي قوّةٌ من قُوى النفس الكليّة . ونذكر أيضاً العقل الإنساني، إذ هو قوة من قُوى النفس الكليّة، ونصِف أفعال النفس وقُواها، إذ كانت النفس جوهرةً روحانية .

ولما كانت الجواهر الروحانية لا تُدرَكُ بالحواسّ ، ولا تُعرَف إلاّ بما يصدُر عنها من الأفعال والأعمال ، بحسَب القُوى ، احتَجنا إلى أن نذكر كميّة قُواها ، ونصِفَ فنون أفعالها ، وعجائبَ صنائِعها ، وغرائِبَ علومها، وظرائف أخلاقها ، واختلاف آرائها .

واعلم يا أخي أن للنفس الإنسانية قُوًى كثيرة لا يحصي عددها إلاّ اللهُ ، جلّ ثناؤه ، وأن لها بكل قوّةٍ ، في عضو من أعضاء الجسد ، فِعلاً خلافَ عُضوٍ آخر . وقد بيّنا طرفاً من ذلك في رسالة تركيب الجسد ، وطرفاً في رسالة الحاسّ والمحسوس ، وطرفاً في رسالة الإنسان عالَمٌ صغير . ووصفنا فيها أن نسبة القُوى الحسّاسة إلى النفس فيما يأتون به إليها من أخبار محسوساتها، كنِسبة أصحاب الأخبار للملِك قد ولّى كلّ واحد منهم ناحيةً من مملكته ليأتوه بالأخبار من تلك النواحي . وذكرنا فيها أيضاً أن لها خمسَ قُوى أخرى نِسبتُهنّ إليها كنِسبة النُّدَماء إلى الملك ، وهي القوّة المفكّرة ،

والقوّة المتخيّلة، والقوّة الحافظة ، والقوّة الناطقة ، والقوة الصانعة .

واعلم أن القوة المفكرة التي مسكنها وسط الدماغ ، من بين هذه القوى ، كالملِك ، وسائرها لها كالجنود والأعوان والخدم والرعية ، يتصرفون بأمرها ونهيها فيما يفعلون في أعضاء الجسد من الحركات ، وما يُظهرون من الصنائع والأعمال ؛ وأن موضعها من بين مواضع سائر القوى في أشرف عُضوٍ من الجسد وأخصّ مكانٍ منه ، كما أن دار الملِك في أشرف مدينة من بلدان مملكته ، وفي أجَلّ موضعٍ من المدينة ، وفي أشرف بقعةٍ منها .

واعلم يا أخي أن أفعال هذه القوى الخمس أشرفُ وأكرم من أفعال سائر القوى . وقد بينّا في رسالة الحاسّ والمحسوس أن القوة المتخيّلة التي مسكنها مقدّمُ الدماغ ، نِسبتُها إلى القوّة المفكرة بما تجمع إليها من أخبار المحسوسات ، كنِسبة صاحب الخريطة إلى الملِك ؛ ونسبة القوة الحافظة التي مسكنُها مؤخَّر الدماغ ، ونسبتها إلى المفكرة، كنسبة الخازن الحافظ ودائع الملك؛ ونِسبة القوة الناطقة التي مجراها على اللسان إلى المفكرة كنسبة الحاجب والترجمان إلى الملك ؛ ونسبة القوة الصانعة التي مجراها اليدان والأصابع إلى المفكرة كنسبة الوزير المُعين له في تدبير مملكته ، والمساعد له في سياسته لرعيته .

فصل

فيما تتولى القوة المفكرة بنفسها من الأفعال

واعلم يا أخي أنه إذا أوصلت القوة المتخيلة رسوم المحسوسات إلى القوة المفكرة ، بعد تناولها من القوى الحساسة ، وغابت المحسوسات عن مشاهدة الحواسّ لها ، بقيت تلك الرسومُ في فكر النفس مصوَّرة صورة روحانية ، فيكون جوهر النفس لتلك الرسوم المصورة فيها كالهيولى ، وهي فيها كالصورة .

والمِثالُ في ذلك أن الإنسان إذا دخل مدينة من البلدان ، وطاف في أسواقها ومحالّها ، وعاين طرقاتها ، وشاهد أهلها ، ورأى هيئاتهم ، وسمع أقاويلهم ، وعرف شمائلهم ، ثم خرج منها ، وغابت مُشاهدةُ حواسّه لها ، فإنه كلما فكر في تلك المدينة وما شاهد فيها ، تخيَّلها كأنه يراها معاينةً ، على مثل ما كان شاهد في وقت كونه فيها ، لو كان ذَكَرَ لها بعد حينٍ من الدهر . فتلك الفكرة ليست شيئاً سوى لمحات النفس إلى ذاتها . وتخيُّلُها لصورة تلك المدينة وما رأى فيها من الموجودات ليس شيئاً سوى صور تلك الموجودات انطبعت في جوهر نفسه كما ينطبع نقش الفَصّ في الشمع المختوم. وعلى هذا القياس حكم سائر المحسوسات من أول استعمال آلات الحواسّ إلى وقت تركها لها عند الممات الذي هو تركُ النفس استعمال الجسد .

واعلم يا أخي أنه إذا حصلت رسوم المحسوسات في جوهر النفس ، فإن أول فعل القوّة المفكِّرة فيها هو تأمُّلُها واحدةً واحدة لتعرف معانيها وكمياتها وكيفياتها وخواصها ومنافعها ومضارها. فإذا حصل العلمُ بهذه المعاني ، أودعتها القوةُ الحافظة إلى وقت التذكار . فإذا أراد الإنسان الإخبار عن معلوماته للمخاطبين له ، والجواب للسائلين له عن متصوَّراته ومفهوماته ،

استعانت عنـد ذلك القوة المفكـِّرة بالقوة الناطقة في النيابة عنهـا في الجواب لغيرها ، كما يستعين الملك بحاجبه وترجمانه في النيابة عنه في الخطاب لغيره . ولهذه القوة المفكرة في معلوماتها المحفوظة أفعالٌ أخر ذكرنا طرفاً منهـا في رسالة المنطق ، وطرفاً آخر في رسالة الموسيقى ، وطرفـاً آخر في رسالة الإنسانُ عالمٌ صغير ، حسب ما يليق بكل رسالة منها ، لأن العلوم كلها لا يمكن أن تُجمَع في دفتر واحد جسماني . فأما النفس فإنها تجمع علوماً شتّى ، وصنائع عِدّة ، وأخلاقاً مختلفة ، وآراء متفاوتة ، لأنهـا دفتر روحانيّ لا تتزاحم فيها صوَر المعلومات كما تتزاحم في الهَيُولى الجسماني . مثال ذلك أن السواد والبياض لا يجتمعان في محل واحـد ، في زمان واحـد ، ولا الحلاوة ولا المرارة في جسم ذي طَعْم ، ولا التّدويرُ ولا التّربيعُ في شكل واحدٍ مُجسَّمٍ ، وما شاكلها من الصُّوَر والأعراض المُتضادّة ؛ فإن بعضَها يُفسِد بعضاً إذا كانت من جنس واحد. فأما في جوهر النفس فلا تتزاحم فيها الصُّوَر بل كلها تُجمَع في نُقطةٍ واحدة كما تلتقي الخطوط في مركز الدائرة في نُقطةٍ واحدة ؛ وكما تلتقي صور المَرْئيّات كلّها ، مع اختلاف أجناسها ، في المِرآة وفي الحدَقة التي هي نقطةٌ من العين ، كما بيّنا في رسالة الحاسّ والمحسوسات ، فليُطلَبْ هناك .

فصل فيما يختص بالقوة الناطقة من الأفعال

فنقول : اعلم أن من شأن القوّة الناطقة ، إذا استعانت بها القوة المفكـِّرة في النيابة عنها في الجواب والخطاب ، أن تؤلّف ألفاظاً من حروف المُعجَم بنغماتٍ مختلفة السِّمَات التي هي الكلام ؛ ثم تُضمّن تلك الألفاظَ المعاني التي هي مصوّرة عند القوة المفكـِّرة ، فتَدفَعها ، عند ذلك ، إلى القوة المُعبِّرة لتُخرِجَها إلى الهواء بالأصوات المختلفة في اللغات ، لتَحمِلَها إلى مسامع الحاضرين

بالقُرب، فتكون تلك الألفاظ المؤلّفة من الحروف المختلفة الأشكال والسِّمَات كالأجساد المُركّبة من الأعضاء المختلفة ، وتكون تلك المعاني المُضمّنة في تلك الألفاظ كالأرواح لها ؛ لأن كل لفظة لا معنى لها فهي بمَنزِلة جسدٍ لا روح فيه. وكل معنًى في فكر النفس ليس له لفظة تعبّر عنه فهو بمنزلةِ روحٍ لا جسد له . وقد بيّنا كيفيّة حَملِ الهواء صوَرَ الأصوات وحِفظِها بهيأتها إلى أن تورِدَها وتؤدِّيَها إلى السمع في رسالة الحاسّ والمحسوس ، وذكرنا أيضاً أن الأصوات ، لما كانت لا تمكُثُ في الهواء إلاّ رَيثَما تأخذ المسامعُ حظَّها ثم تضمحِلّ ، احتالت الحكمةُ الإلهيـة بأن قيّدتها بالقوّة الصّناعية التي هي الكتابة . وذلك أن القوّة المفكّرة ، لما رأت أن الكلام لا يَثبُتُ في الهواء دائماً لأنه جسمٌ سيّال ، احتالت حيلةً أخرى ، واستعانت بالقوّة الصّناعيّة ، أن نقَشت حروفاً خُطوطيّةً بالقلم تحاكي مَعاني حروفٍ لفظيّة ، ثم ألّفتها ضُروباتِ التأليف ، حتى صارت كتاباً مُكتَتَباً ، وأودعتها وجوهَ الألواح وبطونَ الطّوامير[1] ، لكيما يبقى العلمُ مفيداً فائدة من الماضين للغابرين ، وأثراً من الأوّلين للآخرين ، وخطاباً للحاضرين من الغائبين ، وبالعكس . وهذا من جَسيم نِعَم الله تعالى على الإنسان ، كما ذكر الله تعالى في كتابه : « اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم . » ثم اعلم أن للقوّة الصّناعية أفعالاً كثيرة لا يحصي عددَها إلاّ الله تعالى . وقد ذكرنا طَرفاً من ذلك في رسالة الصنائع . وكذلك القوّةُ الناطقة لها لغات كثيرة ، وألفاظ مختلفة ، ونغمات مُفنّنة لا يحصي عددَها إلاّ الله ، عز وجل ، وقد ذكرنا منها طَرفاً في رسالة اختلاف اللغات ، وطرفاً في رسالة الموسيقى .

ثم اعلم أن القوة المُفكّرة لها أفعال كثيرة تستغرق فيها أفعالَ سائر

---

١ الطوامير : جمع طامور ، وهو الصحيفة .

القوى . وذلك أن أفعالها نوعان : فمنها ما يَخصها بمجرّدِها ، ومنها ما يشترك مع قوّى أُخرى . فمنها الصنائع كلها فإنها مُشتركة بينها وبين القوّة الصناعية . ومنها الكلام وأقاويلُ اللغات ، فإنها مُشتركة بينها وبين القوة الناطقة . ومنها تَناوُل رسوم المعلومات المحفوظة ، فإنها مشترَكة بينها وبين القوة الحافظة . وأما التي تخصها من الأفعال فالفِكر ، والرَّويّة ، والتصوُّر ، والاعتبار ، والتركيب ، والتحليل ، والجمع ، والقياس . ولها الفِراسة ، والزَّجْرُ ، والتكهُّن ، والخواطِر ، والإلهامُ ، وقَبول الوحْي ، وتَخيِيلُ المنامات . وتفصيل ذلك : فأما بالفكر فاستِخراجُ الغوامض من العلوم . وبالرويّة تدبير المُلْك وسياسة الأُمور . وبالتصوُّر دَرَكُ حقائق الأشياء . وبالاعتبار معرفة الأُمور الماضية من الزمان . وبالتركيب استخراجُ الصنائع أجمَعَ . وبالتحليل معرفة الجواهر البسيطة والمبادىء . وبالجمع معرفة الأنواع والأجناس . وبالقياس دَرَكُ الأمور الغائبة بالزمان والمكان . وبالفِراسة معرفة ما في الطبائع من الأُمور الخفيّة . وبالزَّجْرِ معرفة حوادث الأيام . وبالتّكهُّن معرفة الكائنات بالموجِبات الفلكيّة . وبالمنامات معرفة الإنذارات والبِشارات . وبقَبول الخواطر والإلهام والوحي معرفةُ وَضْعِ النواميس وتدوينِ الكتب الإلهيّة وتأويلاتها المكنونة التي لا يَمسُّها إلاّ المُطهَّرون من أدناسِ الطبيعة الذين هم أهل البيت الروحانيّون .

وقد بيّنّا في رسالة الناموس أن وضع النواميس وتدوينَ الكتب الإلهية أَعلى رُتبةٍ ينتهي إليها الإنسانُ بالتأييد الرّبّاني ، وهي أشرفُ صِناعةٍ تجري على أيدي البشر مثل شريعة صاحب التوراة والإنجيل والزّبور والفُرْقان .

واعلم يا أخي أن الباري ، جلّ جلاله ، جعل الأُمور الجِسمانيّة المحسوسة كلّها مِثالاتٍ ودلالاتٍ على الروحانيّة العقلية ، وجعل طُرُقَ الحواس درجاً ومراقِيَ يرتقى بها إلى معرفة الأُمور العقلية التي هي الغرضُ الأقصى في بلوغ النفس إليها .

فإذا أردت يا أخي أن تبلغ إلى أفضل المطلوبات وأشرف الغايات التي هي الأمور العقلية ، فاجتهد في معرفة الأمور المحسوسة ، فإنك بذلك تنال الأمور العقلية . وقد بيّنا في رسائلنا الطبيعية طرفاً من ذلك . ثم اعلم أن معرفة الأمور الجسمانية المحسوسة هي فقرُ النفس وشدّة الحاجة ، ومعرفة الأمور المعقولة الروحانيّة هي غناها ونعيمها ، وذلك أن النفس في معرفة الأمور الجسمانية محتاجة إلى الجسد وحواسّها وآلاتها لتُدرِك بتوسّطها الأمور الجسمانية . وأما إدراكها الأمور الروحانية فيكفيها ذاتها وجوهرها بعدما تأخذها من الحواس بتوسّط الجسد . وإذا حصل لها ذلك فقد استغنت عن الجسد وعن التعليم بالجسم بعد ذلك .

فاجتهد يا أخي في طلب الغنى الأبدي بتوسّط هذا الهيكل وآلاته، ما دام يمكنك ذلك قبل فناء العمر وتصرّم المدّة ، وفساد الهيكل وبُطلان وجوده. واحذر كلّ الحذر أن تبقى نفسُك فقيرةً محتاجة إلى هيكلٍ ليتمّ به ما فاته من الكمال، فتكون ممن يقول: «يا ليتنا نُرَدُّ فنعمل غير الذي كنا نعمل.» وتبقى في البرزخ إلى يوم يُبعَثون . ومن أين لهم أن يشعُروا أيّان يُبعَثون، ما دامت هي ساهيةً ، لاهيةً ، غافلةً ، مُقبلةً على الشهوات الجسمانيّة من اللذّات الجِرْمانية ، والزينة الطبيعية ، والغُرور بالأماني في هذه الحياة الدنيا المذمومة التي ذمها ربُّ العالمين فقال:«إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته » إلى قوله: « وما الحياة الدنيا إلاّ متاع الغرور» وقال في قصة قارون: « فخرج على قومه في زينته ، قال الذين يريدون الحياة الدنيا يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون إنه لذو حظ عظيم . » ثم حكى قول الرّبّانيّين العلماء العارفين بالأمر الأشرف في المراتب العالية : « ويلكم ، ثوابُ الله خيرٌ لمن آمن . » يَعنون به الدار الآخِرة التي « هي الحيوان، لو كانوا يعلمون . » يعني به عالَم الأرواح الذي كلّه رَوحٌ وريحان وتحيّة ورِضوان .

ثم ذم الذين لا يعرفون من هذه الامور المعقولة إلاّ المحسوسات حَسْبُ، فقال : « رضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون » يعني أمر الآخِرة ودارَ النعيم ودارَ السلام الـتي ترتقي إليهـا نفوسُ الأخيار بعد مفارقتهـا أجسادها ، كما ذكر في كتابه : « إليه يصعد الكَلِم الطيّب » يعني روح المؤمن ، « والعمل الصالح يرفعه » أي يرغّبه فيها ، وهِمّتُه تُوقّيه إلى هناك «ومغفرة من الله» ورَوحٌ ورِضوان، وغير ذلك من الآيات المذكورة في القرآن وأخبـار الأنبياء ، عليهم السلام ، في ذمّ الدنيا والاجتناب عنهـا . وكذلك إشارات الحكماء شعراً :

فاجهَدْ على النفس، واستكمِل فضائِلها، فأنت بالنفس لا بالجِسم إنسانُ

فعليك أن لا تغترّ بزخارف هذه الدنيا الدّنيّة ، وعليك أن تتبع الآراء الحسنة ، وتهذّب النفس ، وفّقك الله وإيانا وإخوانَنا للسّداد ، وهداك وإيانا سبيلَ الرّشاد ، إنه رؤوفٌ بالعباد .

تمت رسالة العقل والمعقول ويليها رسالة في الأدوار والأكوار.

الرسالة الخامسة

من النفسانيات العقليات

في الادوار والاكوار

(وهي الرسالة السادسة والثلاثون من رسائل إخوان الصفاء)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى ، آللهُ خيرٌ أمّا يشركون ؟

اعلم ، أيّدكَ الله وإيانا بروح منه ، أنّا قد فرغنا من رسالة العقل والمعقول، وبيّنا فيها تعريف جواهر النفوس بحقيقتها وكيفيّة اجتماع صُوَر المعقولات في العقل المنفعل . وكنا قد بيّنا قبل ذلك في رسالة ماهيّة الطبيعة ذِكرَ كيفيّة تأثيرات الأشخاص العُلْويّة الفلكية في الأشخاص السُّفلية الكائنةِ تحت فلك القمر الذي هو عالمُ الكون والفساد . وبيّنا فيها معنى قول القدماء في روحانيات الكواكب . وبيّنا قول واضع الناموس في أجناس الملائكة ، وكيفيّةِ سرَيان قُواها في العالم ، وإظهار أفعالها في الأجسام الموجودة فيه ؛ فنريد أن نبيّن الآن ونذكُرَ في هذه الرسالة أدوارَ الأشخاص الفلكيّة وأكوارَها وقِراناتِها فنقول :

إن للفلك وأشخاصِه ، حولَ الأركان الأربعة التي هي عالمُ الكَونِ والفساد ، أدواراً كثيرةً لا يحصي عدَدها إلاّ اللهُ تعالى ؛ ولأدوارها كورٌ ،

ولكواكبها في أدوارها وأكوارها قِرَانات . ويحدُث في كل دَورٍ وكورٍ وقِرانٍ في عالَم الكون والفساد حوادثُ لا يحصي عـدَد أجناسها إلاّ اللهُ تعالى . ونريد أن نذكر من ذلك طَرَفاً مُجْمَلًا مختَصَراً ليكون مِثالاً ودليلًا على الباقية فنقول :

اعلم أن الأدوار خمسة أنواع : فمنها أدوارُ الكواكب السيّارة في أفلاك تَداوِيرِها . ومنها أدوارُ مراكز أفلاك التداوير في أفلاكها الحاملة . ومنها أدوار أفلاكِها الحاملة[1] في فلك البروج. ومنها أدوار الكواكب الثابتة في فلك البروج . ومنها أدوار الفلك المحيط بالكل حولَ الأركان . وأما الأكوار فهي استئنافاتها في أدوارها ، وعودتُها إلى مواضعها مرةً بعد أُخرى .

وأما القِراناتُ فهي اجتماعاتها في درَج البروج ودقائقها، وهي ستة أجناس، مائةٌ وعشرون نوعاً : فمنها واحد وعشرون قِراناً ثُنائيّة ، وثلاثون قِراناً ثُلاثيّة ، وخمسة وثلاثون قِراناً رُباعيّة، وواحدٌ وعشرون قِراناً خُماسية، وواحد وثلاثون قِراناً سُداسيّة ، وقِرانٌ واحد سُباعيٌّ ؛ فجملتها مائة وعشرون قِراناً نوعيّةً مضروبةً في ثلاثمائة وستين درجةً ، يكون جُملتُها ثلاثةً وأربعين ألفاً ومائتي قِرانٍ شخصية .

وأما أدوار الأُلوف فأربعة أنواع : فمنها سبعة آلاف سنة ، ومنها اثنا عشر ألف سنة ، ومنها واحد وخمسون ألف سنة ، ومنها ثلاثمائة ألف وستون سنة .

ثم اعلم أن من هذه الأدوار والقِرانات ما يكون في كل زمان طويل مرةً واحدة. ومنها ما يكون في كل زمان قصير مرةً واحدة. فمن الأدوار

[1] الحاملة : الافلاك الجزئية الشاملة للارض ، مراكزها خارجة عن مركز العالم . والفلك الحامل محدّب سطحيه يماس محدب سطحي الفلك الآخر على نقطة مشتركة بينهما تسمى الاوج . ومقعّر سطحيه يماس مقعّر سطحي ذلك الفلك على نقطة مقابلة للنقطة الاولى تسمى الحضيض .

التي تكون في الزمان الطويل أدوارُ الكواكب الثابتة في فلك البروج ، وهو في كل ستة وثلاثين ألف سنة مرة واحدة . ومن الأدوار التي تكون في كل زمان قصير أدوارُ الفلك المُحيط بالكل ، حول الأركان الأربعة ، في كل أربع وعشرين ساعة مرة واحدة ، كما ذكر الله تعالى فقال : « وكلٌّ في فلك يسبحون . » وباقي الأدوار فيما بينهما . ومن القِرانات ما يكون في كل ثلاثمائة وستين ألف سنة مرة واحدة ، وهو أن تُجمَع الكواكبُ السيّارة كلها بأوساطها ، في أول دقيقة من برج الحمَل ، إلى أن تجتمع فيها مرة أخرى ، ويسمى هذا الدور في زيج[1] السِّند هِند سيّة[2] يوم واحد من أيام العالم الكبير. ومن القِرانات ما يكون في كل شهر مرة واحدةً ، وهو اجتماع القمر مع كل واحد من الكواكب السيّارة . فأما باقي القِرانات ففيما بين هذين الوقتين .

ومن الأدوار القصار ما يكون في كل أربعة عشر يوماً مرة واحدة وهي دورة مركز فلك التدوير ، والقمرُ في فلكه الحامل له . ومنها ما يكون في كل سبعة وعشرين يوماً وسبع ساعات ونصف مرة واحدة ، وهي أدوارٌ للقمر في فلك البروج . ومنها أدوار فلك الجَوْزَهَر[3] ، في كل إحدى وعشرين سنة ، في كل ثماني عشرة سنة وسبعة شهور وتسعة عشر يوماً مرة ، وهو أدوار عُطارِد في فلك تدويره . ومنها ما يكون في كل ثلاثمائة وخمسة وستين يوماً وربع يوم مرة واحدة ، وهي أدوار الشمس والزُّهَرة وعُطارد في فلك البروج . ومنها ما يكون في ثلاثمائة وثمانية وسبعين يوماً مرةً واحدة، وهي أدوارُ زُحَل في فلك تدويره . ومنها ما يكون في كل ثلاثمائة وتسعة وتسعين يوماً مرةً واحدة ، وهي أدوار المشتري في فلك تدويره . ومنها ما

---

١ الزيج : كتاب تعرف به احوال حركات الكواكب ، ويؤخذ منه التقويم .

٢ سية : مثل .

٣ الجوزهر : من منازل القمر .

يكون في كل خمسمائة وأربعة وستين يوماً مرةً واحدة، وهي أدوار الزُّهَرة في فلك تدويرها . ومنها ما يكون في كل ثمانمائة وسبعين يوماً مرةً واحدة ، وهي أدوار المِرّيخ في فلك البروج . ومنها ما يكون في كل خمسمائة وسبعة وثمانين يوماً مرة واحدة ، وهي أدوار المِرّيخ في فلك تدويره . ومنها ما يكون في كل أربعة آلاف وثلاثمائة وأربعة وثلاثين يوماً مرة واحدة ، وهي أدوار مركز المُشتري في فلك البروج . ومنها ما يكون في عشرة آلاف وسبعمائة وواحد وأربعين يوماً مرةً واحدة ، وهي أدوار مركز زُحَل في فلك البروج . وجملةُ هذه أربعةَ عشر نوعاً .

وأما القِرانات القصيرةُ الزمان ، فمنها ما يكون في كل مائة وستة عشر يوماً مرةً واحدة ، وهو قِرانُ عُطارِد مع الشمس . ومنها ما يكون في كل ثلاثمائة وواحد وثمانين يوماً مرة واحدة ، وهو اقتران الشمس والزُّهَرة وعُطارِد مع زُحَل . ومنها ما يكون في كل ثلاثمائة وتسعين يوماً مرةً ، وهو اقتران المُشتري والزُّهَرة وعُطارِد والشمس . ومنها ما يكون في كل سبعمائة وخمسة وثمانين يوماً مرّتين ، وهو اقتران الزُّهَرة مع الشمس . ومنها ما يكون في كل سبعمائة وثمانين يوماً مرة واحدة ، وهو اقتران الشمس مع المِرّيخ . ومنها ما يكون في كل سنتين ونصف سنة بالتقريب مرةً واحدة ، وهو اقتران المِرّيخ مع زُحَل والمُشتري . ومنها ما يكون في كل عشرين سنة بالتقريب مرةً ، وهو اقتران المشتري وزُحَل .

ومن القِرانات الطويلة الزمانِ ما يَستأنِفُ الدورَ في كل مائتين وأربعين سنة مرةً واحدة ، وهو أن يستوفي زُحَلُ والمشتري اثني عشر قِراناً في المُثلّثة الواحدة . ومنها ما يكون في كل تسعمائة وستين سنة مرة واحدة ، وهو أن يستوفي زُحَلُ والمشتري ثمانية وأربعين قِراناً في المثلّثات الأربعة . ومنها ما يكون في كل ثلاثة آلاف وثماني مائة وأربعين سنة مرةً واحدة ، وهو أن يَستأنِف زُحَلُ والمشتري القِرانات في المثلّثات ؛ وشرحها طويل

ويخرُجُ بنا عما نحن فيه .

• وإذ قد فرغنا من ذكر كميّة دورانِ الفلك ، وعدد قِرانات كواكبه في أبراجها ، في الأدوار والألوف ، واستئنافِها أعدادَهـا بالكَوْر ، نريد أن نذكُرَ ونُلوِّح بطرَفٍ مما يتبعها من الحوادث الكائنات ، في عـالم الكون والفساد ، التي دون فلك القمر فنقول : إنا قد بيّنا في رسالة السماء والعالم أن الفلك المُحيط تُديره النفس الكُليّة بتأييد العقل الكُليّ الفعّـال ، بإذن الله تعالى. وقد بيّنا في رسالة المبادىء العقلية أن النفس والعقل هما أمران مُبدَعان للباري، وهو مُبدِعُهما وعِلّتُهما ومُثبّتُهما ومكمّلُهما كيف شاء، فتبارك الله رب العالمين !

ثم اعلم أن كل الحوادث التي تكون في عالم الكون والفساد هي تابعـــة لدوران الفلك ، وحادثة عن حركات كواكبه ومَسيرها في البروج ، وقِراناتِ بعضِها مع بعض ، واتّصالاتِها بإذن الله تعالى . فمن تلك الحوَادث ما هو ظاهر جليّ لكل إنسان ، ومنها ما هو باطن خفيّ يُحتاج في معرفتهـا إلى تأمُّل وتفكّر واعتبار .

ثم اعلم أن كل حادث في هذا العالم سريعِ النشوء ، قليلِ البقـاء ، سريعِ الفساد، فذلك عن حركة في الفلك سريعةٍ، قصيرة الزمان، قريبة الاستئناف. وكل حادثٍ بطيء النشوء ، طويل الثبات ، بطيء البلى ، فذلك عن حركة بطيئة ، طويلة الزمان ، بعيدة الاستئناف . ونحتاج في هذا الفصل إلى شرح طويل ، وقد ذكرنا طرفاً من ذلك في رسالة تكوين المعادن ، وطرفـاً في رسالة النبات ، وطرفاً في رسالة الحيوان . ونريد أن نذكر في هـذه الرسالة طرفاً منه ليتبين الصدق ، ويتضح الحق ، ويتجلى الخفيُّ للبـاحثين عن حقيقة هذا الأمر . ثم نذكر تأثيرات الأشخاص العالية في الأشخاص السافلة . فمن تلك الحركات السريعة ، القصيرة الزمان ، القريبة الاستئناف ، أدوارُ الفلك المحيط بالكل حول الأركان ، في كل أربع وعشرين ساعة مرة واحدة ، كما

ذكر الله تعالى : « وكلٌّ في فلك يسبحون » . وهي التي بها يكون الليل والنهار في هذا العالم الذي نحن فيه .

ومن الحوادث الكائنة التي لا تخفى على أحد من العقلاء، من هذه الحركة: نومُ أكثر الحيوان بالليل ، ويقظتُها بالنهار ، وذلك أنه إذا طلعت الشمس مع دوران الفلك على جانب الأرض ، أضاء الهواء بنورها ، وأشرق وجه الأرض بضيائها ، فانتبهت أكثر الحيوانات من نومها ، وتحركت بعد سكونها ، وترنمت بعد عُجمتِها وهدوئها ، وانتشرت في طلب معايشها ، وتصرفت في مذاهبها . وتفتحت أيضاً أكثر أكمام النبات ، وفاح نسيم روائحها . وذهب الناس في مطالبهم ، وسعوا في حوائجهم . وإذا غابت الشمس أظلم الهواءُ أو اسودّ الجو ، وامتلأ وجه الأرض من الظلام ، واستوحش أكثر الحيوانات ، وتراجعت عن متصرفاتها إلى أوطانها وأماكنها . وانصرف الناس عن أسواقهم إلى منازلهم ، وعن مواضع أعمالهم إلى بيوتهم ، ووقع عليهم النوم والنعاس والكسلُ بعد الانتشار والنشاط في الأعمال ، والسكونُ بعد الحركة ، والهدوءُ بعد الجلبة . فإذا تأمل المتفكر في حال هذا العالم بالنهار ، رآه كأنه حيوان مُنتبهٌ متحرّك حسّاس . وإذا تأمله بالليل ، رآه كأنه نائم أو ميت أو جامد من السكون والهدوء .

ثم اعلم أنه ما دامت هذه الحركة محفوظةً في الفلك ، فهذه الحالة موجودة في الحيوان ؛ فإذا سكنت تلك الحركة ، بطل ذلك النظام والترتيب . وهذه الحركة من أعظم نِعَم الله تعالى على خلقه كما ذكر تعالى : « قل أرأيتم ان جعل الله عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون » . « قل أرأيتم ان جعل الله عليكم النهار سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون » .

ومن الحوادث الكائنة عن هذه الحركة في هذه المدة كونُ بعض النباتات الناقصة كخضراء الدِّمَن، فإنها تصبح بالغدوات ريّانةً من نداوة الليل وطيب

نسيم الهواء ، فإذا أشرقت عليها الشمس نصف النهار ، جفّت ؛ ثم تصبح من الغد مثل ذلك . وترى هذا خاصةً في أيام الربيع في أكثر المواضع .

ومن الكائنات الحادثة عن هذه الحركة ، في هذه المدة المذكورة ، كونُ بعض الحيوانات الناقصة الخِلقة ، الضعيفة البنية ، كالديدان والبق والبراغيث التي تتولد من العفونات ، وفي الزِّبْل والسماد والرَّوْث وجثة الجيَف وما شاكلها ، فإذا أصابها أدنى حرٍّ من الشمس أو بردٍ من الهواء ، هلكت .

وبالجملة فكل كائن عن هذه الحركة التي تستأنف الدور في كل أربع وعشرين ساعة مرة واحدة ، وكل حادث عنها من أشخاص الحيوانات والنبات الناقص الخِلقة ، الضعيف البنية ، فإنها لا تبقى سنة تامة ، لأنه يهلكها إما حرّ الشمس في الصيف ، أو برد الشتاء . وقد بينّا علّتها في رسالة الحيوان والنبات .

وما دامت هذه الحركة محفوظةً في الفلك ، فإن صورة هذه الكائنات عنها ، الحادثات في هذا العالم ، تكون موجودةً في الهيولى ، ومتى وقف الفلك فسد النظامُ ، وبطل الكون ، وذلك كائن لا محالة إذا بلغت النفس الكليةُ أقصى غرضها ؛ لأن الغرض هو غاية سبق إليها الوهم ، ومن أجل البلوغ إليها يفعلُ الفاعلُ فعله ؛ وإذا بلغ إليه قطع الفعل .

فصل

ثم اعلم يا أخي أن دوران الفلك أكرمُ الأفعال وأشرفها ، فغرضُ فاعله أيضاً أشرفُ الأغراض وأكرمها ، كما بينّا في رسالة البعث والقيامة .

ومن الحركات السريعة ، القصيرة الزمان ، القريبة الاستئناف ، ما يكون في كل شهر مرتين ، وهي حركة مركز فلك تدوير القمر في الفلك الحامل ، في كل أربعة عشر يوماً ، مرةً واحدة . وفي هذه المدة يكون القمر مقبلاً بوجهه الممتلىء من النور نحو مركز الأرض – يعرف حقيقة ما قلنا أهل الصناعة

الذين يعرفون علم ما في المجسطي . والذي يتبع هذه الحركة من الحوادث والكائنات في هذا العالم كثرة الرُّبوّ والزيادة في الأشياء ، وسرعة النشوء في الأشياء المبتدئة الحادثة من الحيوان ، والنبات ، والمعادن ، والزيادة أيضاً في المُدودِ والرطوبات والأنداء – يعرف ذلك أهل التجارب ، والعلماء المتيقظون المتفكرون في الآفاق ، المعتبرون أحوال الموجودات . وفي النصف الثاني من الشهر يدور هذا المركز في الفلك الحامل مرة أُخرى ، ولكن يكون القمر مولّياً بوجهه الممتلىء من النور عن مركز الأرض ، نحو فلك عُطارِد ، يدور القمر في الفلك الحامل مرةً واحدة في هذه المدة . والذي يحدث ، عن هذه الحركة ، في هذه المدة ، في هذا العالم ، الذبول والهزال والنقصان في الأشياء النامية ، والنضجُ والجفاف واليَبْس في الأشياء البالغة إلى التمام من الحَبّ والثمر – يعرف صحة ما قلنا أهلُ الصّناعة المُتقدّم ذكرُهم . وفي هذه المدة عن هذه الحركة يتكوّن بعضُ الجواهر المَعدِنيــة كالملح والكَمأة وأمثالهما .

واعلم يا أخي أن الكمأة نبات مَعدِني ، والمِلح مَعدِنٌ نباتي ، كما بيّنّا في رسالة المعادن . وفي هذه المدّة أيضاً عن هذه الحركة قد يتمّ كونُ بعض النبات ويبلُغ ويُنتَفع به كالبقول . وفي هذه المدّة أيضاً قد يَتِمّ كون بعض الحيوانات كالطيور ودود القز وزنابير النحل ، فإن أكثرها تتمّ خِلقته في أربعة عشر يوماً ، ويخرج بعد واحد وعشرين يوماً ، ويتولى في ثمانية وعشرين يوماً ويخرُج .

وهذه المدّة هي مقدار مَسِير القمر من يوم الحِضانة إلى يوم الخروج ، من البرج الذي كان فيه ، إلى البرج التاسع الذي هو بيت النُّقْلة والسفر . فينتقل من هذه الحيوانات الكائنة من حالٍ إلى حال في هذه المدة . وما دامت هذه الحركة محفوظةً في الفلك ، فصُوَرُ هذه الكائنات موجودةٌ في الهَيُولى في هذا العالم ، وإليها أشار ، جلّ ثناؤه ، فقال : « والقمر قدّرناه منازل حتى عاد

كالعرجون القديم » .

واعلم يا أخي أن كل الكائنات عن هذه الحركة من الحيوانات والنبات ؛ فمنها ما هي طويلة البقاء ، ومنها ما هي قصيرة المدّة . ولكن أطولها بقاء لا يتجاوز مائة وعشرين شهراً ، والقصيرة المدّة ما دون ذلك .

وعلّة نهاية بقاء أشخاص هذا النوع في الهيولى المقدارَ من الزمان هو أن علّة حدوثها حركة القمر في فلك البروج المقسوم بثمانية وعشرين منزلاً لدورة واحدة ، وذلك أن القمر إذا كان في برج من الأبراج في منزل من المنازل يوم حضانة الطير ، فإنه يومَ يخرُجُ الفرخُ يكون في المنزل العشرين من ذلك المنزل ، وفي البرج التاسع من ذلك البرج، وقد قطع مائتين وأربعين درجةً في الفلك ، وبقي له تسعُ منازل ، مائة وعشرون درجة إلى أن يعود إلى الدرجة التي كان فيها يوم ابتداء الحضانة، فيستأنف هذا الكائنُ العُمرَ الطبيعيّ في الدنيا لكل درجةٍ شهرٌ ، وهذا هو العمر الطبيعي . وأما ما يهلكُ قبل هذه المدّة، أو يعيش أكثر من هـــذا المقـدار ، فذلك لأسباب وعِلل وأغراض يطول شرحها .

وعلى هذا البيان لكل كائنٍ تحت فلك القمر حركةٌ لشخص من الأشخاص الفلكية ، لاستئنافه الدورَ في مدّة معلومة ، طالت أو قصُرت. فيكون بقاء تلك الكائنات عنهـا على هـذا المثال الذي ذكرنا من الكائنـات من حركة القمر .

ومثال آخر نذكر في أمر الإنسان ، وذلك أنـه إذا سقطَت النُّطفةُ في الرحِم من جنس البشر ، أو بعض الحيوانات التي تلد لتسعة أشهر، فلا بُدّ من أن تكون الشمسُ في تلك الساعة في درجةٍ في برج من الفلك. فإذا كان أول الشهر التـاسع يكون قد قطعت الشمس بسيرها ثمـانيةَ أبراج ، وقد استوفت طبـائعَ البروج المثلّثات مرتين ، وبلغت إلى أول البرج التـاسع بيتِ السفَر والنُّقلة ، فينتقل المولود من مكان إلى مكان ، ومن حـال إلى حال أخرى ،

وتكون قد سارت الشمس في فلك البروج من يوم مسقط النُّطفة إلى ذلك اليوم مائتين وأربعين درجة، لها مائة وعشرين درجة، إلى أن تعود إلى الدرجة التي كانت فيها يوم مَسقط النُّطفة بها، فجُعل نهاية بقاء أشخاص هذا النوع وعمرُها الطبيعي في الهَيُولى لكل درجة سنة، فإن زاد أو نقصَ فلأسبابٍ أو عِلَل. وعلى هذا القياس يُعتَبر كل مولود من أنواع الحيوان، فيكون عن حركة شخص من الأشخاص الفلكية مما يكوّن ولادتَه وكونه الطبيعي لستة عشر يوماً، أو لواحد وعشرين يوماً، أو لأربعين يوماً، أو لأربعة أشهر، أو لخمسةٍ، أو لستةٍ، أو لسبعةٍ، أو لتسعة، أو لعشرة، أو لسنةٍ، أو لسنتين. فإنه يستوفي ذلك الشخصُ المُوجِبُ لكونه، المحمَّل في الفلك، بعضَ الدائرة قبلَ الولادة الطبيعية لذلك النوع، ويكون مُدَّةُ العمر الطبيعي لهذا النوع بمقدار ما بقي لذلك المتحرك من المسير في الفلك إلى إتمام دورة واحدةٍ، بروجاً كانت أو درَجاً، أو دقائق، أو ساعاتٍ، وأياماً. وذلك أن الحيوانات الناقِصات الخِلقة، الضعيفةِ البِنْية التي سَببُ كونها وعِلةُ حدوثها حركةُ ذلك الشكل الذي يستأنف الدورَ في أربع وعشرين ساعة، كما ذكرنا قبلُ. فإن أشخاص النوع أكثرُ بَقائها وعمرها الطبيعي تسعة أيام، وإن زاد أو نقصَ فلأسبابٍ أُخَر، وذلك أنها تتِمُّ خِلقتُها وتكمُلُ صورتُها في ستّ عشرة ساعة، مِقدارَ ما يدور من الفلك ثمانيةَ أبراج. وإذا ابتدأ البرجُ التاسع بالطلوع، نهض وتحرّك، وانتقل في طلب القوتِ والغِذاء الذي هو مادّةُ بقاء شخصِها في الهَيُولى، أو تبقى إلى تمام الدور تِسعَ ساعات، فيستأنِفُ العمرَ في الدنيا تسعة أيام، لكل ساعةٍ يومٌ، ثم يَهلِكُ، ويتكوّن غيرُها، ويكون ذلك النوعُ محفوظاً والأشخاصُ في السَّيلان.

واعلم يا أخي أن لكل كائنٍ تحتَ فلك القمر من الحيوان والنبات والمعادن – له عن وقتِ كونهِ وحدوثهِ إلى وقت فَنائه وعدمه – مقداراً من الزمانِ، وهو دورة واحدةٌ من أدوار الأشخاص الفلكية، بيان ذلك

أن كل كائنٍ في هذا العـــالم له أربعُ أحوالٍ متباينة ، إحداها ابتداءُ كون الوجود ، ومنها زيادته ونموُّه وارتقاؤه إلى نهايةٍ ما . ومنها توقُّفه وانحطاطه ونقصه . ومنها زمان بَوارِه وعدَمِه . وعلةُ ذلك أن كل شخص في الفلك له حركةٌ دائرة تخصّه ، فإن لحركته في دائرته أربَع أحوالٍ : منها صعودٌ من الحضيض ، ومنها صعودٌ إلى الأوج ، ومنها هبوطه من الأوج ، ومنها هبوطه إلى الحضيض . يَعرِفُ حقيقةَ ما قلنا أصحابُ المَجِسْطي .

ومن الحركات السريعةِ ، القصيرةِ الزمان ، القَريبة الاستئناف ، ما يدورُ في كل أربعة أشهر مرةً واحدة ، وهي حركة عُطاردَ في فلك تدويره ، تارةً مستقيماً ، وتارةً راجعاً ، وتارةً مُشرِّقاً ، وتارةً مُغرِّباً ، وتارةً مُنْحَرِفاً ، وتارةً صاعداً في ذِروته ، وتارةً هابطاً إلى حضيضه ، وتارةً واقفاً من موازاة درجةٍ واحدة . والذي يَحدُث ويتِمُّ من هذه الحركة ، في هـذه المدة ، في هذا العالم ، كونُ بعض النبات كالسِّمْسِمِ والذُّرَةِ والشعير وأمثالها ، كما بيّنا في رسالة النبات . وعن هذه الحركة في هذه المدّة قد يَتمُّ كونُ بعض الجواهر المَعدِنية كما يتِمّ بالصَّنعة . يعرفُ ما قلنا أصحابُ المعادن ، والذين يَسبِكون الزُّجاج ، والذين يتعاطون صِناعة الكِيمياء ، عن هذه الحركة في هذه المدة ، في هذا العـالم ، قد يتِمّ خِلقـةُ بعض الحيوانات وتَولُّدُهـا كبعض السباع والوحوش والغزلان ، وبعضُ الغنم ، كما بيّنا في رسالة الحيوانات .

ومما يكون عن هـذه الحركة في هـذه المدة ، في هـذا العالم ، ما يَعرِض لبعض الناس من الحوادث عند اختلاف أحوال عُطارِد في دوَرانه ، مما يذكره أصحابُ أحكامِ النُّجوم في مواليدهم . وبيان ذلك أنه إذا تخلّف عُطارِدُ ، يَعرِضُ لبعض النـاس أمراضٌ وأعلال وأوجـاع ، وخاصةً للصبيان ؛ ومـا يَعرِض لبعض الكتّاب ، والعُمّال ، وأصحاب الدواوين ، والوزراء من العَزل والاعتقال والمُصادَرات ، ولبعض الصُّنّاع من العُطـلة والكسل ، ولبعض التجّار من الخُسران والمَحْقِ ، ولبعض الناس من الحَبس والاستتار والعُسرة .

وعنـد استقامته وتشريفه مـا يَعرِض لهم من الخلاص والسلامة ، والظهور ، والولاية ، والنشاط ، واستقامة الأحوال . وعند وقوفه ورجوعه ما يَعرِض لهم من الحَيرة ، والشكوك ، والظنون ، والرِّيبة ، والتوقّف والتّخلّف ، من سُقوط الجاه ، وذَوي العزّ ، ونُقصان المراتب ، وكل ذلك بحسَب ما أوجَبَ شكلَ الفلك في أصـل المواد ، وطبقات أحواله – يعرف بعضَها لطبقاتِ أجناسِهم ، ويعلم تفصيلَها أصحابُ النجوم .

ومن الحركات السريعة ، القصيرة الزمان ، القريبةِ الاستئناف ، ما يكون في كل مرةٍ واحـدة ، وهي حركة الشمس في فلك تدويرهـا ، والزُّهَرةُ وعُطارِدُ في فلك البروج ، تارةً في البروج الشّمالية ، وتارةً في الجَنوبية ، وتارةً في المستقيمة الطلوع ، وتارةً في المُعوجّة ، وتارةً في الناريّة ، وتارةً في الترابيّة ، وتارةً في الهوائيّة ، وتارةً في المائيّة ، وتارةً صاعدةً ، وتارةً هابطةً ، وتارةً في بيوتها ، وتارةً في وَبالِها ، وتارةً في حُظوظها ، وتارةً في إغرابِها ، وتارةً في إشراقِها ، وتارةً في هُبوطها ، وتارةً في أوْجاتِها ، وتارةً في حَضيضِها ، وتارةً مسرعةً ، وتارةً بطيئةً ، وتارةً عند رؤوسِ جوزَهْراتِها ، وتارةً عند ذنَبِ جَوزَهْراتِها ، وتارةً مُتيامنةً بعضُها من بعضٍ ، وتارةً متياسرةً ، وتارةً شرقيّةً ، وتارةً غربيّة ، وتارةً مُناظِرةً ، وتارةً ساقطةً ، وتارةً خاليةً ، وتارةً وحشيّةً ، وتارةً في الأوتاد[1] ، وتارةً فيما يليها ، وتارةً زائلةً عن الأوتاد ، وتارةً في البروج المُنقلِبة ، وتارةً في الثابتة ، وتارةً في ذوي الأجسادِ وما شاكل هذه الدّلالات .

١ الأوتاد : هي المنازل الأربع الرئيسة من الاثنتي عشرة منزلة من منطقة البروج .

فصل

واعلم يا أخي أن الذي يَحدُث عن هـذه الحركات ، في هـذه المدّة ، في هذا العالم ، وعن أحوال هـذه الكواكب ، من الفنون المختلفة ، والحالات المتغايرة ، أشياءُ لا يُحيطُ علماً بكثرتها إلاّ اللهُ تعالى ، ولكن نذكر منها طرَفاً ليكون دليلا على الباقية ، ونبدأ أولاً بذكر الزمان وأحواله ، وأوباعه وتغيّراتِ الهواء. وذلك أنه إذا ابتدأت الشمس بحركتها في أول برج الجَدْي صاعدةً من الجَنوب نحو الشمال ، ومن الحضيض نحو الأَوج ، مرتفعة في الفلك ، أخذت الطبيعةُ عند ذلك بمعاونتها ، بإذن البـاري ، جلّ وعز ، في جذب الرطوبات المختلفة بالتراب من الأمطار ، وامتصاصِها في عروق الشجر والنبات إلى أصولها وقُضبانها ، وإمساكِها هناك بالقوة الماسكة ، وذلك دأبُها إلى أن تبلغَ الشمس آخِر الحوت . فإذا نزَلت أولَ دقيقة من برج الحمل ، فهو الرُّبع الربيعي، استوى الليل والنهار في الأقاليم، واعتدل الزمان، وطاب الهواء ، وهب النسيم ، وذابت الثلوج ، وسالت الأودية ، ومدّت الأنهار ، ونبعت العيون، وارتفعت الرطوبات إلى أعلى فروع الأشجار، ونبت العشب، وطال الزرع ، ونما الحشيش ، وتلألأ الزهر ، وأورق الشجر ، وتفتّح النَّور ، واخضرّ وجه الأرض ، وتكوّنت الحيوانات والدبيب[1] ، ونُتِجت البهائم ، ودرّت الضُّروع ، وانتشرت الحيوانات في البلاد عن أوطانها ، وطاب عيش أهل الوَبَر ، وطلب أعلى السطوح أهلُ المدُن ، وأخذت الأرض زُخرُفها ، وفرح الناس والحيوان أجمعُ بطيب نسيم الهواء، وازّيّنت الأرضُ، وصارت كأنها جارية شابّة قد تزيّنت وتجلّت للناظرين . فلا تزال تلك حال الدنيا وأهلِها من الحيوان والنبات ، إلى أن تبلُغ الشمس آخِر الجَوزاء : رأسَ

---

١ الدبيب : الهوام الصغيرة التي تلعب بالماء .

أوجها . فإذا نزلت الشمس أول السَّرَطان ، تناهى طولُ النهار وقِصَرُ الليل في الأقاليم كلها، وأخذ النهارُ في النُّقصان والليلُ في الزيادة، وانصرف الربيع، ودخل الصيف ، واشتدّ الحر ، وحمي الجو ، وهبّت السمائم ، ونقصت المياه ، ويبِس العُشب، واستحكم الحبُّ ، وأدرك الحصاد والثمار ، وأخصبت الأرض، وكثُر الرِّيفُ ، ودرّت أخلافُ النَّعَم[1] ، وسَمِنت البهائم ، واتّسع للناس القوتُ من الثمار ، وللطير من الحبّ ، وللبهائم من العلف ، وصارت الدنيا كأنها عروس مُنعَّمة ، بالغةٌ تامّة كاملة ، كثيرةُ العشاق . فلا يزال ذلك دأبَها ودأبَ أهلها، إلى أن تبلُغ الشمس آخِرَ السُّنبلة وأوّلَ الميزان . فإذا نزَلت الشمس أول الميزان ، استوى الليل والنهار مرّةً أخرى ، ثم ابتدأ الليل بالزيادة على النهار، وانصرف الصيف ، ودخل الخريف، وبردَ الهواء ، وهبّت الشَّمال ، وتغيّر الزمان ، ونقصت المياه ، وجفّت الأنهار ، وغارت العيون، وجفّ النبت ، وفنيت الثمار ، ودِيست البيادر، وأحرز الناسُ الحبّ والثمار ، وعَرِيَ وجهُ الأرض من زينتها ، وماتت الهوامّ ، وانجَحرت[2] الحشرات ، والطيرُ والوحش تنصرف لطلب البلدان الدافئة، وأحرز الناسُ القوتَ للشتاء ، ودخلوا البيوت ، ولبسوا الجلود والغليظَ من الثياب فِراراً من البرد ، وتغير الهواء ، وصارت الدنيا كأنها كَهلة مُدبرة قد تولّت عنها أيام الشباب .

فإذا بلغت الشمسُ آخِرَ القَوس وأول الجَدي ، تناهى طولُ الليل وقِصَرُ النهار ، ثم أخذ النهار في الزيادة على الليل، وانصرف الخريف ، ودخل الشتاء ، واشتد البرد ، وخَشُن الهواء ، وتساقط ورق الشجر ، ومات أكثر النبات ، وانحجز أحسن الحيوانات في باطن الأرض وكهوف الجبال ، من شدة البرد وكَثرة الأنداء ، وكَثُرت ونشأت الغيومُ ، وأظلم الجو ،

١ أخلاف النعم : ثدي الابل .

٢ انجحرت : دخلت في أجحارها ، أي مخابئها التي تحتفرها .

وكلَح وجه الزمان ، وهَزَلت البهائم ، وضعفت قُوى الابدان ، ومنع الناسَ البردُ عن التصرّف ، وتمرمر[1] كثيرٌ عيش الحيوان وضُعفاء الناس ، وصارت الدنيا كأنها عجوز هَرِمة قد دنا منها الموت .

ومن الحركات السريعة ، القَصيرةِ الزمان ، القريبة الاستئناف، ما يكون في كل ثلاثة عشر شهراً بالتقريب مرةً ، وهي حركة جِرْمِ زُحَل والمشتري في فلَكَي تدويرهما. ومن الحوادث في هذه المدة ، عن حركتهما واختلافِ أحوالهما، ما يَعرِض لطبقاتٍ من الناس المستولي عليهم اليُبسُ والبرد، نحوِ[2] المشايخ والعجائز والأكَرَة[3] ، والتُّنّاء[4] ، والأشراف، والقضاة ، والعُدول ، والعلماء ، والتجّار ، ومن شاكلهم من الناس من المستولي عليه في مولوده أحدُ الكوكبين مثلَ ما يَعرِض لأصحاب عُطارِدَ كما ذكرنا قبل . وقد يَعرض من حركة هذين الكوكبين وأحوالهما ، لكثيرٍ من الحيوان والنبات والمعادن ، أعراضٌ وأسبابٌ قد ذكرنا كيفيّتها في الرسائل التي ذكرنا فيها هذه الأجناس .

ومن الحركات القصيرة الزمان ، السريعةِ الاستئناف ، حركةُ الزُّهَرة في فلك تدويرها ، في كل خمسمائة وأربعة وثمانين يوماً مرةً واحدة ، وحركةُ المِرّيخ في فلك تدويره ، في كل سبعمائة وثمانين يوماً مرة واحدة . والذي يحدُث ويتبع هذين الكوكبين في عالم الكون والفساد ما يَعرِض لبعض طبقات الناس في عالم الكون والفساد ، من النساء ، والمَخانيث ، وأصحاب اللّذات واللهو ، والمُلهين ، وأصحاب المِرّيخ[5] من الشباب ، والشُّطّار ،

---

١ تمرمر : ترجرج .

٢ النحو : المثل ، اي مثل المشايخ .

٣ الاكرة : زراع الارض وحراثها .

٤ التناء : جمع تانىء ، وهو الدهقان اي زعيم الفلاحين .

٥ اصحاب المريخ : اي اصحاب الحدّة والحمق والحرب .

والعَيّارين ، والجُند ، وأصحاب السلاح ، وساسة الدوابّ ، ومن شاكلهم ، مثلَ ما يَعرض لأصحاب عُطارِد كما ذكرنا قبل .

ومن الحركات السريعة ، القصيرةِ الزمان ، القريبةِ الاستئناف ، حركةُ فلك المشتري في الفلك الحامل ، في كل أربعة آلاف وثلاثمائة وأربعة وثلاثين يوماً مرة واحدة . والذي يحدُث ، في عالم الكون والفساد عن هذه الحركة ، اعتدالُ أهْوِية بعض البلاد بعد فسادها ، وعِمارةُ بعض البقاع بعد خرابها ، وتكوينُ بعض المعادن ، ونشوءُ بعض النبات ، وزكاةُ بعض الثمر ، وصلاحُ حال بعض الحيوانات ، والرخصُ في بعض المدن ، وتجديد النِّعَم على أقوام ، وما شاكل ذلك من الصلاح والخير في هذا العالم .

ومن الحركات السريعة ، القصيرة الزمان ، القريبة الاستئناف ، ما يكون في كل خمس وعشرين سنة مرة واحدة ، وهو أن يحصُل المِرّيخ في اثني عشر برجاً ، اثنتي عشرة رجعة . ومن الحوادث ، في هذا العالم عن هذه الحركة ، أن يقع نَضجُ بعض المعادن ، وسُرعةُ النشوء في بعض النبات ، وزيادةُ القوة في بعض الحيوانات ، وظهورُ الدولة في بعض الناس والأمم ، وزيادةُ القوة في بعض السلاطين ، وخروجُ بعض الخوارج ، وتجديدُ ولاياتٍ في المُلك ، وما شاكل ذلك من تأثيرات قوّة المِرّيخ وظهورها في العالم ، والقصدُ منها وفيها هو صلاحُ شأن الكائنات ، والغَرَضُ منها هو إبلاغُها إلى الكمال والتمام ، ولكن ربما تَعرض أسبابُ الفساد مثلُ إثارة الحروب والفِتَن ، والنَّصْبِ في طلب الغارات ، فيخرَب بعضُ البلدان ، وتزول دولةُ قوم ، ويذهب نعيمهم ، ولكن عاقبتها تعود إلى الصلاح . وبالجملة ما يَعرض منها من الفساد عند هذه الحركة ، في جنب ما يكون منها من الصلاح في العالم ، شيءٌ يسيرٌ . مثالُ ذلك حركةُ الشمس بالطلوع والغروب ، ليكون بها الليل والنهار ، ومَسيرُها في البروج ، ليكون الشتاء والصيف ، كما بيّنّا قبل . ولكن ربما حدث من إسخانها حَرٌّ شديد ، فيَهلِك بعضُ النبات ، ويُقتَل بعض

الحيوانات الضعيفة البِنْية ، بلا قصدٍ من الطبيعة ، ولا عِنايةٍ من الحكمة.

وكذلك الأمطارُ القصدُ منها إحياءُ البلاد والعُشب والكلإ ، أو سقي الزروع والثمر لتكون قوتاً للحيوان . ولربما كانت مُهلكةً لبعض الزروع ، مُفسدة لبعض الثمار . وربما خرَّب السيلُ بعض البلاد ، لكن ذلك ، في جنبِ ما يكون من صلاح عامَّة البلاد والحيوان والنبات ، شيءٌ يسير .

وهكذا حكم المِرِّيخ وزُحَل والذنب ، وما يُذكر من مناحسها شيء يسير في جنب ما يكون عن حركاتها من الصلاح في العالم .

ثم اعلم يا أخي أن كثيراً ممن يُقِرّ بصحة أحكام النجوم أو يتكلم فيها ، يظنُّ أن زُحَل والمِريخ والذنب نحوسٌ بالكلية ، والزُّهَرة والقمر والمشتري سعودٌ بالكلية . وليس الأمر على ما ظنوا ، لأنه ربما عرض عن إفراط القوة المنبثة منها في العالم فسادٌ من الرطوبات والبرودات المُفرطة مثل ما يعرض عن إفراط حرّ الشمس ، وبرد زُحَل ، ويُبس المريخ ، ورطوبة الزُّهَرة والقمر ، وأكثر العفونات منها ، كما يَعرِض عن المريخ وزحل .

ومن الحركات السريعة ، القصيرة الزمان ، القريبة الاستئناف ، حركة فلك تدوير زحل في الفلك الحامل المُمثَّل بفلك البروج ، في كل خمسة آلاف وسبعمائة وأحدٍ وأربعين يوماً ، مرة واحدة . والذي يحدُث عن هذه الحركة ، في هذه المدة ، تتميمُ بعض المعادن كالكحل والزرنيخ والحديد ، وثمار بعض النبات كالزيتون والجوز ، وبلوغُ الإنسان أشُدَّه ، وعمارةُ بعض البلاد ، واستحداثُ بعض المدن والقُرى ، وانتقالُ الملك من قوم إلى قوم ، وما شاكل ذلك .

ومن الحركات البطيئة ، الطويلة الزمان ، البعيدة الاستئناف ، حركات الكواكب الثابتة في فلك البروج في ستة وثلاثين ألف سنة ، مرةً واحدة ، وأوجاتُ الكواكب السيَّارة ، وحضيضُها وجَوْزَهراتُها . والذي يحدُث عن هذه الحركات في هذه المدة ، في عالم الكون والفساد ، أن تقِلّ العمارةُ

على سطح الأرض من رُبع إلى رُبـع ؛ وأن تصير مواضعُ البراري بحاراً ومواضعُ البحار جبالاً ، كما بيّنا في رسالة المعادن كيفية ذلك . وإذ قد فرغنا من ذكر حـوادث الأدوار ، فنريد أن نذكر طرفـاً من القِرانات وألوفِها .

فصل

فنقول : اعلم أن الكائنات التي يستدِلّ عليها المنجمون سبعة أنواع : فمنها المِلَلُ والدُّول اللتان يُستدَلّ عليهما من القرانات الكبار التي تكون في كل ألف سنة بالتقريب مرةً واحدة. ومنها تَنَقُّلُ المملكة من أمة إلى أمة ، أو من بلد إلى بلد، أو من أهل بيت إلى أهل بيت آخر، وهي التي تكون ويُستدَلُّ على حدوثها من القِرانات التي تكون في كل مائتين وأربعين سنة مرةً واحدة. ومنهـا تبدُّلُ الأشخاص على سرير الملك ، ومـا يحدُث بأسباب ذلك من الحروب والفِتَن التي يُستدَلُّ عليهـا من القِرانات التي تكون في كل عشرين سنةً مرةً واحدةً . ومنها الحوادث الكائنات التي تحـدُث في كل سنة ، من الغلاء والرخص ، والخِصب والجدْب ، والوباء والموت ، والقحط، والأمراض والعِلل ، والحِدْثان ، والسلامة . ومنها يُستدَلُّ على حدوثهـا من تحاويل سِني العالم التي عليها تؤرَّخ التقاويم . ومنها حوادث الأيام شهراً بشهر ، ويوماً بيوم ، التي يُستدَلُّ عليها من أوقات الاجتماعات والاستقبالات التي تؤرَّخ في التقاويم . ومنهـا أحكام المواليد لواحدٍ واحدٍ من الناس في تحاويل سِنِيهم ، من حيث مـا يوجب لهم تشكيلُ الفلـك ومواضعُ الكواكب في أصول مواليدهم وتحاويل سِنِيهم. ومنها الاستدلالُ على الخفيات من الأمور الجُزْويّة كالخَبْء والسرقة واستخراج الضمير ، والمسائل التي يُستدَلُّ عليها من طالع وقت المسألة والسؤال عنها .

ثم اعلم أن في كل ثلاثة آلاف سنة تنتقل الكواكب الثابتة ، وأوجاتُ الكواكب السيّارة، وجَوْزَهَراتُها في البروج ودرجاتها. وفي كل تسعة آلاف سنة تنتقل من رُبع إلى رُبع من أرباع الفلك. وفي كل ستة وثلاثين ألف سنة تدور في البروج الاثني عشر دورةً واحدة . فبهذا السبب تختلف شُعاعات الكواكب على بقاع الأرض ، وأهويةُ البلاد ، ويختلف تعاقبُ الليل والنهار، والشتاء والصيفِ عليها ، إمّا باعتدالٍ واستواء ، وإمّا بالزيادة والنُّقصان ، وإفراط الحرارة والبرودة ، واعتدالِه بينهما . ويكون هذا أسباباً وعِللاً لاختلاف أحوال أرباع الأرض ، وتغيُّرات أهْوِية البلاد والبقاع ، وتبدُّلها بالصفات من حال إلى حال – يعرف حقيقة ما قلنا المُتحَذلِقون في المجسطي وأحكام القِرانات – ويصير بهذه العِلَل والأسباب زوالُ المُلك والدول ، وانتقالُه من قوم إلى قوم ، وتغييراتُ العِمارات من رُبع إلى رُبع آخر . وتكون هذه بمُوجِبات أحكام القِرانات الكائنة في الوقت والزمان ، من جِهة القِرانات والأدوار ، في كل ألف سنةٍ مرّةً واحدة ، وفي كل اثنين وعشرين ألف سنة أو في كل ستة وثلاثين ألف سنة مرّةً ؛ والقِراناتِ الدالّة على قوّة النُّحوس ، وفساد الزمان ، وخُروج الناس عن الاعتدال، وانقطاعِ الوَحْي، وقلّة العلماء ، وموت الأخيار ، وجَور الملوك ، وفساد الأخلاق للناس ، وشَرّ أعمالهم ، واختلاف آرائهم . ويُمنَع نزولُ البركات من السماء بالغيثِ فلا تزكى الأرضُ، ويجِفُّ النباتُ ، ويهلك الحيوان، وتخرَب المدُن والبلاد، إذ هي بروز آخرِ القِران ؛ والقِراناتِ الدّالة على قوّة السعود ، واعتدال الزمان ، واستواء طبيعة الأركان ، والحدوث بوحي الأنبياء ، عليهم السلام ، وتواتره ، وكثرة الأنبياء ، وعدل الملوك ، وبركات السماء بالغيث ، وتزكو الأرضُ والنباتُ، ويكثر تولُّد الحيوان، وتُعمَر البلاد، ويكثر بُنيان المدن والقُرى ؛ وكلُّ ذلك بأمر بارئِها على حسَب أفعال العباد من الخير والشر ، جزاءً لأعمالهم . فانتبه ، أيها الأخ ، من نوم الغفلة ورقدة الجهالة ، واعلم

وتيقّن أن ما وراء عالَمِك المحسوس هي جهنم وجحيمُ عالم آخر ، وأمورٌ أُخَرُ هي عالَم الأرواح ومقرّ الملائكة والكَرُوبيين ، والروحانيين الموكلين بحِفظ هذا العالَم، ومَراتبِها. وفقّكَ الله وإيانا بروح منه، وجميعَ إخواننا، السَّدادَ ، إنه رؤوفٌ بالعباد .

تمت رسالة الأدوار والأكوار ويليها رسالة في ماهيّة العشق .

الرسالة السادسة

من النفسانيات العقليات

في ماهية العشق

(وهي الرسالة السابعة والثلاثون من رسائل إخوان الصفاء)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وسلامٌ على عِباده الذين اصطفى ، آللهُ خيرٌ أمّا يُشرِكون ؟

اعلم أيها الأخ أنّا قد فرغنا من رسالة الأدوار والأكوار ، وبيّنّا فيها كيفيّة أحوال القِرانات حسبَ ما جرت عادةُ إخوننا الكرام . ونريد أن نذكر الآن في هذه الرسالة ماهيّة العشق ومحبة النفوس والمرضِ الإلهي، وما حقيقةُ ذلك ، ومن أين مَبدؤه فنقول :

اعلم أن الحكماء قد أكثروا القِيل والقال في فنون العلوم ، وطُرقِ المعارف، وغرائب الحِكَم من الرياضيّات والطبيعيّات والفلسفيّات والإلهيّات. ولكن بعض تلك العلوم والمعارف ألطفُ من بعض ، وقد عمِلنا في كل منها رسالةً شِبه المدخَل والمقدّمات ، ليقرُب تناوله على المتعلمين ، ويَسهُلَ أخذُه على المبتدئين . ونريد أن نذكر في هذه الرسالة طرَفاً مما قالت الحكماء والفلاسفة في ماهيّة العشق ، وكميّة أنواعه ، وكيفيّة نشوئه ومَبدئِه ، وما عِلّتُه الموجِبةُ لكونه ، والأسبابُ الداعية إليه ؛ وما الغرض الأقصى منه ،

إذ كان هذا أمراً موجوداً في العالم ، مركوزاً في طِباع النفوس ، دائماً لا يعدَم البتَّة ، ما دامت الخليقة موجودةً .

واعلم يا أخي أن من الحكماء من قد ذكر العشق وذمّه ، وذكر مَساوىءَ أهله وقُبح أسبابه ، وزَعم أنه رذيلة . ومنهم من قال إن العشق فضيلةٌ نَفسانيّة ، ومدحه ، وذكر محاسنَ أهله ، وزيَّن أسبابه . ومنهم من لم يقف على أسرارِه وعِلَلِه وأسبابه بحقائقها ودِقّةِ معانيها ، فزعم أنه مَرضٌ نفساني . ومنهم من قال إنه جُنونٌ إلهي . ومنهم من زعم أنه هِمَّةُ نفسٍ فارغة . ومنهم من زعم أنه فِعلُ البَطّالين الفارغِي الهِمَم الذين لا شُغل لهم .

ولعمري إن العشق يترك النفسَ فارغةً من جميع الهَمّ إلاّ هَمَّ المعشوق ، وكَثرةَ الذّكر له والفِكرةِ في أمره ، وهيجانَ الفؤاد ، والولهَ به وبأسبابه. ولكن ليس ذلك من فِعل البَطّالين الفُرّاغ كما زعم من لا خِبْرةَ له بالأمور الخفيّة ، والأسرار اللطيفة ، ولا يَعرِف من الأمور إلاّ ما تجلّى للحواسّ وظهرَ للمَشاعِر . وأما الذي يُدرِكُ منها بصَفاء الذّهن وجَودَةِ التمييز ، وكَثرة الفِكر ، وشِدّة البحث ، ودِقّة النظر ، فهم عنها بمَعْزِل . وذلك أن الذين زعموا أن العشق هو مرض نفساني ، أو قالوا إنه جنون إلهي ، فإنما قالوا ذلك من أجل أنهم رأوا ما يَعرِض للعشاق من سَهر الليل ، ونحول الجسم ، وغُؤورِ العيون ، وتَواتُرِ النَّبْضِ والأنفاسِ الصُّعَداء ، مثلَ ما يَعرِض للمَرضى ، فظنوا أنه مَرض نفسانيّ .

وأما الذين زعموا أنه جنون إلهي فإنما قالوه من أجل أنهم لم يجدوا لهم دواءً يعالجونهم به ، ولا شربة يسقونها إياهم فيبرؤون مما هم فيه من المحنة والبلوى إلاّ الدعاء لله بالصلاة والصدقة والقرابين في الهياكل ورقى الكهنة وما شاكل ذلك كما حكى العاشق بقوله ، وهو عُروةُ بن حِزَام قتيل الحب :

بَذَلتُ لعَرّافِ اليمامة حُكمه ، وعَرّافِ نجدٍ ، إن هما شَفَياني[1]
فما تركا من سَلوةٍ يَعرِفانها ، ولا رُقيةٍ إلاّ بهـا رَقَياني[2]
فقالا : شفاكَ الله ! والله ما لنا ، بما ضَمِنت منكَ الضُّلوعُ ، يدانِ

وأشعارٌ كثيرة للعشاق في هذا المعنى .

وأما الحكماء والأطِباء من اليونانيين فكانوا ، إذا أعياهم عِلاجُ مريضٍ أو مداواةُ عليلٍ وأيِسوا منه ، حملوه عند ذلك إلى هيكل المشتري ، وتصدّقوا عنه وصَلّوا لله تعالى ، وقرّبوا قرباناً ، وسألوا الكهنة أن يَدْعوا الله بالشفاء ، فإذا بَرِىء سَمّوا ذلك طِبّاً ومرَضاً ، وجنوناً إلهيّاً .

ومن الحكماء من زعم أن العشق هو إفراطُ المحبة وشِدّةُ الميل إلى نوع من الموجودات دونَ سائرِ الأنواع ، وإلى شخصٍ دونَ سائر الأشخاص ، أو إلى شيء دونَ سائر الأشياء ، بكَثرة الذّكر له ، وشِدّة الاهتمام به ، أكثرَ مما ينبغي . فإن كان العشقُ هو ذا فليس إذاً أحد من الناس يخلو منه ، إذ كان لا يوجد أحـدٌ إلاّ وهو يُحب ويميل إلى شيء دونَ سائر الأشياء ، أكثرَ مما ينبغي . وكثيرٌ من الحكماء والأطباء يُسمّون هذه الحال ماليخوليـا . وقد أكثر الأطباء القِيلَ والقالَ في هذه العِلّة ، وأعياهم عِلاجُها . وقد ذُكِرت في كتب أحكام المواليد عِلَلُ ذلك تركنا ذِكرَها مخافةَ التطويل ، لأنا نريد أن نتكلم في العشق المعروف عنـد جمهور الناس . وذلك أنهم لا يُسمّون العشق إلاّ ما كان من هذه الحال ، نحو شخص من أبناء الجنس ، ذكَراً كان أو أنثى .

---

١ بذلت : الرواية المعروفة : جعلت .
٢ السلوة : مـا يشرب ليسلّي ، او هو ان يؤخذ تراب قبر ميت فيجعل في مـاء فيسقى العاشق فيموت حبه ، او هو دواء يسقاه الحزين فيفرّحه . ويروى البيت أيضاً :

فما تركا من حيلة يعلمانها ، ولا سلوةٍ إلا بها سقياني

ومن الحكماء من قال إن العشق هو هوًى غالبٌ في النفس نحو طبعٍ مُشاكلٍ في الجسد، أو نحو صورة مماثلةٍ في الجنس. ومنهم من قال إن العشق هو شدة الشوق إلى الاتحاد ، ولهذا فأيّ حال يكون عليها العاشق يتمنى حالاً أخرى أقربَ منها ، ولهذا قال الشاعر[1] :

أُعانِقُها ، والنفسُ بَعدُ مشوقةٌ إليها ، وهل بعد العِناقِ تَداني ؟
وألثِمُ فاها كي تَزولَ صبابتي ، فيزدادُ ما ألقى من الهَيَمانِ
كأنّ فؤادي ليس يَشفِي غَليلَه، سوى أن يرى الرُّوحَين يمتزِجانِ

وهذا القول أرجَحُ ما قيل فيه ، وألطَفُ ما أُشير إليه . ونحتاج أن نشرح هذا الباب لتتّضِحَ حقيقتُه ، وتُعرَف أسبابه ، ولكن لما كان الاتحادُ هوًى نفسانيّاً ، وتأثيراً روحانيّاً ، احتجنا إلى أن نذكر أنواع النفوس ، وأنواع معشوقاتها ، وعِلل تلك وأسبابها . وأما الفرق بين العِلل والأسباب ، فهو أن العِلل كائنةٌ في طباع النفوس ، والأسباب خارجةٌ منها ، كما سنبين بعد هذا الفصل .

واعلم يا أخي أن النفوس المُتجسدة لما كانت ثلاثة أنواع ، كما قالت الحكماء والفلاسفة ، صارت معشوقاتها أيضاً ثلاثة أنواع : فمنها النفس النباتية الشهوانية ، وعِشقُها يكون نحو المأكولات والمشروبات والمناكح . ومنها النفسُ الغضبية الحيوانية ، وعِشقُها يكون نحو القهر والغلبة وحُبّ الرياسة . ومنها النفس الناطقة ، وعشقها يكون نحو المعارف واكتساب الفضائل .

واعلم يا أخي ، أيدك الله وإيانا بروحٍ منه ، أنه ليس أحد من الناس يخلو من نوع من هذه الأنواع الثلاثة التي ذكرناها ، أو يكون آخذاً بنصيبٍ من كل واحد منها قلّ أو كثُر . والعلّةُ في ذلك أنه لما كان من شأن النفوس

---

[1] الشاعر : ابن الرومي .

أن تتبع أمزِجة الأبدان في إظهار أفعالها وأخلاقها ومعارفها ، وبخاصّةٍ ما كان أغلب منها في المزاج ، وأقوى في أصل التركيب ، كما بيّنّا في رسالة الأخلاق ورسالة مسقط النطفة : وذلك أن كل إنسان يكون المُستوليَ عليه، في أصل مَولِده ، القمرُ أو الزُّهَرةُ وزُحَلُ ، فإن الغالب على طبيعته قوةُ النفس الشهوانية نحو المأكولات والمشروبات والجمع والادّخار لها . وإن يكن المستوليَ المِرّيخُ والزُّهَرةُ أو القمرُ ، فإن الغالب على طبيعته شهوةُ الجِماع والمَناكح . وإن كان المستوليَ على أصل مولده الشمسُ والمِرّيخُ ، فإن الغالب على طبيعته تكون شهوة النفس الغضبية نحو القهر والغلبة وحب الرياسة . وإن كان المستوليَ عليه ، في أصل مولده ، الشمسُ وعطاردُ والمشتري، فإن الغالب على طبيعته تكونُ شهواتُ النفس الناطقة نحو المعارف واكتساب الفضائل والعدل .

وقد بيّنّا في رسالة مسقط النُّطفة كيف يتقرّر في جِبِلّةِ الجنين وطبع المولود تأثيراتُ هذه الكواكب . وبيّنّا في رسالة الأخلاق كيف يعتاد الإنسان باكتساب تلك الطباع ، والأخلاق التي في الطباع ، قَبُولها وتهيُّؤها ، أو ضدّ ذلك . وإذ قد فرغنا من ذكر ما احتَجنا إلى أن نذكره ، فنرجع الآن إلى تفسير قول من قال من الحكماء : إن العشق هو شدةُ الشوق إلى الاتحاد ، فنقول : إن الاتحاد هو من خاصّيّة الأُمور الروحانية ، والأحوال النفسانية ، لأن الأُمور الجسمانية لا يُمكن فيها الاتحاد ، بل المجاورةُ ، والممازَجةُ ، والمماسةُ لا غير . فأما الاتحاد فهو في الأُمور النفسانية ، كما سنبيّن في هذه الفصول .

واعلم يا أخي أن مبدأ العشق وأوله نظرةٌ أو التفات نحو شخصٍ من الأشخاص ، فيكون مَثَلُها كمَثَل حبةٍ زُرِعت ، أو غصن غُرِس ، أو نُطفة سقطت في رحم بشرٍ . وتكون باقي النظرات واللحظات بمنزلة مادةٍ تنصَبُّ إلى هناك ، وتنشأ وتَنمي على مرّ الأيام ، إلى أن تصير شجرةً أو

جنيناً ؛ وذلك أن همّة العاشق ومُناه هو الدنوّ والقُرب من ذلك الشخص . فإذا اتفق له ذلك وسَهُل ، تمنى الخلوة والمجاورة . فـإذا سَهُل ذلـك تمنى المعانقة والقُبلة . فإذا سَهُل ذلك تمنى الدخول في ثوب واحـد ، والالـتزام بجميع الجوارح أكثر ما يُمكن . ومع هذه كلها الشوقُ بحاله لا ينقُص شيئاً بل يزداد وينمو كما قيل :

أُعانِقُها ، والنفسُ بعـد مشوقةٌ إليها ، وهل بعد العِناق تداني ؟
وألثِمُ فاها كي تزولَ صبابتي ، فيزدادُ مـا ألقى من الهَيَمانِ
كأن فؤادي ليس يشفي غليله ، سوى ما يُرى: زَوجانِ ممتزجانِ

ثم اعلم أن روح الحياة إنمـا هو بخارٌ رَطبٌ يتحلل من الرطوبة والدم ، وينشأ في جميع البدن ؛ ومنها تكون حياةُ البدن والجسم ، ومـادةُ هـذه الروح من استنشاق الهواء بالتنفُّس دائمـاً لترويح الحرارة الغريزيّة التي في القلب . فإذا تعانق العاشق والمعشوق جميعاً ، وتباوسا ، وامتصّ كل واحد منهما ريق صاحبه وبلعه ، وصلت تلك الرطوبة إلى مَعِدة كل واحد منهما ، وامتزجت هناك مع الرطوبات التي في المعـدة ، ووصلت إلى جِرْم الكبد ، واختلطت بأجزاء الدم هناك، وانتشرت في العروق الواردة إلى سائر أطراف الجسد، واختلطت بجميع أجزاء البدَن، وصارت لحماً ودماً وشحماً وعروقاً وعصَباً وما شاكل ذلك .

وهكذا أيضاً إذا تنفّس كل واحد منهما في وجه صاحبه ، خرج من تلك الأنفاس شيء من نسيم روح كل واحدٍ منهما ، واختلط بأجزاء الهواء . فإذا استنشقا من ذلك الهواء ، دخلت إلى خياشيمهما أجزاءُ ذلك النسيم مـع الهواء المُستنشَق ، ووصل بعضه إلى مُقدّم الدّمـاغ ، وسرى فيه كسَريان النور في جِرم البِلّور ، واستلذّ كلّ واحدٍ منهما ذلك التّنَسُّم. ووصل أيضاً من أجزاء ذلك الهواء المُسْتَنْشَقِ بعضٌ إلى جِرم الرّئة في الحُلقوم ، ومن الرّئة

إلى جِرم القلب مع النَّبْض في العروق الضوارب إلى جميــع أجزاء الجسد ، واختلط هناك بالدم واللحم ، وما شاكل ذلك من أجزاء الجسد ، وانعقد في بدن هذا ما تحلـّل من جسد هذا ، وفي بدَن هذا ما تحلل من جسد ذاك ، فيكون من ذلك ضروبٌ ، ومن المِزاجات من تلك الأمزجة ضروبُ الأخلاط ، ومن تلك الأخلاط ضروبُ الأخلاق . كلٌّ ذلك بحسَب أمزِجة أبدانها .

ومن شأن النفس أن تتبع مِزاجَ البدن في إظهار أفعالها وأخلاقهـا ، لأن مِزاج الجسد ، وأعضاء البدن ، ومفاصِله للنفس بمَنزِلة آلات وأدواتٍ للصانع الحكيم يُظهر بهـا ومنها أفعاله . فلهذه الأسباب والعِلـَل التي ذكرناها يتولـّد العشق والمحبة ، على ممرّ الأيام ، بين المتحابَّين ، وينشأ وينمو . فأمـا الذي يتغيّر من المحبة ويفسد بعد التأكيد ، فلأسباب يطول شرحها ، ولكن نذكر أولاً مـا العِلـّةُ في محبة شخصٍ لشخصٍ ، دونَ سائر الأشخاص ، فنقول: إن العلة في ذلك اتفاقُ مُشاكَلة الأشخاص الفلـَكية في أصل مَولِدهما بضَربٍ من الضروب المـُوافِقة من بعضٍ لبعضٍ ، وهي كثيرة الفنون ، ولكن نذكر منها طرَفاً ليكونَ دليلًا على الباقية . فمنها أن يكون مَولِدهما ببرج واحد ، أو ربّ البرجين كوكبٌ واحد ، أو يكون البرجان متفقَينِ في بعض المثاني كالمـُثلـّث ، أو تكون مَطالِعهما متساويةً ، أو ساعاتُ نهارهما متفقة ، وما شاكل ذلك ممـــا يطول شرحه — يعرف حقيقة مـا قلنـا أصحابُ الأحكام الناظرون في مواليد الناس .

وأما تغير العشق بعد ثباته زماناً طويلًا فهو تغيُّر أشكال الفلك في تحاويل سِني مواليد الناس ، وسَيرُ درجة الطالع وتَنقُّلها في حدود البروج والوجوه؛ وهكذا تسييراتُ شُعاعات الكَواكب في أبراج الانتهاءات في مستقبل السنين .

واعـلم يا أخي أن كل الكائنـــات التي دون فلك القمر ، فهي مربوطة الأحوال بحركات الأشخاص الفلكية ، كما بيّنـا في رسالة ماهيّة الطبيعـة ، ورسالة الأدوار والأكوار ، ورسالة الأفعال الروحانية .

فصل في ماهية علة فنون المعشوقات

اعلم يا أخي أن كثيراً من الناس يظنون أن العشق لا يكون إلاَّ للأشياء الحسنة حَسْبُ! وليس الأمر كما ظنوا فإنه قد قيل: يا رُبَّ مستحسنٍ ما ليس بالحسَن! ولكن العلّة في ذلك هي الاتفاقات التي بين العاشق والمعشوق، وهي كثيرة لا يحصي عددَها إلاَّ اللهُ جل ثناؤه، ولكن نذكر منها طرَفاً ليكون دليلًا على الباقية. وذلك أن الاتفاقات بحسب المناسَبات التي بين أجزاء المُركّبات. فمن تلك المناسَبات ما هي بين كلّ حاسّة ومحسوساتها، وذلك أن القوة الباصرة لا تشتاق إلاَّ إلى الألوان والأشكال، ولا تستحسن منها إلاَّ ما كان على النّسبة الأفضل، وهكذا القوّةُ السامعة لا تشتاق إلاَّ إلى الأصوات والنغَم، ولا تستلذّ منها إلاَّ ما كان على النّسبة الأفضل، كما بيّنا في رسالة الموسيقى.

وعلى هذا القياس سائرُ الحواسّ كلٌّ واحدةٍ منها لا تشتاق إلاَّ إلى محسوساتها، ولا تستحسن ولا تستلذّ إلاَّ ما كان منها على النسبة الأفضل بينهما في الآفاق. ولما كانت تراكيبُ أمزجة الحواس والمحسوسات كثيرة الفنون، وكثيرة التغيير، غيرَ ثابتة على حالة واحدة، صارت القُوى الحسّاسة في إحساسها لمحسوساتها مُفنّنةً متغيرة، وذلك أنك تجد واحداً من الناس، أو من الحيوان، يستلِذّ مأكولاً، أو مشروباً، أو مسموعاً، أو مشموماً، والآخَرُ لا يستلذه، بل ربما كان يكرهه ويتألم منه. وهكذا تجد الإنسانَ الواحد يستلذ في وقت ما شاء ويستحسنه، وفي آخر يكرهه ويتألم منه. كل ذلك بحسَب اختلاف التراكيب وفنون الأمزجة، وما يعرِض لها، وما يحدث بينها من المناسَبات والمُنافَرات، وشرحها طويل.

واعلم يا أخي أن الحكمة الإلهية والعناية الربّانية قد ربطت أطراف الموجودات بعضَها ببعض رِباطاً واحداً، ونظمتها نِظاماً واحداً. وذلك أن

الموجودات لما كان بعضُها عِللًا وبعضُها معلولات ، ومنها أوائلُ ومنها ثوانٍ ، جَعلتْ في جبِلة المعلولات نُزوعاً نحو علاّتها ، واشتياقاً إليها ، وجعلت أيضاً في جِبِلة علاّتها رأفةً ورحمةً وتحنُّناً عـلى معلولاتها ، كما يوجد ذلك في الآباء والأمّهات على الأولاد ، ومن الكبار عـلى الصغار ، والأقوياء على الضعفاء ، لشدة حاجة الضعفاء إلى مُعاونة الأقوياء، والصغار إلى الكبار، كما أجاب رئيس قُريش وحكيمُها لمـا سأله كسرى : أيُّ أولادكِ أحبُّ إليك ؟ فقـال : صغيرهم حتى يكبر ، وعليلهم حتى يبرأ ، وغائبهم حتى يرجع .

فصل

ثم اعلم أن الأطفال والصبيان ، إذا استغنوا عن تربية الآباء والأمّهـات ، فهم بعدُ محتاجون إلى تعليم الأستاذِينَ لهـم العلومَ والصنائعَ ليبلـُغوا بهم إلى التمام والكمال، فمن أجل هذا يوجد في الرجال البالغين رغبةٌ في الصبيان ومحبة للغلمـان ، ليكون ذلك داعياً لهم إلى تأديبهم وتهذيبهم ، وتكميلهم ، للبلوغ إلى الغايات المقصودة بهم ، وهذا موجود في جبلة أكثر الأمم التي لها شغَف في تعلـّم العـلم ، والصنائع ، والأدب ، والرياضات ، مثل أهل فارس ، وأهل العراق ، وأهل الشام، والروم وغيرها من الأمم . وأما الأُمم التي لا تتعاطى العلوم والصنائع والأدب ، مثلُ الأكراد والأعراب والزّنج والترك ، فإنه قـلَّ مـــا يوجد فيهم ، ولا في طبـاعهم الرّغبةُ في نِكاح الغلمـان وعشق المرْدان .

وأما محبةُ النساء للرجال وعشقُهـا فإن ذلك في طباع أكثر الحيوانات التي لها سِفاد . وإنما جُعِلت تلك في طبائعها لكيما يدعوهـا إلى الاجتماع والسّفاد ، ليكون منها النّتاج . والغرضُ منها بقاءُ النسل ، وحِفظ الصورة في الهَيُولى

بالجنس والنوع ، إذ كانت الأشخاص دائماً في السيلان. والغرضُ من هذه كلها بعيد من أفكار أكثر العقلاء . وقد بيّنّا ذلك في رسالة المبادىء ورسالة البعث .

فصل في أنواع المحبوبات وما الحكمة فيها

واعلم يا أخي ، أيدك الله وإيانا بروح منه، أن المحبة مُفنّنة ، والمحبوبات كثيرةٌ لا يحصي عددها إلاّ الله ، ولكنّا نذكر منها طرَفاً ليكون دليلًا على الباقية . فمن أنواع المحبوبات محبّةُ الحيوانات الازدواج والنّكاح والسّفاد ، لما فيه من بقاء النسل . ومنها محبّةُ الأمهات والآباء للأولاد ، وتحنّنهم على الصغار ، وتربيتهم لهم ، وإشفاقهم عليهم ، كأنها مجبولةٌ في طباعهم، مركوزة في نفوسهم ، لشدّة حاجة الصغار إلى الكبار . ومنها محبة الرؤساء للرياسات ، وحرصهم على طلبها، ومراعاتهم لمرؤوسيهم ، وحِفظهم لهم ، وإشفاقهم عليهم، ومحبّتهم للمدح والثناء والشكر ، كأنها مجبولة في طباعهم ، مركوزة في نفوسهم . ومنها محبّةُ الصُنّاع في إظهار صنائعهم ، وحِرصُهم على تتميمها ، وشهوتهم لتحصيلها وتركيبها ، كأنه شيء مجبول في طباعهم ، مركوز في نفوسهم ، لشدّة حاجتهم إليها . ومنها محبّة التجار لتجاراتهم ، ورَغبةُ الراغبين في الدنيا، وحِرصُهم على الجمع والادّخار لها وحِفظِها، ومحبةُ عِمارة الأرض، وإصلاحِ الأمتعة وجمعِها وحفظِها ، كأنه شيء مجبول في طباعهم ، مركوز في نفوسهم ، لما فيه من الصلاح لغيرهم ومن يأتي من بعدهم . ومنها محبة العلماء والحكماء لاستخراج العلوم، ووصفِ الآداب، وتعليم الرياضات، والبحث عن الغوامض ، والفحص عنها ، وتدوينها في الكتب والأدراج ، أمّةً بعد أمةٍ ، وقرناً بعد قرن ، كأنه شيء مجبول في طباعهم ، مركوزٌ في نفوسهم ، لما فيه من إحياء النفوس ، وإصلاح الأخلاق ، وصلاح الدين والدنيا جميعاً .

ومنها محبة البِرّ والإحسان ، وما يقال فيهما من المدح والثناء ، كأنه شيء مجبول في طباع البشر ، مركوزٌ في نفوسهم ، لما فيه من الحث على مكارم الأخلاق . ومنها محبة أبناء الجنس وما يسمّى العشقَ، وما يصف العُشّاق من أحوالهم وأحوال معشوقهم ، وما يجدون في نفوسهم من الأفكار ، والهموم والأحزان ، والفرح والسرور ، والنشاط ، وما يذكرون من الأخلاق الجميلة ، والطرائق الحميدة ، وما يذُمّون من الأخلاق المذمومة ، والأحوال المرذولة ، قالوا : لو لم يكن العشق موجوداً في الخليقة ، لخَفيت تلك الفضائلُ كلّها ، ولم تظهر ، ولم تُعرَف تلك الرذائل أيضاً ! فقد بان وتبيّن، إذاً بما ذكرنا ، أن المحبة والعشق فضيلة ظهرت في الخليقة ، وحكمةٌ جليلة ، وخَصلةٌ نفيسة عجيبة . ذلك من فضل الله على خلقه ، وعنايته بمصالحهم ، ودلالة لهم عليه ، وترغيباً لهم فيما أمر به من المزيد .

واعلم يا أخي أن محبوبات النفوس ومعشوقاتها مُفنَّنة ، وهي بحسَب مراتبها في العلوم ، ودرجاتها في المعارف . وذلك أن النفس الشهوانيّة لا يَليق بها محبّةُ الرياسة والقهر والغلبة ، ولا النفس الحيوانية يليق بها محبّةُ العلوم والمعارف ، واكتسابُ الفضائل ؛ ولا النفسُ الملكية يليق بها محبّةُ الأجساد والكونِ مع الأجسام اللحميّة والدموية ، بل الذي يليق بها محبّةُ فراق الأجساد ، والارتقاء إلى ملكوت السماء ، والسَّيحانِ في سَعة فضاء الأفلاك ، والتّنسم من ذلك الرَّوْح والرَّيحان المذكور في القرآن .

ومن أجل هذا الذي ذكرنا من مراتب النفوس وما يليق بها من المعشوقات، أنّكَ لا تجد ولا ترى نفساً تُحِبّ وتعشَق وتشتاق إلاّ لأبناء جنسها ، وما شاكلها من المحبوبات والمعشوقات . مثال ذلك أنفسُ الصّبيان والناقِصين من الناس، فإنهم لا يُحبون ولا يعشقون إلاّ اللّعِبَ والتماثيلَ المصوَّرة والمزيَّنة، المُشاكِلةَ لمرتبة نفوسهم ، فإذا عَقلوا وتعلّموا وارتاضوا ، ارتفعت هِمَمُهم وشُغِلت نفوسُهم بغيرها مما هو أشَدّ تحقيقاً مما كانوا فيه . وهو الصورةُ من

الأشكال والمحاسن، والزينةُ الموجودةُ في الأشكال والأجساد اللحمية، من الحيوان والناس، وهي المحبوبة المرغوبة فيها، المشتهاةُ المعشوقة عند أكثر الناس من البالغين العقلاء. فإذا ارتاضت نفوسُهم في العلوم الإلهية والمعارف الرّبّانية، ارتفعت نفوسهم أيضاً عن هذه الصُّور والتماثيل المزوّقةِ الموجودة في اللحم والدم إلى ما هي أشرفُ منها وأفضلُ، وهي الصورةُ للنفوس ذواتِ الحسن والبهاء والكمالِ والجمال التي تراها النفوس الناطقة الناجية في عالم الأرواح.

ثم اعلم أنه لما قَصُرت أفهامُ كثيرٍ من الناس عن تصوّرِها، وقَلّت معرفتُهم بها، رَضوا بهذه الصورة والأشباح الجسمية الجسَدانيّة المؤلّفة من اللحم والدم، والصّديدِ[1]، واطمأنوا إليها، وسكنوا إليها، وتمنّوا الخلودَ بها لنَقص نفوسهم، كما ذكر الله تعالى: « رضوا بالحياة الدنيا واطمأنّوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون. » وآياتٌ كثيرة في القرآن في هذا المعنى.

ثم اعلم يا أخي أنه مُقرّرٌ في طباع الموجودات، وجبلة النفوس، محبّةُ البقاء، والدوام السرمدي، على أتمّ الحالاتِ، وأكملِ الغايات. وأتمُّ حالاتِ النفس الشّهوانية بأن تكونَ موجودةً أبداً، تتناول شهواتِها، وتتمتع بلذاتها التي هي مادّةُ وجود أشخاصها، من غير عائق ولا تنغيص.

وهكذا من أتمّ حالات النفس الحيوانية أن تكون موجودةً أبداً، رئيسةً على غيرها، قاهرةً لمن سواها، منتقمةً ممن يؤذيها من غير عائق ولا تنغيص.

وهكذا أيضاً من أتم حالات النفس الناطقة أن تكون موجودةً أبداً، مدركةً لحقائق الأشياء، مُتصوّرة لها، ملتذةً بها، مسرورةً فرحانةً بلا عائق ولا تنغيص.

وإنما صارت النفوسُ الناطقة تلتذ بالعلوم والمعارف، لأن صُوَر المعلومات

[1] الصديد: ماء الجرح الرقيق. او هو القيح المختلط بالدم.

في ذاتها هي المُتمِّمةُ لها ، المُكمِّلة لفضائلها ، المُبلِّغة لها إلى أتم غاياتها ، وأفضل نهاياتها عند باريها ، جلّ ثناؤه ، كما قال تعالى : « في مقعد صدق عند مليك مقتدر » .

ثم اعلم أن هذه الأحوال لا تليق بالنفس الشهوانية ، ولا بالنفس الغضبية ، ولكن تليق بالنفس الناطقة إذا هي انتبهت من نَوم الغفلة ، واستيقظت من رقدة الجهالة ، وانفتحت لها عينُ البصيرة ، وعاينت عالَمَها ، وعرفت مبدأها ومَعادَها ، واشتاقت عند ذلك إلى باريها ، وتاقت وحنَّت إليه ، كما يحنُّ العاشق إلى معشوقه . وإلى هذا أشار بقوله تعالى: «والذين آمنوا أشد حبّاً لله» يعني من كل محبوب سواه .

ثم اعلم أن كل نفس ، إذا أحبَّت شيئاً ، اشتاقت وحنَّت نحوه ، وطلبته وتوجهت نحوه حيث كان ، ولم تلتفت إلى شيء سواه ، ولم تُعرِّج عليه كما قال الشاعر :

أُحبُّ حبيباً واحداً لست أبتغي ، مدى الدهر ، عنه ، ما حييتُ ، بديلا
فإن ظَفرت كفي به فهو بُغيتي ، وإن فات ، ما أبغي سواه خليلا

ثم اعلم أن كل مُحب لشيء من الأشياء ، مشتاقٌ إليه ، هائمٌ به ، وأنه متى وصل إليه ونال ما يهواه منه ، وبلغ حاجته من الاستمتاع به والتلذذ بقُربه ، فإنه ولا بُدَّ يوماً من أن يفارقه ، أو يَملّه ، أو يتغيَّر عليه . وتذهبُ تلك الحلاوة ، وتتلاشى تلك البشاشة ، ويخمد لهبُ ذلك الاشتياق والهيجان ، إلاّ المحبين لله تعالى من المؤمنين والمشتاقين إليه من عباده الصالحين ، فإن لهم كل يوم من محبوبهم قربةً ومزيداً أبد الآبدين ، بلا نهاية ولا غاية . وإلى المحبِّين لسواه ، عز وجل ، أشار بقوله : « كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً . » ثم عطف نحو محبيه فذكر حالهم وكنى عن ذكرهم وإلى نحو ذِكرهم فقال تعالى : « ووجد الله عنده فوفاه حسابه » يعني

عند المحبّ . وكما روي في الخبر عن موسى ، عليه السلام ، أنه نادى ربه فقال : « يا رب أين أجدك ؟ » فقال : « عند المُنكسرة قلوبهم من أجلي. »
وقال عليه السلام : اعبُدِ الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك .

ثم اعلم أن رؤية أولياء الله تعالى ، جلّ اسمه ، ليست كرؤية الأشخاص، والأشباح ، والصوَر ، والأجناس ، والأنواع ، والجواهر ، والأعراض ، والصفات والموصوفات في الأماكن والمحاذَيات ، ولكن بنوع أشرف منها وأعلى ، وفوق كل وصف جسماني ، ونعتٍ جِرْماني ، وهي رؤية نور بنور، لنور في نورٍ مِن نور ، كما قال الله تعالى: « الله نور السموات والأرض ، مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ، المصباح في زجاجة ، الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية » أي لا صُوريةٍ ولا هَيُولانيّة .

ثم اعلم أن الغرض الأقصى من وجود العشق في جبلة النفوس ومحبتها الأجساد واستحسانها لها ولزينة الأبدان، واشتياقها إلى المعشوقات المفتنّة، كلُّ ذلك إنما هو تنبيهٌ لها من نوم الغفلة ورقدة الجهالة ، ورياضةٌ لها وتعريجٌ لها وترقيةٌ من الأُمور الجسمانية المحسوسة إلى الأمور النفسانية المعقولة ، ومن الرتبة الجِرْمانية إلى المحاسن الروحانية ، ودلالةٌ على معرفة جوهرها ، وشرف عنصرها ، ومحاسن عالمها ، وصلاح معادِها ، وكل ذلك أن جميع المحاسن والزينة ، وكل المشتهيات من المرغوب فيها الذي يُرى على ظواهر الأجرام وسطوح الأجسام ، إنما هي أصباغٌ ونقوشٌ ، ورسومٌ قد صوّرتها النفسُ الكلية في الهيولى الأُولى ، وزيّنت بها ظواهر الأجرام وسطوح الأجسام ، كيما إذا نظرت إليها النفوسُ الجزئية ، جنّت إليها ، وتشوّقت نحوها ، وقصدت لطلبها، بالنظر إليها، والتأمُّل لها، والتفكر فيها ، والاعتبار لأحوالها ، كلُّ ذلك كيما تتصوّر تلك الرسومُ والمحاسنُ والنقوش في ذاتها ، وتنطبع في جوهرها ، حتى إذا غابت تلك الأشخاصُ الجِرمانية عن مشاهدة

الحواسّ لها ، بقيت تلك الرسوم والصوَر المعشوقة المحبوبة مُصوَّرةً فيهـا أَعينُ النفوس الجزئية ، صورةً روحانية ، صافيةً ، باقية معهـا معشوقاتها ، مُتحدة بها ، لا تخاف فِراقها ولا فواتها أبداً .

والدليل على ما قلنا وصحة مـا وصفنا معرفة من عَشِق يومـاً من أيام عمره لشخص من الأَشخاص ثم تسلّى عنه ، أَو فقده ، أَو تغيَّر عليه ، ثم إنه وجده من بعده ، وقد تغيَّر عمـا كان عليه ، وعَهِده من الحسن والجمـال وتلك الزينة والمحاسن التي كان رآها على ظاهر جسمه ، فإنـه متى رجع عند ذلك ، فنظر إلى تلك الرسوم والصُّوَر التي هي باقيـةٌ في نفسه منذ العهـد القديم ، وجدها بحالها تلك ولم تتغيَّر ، ولم تتبدَّل ، ورآها برُمَّتها ، فتشاهد النفسُ في ذاتها حينئذ ، من تلك المحاسن والصوَر والرسوم والأَصباغ ، مـا كانت من قبلُ تراها على غير تغيُّرٍ ، وتجد في جوهرها مـا كانت قبل ذلك تطلبه خارجاً عنها . فعند ذلك تبين له وعلم أَن المعشوق والمحبوب بالحقيقة إنما هي تلك الرسوم والصوَر التي كان يراها على ذلك الشخص ، وهو اليوم يراها منقوشةً في نفسه ، مرسومةً في جوهره ، مصورَةً في ذاته ، باقية لم تتغير ! فإذا فكَّر العاقل اللبيب فيما وصفنا، انتبهت نفسه من نوم غفلتها، واستيقظت من رِقدة جهالتها ، واستقلت بذاتها ، وفازت بجوهرها ، واستغنت عن غيرها، وكان حالها كما وصف المحب بقوله :

قد كنت آلَفُ مَوطِناً وتشوقُني، نحو الأَحبّةِ ، لوعةٌ مـا تُنكَرُ
والآن مـا لي مَصْدَرٌ عن موردي، مـا للعبيدِ عن المَوالي مَصْدَرُ

فاستراحت نفسه عند ذلك من تعبها وعنائها ، ومُقاساة صُحبة غيرهـا ، وتخلصت من السقام الذي لا يزال يَعرِضُ لعاشقي الأَجرام، ومحبي الأَجسام، حسَبَ ما وصفوه في أَشعارهم ، وشكوه من أَحوالهم ، كما قال بعضهم:

وما في الأرض أشقى من مُحبٍّ ، وإن وجَد الهوى حُلوَ المَذاقِ
تراه باكياً ، في كل حين ، مخافةَ فُرقةٍ أو لاشتياقِ
فيبكي ، إن نأى ، شوقاً إليه ، ويبكي ، إن دنا ، خوف الفِراقِ
فتسخنُ عينُه عند التنائي ، وتسخَنُ عينُه عند التلاقي

فصل

ثم اعلم أن من ابتُلي بعشق شخص من الأشخاص ، ومرّت به تلك المِحَن والأهوال ، وعرضت تلك الأحوال ، ثم لم تنتبه نفسه من نوم غفلتها ، فيتسلى ويُفيق ؛ أو نسي وابتُلي من بعدُ بعشق ثانٍ لشخص آخر ، فإن نفسه نفس غريقة في عمائها ، سكرى في جهالتها كما قيل :

تسلّت عَمايات الرجال عن الصبا وما إن أرى عنكَ الغوايةَ تنجلي [1]

ثم اعلم أن في الناس خواصٌ وعوامٌ ، فالعوامُ من الناس هم الذين إذا رأوا مصنوعاً حسناً ، أو شخصاً مزيّناً ، تشوّقت نفوسهم الى النظر إليه ، والقُرب منه ، والتأمُّل له . وأما الخواصُ فهم الحكماء الذين إذا رأوا صنعة محكمةً، أو شخصاً مزيّناً، تشوّقت نفوسهم الى صانعها الحكيم ومُبدئها العليم، ومُصوّرها الرحيم ، وتعلقت به ، وارتاحت إليه ، واجتهدوا في التشبه به في صنائعهم ، والاقتداء به في أفعالهم ، قولاً وفعلاً ، وعِلماً وعملاً .

ثم اعلم أن النفوس الناقصة تكون قصيرة الهمم ، لا تحب إلاّ زينة الحياة الدنيا ، ولا تتمنى إلاّ الخلود فيها ، لأنها لا تعرف غيرها ، ولا تتصوّر سواها. فأما النفس الشريفة المُرتاضة فهي تأنف من الرغبة في الدنيا ، بل تزهد فيها ، وتريد الآخرة وترغب فيها ، وتتمنى اللُحوق بأبناء جنسها وأشكالها من

١ البيت لامرىء القيس من معلقته .

الملائكة ، وتشتاق إلى الترقّي إلى ملكوت السماء ، والسيحان في سعة فضاء الأفلاك ، ولكن لا يمكن إلا بعد فراق الجسد ، على شرائط محدودة ، كما ذكرنا في رسالة البعث والقيامة .

واعلم أن نفوس الحكماء تجتهد في أفعالها ، ومعارفها ، وأخلاقها ، في التشبّه بالنفس الكلية الفلكية ، وتتمنى اللُّحوق بها . والنفسُ الكلية أيضاً كذلك ، فإنها تتشبه بالباري في إدارتها الأفلاك ، وتحريكها الكواكب ، وتكوينها الكائنات ، كلُّ ذلك طاعةً لباريها ، وتعبُّداً له ، واشتياقاً إليه . ومن أجل هذا قالت الحكماء : إن الله هو المعشوق الأول ، والفلكُ إنما يدور شوقاً إليه ، ومحبةً للبقاء والدوام المديد على أتم الحالات ، وأكمل الغايات ، وأفضل النهايات .

ثم اعلم أن الباعث للنفس الكلية ، على إدارة الفلك ، وتسيير الكواكب ، هو الاشتياق منها إلى إظهار تلك المحاسن والفضائل والملاذّ والسرور التي في عالم الأرواح التي تقصُر ألسُنُ الوصف عنها إلاّ مختصَراً كما قال تعالى : « فيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين » .

ثم اعلم أن تلك المحاسن والفضائل والخيرات كلّها إنما هي من فيض الله ، وإشراق نوره على العقل الكلّيّ ، ومن العقل الكلّي على النفس الكليّة ، ومن النفس الكليّة على الهَيُولى . وهي الصورة التي تُري الأنفسَ الجزئية في عالم الأجسام ، على ظواهر الأشخاص والأجرام التي من محيطِ الفلك إلى مُنتهى مركز الأرض .

ثم اعلم أن مَثَلَ سرَيان تلك الأنوار والمحاسن ، من أولها إلى آخرها ، كمثَل سرَيانِ النور والضياء الذي في ليلة البدر مُنبعثاً من جِرم جوهر القمر على الهواء ؛ والذي على جِرم القمر من الشّمس ؛ والذي على جِرم الشمس والكواكب جميعاً ، من إشراق النفس الكليّة ؛ والذي على النفس الكليّة من العقل الكلّي ؛ والذي على العقل الكلّي من فيض الباري وإشراقه ، كما قال

الله تعالى : « الله نورو الأرض السموات » .

فقد تبيّن بما ذكرنا أن الله هو المعشوق الأول، وأن كل الموجودات إليه تشتاق ، ونحوَه تقصد ، وإليه يَرجع الأمر كلُّه. لأن به وجودها، وقِوامها ، وبقاءها ، ودوامها ، وكمالها . لأنه هو الموجود المَحضُ ، وله البقاء والدّوام السَّرمَدُ ، والتمام والكمال المؤيَّد ، تعالى الله عما يقول الظالمون والجاهلون عُلوّاً كبيراً . بلّغكَ الله ، أيها الأخ ، إليه ، وتمّم نورك ، كما وعد أولياءه وأصفياءه من عِباده ، وذلك قوله تعالى: « يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم يقولون : ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا ، إنك على كل شيء قدير » وفّقك الله وإيانا ، وجميع إخواننا الكرام ، إلى طريق السّداد، وهداكَ وإيانا ، وجميع إخواننا ، سبيلَ الرّشاد ، إنه رؤوفٌ بالعباد.

تمت رسالة ماهية العشق ويليها رسالة البعث والقيامة.

الرسالة السابعة
من النفسانيات العقليات

في البعث والقيامة

(وهي الرسالة الثامنة والثلاثون من رسائل إخوان الصفاء)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى ، آللهُ خيرٌ أمّا يشركون ؟

اعلم أيها الأخ أنّا قد فرغنا من بيان ماهيّة العشق ومحبّة النفوس، ما هو أشرفُ وأحسنُ وأكملُ وأجملُ وأتمُّ وأدومُ منها ، ونريد الآن أن نذكر في هذه الرسالة ماهيّة البعث والقيامة ، وكيفية المعراج ، فنقول:

اعلم ، أيّدك الله وإيانا بروح منه ، أن العلوم كثيرة وكلّها شريفة ، وفي معرفتها عزّة ، وفي طلبها نجاةٌ من الهَلَكة ، ونيلُها حياة للنفوس وراحة للقلوب ، وتعلّمُها هدًى ورَشَد وخروج من ظُلُمات الجهالة ، وصلاحٌ في الدين والدنيا جميعاً. ولكن بعض العلوم أشرفُ من بعض، وأهلها يتفاضلون: وذلك أن أفضل العلماء هم أهل الدين والوَرَع الذين هم من أمر الآخرة على يقينٍ وبصيرة لا على تقليد ورواية .

واعلم يا أخي ، أيّدك الله وإيانا بروح منه ، أن معرفة حقيقة الآخرة ، والعِلمَ بالمعاد محجوبٌ عن إبليس وذُرّيته المنكرين لما غاب عن رؤية الأبصار،

وعن أهل التقليد الذين لا يَعرفون حقيقةَ ما هم مُقِرُّون به من أمر الآخِر
والبعث والقيامة، والحَشر، والحِساب، والميزان، والصّراط، والمَعاد، والجزا
هناك : إن خَيراً فخيراً، وإن شرّاً فشرّاً. لأن هذا العلم هو لُبُّ الألباب
وسِرٌّ لأولياء الله دون سواهم ؛ لأن أولياء الله هم المُصطَفَون الأخيارُ الذي
أخلصوا بخالصة ذِكرى الدار . ونريد أن نُلوِّحَ من هذا العلم طرَفاً في هذ
الرسالة الجليلة القَدر ، بإشاراتٍ مرموزة ، وأمثالٍ مضروبةٍ للمُريدين لله
عزّ وجلّ ، الطالبين دارَ الآخرة ، إذ كان الإخبارُ عن حقيقتها يَدِقُّ عن
البيان ، ويبعُد عن التصوُّر بالأفكار ، والتخيُّل بالأوهام، إلاّ لأنفسٍ زاكية
وأرواحٍ طاهرة ، وقلوبٍ واعية ، وآذانٍ سامعة ؛ ولكن ، قبل ذلك
نحتاج أن نذكر النفس والروح وحقيقتَهما ، وماهيَّتهما وتصاريفَ أمرهما ؛ إ
كان مَعرفةُ حقيقة الآخرة وأمر المعاد بعدَ مَعرفة البعث والقِيامة ، بعد معرفة
النفس والروح ، وعِلّة أخرى أيضاً أن قوماً من علماء الإسلام يَتعاطَون
العلوم والكلام والجَدَل ، ويُنكرون أمر النفس ووجودَها ، ويجهلون
حقيقة الروح وتصاريفَ أحوالها . من أجل هذا احتَجنا إلى أن نَدُلَّ أولاً
على وجود النفس ، وماهيّةِ جوهرها وتصاريف أمورها ، بطريق السمع
والإخبار ، وما ذُكر في الأخبار والكتب النبوية المُنَزَّلة ؛ ثم نذكر حُجج
عقلية حِكْمية ، لأن قوماً من هؤلاء المُجادِلة لا يرضَون طريق السمع
والإخبار ، ولا يُقنِعهم ذلك ، لشكُوكٍ في نفوسهم ، وريبة في قلوبهم ؛
بل يريدون دلائلَ عقليّة ، وحُججاً فلسفية ، فنقول :

اعلم يا أخي ، أيدك الله وإيانا بروح منه ، أن الحكماء والفلاسفة قد
أكثرت ، في كتبها ، وفي مُذكّراتها ، ذِكر النفوس ، وحَثّت تلاميذه
وأولادها على طلب علم النفس ومعرفة جوهرها ، لأن في علم النفس ومعرفة
جواهرها ، معرفةَ حقائق الأشياء الروحانية من أمر المَبدإ والمَعاد ، والباري
تعالى عز وجل ، وملائكته ، وخاصّةً مَعرفةَ البعث وحقيقة القيامة والنَّشر

بعد الموت ، والحَشر ، والحِساب ، والجَزاء ، وثواب المُحسنين ، وعِقاب المُسيئين .

وذلك أن كل إنسان لا يعرف نفسه ، ولا يعلم ذاته ، ولا يعلم ما الفرقُ بين النفس والجسد ، تكون همّتُه كلُّها مصروفةً إلى إصلاح أمر الجسد ، ومرافِق أمرِ البدن ، من لذّةِ العيش ، والتّمتُّع بنعيم الدنيا ، وتمني الخلود فيها ، مع نسيان أمر المَعاد وحقيقة الآخرة ! وإذا عرَف الإنسان نفسه وحقيقة جوهرها ، صارت همّته ، في أكثر الأحوال ، في أمر النفس ، وفكرتُه أكثرُها في إصلاح شأنها ، وكيفيّةِ حالها ، بعد الموت ، واليقين بأمر المَعاد ، والاستعدادِ للرحلة من الدنيا ، والتزوّدِ للمَعاد ، والمُسارَعةِ في الخيرات ، والتوبة وتجنُّبِ الشر والمُنكَر والمعاصي .

فإذا فعل ذلك ، يزول عنه خوفُ الموت ، وربما تمنى لقاء الله تعالى ، وهذه صِفةُ أولياء الله تعالى وعِبادِه الصالحين ، كما ذكر الله سبحانه وأشار إليهم بقوله في كتابه على لسان نبيّه محمد ، صلى الله عليه وسلم ، في توبيخه لليهود ، لما زعموا أنهم أولياءُ الله من دون الناس ، فقال لهم : « فتمنّوا الموت إن كنتم صادقين » بأنكم أولياءُ الله من دون الناس ، وإنما يتمنى أولياءُ الله الموتَ ، إذا تذكروا ما وعدَهم الله ، وأعدّه لهم من التحيّة والسلام ، كما قال جل ثناؤه : « تحيتهم يوم يلقونه سلام ، وأعدّ لهم أجراً كريماً » وقال تعالى أيضاً : « ولا تحسبن الذين قُتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يُرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله ، ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم أن لا خوف عليهم ولا هم يحزنون . » وقد علم كل عاقل عِلماً يقيناً أن أجساد هؤلاء قد بَليت في التراب ، وأن هذه الكرامة والتحية والسلام هي لأرواحهم ونفوسهم الطاهرة الزكيّة ، كما ذكر ، جل ثناؤه ، بقوله تعالى : « يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي » وقال تعالى: « ونفس وما سوّاها فألهمها فجورها وتقواها ، قد

أفلح من زكاها وقد خاب من دسّاها . » وقال تعالى : « يوم تأتي كل نفس تجاهل عن نفسها وتوفّى كل نفس ما عملت وهم لا يُظلمون . » وقال أيضاً : « إن النفس لأمّارة بالسوء إلاّ ما رحم ربي . » وقال جل وعز : « الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمّى . » وآياتٌ كثيرةٌ في القرآن في ذكر النفس وخطابها بالتأنيث ، ليعلم كلُّ عاقل أنها هي شيءٌ غيرُ الجسد ، لأن الجسد مُذكّر لا يُخاطَب بالتأنيث ، فكفى بهذا فَرقاً وبياناً بين النفس والجسد .

وقد يعلم كل عاقل ، إذا تأمّل وتفكّر في أمر الجسد ، أنه جسمٌ مؤلف من اللحم ، والدم ، والعروق ، والعصَب ، والعِظام ، وما شاكلها ، وأصلُه نُطفةٌ ودم انطمَس ؛ ثم اللبن والغِذاء والمأكولات والمشروبات ؛ ثم آخِر الأمر الموتُ ، وبعد مُفارقة النفس إيّاه يبلى ويصير تراباً ، ثم يعــاد خَلقاً جديداً ، إذا شاء الله كما وعد ، جلّ ثناؤه .

فأما النفس ، يعني الروح ، فهي جوهرة سماوية ، نورانيّة، حيّة ، علاّمة فعّالة بالطبع ، حسّاسة درّاكة لا تموت ولا تفنى ، بل تبقى مؤبّدة ؛ إمّا مُلتذّة وإمّا مؤتلِمة . فأنفسُ المؤمنين ، من أولياء الله وعِباده الصالحين ، يُعرَج بها بعد الموت إلى ملكوت السموات ، وفُسحةِ الأفلاك ، وتخلّى هناك ، فهي تسبح في فضاءٍ من الروح ، وفُسحةٍ من النور ، ورَوحٍ وراحة إلى يوم القيامة ، الطامّة الكبرى . فإذا انتشرت أجسادُها ، رُدّت إليها ، لتحاسَب وتجازَى بالإحسان إحساناً ، والسيئاتِ غُفراناً .

وأما أنفُس الكُفار والفُسّاق والأشرار فتبقى ، في عَماها وجَهالاتها ، معذّبةً متألّمة ، مُغتمّةً حزينة ، خائفةً وجِلةً ، إلى يوم القيامة. ثم تُرَدُّ إلى أجسادها التي خرجت منها ، لتُحاسَب وتجازى بما عملت من سوء .

والدليل على صحة ما قلنا ، وحقيقة ما وصفنا ، قولُ الله سبحانه : « النار يُعرَضون عليها غدوّاً وعشيّاً ويوم تقوم الساعة أدخِلوا آل فرعون أشد

العذاب. » وقال أيضاً : « ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطو أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تُجزَون عذاب الهون. » وقال أيضاً: « شهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين. » وقال : « ادخلوا في أُمم قد خلَت من قبلكم من الجن والإنس في النار . » وقال أيضاً : « يَصْلَونها يوم الدين وما هم عنها بغائبين . » وآياتٌ كثيرة في القرآن في هذا المعنى تدلّ على بقاء النفوس بعد الموت ، إمّا مُنعّمةً ملتذّةً ، وإمّا معذّبةً متألمة .

وفيما ذكرنا كفايةٌ لمن أنصفَ عقلَه ، ونصَح نفسه، واهتمّ لما بعد الموت، وتفكّر في أمر المَعاد ، واستعدّ للرحلة ، وتزوّد للسفر ، وزهِد في الدنيا ، ورغِب في الآخرة قبل فناء العمر وتقارُب الأجل والفَوت . وفّقكَ الله ، أيها الأخ ، للسّداد ، وهداكَ للرّشاد وإيانا وجميع إخواننا حيثُ كانوا في البلاد .

اعلم ، أيّدك الله وإيانا بروح منه ، أن الذين أنكروا أمر البعث والقيامة والنّشر والحَشْر والوُقوف ، والحِساب ووضع الموازين لوزن الحسَنات والسيئات ، والجوازِ على الصّراط ، وما شاكل هذه الأمور المذكورة في كتب الأنبياء ، عليهم السلام ، لشكوكٍ في نفوسهم ، وحَيرة في قلوبهم . والعِلّة في ذلك طلَبُهم حقيقة معرفتها وكيفيّتها، وأبنِيتها، وماهيّتها وكميتها، قبلَ معرفتهم أنفُسَهم ، وحقيقة جوهرها ، وكيفيّة كونها مع الجسد ، ولِمَ رُبِطت به وقتاً ما ، ولم تفارقه وقتاً آخر ؛ ومن أين كان مبدؤها ، وإلى أين يكون مَعادُها بعد مفارقتها جسدها . وهذه المباحث علمٌ غامض ، وسر لطيف ، ليس إليها طريقٌ للمبتدئين في العلوم الحِكمية إلاّ التسليم والإيمان والتصديقُ للمُخبرين عنها ، الصادِقين عن الله ، جلّ ثناؤه ، الذين أخذوا هذا العِلمَ عن الملائكة وحْياً وإلهاماً بتأييدٍ من الله ، جلّ ثناؤه .

وأما الذين لا يرضَون أن يأخذوا هذا العلم تسليماً وتصديقاً، بل يريدون براهين عقلية ، وحُججاً فلسفية ، فيحتاجون إلى أن تكون لهم نفوسٌ زكيّة،

وقلوب صافية ، وأذن واعية، وأخلاق طاهرة ؛ وأن يكونوا غير متعصبين في الآراء والمذاهب المختلفة ؛ ومع ذلك يكونون قد ارتاضوا في الرياضات الفلسفية ، من علم العدد والهندسة والمنطِق والطبيعيّات ، ثم نظروا في العلوم الإلهيات. وقد ذكرنا في رسائلنا طرَفاً من ذلك، وبيّنّا فيها ما يحتاج إخواننا من هذه العلوم إليها ، والمعرفة بها ، فانظُر يا أخي فيها، واعتبرها، وتأمّلها، تُرشَد إن شاء الله .

ثم اعلم يا أخي أن معنى القيامة مشتقٌّ من قام يقوم قياماً ، والهاءُ فيه للمبالغة ، وهي من قيامة النفس من وقوعها في بلائها . والبعثُ هو انبعاثها وانتباهها من نوم غفلتها ، ورقدة جهالتها ، وهي بالفارسية رست خيزاي ، قياماً مستوياً .

واعلم يا أخي، أيدك الله وإيانا بروح منه، أن كل عاقل لبيب، إذا تفكر في أمر الدنيا ، وتأمل تصرُّف حالاتها بأهلها ، من الكون والفساد ، والتغيُّر والاستحالة، وخاصّةً أمرُ الحياة والممات اللذين مرهونٌ بهما جميع الحيوان ، واعتبرَ أحوالَ الماضين من القرون السالفة ، تيقّن أنه لا محالة ميت ، وصائر إلى ما صاروا إليه ، فيودُّ ، عند ذلك ، ويتمنى أن يعرف حقيقة أمر الآخرة على صحةٍ وبيانٍ ، ليكون على يقينٍ منها .

واعلم يا أخي بأن الناس في أمر الآخرة على رأيين ومذهبين : فطائفةٌ مُقِرّةٌ بها ، وطائفة مُنكِرة . فالمنكرون أمرَ الآخرة هم الذين يظنون أن حُكمَ الإنسان بعد الممات كحُكم النبات والحيوان . وذلك أنهم لما تأملوا أمرهما ، وتفكروا في كونهما وفسادهما ، واعتبروا أحوالهما ، وجدوا النبات يتكوّن وينشأ ويبلُغ إلى غايةٍ ما ، ثم يَبلى ويضمحلّ ، ويتكوّن مثله آخر . وهكذا أمر الحيوان يتوالد ويتربّى ، ثم يبلُغ إلى غايةٍ ما ، ثم يموت ويهلك ويَبلى ، ويتكوّن آخر مِثلُه . فلما وجدوا حُكم النبات والحيوان على ما وصفنا ، جعلوا ذلك قياساً على حال الإنسان ، فقالوا :

« نموت ونحيا وما يهلكنا إلاّ الدهر » فقال الله تعالى : « وما لهم بذلك من علم » لأنهم لو سُئِلوا ما الدهرُ ، لعجَزوا عمّا هو الدهرُ في البيان ، وما دَرَوا ما الدهر .

واعلم يا أخي أن المُقرّين بالآخرة طائفتان من الناس : إحداهما الذين يُقرّون بها بألسنتهم من غير تصوُّرٍ منهم لها بقلوبهم ، ولا معرفةٍ بحقيقتها بعقولهم ، فإقرارُهم إيمانٌ وتسليمٌ لقول الأنبياء ، عليهم الصلاة والسلام ، وتقليدٌ لهم فيما يقولون ويخبرونهم عنها. والطائفة الأُخرى الذين هم مع إقرارهم بها وتصديقهم للأنبياء ، عليهم الصلاة والسلام، متصوّرون لها بقلوبهم، عارفون حقيقتها بعقولهم ، وقد مدح الله تعالى كلتا الطائفتين جميعاً وأثنى عليهم بقوله ، جل ثناؤه : « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أُوتوا العلم درجات». ولكن فضّل اللهُ إحداهما على الأخرى بقوله: « هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون » .

واعلم يا أخي أن العلم هو تصوُّر الشيء على حقيقته وصحته ، فأما الإيمان فهو الإقرار بذلك الشيء والتصديقُ لقول المُخبِرين عنه من غير تصوُّر له . فالأنبياء ، عليهم السلام ، وأولياؤهم هم المُخبِرون عن الآخرة ، المتصوّرون لها بقلوبهم ، والعارفون حقيقتها بعقولهم . والمؤمنون هم المقرّون بالآخرة بألسنتهم، المُصدّقون الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، في أخبارهم، المنتظِرون لكشفها لهم .

واعلم يا أخي أن المنتظرين لأمر الآخرة طائفتان من الناس : إحداهما ينتظر كونها وحدوثها في الزمان المستقبَل، عند خراب السموات والأرضين، هم لا يعلمون من الأُمور إلاّ المحسوسات، ولا من الجواهر إلاّ الجسمانيات، ولا من أحوالها إلاّ ما ظهر . والطائفة الأُخرى ينتظرونها كشفاً وبياناً واطّلاعاً عليها ، وهم الذين يعرفون الأُمور المعقولة ، والجواهر الروحانية ، والحالات النفسانية .

واعلم يا أخي أن معرفة أمر الآخرة ، على الحقيقة ، في معرفة أمر الدنيا ، لأنهما من جنس المُضاف ، ومن خاصّة جنس المضاف أن في معرفة أحد المُضافين معرفة الآخر . فالدنيا باسمها تدُلّ على اسم الأُخرى أن الدنيا مشتقٌّ من الدُّنوّ، والآخِرة مشتقٌّ من التأخُّر . فالدنيا هي أول معلوماتنا، وأحوالها أولُ محسوساتنا، وشعورِنا من أجسادنا، ومشاهدتِنا أحوال أجسامنا وأبناء جنسنا . وهذه كلها قبل معرفتنا بنفوسنا ، ومشاهدتنا عالمها ، وعِرفاننا أبناء جنسها ، ووجداننا لذاتِ معقولاتِها ، لأن هذه تحصُل لنفوسنا بعد مفارقتِها أجسادها ، كما حصلت تلك لنا بعد ولادة أجسادها ، لأن مفارقة النفسِ الجسدَ هي ولادةٌ لها ، كما أن مُفارَقة الجنين للرَّحِم ولادةُ الجسد .

واعلم يا أخي أن الحياة الدنيا إنما هي مُدّةُ كون النفس مع الجسد في عالم الأجسام إلى وقت المفارَقة التي هي الممات . وأما الدار الآخرة فهي عالم الأرواح التي هي الحيوان ، لو كانوا يعلمون ، أي أبناء الدنيا ، وهو كونُ النفس في عالمها بعد مفارقتِها جسدَها ، ما بقيت السمَواتُ والأرضُ ، كما ذكر الله تعالى في كتابه فقال الله تعالى : فأما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها ما دامت السمَوات والأرض ، وأما الذين شقوا ففي النار لهم فيها زفير وشهيق خالدين فيها ما دامت السمَوات والأرض . وقد بيَّنا في رسالة الآلام كيف يكون عذابُ الأشقياء في الآخرة ، وكيف تكون لذاتُ السعداء هناك .

واعلم يا أخي أن الموت ليس هو شيء سوى ترك النفسِ استعمالَ الجسد ، وأن النفس تَترُك استعمال الجسد لسببين اثنين : أحدُهما طبيعي والآخر عرضي . والسبب الطبيعي هو أن يهرَم الجسدُ على طول الزمان ، وتضعُفَ البِنية ، وتَكِلّ آلاتُ الحواس ، وتسترخي الأعصابُ والعضلاتُ المُحرّكات للأعضاء ، وتَجِفّ الرطوبة المُغذّية للبدن ، وتُطفأ الحرارة

الغريزية ، كما يطفأ السراج إذا فني الدُّهن ، فعند ذلك لا يُمكن أن يعيش الإنسان ، ولا يفعلَ شيئاً من الأفعال والأعمال ، لأن البدن للنفس بمنزلة الدُّكّان للصانع ، والأعضاءُ بمنزلةِ الأدواتِ . فإذا كلّت آلاتُ الصانع ، أو انكسرت ، أو خرب الدكان وانهدم ، فإن الصانع لا يَقدِر على عمل شيء من صَنعته ، إلاَّ أن يتّخذ دُكّاناً آخر وأدواتٍ مُجدَّدة .

وأما تركُ النَّفس استعمالَ الجسد لسببٍ عَرَضي فهو كثيرُ الفنون ، ولكن يجمعها نوعان : فمنها أسبابٌ من داخل الجسد ، بلا اختيارٍ ، كالأمراض والأعلال المُتلِفة للجسد . ومنها أسبابٌ من خارجٍ كالذبح والقتل . والقتلُ ليس هو شيء سوى أن يَقصِد قاصدٌ فيَهدِم بِنيةَ الجسد بضَربٍ من الفساد والخراب ، كما يَقصِد إنسانٌ فيَخرُب دار إنسان أو دُكّانه .

واعلم يا أخي أن كل صانعٍ حكيم ، إذا فكّر في أمره ، ونظر في العواقب ، علم أنه لا بد أن يَخرَب يوماً دُكّانُه ، وتكِلّ أدواتُه ، وتَضعُفَ قوة بدَنه ، وتذهبَ أيام شبابه . فمن بادر واجتهد قبل خراب الدُّكّان ، وكَلال الأدوات ، وذَهاب القوة ، فاكتسب مالاً بصَنعته في دكانه ، واستغنى عن السعي ، فإنه لا يحتاج ، بعد ذلك ، إلى دكان آخر ، ولا أدواتٍ مجدّدة ، بل يستريح من العمل ، ويشتغل بالتمتع واللذات بما قد كسب ، فهكذا يكون حالُ النفس بعد خراب الجسد.

فانظر يا أخي وتفكّر وبادر واجتهد وتزوّد قبل خراب هذا الدكان ، وانهدامِ هذه البِنية « فإن خير الزاد التقوى » .

واعلم يا أخي ، أيّدك الله وإيانا بروحٍ منه ، أن مواهب الله ، عزّ وجل ، لعباده كثيرةٌ لا يحصي عددَها إلاّ اللهُ تعالى . فمن جليل مواهبه ، وعظيمِ نِعَمه ، وجزيل إحسانه ومِنّته على الإنسان ، العقلُ الراجحُ والرأي الرصين ، والتمييز الصحيح ، التي لها نتائجُ العلوم الحقيقية ، ووِجدانُ المعارف الروحانية ، والتألهُ الربّاني .

واعلم يا أخي ، أيّدك الله وإيانا بروحٍ منه ، أن من أجلّ نتائج العقول ، وأشرفِ وِجدانها ، الآراءَ الجيّدةَ ، والاعتقاداتِ الصحيحةَ المُصلحة لنفوس مُعتقديها . وذلك أن الآراء الجيدة ، والاعتقادات الصحيحة ، مُعينةٌ لنفوس مُعتقديها على الانبعاث من نوم الغفلة ، ومن رقدة الجهالة ، ومُحيِيةٌ من موت الخطيئة ، ومُنجِيةٌ لها من نيران جهنّم وعذاب الهاوية : عالمِ الكَون والفساد ؛ وموصِلةٌ إلى نعيم الجنان في دار الحيوان : عالمِ الأفلاك وسَعةِ السموات ؛ ومُقرِّبة لها إلى خالقها ومُنشِئها ومُتمِّمها ومُكمِّلها ومُبلِّغها أتمّ غاياتها وأكملَ نهاياتها عند باريها في دار الخلود ، والمقام هناك ، مُتنعِّمةً ملتذّةً في دائم الأوقات ، مسرورةً أبد الآبدين ودهرَ الداهرين ، مع النبيّين والصدّيقين والشهداء والصالحين ، وحَسُنَ أولئك رَفيقاً . ذلك الفضلُ من الله .

ثم اعلم أن أحد الآراء الصحيحة ، المنجية لنفوس مُعتقديها ، اعتقادُ المُوحّدين بأن العالم مُحدَثٌ مُختَرَع مَطويٌّ في قبضة باريه ، محتاج إليه في بقائه ، مفتقِرٌ إليه في دوامه ، لا يستغني عنه طَرفةَ عين ، ولا عن إمدادِ الفيضِ عليه ساعةً فساعة ؛ وأنه لو منعه ذلك الفيضَ والحِفظَ والإمساك لحظةً واحدةً ، لتهافتت السمواتُ ، وبادت الأفلاك ، وتساقطت الكواكب ، وعَدِمت الأركانُ ، وهلكت الخلائقُ ، ودثرَ العالمُ دفعةً واحدة بلا زمان ، كما ذكر الله تعالى بقوله : « إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا أن أمسكهما من أحد من بعد » وبقوله تعالى: « والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه » .

واعلم يا أخي أن من يعتقد هذا الرأي ، ويتحقّق هذا الاعتقاد في أمر السموات والأرض ، فهو ، في دائم الأوقات ، يكون مُتعلّقَ القلب بربه ، معتصماً بحبله ، متوكلاً عليه في جميع أحواله ، مُسنداً ظهره إليه في جميع تصرّفاته ، داعياً له في جميع أوقاته ، سائلاً منه كلّ حوائجه ، مُفوّضاً إليه

سائر أموره ؛ فيكون له بهذه الأوصاف قُربةٌ إلى ربه ، وحياةٌ لنفسه ، وهدوءٌ لقلبه ، ونجاةٌ من المهالك ، كما ذكر الله تعالى بقوله حكايةً عن عبدٍ من عباده وهو مؤمن من آل فرعون ، يكتم إيمانه ، في آخر خطابٍ طويلٍ مع فرعون : « وأفوّض أمري إلى الله إن الله بصير بالعباد ، فوقاه الله سيئات ما مكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب . »

فأما من يظنّ أو يتوهم أن العالم مستقلٌ بذاته ، ومُستغنٍ في وجوده عن فيض باريه عليه بالمادّة والبقاء والحفظ والإمساك ، فهو يكون مُعرضاً عن ربّه ، ناسياً ذكرَه ، غافلاً عن دُعائه ، مشغولاً بما حوله من أعراض دنياه وما كان له فيها ، وملكه منها . فهو لا يذكُر ربّه إلاّ ساهياً ، ولا يدعوه إلاّ لاهياً ، ولا يسأله إلاّ بطَراً ورياء ، أو مُضطرّاً عند الشدائد والبلوى والمصائب والضرّاء ، على كُرهٍ منه وشكوكٍ في حَيرة وضلال ، لا يدري لِمَ ابتُلي، ولا كيف عُوفي هو، ويكون جاهلاً بربه حقّ معرفته ، فيبقى محجوباً عن ربه طول عمره في دنياه « وفي الآخرة أعمى وأضل سبيلا » .

ومن الآراء الجيّدة ، والاعتقادات النافعة لنفوس مُعتقديها ، المُعينةِ لها على الانبعاث من نوم الغفلة ، المُقيمةِ لها من رقدة الجهالة ، المُحيية لها من موت الخطيئة ، المُنجية لها من نيران الهاوية : عالَمِ الكون والفساد ، المُوصِلة لها إلى الجنة : عالم الأفلاك وسَعة السموات ، المُقرّبة لها إلى باريها لدَيه زُلفى ، اعتقادُ الإنسان العاقل ، وعلمُه اليقينُ أنه مُتوجّه إلى ربه ، وقاصدٌ نحوه منذ يوم خلَقَه نُطفةً في قَرارٍ مَكينٍ ، ينقُله ربه وخالقه حالاً بعد حال من الأنقصِ إلى الأتمّ والأكمل ؛ ومن الأدون إلى الأشرف والأفضل ، إلى أن يلقى ربَّه، ويراه ويشاهده، فيُوفّيه حسابه، كما ذكر الله، جلّ ثناؤه، بقوله: « فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً » وآياتٌ كثيرة في القرآن في هذا المعنى . وقال الله تعالى وعيداً وذمّاً وتوبيخاً

لمن لا يعتقد هذا الرأي: «أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون؟» «إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون، أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون» وآياتٌ كثيرة في القرآن في هذا المعنى.

واعلم يا أخي، أيدك الله وإيانا بروح منه، أن مِلاكَ أمر الآخرة وزمامَ أمر المَعاد هي معرفةُ حقيقة البعث والقيامة، كلُّها هو في معرفة الإنسان نفسَه وحقيقة جوهرها. وذلك أن كل إنسان لا يعرف نفسه، ولا يميّز بينها وبين الجسد، تكون هِمّتُه أكثرُها مصروفةً إلى أمر الجسد وإصلاح شأنه، والتمني للخلود في الدنيا، والتمتع بلذة شهواتها. فأما كلٌّ من كان يعرف نفسه على الحقيقة، فإن أكثر هِمّته تكون مصروفة إلى حال النفس وإصلاح شأنها، والتفكُّر له في أمر مَعادها ودار قرارها، والاستعداد للرحلة من الدنيا والتزوُّد للمَعاد، واليَقين بلقاء الله تعالى، وقلة الخوف من الموت. وهذه صفة أولياء الله تعالى، وإليهم أشار بقوله في توبيخه لليهود: «قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله» وقال: «يا أيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين» يعني في قولهم «نحن أبناء الله وأحباؤه».

اعلم يا أخي، أيدك الله وإيانا بروح منه، أن من أفضل مناقب العقلاء كثرةَ العلوم والمعارف؛ وأن من أشرف العلوم وأجلّ المعارف التي يبلغها العقلاء العلماء، ويهدي الله أولياءه إليها من المؤمنين المصدّقين ويكرمهم بها، عِلمَ البعث، ومعرفة حقيقة القيامة وكيفية تصاريف أحوالها. وقد ذكر الله سبحانه في القرآن تصاريف أحوالها في نحوٍ من ألف وسبعمائة آية، وأشار إليها بأوصافٍ شتّى، وإشارات مُفننةٍ مثل قوله تعالى يوم القيامة: «ويوم يبعثون» «ويوم الدين» «ويوم الفصل» «ويوم الحساب» «ويوم الآزفة» «ويوم التناد» «ويوم التغابن» «ويوم الحشر» «ويوم يخرجون» «ويوم تقوم

الساعة » وما شاكل هذه الأوصاف والإشارات التي قد تاهت عقولُ أكثر العلماء في طلب حقائقها ، وتصوُّر كيفياتها بكُنه صفاتها ، ولا يعلم تأويلها إلاّ اللهُ والراسخون في العلم من أولياء الله وأصفيائه الذين يقولون : «كلٌّ من عند ربنا » « ولا يحيطون بشيء من علمه إلاّ بما شاء » « ولا يطلع على غيبه أحداً » « إلاّ من ارتضى من رسول » « وهم من خشيته مشفقون » .

اعلم يا أخي ، أيّدك الله وإيانا بروحٍ منه ، أن علم البعث وحَقيقة القيامة محجوبٌ عن إبليسَ وذُرّيتهِ وأتباعه وجنوده ، من شياطين الجنّ والإنس ، وهو سرُّ الله الأعظمُ لا يَطّلِع عليه أحدٌ من خلقه إلاّ من ارتضى من أوليائه وأصفيائه ، وأهل مَودّتِه من ذُريّة آدَمَ ، ومن ذُريّة نوحٍ ، وذريّة إبراهيم وإسرائيل ، وممّن هدى واجتبى : « إذا تُتلى عليهم آياتُ الرحمن خرّوا سُجّداً وبُكيّاً . » جعلكم الله ، أيها الأخ ، وإيانا ، منهم برحمته ، إنه وَدودٌ رؤوفٌ رحيم .

ونريد أن نُلوّحَ من هذا السر طرَفاً ، ونشير إليه إشارةً ما ، إذ لا يجوز التصريح به ، اقتداءً بسُنّة الله ، عز وجل : « والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم » وقال ، عليه السلام : « اللهم اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون » إشارة إلى مثل هؤلاء القوم الذين هم ظالمٌ لنفسه .

واعلم يا أخي ، أيّدك الله وإيانا بروح منه ، أنه لما كان العقلاء مُتفاوتي الدرجات في ذكاء نفوسهم ، وصفاء أذهانهم ، وجَودة تمييزهم ، صاروا أيضاً مُتفاوتي الدرجات في العلوم والمعارف ، كما بيّنا في رسالة الآراء والمذاهب . ولما كان الأمر كما وصفنا ، لم يكن أن يُخاطَبوا بصريح الحقائق ، خطاباً واحداً ، إلاّ بألفاظٍ مشتركة المعاني ، ليَحمِلَ كلٌّ ذي لُبّ وعقلٍ وتمييزٍ بحسَب طاقته واتّساعِه في المعارف والعلوم ، كما ذكر الله ، جل ثناؤه ، بقوله على سبيل المثل: « أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها » قال المُفسّرون: معنى هذه الآية وتأويلُها أنه أنزل القرآن من السماء إلى الأرض ، كما أنزل

المطر من الغيم، فاحتَملتِ القلوبُ من علم القرآن بحسَب اتّساعها في المعارف، وصفاء جواهر النفوس ، كما تَحمِل الأودية من سيل المطر بحسَب سَعتِها وجَرَيانها . ثم افهم أن لفظ القلب ليس هو قطعة لحم صنوبريّ الشكل ، المعلّقة من الصدر الموجود في أكثر الحيوانات . وليس المرادُ من القلب ههنا ذاك ، بل مرادُ إخواننا أمرٌ وراء ذلك وهي النفس .

واعلم يا أخي أن لفظ البعث اسمٌ مشترك في اللغة العربية يحتمل ثلاثة معانٍ : فمنها قول القائل : بعثتُ يعني أرسلت ، كما قال الله تعالى : « بعث الله النبيين » يعني أرسلهم . ومنها ما يكون معنى البعث هو بعثُ الأجساد الميتة من القبور ، ونشرُ الأبدان من التراب ، كما وعد الكفار والمُنكِرين بقولهم : « أإذا متنا وكنّا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون أوآباؤنا الأولون » قال الله تعالى: « قل نعم » ؛ ومنها بعثُ النفوس الجاهلة من نوم الغفلة ، وإحياؤها من موت الجهالة ، كما ذكر الله ، جلّ ثناؤه ، بقوله : « أفمن كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها . » وقوله تعالى: « ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون .» وقوله لمحمدٍ ، صلى الله عليه وسلم : « عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً » .

واعلم يا أخي أن من لا يوقِن ببعث الأجساد ، ولا يتصوّره ، فليس من الحكمة أن يخاطَب ببعث النفوس ، لأن بعث الأجساد يمكن تصوّرُه ، ويقرُب فهمُه وعلمه ، فأما من لا يُقِرّ به ولا يتصوّره ، فهو لبعث النفوس أنكَرُ وبه أجهلُ ، ومن تصوُّرِه أبعد . لأن بعث النفوس هو من عِلم الخواصّ ، ولا يتصوره إلاّ المرتاضون بالعلوم الإلهية والمعارف الربانية ، وإنما وعد الكفار أن يبعث أجسادهم ، ليوافقهم على تكذيبهم ، ويجازيهم بسوء أفعالهم . ووعد الله المؤمنين أن يحيي نفوسهم ، ويبعث أرواحهم ، ليجازيهم على حسناتهم ، ويُثيبهم بأعمالهم . فلا تكن يا أخي ممن ينتظر بعث الأجساد ، ويؤمل نشر الأبدان ، فإن ذلك ظلمٌ عظيم في حقك إذا كنت تتوهم ذلك .

ولكن إن استوى لك ، فكُن من الذين ينتظرون بعث النفوس، ويؤمّلون حياتها ووصولها إلى عالمها الروحاني ودار قرارها الحيواني ، مُخلـّداً في النعيم أبـد الآبدين ودهر الداهرين ، مع النبيين والصدّيقين والشهداء والصـالحين ، وحَسُنَ أولئك رفيقاً .

فصل في بعث الأجساد

واعلم يا أخي أن بعث الأجساد من القبور الدارسات، وقيامها من التراب، إنما يكون ذلك إذا رُدّت إليها تلك النفوس والأرواح التي كانت متعلقةً بها وقتاً من الزمان ، فيما سلَف من الدهر، فتنتعِشُ تلك الأجساد ، وتحيا تلك الأبدانُ ، وتتحرّك وتحسُ بعدمـــا كانت جُموداً ، ثم تـُحشَر وتحاسَب وتُجازَى ، لأن الغرض من البعث هو المجازاة والمُكافأة .

واعلم يا أخي أن ردّ النفوس الناجية إلى الأجسام ، الفانية في التراب من الرأس ، ربما يكون موتاً لها في الجهالة ، واستغراقاً في ظـُلـُمات الأجسام ، وحبساً في أسر الطبيعة ، وغرقاً في بحر الهَيُولى . فأمـا بعث النفوس وقيامُ الأرواح فهو الانتباه من نوم الغفلة واليَقظـَةُ من رقدة الجهالة ، والحياة بروح المعارف ، والخروجُ من ظـُلـُمات عالـَم الأجسام الطبيعية ، والنجاة من بحر الهَيُولى وأسرِ الطبيعة ، والترقي إلى دَرجات عالـَم الأرواح ، والرجوع إلى عالمها الروحاني ، ومحلـّها النوراني، ودارها الحيواني ، كما ذكر الله تعالى بقوله: « إن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون » يعني أبنـاء الدنيـا . فإذا كانت الدار هي الحيوان ، فمـا ظَنّـُك يا أخي بأهـل الدار كيف تكون صفاتهم ونعيمُهم ولذّاتهم ؛ إلاّ كما ذكر الله تعـالى بقوله : « فيهـا ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون » لا يموتون فيها ولا يمرَضون .

واعـلم يا أخي ، أيّدك الله وإيانا بروح منه ، أن العلوم كلّـها شريفةٌ ،

ونيلُها عِزٌ لصاحبها ، وعرفانها نور لقلوب أهلها ، وهدايةٌ وحياةٌ لنفوسهم، وشِفاء لصدورهم ، ويَقظةٌ لها من نوم الغفلة ورقدة الجهالة ، ولذّةٌ للأرواح، وصلاحٌ للأجساد ، وتمامٌ وكمالٌ للأجسام ، وقِوامٌ للعالم ، ونِظامٌ للخلائق ، وترتيبٌ للموجودات ، وزينة للكائنات . ولكن قيل : بعضُ العلوم أشرفُ وأفضلُ وأكرم، فأشرفُ العلوم وأجلُّ المعارف التي ينالها العقلاء المُكلَّفون، مَعرِفةُ الله ، جلّ ثناؤه ، والعِلمُ بصفات وحدانيّته وأوصافه اللائقة به . ثم بعد هذا معرفةُ جوهر النفس ، وكيفيّة تصاريف أحوالها في جميع الأزمان الماضية والآتية والحاضرة . ثم كيفيّة تعلّقها بالأجسام ، وتدبيرها للأجساد ، واستعمالها الأبدان مدة ؛ ثم كيفيّة تركِها لها ، ومُفارقتِها إياها ، وتفرُّدها بذاتها، ولحوقِها بعالمها وعُنصُرِها وجوهرها الكلي ، ثم معرفة البعث والقيامة والحشر والحساب والميزان والصّراط ودخول الجنان ومجاورة الرحمن ذي الجلال والإكرام .

واعلم يا أخي أن هذا الفن من العلوم هو لُبّ الألباب ، وإليه ندب ذوي العقول الراجحة والحكمة الفلسفية دون غيرهم من الناس . لأن هذا الفن من العلم والمعارف آخِرُ مرتبةٍ ينتهي إليها الإنسان في المعارف ، مما يلي رتبة الملائكة . ومن أجل هذا هو مُكلَّف متعبد ، وقاصدٌ نحوه ، منذ يوم خَلقَه اللهُ تعالى إلى يوم يلقاه ، فيُوفّيه حسابه ، وهو الغرض الأقصى في وجود النفس وتعلّقها بالأجساد ، ونشوئها معها ، وتتميمها وتكميلها .

واعلم يا أخي ، أيدك الله وإيانا بروحٍ منه ، أنك إذا أردت النظر في هذا العلم الشريف، والبحث عن هذا السر اللطيف، فتحتاج إلى أن تقصد إلى أهله، وتسألهم عنه، كما يُقصد في سائر العلوم والصنائع إلى أهلها، كما قيل : استعينوا على كل صناعة بأهلها .

واعلم يا أخي أن أهل هذه الصناعة ، وعلماء هذه الأسرار هم إخواننا الكرام الفضلاء . فانظر يا أخي فيما قالوا ، وتأمل ما وصفوه من حقائق

الأشياء التي أنت مُقِرٌ بها بلسانك ، وتؤمن بقلبك ، ثم تفكر فيما تسمع ، وتأمَّل ما يوصف لك ، وميِّزْه ببصيرتك ، واعرضه على عقلك الذي هو حُجة الله عليك ، والقاضي بينك وبين أبناء جنسك ، فإن اتَّضحت لك حقيقةُ ما تسمَع ، وتصوَّرتَ ما يصفون ، وتيقنت ما يخبرون ، فبتوفيقٍ من الله وهدايةٍ منه . وإن تكن الأخرى كنت قد بذلت المجهود ، وأزلت العُذرَ فيما أنتَ مكلَّفٌ له « والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم » .

وإن لم يتفق لك يا أخي لقاءُ أحدٍ من أهل هذه الصناعة ، بحيث أن تسأله عن حقيقة هذا السر ، ويعرِّفك ما تطلُب وتريد أن تعلم أنت باجتهادك وعقلك وبصيرتك وتمييزك ، فاسلُك في هذا البحث والنظر طريقة الحكماء النجباء ، واستعمل القياس البرهاني الذي هو ميزانُ العقول ، كما وُصف في المنطق ، وقد بيَّنا من علم المنطق في رسائل شِبه المُدخَل والمقدِّماتِ ما فيه كفاية ، ولكن نذكر في هذا الفصل مِثالاً واحداً ليَقرُبَ به عليك مأخَذُه .

واعلم يا أخي ، أيّدك الله وإيانا بروحٍ منه ، أن علم الإنسان المعلومات : بعضُها بطريق الحواس ، وبعضُها بطريق السَّمع والروايات والأخبار ، وبعضُها بطريق الفكر والرويّة والتأمُّل والعقل الغريزي ، وبعضُها بطريق الوحي والإلهام . وليس هذا الفن باكتسابٍ من الإنسان ولا باختيار منه ، بل هو مَوهبةٌ من الله تعالى ، وبعضُها بطريق القياس والاستدلال ، وهو العقلُ المُكتَسبُ ، وبهذا العقل يفتخرُ العقلاءُ ، وبه يتفاضل الحكماء والفلاسفة .

واعلم يا أخي ، أيّدك الله وإيانا بروحٍ منه ، أنك إذا طلبت عِلمَ البعث ، ومعرفة حقيقة القيامة ، وما يوصف من أحوالها ، فليست تخلو معرفتُها من أحدِ هذه الطرُق التي تقدم ذكرها . فإن أردت أن تعرِفها بطريق القياس والبُرهان ، فاعمَل في هذه المسألة وابحث — أعني معرِفةَ البعث وعِلمَ حقيقة القيامة — كما يَعمَلُ أصحاب المَجِسْطي عند طَلَبهم معرفة عِظَم جِرم الشمس . وذلك أنهم قالوا : لا يخلو جِرمُ الشمس من أن يكون مُساوياً

لجِرم الأرض ، أو أعظمَ أو أصغرَ منها في المقدار ، إذ ليس في القِسمة العقلية غـَيرُ هذه . ثم بحثوا عن واحدٍ واحد من هذه الأقسام الثلاثة ، حتى عرفوا حقيقتها ، كما هو مذكورٌ في كتُبهم بشرحٍ طويل . فاعمـل أنت يا أخي ، أيّدك الله وإيانا بروحٍ منه ، في هذه المسألة ، مثلَ ما عمل هؤلاء في مسألتهم وهو أن تقول : لا يخلو أمرُ البعث ومَعنى القيامة أن تـُبعَث الأجساد دون النفوس ، أو النفوسُ دون الأجساد ، أو الجميـعُ ، إذ كان ليس في القِسمة غيرُ هذه الوجوه الثلاثة ، ثم ابحث وتصفّح عن حقيقة واحدٍ واحدٍ من هذه الوجوه الثلاثة ، كما نبيّن في هذا الفصل .

اعلم يا أخي ، أيّدك الله وإيانا بروحٍ منـه ، أن من يرى ويعتقـد بأن الإنسان ليس هو شيء سوى هذه الجُملة المحسوسة : أعني الجسدَ المؤلّف من اللحم والدم ، والعظم والعروق ، وما شاكلها التي هي كلـّها أجسامٌ طويـلة عريضة عميقة، وما يَحلـّها من الأعراض على البِـنيةِ المخصوصة التي هي صورة الإنسانية ، فهو لا يتحقـّق أمرَ البعث ، ولا يتصوّر حقيقة القيامة ، إلاّ إعادة هذه الأجساد برُمّتها ، وتلك الأجرامِ والأعراض بعينها ، على هـذه الحال التي هي عليها الآن ، ثم يُحشَرون ويُحاسَبون ، الجسمانيّةُ والنوازعُ الجاذبة لها إلى الأسباب الضرورية ، من الجوع والعطش ، والغِذاء ، والحرّ والبرد ، والآلام والأوجاع ، والأمراض والأسقام ، والأحزان والمصائب والحدثان، من جَور السلطان ، وحسدِ الإخوان ، وعداوة الجـيران ، ومقاساة غيظ الأقران، ووساوس الشيطان، وما هو مُكلـّفٌ به من حَمل ثِقَل الطاعات، والجَـهد في العبادات ، من الصوم والصلوات ، ومَنعِ النفس عن الشّهوات المركوزة في الجِبْلة ، والعادات المطبوعـة ، وما على النفس في البـدَن من الكـُلـّية مع شدة هذه كلّها ، يرى ويعتقد بأنه محبوسٌ في هذه الدنيا إلى وقت معلوم ، كما قال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : « الدنيـــا سجن المؤمن وجَنّة الكافر » لأن المؤمن المـُحِقّ قـد سجَن نفسه بالمنع لهـا عن الشهوات

والمَلاذّ التي تُرادُ الدنيا مِن أجلها . ومن كان يرى ويعتقد أمرَ الحياة في الدنيا على هذه الحال ، فهو لا يتصوّر أمر البعث ، ولا يتحقّق أمر القيامة ، إلاّ مُفارَقةَ النفسِ الجسدَ بعد/استقلالها بذاتها ، وتَفَرُّدَها بجوهرها ، ومُشاهدَتَها عالَمَها ، ولا يسأل ربّه إلاّ اللُّحوقَ بأبناء جنسها من الماضين من عِباد الله الصالحين ، من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين ، كما سأل ابراهيمُ خليل الرحمن ربّه في آخر دعائه فقال : « وألحقني بالصالحين » يريد بعد الموت . وهكذا يوسف الصديق : « توفني مسلماً وألحقني بالصالحين » يريد بعد الموت . فقال الله تعالى لمحمد نبيّه ، صلى الله عليه وسلم ، وعلى جميع النبيين : « وللآخرة خير لك من الأولى » وقال ، عليه السلام : « أبى الله أن يجعل لأوليائه الخلود في الدنيا » .

فمن كان هذا رأيه واعتقاده فهو لا يتصوّر البعث والقيامة إلاّ مفارقةَ النفس الجسد ، كما حُكي عن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : « من مات فقد قامت قيامته » .

ويحكى عن بعض من كان يعتقد هذا الرأي أنه لقي أخاً له من أهل رأيه ، فقال له : كيف أصبحت يا أخي ، فكيف حالك في هذه الدنيا ؟ فقال : بخير ، ونرجو خيراً من هذا أن سلمنا من آفاتها وبلياتها ، إن شاء الله تعالى ؛ فكيف أنت ، وكيف حالك ؟ قال : كيف تكون حال من يُصبح في دار غُربة أسيراً فقيراً ، لا يَقدِر على جرّ نفع ما يرجو ، ولا دفع ضَرّ ما يكره ! قال أخوه : كيف ذلك ؟ قال : لأنهم قد يُجازَونَ بما عَمِلوا من خيرٍ أو شرٍّ ، أو عرفانٍ أو إنكارٍ . واعلم يا أخي أن هذا الرأي والاعتقاد جَيّدٌ للنساء ، والصبيان ، والجُهّال ، والعوامّ ، ومن لا ينظر في حقائق العلوم ولا يعرفها. وذلك أنهم إذا اعتقدوا هذا الرأي ، وتحققوا هذا الاعتقاد ، يكون ذلك حَثّاً لهم على عمل الخير ، وترك الشرور ، واجتناب المعاصي ، وفعل الطاعات ، وأداء الأمانات ، وترك الخيانات ، والوفاء بالعهود ، وصحّة

المعاملة ، والنصيحة فيها ، وحسن الخُلق ، وخصال كثيرة محمودة تتبعها ، ويكون ذلك صلاحاً لهم ، ولمن يعاملهم ويُعاشرهم في الحياة الدنيا إلى الممات .

وأما من كان فوق هذه الطوائف في العلوم والمعارف فهو يرى ويعتقد بأن ، مع هذه الأجساد ، جواهرَ أُخرَ أشرفَ منها وأفضلَ ، وليست بأجسام تسمّى أرواحاً أو نفوساً . فهو لا يتصور أمرَ البعث ، ولا يتحقق أمر القيامة إلاّ بردّ تلك النفوس والأرواح إلى تلك الأجساد بعينها ، أو أجسادٍ أُخرَ تقوم مقامها ، ثم يُحشَرون ويُحاسَبون ويُجازَون بما عَملوا من خير أو شر . وهذا الرأيُ أجودُ وأقربُ إلى الحق ، وفي اعتقادهم له صلاحٌ لهم ولغيرهم ، كما تقدّم من قَبلُ .

وأما من كان فوق هذه الطائفة في العلم والمعارف والدّراية فهو يرى ويعتقد بأن الغرض من كون هذه النفوس والأرواح مع هذه الأجساد ، في الدنيا مُدّةً ما ، هو من أجل أن تستقيم ذواتُها ، وتكملَ صُورُها ، وتخرُجَ من حدّ القوّة والكُمونِ إلى الفعل والظهور ، ولتستكملَ أيضاً فضائلها من عِرفانها أمرَ المحسوسات ، وتخيُّلِها رسومَ المعقولات ، وتتخرّج بالآداب والرياضات والنظر في العلوم الطبيعيات والإلهيات ، وبالاعتبار والتجارب والتدبير والسياسات ، وليكون ذلك سبباً لانتباه النفوس من نوم الغفلة ورقدة الجهالة ، وتحيا بروح المعارف ، وينفتح لها عين البصيرة ، لتنظُرَ إلى عالمها الروحاني ، وتُشاهِدَ دارَها الحيواني ، ويتبيّنَ لها أنها ، في عالَم الغُربة ، وموضِع المِحنة والبلوى ، غريقةٌ في بحر الهَيُولى ، مُبتلاةٌ في أسر الطبيعة ، مُشتعِلةٌ فيها نيرانُ الهاوية المُوقَدة ، المُطّلِعةُ على الأفئدة ، من حريق الشهوات ، أصبحنا في الدنيا مُعذّبين في صورة المنعَّمين ، مجبورين في صورة المختارين ، مغرورين في صورة المغبوطين ، أحراراً كراماً في صورة عبيد مُهانِين ، مُسلّطاً علينا خمسةُ حُكّام يسوموننا سوء العذاب ، ينفّذون

أحكامهم علينا ، شِئنا أو أبينا ، ليست لنا حيلة في الخُروج عن أَحكامهم ، ولا دفعِ سلطانهم ، ولا الخلاصِ من جَورهم إلى الممات .

قال : أخبرني من هؤلاء الحكام ؟ قال : نعم ، أولهم هذا الفلكُ الدوّار الذي نحن في جوفه محبوسون ، وكواكبه السيّارة التي لا تزال تدور علينا ليلًا ونهاراً لا تَقَرُّ ، تارةً تجيئنا بالليل وظُلمته ، وتارةً بالنهار وحرارته ، وتارةً بالصيف وسمائمه ، وتارة بالشتاء وزمهريره ، وتارة بالرياح العواصف في زعازعها ، وتارة بالغيوم وأمطارها ، وتارة بالرعود والزوابع وصواعقها ، وتارة بالجَدْب والغلاء والمُوتانِ[1] والبلاء ، وتارةً بالحروب والفِتن ، وتارة بالهموم والأحزان ، ليس منها نجاة إلاّ بجهدٍ وبلوى، وكدر وعناء ، وخوف ورجاء ، إلى الممات . ثم قال : فهذا واحد .

وأما الآخر فهو هذه الطبيعة وأمورها المركوزة في الجِبلة ، من حرارة الجوع ، ولهَبِ العطش ، ونار الشَّبَق ، وحريق الشهوات ، والآلام ، والأمراض والأسقام ، وكثرة الحاجات ! وليس لنا شُغلٌ ليلًا ولا نهاراً إلاّ طلب الحيلة لجرّ المنفعة ، أو لدفع المَضرّة عن هذه الأجساد المُستحيلة[2] التي لا تقف على حالة واحدة طَرفةَ عينٍ ! فنفوسنا منها في جهدٍ وبلاء ، وكدٍّ وعناء ، وبؤس وشقاء ! ليس لنا راحة إلى الممات . فهذان اثنان .

وأما الثالث فهو هذا الناموس ، وأحكامه وحدوده ، وأوامره ونواهيه ، ووعيده وزَجره ، وتهديده وتوبيخه؛ إن خرجنا من أحكامه فَضربَ الرقابِ، والحدود ؛ وإن فررنا منه لم نجد لذّة العيش ولا صلاح الوجود في الوحدة ؛ وإن دخلنا تحت أحكامه ، فما نقاسي من الجَهد والبلوى ، في إقامة حدوده ، أكثرُ مما يُحصى، من ألم الجوع عند الصيام، وتعب الأبدان عند القيام للصلاة، ومُقاساة بردِ الماء عند الطهارات ، ومجاهدة شحّ النفوس عند إخراج الزكاة

---

١ الموتان : الموت الكثير الوقوع في الناس او في المواشي .
٢ المستحيلة : المتغيرة.

والصدقات الواجبات ، ومَشَقَة الأسفار والأحكام عند قضاء الحج والجهاد ؛ وما نقاسي من الألم عند ترك اللذات والشهوات المحرّمات ! وإن لم نأتمِرْ ولم نَنْتهِ ، فالحدودُ والأحكام بحسب الجنايات ؛ ومع هذه كلها «كلاّ سوف تعلمون ثم كلاّ سوف تعلمون، كلاّ لو تعلمون علم اليقين لَتَرَوُنَّ الجحيم ثم لَتَرَوُنَّها عين اليقين ثم لَتُسألنَّ يومئذ عن النعيم.» فهذه حالنا ، ليس لنا منها خلاص ولا نجاة إلى الممات ! فهذه ثلاثة .

وأما الرابع فهذا السلطانُ المُسلَّطُ الجائر الذي قد ملك رقاب الناس بالقهر والغلبة ، واستعبدهم جَبْراً وكرهاً ، يتحاكم عليهم كما يشاء ، ويرفع ويُكرمُ من يريد ممن يخدِمه ويُطيعه ، ويتصرّف بين يديه ويمتثلُ أمرَه ونهيه ، ويضعُ ويُبعِد من خالفه، ويُعذّب ويَقتُل من خانه أو غشّه ! فإذا خرجنا من مملكته ، وفرَرنا من سُلطانه ، فلا عيش لنا في الوجود في هذه الدنيا، إلاّ عيشاً نكداً، لأننا قد نحتاج في لذّة العيش وصلاح المعاش إلى الجمّ الغفير من المُتعاونين في المدن والقُرى ، في إصلاح أمر المعاش ، ولا بُدّ لهم من سُلطان يملِكهم ويرئسُهم ، ويحكم بينهم فيما يختلِفون فيه ويتنازعون ، ويمنع الظالم القويّ من التعدّي على الضعيف المظلوم ، ويأمَنُ لخوفه السُّبُل، ويأخذ الناسَ بلزوم سُنَّة الناموس ، وتأدية موجِبات فرائضه التي في إقامتها وحِفظها صلاحُ الجميع . فلهذه العلّة وبهذا السبب لا يُمكِننا الخروج من المملكة ، ولا الفرارُ من سلطانه . فإن خدَمناه وقُمنا بواجب طاعته ، فما نقاسي من الجهد والبلوى أكثر مما يحصى، من تعب الأبدان، وهموم النفوس، وعناء الأرواح، وتلف الأجساد ، واحتمال الذلّ وشَماتة الحُسّاد، ومُداراة الإخوان ، وعداوةِ الأقران ، ومشقّة الأسفار ، ومخاوف الحروب ، وما يُتكلّفُ من التعب والعناء في جمع الآلات والأثاث من السلاح والدّوابّ وحوائجها ومرافِقها مما لا يحصى عَدُّها كثرةً، وليس لنا منها راحة إلى الممات. فهذه أربعة .

وأما الخامس فهو شدة الحاجة إلى المواد التي لا قِوام لهذا الهيكل إلاَّ بها، من المأكولات والمشروبات واللباس والمسكن والمركَب والاثاث ، وما لا بدّ منه في قِوام الحياة الدنيا ، وما نقاسي من الجهد والبلوى في طلبها ، ليلنا ونهارنا، في تعلُّم الصنائع والتجارات المُتعبة، والمكاسب المكِدّة من الحرث والزرع ، والبيع والشّراء ، والمُناقشة في الحساب ، والحِرص والشره ، وجمع الأموال ، وحِفظها من حيل اللصوص ومُكابَرة القُطّاعِ ، وأخذِ السلطان لها بالجور والظُّلم، وحراستها من الآفات العارضة التي لا يحصى عددُها. كلُّ ذلك بالكدّ والعناء، والهموم والغموم، وتعب الأبدان، وعناء الأرواح، وشقاء النفوس التي لا راحة لنا منها إلى الممات .

فهذه حالنا يا أخي، وحال أكثر أبناء جنسنا في هذه الحياة الدنيا، فأما من يريد المقام في الدنيا، ويتمنى الخلود فيها مع هذه الآفات كلها ، فهو من أجلِ إحدى خَلّتَيْن : إما أنه لا يؤمن بالآخِرة، ولا يصدّق بالمعاد، ولا يتصوَّر الوجود إلاَّ هكذا ، ويظن ويتوهّم أن بعد الموت عدماً أو شرّاً محضاً ! فمن أجل هذا الرأي وهذا الاعتقاد يريد المقام في الدنيا ، ويتمنى الخلود فيها ، مع هذه الآفات كلّها ، ويكون معذوراً في تمنّيه وإرادته الخلود ، لأن في جبلة الخلائق وفي طبائع الموجودات محبّةَ البقاء ، وكراهية الفناء. مذكورٌ ذلك. فمن أجل هذه الخصال والشرائط يرضى أكثرُ أبناء الدنيا المُقام فيها ، ويتمنون الخلود .

فأما من قد تصوَّر كيفيّة الدار الآخِرة ، وتحقّق أمر المَعادِ ، وعرف فضلها وشرفها ، وسرورها ولذاتها ، ونعيمها ، فأيّ عُذرٍ له في التمني للخلود في الدنيا ، مع ما قد عرف من آفاتها وشرورها، وأحزانها ومصائبها وبلياتها . فاجتهد ، يا أخي، في طلب معرفة الدار الآخِرة وحقيقة أمر المعاد لكيما تساق نفسُك إليها ، بعد الفراق ، مع أهلِك زُمَراً ، كما ذكر الله جل ثناؤه بقوله: « وسيق الذين اتّقوا ربهم إلى الجنة زمراً » .

واعلم يا أخي ، أيدك الله وإيانا بروح منه ، أنك إن لم تعرف الدار الآخرة ، ولم تتحقق أمرَ المعاد قبل الممات ، وكانت نفسُك في الدنيا عمياء ، فهي بعد الممات في الآخرة أعمَى وأضَلُّ سبيلاً ، وحُوشِيتَ ، يا أخي ، من ذلك ، إن شاء الله تعالى .

واعلم يا أخي أن المُقِرَّ بالآخرة ، المؤمن بالمَعاد ، المُصدّق بها لا يتصوّرها ولا يعرف حقيقتها إلاَّ بعدما تنتبه نفسه من نوم الغفلة ، وتنبعث من موتِ الجهالة ، وتحيا بروح المعارف ، وتنفتح عينُ البصيرة ، فتُبصِر عند ذلك بنور الهِداية ، ما هو مُقِرٌّ به ومُصدّقٌ له . ويكون عند ذلك من أهلِ الأعراف[1] ، كما حُكي عن مُستَبشِر لما سئل فقيل : كيف أصبحت ؟ فقال : أصبحت مؤمناً حقّاً ! قيل : وما حقيقة إيمانك ؟ قال : أرى كأن القيامة قد قامت ، وكأني بعرش ربي بارزاً ، وكأن الخلائق في الحساب ، وكأني بأهل الجنة فيها منعّمين ، وأهل النار فيها معذبين . فقيل له : قد أصبتَ فالزمْ عين الطريق ! وإليه وإلى أمثاله أشار ، جلّ ثناؤه ، بقوله : « وعلى الأعراف رجالاً يعرفون كلاًّ بسيماهم ونادوا أصحاب الجنة أن سلام عليكم لم يدخلوها وهم يطمعون » . « وإذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين » وهم الرجال الذين : « لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله في بيوت أذن الله أن تُرفع ويذكر فيها اسمه » .

فهل لك ، يا أخي ، أن ترغَب في صُحبتهم ، وتَسلُكَ طريقهم ، وتَطلُبَ مِنهاجَهم ، وتتخلّقَ بأخلاقهم ، وتسيرَ بسِيرتهم ، وتنظُرَ في علومهم لتعرف

---

[1] الأعراف : هو عند المسلمين سور بين الجنة والنار ، تكون عليه أرواح الذين استوت حسناتهم وسيئاتهم ، وهي ترجو أن يغفر لها وتدخل الجنة .

مذهبهم ، وتعتقد رأيَهم ، وتعمَلَ مثل عَملِهم ، لعلك تُحشَرُ معهم ، وتفوز بمَفازتهم « لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون » وهم أولياء الله وعِبادُه الصالحون الذين استثناهم بقوله في قصة إبليس : « إن عبادي ليس لك عليهم سلطان » وقوله : « إلاّ عبادك منهم المخلصين » .

فإذا أردت يا أخي أن تعرف وتعلم أأنت منهم أم من غيرهم ، فاعلم أن لهم علاماتٍ يُعرَفون بها ، وسِماتٍ يُستَدلُّ عليهم بها : فمن إحدى علامات أولياء الله المبعوثين من موت الجهالة المُنبَّهين من رقدة الغَفلة ، المُستَبصِرين بعين اليقين ونور الهِداية ، العارفين بحقائق الأشياء ، الشاهدين حسابَ يوم الدين ، أنهم قومٌ تستوي عندهم الأماكنُ والأزمان ، وتغايُرُ الأمور ، وتصاريفُ الأحوال ، فقد صارت الأيام كلها عندهم عيداً واحداً ، وجمعةً واحدة ، وصارت الأماكن كلها لهم مسجداً واحداً ، والجهاتُ كلها قِبلةً ومحراباً أينما تولوا فثَمَّ وجه الله ، وصارت حركاتهم كلها عبادةً لله ، وسكوناتُهم طاعةً له ، استوى عندهم مدح المادحين وذم الذامّين ، لا يأخذهم في الله لومة لائم ، قِياماً لله بالقِسط ، شهداءَ لله بالحق ، وهم على صلواتهم دائمون .

وإنما استوت عندهم الأماكن كلُّها وصارت مسجداً وقِبلةً ومِحراباً واحداً ، لتصديقهم قولَ الله تعالى : « أينما تولوا فثم وجه الله » وصاروا شهداء بمشاهدتهم له وتصديقهم قوله : « ما يكون من نجوى ثلاثة إلاّ هو رابعهم ، ولا خمسة إلاّ هو سادسهم ، ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلاّ هو معهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم . »

وإنما استوت عندهم الأيام كلها فصارت جُمعةً وعيداً ، لمشاهدتهم يومَ القيامة الذي هو من أول ما بَعث الله محمداً ، عليه السلام ، إلى تمام ألف سنة كما قال ، صلى الله عليه وسلم : بُعِثتُ أنا والقيامةُ كَهاتَين .

وأيضاً فإنما استوى عندهم تَغايرُ الأزمان وتصاريفُ الأحوال ، لتصديقهم قولَ الله تعالى : « ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلاّ في كتاب

من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم » وصار دعاؤهم مُستجاباً لأنهم لا يسألونه إلاّ ما يكون ، ولا يكون إلاّ ما قدّرَ في سابق العلم . فقلوبهم في راحة من التعلّق بالأسباب ، وأبدانُهم فارغةٌ من تَكلُّفِ ما لا يُعنى به، ونفوسُهم ساكنة عن الوَسواس، وهم في راحةٍ من أنفسهم ، والناس منهم في راحة وأمان ، لا يريدون لأحد سوءاً ، ولا يُضمِرون شرّاً لأحد من الخلق ، عدوّاً كان أو صديقاً ، مخالفاً كان أو موافقاً .

وهذه أيضاً حكاية أُخرى . فهذه محاوراتٌ جرت بين رجلين، أحدهما من أوليـاء الله تعالى وعِباده الصالحين الذين نجّاهم الله من نار جهنم ، وأعتقهم من أَسرها، وأخلص نفوسهم من عداوة أهلها، وأراح قلوبهم من ألم المعذّبين فيها. والآخرُ من الهالكين المعذّبين فيهـا بألوان العذاب ، المُحرَقة قلوبهم بحرارةِ عداوة أهلها ، المتألّمة نفوسهم بعقوباتها . قال الناجي للهالك : كيف أصبحت يا فلان ؟

قال : أصبحت في نعمة من الله ، طالباً للزيادة ، راغباً فيها ، حريصاً على جَمعها ، ناصراً لدين الله ، مُعادياً لأعداء الله ، محارباً لهم .

قال الناجي : ومن أعداء الله هؤلاء ؟

قال : كلٌّ من خالفني في مذهبي واعتقادي .

قال : وإن كان من أهل لا إله إلاّ الله ؟

قال : نعم .

قال : إن ظفرت بهم ماذا تفعل بهم ؟

قال له : أدعوهم إلى مذهبي واعتقادي ورأيي .

قال : فإن لم يقبلوا منك ؟

قال : أقاتلهم وأستحلّ دماءهم وأموالهم ، وأسبي ذراريهم .

قال : فإن لم تَقدِر عليهم ماذا تفعل ؟

قال : أدعو عليهم ليلاً ونهاراً ، وألعنهم في الصلاة ، كلُّ ذلك تَقرُّباً إلى الله تعالى .

قال : فهل تعلم أنك إذا دعوت عليهم ولعنتَهم يُصيبهم شيء ؟

قال : لا أدري ! ولكن إذا فعلتُ ما وصفتُ لك ، وجدتُ لقلبي راحةً ، ولنفسي لذّةً ، ولصدري شِفاء .

وقال له الناجي : أتدري لم ذلك ؟

قال : لا ، ولكن قل أنت .

قال : لأنك مريضُ النفس ، مُعذّب القلب ، مُعاقَب الروح ، لأن اللذة إنما هي خروجٌ من الآلام . ثم اعلم أنك محبوسٌ في طبقةٍ من طبقات جهنم ، وهي الحُطَمة نارُ الله المُوقَدة التي تطّلِع على الأفئِدة ، إلى أن تخلُص منها وتنجو نفسُك من عذابها ، إذا لقيتَ الله عز وجل كما وعد بقوله : « ثم ننجّي الذين اتّقَوا ونذر الظالمين فيها جثيّاً . »

ثم قال الهالك للناجي : أخبرني أنت عن رأيك ومَذهبك وحال نفسك كيف هي ؟

قال : نعم ، أما أنا فإني أرى أني قد أصبحتُ في نعمة من الله وإحسان لا أحصي عدَدها ، ولا أؤدّي شكرها ، راضياً بما قسم الله لي وقدّر ، صابراً لأحكامه ، لا أريد لأحدٍ من الخلق سوءاً ، ولا أُضمِر لهم دَغَلاً ، ولا أنوي لهم شرّاً ؛ نفسي في راحة ، وقلبي في فُسحة ، والخلق من جهتي في أمانٍ ! أسلمتُ لربي مذهبي ، وديني دينُ إبراهيم عليه السلام ! أقول كما قال: « فمن تبعني فإنه مني ، ومن عصاني فإنك غفور رحيم » . « إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم » .

فصل

ثم اعلم أن جهنم لها طبقاتٌ كثيرة ، وهي الأهواءُ المختلفة ، والجَهالاتُ المُتراكِمة التي النفوسُ فيها محبوسةٌ ، ومعها موقوفةٌ ، وقلوبُ أهلها مُعذَّبة منها بألوان من الآلام ، وهم في العذاب مشتركون ، كلما مضت منهم أمة فانقرضت ، خلَفَها قوم آخرون من تلاميذهم وأتباعهم في تلك المذاهب والآراء ؛ وكلما دخلت من الآراء أمةٌ لعنت أُختَها المخالفة لها كما ذكر الله تعالى في عدة سور من القرآن . قوله في سورة الاعراف : « كلما دخلت أمة لعنت أُختها » أو في سورة أخرى : يلعنُ بعضُهم بعضاً ؛ ويتعايرون ، ويتنادَرُون ، ويَتباغَضُون ، وهم في العذاب مُشتركون . فهذه حالهم في الدنيا وفي الآخِرة سَواءٌ وأشَرٌ لو كانوا يعلمون . وقاكَ الله وإيانا شرَّهم برحمته !

وأما ما قيل من تتعاطى علم النفس والطبيعة ما تقول يا أخي[١] ان الصانع الذي بنى هذه المدينة ، أعني جسدَ الإنسان ، أهو الساكنُ فيها والمستعملُ لها في هذه الساعة أو غيرُه ؟ فإن كان المستعمل لها في هذه الساعة هو الذي بناها ، فلِمَ لا يدري كيف بناها ، ولمَ لا يَذكُر كيف كانت . فإنَّا نرى أصحاب التشريح لم تعرف كيفيَّة بِنية هذا الجسد إلاَّ بعد هدمِهِ ونقضِهِ وخَرابه . وإن كان هذا الذي بنى هذه البِنيةَ هو غيرُ المُستعمِل لها هذه الساعة ، فترُى بَنَّاؤها بناها بنفسه ، أو بناها على يَدي غيره ، ثم سلَّمها إلى المُستعمِل لها دون ما فيها ، أترُى أن هذا المُستعمِلَ لهذه البنية هو تلميذُ ذلك الصانع الذي بنى هذه المدينة ، أو ابنٌ له كان في ذلك الوقت صبيّ جاهلاً ، وصار الساعة بالغاً عاقلاً حكيماً ، وإنما كان بالقوَّة فيخرجُ الآن إلى

١ كذا في الاصل ، وفيه خلل كما لا يخفى .

الفعل والظهور ؟! أفتِنا أيّدكَ الله في ذلك ، واهدِنا إلى سَواء الصّراط مأجوراً .

فصل

ذكروا أن ملكاً كان عظيم الشأن ، عزيز السلطان ، واسع المملكة ، كثير الجنود والعبيد ، وُلد له ولد ذكَر ، كان أقرَب الخلق شَبهاً به ، وإلى والديه طبعاً وخُلُقاً . فلما تربّى ونشأ وكمل ، ولاّه أبوه بعض مملكته ، وأمر جنودَه وعبيده بطاعته ، وأوصاه بحسن سياستهم، وأباحه جميع النعمة ، غير أنه نهاه عن مَرتبته ، فمكث الابن زماناً طويلاً ، قَدرَ نصف يوم ، متنعّماً ملتذّاً ، إلاّ أنهُ كان غارّاً[1] ساهياً ، فحسده بعض عبيد أبيه ممن كان رئيساً قبله ، فقال له : إنك لست تعرف نعمةً ، ولا تجد لذةً ، لأنكَ منهيٌّ عن أرفع لذة ونعمةٍ ، وممنوع من ألذّ شهوة ، فإن بادرتَ وطلبت المُلكَ سبقتَ إليه . فاغترّ بقوله ، لأنه كان غِرّاً جَهولاً ، وطلب ما ليس له أن يتناوله قبل حينه ، ويطلبه قبل وقته ، فسقطت مرتبته ، وانحطت درجته عند أبيه ، وبدت له سَوأتُه ، واستبانت له خطيئته ، فهرب خوفاً من أبيه، ذاهباً في مملكته شِبهَ المستتر، فلقي العناء ، وأصابته البأساء والضّرّاء ، وقاسى الجَهد والبلاء ، فتذكر يوماً ما كان فيه من نعمة أبيه ، فحزن على ما فاته وبكى أسفاً ، ثم نَعِس فنام ، فحُمِل إلى أبيه ، فقال : دعوه نائماً إلى يوم الجمعة .

ثم رُزِق في اليوم الثاني ابناً آخر أشبهَ الناس بأخيه ، فتربّى ونشأ وكَمُل ونما، وكان حليماً وقوراً شكوراً صبوراً، فولاّه أبوه بعض مملكته،

---

[1] غارّاً : غافلاً .

وأمرهم بطاعته ، وأوصاه بسياستهم . ودعاهم وأمرهم ونهاهم ، فلم يسمعوا له ولم يطيعوا أمره ، لأنه كان شِبهَ زُحَل! بل آذوه ، فصبر زماناً ، ثم شكا إلى أبيه، فغضب عند ذلك عليهم ورمى أكثرهم إلى الماء. فلما رأى ما أصابهم اغتمّ وحزِن ونَعِس ونام ، وحُمِل إلى أبيه ، فقال : اتركوه نائماً إلى يوم الجمعة .

ثم إنه رزق في اليوم الثالث ابناً آخر ، وكان أشبه الناس بأخويه اللذين تقدم ذكرهما ، فتربّى ونشأ وكمل ونما ، وكان خيّراً فاضلاً ، عالماً مِحجاجاً، فولّاه أبوه مكان أخويه ، وأمر الرعية بطاعته ، وأوصى إليه بما أوصى إلى أخويه ، فدعاهم وأمرهم ونهاهم ، فلم يسمعوا له ولم يطيعوه ، لأنه كان أشبه بالمُشتري ، وفزّعوه بالنار ، فذهب إلى أبيه ، وبنى له هيكلاً ، ونذر له قرباناً ، وعمل مناسك ، ونادى في الناس : هَلمُّوا تعالوا لتروا ما لم تروا ، وتسمعوا ما لم تسمعوا ، ثم نام ، وحُمِل إلى أبيه فقال : اتركوه نائماً إلى يوم الجمعة . وبقي نداؤه في مسامع النفوس يتوارثونه من غير أن يسمعوه ويذهبون إلى هيكله فيرون ظاهره ومرآه منا لا يُبصرون ، ويفعلون سُنّة مناسكه، ولكنهم معناها لا يفهمون، لأنهم صُمٌ بُكمٌ عُميٌ فهم لا يعقلون. وأعيذك أيها الأخ أن تكون منهم ، وانظر بنور عقلك في رسالة أفعال الروحانية ، لعلك تعرف ما قلنا ، وتفهم ما أشرنا إليه .

ثم إنه رزق في اليوم الرابع ابناً آخر ، فتربى ونشأ وكمل ونما ، وكان جَلْداً قويّاً، جريئاً مِقداماً، فولّاه أبوه مكان إخوته ، وأمر الرعية بطاعته، وأوصى إليه بما كان أوصى إلى إخوته ، فدعاهم وأمرهم ونهاهم ، فلم يسمعوا له ولم يطيعوه ، لأنه كان شِبهَ المِرّيخ ! وبارزوه وبارزهم ، وناوشوه وناوشهم، وكان مؤيّداً بقوة أبيه، فغلبهم وبدّد شملهم وفرّق جمعهم وشتّت أُلفَتهم ، ورماهم في البر والبحر . ثم بقي وحيداً كالغريب يدعو فلا يُجاب ، ويأمر فلا يُهاب ! فاغتمّ وحزن ونعس ونام ، وحُمِل إلى أبيه، فقال : دعوه

نائماً إلى يوم الجمعة .

ثم إنه رزق في اليوم الخامس ابناً آخر أشبه الناس بأخيه الأول ، فتربّى ونشأ وكمل ونما ، وكان هادياً رشيداً ، طيباً رفيقاً، فولاّه أبوه مكان إخوته، وأمر الرعية بطاعته ، وأوصى إليه بما أوصى إلى إخوته ، ودعاهم وأمرهم ونهاهم فلم يتبعوه إلاّ قليلاً ، ولم يطيعوه إلا يسيراً ، لأنه كان يُشبه الزُّهَرة . ثم وثبوا عليه فأخذوا منه القميص الذي خاطت أمه، فذهب إلى أبيه، فاستنفر عليهم بجنوده، وأيده بروح منه، فسرى في نفوسهم، وتحكّم في لاهوتهم بدلاً وقِصاصاً لما تحكّموا في ناسوته ! وأراد أن ينزل من الرأس . فقال أبوه : اصبروا إلى يوم الجمعة .

ثم قال أبوهم في اليوم السادس للنجوم : اختاروا لابني الذي يشبه عُطارد يوماً لينزل إلى عالم الكون والفساد ، فينبه إخوته النيام ، ويناديهم إلى حقه ، فقد رضيتُ عنهم ، ويأمرهم بالاستعداد للصلاة ، فإن غداً هو العيد يوم الجمعة ، فيبرز القضاة ، ويحكُم بينهم فيما كانوا فيه يختلفون . فاجتمعت سادة النجوم ورؤساء الكواكب في بيت المِرّيخ وتشاوروا بينهم . فقال رئيس الكواكب وملكها الشمس : أنا أختار له من قوتي ، وأزوّده من فضائلي العظمة والرياسة والسلطان والعز والرّفعة والبهجة والبهاء والمدح والثناء والبذل والعطاء .

وقال شيخهم كَيوانُ [1] : أنا أختار له من قوتي الحِلمَ والوقار ، والصبر والثبات ، وبُعد الغَورِ ، وعلوّ الهِمّة ، والحفظ ، والأمانة ، والفكر ، والرويّة .

وقال برجيسُ [2] القاضي العَدلُ : أنا أختار له من قوّتي ، وأزوّده الدين

١ كيوان : زحل .

٢ برجيس : المشتري .

والورع، والخير والصلاح، والعدل والإنصاف، والحق، والصواب، والصدق، والوفاء، والصِّيانة، والمروءة.

قال بَهرامُ[1] صاحبُ الجيوش: أنا أختار له من قوّتي، وأزوّده من فضائلي العزمَ والصَّرامة، والنجدة، والشجاعة، والهمة، والبسالة، والظفر والغلبة، والبذل والسخاء، والتيقُّظ.

وقالت الناهيد أخت النجوم: أنا أختار له من قوّتي، وازوّده من فضائلي الحسنَ والجمال، والتمام والكمال، والرأفة والرحمة، والزينة، والنظافة، والحب والمودّة، والسرور واللذة.

وقال أخوهم الأصغر، وهو أخفاهم منظراً، وأجلُّهم مَخبراً، الذي صنعته أظهرُ، وعلومه أكثرُ، وعجائبه أشهرُ وأزهرُ: أنا أختار له من قوّتي، وازوّده من فضائلي، وأسدي إليه من مناقبي الفصاحةَ والنُّطق، والتمييز، والفِطنة، والنظر، واللطافة، والقراءة، والنغمة، والعلوم، والحكمة.

وقالت أم النجوم وهي القمر: أنا أرضعه وأربّيه، وأختار له من قوّتي، وأزوّده من فضائلي النور، والبهاء، والزيادة، والنماء، والحركة في الأقطار الثلاثة، والتنقُّل في الأسفار، وبلوغ الآمال، والسِّيَر والأخبار، وعلمَ مواقيت الآجال.

ثم إنه داوَت الأفلاك، وتمخضت قُوى الروحانيّات، واستبشر أهل السموات، ونزل إلى عالم الكون في ليلة القدر، قبل طلوع الفجر، صاحبُ النُّشور[2] لينفخ في الصُّور[3]، فمكث هذا المولود في الرحِم أربعين يوماً من أيام الشمس، وعشرين يوماً في الرضاع، حتى تربّى ونشأ، وكمُل ونما، وكان أشبه الناس بأخيه الثالث شبَهاً، لأنه كان يُشبه عُطارد الذي هو أخو

١ بهرام: المرّيخ.
٢ النشور: قيامة الأموات.
٣ الصور: البوق.

المشتري ، لتقابُل بينهما ، وتربيعهما ، وتقابل فلكهما ، فصار هذا المولود من بين إخوته أَتمَّهم جثّة ، وأكملهم صورة . وكان أديباً ، عالماً حكيماً ، ملكاً عزيزاً ، إماماً عادلاً ، نبيّاً مُرسلاً ، فولاه أبوه مملكته ومملكة إخوته كلّها ، فظهر وقهر من خالفه ، ورفع وأعزّ من وافقه ، وتحكم في مملكته نحواً من ثلاثين يوماً من أيام الشمس . ثم أعجبته نفسه ، فأصابته العين ، فاعتلّ وبقي على الفراش نحو ألف يوم من أيام القمر ، مُرفّه الجسم ، عليل النفس ، ثم تحول إلى دار أخرى ، ونهض قليلاً ، ومشى وقوي ، ونشِط وانبسط ، وشرب من حُبّ الدُّنيا وغرورها وأمانيها ، فسكر من خمر شهواتها ، ودخل إلى كهف أبيه ، ونام مع إخوته ، فمكثوا زماناً طويلاً . فلما انقضى دور الرُّقاد وتقارب الميعاد ، ناداهم أَبوهم : ألم يأنِ لكم أن تنتبهوا من نومكم ، وتستيقظوا من غفلتكم ، وتذكروا ما نسيتم من أمر مَبدئِكم ، وترجعوا إلى مَعادكم من أسفاركم ، إذ لكل ابتداء انتهاء ، ولكل حياة فناء ، ولكل موت ونائم انتباه . وبادروا إلى معادكم من غربتكم ، فقد تمّ خلقُ السموات السبع في ستة أيام ، وغداً يومُ الجُمعة يستوي ربكم على العرش ، يحمِله يومئذ ثمانية !

فانتبهت لذلك الإخوة ، الذين قيل لهم إنهم سبعة وثامنهم كلبهم ، بعد رقدتهم ثلاثمائة سنة وأربعة وخمسين يوماً ، من أيام الشمس بحساب القمر ، يتذاكرون كم لبثوا في كهفهم ! فقال أبوهم لأخيهم : « فلا تمارِ فيهم إلاّ مراء ظاهراً ولا تستفتِ فيهم منهم أحداً » .

فأخفوا وكتموا أَسرارهم لأنه : « لا يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ، ولا خمسة إلاّ هو سادسهم ، ولا أدنى من ذلك ولا أكثر ، إلاّ هو معهم أينما كانوا ، ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة » .

فافهم ، يا أخي ، هذه الإشارات والتنبيهات ، وقِسْ على ذلك نظائرها ، ولا تفشِ الأسرار لعلك تنتبه من نوم الغفلة ورقدة الجهالة ، قبل أن يُنفَخ

في الصُّور ، وقبل أن ينادي مُنادٍ للصلاة من يوم الجمعة : « فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خيرٌ لكم . » وقبل أن يُحشر المجرمون إلى جهنم وِرْداً [1] . وتزوّد من الدنيا، فإنك راحل و «إن خير الزاد التقوى واتقونِ يا أُولي الألباب » « ولا تبغِ الفساد في الأرض » « قد أفلح من زكّاها وقد خاب من دسّاها » .

وفقك الله وإيانا وجميع إخواننا إلى طريق السداد ، إنه رؤوف بالعباد .

تمت رسالة البعث والقيامة ويليها رسالة في كمية أجناس الحركات .

---

١ ورداً : واردين .

الرسالة الثامنة

من النفسانيات العقليات

في كمية أجناس الحركات

(وهي الرسالة التاسعة والثلاثون من رسائل إخوان الصفاء)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وسلامٌ على عِباده الذين اصطفى ، آللهُ خيرٌ أمّا يُشرِكون ؟

اعلم ، أيها الأخ ، أنّا قد فرغنا من رسالة البعث والقيامة ، وكنّا قد بيّنا قبل ذلك ماهيّة الأجسام ، وكميّة أنواعها ؛ وبيّنا أيضاً أن الأجسام لا تنفكّ من الحركة والسكون ، وقد بيّنا أن المُحرّك والمسكّن للأجسام هي النفسُ ، في رسائلنا الطبيعيات والإلهيات . ونريد الآن أن نبيّن ، في هذه الرسالة ، ماهيّةَ الحركات ، وكميّة أنواعها ، والجهاتِ التي تتحرّك المتحركاتُ إليها وفيها ، فنقول :

أولاً ما الحركة وما السكون ؟ وذلك أن العلماء والحكماء قد اختلفوا في ماهيّة الحركة والسكون ، وحقيقتهما ، فمنهم من أثبتهما ، ومنهم من نفاهما وقال : لا حقيقة لهما ولا معنى . ومنهم من قال : إن الحركة لا تكون إلاّ من حيّ قادر . ومنهم من قال : إنها هي الحياة نفسها . ويطول ذلك لو شرحنا اختلافَ أقاويلهم واحتجاجاتِهم ، ولكن نقول :

إن الحركة هي صورة روحانية تجعلها النفسُ في الأجسام ، فبها تكون الأجسام متحركةً ، كما تجعلُ الأشكال والنقوش والصور والألوان في الأجسام . وبها تكون الأجسام مصوّرةً منقّشةً ، مشكّلة ، متحركة . فالنفوس هي المُحرِّكة للأجسام ، والأجسامُ هي المُحرَّكاتُ والمُسكّنات بتحريك النفوس لها وتسكينها إياها ، كما بيّنا في رسالة الهَيُولى والصورة . والتحريك هو فعل النفس ، والحركةُ هي صورةٌ تجعلها النفس في الجسم ، بها يكون الجسم متحركاً . وأما التسكين فهو أيضاً فعلٌ من أفعال النفس تحرِّك الجسم تارةً وتُسكّنه أُخرى ، مثالُ ذلك أن الإنسان يُحرِّك يده تارة ويسكّنها أُخرى .

وإذ قد تبيّن ، مما ذكرنا ، ما الحركةُ وما السكون ، فنريد الآن أن نذكر كميّة أنواعها وماهيّة كل نوع منها فنقول :

اعلم أن الحركة نوعان : جسماني وروحاني ، كما سنبين . فالحركةُ الجسمانية ستة أنواع وهي : الكون والفساد ، والزيادة والنقصان ، والتغيُّر والنُّقلة . ونريد أن نتكلم أولاً في الحركات التي هي النُّقلة ، إذ كانت هي أبْيَنَ وأظهرَ للحواس . ثم نذكر الخمسة الباقية ، إذ كانت هي أدقّ وألطفَ ، فنقول : إن الحركة التي هي النُّقلة ثلاثةُ أنواع : مستقيمة ، ومستديرة ، ومركّبة منهما. فالحركةُ المستقيمة نوعان : من المركز إلى المحيط ، ومن المحيط إلى المركز ، يعني مركزَ العالم ، ومُحيطَ العالم ، أو بين ذلك . وأما المستديرة فهي التي تكون حولَ المركز .

وإذ قد تبيّن ، بما ذكرنا ، كميّةُ أنواع الحركات التي هي النُّقلة ، فنريد أيضاً أن نذكر المُحرِّكات ، إذ كانت هي أبْيَنَ وأظهرَ للحواس ، فنقول :

إن المُحرِّكات اثنا عشر نوعاً حَسْبُ ، لا أقلّ ولا أكثر ، منها حركات الأفلاك التسعة ، ومنها حركات الكواكب السيّارة ، ومنها حركات الكواكب ذواتِ الأذناب ، ومنها حركات الشهُب ، ومنها حركات الهواء والرياح ،

ومنها حركات حوادث الجو والسَّحاب والغيوم ، ومنها حركات مياه البحار والأنهار والأمطار ، ومنها حركات ما يحدُث في بواطن الأرض من الزلازل والخُسوف ، ومنها حركات الكائنات من الجواهر المَعدِنية في باطن الأرض، ومنها حركات النبات والأشجار على وجه الأرض ، ومنها حركات الحيوانات في الجهات الست من البحر والبر والهواء. وأما جهات الحركات فمختلفة جداً، كثيرةُ الضروب والصُّوَر ، ولكن لا تخلو كلها إما أن تكون من مركز العالم نحو المُحيط ، أو من المحيط نحو المركز ، أو حول المركز ، أو موارِبة[1] بين ذلك .

فصل في تفصيل ذلك

فنقول: أما حركاتُ الأفلاك التسعةِ فكلها حول الأرض ، لأنها مركزها ، والأرضُ مركز العالم بأسره . وهكذا أيضاً حركاتُ الكواكب الثابتة ، حول مركز العالم . وأما حركات الكواكب السيّارة السبعة فحول مركزِ أفلاكِها المستديرة . وأما حركاتُ الأفلاك فحول مراكز أفلاكٍ أُخَرَ تسمّى الأفلاك الحاملة ، وحركاتُ تلك الأفلاك حولَ مركز الأفلاك الخارجة المركز من مركز الأرض ، كما بُيِّن ذلك في المَجِسطي ببراهين هندسية ضرورية بشرح طويل .

وأما الحركات التي تُرى في الكواكب السيارة ، على توالي فلك البروج ، وبالميل ، والعَرض ، والرُّجوع ، والاستقامة ، وما شاكلها ، فقد بينّا حقيقتها في رسالة السماء والعالم بمِثالاتٍ ذكرناها . وأما شرحُها فتَجِده في المَجِسطي . وأما كميّة تلك الحركات فتسع وأربعون حركة للسيّارة ، لكل

1 مواربة : منحرفة ملتوية .

واحدٍ سبع حركات ، وللكواكب الثابتة سبع أخرى، ولفلك البروج حركة واحدة ، فذلك سبع وخمسون حركة . وأما الكواكب التي تسمى ذواتِ الأذناب فليست هي بكواكب ، بل هي نيراتٌ تظهر دون فلك القمر في كُرَة الأثير . وأما حركاتها فمختلفة ، تارةً تكون نحو كرة المَغرب مع دوران الفلك المحيط ، وتارةً على توالي فلك البروج نحو المشرق ، أو مائلاً طولاً وعرضاً ، بحسب ما يوجبه شَكلُ الفلك وأحكامُ النجوم ؛ وأن حدوثها يكون دون فلك القمر في كُرَةِ الأثير ، كما يكون حدوث الشُّهب ما بين كرَة الأثير وكرَة الزمهرير ، والذي يكون من حَدَثِ البُروق في كُرة النسيم دون كرة الزمهرير . وكل هذه الحوادث تكون في عالم الكون والفساد بحسب مُوجِبات أحكام النجوم ، يطولُ فيها القولُ في كيف وكم ومتى ولماذا .

وأما كميّةُ أنواع حركات الرياح فهي إلى ست ، وذلك أن الرياح ليست شيئاً سوى تموُّج الهواء ، لأن الهواء بحر لطيف ما بين السماء والأرض . فإذا تموّج من المَشرِق إلى المغرب سُمّي الصَّبا ، وإن تموّج بالعكس سُمّي دَبُوراً ، وإن تموّج من الجنوب إلى الشّمال سُمّي التّيمَن[1] ، وإن تموّج بالعكس فهي الجِرْبياء[2] ، وإن تموّج من أسفلَ إلى فوق سُمّي الزوائغ[3] ، وإن تموّج بالعكس سُمي الزّمهرير ، وبالفارسية اباددمه ، وهي التي هَلَكت بها عادٌ ، كانت نفَخت عليهم من كُرة الزّمْهرير : « سخّرها عليهم سبع ليالٍ وثمانية أيام حُسوماً » .

وأما التي تتحرك من غير هذه الجهاتِ فتسمى النّكباوات ، وهي كثيرة الجهات ، والمعروف منها أربع : نَكباء الشّمال ، ونَكباءُ الجَنوب ، ونكباء

١ التّيمَن : الجنوب .
٢ الجرباء : الشمأل .
٣ الزوائغ : لعله الزوابع .

المَشرِق ، ونَكباءُ المغرب .

وأما الأسبابُ المحرِّكة للهواء ، المُموِّجة له ، فمنها ما هو من جهة مَطارِح الشُّعاعات من الكواكب ، ونزول القمر مَنازِله الثماني والعشرين ، واتصالاتُه بالكواكب . وقد ذكرنا طرفا من كيفية ذلك في رسالة الآثار العُلوية ، فيُطلبُ من هناك .

وأما حركات الشهُب فهي أيضاً إلى الجهات الأربع ، أو نكباواتها بحسب القوة الدافعة لها من مطارح شعاعات الكواكب . وليست حركاتها بأسرع من حركات الكواكب في أفلاكها ، ولكن لقربها منا نراها أسرعَ حركةً من الكواكب .

وأما حركات السحاب والغيوم فإلى هذه الجهات الأربع أيضاً نكباواتها ، وهي بحسب مَهَبِّ الرياح التي تسوقها من سواحل البحار والآجام والأنهار إلى البلدان المقصود بها من البراري والقفار ورؤوس الجبال ، مُنتصباً أو مُوارباً [1] .

وأما حركاتُ قطرِ الأمطار فكلها تجري من جو الهواء إلى الأرض والبحار ، منتصباً أو مواربا .

وأما حركات الأرض فهي ثلاثة أنواع : منها الزلازل ، ومنها الخسوف ، ومنها الارجِحْنان [2] ، فأما سبب الزلزلة فهو البُخار المحتقِن في باطن الأرض ، يطلب الخروج ، فيهز بعض بقاع الأرض ، وتضطرب وترتعد ، كما يرتعد المحموم عند شدة الحمى . وسبب ذلك هو رطوبة عفنةٌ في خلل الأبدان ، فتشتعل منها الحرارةُ العرضية ، فتذيبها وتحللها ، وتصيِّرها دُخاناً وبُخاراً يخرج من مسامِّ خَلَل الأبدان ، فيهتز من ذلك البدنُ كله أو عضوٌ منه ، ويرتعد. ولا يزال البدن كذلك إلى أن تخرج تلك البخارات والدُّخاناتُ من

١ مواربا : منحرفاً ملتوياً ، من الوراب .
٢ الارجحنان : الميل والاهتزاز .

هناك، وتفنى مادتها، وتخمد تلك وتسكن. وكذلك حركات بقاع الأرض عند الزلازل. وربما ينشق ظاهر الأرض وتخرُجُ تلك الرياحُ والدخاناتُ والبخارُ المحتقِن المُحتَبس دفعةً واحدة، وتنخسف الأرض والبِقاعُ، ويقع في تلك الأُهويّة كما ينخسف سَقفُ البيت ويقع في أرضه.

وأما حركاتُ الارجحنان فعند الحكماء أنها تترجّحُ تارةً من الجنوب إلى الشمال، وتارةً بالعكس، ولكن الناس لا يحسون بها لكبر الأرض وعظمها، كما لا يحس أهل المراكب في البحر بحركاتها، عند شدة سوق الرياح لها. وذكر هذا الحكيم أن علة تلك الحركة هي مرور الشمس، تارةً من البروج الجنوبية إلى البروج الشمالية، وتارةً من الشمالية إلى الجنوبية، وإنما تجذبها إلى حيثُ دارت معها وكيف مالت، كما تجذب نباتها من باطنها إلى ظاهرها، وكما تجذب أُصولَ النبات وفروعها إلى الهواء. ومن الحكماء من قال إن سبب ذلك هو أنه من دوران الشمس فوق الأرض، في ناحية الشمال ستة أشهر في الصيف، كما ذُكِر في المجسطي، سَخَنت أهويةُ تلك البلاد ومياهها، وتحللت رطوبة تلك البلاد، وخلا ذلك الجانبُ، وتحركت الأرض وترجحت، وثَقُل الجانب الآخر وتحركت الأرض، وينقلُ المراكزَ البُعدُ والثقلُ جميعاً، وترجحت الأرض ولكن لا يُحَس بها لكُبرِها. ولهم في هذا احتجاجات وكلام وأقاويل يطول شرحها.

فأما الذين أنكروا ذلك من الحكماء، ودافعوا أن تترجح الأرضُ فقالوا: لو كان القولُ كما قيل وكما زعموا، لكان يجب أن تختلف مُسامَتات[1] الكواكب الثابتة لبِقاع الأرض في الشتاء والصيف؛ وكان يجب أن يرتفع القطبان تارة، وينخفضا تارة؛ وكان يجب أن يكون موضِعُ خطّ الاستواء الذي تحت معدّل النهار مختلفاً، ولسنا نجد الأمر كذلك، فدل على أن ما

١ المسامتات: المقابلات والموازيات.

قالوه من ارجحنان الأرض باطلٌ . وقد رُوي في الخبر أن الأرض في بدء الخلق كانت تترجَّح كما قال هؤلاء الحكماء ، فلما أرساها الله تعالى وشيَّدها بالجبال الثقال ، استثقلت وسكنت حركاتها.

وأما حكم حركات باطن أجزاء الأرض فقد قدَّمنا طرفاً منها في رسالة المعادن ، ولكن نذكرُ في هذا الفصل ما لا بُدَّ منه .

فصل

اعلم أن الأرض جسم كُريٌّ بجميع ما عليها من الجبال والبحار والعمران والخراب ، وهي واقفةٌ في مركز العالم ، وليست مستديرة ملساء ، ولا مُصْمَتَةً[1] صمَّاء ، بل كثيرة الارتفاع والانخفاض من الجبال والتلال والأودية والأهوِيّة ، كثيرةُ التخلخل والتجويفات والكهوف والغارات[2] والمنافذ والظواهر والبواطن ، وكلها ممتلئة مياهاً ورطوباتٍ وبخارات دُهنية وكبريتية تنعقد منها الجواهر المعدنية . وتلك البُخارات والدُّخانات والرطوبات في دائم الأوقات ، في الاستحالة والتغيُّر والكون والفساد .

وهكذا حكم ظاهرها فإنها كثيرةُ البحار والأنهار والأودية والجداول والبطائح والآجام والغُدران ، وفيها منافذ وخليجاتٌ يجري بعضُها إلى بعض في دائم الأوقات ، وأمواجُ البحار متصلةٌ في دائم الأوقات ، ليلاً ونهاراً ، لا تَقَرُّ ولا تهدأُ . وتصاريفُ الرياح كذلك ، والغيومُ والأمطار والسحاب والضباب دائمات الكون والفساد . والأمطارُ متصلةٌ ، في دائم الأوقات ، في بلدانٍ مختلفة البِقاع شرقاً وغرباً وجنوباً وشمالاً ، بل حكم الليل والنهار

. . . . .

١ مصمتة : لا جوف لها .

٢ الغارات : جمع الغار ، وهو الكهف .

والشتاء والصيف الموجودات في الأوقات في بلدانٍ شتى ، يتعاقب على بقاع الأرض من كل جانب ، والنباتُ والحيوان والمعادن في الكون والفساد متصلٌ لا ينقطع ، والسِّفادُ والنِّكاحُ والتوالُد والحِسُّ والحركة والنوم واليَقظة والموت والحياة متَّصلةٌ في الخليقة !

وما في الأرض موضعُ شِبرٍ إلاّ وهناك مَعدِن أو نبات أو حيوان، قلَّ أم كَثُر ، صَغُر أم كَبُر ، مختلفُ الأجناس والأنواع والأشخاص والأشكال والصُّوَر والطباع والمزاج والأخلاق والألوان والأصوات، لا يعلم أحد كُنهَها وكثرتها وتفصيلها إلاّ الله تعالى الذي خلقها وصوّرها ودبّرها كما شاء وكيف شاء ، فتبارك الله رب العالمين !

وإذا تأملت يا أخي واعتبرت ما وصفنا من أحوال الحركات والمتحرِّكات التي في العالم ، علمت وتبيّن لك أن حُكم العالم بجميع أجزائه ومجاري أُموره، تجري مجرى مدينة واحدة ، أو حيوان واحد ، أو إنسان واحد ، لا ينفكُّ من الحركة والسكون ، إما بكلّيته أو بجزئيّته .

وقد بيّنا ، في رسالة ماهيّة الطبيعة ، ورسالة السماء والعالم ، أن سبب حركات الأركان ومولّداتها هو حركاتُ الكواكب ، وسبب حركات الكواكب دورانُ الأفلاك ، والمحرّكُ والمدبّرُ للأفلاك هي النفس الكليّة الفلكيّة، فإن النفس الكليّة الفلكية هي مَلك من الملائكة المُقرّبين وجنوده وأعوانه، وهو الذي أُشير إليه بقوله تعالى: « يوم يقوم الروح والملائكة صفّاً لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن » وقال تعالى : « ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة ». وهذا المَلَكُ وكّله الله تعالى بإدارة الأفلاك ، وحركات الكواكب ، وما تحت فلك القمر، من سائر الأركان ومُولّداتها من المعادِن والنبات والحيوان أجمع . وهذا الملك هو أكبرُ من الفلك ، وأقوى منه ، وأعظم ، وأقدم، وأشرف، وأجلّ وأعلى من سائر الخلائق الجِسمانيين . وهو يَقدِر على تسكين الأفلاك والكواكب كما يَقدِر على تحريكها ، لأن

التسكين أسهلُ من التحريك ، يعلمه كلُّ عاقل مُنصِفٍ بحكم العقل .

وأما حركاتُ أشخاص الحيوانات فهي مختلفة الجهات والأشكال والهيئات والصُّوَر ، لا يعلم عددَها إلا الله الواحد القهّار ، ولا يقدِر أحد على تفصيلها إلاّ هو . ولكن نذكر منها طرفاً من فنون حركات أعضاء بدَن الإنسان ومفاصِل جسده ، ليكون دلالةً على حركات أبدان سائر الحيوانات وأعضائها كلّها المُختلفةِ الأشكال والصُّوَر .

فصل

فنقول : اعلم أن حركات أعضاء البدن نوعان : طبيعية وإراديّة ، فالطبيعية مثلُ حركات نَبض العُروق الضّوارب وحركات أضلاع صَدره وفؤاده ورئته وحُلقومه ، عند استنشاقه الهواء ، وإرساله في حال النوم واليَقظة من غير إرادة منه ولا اختيار .

وأما الحركات الإرادية والاختيارية فمثلُ القيام والقعود والذهاب والمجيء والصنائع والأعمال والكلام والإشارات بأعضاء بدنه ، فإنه لا يكون إلاّ بإرادة واختيار منه ، وهي مائة ونيّفٌ وعشرون حركة ، منها حركاتُ لجفن العين بالفتح والإطباق . ومنها حركة نقل حدقتيه إلى أربع جهات ، فوقُ وتحتُ ويمين ويسار ، يحركها بأعصاب ممتدّة من الدّماغ إلى جِرم العين ، وبالعضلات المتّصلة بالعين ، فهو يُقلّب عينه بتلك العَضلات والأعصاب متى شاء إلى الجهات كلّها ، كما يجذِب الفارسُ لجام فرسه يمنةً ويَسرةً ، ويُصرّفه كيف يشاء في تقلّب عينه ، ويحرّكها إلى حيث يريد أن ينظر إليه بتلك الأعصاب . ومنها حركاتُ اللسان إلى ست جهاتٍ لمضغ الطعام وتقليبه تحت أسنانه للقطع والكسر والدّقّ والطحن ، والقطع بالثنايا ، والكسر بالرباعيات [1]

[1] الرباعيات : الاسنان التي بين الثنايا والانياب .

والأنياب والدق والطحن بالأضراس والطواحن .

وأمـا حركاتُ اللسان عند الكلام فإنّا نذكرها في فصل آخر : منها حركاتُ اللسان أيضاً عند قطع الشفتين لحدوث الحروف التي مجراها على اللسان ، وهي أربعة عشر حرفاً في لغة العرب ، وهي هذه : ت ث د ذ ر ز س ش ص ض ط ظ ل ن . والأربعة عشر حرفاً أخرى فمخارجُها مختلفةٌ ليس للسان فيها مَدخل .

ثم اعلم أن هذه الأحرف لا تحدُث إلاّ بإرسال النفَس المُستنشَق من الهواء وإرساله ، وقَطعِ اللسان لها في مخارجها ومجاريها ، كما نبيّن ذلك في فصل آخر .

ومنها حركتان للشفتين بالفتح والضم ، ومنها حركات عصباتِ الخياشيم عند استنشاق الهواء والروائح بالمنخِرين . ومنها حركات المريء [1] للبلع وازدراد الطعام والشراب ، وإيصالهما إلى المَعِدة . ومنها حركةُ الفَـكّ السُّفلاني إلى أربع جهات . ومنها حركات الرأس والرقبة إلى أربع جهات . ومنها حركات الكفّين إلى أربع . ومنها حركات العَضُدَين مثل ذلك . ومنها حركاتُ الذّراع إلى جهتين . ومنها حركات الكُرسُوع [2] إلى أربع جهات . ومنها حركات الأصابع الأربع ، كلٌ واحدة إلى جهتين ، إلاّ الإبهام ، فإنها تتحرك إلى الجهات الأربع . ومنها حركات الظهر إلى أربع جهات . ومنها حركات الفخذين إلى أربع جهات . ومنها حركات الساقين إلى جهتين . ومنها حركات أصابع الرجل إلى جهتين. ومنها حركات السَّبيلَين عند إطلاق البول والغائط. فهذه جُملة مختصرةٌ من تعديد أعضاء بدن الإنسان . فأما عللها فيطول شرحها ، مذكورٌ بعضُها في كتب التشريح ، وبعضُها في كتاب منافع سائر الأعضاء لجالينوس .

---

١ المريء : مجرى الطعام والشراب ، وهو رأس المعدة والكرش اللاصق بالحلقوم .
٢ الكرسوع : طرف الزند الذي يلي الخنصر ، وهو العظم الناتىء عند الرسغ .

وأما حركات أعضاء أبدان سائر الحيوانات فيطول شرحها لكثرة اختلافها وصُوَرِها وأشكال أعضائها ، وقد ذكرنا طرفاً منها في رسالة الحيوانات على لسان رسول النحل عند ملك الجن في الخطاب. فأما حركات الصُّنَّاع وأصحاب الحِرَف في صنائعهم وأعمالهم فقد ذكرنا طرفاً منها في رسالة الصنائع العملية . فأما حركات الحواسّ الخمس عند إدراكها محسوساتها فقد ذكرنا طرفاً منها في رسالة الحاسّ والمحسوس . وأما حركات عصَبات مُقدَّم الدماغ ووسطه ومؤخَّره فقد ذكرناها في رسالة الآراء والمذاهب والديانات . وأما حركات النبات فقد بيَّنا طرَفاً منها في رسالة النبات . وأما حركات الجواهر المعدنية ففي رسالة أخرى . وأما حركات الجو والهواء ففي رسالة الآثار العُلْوِيّة . وأما حركات الأركان الأربعة فقد بيَّناها في رسالة الكون والفساد . وأما حركات الأفلاك والكواكب ففي رسالة السماء والعالم . وأما حركات الأصوات ففي رسالة الموسيقى . وحركات الآلام واللذات في رسالة أخرى ، فقد ذكرنا في كل رسالة ما يليق بحسبه ، وإنما طوَّلنا ذكر الحركات وزدنا في شرحها لأنها هي حياة العالم ، وذلك أن حياة كل شيء من نبت وحيوان بالماء ، وحياة الماء بالحركة ، وحياة الأبدان بالنفس ، وحياة النفس بالفكر والجولان والخواطر ، كما ذكرنا طرَفاً منها في رسالة الإيمان ، وهي لا تهدأ، أعني النفس ، لا في النوم ولا في اليقظة عن الحركات والجوَلان .

فصل

ثم اعلم أن غرضنا ، من ذكر حركات العالم وحركات أجزائه الكليات والجُزئيات وفنون تصاريفها ، هو بيان بُطلان قول من يقول بقِدَم العالم ، وذلك لأن الحركات المختلفة تدل على اختلافها ، والمتحرِّكُ والمختلفُ الأحوال لا يكون قديماً ، لأن القديم هو الذي يكون على حالة واحدة لا يتغيّر ولا يستحيل ولا يحدُث له حال ، وذلك ليس يوجد موجود هذا شأنه إلاّ الله الواحد الأحد ، ولا يمكن أن يوجد شيء سوى الله تعالى هذا شأنه .

ثم اعلم أن الذين قالوا بقِدم العالم ظنُّوا بأنه ساكن ، والساكن لا تختلف أحواله ، وليس الأمر كما ظنوا وتوهموا من سكون العالم ، كما بيّنا فيما تقدّم بكثرة حركات كلياته وجزئياته ما لا تنكره العقول السليمة : فمنها حركاتُ الكواكب ، ودورانُ الأفلاك ، واستحالاتُ الأركان ، وتكوين المُولّدات مما لا خفاء به .

ولعمري إن الفلك المحيط هو جسمٌ كرويٌّ محيط بسائر الأشياء والأفلاك ، وهو ساكن في مقرّه لا ينتقل منه ، ولكنه متحرك الأجزاء كلها . وكل فلك ، من الأفلاك المستديرة ، والأفلاك الخارجة المراكز ، يدور كل واحد حول مركزه الخاص ، لا يَقَرُّ ولا يهدأ طرفةَ عين ، ولا يمكن أن يُتوهَّم بسُرعة حركتها إلاّ شيء نذكره ، وذلك أن الدُّوّارة هي أسرعُ شيء حركة نشاهدها . وقد ذكر أصحاب المَجِسطي أن حركات الأفلاك والكواكب أسرعُ من ذلك ، وقد بيّنوها ببراهين هندسية ضرورية : فمن ذلك ما قالوه في حركة الشمس إنها تتحرك في مقدار ما يُشِيلُ الإنسان رجله بخطوة من خطواته ، ويضعها تمشي فراسخ .

ثم اعلم أن كل حركة في متحرّك فهي متحركة له ، وهي سبب لشيء آخر ، فمتى عدِمت تلك الحركة بطَل ذلك السبب . مثال ذلك حركة الرّحى عن

الدابة التي تديرُها أو الماء ، وهي سبب الطحن ؛ فمتى وقفت الدابة وانقطع الماء ، سكنت الرَّحى وعَدِم الطحنُ ! فهكذا حُكم الدولاب ، متى وقفت الدابة ، سكن دوَران الدولاب وعَدِم الاستقاء . وهكذا حُكم الرياح وتحريكُها المراكبَ والسفن والمياه ، فمتى سكنت الرياح ، وقفت مراكب البحر عن السير ، وسُكنت الأمواج . وهكذا أيضاً مراكب الأنهار ، والسماريّات[1] في جريانها ، متى توهم عدم الماء ووقوفها وجريان الأنهار ، وقفت المراكب والسماريّات والسفن واقفة عن الانحدار والإصعاد[2]. وهكذا متى سكنت حركاتُ قوائم الحيوانات ماتت ، وهكذا متى سكنت حركاتُ أبدانها وأعضائها عن النّبض والتنفس ماتت وبطَلت حياتها . وهكذا متى وقفت الكواكب السبعة السيّارة في البروج عن دورانها ، وقفت الأمور التي تحت عالم الكَون والفساد من الحيوان والنبات عن حركاتها وتكوينها ؛ يعرف حقيقة هذا من كان حاذقاً بصناعة النجوم وتكلّم عليها . والمثالُ في ذلك كرَواحة متى وقفت عن الدوران سقطت بعدما كانت قائمة منتصبة عند حركاتها ، فهكذا حُكمُ العالم متى وقف الفلك المُحيط عن الدوران ، وقفت الكواكب عن المسير والحركات ؛ ووقفت عند ذلك مجاري الليل والنهار والشتاء والصيف ، فيبطُلُ عند ذلك الكونُ والفساد ، ويبطُلُ نِظام العالم ، وتذهب الخلائق ، وتفارق النفسُ الكلية الجسمَ الكُلّيّ ، وتقوم القيامة الكبرى . وذلك أن العالم هو إنسان كبير ، فإذا فارقت نفسُ العالم الجسمَ الكُلّيّ فقد مات الإنسان الكبير وقد قامت قيامته الكبرى، كما أن كل إنسان إذا فارقت النفسُ جسده فقد مات الإنسان الذي هو عالم صغير وقد قامت قيامته ، لأن القيامة قيامتان : قيامة كبرى وقيامة صغرى ، كما قال ، عليه

---

١ السماريات : جمع سمارية ، وهي ضرب من السفن النهرية ، وفي الطبري السميريات .

٢ الجملة مضطربة التركيب كما لا يخفى .

السلام : « من مات فقد قامت قيامته » ثم بعد ذلك تبيّن للمُنكِرين ما كانوا يُوعَدون !

فصل

في بيان مقدمات عقلية ضرورية تدل على أن العالم محدث مصنوع

فنقول : اعلم أن معنى قول الحكماء العالم هو إشارةٌ إلى الفلك المحيط وما يحويه من سائر الأفلاك ، والكواكب ، والبروج ، والأركان الأربعة ومولّداتها التي هي الحيوان والمعادن . ثم نقول : اعلم أن الفلك المحيط وما يحويه من جميع ما ذُكر كلُّها أجسام ، ومما لا شك فيه عند الحكماء أن الجسم عبارة عن الشيء الطويل العريض العميق . وقولهم الشيءُ إشارةٌ إلى الهَيولى وهو الجوهر ؛ والطولُ والعرضُ والعمقُ إشارةٌ إلى الصورة التي صارت بها الهَيولى جسماً طويلاً عريضاً عميقاً . ثم اعلم أن من الأجسام ما هو متحرك دائماً ، وهي الأفلاك والكواكب ؛ ومنها ما هي ساكنة بكلّيتها ، متحركةٌ بأجزائها ، وهي الأركان الأربعة ، وذلك أن النار التي دون فلك القمر لا تبرح من مكانها ، وهي المسمّى الأثير ، وهو هواءٌ حارٌ ليّن ليس له ضوء ، ودونه هواء بارد يسمّى الزّمْهرير ، وليس يبرح أيضاً من مكانه ؛ ودونه النسيمُ المُحيط بالأرض والبحار ، وهو هواء معتدل بين الحرارة والبرودة . وكل هذه الأُكَرُ الثلاثُ لا تبرح من مكانها ، بل هي متحركة بأجزائها ، ومنها ما هي متحركة تارةً بكلّيتها وجُزئيّتها ، وتارةً ساكنةٌ بكلّيتها وجُزئيّتها ، وهي المُولّدات الكائنة من الحيوان والنبات . وكل هذه الأجسام المتحركات والساكنات يقتضي مُحرّكاً ومُسكّناً . بيان ذلك أن الفلك لما كان أجساماً كُريّاتٍ مستديراتٍ مُشِفّاتٍ مُحيطاتٍ بعضُها ببعض ، الصغيرُ منها في جوف الكبير ، والكبير في جوف ما هو أكبرُ منه ،

إلى أن ينتهي إلى الفلك التاسع المحيط بالشكل .

وكل هذه الأفلاك متحركات حركات مستديرة مختلفة في السرعة والإبطاء، والجهات المختلفة شرقاً وغرباً وجنوباً وشمالاً وطولاً وعرضاً . وهكذا حكم حركات الكواكب فإنها كلها أجسام كريّات مستديرات مضيئات بحركات مستديرة مختلفة ، كما بيّن في المجسطي ببراهين هندسية عقلية ضرورية تدلّ هذه من أحوالها المختلفة الأشكال ، من الصغر والكبر والإبطاء والسرعة وغير ذلك ، على أنها واقفة بقصد قاصد ، وصنع صانع ، وجعل جاعل ، وفعل فاعل حكيم قادر عالم .

وهكذا حكم الأركان الأربعة ومولّداتها من الحيوان والنبات والمعادن ، من اختلاف أحوالها ، وفنون تصاويرها ، وتغيّر أوصافها ، تدل على أنها كلها من صنع صانع حكيم ، بصير قادر ، وهو الله الواحد القهّار العزيز الغفّار.

فعند ذلك بطل قول المنجّمين فيما يدّعونه من تأثير الكواكب ، لقيام الأدلّة بأنها مضطرّة مسخّرة ، إذ المضطر لا فعل له ، والفعل لمن يضطره ، ويبعد عليه قدرته ، ومن تعدى هذا الحكم فقد ظلم ، ولا يبعد الله إلاّ لظالم قال بما لا يعلم .

فصل في بيان مشاهدة العلماء الحكماء العارفين المُستبصرين
الذين هم أولياء الله المُصطَفون الذين يرون صانع العالم بعين البصيرة

فنقول: اعلم أن الجسم ذو جهاتٍ لا يُمكنه أن يتحرّك إلى جميع جهاته دفعةً واحدة، وليست حركته إلى جهة أولى من جهة إلاّ لسببٍ أو علّةٍ بها تكون تلك الحركة من تحريك غيره إياه. فاعلم أن صانع العالم لما كان محتجباً عن أبصار الناظرين الذين هم به جاهلون، كان أثرُ الصّنعة في مصنوعاته ظاهراً جليّاً بيّناً لا يخفى على كل عاقل مُنصفٍ لعقله، وإن كان لا يدري الصّنعة لمن هي، ومن عمله، ومتى صوّره، ومن أي شيء خلقه، وكيف صوّره، وواحدٌ عمِلَه أو أكثر. وإن كان العمل لواحدٍ فعلى مثالٍ احتذاه بفعله إياه، أو يعرف مثال عمله، ولم فعل بعد أن لم يكن فعل ؟! فمشاهدتهم أثرَ الصنعة في المصنوع – وهي التي ذكرنا من اختلاف أحوالها – دلالةٌ على أنها كلّها بقصد قاصدٍ، وصُنع صانعٍ، وفعل حكيم قادر، وإن كانوا ليسوا يرونه، ولا يدرون من هو لجهلهم به، وقِلّة معرفتهم له، وهي الحجاب الذي بينه وبينهم، كما ذكر الله تعالى في ذمهم: «كلاّ إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون» والحجاب هاهنا هو جَهالتهم وقِلّة معرفتهم به.

وأما أولياء الله وأصفياؤه والعلماء العارفون المُستبصِرون فإنهم يرونه ويشاهدونه في جميع أحوالهم ومُتصرّفاتهم، ليلَهم ونهارَهم، لا يغيب عنهم طَرفةَ عين، كما لا تغيب مصنوعاته ومخلوقاته ومصوّراته عن أبصار الناظرين، كما وصفهم تعالى بقوله: «شهد الله أنه لا إله إلاّ هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط» وقال: «إلاّ من شهد بالحق وهم يعلمون» سمّاهم شهداءَ لمشاهدتهم لله تعالى في جميع أحوالهم كما قال: «أينما تولوا فثَمّ وجه الله» وقال: «هو الأول والآخر والظاهر والباطن» ولا يَعزُب عنه مثقال ذرّة في السموات ولا في الأرض، ولا أصغر من ذلك، ولا أكبر إلاّ هو معهم

أينما كانوا : « مـا يكون من نجوى ثلاثة إلاّ هو رابعهم ولا خمسة إلاّ هو سادسهم » وقال : « ونحن أقرب إليه من حبل الوريد . »

ولما تحقق أولياء الله تعالى فهمَ هـذه الآيات وعرفوهـا حقّ معرفتها ، شرح الله قلوبَهم ونـوَّر أبصارَهم، وكشفَ الغطاءَ عنهم، حتى رأوه وشاهدوه بأبصارهم ، كما عرفوه بقلوبهم ، وكما ادّعى أسدُ الله في الأرض : « لو كُشِفَ الغِطاءُ ما ازددتُ يقيناً » أراد بذلك أني أراه في هـذا الوقت مثل مـا أراه في الآخرة .

فصل في أن وجود العالم عن الله

فنقول : اعلم أن وجود العالم عن الباري ليس كوجود الدار عن البَنّاء ، أو كوجـود الكتاب عن الكاتب ، الثابتِ المستقل بذاتـه ، المستغني عن الكاتب بعد فراغه من الكتابة، وعن البنّاء بعد فراغه من أبنية الدار، ولكن كوجود الكلام عن المتكلم الذي إن سكت بطَل وجودُ الكلام . فالكلام يكون موجوداً ما دام المتـكلم يتكلم به ، ومتى سكت بطـَل وجوده . أو كوجود نور السراج في الهواء ، ما دام السراج باقياً ، فالنور باقٍ موجود . أو كوجود ضوء الشمس في الجو، فإن غابت الشمس بطل وجدانُ الضوء من الجو. أو كوجود الحرارة المُسخّنة في جسم النار ، لو انطفأت بطَل ضوؤها وحرارتهـا . أو كوجود العدد عن الواحد قبـل الاثنين ، كما بيّنّا في رسالة الأرثماطيقي .

ثم اعلم أن كلام المتكلم ليس هو جزءاً منه ، بل فعلٌ فعَله أو عملٌ عمِله وأظهره بعد أن لم يكن . وهكذا حُكم النور الذي يُرى في الجو عن جِرم الشمس ليس هو جزءاً منها بل هو أشخاصٌ منها وفيضٌ وفضلٌ منها. وهكذا حكمُ حرارة النار المنتشِرة منهـا حولها ليس بجزء منهـا ، بل هي فيض يفيض

منها. وهكذا الحكم والمثال في وجود العالم عن الباري، وذلك أن العالم ليس بجزء منه، بل فضلٌ تفضّل به، وفيضُ جودٍ أفاضه، وفعلٌ فعله بعد أن لم يكن فعل، كما أن المتكلم أظهر الكلام بعدما لم يكن تكلم، وليس الكلام جزءاً من المتكلم، بل فعلٌ فعله وصُنعٌ أظهره. فقد تبيّن إذاً، بما ذكرنا من هذه المثالات التي تقدّمت، كيفيّةُ وجود العالم عن الله تعالى. ولا تقدرُ أيضاً ولا ينبغي أن تظُن أن وجود العالم عن الله تعالى طبعاً بلا اختيار منه مثلُ وجود نور الشمس في الجو طبعاً لا اختياراً منها، ولا تقدِر أن تمنع نورها وفيضها لأنها مطبوعة على ذلك طبعها رب العالمين. فأما الباري تعالى فمختار في فعله إن شاء فعل، وإن شاء أمسكَ عن الفعل تركاً، مثل المتكلم القادر على الكلام، إن شاء تكلم، وإن شاء أمسكَ وسكت. وهكذا حكم إيجاد الباري تعالى واختراعه، إن شاء أفاض جودَه، وفضله، ونعمته، وإحسانه، وإظهار رحمته وحكمته، وإن شاء أمسكَ عن الفعل تركاً، وإن شاء لم يمتنع عن إيجاده فعله صُنعاً، إذ هو قادر على الفعل وترك الفعل مختاراً، كما ذكر في كتابه: «إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده».

وقال: «كل يوم هو في شأن» ولا يَشغَله شأنٌ عن شأن.

وإذ قد تبيّن بما ذكرنا حدوثُ العالم وكيفيّة حدوثه عن الله تعالى، فنريد الآن أن نذكر ونبيّن أيضاً كيفيّة بَوارِ العالم وخراب الأفلاك وطَيّ السموات كطيّ السِّجِلّ للكتب، بمقدّمات عقلية ضرورية، صادقة، ينتج عنها ما ذكرنا من بَوار العالم وخراب الأفلاك.

فصل

فنقول : اعلم أن الفاعل المختار هو الذي يقدر على الفعل وتركه متى شاء. فهذه مقدّمة موجبة صادقة، ومقدّمة أخرى : كلُّ فاعلٍ حكيم مختار فله في فعله غرض ، فهذه موجبة صادقة . ومقدمة أُخرى نشرحها فنقول : الغرضُ هو عناية سابقة في علم الصانع قبل إظهار صنعته ، ومن أجله يفعل ما يفعله ، فإذا بلغ إلى غرضه ، قطع الفعل وأمسك عن العمل .

فهذه مقدّمات ثلاث موجبات صادقات ، ومقدّمة أُخرى : كل حكيم صانع إذا علم علماً يقينيّاً أنه لا يبلغ إلى غرضه في فعله ، فإنه لا يعمَل شيئاً ولا يطلبه ، وهذه مقدّمة كلّية موجبة صادقة . ومقدّمة خامسة : محرّكُ الأفلاك والكواكب فاعلٌ مختار حكيم قادر ، وهذه مقدّمة موجِبة .

فينتج من هذه المقدمات أن العالم سيخرب يوماً . بيان ذلك أنه إن كان قد يبلُغ محرّك الأفلاك إلى غرضه في تحريكها، فسبيله أن يمسِك عن تحريكها وإدارتها ؛ وإن كان لم يبلغ إلى الغرض ، فالغاية في ذلك بلوغ الغرض ، وإن كان يعلم أنه لا يبلغ غرضه ومطلبه ، فسبيله أن يُمسِك عن فعله إن كان حكيماً . وإن كان يعلم أنه سيبلُغه ، فإذا بلغ غرضه ومطلَبه ، قطع الفعل وأمسك عن العمل . وإذا أمسك مُحرّك الأفلاك عن التحريك لها ، وقفت الأفلاك عن الدوران ، ووقفت الكواكب عن المسير في البروج ، ووقفت مجاري الليل والنهار والشتاء والصيف ، وبطل ترتيبُ الزمان ، ووقف الكون والفساد في المولّدات الثلاثة ، وفسد النظام . وفي ذلك يكون بُطلانُ العالم وبَوار الكل ، لأنّا قد بيّنا في فصول قبل هذه أن قِوام العالم وصَلاحَ الخلائق هو بالحركة التي هي حياةُ العالم وصلاحُه ، وبها يكون الخير والشر، والسعودُ والمعارف أجمع .

فقد تبيّن ، بما ذكرنا ، كيفيةُ بوارِ العالم وطيّ السموات والأرضينَ

التي هي القيامة الكبرى . فأما حديثُ عالم الأرواح وبقائها ودوامها ، وكيفيةِ تصاريف أهلها ، فقد ذكرنا طرفاً منها في رسالة البعث والقيامة بشرحها .

فصل

في بيان الضرر لمن يعتقد أن العالم قديم غير مصنوع

فنقول : إن من يعتقد أن العالم قديم غير مصنوع ، أو يظن ذلك ، فإن نفسه نائمة نوم الغفلة ، ويموت بموت الجهالة ، وذلك أنه لا يخطر بباله ، ولا يجول في خَلَده ولا في فكره ، كيفيّةُ صَنعة العالم وتكوينه ، ولا يسأل عن صانعه من هو ، ولا من خلقه ، أو متى أحدثه ، ومن أي شيء خلَقه ، وكيف صوّره ، ولِمَ فعل بعد أن لم يكن فعل ، وما الذي أراد بما فعله ، وما شاكلَ هذه المباحث والسؤالات التي فيها وفي أجوبتها انتباهُ النفس من نوم الغفلة ، وحياةٌ لها وخلاصٌ من البؤس والشدة . فإذا لم يخطُر بباله لا يسأل عنه ، وإذا لم يسأل عنه لا يُجاب ، وإذا لم يُجَب لا يعلم ، وإذا لم يكن عالِماً ، فنفسُه تنام في غفلتها ، وتعمى عن الاعتبار للمشاهدات ، وتَصَمُّ من استماع الأذكار والخطاب ، وتموت في ظُلُمات الجهالة التي هي ظلماتٌ بعضُها فوق بعض ، ويشتغل حينئذ بالأكل والشرب ، والجماع وطلب الشهوات الجسمانية ، واللّذات الجرمانية ، إذ هو جاهلٌ بنفسه ، مُصِرٌّ على سوء فعله ، مُستكبِرٌ في حياته إلى الممات . ثم يفارق الدنيا ، على رغمٍ منه ، كارهاً حزيناً ، خاسراً لا يُرجى له بعد الموت ثوابٌ ، ولا يُؤمَّل له إحسان ، إذ لم يكن له ما يجازى به إحساناً ، وهو قوله : « خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين » .

فأما من يعتقد خلاف ذلك ، وهو يعتقد أن العالم مُحدَثٌ مصنوع بقصدِ

قاصد ، وفعل حكيم ، فإنه يَعرِض له عند ذلك خواطرُ عجيبةٌ ، وفكرٌ ورويّةٌ ، واعتبارٌ وبصيرةٌ ، وسؤالاتٌ طريفة ، ومباحثُ لطيفةٌ عن العلوم الشريفة ، ويكون في ذلك النجاةُ والسببُ لانتباه النفس من نوم الغفلة ، وتنفتح له عين البصيرة ، ويحيا حياة العلماء ، ويعيش عيش السعداء في الدنيا والآخرة جميعاً . وذلك أنه يخطُر بباله ، ويعرِض في فكره أن يبحث ويسأل فيقول : من هذا الصانعُ الذي خلق العالم ، ومتى خلق ، ومن أي شيء عمِل ، وكيف صنع وصوّر ، ولِمَ فعل بعد أن لم يكن فعَل ما فعل ، وما الذي أراد بذلك ، ولماذا ؟ وما شاكل هذه المباحث والسؤالات التي في أجوبتها حياةُ النفس من مَوت الجهالة ويقظةٌ لها من الغفَلات ، والخروجُ من ظُلُمات الخطيئة . وإن وُفّق لفهمها بإلهام من الله تعالى ، فذلك هو الوحي والنبوّة ، وإن عزّ عليه ، فعليه بمجالسة الحكماء والمُباحَثة معهم ، فإذا فَهِم ما قالوه — حسبما بيّنا في رسائلنا الإلهيات — صارت نفسُه مثلَ نفوسهم ، ويكون معهم حيث كانوا في درجات الجنان ، وتنتبه نفسه من نوم الغفلة ، ويحيا حياة العلماء ، ويعيش عيش السعداء ، ويُرفَع إلى ملكوت السماء ، ويصير في زُمرة الأنبياء الذين أخلصوا بخالصة ذكرى الدار ، وتصير نفسه من ورَثة جَنّةِ النعيم وسُكّان السماوات ، وقاطني الأفلاك ، ويبقى هنالك خالداً مُخلّداً ، منعّماً ملذّذاً أبدَ الآبدين .

فصل

ثم اعلم أن لكل شيء من الموجودات قسطاً من السعادة، قَلَّت أم كثرت، وهي أن يبقى ذلك الشيء موجوداً أطولَ ما يُمكِن على أحسن حالاته وأتمّ نهاياته ، ولكنّ أسعدَ السعادات ، وأتمّ النهايات ، وأرفعَ المقامات ما يناله أولياء الله الذين هم صفوتُه وأهلُ مودته ، وهو ثلاث خصال : أولاها معرفتهم بربهم ، والثانية قصدهم نحوه بهممهم ، والثالثة طِلابُهم مَرضاته بسَعيهم وأعمالهم .

فأما معرفَتُهم بربهم فهو أن يَعلمَ أن كل نفس جُزئية هي قوة مُنبجِسة فائضة من النفس الكلية ؛ ويعلم أن النفس الكلية هي أيضاً قوة منبجسة فائضة من العقل الكلي، ويعلم أن العقل الكلي هو أيضاً نور فائض من وجود الباري تعالى؛ ويعلم أن الله تعالى هو نور الأنوار، ومَحضُ الوجود، ومَعدِن الجود ، ومُعطي الفضائل والخيرات والسعادات ، وهو باقٍ أبداً سرمداً ، وأن النفس الجزئية هي أيضاً أنوار وضياء وإشراقات فائضة من النفس الكلّية، مُنبثّة منها في العالم ، سارية في الأجسام من لَدُن فلك المحيط إلى منتهى مركز الأرض . فهذا أصل علم أولياء الله تعالى ومعرفتهم بربهم .

وأما قصدُهم نحوه بهمَم نفوسهم فإنه فِكرتُهم ، آناءَ الليل وأطرافَ النهار ، في عجائب مصنوعاته ، وغرائب مختَرَعاته ، وأصناف خلائقه ، واعتبارُهم تصاريفَ أحوالها ، وكيفيّة الوصول إليها وإلى صانعها وبارئها ، ومحبّتُهم له ، واشتياقُهم إليه من كثرة ما يرون من إحسانه وإنعامه عليهم وعلى الخلق أجمعين ، وقد جُبِلت القلوبُ على حُبّ من أحسن إليها . وأما طِلابُهم مَرضاتَه بسعيهم وأعمالهم فهو قَبُولهم وصايا ربهم تعالى التي جاءت بها الأنبياء والرسلُ ، عليهم السلام ، والعملُ بجميع ما أشاروا إليه فهم في ليلهم ونهارهم لا يَغفلون عنه ، ولا يَسهُون عن أسراره في القيام والقعود ، والمَمرّ

والمجيء ، والأكل والشرب ، والأفعال والأعمال ، والانقلاب في جميع أحوالهم ومُتصرّفاتهم ؛ فهم في جميع أعمالهم كأنهم يرون ربهم بعين القلب ، لا شك ولا ريب ، كما قال سيد المرسَلين ، عليه السلام ، لما سُئل عن ما الإحسان ؟ فقال : « أن تعبُد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه ، فإنه يراك » والله لا يُضيع أجر من أحسن عملًا . « إن الله مع الذين اتّقوا والذين هم محسنون » « إن الله لا يضيع أجر المحسنين » .

وفقك الله وإيانا وجميع إخواننا إلى طريق السداد ، وهداك وإيانا وجميع إخواننا سبيلَ الرشاد ، إنه رؤوف بالعباد !

تمت رسالة كمية أجناس الحركات ويليها رسالة في العلل والمعلولات .

الرسالة التاسعة

من النفسانيات العقليات

في العلل والمعلولات

(وهي الرسالة الأربعون من رسائل إخوان الصفاء)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وسلامٌ على عباده الذين اصطفى، آللهُ خير أمّا يُشرِكون ؟

اعلم أيها الأخ أنّا قد فرغنا من بيان كميّة أجناس الحركات ، وكيفيّة اختلافها ، وأشرنا في ذلك أن العالم مُحدَث مصنوع . ونريد الآن أن نذكر في هذه الرسالة بَيان العِلل والمعلولات فنقول :

إن نعمة الله تعالى على عِباده جمّةٌ لا تَفنى ، ومواهِبَه كثيرة لا تُحصى ، ولكن يتفاضل بعضُها بعضاً بحسب جَزالتها وغزارتها. فمن مواهب الله الجزيلة وعطاياه الجميلة لبعض عِباده ، التي خصّ بها قوماً دون قوم ، هي الحكمة البالغة كما ذكر بقوله : « ومن يؤتَ الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً » يعني به علمَ القرآن خاصّة ، وتفسير آياته ومعاني أسراره وإشاراته اللطيفة التي لا يمسُّها إلاّ المُطهّرون من العيوب والذنوب والكَذِب في حق الله وآياته ، حيث يُفسّر قومٌ آيات الله على خلاف ما هو معناه ، كما فسروا الاستواء بالجلوس والتمكُّن على العرش ، والرؤية بالنظر إلى الجسم المشار إليه، وبالسمع والبصر

فسّروا الأعضاء الإلهيــة ، وفسروا الكلام بالنُّطق والحروف ، وبالنزول الانتقالَ من السماء السابعة إلى السماء الدنيا ، وغيرَ ذلك من الآيات التي لا يعرف تأويلها إلاّ الله والراسخون في العلم ، وهؤلاء هم الذين يعلمون ويعرفون تأويلَ آياته وأسرارَه ، ويقولون : آمنّا به ، كلٌّ من عند ربنا ، فهذا قول الحكماء الرّبّانيين والعلماء المتفلسفين .

ثم اعلم أن لفظ الفيلسوف عند اليونانيين معناه الحكيم ، والفلسفة تسمّى الحكمة ، والحكيم هو الذي أفعــاله تكون مُحكَمة ، وصِناعتهُ متقَنة ، وأقاويله صادقة ، وأخلاقه جميلة ، وآراؤه صحيحة ، وأعماله زكيّة ، وعلومه حقيقية ، وهي معرفة حقائق الأشياء وكميّة أجناسها ، وأنواع تلك الأجناس وخواصّ تلك الأنواع واحداً واحداً ، والبحثُ عن عِلَلها ، هل هي ، وما هي ، وكم هي ، وأيّ شيء هي ، وكيف هي ، وأين هي ، ومتى هي ، ولِمَ كانت ، ومن هي ؟ ويُحسِن أن يسأل عن هذه الوجوه أو يجيب عنها إذا سُئل ؛ ويفهم معانيها إذا فكر فيها وبحث عنها ، كما قلنا في رسالة أجناس العلوم .

ثم اعلم أن أصعب الأجوبة عن هذه السؤالات التسعة جوابُ اللّمّيّة ، لأنه سؤال عن العِلل ، والعللُ كثيرةٌ دقيقة ، غامضة ، تحتاج إلى بحث شديد ، وفهم صادق ، ونفس زكيّة ، ونظر دقيق .

ثم اعلم أن المباحث والمطالب في معرفة حقائق الأشياء تسعة أنواع : أولها هل هو ؟ والثاني ما هو ؟ والثالث لِمَ هو ؟ والرابع كم هو ؟ والخامس أيّ شيء هو ؟ والسادس كيف هو ؟ والسابع أين هو ؟ والثامن متى هو؟ والتاسع من هو ؟ ولكل سؤال من هذه السؤالات جوابٌ خاص لا يُشبه الآخر ؛ فمن يتعاطى معرفة حقائق الأشياء ، ويُخبر عن عِللها وأسبابها ، يحتاج إلى أن يكون قد عرف هذه المباحث التسعة ، والجواب عن هذه السؤالات ، واحدةً واحدة بحقها وصدقها .

ثم اعلم أن معرفة الكيفيةِ قبل معرفة الكميّة ، فمن لا يدري كيفية الأشياء ، وترتيبها ونظامها ، لا يوثق بقوله إذا أخبر عن عِلَلها وأسبابها بأن ذلك منه عن معرفةٍ ، بل هو حكايةٌ وإخبار عن غيره ، ولا يكون إلا مُبلّغاً ! وينبغي لمن يطلب حقائق الأشياء ، ويبحث عن عِللها وأسبابها أن يبتدىء أولاً بمعرفة الأصول والقوانين والأجناس الكُلّيّات ، ثم ينظر في الفروع والأنواع والأشخاص التي هي الحروف .

ثم اعلم أن مِلاك الأمر في معرفة حقائق الأشياء هو في تصوّر الإنسان حدوث العالم وكيفية إبداع الباري العالَم ، واختراعه إياه ، وكيفية ترتيبه للموجودات ونظامه للكائنات بما عليه الآن ولِمَ كان ذلك .

ثم اعلم أن كل عاقل إذا سمع كلام العلماء في حدوث العالم ، وأقاويلَ الحكماء في كيفية إبداع الباري تعالى العالم ، واختراعه له بعد أن لم يكن ، وتفكّر فيما قالوه ، فإنه يشتهي ويتمنى أن لو علم كيف صنعه ، ومتى عمله ، ولِمَ فعل ذلك بعد أن لم يكن قبلُ . فإن فكّر في هذه الثلاثة من المباحثات ، ولم يتصوّر كيفية ذلك ، ولا متى ، ولا لِمَ ، لصعوبتها ودقّتها ، فربما تحيّر عقله ، وتشككت نفسه فيما قالت الحكماء ، وارتابت بها وتبلبلت .

ثم اعلم أن العِلّة في صعوبة التصوّر لحدوث العالم ، وكيفية إبداع الباري تعالى له من غير شيء ، هو من أجل جَرَيان العادة في الشاهد أن كلّ مصنوعٍ فإن صانِعَه يَعمَله من هَيُولى ما ، في مكانٍ ما ، في زمانٍ ما ، بحركاتٍ وأدوات .

وليس حدوثُ العالم وصنعته ، وإبداعُ الباري تعالى له هكذا ، بل أخرج من العدم إلى الوجود هذه الأشياء كلها ، أعني الهَيُولى والمكان والزمان والحركات والأدوات والأعراض . فمن أجل هذا لا يتصوّرُ كيفية حدوث العالم وإبداعه .

فصل

ثم اعلم أن الله تعالى قد علم بأنه يَعرِض للعقلاء هذه الشكوكُ والحيرة حيث تفكّروا في كيفية حدوث العالم، ولا يتصوّرُ بهذه الطريقة لصعوبتها، فجعل له طريقاً آخر أسهل من هذه ، وأقرب ، وركّزها في نفوسهم كأنها مكتوبةٌ فيها كتابةً إلهيّة ، لا يمكن لأحد من العقلاء إنكارُها ، إذا أنصف عقلَه ، لأنه يجد صِدقها في نفسه شاهداً له بها ، وهي كيفية صورة العدد ، ومنشؤه من الواحد الذي قبل الاثنين كما في رسالة الأرثماطيقي .

ثم اعلم أن الحكماء والعلماء هم ورثة الأنبياء ، والأنبياء هم سُفَراء الله بينه وبين خلقه ، ليُعبّروا عنه المعاني ، ويُفهِموها الناس بلغات مختلفة ، لكل أمة ما تعرفه، على قدر احتمال أفهامهم . فإذا مضت الأنبياء لسُبُلها ، خلفهم العلماء والحكماء، وقاموا مقامهم، ونابوا منابهم فيما كانوا يقولون ويفعلون، ويعلّمون الناس من معالم الدين وطريق الآخرة ومصالح الدنيا. فمن قبل منهم ما قالوه، وعمِل بما أمروه ، فهو على طريق النجاة والفوز ، ومن أبى وكفر به ، فهو على خطر عظيم وخوفٍ من الهلاك. فاحذَر يا أخي مخالفة الحكماء، ومعاندة العلماء ، بل كن منهم إذا استوى لك . وينبغي أن لا ترضى لنفسك إلاّ بأعلى مَرتبةٍ في العلم والحكمة ، فإن بذلك يكون القُربةُ إلى الله كما ذكر بقوله : « قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ؟ إنما يتذكر أولو الألباب » .

وإذ قد بان بما ذكرنا طرفٌ من فضيلة العلماء ومناقب الحكماء ، فنقول الآن : قد قالت الحكماء كلمة كلّيةً صادقة وهي قولهم : إن الطبيعة لم تفعل شيئاً باطلاً ، ومعنى هذا القول أنه ليس شيء في الموجودات بلا فائدة ولا عائدة ، بل ما من شيء إلاّ وفيه جَرٌّ لمنفعة أو دفعٌ لضرّ . فإذا كان الأمر كما ذكرت، فيحتاجُ كلٌّ من يدّعي أنه يعرف الحِكمة، أو يتعاطى التحقيق،

أن يُخبِر ، إذا سُئِل عن عِلّة كل موجود، ولماذا ، وكيف، وما الحكمةُ في كونه ، وما الفائدة في وجوده ؟ – إن كان يحسن ذلك – وإلاّ ينبغي له أن يقول : الله ورسوله أعلم ، ولا يأنفُ أن يقول : لا أدري . فنقول : قبل كل شيء إنه ينبغي لمن يريد النظرَ في حقائق الأشياء والبحث عن عِلَلها ، والسؤالَ عن أسبابها ، ولِمَ ، وكيف ، ولماذا ، وما الحكمةُ فيها ؟ أن يكون له قلبٌ فارغٌ من هموم الدنيا وأمورها، ونفسٌ زكيّة، وفهم دقيق، وعقل واضح ، وأخلاق طاهرة ، وصدر سليم من الدغَل والغِشّ والآراء الفاسدة ، ويكون مُرتاضاً بالرياضيّات الحِكميّة الأربع ، والنظَر في المنطق والطبيعيّات ، ويكون قد عرف السُّؤالات وأجوبتها – كما بيّنا في رسالة الأجناس من العلوم – ثم ينظرُ في هذا الفن الذي يسمّى عِلمَ الأنبياء الملقّب بعِلم الإلهيّات ، لأن هذا العِلم هو الغاية القصوى التي ينتهي إليها الإنسان في علم المعارف التي تَلي رُتبة الملائكة الذين هم الملأُ الأعلى ، وسكّانُ السموات، وملوكُ الأفلاك .

– فصل –

ثم اعلم أن الأشياء هي أعيانٌ، أي صُوَرٌ غَيريّاتٌ أفاضها وأبدَعها الباري تعالى ، كما أن العدد هو أعيانٌ أي صُوَرٌ غَيريّاتٌ ، فاض من الواحد بالتكرار في أفكار النفوس ، والأشياء كانت في عِلم الباري تعالى قبل إبداعه واختراعه لها ، كما أن الواحد لم يتغيّر عما كان عليه قبل ظهور العدد منه في أفكار النفوس .

ومن أخص أوصاف الباري أنه غيرُ الوجود، وأصل الموجودات وعِلّتها، كما أن الواحد أصلُ العدد ومبدؤه ومنشؤه ، فلو كان الباري تعالى ضِدّاً لكان العَدَمُ ، ولكن العَدَم ليس بشيء ، والباري تعالى في كل شيء ، ومع كل شيء ، من غير مخالطةٍ لها ولا ممازَجة معها ، كما أن الواحد في كل عدد

ومعدود، فإذا ارتفع الواحد من كل الموجود توهّمنا ارتفاع العدد كلّه، وإذا ارتفع العدد فلم يرتفع الواحد، كذلك لو لم يكن الباري لم يكن شيء موجوداً أصلًا. وإذا بطلت الأشياء لا يبطُل هو ببُطلان الأشياء. ومن الموجودات ما هو أقربُ إلى الباري تعالى رُتبةً ومنزلةً وهو العقل، كما أن من الأعداد ما هو أقربُ إلى الواحد رُتبةً ونسبةً وهو الاثنان، ثم الثلاثة، ثم الأربعة، ثم ما زاد بالغاً ما بلغ. فهكذا حُكم الموجودات من الله تعالى مُرتّبةً ومُنتظِمةً كترتيب العدد ونِظامه، كما بيّنا في رسالة العدد، وفي رسالة المبادىء العقليّة.

ثم اعلم أن كثيراً ممن ينظرون ويتفكرون في مبادىء الأمور، يظنون ويتوهّمون بأن المعلومات في علم الله لم تزل مثلَ صُوَر المصنوعات في أنفس الصُّنّاع قبل إخراجهم لها ووضعهم إيّاها في الهَيُولى المعروفة في صنائعهم، أو مثل صُورةِ المعقولات في أنفس العقلاء وتَصَوُّرهم لها، وليس الأمر كما ظنّوا وتوهموا، بل مثلُ كونِ العدد في الواحد كما بيّنا قبلُ، لأن صورة المصنوعات حصلت في أنفس الصُّنّاع بعد النظر منهم في مصنوعات أُستاذيهم، والتأمُّل لها، والتفكُّر فيها، والاعتبار لها. والتي في أنفس أُستاذيهم الذين أبدعوا الصناعات واخترعوها حصَلت في نفوسهم بعد النظر منهم إلى المصنوعات الطبيعية، والتأمُّل لها، والتفكُّر فيها، وهكذا حُكم صورة المعقولات في أنفس العقلاء حصلت فيها بعد النظر إلى المحسوسات، وتأمُّلهم لها، والفكر منهم فيها، وليس حُكم الله تعالى كذلك، بل عِلمُه من ذاته، كما أن العدد من ذات الواحد. والمِثالُ ينبغي أن يكون مُطابقاً لما يمثّلُ به في أكثر المعاني لا في أقلّها. فمثال الباري تعالى بالواحد في نسبته إلى المبروزات بالأعداد أكثرَ مطابقةً له من غيرها من المثالات.

ثم اعلم أن كلّ موجود تامٍّ فإنه يفيضُ منه على ما دونه فيضٌ ما، وأن ذلك الفيض هو من جوهره، أعني صورته المُقوّمة التي هي ذاته. والمِثالُ

في ذلك حرارةُ النار فإنها تُفيض منها على ما حولها من الأجسام ، من التسخين والحرارة، وهي جوهريّة النار التي هي صورتُها المقوّمة لها، وهكذا أيضاً يَفيضُ من الماء الترطيبُ والبلل على الأجسام المجاورة له . والرطوبةُ جوهريةٌ في الماء ، وهي صورة مقوّمة لذاته، وهكذا أيضاً يفيض من الشمس النورُ والضياء على الأفلاك والهواء ، لأن النور جوهريٌّ في الشمس ، وهي صورته المقوّمة لذاته . وهكذا أيضاً تفيضُ من النفس الحياةُ على الأجسام ، لأن الحياة جوهريّةٌ لها ، وهي الصورة المقوّمة لذاتها .

فصل

ثم اعلم أنه ما دام الفيض من الفائض يكون متواتراً مُتّصِلاً ، دام ذلك المُفاضُ عليه ، ومتى لم يتواتر مُتّصِلاً ، عَدِم وبطل وجوده ، لأنه يضمحل الأول فالأول . والمثالُ في ذلك الضوء في الهواء ، إذا تواتر البرقُ واتصل ، بقي الهواء مُضيئاً مثل النهار ، لأن الشمس تُفيض الفيض منها على الهواء متواتراً متصلاً ، فإذا حجَز بينهما حاجز ، عَدِم ذلك الضوء من الهواء، لأنه يضمحل ساعة ساعة ، ولا يتواتر الفيضُ عليه . وهكذا الحياة من النفس على الأجسام ما دامت متصلةً متواترةً ، تدوم الحياة، فإذا فارقت النفسُ الجسد، بطَلت حياةُ الجسد من ساعته واضمحلت . وهكذا حكمُ وجود العالم وبقائه من الباري تعالى ، فما دام الفيضُ والجود والعطاء متواتراً متصلاً ، دام وجود العالم من الله تعالى .

واعلم أن أكثر العقلاء يظنون ويتوهمون أن وجود العالم من الله تعالى كوجود الدار المَبنية من البناء ، المستقلة بذاتها ، المُستغنيةِ عن البنّاء بعد بنائه ، وليس الأمر كما ظنوا وتوهّموا ، لأن بناء الدار تركيبٌ وتأليف من أشياء هي موجودة بأعيانها ، قائمةٌ بذواتها ، كالتراب والماء والحجارة والآجُرّ

والجصّ واللَّبِن والخشب وما شاكلها . وليس الإبداع والاختراع تركيباً وتأليفاً ، بل إحداثٌ واختراع من العدم إلى الوجود . والمثال في ذلك كلام المتكلم وكتابة الكاتب ، فإن أحدهما يشبه الإبداع وهو الكلام ، والآخرُ يشبه التركيب وهو الكتابة ، فمن أجل هذا صار إذا سكت المتكلم ، بطَل وِجدان الكلام ، فإذا أمسك الكاتب ، لا يبطُل الموجود من الكتابة . فوجود العالم من الله كوجود الكلام من المتكلم ، إذا أمسك عن الكلام ، بطَل وِجدان الكلام . والدليل على ما قلنا وحقيقة ما وصفنا قولُ الله تعالى: « إن الله يمسك السمَوات والأرض أن تزولا ولئن زالتا » الآية و « كل يوم هو في شأن » ولا يَشغَله شأن عن شأن .

ثم اعلم أن كل لبيب عاقل إذا فكّر في كيفية حدوث العالم وإبداع الباري له ، وخَلقِه أطباق السمَوات والأرض ، وتركيبه أُكَر الأفلاك ، وتدويره أجرام الكواكب البسيطة والأركان الأربعة ، وتكوينه المولّدات الثلاثة منها ، فلا بد أن يعتقد فيها أحد الآراء الثلاثة : إما أن يظن ويتوهم بأنها أبدعت دفعةً واحدة ، وأخرجها الباري تعالى من العدم إلى الوجود على ما هي عليه الآن ، أو يظن ويتوهم بأنها أبدعت على تدريج ، فأُخرجت على ترتيب أولاً فأولاً إلى آخرها على ممرّ الدهور والأزمان ، أو يقول بعضُها دفعةً ، وبعضُها على التدريج ، إذ ليس في القسمة العقلية غيرُ هذه الثلاثة. فأما من يظن ويقول إنها أبدعت دفعةً واحدة بلا زمان ، فلا يجد لما يقول عليه دليلاً من الشاهد ، فيتشكّك فيما يقول .

وأما من يقول إنها أبدعت وأُخرجت من العدم إلى الوجود على تدريج ونِظام وترتيب فهو يَجِد على ما يقول شواهدَ كثيرةً من الموجودات باستقراء واحد .

وأما من يقول إن بعضَها أبدع وأُحدث دفعة واحدة ، وبعضَها على التدريج ، فهو يحتاج إلى أن يبيّنها ويشرحَها ويُفصّلها .

فصل

فنقول : إن الأُمور الطبيعية أُحدِثت وأبدِعت على تدريج مَمرّ الدهور والأزمان ، وذلك أن الهَيُولى الكُلّيّ ، أعني الجسمَ المُطلقَ ، قد أتى عليه دهر طويل إلى أن تمخّض وتميّز اللطيفُ منه من الكثيف ، وإلى أن قَبِل الأشكالَ الفلكية الكُريّة الشفافة ، وتَركّب بعضُها في جوف بعض ، وإلى أن استدارت أجرامُ الكواكب النّيّرة ، ورُكِزت مراكِزَها ، وإلى أن تميزت الأركانُ الأربعة ، وترتبت مَراتِبَها وانتظمت نِظامَها . والدليل على ذلك قوله تعالى : « خلق السماوات والأرضَ في ستة أيام » وقوله تعالى : « وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون » .

فأَما الأُمور الإلهية الروحانية فحدوثها دفعةً واحدة مرتّبةً منتظِمةً بلا زمان ولا مكان ولا هَيُولى ذات كِيان ، بل بقوله : « كن فيكون . » والأُمور الروحانية الإلهية هي العقل الفعّال ، والنفس الكلية ، والهَيُولى الأُولى ، والصُّوَر المُجرّدة . والعقل هو نور الباري تعالى وفيضُه الذي فاض أولاً ، والنفسُ هي نور العقل وفيضه الذي أفاضه الباري منه ، والهَيُولى الأُولى هي ظِلّ النفس وفَيئُها ، والصُّورُ المُجرّدة هي النقوشُ والأصباغ والأشكال التي عَمَّتها النفسُ في الهَيُولى بإذن الله تعالى وتأييده لها بالعقل . وهذه الأُمور كلها بلا زمان ولا مكان ، بل بقوله : « كن فيكون » كما قال: « وما أمرنا إلاّ واحدة كلمح بالبصر ». والمِثالُ حدوثُ البرق وإشراقُ نور الشمس في الهواء ، وإضاءةُ الأبصار ، ورؤيةُ الأشياء دفعةً واحدة بلا زمان .

ثم اعلم أن الأركان الأربعة مُتقدّمةُ الوجود على مولّداتها بالأيام والشهور والسنين ، كما أن الأفلاك مُتقدّمة الوجود على الأركان بالأزمان والأدوار والقِرانات . وعالَمُ الأرواح مُتقدّمُ الوجود على عالَم الأفلاك بالدهور

الطّوال التي لا نهاية لها . والباري تعالى متقدّمُ الوجود على الكل ، كتقدم الواحد على جميع العدد .

ثم اعلم أنه قد أتى على النفس دهر طويل قبل تَعلُّقها بالجسم ذي الأبعاد ، وكانت هي في عالَـمها الروحاني ومَحلّها النُّوراني ودارها الحيوانية مُقبِلَة على عِلّتها العقلِ الفعّال تقبَلُ منه الفيضَ والفضائل والخيرات ، وكانت مُنعَّمة مُتَلذذة ، مستريحة ، مسرورة فرحانة . فلما امتلأت من تلك الفضائل والخيرات، أخذها شبهُ المَخاض، فأقبلت تطلب ما تُفيض عليه تلك الخيرات والفضائل . وكان الجسم فارغاً قبل ذلك من الأشكال والصُّور والنقوش ، فأقبلت النفس على الهَيُولى تميّز الكثيفَ من اللطيف ، وتُفيض عليه تلك الفضائل والخيرات . فلما رأى الباري تعالى ذلك منها مكّنها من الجسم ، وهيّأ لها، فخلق من ذلك الجسم عالَـمَ الأفلاك وأَطباقَ السماوات من لَدُن فلك المحيط إلى منتهى مركز الأرض، وركّب الأفلاك بعضَها في جوف بعض، وركّز الكواكب مراكِزَها ، ورتّب الأركان مراتِبَها على أحسن النّظام والترتيب بما هي عليه الآن ، لكيما تتمكن النفسُ من إدارتها وتسيير كواكبها ، ويَسهُل عليها إظهارُ أفعالها وفضائلها والخيرات التي قَبِلَتها من العقل الفعال .

فهذا الذي كان سببَ كَون العالم ، أعني عالَـمَ الأجسام ، بعد أن لم يكن . ومن يُرِد أن يتصوّر كيفية تمخُّض الهَيُولى، وتَميُّز أجزاء الجسم اللطيف منها من الكثيف ، وقَبولها الأشكال الكُريّةَ الفلكية الشفّافة ، وكيف تركّب بعضُها في جوف بعض في مراتبها ودورانها ، وكيف استدارت أجرامُ الكواكب النيّرة ، ورُكّزت مراكِزَها في أفلاكها في مسيراتها ، وكيف تمخضت أجزاء الأركان الأربعة بعضُها مع بعضٍ ، وتميّز بعضُها من بعض ، وترتبت على ما هي عليه الآن كلُّها من هَيُولى واحدة من حيثُ الجِسميّة ، مع اختلاف صُوَرها وفنون أشكالها ، فليَعتبرْ تركيبَ جسده

من دم الطّمث في الرَّحِم كيف تمخّض وتميّز ، وصار بعضُها عِظاماً بيضاً صُلْبة ، وبعضُها لحماً أحمر ، وبعضها شحماً دَسِماً أصفر ، وبعضها عروقاً مجوّفة ، وبعضها أعضاءً آليّة ، وبعضُها أعضاءً متشابهة الأجزاء . وكيف صار بعضُها قلباً ، وبعضُها جِرم الكَبِد ، وبعضُها جِرم الرِّئة، وكذلك المَعِدة والطِّحال والدّماغ والأمعاء . وكيف صار بعضُها جِلداً وشَعراً وظفراً وما شاكل هذه الأشياء المختلفة الأشكال والصُّوَر والألوان والطّعوم والروائح والطباع . وإن عجز فَهمُه عن تَصوُّر كون هذه من دم الطّمث ومن النُّطْفة ، وتركيبها منه ، وكيفيّة قَبُولها هذه الصُّوَر والأشكال والطعوم والألوان التي هي أقرب إليه ، ومَعرفتُها أسهل عليه ، فهو عن تَصوُّر كيفية الأفلاك ، وخلقِ أطباقِ السماوات والأرَضِين أبعدُ ، وهو بها أجهلُ وأقلُّ فهماً .

فصل

ثم اعلم أنه سترجِع النفس الكلية إلى عالَمها الروحاني ومحلّها النوراني وحالتها الأُولى التي كانت عليها قبل تَعلُّقها بالجسم ، كما قال تعالى : « كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين» ولكن لا يكون ذلك إلاّ بعد مُضِيّ الدهور والأزمان الطوال والأدوار، وسيَخرَب العالم الجسماني إذا فارقته النفس ، وسكن الفلكُ عن الدوران ، والكواكب عن السير ، والأركانُ عن الاختلاط والمِزاج ؛ ويبلى النباتُ والحيوان والمعادن، ويخلَعُ الجسمُ الصورَ والأشكال والنقوشَ ، ويبقى فارغاً كما كان بديّاً ، إذ أعرضت عنه النفسُ ، وأقبلت نحو عالَمها ، ولحقت بعِلّتها الأولى ، وصارت عنده واتحدت به . لأن مَثَلَ النفس في إقبالها على الجسم واشتِغالها به في إصلاح شأنه – بعدما كانت مُقبلةً على عِلّتها في عالمها ، مستفيدةً منها الفيضَ من

الفضائل والخيرات ـ كمَثَل الرجل الخيّر العاقل المُحبّ المُقبِل على أُستاذه، المُحبّ الحريص في تعلُّمه العلمَ والحِكَم والمعارف، المُتخلّق بأخلاقه الجميلة وآدابه الصحيحة مدّة من الزمان ، حتى إذا امتلأ من الخيرات والفضائل والعلوم والحِكَم ، أخذه عند ذلك شِبهُ المخاض ، واشتهى وتمنّى وطلب من يُفيض عليه من تلك الخيرات والفضائل ويُفيده إياها . فإذا وجد تلميذاً يَعلَم أنه يَقبَلُ منه تأديبه، ويفهم علمه وحكمته، أقبل عليه بالفَيض والإفادة طمعاً في إصلاحه ، وحرصاً في تعليمه ، ورَغبة في تأديبه ، تَشبُّهاً بأُستاذه في أفعاله وصنائعه ، مثلَ ما كان يفعل أُستاذُه به تشبّهاً بأُستاذه ومعلّمه ومُخرّجه الأول الذي أدّبه وخرّجه وهذّب جوهره وصفّى عُنصرَه .

فإذا فرغ من تعليمه وتثقيفه بتأديبه ، أقبل عند ذلك على عبادة ربّه ، وطلب الخلوات لمناجاة باريه ، وتمنى اللُّحوقَ بأسلافه وأقاربه ، والدخولَ في زُمرة ملائكته. وهكذا سيرة الأنبياء، صلوات الله عليهم، وكذلك أيضاً كانت سيرة الحكماء والقدماء الرّبّانيين . كل ذلك تَشبُّهاً بالله تعالى في إظهار حكمته وفَيض فضائله على بريّته ، إذ أوجدهم بعد أن لم يكونوا ، فأفاض عليهم من فنون نِعَمه وألوان الخيرات والبركات ما لا يحصي عددَها إلاّ الله . فافهم يا أخي هذه الإشارات والتنبيهات ، لعلّ نفسك تنتبه من نوم الغفلة ورقدة الجهالة .

فصل

حكي في بعض الأخبار أن نبيّاً من أنبياء الله تعالى قال في مناجاته مع ربه: يا ربّ لِمَ خَلقت الخلق بعد أن لم تكن خَلقتَه ؟ فقال له ربه ، على سبيل الرّمز : كنتُ كنزاً مَخفيّاً من الخيرات والفضائل ، ولم أكن أعرَفُ فأردتُ أن أعرَف . معناه لو لم أخلُق الخلقَ ، لخَفِيت هذه الفضائلُ والخيرات التي أفضتُها وأظهرتها من عجائب خَلقي ومصنوعاتي المُحكَمات التي كلّت الألسنُ عن البلوغ إلى كُنْه صفاتها ، وحارت عقولهم عن كُنْه معرفتها بحقائقها .

وأنت يا أخي فاحذَرْ من سُوء الفهم من كلام العقلاء والحكماء ، ولطيف أقاويلها وإشاراتها إلى المعاني الدقيقة ! فإن سوء الفهم يُؤدّي صاحبَه إلى سوء الظن بالحكماء . فمن ذلك ما يتوهمه كثير من الناس في حق الحكماء أنها تقول بقِدَم العالم وأزليّته ، وهذا هو سُوء الظن منهم لسوء فهمهم لأقاويلها وإشاراتها ، وذلك أنهم لما سمعوا قول الحكماء : إن العالم لم يُخلَق في زمان ولا هو في مكان ، ظن من سَمِع هذا القولَ منهم أنهم يقولون بقِدَم العالم ، ولم يفهم ما أرادوا ، وإنما أرادوا بقولهم : لا زمان ولا مكان أفضل ، لأن الزمان عددُ حركات الفلك ، والمكانَ سطحُه الخارج ، فإذا لم يكن فلك ، فلا زمان ولا مكان ، بل لما أبدع الباري تعالى الفلكَ وأداره ، أوجد المكانَ والزمان معاً بعد وجود الفلك .

ومن ذلك أيضاً قولهم : إن الجوهر جوهرٌ لنفسه ، والعرَضَ عرَضٌ لنفسه ، فظن من سمع هذا القول ولم يفهم المراد أنهم يقولون : إنها ليست بجَعل جاعل أو بصُنع صانع ، إذ كان لنفسه ! وليس الأمرُ على ما ظنوا وتوهموا ، وإنما قالت الحكماء هذا القول ، لما تأمّلت الموجودات ، وتصفّحت احوالها ، وجدت بعضَها صفاتٍ ، وبعضَها موصوفاتٍ مختلفاتٍ ، وعرفت

أن علـّة اختلاف الموصوفات هي من أجل اختلاف الصفات ، وأمـا اختلافُ الصفات فهي لأنفُسِها ، لأن الله تعالى أبدَعها مختلفةً بأعيانها لا لِعلـّة فيهـا .
والمثال في ذلك اختلافُ حال الأسود والأبيض ، فإنـه من أجـل اختلاف السواد والبياض في ذاتيهما لا لعلة أخرى . فمن ظن أن السواد والبياض لهما عِلة أخرى تمادى إلى غير النهاية ! وذلك أن الأسود هو موصوف ، وإنما كان أسود لكون السواد فيه ، فهكذا الأبيض إنما كان أبيض لكون البياض فيه .
فأما السواد والبياض فإنهما في أنفسهما مختلفان ، لا لصَنعة فيهما بـل بذاتيهما مختلفان ، لأن الله تعالى أبدعهما هكذا مُختلِفَي الذاتَين . فهـذا معنى قول الحكماء : إن السواد سواد لنفسه لا اصِفة فيه ، ولم يريـدوا أن السواد ليس بجَعل جاعل ولا بصُنع صانع ، كما توهم كثير من الناس الذين هم غير مُرتاضِين بالحِكمة ولا مُتحقّقين بالشريعة .

ثم اعلم أن العجز هو أحد الأسباب التي تَعوقُ الفاعل عن إظهار أفعـاله ، والصانعَ عن إحكام صُنعه ، ولكن ربما يكون من الفاعل لضَعف قوته ولقلـّة معرفته ، وربمـا كان من عدم الأدوات والآلات الـتي يحتاج إليها الصانع في إحكام صنعته ، أو من عدم المكان والزمان والحركات وما شاكلهـا ، أو ربما يكون العجزُ من قِبَل الهَيُولى وعُسر قَبُولهـا الصورة من الصانع الحكيم .
مثالُ ذلك تعسُّر قَبُول الحديد من الحدّاد أن يَفتُل من الحديد البارد حبلًا طويلًا كما يفتل الحبالَ من القُنّب ، فليس العجز من الحدّاد ولكن من الحديد لعُسر قَبُوله للفتل. ومثلُ الهواء لا يَقبَل كتابة الكاتب فيه لسيلان عُنصره.
ومثلُ النجّار لا يقدِر أن يعمَل سُلـّماً يبلـُغ السماء لعدم الخشب ، لا لعجز فيه . ومثلُ رجـل حكيم لا يقدِر أن يعلـّم الطفل لا لعجز في الحكيم ، بل لأن الطفل غيرُ مستعدٍّ لقبول ذلك في حال الطفولية. وعلى هذا القياس يوجد العجزُ من الهَيُولى وعُسر قبولها للصور ، لا لعجز في الصانع الحكيم .

ثم اعـلم أن كثيراً من العلماء لا يعرفون كيفيّة العجز من الهيولى ولا

يعتبرونـه ، فينسبون العجز كلّه إلى الفـاعل القادر الحكيم ، ذلك أنهم ربمـا يظنون ويتوهمون ذلك على الله تعالى ، فيقولون إنه يعجز عن أشياء كثيرة ، مثل قولهم إنه لا يقدر أن يُخرج إبليس من مملكته، ولا يَعتبرون أن العجز من عدَم ما ليس من مملكته ، ليس من عدم القدرة من الله تعالى! ويقولون: إنه لا يقدر أن يُدخل الجملَ في سَمّ الخِياط، ولا يعتبرون العجز من الإبرة! ويقولون : إن الله لا يقدر أن يجعل أحداً قائمـاً قاعداً في وقت واحد ، ولا يدرون أن العجز من الواحد منا ، إذ أن القيام والقعود لا يكونان في وقت واحد معاً! ثم يُطلقون القول بأن هذه الأشياء لا يصح القولُ بها في مقدوره. فإذا سئلوا ما معنى قوله : « والله على كل شيء قدير »؟ قالوا : هذه خصوص لا على العموم ، خلافَ ما قـــال الله تعالى ، لأنه ذكرَه على العموم مطلقاً فقال : « عـلى كل شيء قدير » ! ثم إنهم يُدخِلون الشُّبهة عـلى من يقول إنه عموم بقولهم : أترى أنه قادر على أن يَخلُق مثـل نفسه ؟ ولا يدرون أن هذا العجز هو من عدَم وِجدان المثل ، لا في قدرته ، لأن العجز هو العدَم لا الوجود .

فصل

في ما العلة ؟ هي السبب الموجب لكون شيء آخر .

ما المعلول ؟ هو الذي لكونه سببٌ من الأسباب .

كم العللُ ؟ أربعة أنواع : فاعلية وهيولانية وصُورية وتامية .

كم المعلول ؟ أربعة أنواع وهي : المصنوعات كلها ؛ فمنها مصنوعات بشريّة حيوانيّة ، ومنها طبيعيّة وهي : المعادن والنبات والحيوان ، ومنها نفسانية بسيطة وهي الأفلاك والكواكب والأركان ، ومنها الروحانية الإلهية وهي الهَيُولى والصورة المجردة والنفس والعقل .

ما الصنعة؟ هي إخراج الصانع ما في نفسه من الصوَر ونقشُها في الهيولى،

وكلُّ صانع حكيم فله في صنعته غرضٌ ما ، والغرضُ هو غاية تسبق في عِلم العالِم أو في فكر الصانع ، ومن أجله يفعل ما يفعله ، فإذا بلغ إليه قطع الفعل وأمسك عن العمل .

ثم اعلم أن كل مصنوع فله أَربع علل: علة فاعلية، وعلّة هيولانية، وعلة صُوريّة، وعلة تمامية ، مثال ذلك السرير فإن علته الفاعلية النجّار، والهيولانية الخشبُ، والصُّوريّة التربيعُ، والتمامية القعودُ عليه. وكل صانع بشري يحتاج في صناعته إلى ستة أَشياء حتى يُتم صنعته: هيولى ما، ومكانٍ ما، وزمانٍ ما ، وأدواتٍ ما كاليد والرجل ، وآلاتٍ ما كالفأس والمِنشار ، وحركاتٍ ما . وكلّ صانع طبيعي يحتاج إلى أربع منها : وهي الهيولى والمكان والزمان والحركة . وكل صانع نفساني يكفيه اثنان منها : هيولى وحركاتٌ ما . والباري لا يحتاج إلى شيء منها ، لأن فعله إبداع واختراع لهذه الأشياء ، أعني الهَيُولى والزمانَ والحركاتِ والآلات والأدوات .

واعلم أن كل صانع حكيم من البشريين يجتهد أن يُحْكِم صنعته إحكاماً أجودَ ما يقدِر عليه ، ولكن ربما عرض له عوائق إمّا لعلة المادة ، أو لعُسر الهيولى عن قَبول الصورة ، أو لعدم الأدوات والآلات ، أو ضعف القوّة والنسيان والغفلة والسّهو ، وقِلّة المعرفة بالحِذْق في الصنعة ، والله منزّهٌ عن جميع ذلك كلّه .

فصل

ثم اعلم أن الموجودات كلها نوعان : كلياتٌ وجزُئيات ، فالكليات رتّبها الباري من أشرفها إلى أدْوَنها ، كما بيّنا في رسالة المبادىء والجزُئيات ، ابتدأها من أدونها إلى أتمّها وأكملها رتبةً ، كما بيّنا في رسالة الطبيعيات .

ثم اعلم أنه ربما يكون في المسألة الواحدة عِدّةُ أجوبة ، ولكن ليس كل

جواب يصلحُ لكل واحد : وذلك أن في الناس خواصٌ وعوامٌ . أما جواب الخاص ، إذا سأل عن حدوث العالم وعلّتِه الموجبة ، فجوابه على ما سنذكره ونشرحه من بعدُ . وأما جواب العامّة ، إذا سألوا لِمَ خلق اللهُ العالم بعد أن لم يكن ؟ فجوابه أن في خَلقِه العالم حكمةً وخيرا ، وفعلُ الحكمة عن الحكيم واجب! فلو لم يخلُق العالَمَ ، لكان تاركاً للحكمة وفعلِ الخيرات ، وهذا هو الجواب . فإن قال : لِمَ خلق في وقت دون وقت ؟ فيقال : لأنه كان عالماً أنه سيَخلُق في الوقت الذي خلق فيه ، فلو خلق قبل ذلك لكان فعله مخالفاً لعِلمه ، تعالى عن ذلك عُلُوّاً كبيراً . فإن قيل : لِمَ خلق الله تعالى العالم على هذه الصورة التي هو عليها الآن ، ولم يخلُقه على غيرها من الصوَر ؟ فيقال : لأن هذا أحكم وأتقنُ . فإن قيل : بل غيره أحكمُ وأتقنُ! فيقال له : بَيِّن كيفية ذلك؟ فإن الحكماء الربّانيين قالوا لا يجوز ولا يمكن أحكمُ من هذا ولا أتقنُ منه . فإن قال : أوَليس زيدٌ الزَّمِن [1] قد كان يمكن أن يكون أحكم بِنيةً وأحسنَ صورة مما هو عليه الآن ؟ فيقال : سألتنا عن صورة العالم بكليته ، لا عن صورة حروف أجزائه ، بل ماذا تقول في صورة الإنسانية ، هل يجوز أن تكون أحكم وأتقن مما هي عليه الآن ؟

ثم اعلم أن الله تعالى خلق الإنسان في أحسن تقويم بالقصد الأول ، فأما صورةُ زيد الزَّمِن وعمرو المفلوج فللأسباب الفلكية والعِلَل الطبيعية ، ويطول شرح ذلك : وذلك أن الحكماء بحثوا عن عِلل الأشياء وخبروا عن أسبابها ، فإنما كان ذلك عن عِلل الكليات ، فأما عِلل الجزئيات فلا يَبلُغ فهمُ البشر معرفتها ، بل تقصر عقولهم عن معرفتها وعن عِللها وأسبابها الدقيقة الخفيّة .

ونريد أن نذكر عن تلك العلل والأسباب التي أدركها الحكماء ، بدقّة

---

١ الزمن : من كان فيه عاهة .

نظرهم وشدة بحثهم وجودة فكرهم واعتقادهم ، طرفاً ليكون دلالةً على الباقية ، وقياساً لما نريد النظر فيها والحثّ عليها والاعتبار لها ، تَشَبُّهاً بهم واقتداءً بمذاهبهم . وإذ قد ذكرنا ما يُحتاج إليها فنريد الآن أن نبيّن طرَفاً من كيفيّة السؤال والجواب عن عِلل الأشياء وماهيّة الحِكمة فيها .

فصل

وكيف إذا قيل : لِمَ خلق الله تعالى العالم بعد أن لم يكن؟ فيقال : لأن الله حكيم وخَلقُه العالَم حكمةٌ ، وفعل الحِكمة عن الحكيم واجب ، وبواجب الحكمة إذاً خلق العالَمَ . وإذا قيل : لِمَ خلق الله في وقتٍ ولم يخلُق قبل ذلك ؟ قيل : لعلمه السابق أنه سيخلُق في هذا الوقت لا قبل . فإن قيل: لِمَ خلقه على هذه الصورة التي عليها الآن ، ولَمْ يخلُقه على صورة غيرها ؟ فيقال : لعلمه أن هذه الصورة أحكمُ وأتقنُ ، ففعل كما علِمَ ليكون فِعله موافِقاً لعلمه . وإذا قيل : كيف خلق لله العالم ، وكيف ابتدأه من أوله إلى آخره ؟ فقد أوردنا لهذا العالم أربع رسائل : رسالتين في المبادىء ، ورسالتين في العالم ، بيّنا فيها كيف أبدع الباري تعالى الموجودات وجميع الكائنات ، وكيف رتّبها ونظّمها بعضها يتلو بعضاً في الوجود والبقاء كترتيب العدد عن الواحد الذي قبلَ الاثنين. وينبغي لمن يريد النظر في هذه الرسالة أن يكون قد نظر في رسالة الأربعة الموصوفات قبل هذا، لأن معرفة كيف هو قبل معرفة لِمَ هكذا، كما بيّنّا في رسالات أجناس السؤالات التسعة وأجوبتها للحكماء .

ثم اعلم أن لله تعالى عالَمَين : أحدهما جسماني والآخر روحاني . فالعالم الجِسماني هو الفلك المحيط وما يحويه من سائر الأفلاك ، والكواكب ، والأركان ، والمولّدات الثلاثة ، والعالم الروحانيُّ هو عالم العقل وما يحويه

من النفس ، والصُّوَر التي ليست بأجسام ذوات الأبعاد الثلاثة التي هي ظِلٌّ ذي ثلاث شُعَب .

ثم اعلم أن العالم الروحاني محيط بعالم الأفلاك ، كما أن عالم الأفلاك محيط بعالم الأركان الذي دون فلك القمر . وقد جعل الله تعالى عالَم الأفلاك كُرِيّات الأشكال ، مستديرات الحركات ، لأن هذا الشكل هو أفضل الأشكال من عدّة وجوه ومعانٍ ، والحركةُ المستديرة أفضلُ الحركات من جهات شتى . وقسم الله تعالى الفلك اثني عشر قسماً ، لأن هذا العدد أفضَلُ الأعداد ، وذلك أنه أول عدد زائد. وجعل عدد الأفلاك تسعةً مطابقةً لأول عدد فردٍ مجذور . وجعل عدد الكواكب السيّارة سبعة مُطابقةً لأول عدد كامل ، وجعل فيها نيِّرَين ، واثنين سَعدَين ، واثنين نحسَين ، وواحداً ممتزجاً . وجعل أيضاً في الفلك عُقدتين ، وجعل بعض البروج مُنقلِبة ، وبعضَها ذا جسدين ، وبعضها ثابتة ، وبعضها ناريّة ، وبعضها تُرابية . كلٌّ ذلك لما فيه من وجوه الحكمة وإتقان الصنعة ، لا يبلغ فهمُ البشر كُنْهَ معرفتها ، إلاّ من ألهمه الله تعالى ، وهُدي قلبه وشُرح صدره بنور حكمته ، كما ذكر بقوله : « ولا يحيطون بشيء من علمه إلاّ بما شاء » .

فإذا قيل : لِمَ جعل الباري تعالى عالَم الأجسام قسمين اثنين أحدُهما عُلْويٌّ وهو عالم الأفلاك وما فيها من أصناف الأُكَر والكواكب ، والآخر سُفْليٌّ وهو عالم الأركان وما فيها من أجناس الخلائق ؟ فيقال له : لعِلل شتى وأسباب عِدّة ، ولما فيه من إتقان الحكمة وإحكام الصّنعة ما لا يبلُغ فهمُ البشر كُنْهَ معرفتها ، ولكن نذكر منها طرَفاً فنقول : ليكون في ذلك تبصِرةٌ للعقلاء وبيان لأولي الأبصار فإن لله دارَين اثنتين إحداهما هي الدنيا التي هي عالم الأجسام ومسكِنُ الأجرام ، والأُخرى هي دار الآخرة التي هي عالم الأرواح ومحلّ النفوس .

فإن قيل : لِمَ جعل الباري في عالم الأفلاك نيّرَين وسَعدَين ونحسَين

وعُقدَتين وقد كان في واحد واحد كفاية ؟ قيل له : ليكون ذلك دلالةً على تحقيق ما قلنا ، وصِحّة ما وصفنا ، من أن له دارَين اثنتين وهما الدنيا والآخرة . وذلك أن حالات أحد النيّرَين تُشبه حالات أمور الدنيا وأبنائها وهو القمر ، والآخر تُشبه حالاته حالات الآخرة وأبنائها وهي الشمس النيّر الأكبر . ولذلك إن أمور الدنيا وحالات أبنائها تُعَدّ من أنقص الوجوه وأدْوَنِ المراتب مرتبةً إلى أتمّها وأكملها . فإذا بلغت إلى غاياتها أخذت في الانحطاط والنُّقصان إلى أن تضمحلّ وتتلاشى. وهذا حالُ القمر من أول الشهر ثم إلى نصفه ، ومن نصف الشهر إلى آخره ، تُشاهَد في كل سنة اثنتي عشرة مرة . وهكذا حكم السَّعدَين ودلائلهما : أحدهما يدل على سعادة أبناء الدنيا ، والآخر يدل على سعادة أبناء الآخرة . وذلك أن الزُّهَرة التي هي السعد الأصغر ، إذا استولت على مواليد أبناء الدنيا ، دل لهم على حُسن الرتبة والعز والكرامة ، والسرور واللذة ، والنعمة والرفاهة ، واللّعب واللهو والغناء ، وما يتنافس فيه أبناءُ الدنيا من هذه الخصال ، ويَعدُّونها سعادة ، وليست هي سعادة بالحقيقة ، بل هي محنةٌ وشقاء وبَلوى . وأما إذا استولى المشتري الذي هو السعد الأكبر على مواليد الناس ، دل لهم على حُسن الأخلاق ، وجُودة النفس ، ومحبة الخير والعمل به ، والعدل والإنصاف في المعاملات ، والتمسك بالدين وكثرة العبادة وذكر الميعاد ، وترك اللذات والشهوات الدُّنيوية ، والتفكُّر في أمر الآخرة ، والتقلُّب بعد الموت ، وما شاكل هذه الخصال المتضادّة ، لما يدُلّ عليه أبناء الآخرة . وهكذا حكمُ النحسَين ، وذلك أن أحدهما يدُلُّ على محنة ومَنحَسةِ أبناء الدنيا وهو زحل ، إذا استولى على المواليد ، دلّ على الفقر والبؤس ، والشدائد ، والذل والهوان ، والعلل والأمراض، والتعب والعناء، والمصائب والغموم والأحزان، ونوائب الحِدثان التي هي أكثرُ من أن تحصى ، وأبناءُ الدنيا مرهونون بها لا ينفكّ أحد منها . وإذا استولى المِرّيخُ على المواليد وتَقوّى ، فدلالتُه على أنواع الشرور : على

الفِسق والفجور ، وقتلِ الأنفس ، وقَطعِ صِلة الرَّحِم، وإهراق الدماء ، وهتك الحُرَم ، وانتهاك المحارم ، والخروج عن الطاعة ، والحميّةِ الجاهلية ، والسرعة والعجلة ، وترك النظرِ في العواقب ، وقِلّة الوَرع ، والإنكارِ لأمر المَعادِ والمُنقلَب بعد الموت! ومن كانت هذه حاله في الدنيا فليس له في الآخرة إلاّ العذاب . وأما كَونُ عُطارِدَ ممازجاً للكواكب ، ففيه دلالةٌ على أن أمور الدنيا معلقةٌ بأمور الآخرة، ممازِجةٌ لها . وهكذا حُكم البروج المُنقلِبة يدُلُ على تَقلّب أمور الدنيا وحالات أهلها. والبروجُ الثوابتُ تدلُّ على ثبات أمور الآخرة وحالات أهلها . والبروجُ ذواتُ الجسدَينِ تدلُّ على أن أمور الدنيا متصلةٌ بأمور الآخرة وممازجة لها . وأما كونُ العُقدَتَينِ في الفلك ، اللتين إحداهما رأس الجَوزَهْر [1] والأخرى ذنب الجوزهر ، وهما خَفيّتا الذات ، وظاهِرتا التأثيرات في الفلك ، فتدُلاّن على أن في العالم جواهرَ لطيفة خفيّات الذوات، ظاهراتِ الأفعال والتأثيرات ، وهم أجناس الملائكة ، وقبائلُ الجِنّ ، وأحزاب الشياطين ، وأرواحُ الحيوانات ونفوسُها . فإن قيل : لِمَ جعل الكسوفَ للنيّرَين دون سائر الكواكب ؟ قيل : لتزول الشكوكُ عن قلوب المُرتابِين الذين يظنّون أنهما إلهَانِ اثنان ، فإنهما لو كانا إلهَينِ لما انكسفا .

ثم اعلم أن الله تعالى جعل في جِبِلّة الحيوان أربعة أسباب : آلامَها ، ودواعي عطب أبدانها ، وشقاوة نفوسها ، وهَلاك هياكلها ، وهي الجوعُ ، والعطش ، والشهواتُ المختلفة ، واللذات الذليلة . أما قصدُ الباري الحكيم في فعله ذلك كله فهو لبقاء نسلها وصلاح مَعاشها . وأما الذي يَعرِض لها من الآلام والنَّكَبْ فليس بالقصد الأول ، ولكن بالعَرَض من أجل النّقص الذي هو في الهَيُولى ، وذلك أن الله تعالى جعل لها الجوع والعطش لكيما

---

[1] الجَوزَهْر : من منازل القمر .

يدعواها إلى الأكل والشرب ، ليَخلُف على أبدانها من الكيمُوس[1] بدلَ ما يتحلّل من البدن. لأن البدن في التحلُّل دائماً من أسباب خارجة وأسباب داخلة، وأما الشهواتُ فلكيما تدعو إلى المأكولات المختلفة الموافِقة لأمزِجة أبدانها وما تحتاج إليه طباعها . وأما اللذة فلكيما تأكل بقَدْرِ الحاجة من غير زيادة ولا نقصان . فإن قيل : لِمَ جعل للنفوس من الآلام والأوجاع والأفزاع عند الآفات العارضة لأجسادها ؟ قيل له : لكيما تحرِص نفوسُها على حفظِ أجسادها من الآفات العارضة لها إلى وقت معلوم ، إذ كانت الأجساد لا تَقدِر على جَرِّ منفعة ، ولا دَفْعِ مَضرّة عنها . فإن قيل : لِمَ جعل بعضَ الحيوانات أَكَلةَ لحوم بَعض ؟ قيل لكيما لا يضيع شيء مما خلَق الله بلا نفع ، وذلك أنه قد تاهت أوهامُ العلماء وتحيّرت عقولهم في طلَب عِلّة أكلِ الحيوانات بعضها بعضاً ، وما وجه الحكمة منه ، إذ كان الباري جعل ذلك في طباعها جِبِلّة ، وهيّأ بها آلاتٍ وأدواتٍ تتمكن بها ، كأنيابٍ ومخاليبَ وأظافيرَ حداد ، التي تقدر بها على القبض ، والبَسط ، والضَّبط ، والخَرْق ، والنَّهش ، والأكل ، والشهوة ، واللذة ، والجوع ، وما شاكل ذلك ، مهما يلحق المأكولاتِ منها من الآلام والأوجاع والفَزَع عند الذبح والقتل والأمراض ! فلما تفكروا في ذلك ولم تسنَح لهم العِلّة ولا ما وجهُ العِلّة والحِكمة ، اختلفت عند ذلك بهم الآراء ، والتبست بهم المذاهب ، حتى قال بعضهم : إنّ تسلُّط الحيوانات بعضها على بعض ، وأكلَ بعضها لبعض ليس من فعل الحكيم، بل فعلُ شريرٍ قليل الرحمة ، فلهذا قالوا : إن للعالم فاعلَيْنِ : خَيِّرٌ وشرير ! ومنهم من نسب ذلك إلى النجوم . ومنهم من قال : عُقوبةٌ لها لما سلف منها من الذنوب في الأدوار السالفة ، وهم أهل التناسخ . ومنهم من قال بالعِوَض. ومنهم من قال : إن هذا أصلحُ . ومنهم من أقرّ على نفسه بالعجز وقال :

[1] الكيموس : الحالة التي يكون عليها الطعام بعد فعل المعدة فيه .

لا أدري ما العلّةُ في أكل الحيوانات بعضها بعضاً، ولا ما وجه الحكمة فيه! غير أنه قال: الباري الحكيم لا يفعل شيئاً إلاّ بحكمته. ومنهم من قال: بل لا حكمة فيه.

وكلٌّ هذه الأقاويل قالوها في طلبهم الحكمة والعلّة، وإنما لم يقفوا عليها، لأن نظرهم كان جزئيّاً، وبحثهم عن علل الأشياء خصوصيّاً، وليس يُعلم عِلَلُ الأشياء الكليات بالنظر الجزئي، لأن أفعال الباري إنما الغرض منها النفعُ الكليُّ والصلاح العمومي، وإن كان قد نقص من ذلك ضرر جُزئي ومكارهُ خصوصية، وليس يُعلَمُ عِللُ الأشياء الكليات أحياناً. والمثال في ذلك أحكامُ الشريعة النبوية وحدوده فيها، وذلك لحُكم القِصاص في القتل. قال تعالى: «ولكم في القصاص حياة يا أُولي الألباب» وإن كان موتاً وألماً للذي يُقتَصُّ منه، وكذلك قَطعُ يد السارق منه نفعٌ عمومي وصلاحُ الكل، وإن كان يناله حُزن وألم. وكذلك غروبُ الشمس وطلوعُها، والأمطارُ كان النفعُ منها عمومياً والصلاحُ كلّيّاً، وإن كان قد يَعرِض لبعض الناس والحيوان والنبات من ذلك ضرَر جزئي. وهكذا أيضاً قد ينال الأنبياءَ والصالحين وأتباعَهم شدائِدُ وجهدٌ وآلام في إظهار الدين وإفاضة سُنن الشريعة في أول الأمر. ولكن لما كان الباري تعالى غرَضُه في إظهار الدين وسُنّة الشريعة هو النفعُ العام وصلاح الكل من الذين يجيئون من بعدهم إلى يوم القيامة، ولا يُحصَى عددُهم ونفعُهم وصلاحهم، سهُل في جنب ذلك وصغُر ما نال النبيَّ من أذيّةِ المشركين، وجهاد الأعداء المخالفين، وما لاقوه من الحروب والقتال في الغزوات، وتعب الأسفار، وقيام الليل، وصِيام النهار، وأداء الفرائض، وما فيها من الجَهد على النفوس، والتعب على الأبدان.

ولما كان نزول الأمر في المُنقَلَب إلى الصلاح العمومي والنّفع الكليّ، كانت الشدائدُ والجهد والبلوى في جنبه أمراً صغيراً جُزئيّاً. فعلى هذا المثال

والقياس ينبغي أن يعتبر من يريد أن يعترض ما العلّةُ ، وما وجهُ الحكمة في أكل الحيوانات بعضها بعضاً ، ليتبين له الحقُّ والصواب . ونحن نريد أن نبيّن ما العلةُ وما وجه الحكمة في الكل ، وفي أكل الحيوانات بعضها بعضاً ، ولكن لا بد أن نُقدّم أشياءَ لا بد من ذكرها .

فصل

فنقول : اعلمْ أَن عقول القوم إنما أنكرت أكل الحيوانات لما ينالها من الآلام والأوجاع عند الذبح والقتل، ولولا ذلك لما أنكروا، كما لا ينكرون أكل الحيوان النبات ، إذ ليس ينال النباتَ الآلامُ والأوجاع ، فنقول : قصدُ الله وغرضُه في ألم الحيوانات ما جُبِلت عليه طباعُها ، والأوجاعُ التي تلحق نفوسها عند الآفات العارضة ليس عقوبةً لها وعذاباً كما ظن أهلُ التناسخ ، بل حَثٌّ لنفوسها على حِفظِ أجسادها وصيانة هياكلها من الآفات العارضة لها ، إذ كانت الأجسادُ لا تقدر على جرّ منفعة ولا دفع مضرّة عنها، ولو لم يكن ذلك كذلك لتهاونت النفوسُ بالأجساد وخذلتها وأسلمتها إلى الهلاك قبل فناء أعمارها وتقارُب آجالها ، ولهلكت كلها دفعةً واحدة في أسرع مدة .

فلهذه العِلّة جُعِلت الآلام والأوجاع للحيوان دون النبات، وجُعل فيها حبٌّ للبقاء إمّا بالحرب والقتال ، وإمّا بالهرب والفرار والتحرّز لحفظ جثتها من الآفات العارضة إلى وقت معلوم . فإذا جاء أجَلُها فلا ينفع القتالُ ولا الهربُ ولا التحرّزُ بل التسليمُ والانقياد ، ولو كان ينالها بعضُ الآلام والأوجاع .

وإذ قد ذكرنا ما يحتاج إليه فنقول الآن إن الله تعالى لما خلق أجناس الحيوانات التي في الأرض ، وعلم أنها لا تدوم بذاتها أبدَ الآبدين، جعل لكل

نوع منها عمراً طبيعياً أكثرَ ما يمكن منه ، ثم يجيئه الموت إن شاء أو أبى . وقد علم الله تعالى أنه يموت كل يوم منها في البر والبحر ، والسهل والجبل ، عددٌ لا يحصيه إلاَّ الله تعالى . ثم جعل بواجب الحكمة جثّة جيَف مَوتاها غِذاءً لأحيائها ، ومادّة لبقائها ، لئلاَّ يضيع شيء مما خلق الله تعالى بلا نفع ولا فائدة ، وكان في هذا منفعةٌ لأجسادها ، ولم يكن فيه ضرر على الموتى . وخصلةٌ أخرى ، لو لم تكن الأحياءُ تأكل جيَف الموتى منها ، لبقيت تلك الجيَف ، واجتمع منها على ممرّ الأيام والدهور ، حتى تمتلىء منها الأرضُ وقَعر البحار، وتَنْتُنُ ويفسُد الهواء والماء من نَتَنْن روائحها، فيصير ذلك سبباً لكونها وهلاكها للأحياء ، فأيّ حكمة أكثرُ من هذه أن جعل الباري تعالى في أكل الحيوانات بعضها بعضاً من المنفعة للأحياء ، ودفعِ المضرّة عنها كلها ، وإن كانت تنال بعضَها الآلامُ والأوجاع عند الذبح والقتل ؟ وليس قصدُ القابض من القاتل من ذبحها وقبضها ، إدخال الألم والوجع عليها ، بل لينال المنفعة فيها لدفع مضرّةٍ بها .

فصل

ثم اعلم أن الله تعالى لما أبدع الموجودات ، واخترع الكائنات ، قسمها قسمين اثنين : كليّاتٍ وجزئيات . ورتّب الجميع ونظّمها مراتِبَ الأعداد المفردات ، كما بيّنا في رسالة المبادىء . وكانت مَرتبةُ الكليات أن جعل الأشرف منها علّةً لوجود أدْوَنِها ، وسبباً لبقائها ، ومتمماً لها ، ومُبلغاً إلى أقصى غاياتها وأكمل نهاياتها . وكانت مرتبةُ الجزئيات أن جعل الناقص منها علّة للكامل وسبباً لبقائه ، والأدون خادماً للأشرف ومُعيناً ومُسخّراً له . وبيان ذلك من النبات الجزئي : لما كان أدون رتبةً من الحيوان الجزئي ، وأنقصَ حالة منه ، جعل جسم النبات غذاء لجسم الحيوان ، ومادّة لبقائه ،

وجعل النفس النباتية في ذلك خادمةً للنفس الحيوانية، ومسخَّرة لها . وهكذا أيضاً لما كانت رُتبة النفس الحيوانية أنقص وأدْون من رُتبة النفس الإنسانية، جُعلت خادمةً ومُسخَّرة للنفس الإنسانية الناطقة. وهذه الحكمة التي ذكرناها كليةٌ بيّنة ظاهرةٌ للعقول السليمة . فنقول على هذا الحكم والقياس : لما كان بعضُ الحيوانات أتمَّ خِلقة وأكمل صورةً كما بيّنا قبل هذا ، جُعِلت النفسُ الناقصة منها خادمةً ومسخَّرةً للتامة منها الكاملة ، وجُعِلت أجسادُها غذاء ومادّة للأجساد الناطقة منها وسبباً لبقائها، لتبلُغَ إلى أتم غاياتها وأكمل نهاياتها، كما جُعِل جسمُ النبات غِذاءً لجسم الحيوان ، ومادةً لبقائه ، وسبباً لكماله . وكما أنه لما كانت النفس النباتية أدْوَن رُتبة من النفس الحيوانية ، جُعِلت خادمةً للنفس الحيوانية ومسخَّرة لها في رتبتها ، غِذاءً لها ومادةً لأجسادها ، فهكذا جُعل حُكمُ نفوس الحيوانات الناقصة خادمةً لنفوس الحيوانات التامّة الخِلقة ، الكاملة ، ومسخرة لها لكيما تربي أجسامها وتُنميها وتُسلّمها إلى الحيوانات التي هي أكملُ منها وأشرفُ، ليكون ذلك غذاءً لأجسادها، ومادّة لأبدانها ، وسبباً لبقاء أشخاصها زماناً ما أطول ما يمكن ، وعلة لتوالُدِ نسلِها وبقاء صورتها. لأن هَيُولى الأشخاص دائماً في الذوبان والسيلان ، فيُحتاج إلى بدل ما يتحلل من الأشخاص . فإذاً قد تبين بما ذكرنا ما العلةُ في أكل الحيوانات بعضها بعضاً . فأما المنفعةُ العامة والصلاح الكليّ في أكل الحيوانات بعضها بعضاً فهو أنه لو لم يكن لامتلأ وجهُ الأرض وقعرُ البحار وجَوفُ الأنهار من جِيَف الحيوانات المُنتنة في كل يوم على مرّ الدهور ، ولفَسَد جوُّ الهواء ، وعرَض من ذلك الوباءُ للأحياء منها ، وهلكت كلُّها دفعةً . وعلة أُخرى : وذلك أن الله لما خلق الأحياء، إمَّا لجرّ منفعةٍ أو لدفع مضرّةٍ عنها ، لم يترك شيئاً بلا نفع ولا عائدة . فلو لم يجعل أكلَ بعض الحيوانات بعضها بعضاً ، لكان بعضُ الحيوان باطلاً بلا فائدة ، وكان يعرِض منها ضررٌ عامٌ وهلاكٌ كليٌّ ، كما ذكرنا آنفاً . فأما الآلام والأوجاع والفزع الذي

يعرِض لها عند الذبح والقتل والموت والأمراض، فلم يجعل ذلك الباري تعذيباً لنفوسها ، ولا عقوبة ساقها لها — كما ظنّ ذلك أهلُ التناسُخ — بل جعل ذلك حثّاً لنفوسها على حفظ أجسادها من الآفات العارضة لها إلى أجل معلوم. وإذا لم يكن كذلك لتهاونت النفسُ بالأجساد وتركتها لهذه الآفات، وأسلمتها إلى المهالك والتّلف، وكانت تهلك جميعاً قبل مجيء آجالها وفناء أعمارها وقبل تمامها وكمالها. وإذا قيل: ما العلة في محبة الحيوانات الحياةَ وكراهيتها الموت ؟ قيل: ذلك لعِلل شتى وأسباب عدة ، أحدُها أن الحياة تُشبه البقاء ، والموت يُشبه الفناء، والبقاءُ محبوبٌ في جِبِلّة الخلائق كلها، إذ كان البقاء قرين الوجود، والفناءُ قَرينَ العدَم. والعدمُ والوجودُ متقابلان، والله لما كان هو علة الموجودات ، وهو باقٍ أبداً ، صارت الموجوداتُ كلُّها تحب البقاء وتشتاق إليه . فمن أجل هذا قالت الحكماء إن الله هو المعشوق الأول ، المشتاقُ إليه سائر الخلائق .
وعلةٌ أخرى لكراهية نفوس الحيوانات الموت ، وهو ما يلحقُها من الآلام والأوجاع والفزع عند مفارقة نفوسها أجسادها . وعلةٌ أخرى أن نفوسها لا تدري أن لها وجوداً خِلْواً من الأجساد . فإن قيل : فلِمَ لا تدري نفوسُها أن لها وجوداً خِلْواً من الأجسام ؟ قلنا : لأنه لا يصلح لها أن تعلم هذه المعاني ، لأنها لو علمت ، لفارقت أجسادَها قبل أن تتم وتكمُل ، وإذا فارقت أجسادها قبل ذلك ، بقيت فارغة عطلاء بلا فعل ولا عمل. وليس من الحكمة أن يكون كذلك ، إذ كانت عِلتُها التي هي خالِقُها لم تخلُ من تدبيرٍ ، ليكون فارغاً بلا فعلٍ البتّة ، بل كل يوم هو في شأن .

فصل

ثم اعلم أن النفوس التامة الكاملة ، إذا فارقت الأجساد تكون مشغولةً بتأييد النفوس الناقصة المجسَّدة ، لكيما تتمّ هذه ، وتكمُل تلك ، وتتخلَّصَ هذه من حال النقص ، وتبلُغَ تلك إلى حال الكمال ، وترتقي هذه المؤيَّدة أيضاً إلى حالة هي أكملُ وأشرفُ وأعلى « وان إلى ربك المنتهى » . والمثال في ذلك الأبُ الشفيق ، والأستاذ الرفيق في تعليمهما التلامذةَ والأولاد ، وإخراجهما إياهم من ظُلُمات الجَهالات إلى فُسحة العلوم ورَوحِ المعارف ، ليُتمّ التلامذةُ والأولاد ، ويَكمُل الآباء والأستاذون بإخراج ما في قوّة نفوسهم من العلوم والمعارف والصنائع والحِكَم إلى الفعل والظهور ، اقتداءً بالله تعالى ، وتشبُّهاً به في حكمته ، إذ هو العِلّة والسبب والمبدأ في إخراج الموجودات من القوّة إلى الفعل والظهور . وكل نفس هي أكثر علوماً وأحكمُ صنائعَ وأجودُ عملاً فهي أقربُ تشبُّهاً بربها وأشدُّ تشبّهاً . وهذه هي مرتبة الملائكة الذين لا يَعصون الله ما أمرهم ، ويفعلون ما يؤمرون «يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب » . ولهذا المعنى قالت الحكماء : الحكمةُ هي التشبُّه بالله بحسب طاقة البشر . معناه أن تكون علومه حقيقية ، وصناعته مُحكمةً ، وأعماله صالحةً ، وأخلاقه جميلةً ، وآراؤه صحيحةً ، ومعاملته نظيفة ، وفيضُه على غيره مُتّصِلاً ، والله سبحانه وتعالى كذلك .

ثم اعلم أنه قد اختلف الحكماء في ماهيّة الإنسان ، وما حقيقة معناه ، اختلافاً كثيراً ، والبحث في ذلك القيل والقال ، ولكن يجمعها كلّها ثلاثُ مقالات : وذلك أن منهم من قال : إن الإنسان هو هذه الجملة المَرئيّة المَبنيّة بنيَةً مخصوصة من اللحم والدم والعظم ، وما شاكل ذلك ، لا شيء آخر سواها . ومنهم من قال : إن الإنسان هو هذه الجملة المجموعة من جسد جسماني ، ومن روح نفساني ، أي روحانيّ ، مُقترني المجموعة . ومنهم من

قال : إن الإنسان بالحقيقة هو هذه النفس الناطقة ، والجسدُ لها بمنزلة قميص ملبوس، أو غِلاف مغشًّى عليه. فهذه ثلاث مقالات في كلام الحكماء في ماهيّة الإنسان. فأمّا اختلافهم في ماهيّة النفس فنبيّنه أيضاً ، ويجمعها ثلاث مقالات، وذلك أَن منهم من قال: إن النفس هي جسمٌ لطيف غيرُ مَرئيٍّ ولا محسوس. ومنهم من قال : إنما هي جوهرةٌ روحانية غيرُ جسم، معقولةٌ وغيرُ محسوسة ، باقيةٌ بعد الموت . ومنهم من قال : إن النفس عرَضٌ يتولّد من مِزاج البدن وأخلاطِ الجسد ، يبطُلُ ويفسُد عند الموت ، إذا بَلي الجسد ، وتَلف البدنُ، ولا وجود لها إلاَّ مع الجسم البتّة، وهؤلاء قوم يقال لهم الجِسميّون، لا يعرفون شيئاً سوى الأجسام المحسوسة ، والأعراض ذوات الأبعاد الثلاثة التي هي الطـولُ والعرض والعمق ، والأعراضُ التي تحلها مثـالُ الألوان والطعوم والروائح والأشكالِ ذوات الأضلاع من الأقطار والزوايا ؛ وليس عندهم عِلمٌ من الأمور الروحـانية ، والجواهر النُّورانية والصُّوَر العقليّة ، والقُوى النفسانية السارية في الأجسام ، المُظهِرة فيها ومنها أفعالها وتأثيراتها حَسْبُ .

فصل

ثم اعلم أَن من العلوم الشريفة ، والمعارف النفيسة ، معرفة الإنسان نفسه ، لأنه قبيح بكل عالم أن يدّعي معرفة حقائق الأشياء ، وهو لا يعرف نفسه ، ويجهل حقيقة ذاته ، وهو يتعاطى الحكمة ، لأن مثَلَ ذلك كمَثَل من يُطعم غيره وهو جائع ، أو يكسو غيره وهو عريان ، أو يهدي غيره وهو ضال في الطريق الأنهَج . وقد علم كل عاقل ذاته في هذه الأشياء بأنه ينبغي للإنسان أَن يبتدي أولاً بنفسه ثم بغيره .

ثم اعلم أَن الإنسان لا يمكنه أَن يعرف نفسه على الحقيقة ، إلاّ أن يَنظُر

ويبحث . وذلك من ثلاث جهات : أحدها الجسد بمجرّده عن النفس ، والثاني النظرُ في أمر النفس والبحثُ عن جوهرها بمجرّدها عن الجسد ، والثالثُ النظر والبحث عن الجملة المجموعة من النفس والجسد جميعاً . وقد بيّنا في رسالة تركيب الجسد هذه الأبواب الثلاثة بشرح طويل ، ولكن نذكر طرفاً منها هاهنا مما لا بدّ منه فنقول : إن الجسد هو جسم مؤلّف من لحم وعظم وعُروق وعَصب وما شاكلَ ذلك . وهذه كلها أجسامٌ طويلة عريضة عميقة ، وجملةُ ذلك تُدرَك بالحس ولا يشُكّ فيها عاقل . وأما النفس فهي جَوهَرة سماوية ، روحانية حيّة بذاتها ، علاّمة درّاكة بالقوّة ، فعّالة بالطبع ، لا تهدأ ولا تقرّ عن الجولان ما دامت موجودة . وهكذا خلقها وبها يوم خلَقها وأوجَدَها . والدليل على ما قلنا وصحة ما وصفنا حسَب ما بيّنا من أمر النفس آنفاً ، وكذلك نبيّن أيضاً فيما بعد هذا . وأما الجملة المجموعة من الجسد والنفس بهذا المحسوس المُشاهَد المخاطَب ، المتكلّم ، السائل ، المجيب ، العالم العارف ما دام حيّاً ، فإذا مات بطلَ منه ظهورُ هذه الأشياء ، لأنّ الموت ليس هو شيئاً سوى مفارقة نفسه جسدَها ، وعند ذلك يَعدَم منه جميع فضائله الظاهرة من العلوم والصنائع ، والكلام والحركات ، والحواس وما شاكلها .

ثم اعلم أن أكثر العقلاء وكثيراً من العلماء ممن يُقرّ بوجود النفس ، أو يتكلم في أمرها ، يظنون ويتوهمون أنها شيء مُتولّد من مِزاج الجسد ، وليس الأمر كما ظنوا وتوهموا ، لأن المتولّد من الشيء يتكوّن من جوهر ذلك الشيء ، والجسم جسمٌ لا شك فيه ، والنفس ليس بجسمٍ ولا عرَضٍ من الأعراض . والدليل على ذلك أنها ليست بجسم ، وهو أن الجسم لا يُعقَل إلاّ متحركاً أو ساكناً . فلو كان متحركاً من حيث هو جسمٌ ، لكان يجب أن يكون كلُّ جسم متحركاً ، ولو كان ساكناً لكان يجب أن يكون كلُّ جسم ساكناً ، وليس يوجد الأمر كذلك ، بل قد يوجد بعضُ الأجسام متحركاً دائماً ،

وبعضها متحركاً تارة وساكناً أخرى، مثل الهواء، والماء، والنار، والحيوان، والنبات، فيدلّنا بأن شيئاً آخر هو الذي يحرّكها ويُسكّنها.

وليست النفس بجسم ولا بعرض من الأعراض القائمة بالجسم المتولّد منه أو فيه، لأن العَرَض هو شيء لا يقوم بنفسه، وهو أنقص حالاً من الجسم، والمحرّك للشيء، المسكّنُ له هو أقوى منه وأشرفُ. ودليل آخر أن العرض لا فِعل له، لأن الفعل عرضٌ من الأعراض، قائم بفاعله، ولو كان للعرض فِعل، لكان يجبُ أن يكون العَرَضُ قائماً به، ولا هو يقوم بنفسه، فكيف يقوم بغيره؟ فهذا دليل على أن العرض لا فِعل له.

وقد بيَّنا أيضاً أن الجسم لا فعل له، لأن الفاعل بالحقيقة هو الذي يَقدِر على أَخذ الفعل وتركه، لأن ترك الفعل أسهلُ من أخذه، فلو كان للعرض فِعلٌ، لكان يقدِر على تركه كما يقدر على أخذه. فمن ظنّ أن النفس الناطقة، الفاعلة، الحسّاسة، الدرّاكة العلاّمة، الصانعة الحكيمة، المتكلّمة العارفة، المجرّدة من الكائنات، من تركيب الأفلاك، وأقسام البروج، والحركات، والمولّدات المركّبات، من الحيوان والنبات، والمعادن، وأنواعها، وخواصّها، ومنافِعها ومضارّها، إنما هي عرضٌ أو مِزاجٌ مُتولّد من أخلاط البدن، من غير دليلٍ على ما زعم، أو حُجّةٍ بيّنةٍ دعته إلى ما هو عليه يتوهم، فهو جاهل بأمر نفسه، لم يعرف حقيقة ذاته، فكيف يُوثَق بقوله إنه يعرف حقائق الأشياء، ويعبّر عن عِلل الموجودات الغائبات عن الحواس، وإنه يعلم أَسباب الكائنات الخفيّات التي لا تُعلم إلاّ بدليل عقلي وبراهين حِكميّة، ومُقدّمات ونتائج مَنطِقيّة أو هندسية؟ وهذا الذي يظن أن نفسه العالمة الناطقة، الصانعة الحكيمة، جِسمٌ أو مِزاجٌ أو عَرَضٌ من الأعراض، لا قوامَ لها ولا حِسّ، ولا حركة ولا شعور «هيهات هيهات لما توعدون» بعيدٌ عن الحق، «ونودي به من مكان بعيد» ضَلّ عن طريق الصواب من يظن بنفسه هذه الظنون «وما قدر الله حق قدره» إذ من جهل نفسه كيف

يتيسر له معرفة الله كما قال النبي ، صلى الله عليه وسلم : « من عرفَ نفسه فقد عرف ربّه ، وأعرَفكم بنفسه أعرَفكم بربّه » وقال تعالى : « بل الإنسان على نفسه بصيرة » وقال : « وفي أنفسكم أفلا تبصرون » وقال « وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم » «قالوا بلى شهدنا ». وقال : « ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم ». قال أهل المعارف أشار بقوله تعالى : « شهد الله أنه لا إله إلاّ هو والملائكة وأولو العلم » يعني العارفين بأنفسهم لينتبه الجاهلُ من نوم غفلته .

فإن قيل : ما الحكمة في اختلاف أنواع النبات وأوراقها وثمارها وفنونها وألوانها ، وطعومها ، وروائحها ، وطباعها المختلفة ؟ قيل : لما فيها من كَثرة المنافع للحيوانات المختلفةِ الصُّوَر ، المتغايرة الطبـاع ، المُفننة الأخلاق ، الكثيرة المُتصرّفات . فإن قيل : لِمَ جعل في طباع بعض الحيوانات وجِبلتها الألفة والأُنسَ والمودة ؟ يقال : ليدعوها ذلك إلى اجتماع المعاوِن لما فيه من صلاحها وكَثرة منافعها . وإن قيل : فما الحكمةُ في كَون النفور والوَحشة والعَداوة في جِبلة بعض الحيوانات ؟ يقال : لكيما يدعو ذلك إلى التباعُد في الأماكن ، والانتشار في البلاد ، لما فيه من صلاح حالها ، وسلامتها من الآفات ، ولكيلا تتزاحم في الأماكن ، ويضيق بها التصرُّف والفُسحة ورَغدة العيش . ثم اجتمع الناس في المُدن والقرى ، وتزاحموا لشدة حاجتهم إلى مُعاونة بعضِهم بعضاً ، لأن الإنسان لا يَقدِر أن يعيشَ وحده إلاّ عيشاً نَكِدا .

فصل

مـا العلة في اختلاف لـُغات الناس وألوانهم وأخلاقهم وصُوَرهم ، وكلُّهم أبوهم واحد ؟ فنقول : اختلافُ أماكن أبدانهم وألوانهم ، واختلافُ تُربها ، وتغيُّراتُ أهْوِيتها وطوالع البروج عليها ، ومُسامتاتُ الكواكب، وفنونُ آرائهم ، مع كثرة العداوة منهم في ذلـك ، لكيما يدعوهم إلى استخراج فنون العلم ، والاجتهاد في تهذيب النفس ، أو الانتباه من نوم الغفلة ، والخروج من ظُلُـمات الجهالة ، والبلوغِ إلى التمام والكمال ، والبقاء على أتم الأحوال مـا أمكَنَ واستوى . وأيضـاً لمـا حُكم على نفوس الحيوانات كلـّهـا بالموت ، لتنتَقِل إلى حالة هي أتمّ وأكملُ وأفضلُ .

فصل

ثم اعلم أنه ينبغي لمن يريد أن يعرف حقائق الأشياء أن يبحث أولاً عن عِلل الموجودات وأسباب المخلوقات ، وأن يكون له قلبٌ فارغ من الهموم والغموم والأمور الدنيوية ، ونفسٌ زكيّة طـاهرة من الأخـلاق الرديّة ، وصدرٌ سليم من الاعتقادات الفـاسدة ، ويكون غيرَ متعصّب لمذهب أو على مذهب ، لأن العصبية هي الهوى ، والهوى يُعمي عينَ العقـل ، ويَنهى عن إدراك الحقائق ، ويُعمي النفس البصيرة عن تصوُّر الأشياء بحقائقها ، فيَصدُّها ذلك عن الهوى ، ويَعدِل عن طريق الصواب .

ونحن نريد أن نبحث في هذه الرسالة عن عِلل الموجودات وأسبابها، فنريد أن نبيّن من ذلك طرَفاً حسبما جرت عادة إخوانـنـا ، وعلى حسب جُهدنا وطاقتنا فيما وهب الله لنا من الهِداية ، ولكن نبدأ أولاً بتَوطِئة أصولٍ لا

بد من ذكرها مقدّمـاتٍ يُنتَجُ عنهـا مـا نريد أن نبيّن من هذه العِلل والأسرار فنقول :

إن العلماء الراسخين والحكماء الرّبّانيين قالوا إن الله تعالى ، لمـا أبدع الموجودات ، واخترع المخلوقـات ، رتّبهـا مراتِبَ الأعداد المُتواليـات ، ونظّمهـا نِظامـاً واحداً يتلو بعضُهـا بعضـاً في الموجودات إلى الأعداد المُتناسِبـات ، إذ كان ذلك أحكمَ وأتقنَ . كما بيّنـا في رسالة المبـادىء العقلية .

وأما فعل الباري تعالى فحسَبَ ما ذكرنا ؛ وذلك أنه جعَل كلّ جنس من الموجودات على أعـدادٍ مخصوصة مُطابقة بعضُها لبعض ، إما بالكميّة وإمـا بالكيفيّة ، ليكون ذلك دليلًا للعلماء وبياناً للعقلاء ، إذا بحثوا عنها ، واعتبروا ، واستدلّوا بشاهدها الجليّ على غائبها الخفيّ ، فيبينَ لهم ويعلموا أنها كلّها من صُنع بارىء حكيم . فيزدادون بذلك بصيرةً ويقيناً ، وإلى لقـاء الله تعالى اشتياقاً ، ويعبدون ربّهم ليلًا ونهاراً .

ثم اعلم أن من الأشياء الموجودة ما هي على أعداد مخصوصة ، ومنها ما هي في البروج والأفلاك ، ومنها ما هي في الأركان والأُمّهات ، ومنها ما هي في خِلقة النبات ، ومنها مـا هي في تركيب جُثّة الحيوانات ، ومنها مـا هي في سُنَن الشرائع من المفروضات ، ومنها ما هي في الخطاب والمحاورات . فمن ذلك أن الله تعـالى أنزل القرآن بلغة فصيحةٍ هي أفصح اللغات ، وجعل هـذا الكتاب مُهيمِناً على كل كتاب أنزَله قَبله ، وجعل هذه الشريعة أتمّ الشرائع وأكملها ، وحكّم في سُنن المفروضات أموراً مَثنَويّات ومُثلَّثات ومُربّعاتٍ ومخمّسات ومسدّسات ومسبّعات ومثمّنات ، وما زاد بالغاً ما بلغ ، ليكون إذا تأمّل أولو الألباب ، وتفكّر فيها أولو الأبصار ، واعتبروا فيها ، وجدوا في سُنَنها وأحكامها أموراً معدودةً مطابقةً لأُمورٍ من الرياضيات والطبيعيات والإلهيّات ، ويتعلمون ويتيقنون أن هذا الكتاب هو من عند الصانع الحكيم

الذي هو صانعُ المخلوقات ، وبارئُ الموجودات ، وأن هذه الشريعة هي التي وضعها وشرحها ، فيزول الشك العارض عن قلوب هؤلاء المُتعاطين الحِكمةَ من تلك الأُمور المعدودة ، وهذه الحروف التي في أوائلِ السُّوَر ان الله تعالى أورَدَ من جملة الحروف المُعجَمَة الثمانية والعشرين حرفاً أربعةَ عشَرَ حرفاً حَسبُ ، ولم يزد عن أربعة عشر وهي : ا ح ر س ص ط ع ق ك ل م ن لا ي ، فجعل منها في بعض السور حرفاً حرفاً ، وفي بعضها حرفين وثلاثةً وأربعةً وخمسة ، ولم يزد على ذلك .

ثم اعلم أن العلماء المفسِّرين تناظروا وشرَعوا في القيل والقال في معاني هذه الحروف التي في أوائل سُوَر القرآن ، وما حقيقةُ تفسيرها ، والغرضُ منها ما هو ، وهي عِدّة سور في القرآن أولها « الم ذلك الكتاب لا ريب فيه » « الم أللّه لا إله إلاّ هو » « المص » « الر تلك آيات الكتاب الحكيم » « الر كتاب أُحكمت آياته » « الر تلك آيات الكتاب المبين » « المر تلك آيات الكتاب » « الر كتاب أنزلناه » « الر تلك آيات الكتاب وقرآن مبين » « كهيعص » « طه ما أنزلنا » « طسم » « طس » « طسم » « الم أحَسب الناسُ أن يُتركوا » « الم غلبت الروم » « الم تلك آيات الكتاب الحكيم » « الم تنزيل الكتاب من الله » « يس والقرآن الحكيم » « ص والقرآن ذي الذكر » « حم تنزيل الكتاب » « حم تنزيل من الرحمن الرحيم » « حمعسق » « حم والكتاب المبين » « حم والكتاب المبين » « حم تنزيل الكتاب » « حم تنزيل الكتاب » « ق والقرآن المجيد » « ن والقلم وما يسطرون . » فذلك تسع وعشرون سورةً . منها ما جاء في أولها حرف واحد مثل : ق ص ن . ومنها ما جاء في أولها حرفان مثل : طه يس حم. ومنها ما جاء في أولها ثلاثة أحرف مثل : الم طسم الم الر . ومنها ما جاء في أولها أربعة أحرف مثل : المر المص . ومنها ما جاء في أولها خمسة أحرف مثل : كهيعص حمعسق ، ولا يزيد على خمسة أحرف .

فمن العلماء من قالوا إن هذه الحروف قَسَمٌ أقسم الله تعالى بها ، ومنهم من قال إن كل حرف منهـــا كلمة قائمة بنفسها ، مثـل ألف : الله ، لام : جبرائيل ، ميم : محمد ، عليـه السلام . ومنهم من قـال إنها حروف حساب الجُمَّل ، كما جاء في الخبر أن علماء التوراة ورؤساء اليهود اجتمعوا في المدينة وزعموا أنهم يعلمون حَدَّ هذه الأُمة كم هو بحساب الجُمَّل ، ولأن لها قصةً معروفة مشهورة تركنا ذكرها . ومنهم من قال إن هذه الحروف سِرُّ القرآن ولا يعلـم تأويلَ ذلك إلاَّ الله . ومنهم من قال إن الراسخين في العـلم أيضاً يعلمون تفسير ذلك لما عَلَّمهم الله تعالى كما ذكر بقوله : « ولا يحيطون بشيء من علمه إلاَّ بما شاء » « ولا يعلم تأويله إلاَّ الله والراسخون في العلم » . ومنهم من قال إن معرفتها أسرار لا يصلح أن يعلمها كلُّ أحـد إلاَّ الخواصُّ من عِباد الله الصالحين .

ثم اعلم أن كل هذه الأقـاويل مُقنعٌ لنفوس أقوام دون أقوام ، وذلك أن في الناس أقواماً عقلاء لا يرضَون بالتقليد ، بل يريدون البراهين والكشف عن الحقائق وطلب العلة ، ولِمَ ؟ وكيف ؟ ولماذا ؟ ولا يغنيهم من جوع ما يتأولون من التفسير في هـذا المعنى ، بل يطلبون وراء ذلك مـا هو أحسنُ تأويلًا ، وأبْيَنُ تفسيراً . ونحن نذكر الآن من ذلك طرفا ، ونشير إليهـا إشارة حسبما تحتمل عقولُ هؤلاء القوم من أهوائها .

فصل

فنقول: اعلم أن من يريد أن يعلم لِمَ لم تـردْ من جُملة الثمانية والعشرين حرفاً إلاّ أربعة عشر حرفاً ، ولم يزد على خمسة أحرف منها ، وما المراد والحكمة في ذلك ، فينبغي له أن يبحث ويعتبر جميع المحسوسات المفروضات في سُنن الشريعة ، مثل الصلوات الخمس ، والزكَوات الخمس ، وأن شرائط الإيمان خمس ، إذ بُني الإسلام على خمسٍ ، والفضلاء من أهل بيت النبوّة خمسة ، وواضعو الشريعة خمسة ، ومراقي مِنبر النبي خمسة ، وما شاكل هذه المخمّسات في أمور الدين والشريعة وأحكامها ، وما يحققها أيضاً من المعدودات المخمّسات مثل الكواكب الخمسة السيّارة التي لها رجوع واستقامة ، ومثل الحواسّ الخمس في الحيوانات التامّة الخِلقة ، ومثل المخمسات في خِلقة النبات ، وما في أسماء الأيام الخمسة من جملة السبعة ، والخمسة المُسترقة من جُملة أيام السنة ، وما شاكل هذه المخمسات في الموجودات المطابقة بعضُها بعضاً . ويعتبر أيضاً خاصيّة الخمس من العدد لأنها عدد كُرِيّ ، ويقال إنها عدد دوائر ، وأنها تحفظ نفسها وما يتولد منها ، كما بيّنا في رسالة الأرثماطيقي ، والأشكالُ الخمسة الفاضلة المذكورة في كتاب أقليدس ، والنسبةُ الخمسة الفاضلة في الموسيقى ، وما شاكل هذه الأُمور من المخمسات . فإذا اعتبر اللبيب العاقل هذه الأشياء التي ذكرنا وتأمّلها ، فعسى الله أن يفتح قلبه ويشرح صدره ، ويوفقه لعلمه علل الموجودات وأسباب المخلوقات ، وما الحكمة في كونها على ما هي عليه الآن .

وهكذا ينبغي لمن يريد أن يعرف سرّ هذه الحروف التي هي في أوائل السُّوَر ، لِمَ كان منها أربعة عشر من جُملة ثمانية وعشرين حرفاً ، أن يعتَبِرَ الموجودات التي عَددُها ثمانية وعشرون ، فإنه يجدها تنقسم قسمين حيث ما وجد . فمن ذلك ثمانية وعشرون عَددُ مفاصل اليدين للإنسان ، فإنها في اليد

اليمنى أربعة عشر ، وأربعة عشر في اليد اليسرى ، وإن عددها مُطابِق لعدد ثمانٍ وعشرين خرَزَة هي في عمود ظهر الإنسان ، منها أربع عشرة في أسفل الصُّلْب ، وأربع عشرة في أعلاه . وهكذا توجد خرزاتُ العمود التي في أصلاب الحيوانات التامّة الخِلقة كالبقر والجمل والإبل والحُمُر والسباع ، وبالجملة كل حيوان تُرضِعُ وتَلِد ، منها أربع عشرة في مُؤخَّر الصُّلْب ، وأربع عشرة في مُقدَّم البدن ، وهكذا وُجِد عدد الريشات التي في أجنحة الطير المُعتَمِدةِ عليها في الطيران ، فإنها أربع عشرة ظاهرةٌ في كل جَناح ، وهكذا يوجد عدد الخرزات التي في أذناب الحيوانات الطويلةِ الأذناب ، كالبقرة والسّباع ، وكل ما له ذنب طويل . وهكذا يوجد في عموم صُلب الحيوانات الطويلة الخِلقة كالسمك والحيات وبعض الحشرات . وهكذا يوجد عدد الحروف، التي في لغة العرب التي هي أتم اللغات وأفصحها، ثمانية وعشرون حرفاً ، منها أربعة عشر حرفاً تُدغَم فيها لام التعريف وهي :

١	٢	٣	٤	٥	٦	٧
التاء	والثاء	والدال	والذال	والراء	والزاي	والسين
٨	٩	١٠	١١	١٢	١٣	١٤
والشين	والصاد	والضاد	والطاء	والظاء	واللام	والنون

وأربعة عشر لا تُدغم فيها، وهي الألف والباء والجيم والحاء والخاء والعين والغين والفاء والقاف والكاف والميم والهاء والواو والياء. وهكذا يوجد حُكم الحروف التي تُخطُّ بالقلم قسمين : أربعة عشر منها مُعجَم ، وهي الباء والتاء والثاء والجيم والخاء والذال والزاي والشين والضاد والظاء والغين والفاء والقاف والنون والياء ، وأربعة عشر غير مُعجَم ، وهي الألف والحاء والدال والراء والسين والصاد والطاء والعين والكاف والميم والواو والهاء واللام . وهكذا حُكم الحكيم الواضع للخط العربي ، فإنه اقتفى في وضعه الخط العربي حكمةَ

الباري ، فإنه كان حكيماً فيلسوفاً ، وقد قيل : إن الحكمة هي التشبُّه بالإله بحسب طاقة البشر ، ومعنى هذه الكلمة أن يكون الإنسان حكيماً في مصنوعاته ، مُحقّقاً في معلوماته ، خَيِّراً في أفعاله . ومن التي عددها ثمانية وعشرون ، هي منازل القمر في الفلك ، فإن عددها ثمانية وعشرون ، منها في البروج الشمالية أربعة عشر ، وفي البروج الجَنوبية أربعة عشر . فقد عُلِم مما ذكرنا وصُدِّق بما قلنا أن الموجودات التي عددُها ثمانية وعشرون تنقسم قسمين أيَّ موضع وُجدت : كل أربعة عشر منها لها حُكم ليس للأربعة عشر الأخرى . فلهذه العلة أورَدَ من جملة الثمانية والعشرين حرفاً حروفَ الجُمَّل أربعة عشر حرفاً ، ولم يُورد الأربعة عشر الأخرى ، لأن لهذه حُكماً ليس لذلك ، وهي السرُّ المكتوم الذي لا يصلَح أن يعلمه كلُّ أحد إلاَّ الخواصُّ من عباد الله المخلصين .

وإذ قد ذكرنا طرفاً من الإشارة إلى هذه الحروف ، ودللنا على أنها سِرُّ القرآن ، ولا يجوز الإفصاح عنها ، إذ لم يأذَن لنا الحكماءُ والأنبياء صلوات الله عليهم . وفيما ذكرناه كفايةٌ لمن كان له قلب زكي ونفس زكية وأخلاق طاهرة . فلنذكر الآن طرفاً من فضيلة ثمانية وعشرين على سائر الأعداد فنقول :

اعلم أنه ما من عدد من الخليقة إلاَّ وله فضيلة ليست لشيء آخر غيره ، وقد ذكرنا طرفاً من فضيلة الأعداد في رسالة الأرثماطيقي ؛ فمن فضيلة الثمانية والعشرين أنه من الأعداد التامة ، والأعداد التامة هي أفضل من الأعداد الناقصة والزائدة ، أو أنها قليلة الوجود ؛ وذلك أنه يوجد في كل مرتبة من مراتب الأعداد واحدةٌ لا غير ، كالستة في الآحاد ، وثمانية وعشرين في العشرات ، وأربعمائة وستة وتسعين في المئات ، وثمانية آلاف ومائة وعشرين في الألوف، فنقول:

إنه أيضاً لما كان الاثنان أولَ عدد الزوج ، والثلاثةُ أولَ عدد الفرد ،

والأربعةُ أول العدد المَجذور يجمعُ بين ذلك ، وكانت السبعة التي هي عددٌ كامل ، وعددُ الكواكب السيارة مُطابقها ، ثم ضُرِبَ الثلاثة في الأربعة وكان اثني عشر الذي هو أول عدد زائدٍ ، وجُعِلَ برجُ الفلك اثني عشر مطابقاً له ، ثم ضُرِبت السبعة في أربعة ، وكان ثمانيةً وعشرين التي هي عدد تام ، وجُعِل منازل القمر مطابقاً له ، وجُعل سائرُ الموجودات الاثني عشرية مطابقةً لعددها ، مثلُ الثُّقَب للإنسان التي هي اثنتا عشرة ، والاعضاء الاثني عشر ، وشُهور السنين الاثني عشر عدَدها .

وعلى هذا القياس يوجد أشياء كثيرة اثنا عشريّات، وسبعيّات، وسِتّيّات، وخمسيّات، وأربعيّات ، وثـلاثيّات ، ومَثنويّات مطابقـةٌ بعضُها لبعض ، ليدل ذلك على أنها كلها من صُنع صانع كريم ، كما قال تعالى : « إن في ذلك لعبرة لأُولي الأبصار.» وفقّك الله وإيانا وجميعَ إخواننا إلى طريق السَّداد ، وهداك وإيانا سبيلَ الرشاد، إنه رؤوف بالعباد .

تمت رسالة العلل والمعلولات ويليها رسالة في الحدود والرسوم .

الرسالة العاشرة
من النفسانيات العقليات
في الحدود والرسوم
(وهي الرسالة الواحدة والأربعون من رسائل إخوان الصفاء)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى ، آللهُ خيرٌ أمّا يشركون ؟

اعلم أيها الأخ أنّا قد فرغنا من بيان العِلل والمعلولات، وبيّنّا فيها أقاويل جميع الحكماء ، حسَب ما جرت به عادة إخواننا ، ونريد الآن أن نذكر في هذه الرسالة بيانَ الحدود والرسوم فنقول :

إن الأنبياء ، عليهم السلام ، هم سُفراء الله تعالى بينه وبين خلقه ، والعلماء هم ورثة الأنبياء، والحكماء هم أفاضل العلماء . وقد قيل إن الحكيم هو الذي يوجد فيه سبع خِصال محمودة ، إحداها أن تكون أفعاله مُحكَمَةً ، وصنائعه مُتقنة ، وأقاويله صادقة ، وأخلاقه جميلة ، وآراؤه صحيحةً ، وأعماله زكية، وعلومه حقيقية .

واعلم أن معرفة حقيقة الأشياء هي معرفة حدودها ورسومها ، وذلك أن الأشياء كلها نوعان : مُركّبات وبسائط. فأما المركّبات فتُعرف حقائقها ، إذا عُرفت الأشياء التي هي مركّبة منها، والبسائط تُعرف حقائقها إذا عُرفت

الصفات التي تخصها .

• مثال ذلك ، إذا قيل لك ما حقيقة الطين ؟ فيقال : ماء وتراب مختلطان ، والسَّكَنْجَبِين ؟ فيقال : خلٌّ وعسل ممزوجان . والسرير ؟ خشبٌ وصورةٌ مركَّبان . والكلام ؟ ألفاظٌ ومعانٍ مؤلّفات . واللحن ؟ نغمات حادّة وغليظة متحدات. والحيوان؟ نفس وجسد مقرونان. وعلى هذا القياس تجيب، إذا سُئِلت عن هذه الأشياء المركّبة ، فلا بد من ذكر تلك الأشياء التي هي مركبة ومؤلفة منها .

فأما الأشياء البسيطة فتعرف حقائقها إذا عرفت الصفات التي تخصها . مثال ذلك إذا قيل لك : ما الهَيُولى ؟ فيقال : جوهر بسيط قابل للصورة . فإن قيل : ما الصورة ؟ فيقال : ماهيّةُ الشيء وله الاسم والفعل والقيامة . فإن قيل : فما الجوهر ؟ فيقال : هو قائم بنفسه القابل للصفات . فإن قيل : فما الصفة ؟ فيقال : عرَضٌ حالٌّ في الجوهر لا كالجُزْء منه. فإن قيل : ما الشيء؟ فيقال : هو المعنى الذي يُعلم ويُخبَر عنه . فإن قيل : ما الموجود ؟ قيل : هو الذي وجده أحد الحواسّ أو تصوّره العقلُ أو دلّ عليه الدليل . فإن قيل : ما المعدوم ؟ فيقال : ما قابلَ هذه الأشياء المذكورة في الوجود . فإن قيل : ما الوجود ؟ فيقال : أيسَ . فإن قيل : ما العدمُ ؟ فيقال : ليسَ[1] . فإن قيل : ما القديم ؟ فيقال : ما لم يكن ليس . فإن قيل : ما المُحدَث ؟ فيقال : ما كَوّنه غيرُه. فإن قيل: ما الإحداث؟ فيقال: تكوينُ المكوّن. فإن قيل : ما العلة ؟ فيقال : هي سبب لكون شيء آخر إيجاداً . فإن قيل: ما المعلول ؟ فيقال : هو الذي لوجوده سبب من الأسباب .

فإن قيل : ما العالِم ؟ فيقال : هو المتصوّر للشيء على حقيقته . فإن قيل: ما العلم ؟ فيقال : صورة المعلوم في نفس العالِم . فإن قيل : ما الحي ؟ فيقال:

---

١ أيسَ وليسَ : أي موجود ولا موجود . فأيس دلالة على الوجود ، وليس لنفي الوجود.

المتحرّك بذاته . فإن قيل: ما القادر ؟ فيقال : هو الذي لا يتعذّر عليه الفعل متى شاء . فإن قيل : ما الفعل ؟ فيقال : أثَر من مؤثّر . فإن قيل : ما معنى الباري ؟ فيقال : علة كل شيء ، وسبب كل موجود ، ومُبدع المُبدَعات ، ومخترع الكائنات ومُتقِنها ومُتمِّمها ومُكمِّلها، ومُبلغها إلى أقصى مدى غاياتها ومُنتهى نهاياتها ، بحسب ما يتأتى في كل واحد منها . فإن قيل : ما القدرة ؟ فيقال : إمكانُ إيجاد الفعل. فإن قيل : ما الصنعة ؟ فيقال : هو إخراج الصانع من فكره ووضعُه في الهَيُولى . فإن قيل : ما المصنوع ؟ فيقال : مُركّب من هَيُولى وصورة .

فإن قيل : ما العقل الفعّال ؟ فيقال : هو أول مُبدَع أبدعه الله ، وهو جوهر بسيط نُوراني فيه صورة كل شيء . فإن قيل : ما النفس ؟ فيقال : جوهرة بسيطة روحانية حَيّة علاّمة فعّالة ، وهي صورة من صُوَر العقل الفعّال . فإن قيل : ما الإرادة ؟ فيقال : إشارةٌ بالوهم إلى تكوين أمر ممكن كونُه وكونُ خِلافه. فإن قيل : ما العقل الإنساني ؟ فيقال : التمييزُ الذي يخُصّ كلّ واحد من أشخاصه دون سائر الحيوانات . فإن قيل : ما الجنس ؟ فيقال : صفةُ جماعةٍ متّفقةٍ بالصورة يعمُّها معنى واحد . فإن قيل : ما الشخص ؟ فيقال : كل جملةٍ يُشار إليها دون غيرها ، مُميَّزة من غيرها بالأفعال والصُّوَر . فإن قيل : ما الخاصّة ؟ فيقال : صفة مخصوصة لما دون غيره ، بطيئة الزوال .

فإن قيل : ما النور ؟ فيقال : جوهر مَرئِيٌّ يُضيء من ذاته ، ويُرى به غيره . فإن قيل : ما الظلمة ؟ فيقال : عَدَمُ النور عن الذات القابلةِ للنور . فإن قيل : ما النهار ؟ فيقال : هو ضوء الشمس . فإن قيل : ما الليل ؟ فيقال : هو ظِلُّ الأرض .

فإن قيل : ما الحرارة ؟ فيقال : غليان أجزاء الهَيُولى . فإن قيل : ما البرودة ؟ فيقال : جمود أجزاء الهَيُولى . فإن قيل : ما الرطوبة ؟ فيقال :

سيلان أجزاء الهَيُولى . فإن قيل : ما اليُبوسة ؟ فيقال : تماسُكها .

فإن قيل : ما اللون ؟ فيقال : هو بُروق شُعاعات الأجسام . فإن قيل : ما الرائحة ؟ فيقال : بُخارات ذواتُ كيفيّات تتحلّل من الأجسام المركّبة . فإن قيل : ما الصوت ؟ فيقال : قرعٌ في الهواء من تصادُم الأجسام .

فإن قيل : كم الحركات ؟ فيقـال : ستة أنواع : هي الكَون والفسادُ والزّيادَةُ والنقصان والتغيُّر والنُّقْلة . فإن قيل : كيف حالتُهن في الأفعال ؟ فيقال: إن الكون هو قَبول الهَيُولى والصورة ، وخُروجه من حَيِّز العدَم. والفسادُ هو خَلق الصورة وخَلعُها من الهَيُولى. والزيادةُ تباعدُ نهايات الشيء. والنُّقصان تقارُبُها . والتغيُّر تَبدُّل الصفات على الموصوف . والنُّقلة خروجٌ من مكان إلى مكان .

فإن قيل : ما المكانُ ؟ فيقال : إنه كلّ موضـع تمكّن فيه المُتمكّن ، وهو نِهايات الجسم . فإن قيـل : ما الزمان ؟ فيقال : عددُ حركات الفلك ، وتكرارُ الليل والنهار .

فإن قيل : ما الفلك ؟ فيقال : إنه جسم شفّاف كُرِيٌّ محيطٌ بالعـالم . فإن قيل : ما العالم ؟ فيقال: جميع الموجودات المُتكوّنات التي يحويها الفلك. فإن قيل : ما الكواكب ؟ فيقال : أجسام منيرة مستديرة كالجامدة من دوام ثباتها في موضع معروف بها . فإن قيـل : ما الجسم ؟ فيقـال : ما له طول وعرض وعُمق ، فإن قيل : مـا الجسمُ الشفّاف ؟ فيقال : كل جسم يُرى ما وراءه .

فإن قيل : ما النار ؟ فيقال : نَيِّر حـارٌ يبدّد الأشياء ويفرق أجزاءها ويرُدّها إلى ذاتها البسيطة . فإن قيـل : ما الهواء ؟ فيقال : جسم لطيف ، خفيف سيّال ، شفّاف ، سريعُ الحركة إلى الجهات الست ، وهي فوق وتحت وغَرب وشَرق وجَنوب وشَمال . فإن قيل : ما الماء ؟ فيقال : جسم سيّال قد أحاط حول الأرض . فإن قيل : ما الأرض ؟ فيقال : جسمٌ غليظٌ أغلظُ

ما يكون من الأجسام ، وتواقف في مركز العالم .

فإن قيل : ما الجهات ؟ فيقال : ستة أنواع : شرق وغرب وجنوب وشمال وفوق وتحت ، وذلك أن الشرق حيث تَطلعُ الشمس ، والغرب حيث تغيب، والشمال حيثُ مَدار الجَدْي ، والجنوب حيثُ مَدارُ سُهَيل ، والفوق هو مما يلي المحيط ، والأسفلُ هو مما يلي الأرض .

فإن قيل : ما الطين ؟ يقال : ماء وتراب . فإن قيل : ما الزبد ؟ يقال : ماء وهواء . فإن قيل : ما البخار ؟ يقال: ماء ونار. فإن قيل : ما الدخان ؟ يقال : نار وتراب . فإن قيل : ما البرق ؟ يقال : نار وهواء .

فإن قيل : ما المعادِن ؟ يقال : ما الغالب عليه الترابية . فإن قيل : ما النبات ؟ يقال : ما الغالب عليه المائيّة . فإن قيل : ما الحيوان ؟ يقال : ما الغالب عليه الهوائية . فإن قيل : ما الإنسان ؟ يقال : ما الغالب عليه النارية. فإن قيل : ما الملائكة ؟ يقال : ما الغالب عليها طبيعة الفلك . فإن قيل : ما الجن ؟ فيقال : ما الغالب عليها النارية والهوائية . فإن قيل : ما الشياطين؟ يقال : ما الغالبُ عليها الترابية والنارية .

فإن قيل : ما الرياح ؟ يقال : هي تموّج الهواء وسيلانه إلى إحدى الجهات. فإن قيل: ما الطبيعة الفاعلة ؟ يقال: هي قوة من قوى النفس الكليّة الفلكيّة، سارية في الأركان . فإن قيل : ما الأثير ؟ يقال : الهواء الحارّ الذي يلي فلك القمر. فإن قيل: ما النسيم ؟ يقال : هو الهواء المعتدل الذي يلي وجه الأرض. فإن قيل: ما الزمهرير؟ يقال : هو الهواء الذي هو فوق كُرَة النسيم ، ودون الأثير ، وهو بارد مُفرطُ البرودة .

فإن قيل : ما الشُّعاعُ ؟ يقال : نور الشمس والقمر والكواكب السيّارة في الهواء نحو مركز الأرض . فإن قيل : ما انعكاس الشُّعاع ؟ يقال : هو رجوع تلك الأنوار من سطح الأرض والبحار والأنهار والجبال في الهواء .

فإن قيل: ما البخار؟ يقال: هو أجزاء مائية رَطْبة ترتفع في الهواء مع تلك

الشُّعاعات الراجعة من سطوح المياه . فإن قيل : ما الدُّخان ؟ يقال : هو أجزاء أرضيّة لطيفة ترتفع في الهواء مع الحرارة . فإن قيل : ما الغيم والسحاب ؟ يقال : الأجزاء المائية والترابية إذا كثُرت في الهواء وتراكمت ، والغيمُ منها هو الرقيق ، والسحاب هو المتراكم .

فإن قيل: ما المطر ؟ يقال: تلك الأجزاء المائية إذا التأم بعضُها مع بعض، وبرَدت وثـَقُلت ورجَعت نحو الأرض . فإن قيل : ما الرياح ؟ يقال : تلك الأجزاءُ الأرضية إذا بردت ورجَعت نحو مركزها . فإن قيل : ما البرق ؟ يقال: هو النار تنقدح من احتكاك تلك الأجزاء الدُّخانية في جوف السحاب . فإن قيل : ما الرعد ؟ يقال : هو الصوت الذي يدور في جوف السحاب ويطلُب الخروج . فإن قيل : ما الصاعقة ؟ يقال : هي صوت يحدُث من خروج تلك الرياح دفعةً واحدة مع تلك البروق . فإن قيل : ما الصوت ؟ يقال : هو قرعٌ يحدُث في الهواء من تصادُم الأجسام بعضها بعضاً .

فإن قيل: ما الضباب ؟ يقال : هو البخار الرَّطْب يثور من وجه الأرض بعَقِب الأمطار . فإن قيل : ما الهالة ؟ يقال : دائرةٌ تحدُث فوق سطح الغيم من انعكاس شُعاع الشمس والقمر والكواكب . فإن قيل : ما قوسُ قُزَح؟ يقال: هو نصف مُحيط تلك الدائرة ، إذا حدثت في كُرة النسيم مُنصبّة . فإن قيل: كم عدد الألوان المتناهية من ذلك بأصباغها؟ يقال: أربعة: الحُمرة في أعلاها ، والصُّفرة دونها ، والخُضرة دون الاصفرار ، والزُّرقة دون الخضرة . ونحن قد ذكرنا طَرفاً في كيفية حدوث هذه الأشياء في رسالة الآثار العُلْويّة بشرحها .

فإن قيل : ما الثلوج ؟ يقال : قَطرٌ صِغار تجمَّد في خَلَل الغيم ، تنزل برِفق . فإن قيل : ما البرَد ؟ يقال : قَطرٌ تجمّد في الهواء بعد خروجها من سلك السحاب . فإن قيل : ما الغيم ؟ يقال : ما كان بسيطاً رقيقاً يقال له الغيم ، وما كان مُتراكماً بعضُه فوق بعض كأنه جبالٌ من قُطن يقال له

السّحاب . فإن قيل : ما السيول ؟ يقال : مياه أودية تجري من كثرة الأمطار . فإن قيل : ما مُدود الأنهار ؟ يقال : من ماء العيون الذي ينزل من أُصول الجبال ، فينصَبُّ ويجري في بُطون الأودِية ، زيادتُها من كثرة السيول . فإن قيل : من أي موضع تجري الأنهارُ كلّها ؟ يقال : تبتدىء من عيون في رؤوس الجبال أو أسافِلها وتلالٍ في البراري ، وتمر بجريانها نحو الآجام والغُدران والبطائح .

فإن قيل : ما الزلازل ؟ يقال : هي حركةٌ بعضِ بقاع الأرض من رياحٍ مُحتَبسةٍ في جوف الأرض. فإن قيل: ما الخسوفُ ؟ يقال : هي سُقوط سطح بِقاع الأرض على اهوِيَّة تحتَها ، إذا انشقت وخرجت منها تلك الرياح المُحتَبسة .

فإن قيل : ما الجبال ؟ يقال : أوتادُ الأرض ومُسنَّياتُ[1] الرياح والبحار. فإن قيل : ما الجزائر ؟ يقال : بقاع من الأرض في وسط البحار . فإن قيل: ما البراري ؟ يقال : هي بقاعٌ من الأرض ليس فيها نباتٌ ولا بناء . فإن قيل : ما الآجام والبطائح ؟ يقال : بقاعٌ فيها مياه ونبات . فإن قيل : ما الغدران ؟ يقال : مواضع تجتمع فيها مياه الأمطار . فإن قيل : ما الأرض؟ يقال : جسمٌ كُرِيّ الشكل ، واقف في الهواء بإذن الله بجميع ما عليها من الجبال والبحار .

فإن قيل : ما الهواء ؟ يقال : ما هو مُحيطٌ بالأرض من جميع الجهات. فإن قيل : ما الفلك ؟ يقال : هو محيط بالهواء مثل ذلك . فإن قيل : ما مركز الأرض ؟ يقال : نُقطة في وسَط عمقها ، ومن تلك النُّقطة إلى ظاهر سطحِها ثلاثة ونصف من اثنين وعشرين المحيط . فإن قيل : ما البحار ؟ يقال : هي مُستَنقعات على وجه الأرض ، حاصرة للمياه المجتمعة فيها . فإن

---

١ المسنيات : جمع مسناة ، وهي السد .

قيل : ما زيادةُ البحر ؟ فيقال : هي انصباب ميـاه الأنهار والأودية فيهـا . فإن قيل : ما العلةُ في مَدّ بحر فارس وجَزْره في اليوم والليلة ؟ يقال : علة كونِ المَدّ عند طلوع القمر ، فإنه يُؤثّر في غَلَيان أجزاء المياه في قعره ، وثَوَرانِ انتفاخها ، ورجوع تلك الأنهار المُنصبّة إلى خَلف ، فيُظهر المَدُّ فِعلَه . وعِلّة كونِ الجَزْرِ هي عند مغيب القمر ، ورجوع تلك الأجزاء إلى قرارها ، ويؤثر بإزالة الغَلَيانِ وهو الفَوَرانُ والانتفـاخُ ، السكونُ فيظهر الجَزْرُ . فإن قيل : مـا العلة في أن ميـــاه البحار كلّها مالحة مُرّة غليظة ، ومياه الأمطار والأنهار وأكثر الآبار عذبةٌ لطيفة ؟ وقد ذكرنا طرفاً من عللها وأسبابها في رسالة لنا قد تقدم ذكرها .

فإن قيل : ما الطبائع الأربع ؟ يقـال : هي البرودة والحرارة والرطوبة واليبوسة . فإن قيل : ما الأركان الأربعة ؟ يقال : هي النار والهواء والمـاء والأرض . فإن قيل : ما الأخلاط الأربعة ؟ يقال : هي الصّفراء والسّوداء والدم والبَلغَم . فإن قيل : ما المولّدات الكائنات ؟ يقال : هي المعـادن والنبات والحيوان .

فإن قيل : ما المعادن ؟ يقال : ما يكون في عمق الأرض من الجواهر وغيرها مما يجري مجرى المَوات . فإن قيل : ما النبات ؟ يقال : ما هو ظاهر ، ويظهر على وجه الأرض من نبت الأشجار ومـــا يَنجُم . فإن قيل : ما الحيوان ؟ يقال : كل جسم متحرّك حسّاس ، مؤلّف من نفس حيوانيّة ، وبـدَن مَوَاتٍ . وتكوينهـا على ضربين : فمنها ما يتكوّن ويتولّد في الرَّحِم ، ومنها ما تُخرجه البيض ، ومنها ما يتولد من أشياء ، ومنها مـا يجتمع من الطرفين يتوالد ويتولد .

فإن قيل : ما الإرادة ؟ يقال : هي إشارة بالوهم إلى تكوُّن شيءٍ ما ، يمكن كون ذلك ، ويمكن الكون في غيره . فإن قيل : ما القدرة ؟ يقال : هي إمكان شيء من الأفعال اختياراً . فإن قيل : ما الاختيار ؟ يقال : هو

قَبول أحد الأمرين بالوهم من ذوات الباطن وذوات الظاهر بالحس. فإن قيل: ما الجهل ؟ يقال : تصور الشيء بغير صورته. فإن قيل : ما الاعتقاد ؟ يقال : هو عقد الاحتمال على تحقيق شيء . فإن قيل : ما الوهم ؟ يقال : هو قوة من قوى النفس الحيوانية مُتخيِّلة بها الأشياء .

فإن قيل : ما الإيمان ؟ يقال : هو التصديق بما يخبر به المخبر . فإن قيل: ما الإسلام ؟ يقال : هو التسليم بلا اعتراض . فإن قيل : ما الدين ؟ يقال : هو الطاعة من جماعة لرئيس يُنتظَر منه نيل الجزاء . فإن قيل : ما الكفر؟ يقال : هو الغِطاء . فإن قيل : ما الشّرك ؟ يقال: هو إثباتُ ربوبية اثنين . فإن قيل : ما الجحود ؟ يقال : هو إنكار الحق . فإن قيل : ما المعصية ؟ يقال : هي الخروج عن الطاعة . فإن قيل : ما الطاعة ؟ يقال : هي الانقياد لأمر الآمر ونهي الناهي . فإن قيل : ما المَعاد ؟ يقال : هو رجوع النفوس الجُزئية إلى النفس الكلية . فإن قيل : ما الثواب ؟ يقال : هو ما تجد كل نفس من الراحة واللذة والسرور والفرح بعد مفارقتها للجسد . فإن قيل : ما العقاب ؟ يقال : هو ما ينالها من الخوف والحزن والآلام بعد المفارقة للأجسام . وكل نفس بحسب ما اكتسبت تنال من الخير إن كان خيراً ، أو من الشر إن كان شرّاً . فإن قيل : ما المعروف ؟ يقال : هو فعل ما جرت به العادة ، ولم تنه عنه الشريعة والسُّنّة . فإن قيل : ما المُنكر ؟ يقال : فعل ما لم تجرِ به العادة لا في السُّنّة ولا في الشريعة . فإن قيل : ما أُجرة الأجير ؟ يقال : هي جزاء لما يستحق كل عامل بما يعمله .

فصل

الشكل هو صورة جسمانية ، واللون صورة روحانيـة ، وهمـا جميعا موجودان في الأشياء كلها ، إذا تأملها المتـأمل ، فيكونان في جنس الثمار ، يعني في شكل الثمرة ، موجودين لنضجها واستحالة الرطوبة اللطيفة الرقيقة إلى ما قد بدت لها ، إمّا من ذوات الرطوبة السيّالة ، وذوات الرطوبة المتكاثرة ، فتقدّم السيّالة لانحفاظ ، كالآلة تقوم مقام لحاء الشجر ، لحفظ رطوبتها ، وتمنع أن يلحقها الفساد ، والذوات الدهانة في ترتيبها أن نفس الثمرة تقبلها ، وتحفظها لئلا يلحقها الفساد[1] ، و « ذلك تقدير العزيز العليم » ليطبخ الحرارة الغريزية الكائنة في جميع الثمار ، وبلاغاً لها فهي لتصير من لا هيئة غير نافعة إلى هيئة نافعة ، لأن غرض الطبيعة إنضاجُ كل شيء تطبخه بالحرارة الغريزية ، لرطوبات الهيولى ، على ما هي مرتبة ترتيب الإله للمنافع التي من أجلها صار كذلك .

فإذا لم تقدر على ذلك لعرَض يعرِض لذلك ، إمّا لكون الرطوبات غالبة على الشيء ، فتتولد فيه العفونة فيكون دليلًا لفساد ؛ وإمّا لكون الرطوبات في الشيء ناقصة ، فيصير ما يتولّد فيه اليبوسة والخشن ، فيكون من ذلـك الفساد وبذورُ النبات عند ظهورها ، وبذورُ الزرع والشجر كلها حارّة رطبة ، لأن الحرارة في ذلك أكثر من الرطوبة ، والرطوبة التي فيها مانعة للحرارة . فلذلك يحدث الطراوة في بدئها .

ألا ترى إلى فعل الإنفَحة[2] التي تجمّد اللّبن الحليب بفضل حرارته ، واتّباع اللبن لها القبول منها ، لأن في الحرارة قوّى جاذبة تجذب الرطوبات إليها لتتغذى بها ، وتعيش ما دامت المادة من ذلك باقية . فإذا ازدادت البرودة والرطوبة

---

١ لا يخفى ما في الجملة من اضطراب وغموض .

٢ الإنفحة : شيء يستخرج من بطن الجدي الرضيع أصفر ، فيعصر في صدفة فيغلظ كالجبن . ويسمى كرشاً إذا أكل الجدي وترك الرضاع .

عليها، اختنقت الحرارة في باطن الأجسام، فأحرقتها، لأن الحرارة هي الفاعلة ، والرطوبة هي الهَيُولى القابلة للصورة. والحرارة أيضاً، بتمدّد الحركة إلى فوق، تكون في مَخرجها نحو اليمين والقُدّام ، وإلى فوق من ناحيـة القلب ، لأن القلب أفضل أجزاء البدن ، وليس بأفضل من البدن ؛ وعروق الشجرة أفضل أَجزائها ، وليس أفضل منها . فالصغار بكثرتها تقاوم الكبار لقلتها ، ومن أجل أن المُحرّك الأول واحـدٌ ، صار لكل كائنٍ فعلُه في مثـله مماثلاً للأول الواحد ، وكل مبدىء واحد أول ما ينبعث من القلب في بدن الحيوان ، فإنه يبدو منه عرقان اثنان : واحد لأعلى البدن ، والآخر لأسفله . ومن بدن النبات يبدو عِرقان : أحدهما ينزل إلى أسفل ويتناول المـادّة من الأرض والماء ، بحسب ما يكون سبب حياته ، والآخر يرقيه إلى فوق ليتغذى به ، فتكون منه تربية البدن والورق والثمر .

فصل

ثم اعلم أن العدد هو أحد الرياضات الحكمية ، وذلك أن الوحدة الموجودة في الواحد الموهوم هي أصل العـدد ومنشؤه ، وهو لا جزء له . والعدد هو كثرة الآحاد المجتمعة ، وهو صورة تُطبع في نفس العادّ من تكرار الوحدة . والمعـدودات هي الأشياء التي تـُعَدّ ، والحساب هو جمع العـدد وتفريقه ، والمحسوبات هي الأشياء التي عُرِفت مقاديرها .

فالعدد منه أزواج ومنه أفراد ، والزوج هو كل عدد له نصف صحيح ، والفرد هو كل عدد يزيد على الزوج بواحد . والعدد منه صحيح ومنه كسور ، فالعدد الصحيح هو كل ما يشار إليه بإحدى عشرة لفظة أصلية ، وهي: اثنان، ثلاثة ، أربعة ، خمسة ، ستة ، سبعة ، ثمانية ، تسعة ، عشرة ، مائة ، ألف ، ومـا تركب منها وهي هـذه : عشرون ، ثلاثون ، أربعون ، خمسون ،

ستون ، سبعون ، ثمانون ، تسعون ، مائة ، مائتـان ، ثلاثمائة ، أربعمائة ، خمسمائة ، ستمائة ، سبعمائة ، ثمانمائة ، تسعمائة ، ألف ، ألفان ، ثلاثة آلاف، أربعـة آلاف ، خمسة آلاف ، ستة آلاف ، سبعة آلاف ، ثمانيـة آلاف ، تسعة آلاف . وعلى ذلك تكرارُ اللفظ بالغاً ما بلغ .

والعدد الكسور هو كل مـا يشار إليه بتسعة ألفاظ مشتقة من نفسه، وهي هـذه : النصف ، والثلث ، والرُّبع ، والخُمس ، والسُّدس ، والسُّبع ، والثمن ، والتُّسع ، والعُشر ، أو مـا تركب منها مثـل : نصف نصف ، وثـُلث ثلث ، ورُبع ربع ، وخُمس خمس ، وسُبع سبع ، وما شاكلها من الألفاظ المركّبة من هذه التسعة . والعدد الذي مبدؤه من واحد في جميع أموره ومنتهاه إلى أربعة وهـذه صورة ذلك ١ ٢ ٣ ٤ وهـذه الأربعة ثبات أصله وما يتولد منه في كيفية فرعه ثم الباقي مركّب منها ، كما بيّنّا في رسالة الأرثماطيقي . وللعدد مراتب أربع: مراتب آحاد، ومراتب عشرات، ومراتب مئات ، ومراتب ألوف ، وله أيضـاً نظام وترتيب ذو فنون تجدهـا عند التصرّف فيها .

فمنها نظم طبيعي مثل ١ ٢ ٣ ٤ ٥ ٦ ٧ ٨ ٩ ١٠

ومنها نظم الأزواج على الوِلاء مثل هذه ٢ ٤ ٦ ٨ ١٠ ١٢ ١٤ ١٦ ١٨ ٢٠

ومنها نظم الأفراد على الوِلاء مثل هذه ١ ٣ ٥ ٧ ٩ ١١

ومنها نظم زوج الفرد مثل هذه ٦ ١٥ ١٤ ١٨

ومنها نظم زوج الزوج والفرد مثل هذه ١٢ ٢٥ ٢٨

ومنها نظم زوج الزوج مثل هذه ٢ ٤ ٨ ١٦ ٣٢

ومنها نظم الأفراد الأول مثل هذه ٣ ٥ ٧ ٩

ومنها المجذورات مثل هذه ٤ ٩ ١٦ ٢٥

ومنها نظم المكعّبات مثل هذه ٦ ٢ ٢ ٤ ٦

ومنها نظم المربّعات غير المجذورات مثل هذه ٦ ١٥ ١٤ ١٨ ٢٥ ٦٢

ولكل نوع من هذه الكيفية نشوء وكمية أنواع ، ولتلك الأنواع خواص قد ذكرنا طرفاً منها في رسالة العدد .

والنسبة هي قدر أحد العددين عند الآخر، والنسبة المتّصلة هي التي تكون قدر الأول إلى الثاني ، كقدر الثاني إلى الثالث، والمنفصلة هي التي تكون قدر الأول إلى الثاني كقدر الثالث إلى الرابع . والضرب هو تضعيف أحد العددين بقدر ما في الأول من الآحاد . والقسمة عكس الضرب ، والجذْر هو العدد المضروب في نفسه ، والمجذور هو المجتمع من ذلك . والمكعّب هو المجتمع من ضرب المجذور في الجِذر .

ثم اعلم أن الهندسة أصل الرياضات الحِكمية ، وعلمُ الهندسة هو معرفة الأبعاد والمقادير . فالأبعاد ثلاثة أنواع : الطول والعرض والعُمق . والمقادير ثلاثة أنواع : خطوط ، وسطوح ، وأجسام . فالخط هو مقدار ذو بعد واحد. والسطح هو مقدار ذو بُعدين . والجسم ذو ثلاثة أبعاد . والخطوط ثلاثة أنواع: مستقيم ، ومُقوّس، ومُنحن ، وهو المركب منهما . والسطوح ثلاثة أنواع : البسيط ، والمقعّر ، والمقبّب . والأجسام كثيرة الأنواع ، فمنها من جهة كثرة السطوح ، ومنها من جهة كثرة الأشكال ، ومنها من جهة الجميع.

فأما التي اختلافها من جهة كثرة السطوح فنذكر منها ثمانية أنواع : أولها الكُرَة وهي جسم يحيط به سطح واحد، ونصفُ الكُرة يحيط به سطحان، وربع الكرة يحيط به ثلاثة سطوح . والشكل الناري يحيط به أربعة سطوح، والشكل الأرضي وهو المكعّب يحيط به ستة سطوح، والشكلُ الهوائي يحيط به ثمانية سطوح ، والشكلُ المائي يحيط به عشرون سطحاً ، والشكل الفلكي يحيط به اثنا عشر سطحاً .

والسطوح كثيرة الأنواع: تارة من جهة الأضلاع، وتارة من جهة الزوايا، وتارة من الجميع . ولكن يجمعها كلها أربعة أنواع : المُثلّث ، والمُربّع ، والمدوّر ، والكثير الزوايا . فالسطح المثلّث ما يحيط به ثلاثة خطوط ، وله

ثلاث زوايا. والسطح المربع ما يحيط به أربعة خطوط وأربع زوايا. والدائرة سطح يحيط به خط واحد في داخله نُقطة كل الخطوط المستقيمة، الخارجة منها إليه ، متساوية من المركز إلى المحيط ، مساوٍ بعضهـا لبعض . والشكلُ الكثير الزوايا مثل المخمَّس ، والمسدَّس ، والمسبَّع ، وما زاد بالغاً ما بلغ . والزوايا ثلاث: قائمة ، وحادّة، ومنفرجة . فالزاوية القائمة هي التي بجنبها مثلها. والحادّة أصغر من القائمة . والمنفرجة أكبر من القائمة .

فصل

النبات هو كل جسم يتغذّى وينمو. والحيوان كل جسم متحرّك حسّاس. والإنسان حي ناطق مائت، وهو جُملة مركّبة من نفس ناطقة وبدن مائت. والجسم جوهر لطيف ، طويل ، عريض ، عميق . والصوت قَرع يحدُث في الهواء من تصـادم الأجسام . واللفظ كل صوت له هِجاء ، والكلام كل لفظ يدُلّ على معنى. وإن قيل: ما الصدق؟ فيقال : إيجابُ صفة الموصوف هي له، أو سلب صفة عن موصوف ليست له ؛ والكذب؟ فهو عكس ذلك . ويقال أيضاً : الصدق والكذب في الأقاويل ، والصواب والخطأ في الضمائر ، والخير والشر في الأفعـال ، والحق والباطل في الأحكام ، والضّرّ والنفع في الأشياء المحسوسة .

والدنيا هي مدة بقاء النفس مع الجسد إلى وقت افتراقها الذي يسمى الموت. والموت هو ترك النفس استعمال البدن . والآخرة هي نشوءٌ ثانٍ بعد الموت. ويقال أيضاً الموت هو بقـاء النفس بعد مفارقة الجسد ، وخلوها في عالمهـا . والجنة هي عالم الأرواح. وجهنم هي عالم الأجسام. والجنة أيضاً هي المرتبة العليا. وجهنم أيضاً هي المرتبة السفلى . فجنّة نفس النبـاتية صورة الحيوانية . وجنّة نفس الحيوانية صورة الإنسانية . وجنة نفس صورة الإنسانية صورة الملائكة.

ولصورة الملائكة مقامات ودرجات عند الله تعالى، وبذلك يكون بعضهم أشرف من بعض، كالمقرّبين منهم وغير المقرّبين.

والبعث هو انتباه النفوس من نوم الغفلة ورقدة الجهالة. والنوم هو اشتغال النفس عن الجسد بغيره مع شُمول عنايتها به. والقيامة قيام النفس من قبرها وهو الجسد الكائن الذي كانت فيه فزهدت وأبعدت عنه. والحشر هو جمع النفوس الجزئيّة نحو النفس الكليّة، واتحاد بعضها ببعض، إذ الجُزء أحد أجزاء الكل، والكل مجمع الأجزاء المنفصلة منه. وقولنا الاتحاد امتزاجُ الجواهر الروحانية، كامتزاج صوت الزّير والبمّ[1]، والحساب موافقةُ النفس الكلّية النفوسَ الجزئية، بما عمِلت عند كونها مع الأجساد. والصّراطُ هو الطريق المستقيم القاصدُ إلى الله تعالى.

فصل

الألوان المفردة هي البياض والسواد والحمرة والصُّفرة والخُضرة والزُّرقة والكُدرة. والأشياء البيض إنما تراها بيضاء لأسباب ثلاثة: أحدها لأن النور محبوس فيها، لغلبة الرُّطوبة، والرطوبة لونُها كاللبن؛ والثاني لأن النور مُولَج فيها لكثرة التخلخل كالمِلح؛ والثالثُ لأن النور محبوسٌ فيها لجُمود رطوبتها كالفِضّة.

على أن النور من وراء الأجسام المُشفّة يُرى أبيض، فإن عرض له عارض يُرى أصفر. والأشياء الصفرُ تُرى صفراء لأسباب تمنع النور أن يُرى صافياً، كالنار يراها صفراء، لأن حرارتها تسُدُّ مَسامّ البصر، فلا تَقدر قوةُ الباصرة إدراكَها على التمام. ومنها ما يُرى أصفر لأن الحرارة تسُدُّ مسامّها كالأشياء البيض إذا طُبِخت اصفرّت.

---

١ الزير: الدقيق من الأوتار. البم: الغليظ من الأوتار.

فأما علة رؤية الأشياء حُمراً فلشيئين : أحدهمـــا الأسباب المُعفّنات ، والآخر الأسباب المُذوّبات ، فالمُعفّنات لكثرة الرطوبة ، والمذوّبات لكثرة الحرارة ، كالشمس تراها حمراء ، عند كثرة البخارات الصاعدة إليها من جملة المياه والرطوبات ، وعند النّضج والإزهار والثّمار تؤدي من شدة الحرارة المُذوّبة . فقد تبين بهذا أن البصر إذا رأى النور من وراء الأجسام المُشفّة وغلبها أحد الأسباب الثلاثة رآها حمراء .

وأما الخضرة فهي من أجل غَلَبة الرطوبة الأرضيّة على النور ، ومنع البصر إياها ، أو منع النور أن يصير إلى البصر صِرفاً .

وأما السواد فهو منع الرطوبة الأرضية وصولَ النور إلى البصر ، أو منع البصر الوصول إلى النور ، لأن السواد يجمع البصر ، والبياض يفرّقه .

وكل الألوان الباقية متوسّطة بين هذين الطرفين ، وفعلها في البصر بحسب غلبة أحد هذين عليها .

والطعوم تسعة أنواع : وهي العُفوصة والقُبوضة والحُموضة والحَلاوة والمَلاحة والمَرارة والحَرافة والعُذوبة والدُسومة . والحلاوة تجعل اللسان أملس . والمرارة تجعل أجزاءه متفرقة خشِنة . والحِرّيف يزيد في ذلك . والمالح يفرّق ويجفّف . والعُفوصة تجمع وتقبض . والحموضة تُفرّق وتقبِض .

ثم اعلم أيها الأخ بأنك قاصد إلى ربكَ منذ خُلقت نُطفة في الرحم ، ورُبطت بها نفسُك ، تُنقَل كل يوم من حالة هي أدْوَنُ إلى حالةٍ أتمّ وأكمل وأشرف ؛ ومن مرتبة هي أنقصُ إلى مرتبة أخرى هي أعلى وأشرفُ ، وإلى منزلة هي أرفعُ ، إلى أن تلقى ربك وتشاهده ، ويُوفّيك حسابك ، وتبقى عنده نفسُك ملتذّة فرحانة ، مسرورة مُخلّدة أبد الآبدين ، ودهرَ الداهرين ، مع النبيين والصّدّيقين ، والشهداء والصالحين ، وحَسُنَ أولئك رفيقاً . وفّقك

الله وإيانا وجميعَ إخواننا إلى السَّداد ، وهداك وإيانا وجميعَ إخواننا سبيلَ الرَّشاد ، إنه رؤوف بالعباد !

تم القسم الثالث في العلوم النفسانيات العقليات ، من كتاب إخوان الصفاء ، وخُلّان الوفاء ، ويتلوه القسم الرابع في الناموسيّات الإلهيات ، أوله رسالة في الآراء والديانات .

الرسالة الاولى
في الآراء والديانات

في العلوم الناموسية الالهيـة والشرعية

(وهي الرسالة الثانية والأربعون من رسائل إخوان الصفاء).

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وسلامٌ على عِباده الذين اصطفى ، آللهُ خيرٌ أمّا يُشرِكون ؟

اعلم ، أيها الأخ ، أنـّا قد فرغنا من رسالة الحدود والرسوم التي هي آخر رسائل النفسانيات العقليات ، حسبَ ما وعدنا في فِهرسْت صدر كتابنا هذا ، فنريد الآن أن نذكر في هذا القسم الرابع الكلام في الإلهيات ، وهو الغرض الأقصى ، والغاية القصوى ، فنبدأُ أولاً بالرسالة الأُولى منها في الآراء والديانات فنقول :

اعلم أن الناس مختلفون في آرائهم ومـذاهبهم ، كما هم مختلفون في صُوَر أَبدانهم، وأَخلاَق نفوسهم وأعمالهم وصنائعهم. واعلم أن سبب اختلاف أخلاقهم هو من أربع جهات : إحداهـا من جهـة اختلاف تركيب أبـدانهم ومزاج أَخلاطهـا ، والأُخرى من جهـة اختـلاف تُرب بلادهم وتغيُّرات أهويتهـا والأزمان التي تنشأُ فيها، والأُخرى من جهة نشوئهم على عادات آبائهم في سُنَن دياناتهم ، وعلى عـادات من يربّيهم ويؤدّبهم ، والأُخرى من جهـة أشكال

الفلك ، ومواضع الكواكب في أُصول مواليدهم ، ومساقِط نُطَفهم ، وقد بينّا طرَفاً من هذا العلم في رسالة الأخلاق . ونريد أن نذكر في هذه الرسالة طرفاً من فنون اختلافات العلماء الذين هم أَصَّلُوا الآراء والمذاهب، وفرّعوا منها أنواع المقالات والأحكام ، وكم هي تلك الآراء والمذاهب، وما هي تلك الأسباب التي أدّت بالعلماء إلى الاختلاف ، وكم هي . ولكن قبل ذلك نحتاج أن نذكر أَجناس الأشياء التي اختلفوا فيها ، كم هي ، وما هي ، فنقول :

إن الأَشياء المُختلف فيها ثلاثة أنواع : أولها في الترتيب هي الأُمور المحسوسة ، وبعدها الأُمور المعقولة ، وبعدها الأُمور الإلهية المُبرهَنة . أما الأُمور المحسوسة فهي صوَرٌ في الهيولى تُدركها الحواسُّ المُباشِرةُ لها ، وتنفعل عنها ، كما بينّا في رسالة الحاسّ والمحسوس .

وأما الأُمور المعقولة فهي رسوم تلك المحسوسات التي أدّتها الحواسُّ إلى القوّة المتخيلة، إذا بقيت مُصوّرة في الأوهام بعد غيبة المحسوسات عن مباشرة الحواسّ لها ، كما بينّا في رسالة العقل والمعقولات .

وأما الأُمور الإلهية المبرهَنة فهي أشياء لا تُدركها الحواسّ ، ولا تتصوّرها الأوهام، ولكن الدليل والبراهين الصادقة باعثةٌ للعقول إلى الإقرار بها والقبول لها ، كما نبيّن ذلك في كتب الهندسة وبيان المنطقية جميعاً. مثال ذلك أنه قد قام البرهان في كتاب أُقليدس على أن كل مقدار ذي نهاية ، أيّ مقدار كان ، جسماً كان ، أو سطحاً ، أو خطّاً ، فإنه يمكن أن يوجد منه ظِلّ دائماً أبداً لا يفنى . وهذه الحكمة مما لا تُدركها الحواسُّ ، ولا تتصوّرها الأوهام البتّة . وأمثال هذه الحكمة كثيرة في هذه الكتب ، وفي غيرها من كتب الهندسة . وهكذا أيضاً قد قام البرهان بطريق المنطِق الحِكْميّ الفلسفي على أن خارج العالم لا خلاء ولا ملاء . وهذه الحكمة أيضاً مما لا تُدركها الحواسّ ولا تتصورها الأوهام . وأَمثال هذه الأشياء كثيرة معروفة عند العلماء ، بخاصّة إقرار الموحّدين لله والعارفين به بأن الله

تعالى حيٌّ ، قادر ، عالم ، حكيم ، خالق ، لا يوصَف بالقيام ولا بالقعود ، ولا الدخول ولا الخروج ، ولا الحركة ولا السكون ، وما شاكل ذلك من الأوصاف مما يوصف بها النفسُ والعقل الفعّال ، والصوَر المجردة من الهيولى ، وما شاكلها من الجواهر البسيطة المُسمَّين الملائكة والرُّوحانيين . وذلك أن الحواسّ لا تدركها ولا تتصوّرها الأوهام بوجه من الوجوه ولا سببٍ من الأسباب .

فأما أوصاف الجاهلين بالله فهي أنهم يصفون الله تعالى بصفات المخلوقين بعد أن نزّه الله تعالى نفسه عن ذلك بقوله : « سبحان الله عمّا يصفون إلاّ عباد الله المخلصين » . فقد تبيّن إذن مما ذكرنا أن الأمور المُبرهَنة التي لا تدركها الحواس ولا تُصوّرها الأوهام ، ولكن البرهان الضروري والحجة القاطعة يضطران العقول إلى الإقرار بها مقرّرة .

ثم اعلم أن البراهين هي ميزان العقول ، كما أن الكيل والذّرع والشاهين موازينُ الحواسّ ، وكما أن الناس إذا اختلفوا في حَزْر شيء وتخمينه من الأشياء المحسوسة ، رجعوا إلى حُكم الكَيل والذّرع ، ورضُوا بها ، وارتفع الخُلف من بينهم ، فهكذا العقلاء الذين يعرفون البراهين الضّرورية ، إذا اختلفوا في حُكم شيء من الأشياء التي لا تُدرَك بالحواس ، ولا تُتصوَّر بالأوهام ، رجعوا عند ذلك إلى دليل وبُرهان ، وما ينتج من المقدمات الضرورية ، وأقروا بها ، وقبلوها ، وإن كانت لا تُدركها الحواس ، ولا تتصوّرها الأوهام ، لأنهم يرون الإقرار بالحق أولى من التمادي في الباطل . وقد تبين مما ذكرنا أن الأمور المُختلفة فيها ثلاثة أجناس حَسْبُ ، التي هي المحسوسة أو المعقولة أو المبرهنة . ونريد أن نذكر الآن كميّة أسباب اختلاف الناس في إدراكهم من كم وجهٍ يكون .

فصل

في بيان اختلاف كمية إدراك المعلومات

فنقول : اعلم أن أسباب اختلاف الناس في إدراك هذه الأُمور الثلاثة التي تُعلَم وتُعرَف من ثلاث جهات : إحداها دقة المعاني ولطافتها وخَفاؤها ، والثانية فنون الطرق المؤدّية إليها الأسبابُ المُعِينةُ على إدراكها ، والثالثة تفاوت قُوى نفوسهم الدرّاكة لها في الجودة والرداءة ، وهي الأصل والسبب في اختلافهم في الآراء والمذاهب ، وسائرُها فروعٌ عليها ، ونحتاج أن نشرح هذا الباب فنقول :

لما كان الإنسان إنما هو جُملة مجموعة من جسد جسماني ونفس روحانية ، صار يُقوّي نفسه الروحانية بدَرَك المعقولات ، كما أن بأعضاء جسده الجسماني يَعمَل الصنائع ، لأن كليّة العلوم موضوعة بإزاء قوى نفوس جميع الناس ، كما أن كُليّة الصّناعات البشرية موضوعة بإزاء قوى أجساد جميع الناس ، وذلك لأنه لا يتهيأ لإنسان واحد بقوته الجُزئية الاستنباطُ بجميع العلوم ، والاحتيالُ لسائر الصنائع ، وذلك أن لنفسه قُوًى كثيرة ، وله بكل قوة منها أفعال عجيبة ، كما أن لجسده مفاصِلَ كثيرة وأعضاءً طريفة ، وله بكل عضو من جسده حركات مختلفة ، كما بيّنا طرفاً من هذا الفن في رِسالة تركيب الجسد .

ولكن نريد أن نذكر هنا ثمانية أنواع منها ، وهي القوى الدرّاكة للمعلومات ، ونبدأ أولاً بذكر القوى الحسّاسة الخمس ، إذ كانت هي أول قوى النفس التي ينال بها الإنسان العلوم والمعارف ، ثم نذكر القوة المتخيّلة التي مَسكِنها مُقدّم الدّماغ ، ثم القوة المُفكّرة التي مَسكِنها وسط الدماغ ، ثم القوة الحافظة التي مَسكِنها مؤخر الدماغ .

ثم اعلم أن الناس متفاوتون في الدرجات في هذه القوى بين الجودة والرداءة في إدراكهم المعلومات ، تفاوتاً بعيداً ، وهي أحد أسباب اختلافهم في الآراء والمذاهب ، وذلك أن من الناس من يكون حادّ البصر يرى الأشياء الصغيرة البعيدة ، ومنهم من يكون دون ذلك ، ومنهم من لا يُبصر شيئاً البتّةَ .

وهكذا تجد حالهم في القوة السامعة ؛ وذلك أن منهم من يكون جيّد السمع يسمع الأصوات الخفيّة ، ويميّز بين النغمات الموزونة والمُنزَحِفة ، ومنهم من يحتاج في ذلك إلى مفاعيل العَروض ، ومنهم من لا يُحس بشيء من ذلك .

وعلى هذا القياس يكون حُكمهم في سائر قوى حواسّهم من الذوق واللمس والشّم ، وهكذا حُكمهم في ذكاء نفوسهم ، وجودة قرائحهم ، وصفاء أذهانهم ، وذلك أنك تجد كثيراً من الناس من يكون جيّد التخيُّل ، دقيق التمييز ، سريع التصوّر ، ذَكُوراً حَفوظاً ، ومنهم من يكون بليداً بطيء الذّهن ، أعمى القلب ، ساهي النفس ، فهذا أيضاً أحد أسباب اختلاف العلماء في الآراء والمذاهب ، لأنه إذا اختلفت إدراكاتهم اختلفت آراؤهم واعتقاداتهم بحسب ذلك .

فصل

ـ في بيان علة اختلاف إدراك القوى العلامة ـ

فنقول : اعلم أن هذه التفاوُتات التي ذكرنا من هذه القوى الدرّاكة العلاّمة ليست هي من أجل أنها مختلفة في ذواتها بين الجودة والرداءة ، ولكن من أجل اختلاف أحوالها في إدراكها صُوَرَ المعلومات ، وأن علة اختلاف أفعالها هو من أجل اختلاف أدواتها واختلاف آلاتها في الجودة والرداءة . وذلك أنه لما كان كل عضو من الجسد هو آلة وأداةٌ لقوّة من قوى النفس ، وكانت أعضاء

الجسد مختلفة الهيئات المتفاوتة في الجودة والرداءة في بعض الناس أو في بعض الأحايين ، اختلفت أفعالُ هذه القوى بحسب تلك الاختلافات . مثال ذلك الحدَقتان فإنهما عُضوان من الجسد ، وهما أداتان للقوّة الباصرة ، فإذا كانتا سليمتين من الآفات العارضة، صحيحتين صافيتين مَجليتّين، تراءت فيهما صُوَر المرئيّات المُقابلات لهما ، كما يتراءى في المرايا صُوَر الأشياء المقابلة لها ، فأدركت هذه القوّة تلك المُبصَرات على حقائقها . فأمّا إذا كانتا على غير ما ذكرنا لعارض من الآفات ، عاقت القوّة الباصرة عن إدراكها محسوساتها . وهكذا أيضاً القوّة السامعة ، وذلك أنه متى كانت أدواتها التي هي صِماخا[1] الأُذنين مفتوحتين نقيّتين من الأوساخ ، سليمتين من الآفات العارضة ، طنّت فيهما الأصوات بهيئتها ، فأدركتها القوّة السامعة بحقائقها . وإذا كانت على غير ما ذكرنا لعارض من الآفات، عاقت عن إدراكها المسموعات. وهكذا أيضاً القوّة الشامّة متى كانت خياشيم المنخِرين مفتوحة، نقيّة من البُخارات الغليظة، سليمة من الآفات العارضة ، أدركت القوّة الشامّة الروائح ، وميّزت بينها وعرفتها . ومتى عرض هناك بخارٌ أو زُكام أو آفة عُوّقت عن إدراكها وتمييزها. وهكذا أيضاً القوة الذائقة متى كانت الرطوبة المُستبطنة التي في جرم اللسان معتدلةً سليمةً من الآفات العارضة ، أدركت طُعوم الأشياء المَذُوقة بحقائقها ، وعرفت التمييز بينها . ومتى غلب على تلك الرطوبة خِلط أو مِزاج خارج عن الاعتدال ، عُوّقت عن إدراكها الطعوم والتمييز على حقائقها . وهكذا أيضاً القوّة اللامسة ، فإنه متى عرضت آفة للأعصاب المُنتَسِجة بين خَلل اللحم والجلد ، عُوّقت عن إدراكها الملموسات . وهكذا أيضاً حالات القوة المتخيّلة ، فإنه متى كان مُقدّم الدماغ معتدلاً سالماً من الآفات ، تخيّلت فيه رسوم المحسوسات التي أدّتها إليها القوّة الحساسة بحقائقها ، وقبلتها بهيئاتها ،

---

١ الصماخ : خرق الاذن .

ومتى عرضت آفة كما يعرض في الأمراض الحادثة المُفرطة ـ كما ذُكِر في كتب الطب ـ عَوّقتها عن فعلها وتخيّلها رُسومَ المحسوسات، كما يعترض للمُبرسمين[1] وصاحب الماليخوليا . وهكذا أيضاً حكم القوّة المفكّرة المُستَبطِنة وسطَ الدماغ ، متى كان معتدلاً على الأمر الطبيعي ، سالماً من الآفات العارضة ، كان فكرُ الإنسان ورؤيته وتمييزه وفهمُه على ما ينبغي . ومتى عرضت هناك آفة لعارض من الأعراض ، أو خروج عن الاعتدال ، عَوّقت النفس عن إشراف أحوالها وأفعالها التي هي الفكر والتمييز والرويّة والتحصيل وما شاكلها. لأن هذا العضو من أشرف الأعضاء بعد القلب . وهكذا أيضا حكم القوة الحافظة المُستبطِنة مُؤخّر الدماغ في التذكار والنسيان .

وإنما ذكرنا في هذا الفصل هذه الأشياء لأن من هذه القوى تكون معارف الحيوان كلّها، ومن تعاون أدوات هذه القوى بالمعاونات اللائقة تزيد في قواها، ومن تفاوتها يكون اختلاف معارفها في الجودة والذكاء أكثر وأقلّ ، وهي الأصل في جميع العلوم والمعارف . ومن تفاوت أفعال هذه القوى يكونُ أكثر اختلاف الناس في معلوماتهم ، ومنازعات العلماء في آرائهم ومذاهبهم . وخصلة أخرى أيضاً أن كثيراً من العلماء ممن ينظر في علوم النفس ويتكلم في أحوالها يظن أن لها قُوًى وأفعالاً وأخلاقاً مختلفة تفعل بها اختلافاتٌ مختلفة ، ولا يدرون أنّ اختلاف أحوالها وأخلاقها إنما هو من جهة اختلاف أدواتها في الهيئة والجودة والرداءة التي كل واحد منها عضو منَ الجسد، كما بيّنّا ذكرها، وخصلةٌ أخرى أن كثيراً من العلماء الطبيعيين والمنطقيين لما اعتبروا هذا الرأي الذي ذكرنا من أن النفس إنما هي مزاج البدن ، لما رأوا من تغيير أفعال الحيوان وأخلاقها عند تغيير مزاج الأعضاء ، واختلاف هيئاتها ، وخاصّةً تغيير أفعال الإنسان وأخلاقه عند الأمراض ، وعند تغيير مزاج هذه

---

[1] المبرسمين : المصابين بالبرسام ، وهو التهاب في الحجاب الذي بين الكبد والقلب .

الأعضاء واحداً واحداً .

فأمّا الإلهيون فيرون خلاف ذلك ، وقد ذكرنا أقاويلهم في خلال رسائلنا الإحدى والخمسين ، وذكرنا البراهين عليها في الرسالة الجامعة . فهذا الذي ذكرنا في هذا الباب هو أحد أسباب اختلاف الناس في معارفهم ومعلوماتهم المؤدّية بهم إلى اختلاف الآراء والمذاهب .

وأما السبب الثاني الذي هو من جهة دِقة المعاني ولطافتها وجلائها وظهورها فهو مثلُ التفاوت الذي بين الأُمور الجسمانية الظاهرة المُدرَكة بالحواسّ ، وبين الأُمور الروحانية الخفيّة عن إدراك الحواس التي لا تُعلَم إلاَّ بدلائل العقول ونتائج البراهين ، كما تقدم ذكرها . وهذا الباب هو أكثر أسباب اختلاف العلماء في آرائهم ومذاهبهم .

وأما الوجه الثالث من الأسباب المؤدّية للناس إلى اختلافهم في معلوماتهم فهو استعمالهم القياسات المختلفة ، وطُرُقاتُ استدلالاتهم المتفاوتة ، وهذا الباب هو أكثرها تفرّعاً وتشعُّباً ، وهو اكتساب منهم ، وعليه يُجازَون من الذّم والمدح والثواب والعقاب . وأما الوجهان الأولان فليس باختيار منهم ، ولا اكتِساب لهم فيه .

فصل في بيان كمية القوى العلاّمة

وإذ قد تبين مما ذكرنا أسباب اختلاف الناس في مدركاتهم من الأُمور المُختلِفة فيها ، من كم وجهٍ يكون ، وكان أحد الوجوه تفاوتَ القُوى الدرّاكة العلاّمة التي هي أربعة أنواع : الحساسة والمتخيلة والمفكّرة والحافظة ، وقد تقدم شرح تفاوتها في الجودة والرداءة قبل هذا ، فنريد أن نذكر في هذا الفصل الأسباب المُعِينة لها على إدراكها مُدرَكاتها ، والمُعوّقة لها عن ذلك . ونبدأ أولاً بذكر القوى الحساسة ، ثم نذكر القوى المتخيلة ، ثم

المفكّرة ، ثم الحافظة .

فأما بيان ما تحتاج كل حاسّة من الشرائط في إدراكها محسوساتها حسبما نبيّن هاهُنا ، فنقول : ان كل حاسّة من الحواسّ الخمس تحتاج في إدراكها محسوساتها إلى شرائط معدودة ، لا زائدة ولا ناقصة ، فمتى عَدِم واحدة من تلك الشرائط أو بعضٌ ، أو زاد أو نقص عن المقدار الذي ينبغي ، عوّقها عن إدراك محسوساتها على حقائقها . مثال ذلك القوّة الباصرة فإنها تحتاج في إدراكها المُبصَرات إلى ضوء مّا ، وإلى بعد مّا ، وإلى محاذاةٍ مّا ، وإلى وضعٍ مّا ، فمتى عَدِم شيء منها ، عاقها ذلك عن إدراك المُبصَرات بحقائقها. وذلك أنه لا يمكنها إدراكُ الضياء المُفرِط والنور الباهر ، كما لا يمكنها إدراك المُبصَرات في الظلمة الظلماء . وذلك أن الإنسان لا يمكنه النظر إلى عين الشمس نصفَ النهار في يوم صائف ، كما لا يمكنه رؤيةُ الأشياء الصغار في الظلمة الظلماء ، ولا رؤيتها في البُعد الأبعد ، ولا في القُرب الأقرب ، إذا وُضِعت يده مثلاً قُرب الجفن ، ولا رؤيتُها من غير محاذاةٍ ، ولا رؤيةُ الأشياء المتحرّكة الشديدة الحركة ، كالنبل المارّ ، متى رُمِي عن قوس شديدة .

وعلى هذا القياس حكم سائر الحواس فإنها تحتاج في إدراكها محسوساتها إلى شرائط معدودة ، فمتى عَدِمت واحدة منها أو نقصت عن المقدار أو زادت عليه ، عوّقها عن إدراك محسوساتها .

فصل

في بيان ما لكل حاسة من المحسوسات بالذات

فاعلم أن لكل حاسة محسوساتٍ مختصة ً لها بالذات، ومحسوساتٍ بالعرَض، وهي لا تخطىء في المُدرَكات التي هي لها بالذات، ولكن في التي لها بالعرَض. مثالُ ذلك البصر فإن المُبصَرات لها بالذات هي الأنوار والضياء والظُّلَم . وأما الألوان فإن ذلك لها بتوسُّط النور والضياء. وأما سائر الأجسام وسطوح أشكالها وأوضاعها وأبعادها وحركاتها فهو بتوسط اللون ، وذلك أن كل جسم لا لون له ، لا يُرى ولا يدركه البصر .

ثم اعلم أن البصر هو أشرف الحواس وأشدّها تحقيقاً لمدركاته كما يقال : ليس الخبر كالمعاينة ، وبين الحق والباطل أربعُ أصابع يعني بين العين والأذن. ولكن ، مع شرفه وتحقيقه لمدركاته ، عظيم الخطإ ، كثير الزلل ، وذلك أن الإنسان ربما يرى الشيء الصغير كبيراً ، أو الكبير صغيراً، أو القريب بعيداً، أو البعيد قريباً ، كما يرى الدرهم، في قعر بركة صافي الماء ، قريباً كبيراً .

وهكذا يرى في ما وراء البخار الرطب ، يرى الشيء أعظم مما هو ، فكذلك ربما يرى الإنسان الشيء المتحرّك ساكناً ، والساكن متحرّكاً ، كما يرى من يكون في الزورق إذا نظر إلى الشطوط ، فإنه يرى الأشخاص الساكنة متحرّكة ، ويرى نفسه ومن معه ساكناً .

وهكذا ربما يرى الشيء المستقيم مُعْوَجّاً ، والمنتصب منكوساً ، كما يرى العود المنتصب في الماء . وربما يرى الشيء المرتفع منخفضاً ، والمنخفض مرتفعا، كما يرى سقف الرّواق وأرضه في البعد متقاربين ، وما شاكل هذه الفنون ، كما ذُكِر عِللُها في كتاب المناظر بشرحٍ طويل . وإذا كان الخطأ والزلل ، الذي يدخُل على الإنسان العاقل المُميّز من جهة مُدرَكات البصر الذي هو

أشرف الحواسّ ، وأجلُّ القوى الدرّاكة ، هذا القَدْر ، فما ظنُّك يا أخي بما دونها من سائر الحواس والقوى الدرّاكة على هذا المثال ؟

فصل

في بيان الحواس التي لا تخطىء في إدراكاتها المُدركات التي هي لها بالذات

فنقول : اعلم أن لكل حاسة مُدرَكات بالذات ، ومُدرَكات بالعَرَض ، وهي لا تخطىء في مدْرَكاتها التي لها بالذات ، وإنما يدخل عليها الخطأ والزّلل في المُدْرَكات التي لها بالعرض . مِثال ذلك البصرُ فإن الذي له من المدركات بالذات هي الأنوارُ والظلمة ، وهي التي لا تُخطىء في إدراكها في جميع الأوقات البتّة . فأمّا إدراكها الألوانَ والأشكالَ والأوضاعَ والأبعاد والحركات وما شاكلها ، فهي تُدرِكها بتوسط النور والضّياء على الشرائط التي ذكرناها . وقد يدخل عليها الخطأ والزلل في ذلك ، إذا نقصت الشرائط التي تحتاج إليها .

وعلى هذا القياس يجري حُكم سائر الحواسّ ومحسوساتها ، فتعقّل يا أخي في هذا الباب ، فإن الذين دفعوا حقائق الأشياء وكيفيّاتها والنظَر فيها ، وأنكروها ، من هذا الباب أُتُوا .

أما القوة السامعة التي لها بالذات هي بالأصوات والنغمات حَسبُ ، والتي للذائقة هي الطعوم حسبُ ، والتي للشامّة هي الروائح حسبُ ، والتي للّامسة فهي عدة أشياء قد ذكرناها في رسالة الحاسّ والمحسوس ، فاعرفها من هناك .

ثم اعلم أن لكل قوة من هذه الحواس الخمس خاصيّةً ليست للأخرى ، ولكن الخاصيّة التي تعمها هي أنها لا تُخطىء في مُدْرَكاتها ، إذا تمت شرائطها ، ولم يَعرِض لها عائق ، وخاصّةٌ أخرى أنها لا تُدرِك كل واحدة منها محسوسات

أخواتها التي لهـا بالذات . مثـالُ ذلك البصر فإنه لا يُدرِكُ الأصوات ولا الروائح ولا الطعوم ، وهكذا أخواتها ، ولكن بما تشترك في المحسوسات اللاتي لهن بطريق العرَض مثل الحركة ، فإنها تُدرَك وتُعلم بالبصر واللمس والسمع جميعاً .

فصل

في بيان زيادة القوى التي في حواس الإنسان

فنقول : اعلم أن الله تعالى خلق في حواسّ الإنسان زيادةَ قوةٍ ، وجودة تمييز ، ما لم يجعل في حواسّ سائر الحيوانات ، وبخاصّةٍ في القوة اللامسة فضّله عليها ، وكرّمه بها ، كما جعـل في قوة يديه من الصنـائع العجيبة ، وفي قوة لسانه من اللغات المختلفة ، ما لم يجعل في أيديها ولا في ألسنتها ، كما هو بيّنٌ ظاهر جَليٌّ لا يخفى على أحد من العقلاء . وقد يظن كثير من الناس العقـلاء أن بعض الحيوانات يفهم معاني الكلام ويمتثل الأمر والنهي ، ولكن لا يَقدر على الكلام كمثل الفيل ، والفرس الجواد ، والجمل ، والغنم ، والبقر ، والكلب ، والسِّنّور ، والقِردة ، والببَغاء ، وأمثالها من الحيوانات المُسخَّرة للإنسان ، المُستأنِسة به ، المنقادة لخدمته . ولعمري إنها تفهم معاني بعض الكلام ، كالزّجر والأمر والنّداء ، ومـا شاكلها التي هي بعضُ أقسام الكلام . فأمـا أن تفهم معاني الخبر والسؤال والجواب والاستفهام فلا . وقد بيّنّـا علة ذلك في رسالة الحيوانات .

ثم اعلم أن الإنسان مع استماعه الأصوات ، وتمييزه بالنغمات ، يفهم معاني اللغات والأقاويل والكلمات ، كما أنـه ، عند نظره إلى الخطوط والكتاب ، يفهم ما يتضمّنُها من معاني الكلام والعبارات ، مـا لا يفهم عليهـا غيرُه من الحيوانات

ثم اعلم أن من هاتين الطريقتين أكثرَ معلومات الإنسان التي ينفرد بها دون سائر الحيوانات .

واعلم أن بني الإنسان في هاتين القوّتين متفاوتو الدرجات تفاوُتاً بعيداً جدّاً ، وذلك أن من الناس من لا يفهم إلاّ لغةً واحدة ، ولا يعرف أيضاً من معاني تلك اللغة ، من الأشياء والألفاظ والأقاويل ، إلاّ شيئاً قليلًا. ومن الناس من يفهم عِدّة لغات ويُحسن أن يقرأ عِدّة كتابات ، ويفهم من كل لغة أسماء وألفاظاً وأقاويل كثيرة ، ويفهم معاني دقيقة ، ما لا يفهم غيره من الناس . وهذه أحد أسباب اختلاف الناس في المعارف ، واختلاف العلماء في الآراء والمذاهب .

فأما بيان كميّة معلومات الإنسان حسبما نذكره هاهنا فنقول : إنه لما كان جميع معلومات الإنسان من جهة الزمان ثلاثة أنواع فحسبُ ، فمنها ما قد كان مع الزمان الماضي ، ومنها ما سيكون في المستقبل ، ومنها ما هو كائن في الوقت والزمان والحاضر. ولما كان أحدُ الطرق ، التي تُعلّم الإنسانَ الأمور الماضية مع الزمان ، استماعَ الأخبار ، وكان رُبَّ مخبرٍ كذاب ، ورُبَّ مستمع له مُصدّق ، وهكذا أيضاً رُبَّ مخبرٍ صدوق ، ورُبَّ مستمع له مكذب . وعلى هذا القياس أيضاً حُكم الأخبار عن الكائنات قبل كونها ، وعن الأشياء الموجودة في الزمان الغائبة بالمكان . فهذا أيضاً أحد أسباب اختلاف الناس في المعلومات ، واختلاف العلماء في الآراء والمذاهب .

فصل

في بيان ما يخص الإنسان من المعلومات

فنقول : إن الله لما خلق الإنسان الذي هو آدم أبو البشر ، عليه السلام ، وفضّله على كثير ممن خلق قبله تفضيلًا جعل إحدى فضائله كثرةَ العلوم وغرائب المعارف ، وجعل له إليها عِدّة طرقات : فمنها طُرق الحواسّ الخمس التي بها يُدرك الأمور الحاضرة في المكان والزمان ، كما بيّنّا في رسالة الحاس والمحسوس . ومنها طريق استماع الأخبار التي ينفرد بها الإنسان دون سائر الحيوانات ، يفهم بها الأمور الغائبة عنه بالزمان والمكان جميعاً ، كما ذكر الله تعالى ومَنّ به عليه فقال : « خلق الإنسان علّمه البيان . » ومنها طريق الكتابة والقراءة يفهم بها الإنسان معاني الكلام واللغات والأقاويل ، بالنظر فيهما عمن لم يره من أبناء جنسه مع الزمان ، أو من هو غائب عنه بالمكان ، كما قال الله ومَنّ به على الإنسان ، فقال لنبيه محمد ، عليه الصلاة والسلام : « اقرأ وربك الأكرم الذي علّم بالقلم علّم الإنسان ما لم يعلم . » وبهذه الفضيلة شارك الإنسانُ الملائكة الكرام ، كما قال الله تعالى : « وإن عليكم لحافظين كراماً كاتبين يعلمون ما تفعلون » .

واعلم أن فهم القراءة والكتابة ومعرفتها متأخرة عن فهم الكلام والأقاويل ، كما أن فهم الكلام والأقاويل ومعرفتها إنما هي متأخرة عن فهم المحسوسات ، كما هو بيّنٌ ظاهرٌ لا يخفى على العقلاء ، وذلك أن الطفل إذا خرج من الرّحِم فإنه في الوقت والساعة تُدرك حواسُّه محسوساتها ، فيحس بالقوّة اللامسة الخشونةَ واللينَ ، وبالقوة الباصرة النور والضياء ، وبالقوة الذائقة طعمَ اللبن ، وبالقوّة الشامّة الروائح ، وبالقوّة السامعة الأصوات ، ولكنه لا يعلم معاني الكلام والأصوات إلا بعد حين . فأول شيء يُحس باللمس ،

فيتألم ، لأن حاسّة اللمس أعمُّ الحواس . ثم يُحس بالطعم فيميِّز لبن امه من غيره . ثم يميِّز بين الروائح، فيعرف الشّم. ثم يميِّز بين الصوت الشديد الجهير، وبين الصوت الضعيف الخفيف . ثم يُفرِّق بين الصوَر . ثم يميِّز على مر الأوقات بين نغمة الأُم ونغمة الأَب والإخوة والأخوات والأَقرباء وغيرهم. ثم شيئاً بعد شيء ، على التدريج ، وعلى هذا المثال فهمه ومعرفته بسائر الحواسّ ومحسوساتها ، إلى أن تتِمّ سِنِ التربيـة ، ويُغلـَق بابُ الرضـاع ، ويُفتَح الكلام والنُّطق . ثم بعـد ذلـك تجيء أيام الكتابة والقراءة ، والآداب ، والصنـائع ، والرياضيات ، وسَماع الأَخبـار والروايات ، والفقـه في الدين ، والنظر في العلوم والمعـارف ، وطلب حقائق الموجودات ، والبحث عن الكائنات، والاستدلال بالحاضرات على الغائبات، والمحسوسات على المعقولات، وبالجسمانيات على الروحانيات ، وبالرياضيات على الطبيعيات ، وبالطبيعيات على الإلهيّـات التي هي الغـاية القُصوى في العلوم والمعـارف ، والسعادةُ الأبدية والدوام السرمدي . بَلـَّغك الله وإيانا إلى هذه الغاية ، وشرح صدرك ، وفتح قلبـك ، ونوّر فهمك ، وصفّى نفسك ، وحسّن أخلاقك ، وأصلح شأنك ، وزكّى أعمالك ، وأنعم بالك ، وأكرمك بما أنعم به على أوليائه وأنبيائه بما علّمهم من البيان والكتاب ، كما قال تعـالى : « ثم أورثنـا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا » .

فصل في بيان القوة المتخيلة

فنقول: إنّا قد ذكرنا طرفاً من أحوال القوّة الحاسّة، وكيفية التفاوتات التي بينها في إدراكها محسوساتها، وما الأسبابُ المُعينة لها على ذلك والمُعوّقة لها عنها فيما تقدم، فنريد أن نذكر طرفاً في هذا الفصل من أحوال القوّة المتخيلة التي مسكنها الدماغ، إذ كانت التالية للقوى الحساسة في تناولها رسوم المحسوسات منها. ونذكر أيضاً بعض الأسباب المُعينة على أفعالها، والمعوّقة عن ذلك. ونذكر تفاوت درجات الناس في هذه القوّة، إذ كان ذلك أحد أسباب اختلافهم في العلوم والمعارف والآراء والمذاهب. ولكن من أجل أن هذه القوة أكثرُ القوى الحسّاسة مُتخيّلات، وأعجبُها أفعالاً، احتجنا أن نذكر علّة ذلك فنقول: إن لهذه القوى خواصّ عجيبة، وأفعالاً ظريفة، فمنها تناولُها رسوم سائر المحسوسات جميعاً، وتخيُّلها بعد غيبة المحسوسات عن مشاهدة الحواسّ لها. ومنها أيضاً أنها تتخيّل وتتوهم ما له حقيقة، وما لا حقيقة له، بعد أن عُرِف بسائطها بالحسّ، إذ له من القوة ما يقدِر أن يوافي الصوَر التي أدّاها الحس إلى النفس في هَيُولاه كيف شاء، لأنه كان يجدها مجرّدة عن الهيولى التي هي ماسكة للصور، ومختفية بعضها دون بعض. فإذا أخذها مجرّدة لا إمساك لها ولا ربط، أمكنه أن يؤلّف بينها كما شاء ويركّبها، ويَصِل بعضَها ببعض ما لم تكن متصلة بالهَيولى. مثال ذلك أن الإنسان يمكنه أن يتخيّل بهذه القوة جملًا على رأس نخلة، أو نخلةً ثابتة على ظهر جمل، أو طائراً له أربع قوائم، أو فرساً له جناحان، أو حماراً له رأس إنسان، وما شاكل هذه مما يعمله المصوّرون والنقّاشون من الصوَر المنسوبة إلى الجن والشياطين وعجائب البحر، مما له حقيقة، ومما لا حقيقة له.
وإنما يستوي للإنسان بهذه القوّة المتخيّلات والتصوُّر لها لعلتين اثنتين: إحداهما من أجل أن هذه المتخيّلات يجتمع عندها موادُّ كثيرة من رسوم

المحسوسات ، مع اختلاف أجناسها ، وفنون أنواعها وسائر أشخاصها ، فهي يمكنها بهذا السبب أن تُركّب منها ضروبَ التراكيب مما له حقيقة في الهَيُولى ، ومما لا حقيقة له .

والعلة الأُخرى من أجل شرف جوهر النفس ولطافتها ، وشدّة روحانيتها ، وسهولة قَبُولها رسوم المعلومات في ذاتها وتصوُّرها لها ، وذلك أن كل هَيولى تكون ألطف جوهراً ، وأشدّ روحانية ، فإنها تكون لقبول الصُّوَر أسرعَ انفعالاً ، وأسهل قَبولاً . مثالُ ذلك الماء العَذْب فإنه لما كان ألطف جوهراً من التراب ، صار لقَبول الطُّعوم والأَصباغ أسرعَ انفعالاً ، وأسهل قَبولاً لنظافته وعذوبته وسيلانه . وهكذا لما كان الهواء ألطف جوهراً من الماء ، وأشد سَيَلاناً ، صار قَبُوله للأصوات والروائح أسرعَ انفعالاً وأسرع قبولاً . وهكذا لما كان الضياء والنور ألطف من الهواء صار قَبولهما للألوان والأشكال أسرعَ وأشدّ روحانية . فكيف لطافةُ النفس وروحانيتها ! ولعل هذا الباب يخفى على كثير ممن ينظر في دقائق العلوم من المحسوسات ، فكيف بالنظر في الأُمور الروحانية ، وذلك أن جوهر النفس ألطفُ وأشدُّ روحانيةً بكثير من جوهر النور والضياء . والدليل على ذلك قَبولها رسومَ سائر المحسوسات والمعقولات جميعاً. فلهاتين العِلتين صار الإنسان بالقوّة المتخيّلة يَقدِر على أن يتخيّل ويتوهّم ما لا يَقدِر عليه بالقُوى الحسّاسة، لأن هذه روحانيةٌ وتلك جسمانية ، ولأنها تُدرِك محسوساتها في الجواهر الجسمانية من خارج . وأما القوّة المتخيّلة فهي تتخيلها وتتصوّر في ذاتها . والدليل على صحة ما قلنا أفعال الصُّناع البشريّين: وذلك أن كل صانع يبتدىء أولاً يتفكّر ويتخيّل ويتصوّر في وهمه صورةً مصنوعة بلا حاجة إلى شيء من خارج ، ثم يَقصِد بعد ذلك إلى هَيُولى مّا ، في مكان مّا ، في زمان مّا ، فيصوّر فيها ما هو مُصوَّر في فكره بأدواتٍ مّا ، وبحركاتٍ مّا ، ، كما بيّنّا في رسالة الصنائع العملية .

ومن خاصة هذه القوّة أنها تعجز عن تخيُّل شيء لم تُؤدِّ إليه حاسة من

الحواس ، وذلك أن كل حيوان لا بصر له فهو لا يتخيّل الألوان ، ومـا لا سمع له فـلا يتخيّل الأصوات ولا يتوهمهـا ، لأن التخيل أبـداً في تصوُّره للأشياء تَـبَعٌ للإدراك الحسيّ ؛ والعقلُ في استنباطهـا تـَبَـع الدليل النفسيّ . فأما الإنسان فإنه لمـا كان يفهم الكلام ، أمكنـه أن يتخيّل المعـاني إذا وُصِفت له .

فصل

في عجائب هذه القوة المتخيّلة وتفاوت الناس فيها

فنقول: اعلم أن الناس في هذه القوة متفاوتو الدرجات تفاوتاً بعيداً جدّاً، والدليلُ عليه أنك تجد كثيراً من الصبيان يكون أسرَع تصوُّراً لما يسمعون، وأجود تخيُّلًا لما يصف لهم كثير من المشايخ والبالغين ، وذلك أن كثيرا من العلماء والعقلاء والمُرتاضين في العلوم والآداب تعجِز نفوسهم عن تصوُّر أشياء كثيرة قد قامت الحُجّة والبراهين على صحتها .

ثم اعلم أن العلة في تفاوت درجات الناس في هذه القوّة ليست من اختلاف جواهر نفوسهم، ولكن من أجل اختلاف تركيب أدمغتهم واعتدال أمزِجتها، أو فسادهـا وسوء مِزاجها – كما ذُكر ذلك في كتب الطب – ومن عجائب أفعال هذه القوة أيضـاً ، وما يتأتى للإنسان أن يعمل بهـا أعمالاً عجيبة ، ما يحكى عن قوم من الكهنة من أهـل الهند أنهم يُؤثـّرون في غيرهم بأوهامهم أشياء عجيبة يُنكرها أكثر الناس. فأما حُكماء بلاد اليونان وفلاسفتها فيرون ذلك يمكن ويتأتى للإنسان في نفسه ، فأمـا في غيره فبعيدٌ جدّاً ، ونحن قد بيّنا ذلك في رسالة الزّجْر .

ومن عجائب أفعال هذه القوة أيضاً أنها تـُركـّب القياسات، وتحكم بها على حقائق الأشياء بـلا روية ولا اعتبار ، مثل ما يفعل الصبيان والجهّال وكثير

من العقلاء أيضاً. مثالُ ذلك أن الصبي الطفل إذا نشأ ورأى والديه، وتأملهما، وميز بينهما ، ثم رأى صبيّاً آخر مثله حَكم بتوهُّمه بأن لذلك الصبيّ والدين أيضاً قياسا على نفسه . وإن يَكُن له أيضاً أخ أو أُخت ، يظن ويتوهم بأن لذلك الصبي مثلَ ما له قِياساً على نفسه ، من غير فكرة ولا روية ولا تأمّل .

وأنت يا أخي ما تقول في هذا ؟ هل هذا قياس صحيح أو خطأ ؟ حتى إنه ربما رأى في دار والديه دابّةً أو مَتاعاً ، أو أصابه حر أو برد ، أو جوع أو عطش ، أو وجع أو غم ، فظنّ وتوهم أن سائر الصبيان قد أصابهم مثلُ ذلك ، قياساً على أحوال نفسه ، من غير فكر ولا روية في صوابه وخطإه ، حتى إذا كبِر وتفكّر ، وميّز ، تبيّن له صوابه من خطإه في قياسه .

ثم اعلم أنك تجد كثيراً من الناس العقلاء ومن يتعاطى العلم هذا حُكمُهم في قياساتهم ، وذلك أن كثيراً من الناس من إذا رأى في بلده ليلًا أو نهاراً ، أو شتاءً أو صيفاً ، أو حرّاً أو برداً ، أو ريحاً أو مطراً ، ظن وتوهم بأن سائر البلاد مثله في ذلك الوقت ، قياساً على ما وجد في بلده. فإذا نظر في علم الرياضيات من الهندسيات والطبيعيات، تبين له أن قياسه كان خطأً أو صواباً. وهكذا تجد كثيراً من المرتاضين بهذه العلوم يتوهمون ويظنون بأن خارج العالم فضاءٌ بلا نهاية ، قياساً على ما يجدون خارجَ بُلدانهم من بلادهم من سَعة الأرض ، ومن ورائها سَعةُ الهواء ومن ورائها سعةُ الأفلاك .

وهكذا أيضاً إذا فكّروا في كيفية حدوث العالم وخَلْقِ السموات والأرض ، ظنوا وتوهموا أن ذلك كان في زمان ومكان ، قياساً على أفعال البشريّين . وإذا سمعوا من أهل البصائر قولَهم بأن العالم لا في مكان ، لا يتصوّرون كيفيةَ ذلك ، فإذا قيل لا في زمانٍ ظنّوا وتوهموا أنه قديمٌ بلا حُجّة ولا برهان .

فصل في بيان فضيلة هذه القوة

فنقول : اعلم أنّا قد ذكرنا أن لهذه القوة المُتخيّلة عجائبَ كثيرة ، ووصفنا خواصّ أحوالها من أجل أنها من أعجب القوى الدرّاكة ، وأن أكثر العلماء تائهون في بحر هذه القوة وعجائب متخيّلاتها ، وذلك أن الإنسان يمكنه بهذه القوة ، في ساعة واحدة ، أن يجول في المشرِق والمَغرب ، والبر والبحر ، والسهل والجبل ، وفضاء الأفلاك وسعة السموات ؛ وينظُرَ إلى خارج العالم ، ويتخيّلَ هناك فضاء بلا نهاية ، وربما يتخيّل من الزمان الماضي وبَدء كون العالم ، ويَتخيّل فناء العالم ، ويرفع من الوجود أصلاً ، وما شاكل هذه الأشياء مما له حقيقة ، ومما لا حقيقة له .

وهذا الباب أحد الأسباب من جهة اختلاف العلماء في آرائهم ومذاهبهم في المعلومات : وذلك أنك تجد كثيراً من العقلاء ، إذا تفكروا وتخيّلوا ، بهذه القوة ، شيئاً مّا ، ظنوا أن ذلك حقّ ، وحكموا عليه حُكماً حقّاً بلا حجة ولا برهان .

وأيضاً إن كثيراً منهم ، إذا سمع شيئاً من العلوم فلم يتصوره — لعَجزِ هذه القوة ونُقصان فعلها فيه — أنكَر وجحد ، ولم ينظر إلى الدليل والبرهان البَتّة .

فأما العقلاء المنصفون في الحكومة، الطالبون للحق، غيرُ المعجبين بأنفسهم، إذا سمعوا بالأخبار عن شيء مُتوهَّم ، وتخيّلوا شيئاً غالباً لم يحكموا على صحته وعلى بُطلانه ، إلاّ بعد الحُجة والبرهان على تحقيقه أو بُطلانه كما يفعل المهندسون والمنطِقيّون .

وإذ قد ذكرنا طرَفاً من خواصّ هذه القوة المتخيّلة وعجيب أفعالها ، نريد أن نذكر طرَفاً من خواصّ القوة المفكّرة التالية في تناولها رسومَ المحسوسات المُتخيَّلات منها التي هي أشرف أفعالاً وأكثرها عجائب .

فصل في بيان أفعال القوة المفكّرة

فنقول : اعلم أن للقوة المُفكّرة خواصّ كثيرة ، وأفعالاً عجيبة تستغرق فيها أفعالَ هذه القوة المتخيّلة ، وأفعالَ سائر القوى الحسّاسة الدرّاكة ، وذلك أن أفعال هذه القوة نوعان : فمنها ما يخصُّها بمُجرّدها ، ومنها ما تشترك فيه مع قوة أُخرى من قوى النفس . فمن ذلك الصنائع ، فإن أكثرها أفعال مشتركة بين هذه القوة المفكّرة التي آلتُها وسط الدماغ ، وبين القوة الصّناعية التي آلتُها اليدان. ومنها الكلام والأقاويل واللغات أجمع، فإنها أفعال مشتركة بين هذه القوة ، وبين القوة الناطقة التي آلتُها اللسان . ومنها تناول رسوم المحسوسات المُتخيّلات، فإنها أفعال مشتركة بين هذه وبين المُتخيّلة التي آلتُها مُقدّم الدماغ . ومنها تناول رسوم المعلومات المحفوظة ، فإنها المشترَكة بين هذه وبين القوة الحافظة التي آلتُها مُؤخّر الدّماغ .

وأما الأفعال التي تخصُّها بمجرّدها فهي الفكر والرويّة، والتمييز، والتصوُّر، والاعتبار ، والتركيب ، والتحليل ، والجمع ، والقياس البرهاني . ولها أيضاً الفِراسة ، والزّجْر ، والتّكهين ، والخواطر ، والإلهام ، والوحي ، ورؤيةُ المنامات وتأويلُها .

أما بيان ذلك فنقول : إن الإنسان بالتفكُّر يستخرج غوامض العلوم بالرويّة، ويمكن له تدبيرُ المُلْك والسياسة، وبالاعتبار يعرف الأُمور الماضية مع الزمان، وبالتصور يُدرك حقائق الأشياء، وبالتركيب يستخرج الصنائع ، وبالتحليل يعرف الجواهر البسيطة والمركبة ، وبالجمع يعرف الأنواع والأجناس ، وبالقياس يُدرك الأُمور الغامضة الغائبة بالزمان والمكان ، وبالفراسة يعرف ما في الطبائع ، وبالزجر يعرف الحوادث وتصاريف الأحوال ، وبالتكهين يعرف الكائنات بمُوجبات الأحكام الفَلَكيات، وبالمنامات وتأويلها يعرف الكائنات والبِشارات والإنذارات ، وبقَبول الوحي والإلهام

يَعرف الوضع للنواميس الإلهيّة وتدوينَ الكتب المنزلة .

فأما فضائل هذه القوة وقضاياها على ما بُيّن ههنا ، وذلك أن هـذه القوة المفكـّرة من بين سائر القوى الحسّاسة والمتخيلة ومُدْرَكاتها كالقاضي بين الخصماء ودعاويهم ، وذلك أن من سُنّة القاضي أن لا يحكُم بين الخصوم إلاّ على سبيل معرفة شرعية ، وضعيّة ، معروفة بينهم ، أو مقاييس عقلية مُتّفق عليها بين الخصمين ، ولا يقبل الدعاوي إلاّ بالشهود والصكوك ، وموازينَ ومكاييـل معلومة معروفة بين الخصماء .

فهكذا حكومة هذه القوة المفكـّرة التي مَسكِنُهـا وسط الدمـاغ ، وقضاياها بين مُدْرَكات الحواسّ ومُتخيّلات الأوهام ، فيما يدعي العقلاء بينهم من المنازعات والخصومات ، في الآراء والديانات والمذاهب ، فهي لا تحكم لأحد بين الخصمين بالصواب ولا بالخطإ إلاّ بعدما شهد شاهدان من الحواسّ الخمس ، أو نتائج مُقدّمات جزئية من أوائل العقول . مثال ذلك في رجلين اختلفا في الحكومة في لون الشراب ، يحكم أحدهمـا بأن ذلك لون المـاء ، والآخر أبى ، ثم تحاكما إلى القوة المفكـّرة فلم تحكم هي لأحدهما بالصواب ولا بالخطإ ، إلاّ بعد شهادة شاهدين من الحواس: وهما القوة الذائقة والباصرة. وهكذا لو أنهما اختلفا في رؤية الماوَرد أو خلٍّ مُصعّد[1] أو نِفط أبيض ، أو ما شاكلها من الأجسام التي يُشبه لونها لون الماء ، ولمسها لمس الماء ، فإن القوّة المُفكـّرة لا تحكم لأحدهمـا إلاّ بعدمـا تشهد القوة الذائقـة والشامّة بماهيتهما .

وعلى هذا المثال والقياس ينبغي أن يكون سائر قضايا القوّة المفكرة بـين الناس فيما يختلفون فيه من الحكومة على المحسوسات والمتخيّلات في الحكومات والقضايا جميعاً .

---

[1] مصعّد : عولج بالنار .

فتفقد يا أخي هذا الباب واعتبر فإنه أول طريق العلوم ، وأول الاختلافات التي وقعت بين الناس في المُدرَكات من المحسوسات والمُتخيَّلات .

وإذ قد ذكرنا طرفاً من أسباب الاختلافات التي وقعت بين الناس في المدرَكات من المحسوسات والمتخيَّلات أجمع ، فنريد أن نذكر طرَفاً من أسباب الاختلافات التي وقعت بين العقلاء في الأشياء التي تُعلَم بأوائل العقول، إذ كان هذا الباب تالي المحسوسات في النظام والترتيب ، وذلك أن المعقولات التي هي في أوائل العقول ليست شيئاً سوى رسوم المحسوسات الجزئيّات المُلتقَطة بطريق الحواسّ من الأشخاص المجتمعة في فكر النفس المسمّى أنواعاً وأجناساً ، كما بيّنا في رسالة القاطيغورياس .

ثم اعلم أن العقلاء متفاوتو الدرجات في معرفتهم هذه الأشياء ، التي تُعلَم بأوائل العقول ، تفاوتاً بعيداً جداً . والدليل على ذلك بما قلنا انك تجد كل إنسان يكون أكثر تأمُّلاً في المحسوسات ، وأجودَ اعتباراً للمتخيلات ، فإن الأشياء التي تُعلَم بأوائل العقول تكون في نفسه أكثر عدداً وأشدّ تحقيقاً من غيره من الناس مثل المشايخ والمجرّبين للأُمور المحسوسة . والدليل على ذلك قوله تعالى : « والله أخرجكم من بطون أُمهاتكم لا تعلمون شيئاً » وقال : « علم الإنسان ما لم يعلم » وقال : « وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم » وقال : « وفوق كل ذي علم عليم » وقال: « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات » .

فصل

في بيان ما يعلم باوائل العقول

فنقول: اعلم أن الأشياء التي تُعلم بأوائل العقول، بعضُها ظاهر جَليٌّ لكل العقلاء، وبعضُها غامض خفيٌّ يحتاج إلى تأمّل قليل، وبعضها يحتاج إلى تدقيق النظر وتأمُّل شديد. مثال ذلك قولهم: الكل أكثر من الجزء. إن هذا عند الحكماء ظاهر في أوائل العقول السليمة. وأما قولهم إن الأشياء المختلفة، إذا زيدت عليها أشياء متساوية، كانت كلُّها في جميع أوائل العقول السليمة مختلفة، يُحتاج فيها إلى تأمُّل قليل. وأما قولهم: إذا كانت أربعة مقادير على نسبة واحدة، فإن في الأول من أضعاف الثاني مثل ما في الثالث من أضعاف الرابع. فهذا أيضاً من الأشياء التي تعلمها بأوائل العقول، ولكن يحتاج إلى بحث أشد، ونظرٍ أدقّ. وعلى هذا المثال يكون تفاوت المعقولات والأشياء التي تعلم بالعقول الثاقبة.

ثم اعلم أن كثيراً من العقلاء يظنون أن الأشياء التي تُعلَم بأوائل العقول مركوزةٌ، فنسبتها لما تعلقت بالجسم، فهي تحتاج إلى التذكار، ويسمون العلم تذكُّراً، ويحتجون بقول أفلاطون: العلم تذكُّر. وليس الأمر كما ظنُّوا وإنما أراد أفلاطون بقوله: العلم تذكُّر، أن النفس علاّمة بالقوّة، فتحتاج إلى التعليم حتى تصير علاّمة بالفعل، فسمّى العلم تذكراً. ثم إن أول طريق التعاليم هي الحواسّ، ثم العقل، ثم البرهان، فلو لم يكن للإنسان الحواسّ، لما أمكنه أن يعلم شيئاً، لا المُبرهَنات، ولا المعقولات، ولا المحسوسات البتّة.

والدليل على صحة ما قلنا أن كل ما لا تُدركه الحواسّ بوجه من الوجوه، لا تتخيله الأوهام، وما لا تتخيّله الأوهام، لا تتصوّره العقول.

وإذا لم يكن شيء معقول، فلا يمكن البرهان عليه، لأن البرهان لا يكون إلاّ من نتائج مقدّمات ضرورية مأخوذةٍ من أوائل العقول ، والأشياءُ التي هي في أوائل العقول إنما هي كليات أنواع وأجناسٍ مُلتقَطةٍ من أشخاص جُزئية بطريق الحواسّ . والدليلُ على ذلك الصبي ، لولا أنه قدّر أن عشر جوزات أكثر من خمس ، أو خشبة طولها عشرة أذرع أطول من أخرى لها ستة أذرع ، فمن أين كان يمكنه أن يعلم أن الكل أكثر من الجزء؟

وعلى هذا القياس حكم سائر المعقولات فإنها مأخوذة أوائلها من الحواسّ . والدليل على ذلك أيضاً أنك تجد من كان أكثر محسوسات ولها أكثرَ تأمُّلاً ، وللمتخيلات أجود اعتباراً ، فإن الأشياء المعقولة عنده أكثرُ عدداً ، ونفسه لها أكثرُ تحقُّقاً . فقد تبيَّن بما ذكرنا أن الأشياء المعقولة ليست بشيء سوى رسوم المحسوسات الجُزئيات المُلتقَطة بطريق الحواسّ من الأشخاص ، مجموعة في فكر النفس المسمَّى أنواعاً وأجناساً ، وأن العقل للإنسان – إذا تبيَّن – ليس هو شيئاً سوى النفس الناطقة ، إذا تصوّرت رسوم المحسوسات في ذاتها ، ميَّزت بفكرها بين أجناسها وأنواعها وأشخاصها ، وعرفت جواهرها وأعراضها ، وجرّبت أُمور الدنيا واعتبرت تصاريف الأيام بين أهلها .

ثم اعلم أن كل من كان أكثر تأمُّلاً للمحسوسات ، وأدق نظراً في أمور الموجودات ، وأجود بحثاً عن الخفيّات ، وأكثر تجارب للأُمور الدنيوية ، وأحسن اعتباراً لأهلها ، كان أرجح عقلاً من أبناء جنسه ، وأكثر عِلماً من أهل طبقته .

ثم اعلم أن العقلاء متفاوتو الدرجات في عقولهم تفاوُتاً بعيداً جداً ، لا يَقدُر قدرَه إلاّ الله تعالى الذي خلقهم وفضّل بعضهم على بعض ، كما اقتضت حكمته ، وسبق علمه في خلقه .

ثم اعلم أن لتفاوت الناس في درجات عقولهم عِللاً شتى ، وأسباباً عِدّة ، فمن إحدى تلك العِلل كثرة فضائل العقول ومناقب العقلاء التي لا يُحصي

عددها إلاّ الله تعالى ، ولا يمكن أن تجتمع تلك الفضائل في شخص واحد مُوفّرة كما بيّنّا من امتناع ارتياض النفس الواحدة بجميع أصناف العلوم ، مع قِصَر العمر واعتراض العوائق ، ولأن كلية العلوم موضوعة بإزاء قُوى جميع الناس ، كما أن كلية الصناعات موضوعة بإزاء قُوى جميع الصُّنّاع .

ولكن يجب للإنسان أن يختار الأولى والأشرف والأفضل ، وذلك أن العقلاء هم أفاضل الناس ، والإنسان أفضل من الحيوانات ، والحيوان أشرف من النبات ، والنبات [1] الأركان ومُخّ طبائعها ، والإنسان صورة مختصرة من جميع صوَر الحيوان، وهو المجموع فيه أمزِجة قُوى النبات، وخواصّ المعادن ، وطبائع الأركان والمولّدات الكائنات منها أجمع . وهذه كلها لا يمكن أن تجتمع في شخص واحد ، فتفرقت في جميع الأشخاص هذه الصوَر، فمُكثِرٌ ومُقِلٌ ، حتى عَمِرت الدنيا بهم . فهذا أحد أسباب اختلاف طبائعهم ، واختلاف طبائعهم أحدُ أسباب اختلاف تفاوُت عقولهم .

والعِلّة الثانية في تفاوت الناس في درجاتهم في عقولهم هي خواصّ جواهر نفوسهم التابعة في إظهار أفعالهم لأمزِجة أبدانهم . والثالثة هي كثرة غرائب علومهم ومعارفهم التي لا يمكن أن يحويها كلها إنسان واحد . والرابعة عجائب أفعالهم وفنون أعمالهم ، واختلافُ صنائعهم وتصاريفهم في طلب معاشهم ، وأحكامُ تدبيرهم في سياستهم كثيرةٌ لا تُحصى ، ولا يمكن أن ينهض بها كلها إنسان واحد . والخامسة اختلاف أخلاقهم المتضادّة في الحسن والقبح ، ومجاري عاداتهم بين الجَودة والرداءة ، مما لا يمكن أن تجتمع كلّها في إنسان واحد . والسادسة نشوؤهم على اختلاف سُنن دياناتهم وتبايُن مذاهب آبائهم وآراء أُستاذيهم ومعلميهم .

ثم اعلم أن هذه الخِصال والمناقب كلّها لا يمكن أن تجتمع في شخص

---

١ النبات : سقط كلام بينه وبين الأركان .

واحد ، فمن أجل هذا فُرِّقت في جميع أشخاص الإنسان كلها مع كثرتها ، ولا تخرج من صوَر الإنسان البتّة التي هي إحدى الصوَر التي تحت فلك القمر وهي صورة الصوَر ، فلأجل ذلك تراه في غاية الاعتدال في حال الفِطرة ، ثم تُخرجه عن ذلك عاداته الحسنة والرديئة ، فتصير كالطبع له. والعادة توأم الطبيعة ، وقيل : طبيعة مُنتزَعة ، وقيل : صعبٌ تركُ عادة منتزَعة، كما قيل صعبٌ طلبُ ما ليس في الطبع .

ثم اعلم أن هذه الصورة هي خليفة الله في أرضه مُتحكّمة فيها ، مع كثرتها ، على حيواناتها ونباتاتها ومعادنها ، حُكم الأرباب على خَوَلها ، إذ سجدوا لها بجملتها ، وهي صورة واحدة ، وإن كانت أشخاصها كثيرة ، فإن حكم جميع الأشخاص في هذه الصورة كحكم جميع أعضاء بَدَن الإنسان الواحد لصورة نفسه ، وهي المتحكّمة في جميع البدن على عضو عضو ، ومَفصِلٍ مفصِلٍ ، وحاسّة حاسّة ، من يوم الولادة إلى يوم الفراق ، كما بيّنا في رسالة تركيب الجسد . فهكذا حكم هذه الصورة في جميع أشخاص البشر الأوّلين والآخَرين من يوم خَلَق الله تعالى السموات والأرض. وآدمُ أبو البشر التّرابي له الحكم في هذه الأرض والربوبيّة على جميع ما فيها إلى يوم القيامة الكبرى. « فسجد الملائكة كلهم أجمعون » كما بيّنا في رسالة البعث والقيامة . وإذ قد تبيّن مما ذكرنا طرفٌ من عِلل تفاوت العقلاء في درجات عقولهم ، نريد أن نذكر أيضاً كيف تبيّن فيهم رجحان العقول والمَعقول ، وكيف يُعرف ذلك فيهم .

فصل

في بيان رجحان العقول للعقلاء

فنقول: إن ذلك يتبين فيهم ويُعرف منهم بحسب طبقاتهم في أمور الدنيا، ومراتبهم في أمر الدين، وهي كثيرة لا يحصي عددَها إلاّ الله تعالى. ولكن نجمعها كلّها في هذه التسعة الأقسام لتقرب من الفهم، ونحصرها للحفظ فنقول: إن منهم أهلَ الدين والشرائع والنبوّات، وأصحاب النواميس. ومن دونهم من الموسومين بحفظ أحكامها ومراعاة سُنَنها، والمعروفين بالتعبُّد فيها. ومنهم أهل العلم والحكماء والأدباء، وأصحاب الرياضات الموسومون بالتعاليم والتأديب والرياضات والمعارف. ومنهم الملوك والسلاطين والأُمراء والرؤساء، وأرباب السياسات، والمتعلقون بخدمتهم من الجنود والأعوان والكتّاب والعمال والخُزّان والوكلاء ومن شاكلهم. ومنهم البُنّاء والزارعون والأكَرة والرعاة للشاة، وساسة الدواب، ورعاة الحيوان أجمع. ومنهم الصُّنّاع، وأصحاب الحِرَف، والمُصلحون للأمتعة والحوائج جميعاً. ومنهم التجّار والباعة، والمسافرون، والجلاّبون للأمتعة والحوائج من الآفاق. ومنهم المتعيّشون الذين يعيشون في خدمة غيرهم وقضاء حوائجهم يوماً بيوم. ومنهم الضعفاء والسُّؤّال والمُكدُّون، ومن شاكلهم من الفقراء والمساكين.

ثم اعلم أن كل إنسان من أهل هذه الطبقات – كائناً من كان – لا يخلو من أن يكون فيها رئيساً سائساً لغيره، أو يكون مرؤوساً مسوساً فيها بغيره، ورجحانُ عقل كل رئيس سائس يتبيّن فيها، ويُعرَف منه في حسن سياسته، وتدبير رياسته، وحسن عشرته مع أبناء جنسه، ما لم يخرج من سُنّة شريعته وحُكم الناموس. ورجحانُ عقل كل مرؤوس مَسُوسٍ يتبين فيه ويُعرَف منه في حسن طاعته لرئيسه، وسهولة انقياده لأمر سائسه،

وحسن عشرته مع أبناء جنسه ، ما لم يكن ذلك قَدْحاً في دينه أو نقصاً لاعتقاده . ورجحانُ عقل كل متديِّن يتبيّن فيه ويُعرَف منه في حسن قيامه بواجبه عليه في أحكام شريعته وسُنَّة دينه ، وحسن عشرته مع أبناء جنسه ، ما لم يكن تاركاً للأفضل ، ولا غالياً في دينه ، ولا متقلباً في مذهبه . ورجحانُ عقل كل عالم أَوْ أديب أو حكيم يتبيّن فيه ويُعرَف منه في حسن كلامه ، وتحصيل أقاويله ، وجَودة تأديبه ، وحسن عشرته مع أبناء جنسه ، ما لم يدع ما لا يُحسنه أو ينكر فضلَ غيره . ورجحانُ عقل كل صانع وصاحبِ حِرفة يتبيّن فيه ويُعرَف منه في مُحكَمات صَنعته ، وحسن عشرته مع أبناء جنسه ، ما لم يتعاط ما لا يُحسِنه أو يتكلّف ما ليس في صناعته . ورجحانُ عقل كل تاجر بائع مشترٍ يتبيّن فيه ويُعرَف منه في صحة معاملته ، وحسن عشرته مع أبناء جنسه ، ما لم يَكْذِب في بيعه وشرائه . ورجحانُ عقل كل فقير مسكين أو ضعيف أو مبتلىً يتبيّن فيه ويُعرَف منه في حسن عشرته ، وقِلّة جَزَعه ، وإجماله في الطلب ، وحسن عشرته مع أبناء جنسه ، ما لم يُلِحّ في السؤال ويَستَخِط عند الحِرمان .

فصل

في بيان فضل الفقراء والمساكين وأهل البلوى

فنقول : اعلم أن هذه الطائفة هي رحمة للأغنياء ، ومَوعظة للمُترَفين ولمن كان مُعافىً ولأرباب النّعَم ، ليكون كل عاقل معافى ، إذا فكّر بهم ، واعتبر بأحوالهم ، علم بأن الذي أعطاه وعافاه هو الذي منعهم وابتلاهم ، ويعلم أن لم يكن للغنيّ المعافى عند الله يد وإحسان جازاه بها ، ولا لواحد عند الله إساءة كافأه عليها . فإذا فكروا في هذه الأحوال ، واعتبروا أحوال الفقراء وأهل البلوى ، عرفوا حُسن موقع النّعَم عندهم فيزدادون لله شكراً

يستوجبون به المَزيد ، كما قال الله تعالى : « لئن شكرتم لازيدنكم » فبهذا الوجه والاعتبار صاروا هم رحمةً للأغنياء ومَوعظة لمن كان معافى . وخَصلةٌ أُخرى أيضاً أن أهل الدين ومن يؤمن بالآخرة ، إذا نظروا إلى هؤلاء واعتبروا أحوالهم ، يزدادون يقيناً من الآخرة ، ويعلم كل عاقل أن من بعد هذه الحياة الدنيا داراً أُخرى يُجازى بها هؤلاء المُبتَلَون بما صبروا على مصائبهم من أمور الدنيا ، كما قال تعالى : « إنما يوفّى الصابرون أجرهم بغير حساب » .

ثم اعلم أن لهذه الطائفة – أعني الفقراءَ وأهل البلوى – فضائلَ كثيرة ، ولله تعالى في إيجادهم حِكمة جليلة تخفى على كثير من العقلاء والمُتَرفّهين من أبناء الدنيا : فمنها أنهم أشد الناس يقيناً بالآخرة من غيرهم من المترَفين . وأنهم أسرع الناس إجابةً لدعوة الأنبياء ، عليهم السلام ، من غيرهم من المترَفين من أرباب النِّعَم والأغنياء . وأنهم أخف مُؤْنة ، وأقل حوائج ، وأقنع باليسير ، وأرضى بالقليل من غيرهم من الناس . وأنهم أكثرُ ذِكراً لله تعالى في السر والعلانية ، وأرق قلوباً في الفِكرة والتذكّر ، وأخلصُ في الدعاء لله في السَّرَّاء والضرَّاء . وخِصالٌ أُخر كثيرة لو عددناها لطال الكلام ويخرج بنا عما نحن فيه .

وإنما ذكرنا طرَفاً من فضائلهم لأن كثيراً من العقلاء المُترَفين ، إذا نظروا إليهم يظنون بالله ظَنّ السوء : فمنهم من يرى أن الذي نالهم من ذلك من سوء اختيارهم وشُؤمهم وخِذلانهم . ومنهم من يرى أن الصواب لو أنهم لم يُخلَقوا لكان ذلك خيراً لهم . ومنهم من يرى أنهم مُعاقَبون بما سلف منهم في الأدوار الماضية من الذنوب . وهذا رأي أصحاب التناسخ . ومنهم من يرى أن الله تعالى ليس يفكّر بهم ولا يهمه أمرهم ، وإلا كان قادراً على أن يُغنيهم أو يُميتهم ويُريحهم مما هم فيه من الجَهد والبلوى . ومنهم من يرى أن هذا ليس يجري بعلمِ عالِم أو حُكمِ حكيم ، بل هو بحسب سوء اتفاق رديء .

ومنهم من يرى أن هذه مُوجِبات أحكام الفلك من غير قصدِ قاصدٍ ولا صُنع صانع . ومنهم من يرى أن هذا إنما يُفعل بهم ليُجازَوا به ويُثابوا عليه. ومنهم من يرى أن هذه الحال أصلحُ لهم وأنفع من غيرها . ومنهم من يرى أن هذا كان في سابق العِلم والقدر المحتوم لم يكن بد من كونه . ومنهم من يرى أنه إظهارُ القدرة وتحكُّم في المُلك وإنفاذُ المشيئة . ومنهم من يرى أن هذه موعظة ووعيد وتهديد وتخويف لغيرهم . ومنهم من يرى أن هذا هو الأحكمُ والأتقنُ ، وإن كان لا يدري ما وجهُ الحِكمة في ذلك ، فليس إلاَّ الإيمانُ والتسليم والصبر والرضا بما يجري به القضاء والمقادير ، كما قال تعالى : « ولنبلوكم أيكم أحسن عملاً » وقال : «أحسبتم أن تدخلوا الجنة» وإنما ذكرنا في شرح هذا الباب لأن هذا البحث والنظر من إحدى أمهات الخلاف بين العلماء ، المُتفرِّعِ منها فنونُ الآراء والمذاهب ، وهي مِحنةٌ لعقول ذوي الألباب ، ورجحانُ عقل كل صاحب مذهب يتبيَّن فيه ويُعرَف منه في نصرته لدينه بحُجج مُتقَنة ، ومساعدة لأهل مذهبه بما يتعلق به ، وحُسن عشرته مع أبناء جنسه ، ما لم يكن معتقداً للرأيين المتناقضين ، فإنه عند ذلك يكون مخالِفاً لنفسه في مذهبه ، ومناقضاً لمذهبه باعتقاده ، وهذا من أكبر العيوب عند العقلاء ومن أشنع اعتقادهم عند العلماء .

ثم اعلم أنه ليس على العقلاء كثير عيب في مخالفة بعضِهم بعضاً ، لأن ذلك من أجل تفاوت درجاتهم كما ذكرنا قبل. وأما مخالفة الإنسان الواحد في نفسه في رأيه ومذهبه ، فإنه يدلّ على قِلّة التحصيل ، ورداءة التمييز ، وسخف الرأي التي بأضدادها يفتخر العقلاء بعضُهم على بعض. وخَصلةٌ أُخرى في عُذر العقلاء فيما يختلفون في الفروع ، وذلك أنه عَسِرٌ جدّاً اجتماعُ العقلاء على رأي واحد كلهم في شيء واحد . وإنما يتفقون في الأصول ويختلفون في الفروع . فأما إنسان واحد فليس يَعسَر أن يعتقد في شيء رأياً واحداً ، وأن لا يعتقد رأيين متناقضين . وإذ قد تبيَّن مما ذكرنا طرفٌ من كيفيّة رجحان عقول

العقلاء في تصرفاتهم في أمور الدين والدنيا، وكيف يُعرَف ذلك منهم، فنريد أن نذكر طرَفاً من أحوال العلماء الذين هم أفضلُ العقلاء، ونبيّن مراتبهم في العلوم والصنائع والمعارف، وكيفية معلوماتهم التي في أوائل العقول، المتّفقِ عليها بين أهل كل صناعة وعلم ومذهب، فيما يخصّهم، وما يتميّزون به عن غيرهم.

فصل

في الفرق بين اصول الصنائع والعلوم وفروعها

فنقول: اعلم أن لكل علم وأدب وصناعة ومذهب أهلًا، ولأهلها فيه أصولاً، فهم فيها متفقون في أوائل عقولهم، ولا يختلفون فيها وإن كانت عند غيرهم بخلاف ذلك. وإن لتلك الأصول أيضاً فروعاً وهم فيها يختلفون، ولهم في كل أصل قياسات عليها يتفرّعون، وموازين بها يتحاكمون فيما يختلفون، وهي كثيرة لا يحصي عددها إلاّ الله الواحد القهار، ولكن نذكر منها طرفاً ليكون إرشاداً لمن يريد النظر فيها والباحثين عنها، فنبدأ أولاً بصناعة العدد التي هي أول الرياضيات فنقول:

إن الأصل المتفق عليه بين أهلها هو معرفتهم لماهيّة العدد وكيفية نشوئه من الواحد الذي قبل الاثنين، وعلمهم بأن العدد ليس هو شيئاً سوى كثرة الآحاد يتصوّرها الإنسان في نفسه من تكرار الواحد في التزايد بلا نهاية. وعلمهم بأن تلك الكثرة، كم بلغت، لا تخلو من أن تكون أزواجاً وأفراداً آحاداً، وعشراتها ومئاتها وألوفها بالغاً ما بلغ. وهذا هو الأصل المتفق عليه بين أهل صناعة الأرثماطيقي الذين لا يختلفون فيه.

وأما كمية أنواعها وخواصّ تلك الأنواع فهم في معرفتها متفاوتو الدرجات،

كلُّ ذلك بحسب تفـاوتهم في قوى نفوسهم ، وجودة بحثهم ، ودِقّة نظرهم ، وحسن تأمُّلهم ، وكثرة اعتبارهم .

وهكذا أيضاً صناعة الهندسة فإن الأصل المتفق عليه بين أهلها ، ومعرفتهم بالمقادير الثلاثة التي هي الخط والسطح والجسم ، والأبعاد الثلاثة التي هي الطول والعرض والعمق وما يعرض فيها من الزوايا والأشكال والأوضاع وما شاكلها ، فإن هذه الأشياء كلهـا كانت في أوائـل عقولهم وان كانت عند غيرهم بخلاف ذلك .

فأما أنواع هذه الأُصول وخواصّ تلك الأنواع ، ومـا يعرض فيهـا من المناسبات العجيبة وما ينتج عنها من المباحث الدقيقة ، فهم فيها متفاوتو الدرجات بحسب تفاوت قوى نفوسهم فيهـا ، وجودة بحثهم عنها ، ودقة نظرهم فيها ، وشدة تأملهم لها .

وهكذا أيضاً حكم صناعة التنجيم الذي يسمّى علم الهيئة فإن الأصل المتفق عليه بين أهلها هو معرفتهم بأن السماء كُريّة الشكل ، وأن الأرض كُرية أيضـاً ، موضوعة في وسط السماء ، وأن المركز واحد مشترَك بهـا ، وأن الأرض ثابتة والسماء متحركة حولها على استدارةٍ كدورة الدولاب في كل يوم وليلة دورةً تامة .

وتركيب الأفلاك التسعة ، وتخطيط الدوائر العظام ، وقسمة البروج الاثني عشر ، والكواكب السبعة السيارة والثابتة الباقية ، وكيف تكون الأرض في مركز العالم ، فإن هذه الأشياء كلها كأنها في أوائل عقولهم إما تسليماً أو استبصاراً أو برهـاناً ، وإن كان عند غيرهم بخلاف ذلك . فإن هذه الأشياء أوائل في هذه الصنعة لتقرُّرها واتفاق أهلها عليها ، سواء كانوا في اعتقاد صحتها مقلدين لغيرهم ، مُسلّمين لهم ، أو مستبصرين في ذلك يعلمونه ببراهين ، وان كان عند غيرهم بخلاف ذلك .

وأما معرفتهم بكيفية تركيب أفلاك التداوير والأفلاك الخارجة المراكز ،

والأوج ، والحضيض، والجيب ، والميل ، والعرض، والطول ، وما توصف به البروج من الأوصاف المختلفة ، وما توصف به الأقاليم السبعة وأحوالها في الطول والعرض ، واختلاف الليل والنهار فيها ، وما شاكل هذه المباحث ، فإنهم في معرفتها متفاوتو الدرجات ، كلٌّ ذلك بحسب تفاوت قوى نفوسهم ، وجودة بحثهم عنها ، ودقة معرفتهم فيها ، وشدة تأمُّلهم لها .

وأيضاً حكم صناعة التأليف الذي يسمى الموسيقى فإن الأصل المتفق عليه بين أهلها هو معرفتهم بالنِّسَب التي هي العددية والهندسية والتأليفية : وذلك أن كل مصنوع مركّب من أشياء مختلفة ، لأنه لا يخلو تركيب أجزائه وتأليف بِنيته من إحدى هذه الثلاث ، فما كان منها تأليفه على النِّسبة الأفضل ، فإنه يكون أحكم إتقاناً ، وأجود هنداماً ، وأحسن نظاماً ؛ وما كان على النسبة الأدْون فهو بخلاف ذلك ؛ وما كان بينهما فهو متوسط . والناظرون في هذا العلم والصناعة هم في معرفته متفاوتو الدرجات بحسب تفاوت قوى نفوسهم ، وجودة قرائحهم ، وصفاء أذهانهم ، وكثرة رياضاتهم ، وطول دُربتهم ، ونظرهم وبحثهم عنها وتأمُّلهم لها .

وهكذا أيضاً حكم علم الطبيعيات يعني بها الأجسام وما يعرض فيها من الأعراض المتفننة ، وما يوصف بها من الصفات المختلفة ، وهي كثيرة الفنون ولكل فن منها أُصول ، ولها فروع ، ولكن الأصل الأول فيها كلها المتفق عليه بين أهلها هو معرفة خمسة أشياء ، وهي الهَيُولى والصورة والمكان والزمان والحركة ، لأن هذه الأشياء الخمسة محتوية على كل جسم ، فلكيّاً كان ذلك الجسم أو ما دونه من الأركان . فأما الذي يتفرّع من هذا الأصل فنوعان : أحدهما عالم السمَوات والأفلاك ، والآخر عالم الكون والفساد الذي هو تحت فلك القمر ، والأصلُ المتفَق عليه بين أهل هذا العلم هو معرفتهم بأن حكم العالم بجميع أفلاكه وطبقات سمواته والقُوى السارية فيها تجري مجرى جسم إنسانٍ واحد وحيوان واحد يتحرّك عن مُحرّك واحد

بحركة واحدة . وأما كيفيّة تركيبها وفنون حركاتها وما يختص كل واحد منها فهم في معرفتها متفاوتو الدرجات بحسب قُوى نفوسهم ، وشدّة بحثهم عنها ، وجودة نظرهم فيها ، وشدّة تأمُّلهم لها .

وهكذا حكم الكون والفساد فإن الأصل المتفق عليه بين أهلها فيها هو معرفتهم بالطبائع الأربع التي هي الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة ، والأركانِ الأربعة التي هي النار والهواء والماء والأرض ، وكيفية استحالة بعضها إلى بعض في بعض الأزمان وبعض المكان . وأما فنون الكائنات منها في تلك الأماكن وفي تلك الأزمان وفي تلك الأجناس فإنهم في معرفتها متفاوتو الدرجات بحسب قوى نفوسهم ، وجودة بحثهم ، ونظرهم وتأملهم .

واعلم يا أخي أن الكائنات التي هي من استحالة هذه الأركان أربعة أنواع؛ فمنها حوادث الجو وتغيُّرات الهواء ، ومنها الكائنات التي في باطن الأرض المسماة المعادن ، ومنها الكائنات على وجه الأرض التي تسمى النبات ، ومنها الكائنات التي تسمى الحيوان ، وكل جنس من هذه الأربعة فإن النظر فيه هو صناعة قائمة بنفسها . فأما الأصل المتفق عليه في حوادث الجو بين أهل هذه الصناعة فهو معرفتهم بطبيعة كرَة النسيم ، وكُرَة الزمهرير ، وكرة الأثير والبُخارَينِ الصاعِدَين : الرطبِ واليابس من البحار والبراري . فأما كيفية حوادث الكائنات منها والرياح والأمطار والبروق والرعود والبرود والثلوج والهالات والشُّهُب وذوات الأذناب في هذه الأُكَر ، وبين سطوحها المشتركة؛ فإنهم في معرفتها متفاوتو الدرجات ، كلٌ ذلك بحسب تفاوت قوى نفوسهم ، وجودة بحثهم ، ونظرهم وتأملهم .

وهكذا الأصل المتفق عليه في كون المعادن ، وهو معرفتهم بالزئبق والكَباريت اللذين هما عنصران ، ولباب جواهر المعدنية كلها . وأما علة اختلاف بقاع الأرض والمواضع المخصوصة لها وفنون أنواعها مثل الذهب والفضة والنُّحاس والرّصاص والأُسْرُب والحديد والكُحل والزرنيخ والشُّبوب

والزّاجات والأملاح والنّفْط والقار والأسفيذاج ومـا شاكلها ، وخَواصّها وتصاريفها ، فهم في معرفتها وعلمها متفاوتو الدرجـات بحسب قوى نفوسهم ، وجودة تأملهم لها .

وهكذا أيضاً حكم النبات فإن منه ما له حب أو بذر يزرع ، ومنه ما هو أشجار تُغرَس ، ومنه ما هو حشائش تنبت ، وكذلك حكم الحيوان فإن منها ما يتولد في الأرحـام ، ومنها مـا يخرج من البَيض ، ومنها مـا يكون من العفونات ، فهذا هو الأصل المتفق عليه بين أهلها . وأما معرفتهم بعلة اختلاف أنواعها وخواصّها واختلافها ، وأفعالها ومُتصرّفاتها ، ومنافِعها ومضارّها، فإن أهلها فيهـا متفاوتو الدرجات ، كلٌّ ذلك بحسب قوى نفوسهم فيهـا ، وجودة بحثهم عنها ، ودقة نظرهم وتأملهم فيها .

وأما علوم المنطق فهي نوعـان : لغوي وفلسفي . فاللغوي مثـل صناعة النحو، والأصلُ المتفق عليه بين أهلها هو معرفتهم بالأسماء والأفعال والحروف وإعرابهـا من الرفع والنصب والخفض . ومثل صِناعة الخطب التي الأصل فيها هو معرفة السجع والفصاحة وضرب الأمثال والتشبيهات . ومثل صناعة الشعر التي الأصلُ فيهـا معرفة المفاعيـل والأسباب والأوتاد والحروف المتحرّكات والسواكن. فأما النظر في فروعها ومعرفة المُنزَحِفات منها والعَروِيض وعِلَلها فهم فيها متفاوتو الدرجات بحسب نفوسهم، وطول دُربتهم ، ودوامِ رياضتهم.

وهكذا أيضاً المنطق الحِكْمي هو فنون شتى منه صناعة البرهان ، ومنه صناعة الجَدل ، ومنه صناعة السُّفْسطائيين يعني المغالطين . فأما صناعة البرهان فإن الأصل المتفق عليـه بين أهلها هو معرفتهم بمعـاني الستة الألفـاظ التي في إيساغوجي[1] ، والعشرة التي في كتاب قاطيغورياس[2] ، والعشرين كلمة التي في

---

١ إيساغوجي : كتاب الكليات لفورفوريوس اليوناني .
٢ قاطيغورياس : كتاب المقولات لأرسطو .

باريميناس[1] ، والسبعة التي في أنولوطيقا[2] . فأما ما يتفرع من فنون المعاني ، وما يعرض فيها من غرائب المباحث ، فبحر عميق قد تاه فيه أفهام كثير من الناظرين فيها ، وتحيرت عقول كثير من الباحثين عنها ، لدقة المعاني لهذه الصناعة ، وعجيب أصولها وكثرة فروعها ، وبُعد مرامي أهلها ، لأن من هذه الصناعة تُعرف آداب الفلسفة ، وأدب الحِكَم ، وميزان العقل ، ومقاييس الحقائق التي تسمى البرهان .

فقد تبيَّن مما ذكرنا أن لكل علم وصناعة أُصولاً مُتَّفقاً عليها بين أهلها ، وكأنها في أوائل عقولهم ظاهرة بيِّنة ، وإن كان غيرهم بخلاف ذلك ، مثال ذلك قول المهندسين : إن كل ضِلعين من أضلاع المُثلَّث مجموعين هما أطولُ من الباقي ، أي من الضلع الثالث ، فإن هذه الحكومة عندهم كأنها في أوّلية عقولهم ظاهرةٌ بيِّنة . وأمـا قولهم إن الضلع الأطول من كل مثلَّث يوتر الزاوية العظمى ، فهو أدق وأخفى قليلاً ، فيحتاج فيه إلى تأمُّل . وأما قولهم إن الزوايا الثلاث من كل مثلث مساوية لزاويتين قائمتين ، فيحتاج فيه إلى برهان ومقدمات .

وهكذا أيضاً صناعة المنطق فإن فيها أشياء كأنها في أوائل عقولهم ظاهرة بيِّنة ، وهو قولهم : الضدّان لا يجتمعان في شيء واحد في زمان واحد ، فإن هذه الحكومة بيِّنة ظاهرة . وأما التي هي أدق من هذا ويحتاج فيها إلى البرهان فهي مثل قولهم : كونُ كل شيء فسادٌ لشيء آخر .

وعلى هذا المثال يكون حالهم في المقولات عند أهل كل صناعة وعلم وأدب ومذهب . يوجد أشياء كأنها في أوائل عقولهم ، وأشياء أُخر مثل ثوان وثوالث وروابع بالغاً ما بلغ . مثال ذلك أن الحكومات التي في كتاب

---

١ باريميناس : كتاب العبارة لأرسطو .

٢ انولوطيقا : كتاب القياس لأرسطو ، ويقال له انولوطيقا الأولى . وله انولوطيقا الثانية ، وهي كتاب صناعة البرهان .

المَجِسطي [1] على هيئة الأفلاك في تركيبها ، هي بَعدَ النظر في علم المناظر ومعرفة الأبعاد والأجرام ، وعلمُ المناظر بَعدَ علم الهندسة والنظر في كتاب أقليدِس . وعلى هذا المثال أوائل كل صنعة مأخوذة من صناعة أُخرى قبلها ، وإن علم البرهان بعد المعقولات والمحسوسات.

واعلم أَن كل صناعة مأخوذة من صناعة أُخرى كما تقدّم ذكره ، وأَن أَهل كل صناعة أَو علم أَو مذهب هم بصناعتهم وأُصولها وفروعها أَعلمُ وأَعرفُ من غيرهم، وإنما ذلك لتعلمهم لها ودُربتهم فيها وطول تجاربهم إياها. فأَما سبب اختلافهم في فروعها فهو من أَجل تفاضُلهم فيها ، وأَن المتعلم المبتدي بها لا يمكنه أَن يسأَل الفاضل الكامل فيها ويعارضه ويطالبه بالدليل والحُجّة ، ويناقضه من غير بصيرة ولا بيان ، وهذه البلية العظمى في الصنائع والعلوم ، والمِحنة على أَهلها الفاضلين فيها ، ولكن من أَشد بلية على الصناعة ، وأَعظم مِحنة على أَهلها ، هو أَن يتكلم عليها مَن ليس من أَهلها ، ويحكم في فروعها ولا يعرف أَصلها ، فيُسمَع منه قوله ويُقبَل منه حكمه . وهذا الباب من أَجلّ أَسباب الخلاف الذي وقع بين الناس في آرائهم ومذاهبهم ، وذلك أَن قوماً من القُصّاص وأَهل الجدل يتصدرون في المجالس ويتكلمون في الآراء والمذاهب، ويناقضون بعضها بعضاً، وهم غير عالمين بماهيتها، فضلًا عن معرفتهم بحقائقها وأَحكامها وحدودها ، فيسمع قولهم العوامُّ ويحكمون بأَحكامهم ، فيَضِلّون ويُضِلّون وهم لا يشعرون .

واعلم أَن الجدل هو أَيضاً صناعة من الصنائع ، ولكن الغرض منها ليس هو إلا غلبة الخصم والظفر به كيف كان ، ولذلك يقال : الجدل فَتْلُ الخصم عما هو عليه ، إما بحجة أَو شُبهة أَو شُعبة وهو الثقافة في الحرب ، والحرب كما قيل خُدعة ، وهو يشبه الحرب والمعركة إذ الحرب خدعة .

---

[1] المجسطي : كتاب في علم الفلك لبطليموس العالم اليوناني .

فصل

ثم اعلم أن الأصل في هذه الصناعة المتفق عليها بين أهلها هو معرفة الدعاوي والسؤالات والجوابات والدليل . فأما كيفيّة السؤالات وأجوبتها والاستدلالات بالشاهد على الغائب ، وبالظاهر على الباطن ، وبالمحسوسات على المعقولات ، والحكمُ على الكل باستقراء الأجزاء في أي شيء يجوز ، وفي أي شيء لا يجوز ، وكيف اطّراد العِلّة في معلولاتها ، وكيفية قياس الفروع على الأُصول ، ومعارضة الدعوى بالدعوى ، والدليل بالدليل ، وقلبِ المسألة على الأَصل ، ومناقضة أصلِها لفروعها ، ومُقايسة الأَصل بالأَصل ، والفرع بالفرع ، ولوازم الشناعات وما يعرض فيها وفي معرفتها لأهلها من الانقطاع والشكوك والحيرة ، فهم فيها متفاوتو الدرجات ، كلٌّ ذلك بحسب قوى نفوسهم ، وجودة ذكائهم ، ودقة نظرهم وبحثهم ومكابرتهم ووقاحتهم وشغبهم.

ثم اعلم أنه ليس من صناعة ولا علم ولا أدب يَعرِض لأهله فيها ، من الحيرة والدهشة والشكوك والظنون والخطإ والعُدوان والبغضاء بينهم ، ما يعرض لأهل صناعة الجدل فيما يعتقدون فيها ويجادلون عنها . والعلة في ذلك أسباب شتى : منها أن جميع الصنائع والعلوم والمذاهب والآراء موضوعة لهم يتكلمون عليها ، ويعارضون فيها ، ويجادلون عنها ، قبل النظر والبحث عنها والعلم فيها . وعِلّة أخرى أنه يمكن أن يداخلهم في صناعتهم من ليس منهم بالسؤال لهم والمعارضة في دعاويهم والمُناقَضة لأَجوبتهم ، لأن السؤال أسهلُ من الجواب ، والمعارضةُ دعوى تحاذي دعوى ، والمناقضة أسهلُ من إثبات الحجة لأنها إفساد ، والإفسادُ أسهل من الإصلاح في أكثر الأشياء . وخَصلةٌ أُخرى أنهم ربما يكونون مُقلّدين في أصول ما يجادلون فيه من المذاهب فيبصرون الفروع ، ومن يكون في الأَصل على التقليد كيف يمكنه أن يبصر الفروع على تَبصرة . وخَصلةٌ أخرى أن أكثرهم ربما جادل فيُصر على الرأي

والمذهب ، لا على سبيل الورَع والتـدين وطلب الحق ، لكن على سبيـل التعصب والحميَّة ، والتعصبُ والحمية يُعميان عن الحق ويُضلان عن الصواب.

ثم اعلم أنه ليست من طائفة تتعاطى العلم والأدب والكلام أشرُّ على العلماء ولا أضرُّ على الأنبياء ، ولا أشدُّ عداوةً لأهل الدين ، وأفسدُ للعقول السليمة من كلام هذه الطائفة المجادلة الظَّلَـمَة ، وخصوماتهم في الآراء والخصومات والمذاهب . وذلك أنهم إن كانوا في أزمان الأنبيـاء ، عليهم السلام ، وعند مَبعَثهم فهم الذين يطالبونهم بالمعجزات ، ويعارضونهم بالخصومات ، مثل مـا قالوا للنبي ، عليه السلام : « لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعـاً » وقالوا لنوح ، عليه السلام : « وما نراك اتبعك إلاَّ الذين هم أراذلنا » وهم الذين إذا مروا بالمؤمنين يتغامزون ، وقال تعالى في ذمهم : « ما ضربوه لك إلاَّ جدلاً بل هم قوم خصمون » فهذه حـال من كانوا يعارضون أهل الدين في أزمـان الأنبياء عليهم السلام .

فأمـا إذا كانوا في غير أزمـان الأنبيـاء فهم الذين يعارضون أهل الدين والورع بالشُّبُهات ، ويَنبِـذون كتب الأنبياء ، عليهم السلام ، وراء ظهورهم ، يُفرّعون الآراء والمذاهب بعقولهم الناقصة وآرائهم الفاسدة ، ويضعون لمذهبهم قياسات مناقضة ، واحتجاجات مُموّهة ، ويعارضون بها العقلاء من الأحداث والعامة ، فيُضلّونهم عن سُنن دياناتهم النبوية ، ويعدلون بهم عن موضوعات الشرائع الناموسية .

ثم اعلم أنه ليس من صناعة بين أهلهـا من التفـاوت مـا بين أهل هذه الصناعة ، وذلك أنك تجد فيهم من يكون له جودة عبارة وفصاحة كلام وسحر بيان يقدر معه على أن يُصوّر بوصفه البليغ الحقَّ في صورة الباطلِ ، والباطلَ في صورة الحق ، وهو مع ذلك جاهلُ القلب عن حقائق الأشياء ، بعيد الذهن عن المعارف . وروي عن النبي ، صلى الله عليه وعلى آله وسلم : « أخوف مـا أخاف على أمتي رجلٌ مُنافِق ، عليم اللسان ، غـير حكيم القلب ، يغيّرهم

بفصاحته وبيانه ، ويُضلّهم بجهله وقلة معرفته » .

وتجد فيهم أيضاً من يجادل ويحتج ويناظر ، كلامُه ينقض بعضُه بعضاً ، ولا يدري بذلك ، فإذا نُبّه عليه لم يشعر به . وتجد فيهم أيضاً الرجل العاقل الذكي المُحصّل في أشياء كثيرة من أمور الدنيا ، فإذا فتشت اعتقاده ، في أشياء بيّنة ظاهرة في العقول السليمة من الآراء الفاسدة ، وجدت رأيه واعتقاده في تلك الأشياء أسخفَ وأقبحَ من رأي كثير من الجهال والصبيان . والعلة في ذلك أسباب شتى : منها شدة تعصبه فيما يعتقده بقلبه من غير بصيرة ، وأخرى إعجابه بنفسه في اعتقاده، وأخرى اعتقاده الأُصولَ خفيٌّ فيها خطؤه، بيّنٌ ظاهر الشناعة في فروعها ، فهذا يلزم ذلك الشناعات في الفروع مخافة أن تنتقض عليه الأُصول ، ويطلب لها وجوه المراوغة عن إلزام الحجة عليه ، تارة يشغَب ، وتارة يموّه ، وتارة يروغ في الجواب والإقرار بالحق ، ويأنف أن يقول : لا أدري. والله ورسوله أعلم ! كما كان في زمان النبي ، صلى الله عليه وسلم ، إذا سئلوا عما لا يدرون ، قالوا : الله ورسوله أعلم ، اقتداءً بأمر الله كما قال : « وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله » وقال : « ولو ردوه إلى الله ورسوله وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم » .

ولكن كثيراً من المُجادِلة يعتقد أن لا رجوع له إلى الله على الحقيقة ، ولا يرجو لقاءه ولا يجوز رؤيته ، لما نظر بعقله الناقص، أداه اجتهاده إلى هذا الرأي ، فترك ما ذكر الله في كتابه في عدة مواضع وذلك قوله : « ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق » وقوله : « إلى الله مرجعكم جميعاً ثم يحكم بينكم يوم القيامة » وقوله: « أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون ؟ » وقال: « من كان يرجو لقاء الله فإن أجَل الله لآت » وقال : « ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم » « ولو ترى إذ وقفوا على ربهم قال أليس هذا بالحق» . وقال المسيح ، عليه السلام : « أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون » وآياتٌ كثيرة في هذا المعنى .

ولكن من هؤلاء من يحتج ويقول معنى الرجوع إلى الله أي إلى ثوابه ، ولو أنهم اعتبروا سُنَن الديانات النبوية والموضوعات الناموسية الإلهية كيف فَرَضَ فيها واضعوها في كل سبعة أيام يوماً لتركِ الأعمال والاشتغال لأمور الدنيا ، والفراغ للعبادة والاجتماعات في بيوت العبادات من المساجد والبيَع والكنائس والهياكل ، بالصوم والصلاة والقرابين في الأعياد ، والبروز إلى الصحراء والمنابر والخطب ، والسكوت والاستماع للمواعظ ، والتذكار لأمر المَعاد بأن هذه كلها إشارات ومرامي أحوال القيامة التي في سبعة آلاف سنة تَعرِض للنفوس الجزئية المتجسدة ، لدى النفس الكلية ، لفصل القضاء ، ليحكم بينهم فيما كانوا فيه يختلفون. فلو تركوا جدالهم واشتغلوا بما ينفعهم من أعمالهم الصالحة ، والتخلّق بالأخلاق الجميلة ، وطلبوا الآداب المحمودة ، لكان خيراً لهم من الجدال والخصومات والغضب والتعصب والعداوات . ولكن لاستيلاء المِرّيخ عليهم في مواليدهم يَحثّهم على ذلك ، وقوة المَرارة تنمى إلى أمزجتهم ، فيقيمهم على مثلها ، فتطول صُحبتهم مع أُستاذيهم ورسائلهم ، معودون ذلك ، ودوامهم فيما يتدربون به ، فيصير عادة لهم لا يصبرون عنها !

فلا تطمع يا أخي في صلاحهم ، وإنما أكثرنا ذكر هذه الطائفة المُجادلة لأن كثيراً من أسباب الخلاف في الآراء والمذاهب من قِبَلهم يقع ، وهم السبب فيه لأنهم يتكلمون الكلام والجدال والحجاج في دقائق العلوم ويتركون تعلم أشياء واجب عليهم تعلمها وهي بينة ظاهرة جلية وهم يجهلونها جملة .

فصل

في بيان آداب الجدال

فنقول : اعلم أن كل مسألة تنازع فيها اثنان أو جماعة فلا يخلو من أن يكونوا من أهل تلك الصناعة التي المسألة منها أو يكونوا من غير أهلها ، فإن كانوا من غير أهلها فكلامهم فيها على غير أصل مقرر منهم ، وكل كلام ومنازعة في شيء على غير أصل مقرر منهم فلا تحصيل لكلامهم فيه ولا حجة لدعاويهم، وإن كان أحدهما من غير أهلها فإن منازعته لصاحبه تعدٍّ منه وظلم، وكلام صاحبه معه أيضاً تخلف منه إذ كان يجادل مع من ليس من أهل صناعته، وإن كان من أهل تلك الصناعة فلا يخلو من أن يكونا متساويي الدرجة فيها أو متفاوتين ، فإن كانا متفاوتين فحكمهما مثل ما تقدم ذكرهما من ذكر حكم الأولين ، وإن كانا متساويي الدرجة في تلك الصناعة فسبيلهما أن يؤاخذا فيما اختلفا فيه إلى قوانين تلك الصناعة وأصولها ويقيسا عليها تلك المسألة وإن كانت من فروعها .

وإن لم يكن في قوة نفوسهما استخراجها فسبيلهما أن يتحاكما إلى من هو أعلى درجة منهما في تلك الصناعة ليحكم بينهما .

وإن لم يجدا من يحكم بينهما فيرضيان بحكمه ولا في قوة نفوسهم استخراجها من الأصول فليس لهما إلاّ الترك لتلك المسألة والسكوت عنها ، فإن لم يفعلا ما وصفنا في الجدال والخصومة فسيكون ذلك سبب العداوة والبغضاء بينهما كلما ازدادا إلحاحاً ازدادا خلافاً على خلاف وعداوة على عداوة وبغضاً إلى يوم القيامة وتكون تلك حالهما، وهذا أحد أسباب اختلاف العلماء في الآراء والمذاهب .

فأما بيان فنون القياسات فاعلم حسب ما نبين هاهنا . وذلك أن الأمور

التي يعلمها الإنسان ثلاثة أنواع : ماض ومستقبل وحاضر ، فعلمه بما هو حاضر في الوقت موجود في طريقة إحدى الحواس ، والحواس قد تخطىء وتصيب في إدراكاتها محسوساتها لعلل شتى قد بيّنا طرفاً فيما قد تقدم ذكره .

وعلمه بما كان من الأمور ومضى مع الزمان وانقضى مع الأيام أو غاب عنه بالمكان فهو بطريق السمع والاخبار ، والمخبر قد يكون صدوقاً وقد يكون كذوباً ، وهكذا أيضاً ربّ مستمع مكذب بالصدق ، ورب مستمع مصدق بالكذب . فأما علمه بما سيكون أو غائب عنه بالمكان فقد يكون بعضاً بالقياس ، والقياس قد يكون صحيحاً وقد يكون سقيماً .

وهكذا المستعمل للقياس قد يكون جاهلاً باستعماله كما بيّنا في قياس الصبيان والجهّال والعوام وكثير من الخواص . وهذا أيضاً أحد أسباب اختلاف العلماء في الآراء والمذاهب .

ثم اعلم أنك إذا اعتبرت ودققت النظر تبين أن أكثر علم الإنسان إنما هو بطريق القياس ، والقياسات مختلفة الأنواع كثيرة الفنون كل ذلك بحسب أصول الصنائع والعلوم وقوانينها .

مثال ذلك أن قياسات الفقهاء لا تشبه قياسات الأطباء، ولا قياس المنجمين يشبه قياس النحويين ولا المتكلمين، ولا قياسات المتفلسفين تشبه قياسات الجدليين، وهكذا قياسات المنطقيين في الرياضات لا تشبه قياسات الجدليين ولا تشبه قياساتهم في الطبيعيات ولا في القياسات والإلهيات .

وهكذا الحكم في سائر الصنائع والعلوم . وسنذكر طرفاً من ذلك في موضعه ولكن نقول أول ما القياس ؟ وذلك أن القياس هو الحكم على الأمور الكليات الغائبات بصفات قد أدركت جميعها في بعض جزئياتها .

مثال ذلك : لما أدرك الإنسان أن النيران الجزئية حارة حكم بأن كل نار حارة أيضاً الغائبة قياساً على ما أدرك حسّاً وهكذا حكم على رطوبة الماء من جزئياتها على كلياتها بالحس جزئية والعقل كلياً .

واعلم أن هذا الحكم وهذا القياس لا يَطّرد في كل شيء ولا في كل مكان، وذلك أن يكون في كثير من البلدان أناس عقلاء لا يجدون من الماء إلاّ عذباً، فإذا حكموا بما أدركوا على أن كل ماء في الأرض عذب ، فقد أخطأوا وهم لا يشعرون ، وعلى هذا المثال يكون الخطأ والصواب في القياس الذي يطّرد في كل شيء .

وإذا تأملت يا أخي وجدت أكثر اختلاف العلماء وخطئهم إنما في استعمال القياس من هذا الفن ، يكون ويخفى وهم لا يشعرون ، وإن علموا أيضاً لا يُحسنون كيف يميزون من الأشياء التي يَطّرِد فيها . والقدماء الحكماء قد تعبوا في استخراج هذا حتى عرفوه ووضعوه في كتبهم بخَطْبٍ طويل لا يَصبِر على طلب معرفته كل أحد من الناس إلاّ المُحبّون للحكمة، الطالبون للحقائق . وقد ذكرنا طرفاً من ذلك في رسائلنا المنطقية ، ولكن نذكر منها طرفاً في هذا الفصل مثالاً واحداً .

اعلم يا أخي أن القياس الذي يَطّرِد الحكم فيه بالجزء على الكل إنما هو في الصفات الذاتية للشيء لا في الصفات العرَضية . والصفاتُ الذاتية هي التي إذا بطلت بطل الموصوف ، وإذا ثبتت ثبت الموصوف : وهي الصورة المقوّمة ؛ والصفة العرَضية هي التي إذا بطلت لم يبطل الموصوف . والمثال في ذلك رطوبة الماء وعذوبته ، فإن الرطوبة إذا بطلت لا يكون الماء موجوداً، فأما العذوبة فليس من الضروري ، إذا بطلت بطل الماء ، فالرطوبةُ هي الصورة المقوّمة للماء ، والعذوبة هي الصورة المُتمّمة له . فعلى هذا المثال ينبغي أن يُعتَبر الحكمُ في القياس لا يصيب ولا يخطىء .

واعلم أن الحكماء الأولين لما أثبتوا الذي ذكرنا وعلموا أن أكثر علمهم إنما هو بطريق القياس ، وقد يدخل الخطأ والزلل في القياس – كما بيّنا – طلبوا لذلك حيلة يأمنون بها الخطأ والزلل في القياس ، وسمّوها البرهان . وميزان العقل من أجل طلب الحقائق ، وإصابة الصواب ، وتجنُّب الزور

والغرور بما لا حقيقة له . لكن منهم مصيب ومنهم مخطىء « والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم » .

ثم اعلم أن كثيراً من أهل الجدل يظنون ويحكمون بحكمهم وظنونهم أن الله سبحانه وتعالى كلّف عبادَه طلب الحقائق وإصابتها جميعاً ، وجعل لهم وعيداً إن أخطؤوا أو لم يصيبوا ، وليس الأمر كما ظنوا لأنه قال: « لا يكلف الله نفساً إلاّ وسعها » والوسعُ دون الجُهد والطاقة، وإصابة الحق ليس في وسع الطاقة فكيف ، ولا في وسعها ، وإنما كلف الله العباد طلب الحقائق والجهد في الطلب . فأما إصابتها فالله يهدي من يشاء إليها -- كما وعد جلّ جلاله -- « والذين جاهدوا فينا لنهديهم سبلنا » وإنما شَرَطَ بقوله فينا ، لأن من الناس من لا يكون جهده في الطلب لوجه الله ، ولكن لأسباب أُخَر يطول شرحها . فمنْ أجل ذلك لا يستحق الهداية ولا يستأهل الإصابة .

ثم اعلم أن هذه المسألة هي إحدى مسائل أُمهات الخلاف: وذلك أن كثيراً من الناس من يقول أو يظن أنه مستغنٍ عن العلوم في طلب الحقائق بما رزقه الله تعالى من الفهم والتمييز والذكاء والاستطاعة ، فيتكل على حَولِه وقوته وينسى ربه والاستعانة به والسؤال له والتوفيق ، فيُخذل ويُحرَم التوفيق كما قال الله تعالى : « نسوا الله فأنساهم أنفسهم » .

فصل

في بيان أنواع القياسات

فنقول : اعلم أن الموازين التي وضعها الحكماء ليُعرف بها الخطأ والزلل في القياس مختلفةُ الفنون ، وذلك بحسب الصنائع والعلوم والقوانين كما هو موجود في اختلاف موازين أهل البلدان النائية ، ومكاييلهم معروفةٌ بينهم بحسب موازين أهل البلدان في موضوعاتهم، ولكن مع اختلافها كلها. فالغرضُ المطلوب منها هو إصابة الحق ، أو العدلُ والإنصاف فيما يتعاملون بينهم في الأخذ والإعطاء ، فهكذا أيضاً غرض الحكماء في استخراج البرهان الذي يسمى ميزان العقل ، وهو طلب الحقائق وإصابة الصواب ، وتجنب الزور والخطإ باستعمال القياسات ، ولكن منهم من يصيب ومنهم من يخطىء أيضاً في استعمال هذه الموازين ، وذلك من إحدى ثلاث خصال : إما بجهله بحقيقة هذه الموازين وكيفية استعمال هذا الميزان ، أو لغرض من الأغراض في موازين الناس ومكاييلهم المعروفة بينهم والمُستعمِلين لها كيف يدخل الخطأ والزلل عليهم، وإما بجهلهم بصحة الميزان وبكيفية استعمالهم له أو لغرض من الأغراض . فأما واضعوها فما قصدوا في وضعها إلاّ لطلب الحق والصواب والعدل والإنصاف .

واعلم أن الموازين التي وضعها الحكماء في طلب حقائق الأشياء في العلوم والصنائع كثيرة لا يحصي عددها إلاّ الله الواحد القهار ، ولكن كلها لا تخرج عن ثلاثة انواع : إما أن يُستعمَل بالأيدي أو باللسان أو بالضمير ، والتي تُستعمل بالأيدي كالقبان والشاهين والمكاييل والموازين والأذرُع وما شاكلها. وبالجملة كل مقياس يستعمله الناس في معاملاتهم في الأخذ والإعطاء في طلب العدل والإنصاف بينهم .

ومنها ما يستعمله المنجمون وأصحاب الرَّصْد وقُسّام المياه كالبركار

والأصطرلاب وآلات الرَّصْد ، كلٌّ ذلك في طلب معرفة اجزاء الزمان ومقادير الأوقات .

ومنها ما يستعمله المُسَّاح والقُسَّام والمهندسون في طلب معرفة الأجرام والأبعاد كالذّراع والباب والأشْل وذوات الشفَتين وما شاكلها .

ومنها ما يستعمله الصُّنَّاع في صنائعهم كالبركار والمسطرة والكُونيا والشاقُول والزاوية وما شاكلها ، كل ذلك لمعرفة الاستواء والاعوجاج .

ومنها ما يستعمله أهل كل صناعة على حِدتها . فأما الذي يستعمله باللسان فمثل العَروض التي يستعملها الشعراء والخطباء والنحويون والموسيقيون . فأما التي تُستعمل بالضمير فهو مثل ما يستعمله الفقهاء الحكماء عند تفكّرهم في المعلومات المحسوسات والمشاهدات ، واستخراجهم بها الخفيّات المعقولات وصحة القياسات في إدراك المبرهنات .

ثم اعلم أن هذه المقاييس كلها طرقات إلى المعلومات ، وهذه الموازين حكام وعدول نصبها الباري تعالى بين خلقه ليتحاكموا إليها في طلب العدل والإنصاف والحقائق والاستواء ، ويجتنبوا الزور والخطأ والظلم والجور ، ويرفعوا بها الخلاف والمنازعة من بينهم بجزر الظنون وتخمين الرأي .

ثم اعلم أنه قد يقع الخلاف والمنازعة بين المُستعمِلين للقياس والموازين أيضاً من جهات أربع : إما بقصد من المستعملين لها دَغَلًا وغِشّاً لأغراض لهم ، وإما بسهو منهم ، وإما بجهلهم بكيفية استعمال الميزان ، وإما أن يكون القياس والميزانُ مُعوجّاً غير مستوٍ ، فمن أجل هذه الوجوه يقع الخلاف والمنازعة بين أهلها ، فهذه أيضاً أحد أسباب الخلاف بين العلماء في آرائهم ومذاهبهم .

ثم اعلم أن هذه الموازين والمقاييس التي تقدم ذكرها كلُّها دَلالاتٌ ومِثالات وإشارات إلى الموازين التي ذكرها الله تعالى بقوله : «ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تُظلم نفس شيئاً» .

ثم اعلم أن هذا الميزان هو آخر الموازين كلها فمن رجَحت حسناته في هذا الميزان فقد أفلح وربح سعادة أبدية وفاز فوزاً عظيماً ، ومن خفّت موازينه فقد خاب وخسر خُسراناً مبيناً .

فانظر لنفسك يا أخي وبادر واعمل عملاً صالحاً وتزوّد فإن خير زادك التقوى ، وحاسب اليوم نفسك قبل أن تُحاسَب فهو أيسر لحسابك ، وكن وصيَّها تأمن تفريط وصيّك بعدك ، وزِنْ أعمالك اليوم ولا تغفُل قبل أن تُحاسَب بموازين الغد ، فهو أثقل لوزن حسناتك ، إن كنت تحسن هذا الوزن وهـذا الحساب كيف يكون ، وإن كنت لا تدري ولا تحسن ، فهلمّ إلى مجلس إخوان لك نصحـاء أصدقـاء كرام فُضـلاء ، ليعرّفوك كيفيّة محاسبة نفسك ، ووَزنِ حسناتك ، فإنهم أهل هذه الصناعة ، وقد قيل : « استعينوا في كل صنعة بأهلها » .

وقد وضعنا هذا الحساب وهذا الميزان في رسالة البعث والقيامة فاعرفها من هناك ، إذا وقفت على جبل الأعراف مع أهل المعارف الذين ذكرهم الله تعالى ووصفهم بقوله: « وعلى الأعراف رجال يعرفون كلاًّ بسيماهم. ونادوا أصحاب الجنة سلام عليكم بمـا صبرتم » ثم وصفهم بقوله : « رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله» . فلا تغتر يا أخي بقول من يقول ويظن بأن هذا يُعرَف بعد الموت. هيهات هيهات: أولئك ينادون من مكان بعيد كيف يُعرف بعد الموت والله تعـالى يقول : « ومن كان في هـذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً » .

نبهك الله أيهـــا الأخ من نوم الغفلة ورقدة الجهـالة ، وأحيا قلبك بنور المعارف وجعلك من الذين ذكرهم بقوله : « أفمن كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منهـا » وظُلماتِ الجهالات المتراكمات بعضها فوق بعض على قلوب الغافلين ، كما ذكر في كتُب النبوات من المعارف الشريفة والأسرار المكنونة التي لا يمسُّها إلاَّ المطهَّرون

من أدناس الشهوات الطبيعية والغرور باللذات الجِرمانية الذين ذمهم الله بقوله: « إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة » وقال: « يريدون عرض الدنيا » وقال: « رضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها » وقال : « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريــدون علوّاً في الأرض ولا فساداً » وآياتٌ كثـيرة في القرآن في ذم المُريدين للدنيا ومدح المريدين للآخرة ، وفقك الله لإفـــادة الدار الآخرة وجعلك من أهلها وجميع إخواننا .

وإذ قد تبيّن بما ذكرنا طرف من مقاييس أهل الصنائع والعلوم، وموازين الحكماء فيها ، نريد أن نذكر طرفاً من مذاهبهم وآرائهم ، وبخاصّة ما كان في أمر الدين ، إذ كان هــذا الفن من المباحث والمطالب ومن أشرف الصنائع البشريّة ، وألطف العلوم الإنسانية، وأعجب المعارف ، وأعرف الإدراكات، وأهلها أعقلُ الناس، ومُدرَكاتهم أكثر من المعلومات، وذلك أن هذه الدرجة أحقّ درجة يبلُغ إليها العقلاء في طلبهم العلوم والمعارف ، وهــذا البحر من العلم أوسع أقطاراً ، وقعره ولُجّه أعمق أغماراً ، وجواهره أنفَسُ أقداراً ، وسالكوه أبعــدُ مراماً ، وربحهم أكثر تزايداً ، وأحزانهم أعظم مصيبة من سائر ما تقدّم ذكره، لأن من أُرشد في هذا الطريق ، فسيرته سيرة الملائكة، ومن ضلّ عنه سُلِك به مَسلك الشياطين ، والله يهــدي من يشاء إلى صراط مستقيم !

وسنبيّن صحة ما قلنـــا وحقيقة ما وصفنا عند ذكرنا الآراء الحِكمية ، والمذاهب البِدْعيّة الفِرقيّة ، والديانات النبوية ، والمنهاجات السنيّة ، والسِّيَر الملَكيّة ، والمقاصد الرّبّانية .

فصل في أجناس الآراء والمذاهب

فنقول : اعلم أن الآراء الفاسدة واختلاف العلماء فيها منها ما هو من امر الدين والشريعة وسُننها ، وما يتعلق بها من العلوم والأحكام ، ومنها ما هو في الآداب والرياضيات والعلوم والصنايع مما ليس له تعلق بأمر الدين ، مثل الحساب والهندسة والنجوم والنحو والطب وما شاكلها .

فأما التي لها تعلـّقٌ بأمر الدين فهي كثيرة لا يحصي عددها إلاّ الله، ولكن يجمعها كلها نوعان : حِكمية ونبوية . ونريد أن نذكر أصول هذه الآراء والمذاهب وبعض فروعها مختصراً أوجَزَ ما يمكن. وإذكان الشرح والاستقصاء يطول ، فنبدأ أولاً في بيان الآراء الحِكميّة ومذاهبها، إذ كنا قد بيّنا طرفاً من الآراء النبوية في رسالة النواميس الإلهية والمذاهب الرّبّانيّة ، ولكن نريد أن نذكر من ذلك ما لا بُدّ في هذا الفصل جُملًا قبل ذكرنا الآراء الحكمية والمذاهب البِدْعية ، ليكون الناظر فيها يحفظها ويعتقدها ، ويتعلق بقلبه قبل نظره في الآراء الحِكمية والمذاهب البدعية ، والبحث عنها والاحتجاجات عن أهلها المـُفسِدة للعقول السليمة الغير المرتاضة .

فأما بيان ماهيّة الخصال المانعة للإنسان عن الشرور فحسبما نبيّن ههنا ، وذلك أن الناس مختلفون في طباعهم وأخلاقهم وأعمالهم وعاداتهم وعلومِهم وصنائعهم ، ذوو فنون شتى لا يحصي عددهم إلاّ الله تعالى ، ولكن منهم خَيِّر وشرير، فنقول: أشرُّ الناس من لا دين له ولا يؤمن بيوم الحساب . والعِلـّة في ذلك أن الإنسان لما خُلق مستطيعاً لعمل الخير ، ممكناً به ، وهو بتلك الاستطاعة بعينها يقدر أن يعمل الشر لاسباب شتى ، ويمنعه عنه عللٌ عدة ، وقد بينّاها في رسالة الأخلاق ، ولكن أمنع الخصال للإنسان عن الشر ، وأقمعها عنه ، الدينُ وتوابعه من الورع والتقى والحياء والمروءة والرحمة والخوف وما شاكلها من خصال الدين والإيمان . فمن لا يؤمن بيوم الحساب

ولا يرجو الثواب ولا يخاف العقاب فهو لا يمتنع عن الشر جُهده وطاقته ، ولا سيما إذا دعته إليه الأسباب وأمكنه تجنُّبها في الظاهر مخافةً للناس فهو لا يتجنبها في السر .

واعلم أن الدين هو شيئان اثنان : أحدهما هو الأصل ومِلاكُ الأمر وهو الاعتقاد في الضمير والسر ، والآخر هو الفرع المبنيّ عليه القول والعمل في الجهر والإعلان . ونحتاج أن نشرحهما جميعاً حسب ما جرت عادة إخواننا الكرام الفضلاء ، فنبدأ أولاً بذكر الاعتقادات ، إذ كانت هي الأصول والقوانين فيما هو غرضنا ومقصودنا في هذا المقام ، كما قيل : « إنما الأعمال بالنيات ولكل امرىء ما نوى » .

فصل

في بيان ماهية أجود الآراء وخير الاعتقادات

فنقول : اعلم أن اعتقادات الناس كثيرة لا يحصي عددها إلاّ الله تعالى ، ولكن لا تخرج كلها من ثلاثة أنواع : فمنها ما يصلح للخاصّ دون العامّ ، ومنها ما للعامّ دون الخاصّ ، ومنها ما بين الخاصّ والعامّ . ونريد أن نذكر في هذا الفصل ما يَصلُح للخاصّ والعامّ جميعاً أن يعتقدوه ، إذ كان القسمان الآخران كثيري الأنواع والفروع التي يطول شرحها ، فنقول:

اعلم أن من أجود الآراء وأنفع الاعتقادات ، وما يصلُح لجميع الناس من الخاص والعامّ أن يعتقدوها ، ويُقرّوا بها ، هو القول بحدوث العالم ، وأنه مصنوع ، وله بارىء حكيم ، وصانع قديم ، وخالق رؤوف رحيم ؛ وأنه قد أحكم أمر عالَمه ، وأتقن أمر خلقه على أحسن النظام والترتيبُ ، ولم يترك فيه خللا واعوجاجاً البتّة . فإنه لا يجري في عالَمه أمر ، ولا يحدث حدَث صغير ولا كبير ، دقيق ولا جليل ، إلاّ هو يعلمه قبل كونه ، لا

تخفى عليه خافية ، ولا يعزُب عنه مثقال ذرّة ، وإن له ملائكة هم خالص عِباده ، وصفوة بريّته ، نصبهم لحفظ عالَمه ، وو كّلهم بتدبير خلائقه ، لا يعصونه طرفةَ عينٍ بما نهاهم عنه ، ويفعلون ما يؤمَرون . وإن له خواصَّ من بني آدم اصطفاهم وقرّبهم ، وجعلهم وسائط بين الملائكة وبين خلقه من الجنّ والإنس، وسُفَراءَ له؛ وإنهُ أمر عِباده بأشياء، إذا فعلوها، فهو خيرٌ لهم وأنفع للجميع . ونهاهم عن أشياء ، إن لم ينتهوا عنهـا ، صرفهم عن الأنفع ، وفاتهم الأفضل. وإنه لم يأمرهم شيئاً لا يطيقونه ، ولا يفعلون شيئاً بما هو لا يعلمه ، وإنهم قاصدون نحوه ، متوجّهون إليه منذ يومِ خلقهم ينقلُهم حالاً بعد حال، من الأنقص إلى الأتمّ ، ومن الأدوَن إلى الأكمل، ومن الأدنى إلى الأفضل، إلى يوم يلقَونه ويشاهدونه فيُوفّيهم حسابه .

ثم اعلم أنه ليس إلى معرفة هذا الرأي سبيل ، وإلى هـذا الذي ذكرنا ، وحقيقة ما وصفنا ، طريقٌ إلاَّ شيئان اثنان : أحدهمـا الاستبصار والمشاهدة بعين البصيرة واليقين ، بالقلب الصّافي من الشوائب للنفس الزكيّة النقيّة من الذنب ، بعد تأمُّل شديد للمحسوسات ، ودِقّةِ نظر في المعقولات ، ودراية بالرياضيـات ، وبحث عن القياسات ، كما فعلت القدماء الحكماء المُوحّدون الربّانيون ؛ وإقرارٌ باللسان ، وإيمان بالقلب ، وتسليم بالقول كإقرار الملائكة بها إلهاماً وتأييداً ، وكإقرار الأنبياء للملائكة وحياً وإنبـاء ، أو كإقرار المؤمنين للأنبياء إيماناً وتسليماً ، وكإقرار العامّة والأتباع للخواصّ والعلماء تقليداً وقولاً ، أو كإقرار الصّبيان للآباء والمعلمين تعليمـاً وتلقيناً . فهذا الذي ذكرناه هو أحـد أركان الدين وهو الاعتقـاد الصحيح . وأمـا الرُّكن الآخر الذي هو الطـاعة فهو الانقيـــاد من المأمورين والمرؤوسين للآمِرين الناهين .

ثم اعلم أن الأوامر والنواهي تختلف بحسب مراتب الآمِرين والمأمورين في أحوالهم . فمن ذلك طاعة الأولاد للآباء والأمّهات فيما يأمرونهم به ممـــا فيه

صلاحهم ، وينهونهم عنه بما فيه فسادهم وهلاكهم: «فقل لهما قولاً كريماً ، وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما ». ومنه طاعة الصبيان المعلمين في قَبول التأديب فيما هو صلاح لهم . ومنها طاعة التلامذة للأُستاذِين في قَبولهم تعليم الصنائع لهم. ومنها طاعة الأزواج لبعولتِهنّ فيما يأمرونهن من لزوم المنزل والتصوُّن الذي فيه صلاحهن . ومنها طاعة المَرضى للأطباء في الحمية وشُرب الأدوية بما فيه صلاحهم وبرؤهم . ومنها طاعة الجهّال للعلماء فيما يأمرونهم بالتمسك بأمر الدين واجتناب المحارِم بما هو صلاح لهم . ومنها طاعة الرعيّة للسلطان العادل فيما يأمرهم به من المعروف وينهاهم عن المنكر ، ومنعهم من ظُلم بعضِهم بعضاً بما فيه صلاحهم. ومنها طاعة السلاطين والأُمراء والملوك لخلفاء الأنبيـــاء ، عليهم السلام ، فيما يُولُّونهم من البلدان وجباية الخراج ، ومحاربة الخوارج والأعداء ، وحِفظ الثغور وتحصين البيضة فيما فيه صلاحٌ لهم وصلاحُ الرعيّة منهم . ومنها طاعة الخلفاء للأنبياء ، عليهم السلام ، فيما رسموا لهم من حِفظ الشريعة عـلى الأُمّة وإقامة السُّنّة عـلى أهل الملة . ومنها طاعة الأنبياء ، عليهم السلام، للملائكة فيما تُلقي إليهم من الوحي والأنباء في تدوين الكتب المنزلة ، ووضع الشريعة وإيضاح السُّنة ، وجمع شمل الأُمّة وتأليف قلوب الجمـاعة ، بإبلاغ الوصيّة وبإظهـار الدعوة فيما فيه صلاحُ الكلّ ونفعُ الجميع . ومنها طاعة الملائكة لرب العالمين فيما قضت من عبادته ، ووُكّلت به من تدبير بريّته وحفظ خليقته ، بما فيه صلاح للجميع ونفع للعموم ، وبقاء للعـالم ودوام الخليقة ، والبلوغ بهـــا إلى أقصى مدى غاياتها التي هي السعادة العظمى .

فهذا هو الدين النبويّ الحنيفي ، والمنهاج السني والسِّيرة المَلَكيّة ، وهو أن يكون كلُّ مرؤوس ينقاد لطاعة رئيسه ولا يعصيه فيما يأمره به وينهاه عنه فيما فيه صلاح للجميع .

وإذ قد تبيّن بما ذكرنا ما الدين الحنيفيّ ، والمذهب الرّبّانيّ ، والاعتقاد

الجيّد ، والرأي الصواب ، والطريقة المختارة التي تَصلُح أن يتديّن بها كلُّ الناس، ويعتقدها كل أحد من الخاصّ والعام جميعاً، نريد أن نذكر طرفاً من المذاهب المختلفة ، والآراء الذائعة ، وما الأسبابُ الداعية لأهلها إليها ، ومن أين انحرفوا عن الطريقة المستقيمة ، وضلوا عن الصواب ، ووقعوا في الأباطيل ، ونبدأ أولاً بذكر الآراء الحِكْميّة والمذاهب البِدْعيّة ، ثم نذكر عِلل اختلاف أهل الديانات والنواميس الإلهية في فروعها من السُّنن والأحكام.

فصل

في بيان الآراء الحِكمية وهي نوعان دُهريّة أَزلية ومُحدثة مُعلّلة

فنقول : اعلم أن من هذين تفرّعت سائر الآراء الحِكْميّة ومذاهبُها ، فلنبدأ أولاً بذكر الدُّهريّة ، ثم نقول : هؤلاء كانوا أقواماً قد كان لهم من الفهم والتمييز قَدْرٌ ما ، فنظروا إلى الموجودات الجُزئية المُدرَكة بالحواسّ ، وتأمّلوا واعتبروا لها أحوالها ، فوجدوا لكل مصنوع أربعَ عِلَل : عِلّة هَيُولانية ، وعِلّةٌ صُورية ، وعِلة فاعلية ، وعِلة تماميّة . فلما فكروا في حدوث العالم وصَنعته ، طلبوا لها هذه الأربع العِلَل ، وبحثوا عنها وهي هذه : تُرى من عَمِله ؟ ومن أي شيء عَمِله ؟ وكيف عَمِله ؟ ولِمَ عَمِله؟ وأيضاً متى عَمِله ؟ فلم يبلغ فهمُهم إلى ذلك ، ولم يتصوروه لقصور نفوسهم عن فهم دِقّة معانيها ، لأن الباحث عنها يحتاج إلى نفس زكيّة فاضلة في العلم والعمل ، ويحتاج إلى ذِهن صاف خِلْوٍ عن الغِش أو الدَّغل ، ونظرٍ دقيق، وبحث شديدٍ ، ليُدرك هذه العِلَلَ ومعانيها وحقائقها ، كما بيّنا في رسالة المعارف . ولما نظروا في هذه المباحث ولم يعرفوها ، دعاهم جهلهم وإعجابهم بآرائهم إلى القول بقِدَم العالم وأزليّته ، وأنكروا العِلّة الفاعليّة لما جهلوا الثلاث الباقية ولم يعرفوها .

ثم اعلم أن كل ناظر في مصنوع ، متأمّلٍ له ، يطلب بتأمّله وفكره أربع عِلَل : مَن عَمِل ؟ ومتى عَمِل ؟ وكيف عَمِل ؟ ولِمَ عَمِل ؟ فإنما يطلب هذه المباحث لأنه يرى ويعاين بأول نظرة في ذلك المصنوع أشياءَ ثلاثةً ظاهرةً جليّة من أثر الصَّنعة لا تخفى على كل عاقل سليم العقل من الآفات العارضة للعقول ، وهي الثلاثة المخصوصة ، والشكل والنقش والتصاوير والأصباغ وما شاكلها ، فلولا أن هؤلاء الذين زعموا وقالوا بقدم العالم قد رأوا هذه الأشياء بنظرهم إلى هذا العالم ، وبتأمّلهم بِنيَته وشكله وما فيه من أنواع التصاوير والنقوش والأصباغ ، لما طلبوا الفاعلَ له ولا بحثوا عنه كيف عمل ؟ ومتى عمل ؟ ومن أي شيء عمل ؟ ولِمَ عمل ؟ وأيضاً لو أنهم حين لم يعرفوا هذه العِلل ولم يفهموا ، رجَعوا إلى قول من هو أعلم منهم وأعرفُ بماهيّاتها وحقائقها ، وأقروا على أنفسهم بالعَجز ، لما قالوا هذا القول ، ولا اعتقدوا هذا الاعتقاد ، ولكنهم لإعجابهم بأنفسهم واتّكالهم على بحثهم ودِقّة نظرهم ، دعاهم إلى القول بقِدم العالم. وذلك أنهم تكلفوا ما لم يُطيقوا ، وتعاطَوا ما لم يكن من صِناعتهم ، فوقعوا فيها وتحيّروا فيه ، وأصابهم ما أصاب القِردَ من النجّار .

فهذا الباب من اختلاف الناس ، وأعظَمُها بليّةً أن يتعاطى الصناعة من ليس من أهلها .

فصل

في بيان مناقب العقلاء والآفات العارضة للعقول

فنقول : اعلم أن هؤلاء القوم لم يرتابوا ولم يَضِلّوا من قلة العقل ، ولا رداءة التمييز ، ولا من تَرْك النظر ، ولكن من الآفات العارضة للعقول ، وذلك أن العقل ، وإن كانت له مناقبُ كثيرة ، فإن له أيضاً آفات كثيرةً تَعرِض لها ، وقد ذكرنا طرَفاً منها في رسالة الأخلاق ، ولكن لا بد أن نذكر في هذا الفصل طرَفاً منها فنقول : أولاً ما العقل الإنساني ؟ وذلك أن العقل الإنساني ليس هو شيئاً سوى النفس الناطقة ، إذا هو كَبُر وشاخ بعد أيام الصبا ، وذلك أن النفس يوم رُبِطت بالجسد ، أعني الجنينَ في الرَّحم ، كانت ساذجة ، لا علم لها من العلوم ، ولا خُلُقَ من الأخلاق ، ولا رأي ولا مذهب ، ولا تدبير ولا سياسة ، ولا رياضة في أدب ، كما ذكر الله تعالى : « والله أخرجكم من بطون أُمهاتكم لا تعلمون شيئاً » وإنما كانت جوهرةً روحانيّةً حيّةً بالذات ، علاّمة بالقوّة ، فعّالة بالطبع . فإذا حصلت فيها رسومُ المحسوسات التي تسمى أنواعاً وأجناساً مصوَّرةً بعد غيبة المحسوسات عن مشاهدة الحواس لها ، فميزتها وتأملتها ونظرت فيها وعرفت أعيانها ومنافعها ومضارّها ، وجربتها واعتبرتها ، سُمّيت عند ذلك عاقلةً علاّمةً بالفعل ، كما بيّنّا في رسالة الحاس والمحسوس .

فأما مناقب العقل وأفعاله فكثيرة لا يحصي عددها إلاّ الله الواحد القهار ، وقد ذكرنا طرَفاً في رسالة العقليات وشرحاً ، ولكن نريد أن نشير إليها في هذا الفصل إشارة فنقول : إن جميع الأفعال البشرية المُحكَمة ، وجميع الآراء والمذاهب المختلفة العقلية والوضعية ، من أفعال العقل الإنساني ، لكن له ، مع هذه الفضائل والمناقب كلها ، آفات عارضة كثيرة ، فمن تلك الآفات الهوى الغالب نحو شيء ما ، والعُجْبُ المفرط من المرء برأي نفسه ، والكبر

المانع عن قَبول الحقّ ، والحسد الدائم للأقران وأبناء الجنس ، والحِرصُ الشديد على طلب الشهوات ، والعجلةُ وقلّةُ التثبُّت في الأمور ، والبغضُ والعداوة عند الحكومة والخصومات ، والميلُ والتعصب لمن يهوى ، والحميّة الجاهلية عند الافتخار والأنفة من الانقياد للطاعة وحب الرياسة من غير استحقاق ، وما شاكل هذه الآفات العارضة للعقلاء ، المُضِلّةَ لهم عن سُنن الهدى ، المانعة عن الانتفاع بفضائل العقل ومنافعه .

ثم اعلم أنه ليس من مَرتبةٍ في الدنيا أرفع، ولا فضيلة أَحسنُ من الرياسة في العقلاء لذوي السياسات والتدبير، ولا نعمةٍ ألذُّ ولا رتبةٍ أحسنُ من انقياد العقلاء للرئيس وطاعتهم له ، ولا محنةٍ أَعظمُ ولا بليةٍ أشدُّ من عِصيان العقلاء للرئيس الفاضل وعداوتهم له . وهذه الخصال من إحدى أُمّهات الخلاف والمعاصي ، وهي كِبرُ إبليس وحِرصُ آدم ، عليه السلام ، وعَجلته حين بادر وحسد قابيل .

فأما الكبر فهي الخَصلة التي سنّها إبليسُ فِرعون آدم كفراعنة الأنبياء الذين هم جنوده يومَ أُمِر بالسجود لآدم والطاعة والانقياد لأمره .

والخصلة الأُخرى التي هي أيضاً إحدى أمّهات المعاصي حرصُ آدمَ وعجلتُه حين بادر وطلب ما ليس له ، تناوله قبل حينه واستحقاقه ، فلما ذاقها بدت له عورته، وسقطت مَرتبته، وانحطت درجتُه، وانكشفت عورته، وشمتت به أعداؤه !

فلولا أنه كانت سبقت كلمة من ربه تفضُّلًا منه عليه ورحمةٌ منه لكان لِزاماً له العقوبة وكلّ من عصى من ذُريّته ، كأن يتعاجل بالعقوبة من ساعته ، ولكن أُمهل إلى وقتٍ ما . فلما تاب وندم استحق الغفران والعفو : « ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين ».

فأما إبليس فإنه لما أنكر السجود والانقياد للطاعة ، واستكبر وتمرّد ، ولم يندم ولم يرجع أيِس من الرحمة . ولكن أُنظِرَ أيضاً وأُمهِلَ وأُخّرت

العُقوبة والعذاب إلى يوم الوقت المعلوم: «قال رب فأنظرني إلى يوم يبعثون، قالْ فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم، قال فبعزتك لأُغوينهم أَجمعين إلاّ عبادك منهم المخلصين».

وهـذه سُنّة الفراعنة وحالهم في الدنيـا والدين الذين هم جنود إبليس أجمعون، الذين يأنفون من الدخول تحت أمر الأنبياء والطاعة لهم، ويؤخّرون ويمهَلون إلى يوم يموتون. فإذا ماتوا قامت قيامتهم وأخسئوا بالعذاب، فلا يزال ذلك دأبهم إلى يوم يُبعَثون، كما قال تعالى: «النار يعرضون عليهـا غدوّاً وعشيّاً ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب».

فقد تبين بما ذكرنا أن القائلين بقِدَم العالم لم يرتابوا ولم يَضِلّوا عن الصّراط من قلة العقل والبلاهة، أو ترك النظر والبحث، ولكن من الآفات العارضة، والأخلاق الرديئة للنفوس، والأسباب المختلفة، والأمور المُشكلة، والقُصور عن التمام، وتركهم مـا كان أخـذُه عليهم أَوجب، وفعلُه بهم أولى؛ وتعاطيهم مـا لم يكن من صِناعتهم، وتَكلُّفِهم مـا لم يكن من قوّة نفوسهم.

فصل

وأما الآخر من الخطإ الذي يطرأ عليهم

وذلك أنهم أرادوا أن يعرفوا العِلّة الفاعلة قبل معرفتهم المعلول، وإنما يُعرف الصـانع المحتجب الغائب عن إدراك الحواس، إذا عُرف المصنوع المكشوف الظاهر، وإنما يُعرف المصنوع بالنظر إلى الهَيُولى واعتبار أحوالها، لأن في معرفة حقيقة الهيولى، ومعرفة أحوالها، معرفة المصنوع، وفي معرفة المصنوع معرفة الصانع. وقـد بيّنا في رسالة سَمع الكيان ماهيّة الهَيُولى وحقيقتها وأحوالها، ولكن نذكر هاهنا من أمرها ما لا بدّ منه.

ثم اعلم أَن الهَيُولى وحقيقتَها هو جوهرٌ ساذج، لا كيفيّة له، ولا النقش، ولا الصورة ، ولا الأشكال ، ولا الأصباغ ، ولا الأعراض ، بل هو متهيّءٌ لقَبُولها ، ولا يقبلها إلاّ بقصدِ قاصدٍ وجعلِ جاعل . مثال ذلك الخشب فإنه متهيّءٌ لقَبُول صورة الألواح ، والسرير والكرسي والباب وغيرها ، ولكن بقصد من النجّار وعنايةٍ منه . وهكذا قطعة من حديد فإنها لا تقبل الصورة إلاّ بعد قصدِ قاصدٍ من الحدّاد ، وكذلك سائر الهيُوليّات الموضوعة في سائر الصنائع البشرية . وهكذا أيضاً الهيولى الطبيعية التي هي الأركان الأربعة التي لا تجمع ، ولا يكون منها المعدِن والنبات والحيوان إلاّ بقَسرِ قاسرٍ أو صنع صانع . والعلة الفاعلة لهـا هي قوّة من قُوى النفس الكليّة الفلكيّة بإذن الله تعالى .

. وهكذا الجسمُ المطلق الذي هو جوهر طويل عريض عميق حَسبُ ، لا يصبر عـلى الأشكال كُريّاتٍ مدوّرات بعضُها ببعض ، وبعضُها كواكب صغار وكبار ، وبعضها أركان مختلفة الطبائع من الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة ، وخفيفٌ وثقيل ، ولطيف وغليظ ؛ وبعضُهـا متحرّك ، وبعضُها ساكن ، وبعضهـا أسرعُ حركةً ، وبعضهـا أبطأ حركة ، وما شاكل هذه الحالات التي هي موجودة عليها إلاّ بقصدِ قاصدٍ وجعل جاعلٍ ، وهو الله العزيز الغفار الواحد القهار تعالى وتقدّس .

وكفى بهذا دليلاً وبياناً وحُجّة للعقول الغريزية عـلى أَن العالم مصنوع ، والمصنوع يقتضي الصانع ، وهذه قضيّة موجِبة في أوائل العقول ، بيّنة ظاهرة جليّة لا تخفى على كل عاقل متأمّل ، سليم القلب والعقل من الآفات العارضة ، وإن لم يعلم من عَمِله ، ومتى عَمِله ، وكيف عَمِله ، ولِمَ عَمله .

فأما النظر في أمر الهَيُولى والدليـلُ والحُجّة على حدوثه ، فيحتـاج إلى نظر أدق من هذا ، وبحثٍ أشدّ ، وتأمُّلٍ أجوَد ، وتمييزٍ ألطف ، كما بيّنا في رسالة المبادىء العقليّة .

وإذ قد تبيّن بما ذكرنا بُطلان قول القائلين بقِدم العالم، نريد أن نذكر طرفاً من أقاويل القائلين بحدوثه وفنون مذاهبهم، واختلاف طبقاتهم، والأسباب المؤدّية لهم إليها، وفيماذا أصابوا، وفيماذا أخطأوا.

فصل

في بيان العلة الداعية إلى القول بحدوث العالم عن علة واحدة

فنقول: اعلم أن القائلين بحدوث العالم طائفتان: إحداهما تعتقد أن العالم محدَث مصنوع وله عِلّة واحِدة مُبدِعة مخترعة وهو حيٌّ قادر حكيم، وهذا رأي الأنبياء، عليهم السلام، وأتباعُهم، وبعض القدماء الموحّدين والحكماء منهم. والأُخرى ترى وتعتقد أن العالم محدَث مصنوع، ولكن ترى وتعتقد أن له عِلّتين اثنتين قديمتين أوليّتين، وهذا الخلاف من إحدى أُمّهات الآراء والمذاهب المتفرّعة بها، ونحتاج أن نذكر الاعتبار والقياس الذي أدّاهم إلى هذا الرأي والاعتقاد كيف كان فنقول:

اعلم أن السبب في ذلك هو نظرهم إلى الشرور التي تجري في عالم الكون والفساد الذي هو دون فلك القمر، وذلك أنهم رأوا من القبيح الشنيع أن يكون صانع العالم واحداً، ثم يترك عالمه مملوءاً من الشرور والفساد، ولا يمنع من ذلك ولا يغيره، وإن كان لا يقدِر عليه فقد وجب عِلّةٌ أخرى، لأن الشرور أفعال، والفعل لا يكون إلاّ من فاعل ومُنفعِل. هذا كان نظرهم، وإلى هاهنا كان مبلغهم من العلم، وإلى هذا أدّاهم اجتهادهم في البحث والتمييز والقياس.

وهذه المسألة، أعني طلب عِلّةِ كون الشرور في العالم، هو من إحدى أمهات أسباب الخلاف من العلماء في الآراء والمذاهب، وذلك أنه منذ كان الناس في

الدنيا ، والعلماء مختلفون في عِلة كون الشرور في هـذا العالم لمن هو ؟ ومن الفاعلُ لها بالحقيقة ؟ ومن أين كان أصلها ؟ وسنذكر بعد هذا الفصل ما قالوه وتكلموا فيه .

فصل

في بيان أَسباب العِلّة الداعية للقائلين بالأصلين

فنقول : اعلم ، وفقك الله ، أن القائلين بالأصلين طائفتان : إحداهما ترى وتعتقد أن لهما فاعِلَين أحدهما نورٌ خَيّر ، والآخر ظُلمة شِرّير . وهـذا رأي زَارادَشت وماني وأتباعِهما ، وبعضِ الفلاسفة . والطائفة الأُخرى ترى وتعتقد أن إحدى العِلّتين فاعل والأُخرى منفعل، يعنون به الهَيُولى. وهذا رأي بعض الحكماء اليونانيين ، والذي دعـاهم إلى هـذا الرأي هو نظرهم إلى الشرور التي تجري بين كل اثنين متنازِعَين من الناس والحيوان ، من القتل والحروب والخصومـات والعـداوات ، ومـا يحدث بينهمـا من الأسباب والأحوال ، فبهذا الاعتبار قالوا ، وبهذا القياس حكموا بأن حدوث العـالم كان سببه من فاعلين اثنين متنازِعَين، لكن أحدهما خيّر والآخر شرير. فهذا كان قياسهم ، وإلى هذا الموضع كان مبلغهم من العلم ، وإلى ههنـا أدّاهم اجتهادهم . ولهم أيضاً في كيفية حدوث العـالم كلام وأقاويل يطول شرحها ، إلاّ أنها مذكورة في كتبهم ، فلذلك تركناها إذ لا فائدة في بيان ذلك .

فأمّا القائلون بأن أحد الأَصلين فاعل ، والآخر منفعل ، فإنما دعاهم إلى هذا الرأي ما رأوا أنـه يَلزَم القائِلِين بالفاعِلَين من الشُّنعة والقبح ، ومـا يوجب لهما من العَجز والنّقص من فعالهما وتناقضهما ، ومـا يقتضي دون ذلك من قِلّة النظام في تركيب العالم وخلق السمَوات ، وما يَعرِض من الفساد

العام والبَوَار الكُلّي . وقد يوجد الأمرُ بخلاف ما يلزَم من هذه الحكومة . وذلك أنهم قد تبيّنوا نِظام العالم، وعرفوا إتقان خلق السمَوات، مع سَعتها وكبر أجزائها ، وكثرة خلائقها التي هناك ، وليس فيها شيء من الفساد والشرور البتّة ، وأنها كلها على أحسن النظام ، وأجود الترتيب والهِنـدام ، وأن الشرور لا توجَد إلاّ في عالم الكون والفساد التي تحت فلك القمر ، ولا توجَد الشرور أيضاً في عالم الكون والفساد إلاّ في النبات والحيوان دون سائر الموجودات، ولا في كل وقت أيضاً ، ولكن في وقت دون وقت، وأسبابٍ عارضة لا بالقصد الأول من الفاعل ، بل من جهة نقص الهَيُولى وعجزٍ فيه عن قبول الخير في كل وقت أو على كل حال .

وقياسهم في ذلـك ، أعني كون الشرور من قِبَـل الهيولى ، واعتبـارُهم الموجودات في الشاهد ، وذلك أنهم قالوا : إنّـا نجد في وُدّ كل صـانع أن تكون مصنوعاته على أتقن ما يمكن ، ولكن ربما لا يتأتّى في ذلك المـادّةُ والهَيُولى الموضوعُ في صناعته إلاّ على قدرٍ مّا ، فهو يفعل فيها بحسب مـا يتأتّى فيها، ويعمَل عليها ما يجيء عنها ، وليس العجز منه بل هو من الهيولى الناقص العَسِر القَبول .

ومثال ذلك أن الحكيم منـا في الشاهد في وُدّه أن يُعلّم كلّ عـلم وكلّ حكمة يُحسِنها لأولاده وتلامذته ، وأن يجعلهم حكماء فضلاء مثله في أسرع ما يكون ، ولكنهم لا يقبَلون ذلـك إلاّ عـلى التدريـج ، وفي ممر الأيام والأوقات ، شيئاً بعـد شيء لنَقص فيهم ، لا لعجز في الحكيم ، والنقصُ في الكمال يسمّى شرّاً ، وليس الشر سوى عدم الخير والتام والكمال . فهذا كان مبلغُ علمهم ، وإلى ههنا أدّى اجتهادهم .

فأما القائلون بالعلة الواحدة وأنها واحدة قديمـة ، فإنهم نظروا أدقّ من نظر أُولئـك ، وبحثوا أجودَ من بحثهم ، وتأملوا غير تأملهم ، فرأوا من القبيح الشنيع أن يكون مُحدثُ العالم قديمين ؛ واعتبارُهم وقياسهم كان في

ذلك هكذا .

قالوا : لا يخلو الأصلان القديمان من أن يكونا مُتفقين في كل شيء من المعاني، أو مُختلِفَين في جميع المعاني، أو مُتفقين في شيء ومُختلِفين في شيء. فإن كانا متفقين في جميع المعاني فواحد لا اثنان، وإن كانا مختلِفَين في المعاني، فأحدُهما عدم . وإن كانا متفقين في شيء ومختلِفَين في شيء ، فالشيء الثالث ، وقد بطلت المَثنويّة ، فيجب أن يكون أصلُ العالم ثلاثة . والقائلون بالثلاثة أو أكثر لازمةٌ لهم هذه الحكومة والشنيعة أيضاً . فأمّا العِلّة الواحدة فمتفق عليها بأن من يقول بالاثنين كمن يقول بالواحد ، ثم أدعى إلى مادة الزيادة .

فصل

وأما بيان البحث عن حدوث الهَيُولى فنقول : أما المقرّون بحدوث الهَيُولى من الحكماء القدماء فإنهم لما أرادوا البحث عن ذلك ، ابتدأوا أولاً بالنظر في العلوم الرياضية فأحكموها، ثم بحثوا عن الأُمور الطبيعية ، فعرفوها معرفة صحيحة ، ثم تفكّروا ، عند ذلك ، في الأُمور الإلهية ، وبحثوا عنها بحثاً شديداً بنفوس صافية ، وأفهام زكية ، وعقول وافية ، فأدركوا ما طلبوا ، وتصوّروا ما بحثوا عنها عن قوة معرفة صحيحة ، وسكنت صدورهم إلى ذلك .

وقد بيّنا في رسائلنا الإلهية طرَفاً من ذلك ، ولكن نذكر أيضاً في هذا الفصل مثلاً واحداً ليكون دليلاً على صحة ما قلنا، وذلك أنهم لما أرادوا النظر في حدوث العالم كيف كان بعد أن لم يكن ، وما ذلك الصانع الذي صنعه ، نظروا أولاً إلى المصنوعات فتأملوها، فوجدوها أربعة أنواع: فمنها مصنوعات بشريّة نحو ما يعمله الصُّنّاع في أسواق المدن . ومنها مصنوعات طبيعية

مكوّنة من الأركان الأربعة مثل أشخاص الحيوانات والنباتات والمعادن . ومنها مصنوعات نفسانية كالأفلاك والكواكب والأركان . ومنها مصنوعات إلهية كالعقل الفعّال والنفس الكليّة والهَيولى الأُولى والصورة المجرّدة .

ثم نظروا إلى المصنوعات البشرية فوجدوا كل صانع من البشر محتاجاً في صناعته إلى ستة أشياء ليُتمّ بها صنعته ، وهي الهَيولى ، والمكان ، والزمان ، والحركة ، والأدوات ، والآلة. وكل صانع طبيعي محتاج إلى أربعة منها ، وهي الهَيولى والمكان والزمان والحركة . ووجدوا كل صانع نفساني محتاجاً إلى اثنين منها ، وهي الهَيولى والحركة، فعند ذلك تبيّن لهم أن الباري تعالى غير محتاج إلى شيء منها ، لأن فعله وصَنعته إنما هي اختراع وإبداع بلا حركة ولا زمان ولا مكان ولا أدوات وذلك أن الله تعالى أولُ شخص اخترعه وأوجده – جوهراً شريفاً بسيطاً روحانياً – يسمّى العقل الفعّال ، ثم أبدع، بتوسّط هذا الجوهر ، جوهراً آخر دونه في الشرف يقال له النفس الكليّة .

ثم ابتدأ النفسَ الكليّة بتوسّط العقل الفعال فحرّكت الهَيولى الأُولى طولاً وعرضاً وعمقاً، وكان منها الجسم المُطلق . ثم ركّب من الجسم عالم الأفلاك والكواكب والأركان الأربعة جميعاً . ثم أدار الأفلاك حول الأركان ، واختلطت بعضُها ببعض ، وكان منها المولّدات الكائنات من المعادن والنبات والحيوانات ، فتبارك الله رب العالمين . فقد تبيّن بهذا الاعتبار وبهذا القياس العِلة الفاعِلة ، والعلة الهَيُولانية ، والعِلة الصُّوريّة .

فأما الدليل على صحة ما قلنا وحقيقة ما وصفنا فلا يتبيّن إلاّ بعد معرفة النفس ذاته فإنه أشرفُ جوهراً من الجسم . وقد بيّنّا طرَفاً من ذلك في رسائلنا الرياضيات والطبيعيات والإلهيات بما فيه كفاية ، ولكن نذكر في هذا الفصل طرفاً منها بعون الله .

فصل

فنقول : أولاً إن الجسم جوهر طويل عريض عميق ، إيجاب غير حيّ ، ولا متحركٌ ولا حسّاسٌ ، سُلِّمَ هذا بإجماع من العلماء .

فأما النفس فإنها جوهر ليست بجسم ، وهي حية بذاتها ، علاّمة بالقوة ، فعّالة بالطبع . والدليل على ذلك ما قد بان من تأثيراتها في الأجسام ، وذلك أنها هي المُحرِّكة للجسم ، المُدبِّرة المُكسِبة له الحياة والقدرة ، وهي المصوِّرة فيه الأشكال والنقوش ، المتحكمةُ عليه ، المتصرِّفة بحسب ما يتأتّى في شخص واحد من الأجسام الكليات والجزئيات أجمع ، وكفى بهذا دليلًا على وجود النفس وشرف جوهرها .

وأما الدليل على أن العقل أشرف من جوهر النفس فهو بيّن ظاهر لكل عاقل . وذلك أن الإنسان لما كان أفضل من سائر الحيوانات التي تحت فلك القمر ، وكان فضله إنما هو من قِبَل عقله لا من جهة النفس ، لأن سائر الحيوانات لها نفوس أيضاً ، فكفى بهذا دليلًا على أن العقل أشرفُ من النفس .

ولما تبيَّن أن العقل أشرف الموجودات وأفضلها ، بعد الباري تعالى ، وكان العقل هو المُقِرّ على نفسه وعلى ما دونه من الموجودات بأن كلها مبدَعات مُحدَثات مُكوَّنات ، وأنه عبدٌ لربه ، وأن ربه عِلّةٌ لها ، وهو الذي أبدع الهيولى واخترعها بعد أن لم تكن ، فوَجب الرجوع إلى حُكم العقل وقضيته ! فإن قال قائل : إن الذين قالوا بقِدَم الهَيُولى وأزليته ، فبقضية العقل حكموا ، فلِمَ لا يجب النزول على قضيتهم والرضى بحكمهم ؟ فنقول : إن عقل الإنسان نوعان غريزي ومُكتسَب ، فأما الغريزي فيَحصُل للإنسان بعد تأمُّله للمحسوسات ، وأما الغرض المكتَسب فكل من كان أكثر تأمُّلًا للمحسوسات وأصفى نفساً كان أعقل . وبهذا العقل يعلم أن العالم مصنوع

مركّبٌ من هيولى وصورة ، إذا تأمّل جزئياته من الأفلاك والأركان والمولّدات والمصنوعات ، وذلك أن في كل مصنوع آثارَ الصنعة باقية فيه ، يضطر العقل الغريزي إلى الإقرار به ، وإن لم يعلم متى عمل ؟ وكيف عمل؟ ولِمَ عمل ؟ ومَن عمل ؟

وأما حدوث الهيولى فليس يُعلَم بهذا العقل الغريزي ، ولكن بالعقل المُكتَسب ، والعقلاءُ متفاوتو الدرجات في هذا العقل كتفاوتهم في العقل الغريزي « وفوق كل ذي علم عليم » . وذلك أن كل من كان أكثر تأمُّلًا ، وأكثر رياضات للمعقولات الغريزيّة المأخوذة أوائلها من المحسوسات ، وأصفى نفساً ، كان أعقل وأعلى درجة في المعارف .

وإذا تأملت يا أخي وجدت أكثر اختلاف العلماء في أحكام هذا العقل المكتسب ؛ إمّا من أجل تفاوتهم في درجات عقولهم ، وإمّا من أجل اختلافات قياساتهم وفنون استعمالهم لها . وذلك أن منهم من يستعمل في البحث عن دقائق العلوم القياس الجَدلي . ومنهم من يستعمل القياس الخَطابي أو البرهان الهندسي أو المنطقي أو العددي ، فتختلف نتائجها بحسب اختلافها ، وتختلف أحكام العقول بتفاوتها اختلافاً كثيراً لا يحصي عددها إلاّ الله الواحد القهار . وقد ذُكر في كتب المنطق طرف من ذلك بشرح طويل ، ولكن نذكر لذلك مِثالاً واحداً ليكون دليلًا على ما وصفنا فنقول :

اعلم أن العقلاء إنما وضعوا القياسات العقلية ليستخرجوا بها المجهولات بالمعلومات فيما اختلفوا فيه بتحرُّز العقول ، كما وضعوا الموازين والمكاييل والأذرع ليستخرجوا بها مقادير الأشياء المجهولة بالأشياء المعلومة لما اختلفوا فيه بالحزر والتخمين فيما يتعاملون ، كما أن هذه الموازين مختلفة بحسب بلدانهم وسُنَن شرائعهم ، كذلك قياسهم العقلي يختلف بحسب مراتبهم في درجات العقول المكتَسَبة .

والذين قالوا بقِدَم الهيولى أدّاهم إلى هذا الحكم طريق القياس الذي

استعملوه . وذلك أنهم نظروا في هذه الهيولى كنظرهم في هيولى الصّناعة ، وهيولى الطبيعة ، وهيولى الكلّ ، فقاسوا بها ، ومن هاهُنا انحرفوا عن الصواب وأخطأوا القياس ! وما مثَلُهم في ذلك إلاّ كمثَل أولئك الصبيان الأغبياء الذين ذكرناهم في رسالة المعارف ، وذلك أن هيولى الصناعة مصنوع الطبيعة ، فهي شيء موجود ، وهيُولى النفس هو مصنوع الباري تعالى مُبدَع مخترَع لا من شيء آخر ، فلو أنهم سلكوا في البحث عن حدوث العالم مسلك الفلاسفة الربّانيين لما اختلفوا ، وذلك أن هؤلاء الحكماء الرّبّانيين ، لما أرادوا البحث عن حدوث العالم والهيولى الأُولى ، ابتدأوا أولاً بالفكر في الأمور الرياضية فأحكموها ، ثم بحثوا عن الأُمور الطبيعية فعرَفوها معرفة صحيحة ، ثم تفكروا في الأُمور الإلهية وبحثوا عن حدوث العالم وحدوث الهَيُولى كيف كان ، فأدركوا ما طلبوا ، وفهموا ما أدركوا ، وتصوّروا ما بحثوا عنه ، وبحثوا عما تصوّر لهم ، وسكنت نفوسهم إلى ذلك . ونحن قد بيّنا طرفاً من ذلك في رسالة المبادىء العقلية .

فصل

في بيان أقاويل العلماء في ماهيّة الهَيولى

فنقول : اعلم أن القائلين في ماهيّة الهيولى وحدوثها مختلفون في ماهيّتها وكيفية حدوث الأجسام منها ، وهذا الخلافُ هو من إحدى أُمهات الآراء والمذاهب المفرعة عنها . وذلك أن منهم من يرى ويعتقد أنها أجزاء صغار لا تتجزأ ، فإن أُلّفَت ضَرباً من التأليف كانت منها الأجسام المختلفة الأشكال ، كما ذكرنا في رسالة الهندسة الحسيّة ، فإنها مختلفة الكيفيّات يَعنون أن منها أجزاء ناريّة ، وأجزاء ترابية ، وأجزاء هوائية ، فإذا اختلطت ضروباً من الاختلاط ، كانت منها المولّدات الكائنات من المعادن والنبات والحيوان

وسائر الأفلاك والكواكب . والذي أدّاهم إلى هذا الرأي اعتقادُهم للأُمور ، وقياسُهم هَيُولى الصناعة ، وذلك أن منهم لما رأوا هَيُولى الصنائع مُختلفة الكيفيات ، فإذا أُلّفت كانت منها جزئيات من المصنوعات المختلفة كالسرير والباب المؤلّف من الخشب .

وهكذا حروف الكتابة ، ونغمات الألحان ، وأصوات الموسيقار ، وعقاقير الأطباء ، وأصباغ المصورين ، وحوائج الطباخين والحلاويين ، وما شاكلها فإنها كلها مختلفة الكيفيات، إذا اجتمعت وأُلّفت ورُكّبت كانت منها ضروب المصنوعات، كما بيّنا في رسالة نِسَب الموسيقى. فبهذا الاعتبار والقياس حكموا على تلك الأجزاء التي زعموا أنها لا تتجزأ بكيفيّات مختلفة الصور ، وإلى هذا الموضع كان علمهم ، وإليه أدّاهم اجتهادهم .

ومنهم من كان أدقّ نظراً من هؤلاء ، وأشدّ تمييزاً وبحثاً ، فزعموا أن تلك الأجزاء كلها متماثلةٌ ، فيسُدّ بعضُها مَسَدّ بعض وينوب منابه . فإذا أُلّفت ضروباً من التأليف ، وشُكّلت ضروباً من الأشكال ، واختلطت ضروباً من الاختلاط ، حدثت منها أعراضٌ ثم كيفيات وهيئات وصفات وألوان وطعوم وروائح وما شاكلها . والذي أدّاهم إلى هذا الرأي والاعتقاد اعتبارُهم هَيُولات الصنائع فإنها متماثلة الأجزاء ، فإذا صُوّرت ضروباً من الأشكال اختلفت أسماؤها وأفعالها ، كما بيّنا طرَفاً في رسالة الهيولى والصورة . مثال ذلك قِطعتان من حديد صُوّرت إحداهما بشكل تسمى سكيناً ، والأخرى مِنشاراً . وفعلُ السّكّين خلافُ فعل المنشار ، والحديدُ واحدٌ ، لأن الذي عمل من هذه كان جائزاً أن يعمَل من تلك . الأجزاءُ متماثلةٌ والمُؤلّف المركّب مُختلِف ، وإلى هذا الموضع كان مبلغُ علمهم ودِقّة نظرهم .

ومنهم من كان أدقّ نظراً وأشد بحثاً وألطف ، وقالوا : إن الهيولى إنما هي جوهر بسيط روحاني مُعرّى من جميع الكيفيات ، قابل لها على النظام

والترتيب ، الأوّل فالأول ، كما بيّنا في رسالة المبادىء العقلية .

فقد تبيّن بما ذكرنا وشرحنا أن العالَم مصنوع يُعلَم ذلك بالعقل الغريزي إذا اعتُبِر هذا الاعتبار ، ويُعلَم ، أن الهيولى مُبدَع مُختَرَع ، بالعقل المُكتَسَب إذا اعتُبِر هذا الاعتبار ، ويعلم أن الهيولى على ما ذكرنا .

ولما تبين لهؤلاء الحكماء ما العلة الفاعلة ، وما العلة الهيولانية ، وما العلة الصُّوريّة ، بحثوا عن العلة التماميّة التي هي الغرض الأقصى الذي من أجله يفعل الفاعل فعله ، وهذه المسألة أيضاً من إحدى أُمهات المباحث التي منها تتفرع سائر الآراء والمذاهب . والذي أدّاهم إلى هذا البحث هو نظرهم إلى الصنائع البشرية ، وذلك أنهم وجدوا لكل صانع بشري في فعله غرَضاً ، والغرضُ هو الغاية التي يسبق إليها فَهمُ الفاعل أولاً ، وهو من أجله يفعل الفاعلُ فعله ، فإذا فعله وبلغ إليه ، قطَعَ ذلك الفعلَ . وهما طائفتان : فمنهم من يرى ويعتقد أن الباري تعالى خلق العالم لعلةٍ مّا ، والأخرى تعتقد وترى أنه لا لعلة . والذي أدّاهم إلى الرأي هو نظرهم وبحثهم واعتبارهم على هذا الوجه الذي نقرره نحن : وهو أنهم قالوا : لا تخلو تلك العلة من أن تكون هي الله تعالى أو غيره ، فإن كانت غيرَه ، وجب القول بالمَثْنَويّة ، وقد قام البُرهان على فساد هذا الرأي . وإن كانت ليس غيرَه ، فهذا الذي قلنا ، وإلى هذا كان علمهم ، وإلى ههنا كان اجتهادهم .

والذين قالوا بالعلة التامية طائفتان : إحداهما ترى وتعتقد أن تلك العلة هي إرادة الباري تعالى ومشيئته . ومنهم من يرى ويعتقد أنها علمه السابق . والقائلون بالإرادة طائفتان : فمنهم من يرى ويعتقد أنها علمه السابق، وأن إرادة الله صفة من صفاته . ومنهم من يرى ويعتقد أنه فعل من أفعاله . والذين قالوا إنه صفة من صفاته طائفتان : فمنهم من يرى ويعتقد أنها صفة ذاتيّة ، ومنهم من يرى أنها صفة عرَضية . والذين يرون أنها صفة عرَضيّة ، فمنهم من يرى أنها قائمة به ، ومنهم من يرى أنها قائمة بغيره، ومنهم من يرى أنها قائمة بنفسها.

وبين هؤلاء مُنازَعات ومناقضات يطول شرحها ، مذكورة في كتب جدالهم وخصوماتهم .

والذين قالوا إن تلك العلة هي علمه السابق طائفتـــان : فمنهم من يرى ويحتج بأنه خلق العالم لأنه كان عالماً بأنه سيَخلـُق ، فلو لم يخلـُق لكان مخالفاً للعلم ، والمخالِفُ للعلم جاهل ، وهو تعالى منزّه عن أمثال الخلق . ومنهم من يرى أنه سيَخلـُق لأن خلقه للعالم حكمة ، وفعلُ الحكمة عند الحكيم واجب ، فإذا لم يفعل الحكيم الحكمة يكون سفيهاً . فلو لم يَخلـُق إذاً العـالم لكان تاركاً للحكمة ، وتاركُ الحكمة سفيه ، تعـالى الله عن ذلك عُلواً كبيراً . وهذا أرجح الأقاويل وأحق الصواب .

فصل

في بيان قول القائلين إن أسباب الشرور في العالم بالعرَض لا بالقصد

وأما القائلون بأن الشرور هي عارض في العالم من قِبَل الهيولى الذي هو جوهر منفعل ، ناقصُ القَبول للفضائل ، فطائفتان : إحداهما ترى وتعتقد قِدَمها فيما مضى دهراً طويلاً وهي عادمة للصورة والأشكال والكيفيات أجمع . ثم إن الباري تعالى قصد وصوَّر في تلك الهَيولى عالمَ الأجسام ذا الثلاثة الأبعاد ، وجعلها على أشكال كُريّات مستديرات ، محيطات بعضُها ببعض ، كما ذُكِر في كتاب المَجسطي ، وكتاب بانياس الحكيم في تركيب الأفلاك وأطبـاق السموات ، وجعلها مَسكناً لعبيده ، ومأوى لجنوده ، وهي النفوس السارية في العـالم من أعلى الفلك المحيط إلى منتهى مركز الأرض ، وهي أجنـــاس الملائكة ، وقبائل الجن ، وأحزاب الشياطين ، وأرواح بني آدم والحيوانات أجمع ، وهم سكان سمواته ، وقاطنو أرضه ، العامرون عالـَمَه ، المُديّرون أفلاكه ، المُسيّرون كواكبه ، المُعيّشون حيوانات أرضه ، المُربّون نباتها ،

والمكوّنون معادنها ، كلٌّ ذلك بإذن الله تعالى وتقدس . « ولله جنود السموات والأرض » « ولكن أكثرهم لا يعلمون » .

ومن أجلهم خلق السموات ، ومن أجلهم بسط الأرض ، وبهم تدبير العالم ، كل ذلك ليُبلّغهم أقصى درجات غاياتهم التي هي البعثُ والخلود في النعيم أبدَ الآبدين. وقالوا هذا كله حكمة وجود وفضل ونِعَم وإحسان وخيرات، والله تعالى خالقها وجاعلها وعِلّتها ومُبقيها ومتممها .

فأما الشرور فهي عدم هذه الخيرات عن الهَيولى ونقصانُها عنه : وذلك أنها لو خُلّيت بطبيعتها لرجعت إلى حالتها الأُولى ، وخلعت الصورة عن ذاتها، وبطل نِظام العالم ، واضمحل وجود الخلائق ، وكان من ذلك بَوار الكل والفسادُ ، وهو الشرُّ المحض ، ولكن من حكمة الله لا يقتضي تركها ، لأن تصويره الهيولى إيجادٌ ، وتركيبُ العالم منه حكمة ، والنشوء وجود منه وتفضل عليهم ورحمةٌ لهم . والعَدمُ بعدَ الوجود شرٌّ ، ونقضُ الحكمة سَفَه ، واسترجاع الفضل لؤمٌ ، وترك الرحمة قساوة ، تعالى الله عن ذلك عُلوّاً كبيراً .

ثم اعلم يا أخي أن ليس مما حكى هؤلاء من أحوال الهيولى ووصفوا من أسباب الشرور ونسبوها إلى الهيولى بمُنكَر عند خصمائهم ، غيرَ قولهم بقِدَمها ! وإن كانوا أرادوا بقولهم : قِدَمُ الهَيُولى الأُولى ، أنها أقدم من الشيء الموضوع المصنوع منها ، فهذا قول صحيح . وإن أرادوا أنها ليست مُبدَعة ولا مُخترعة ، فالمنازعة في هذه الحكومة وقعت ، فقد بيّنا في رسالة المبادىء حقيقتَها وكيف هي مُبدَعة ومُخترَعة .

ثم اعلم أن كثيراً من أهل العلم ومن تكلم في حقائق الأشياء لا يعرفون الفَرقَ بين الشيء المخلوق والمصنوع ، وبين المُخترَع المُبدَع . وهذا أحد أسباب الخلاف بين العلماء في آرائهم ومذاهبهم في قِدَم العالم وحدوثه .

ثم اعلم أن الخلق هو تقدير كل شيء من شيء آخر ، والمصنوعُ ليس هو

بشيء غير كون الصورة في الهيولى . وأما الإبداع والاختراع فهو إيجاد شيء لا من شيء ، وهذه المعرفة . وتَصوُّرُ هـذه الحكومة يَبعُدُ عن كثير من المرتاضين بالرياضات الحِكْميّة ، فكيف على غيرهم .

ثم اعـلم أن الذين قالوا بقِدَم الهيولى إنمـــا دعاهم إلى هذا النظر والرأي نَظرُهم إلى الموجودات الجزئيّـــات الـتي دون فلك القمر ، واعتبارُهم هذه الكائنات الفاسدات من المعـادن والنبات والحيوان ، وذلك أنهم وجدوا كلّ مصنوع بشري وطبيعي مركّباً من هَيولى ساذَج، لا شكلَ فيه قبل تصوير الصانع له بذلك الشكل ، وإذا خـلا ذلك المصنوع زمـاناً طويلاً ، اندرَس واضمحلّ ، وانخلعت الصورة عنها ، ورجعت إلى حالتها الأُولى تراباً . مثالُ ذلك البِنايات المتّخذة في المدن والقرى : وذلك أنهم رأوا صُنّاعَهـا جمعوا التراب والخشب وبنوها ، ثم يحفظونها بالمرَمّات[1] لتدوم زماناً ، فإذا خَلَت زماناً طويلاً ، تهدمت واندرست ، واضمحلت ، وصارت تراباً وحجارة ، كما كانت بَديّاً . وهكذا حُكم النبات والحيوان والمعادن الـتي هي مصنوعات طبيعية فإنها تصير كلها يوماً تراباً وإن طال الزمان .

فعلى هذا القياس والاعتبار حكموا على الهَيُولى الأُولى وصنعة الباري فيها العالَم وحفظِه على ما هو عليه الآن من النقش والتصاوير والأشكال والهيئات المختصّة بفلكٍ فلـك ، وكوكبٍ كوكب ، ورُكنٍ ركن ، وأجنـاس الحيوانات أجمع ، والنبات والمعادن واحداً واحداً .

وأما الهَيولى التي لا كيفيّة فيهـا فليست هي محتاجة في وجودها إلى صانع وفاعل — بزعمهم — فهذا كان اعتبارهم ، وإلى هذا الموضع كان مبلغ اجتهادهم. فأما الذين قالوا بحدوث الهَيُولى فإنهم نظروا أدقّ نظر من أُولئك ، وتأملوا أَجْودَ من تأملهم ، وبحثوا أشد بحثاً منهم ، كما بيّنّا فيما تقدّم ذِكر ذلك ، فاطلبه من هناك .

---

١ المرمّات : الاصلاحات .

فصل

في بيان كمية أنواع الخيرات والشرور في هذا العالم

فنقول : اعلم أن الخير والشر على أربعة أنواع : فمنها ما يُنسَب إلى سعود الفلك ونحوسه . ومنها ما يُنسب إلى الأمور الطبيعية من الكون والفساد وما يلحق الحيوانات من الآلام والأوجاع . ومنها ما يُنسَب إلى ما في جبلة الحيوانات من التآلف والتنافر والمودّة والتباغض ، وما في طباعها من التنازع والتغالب . ومنها ما يُنسَب إلى ما يلحق النفوس التي تحت الأمر والنهي في أحكام النفوس من السعادة والمَنحَسة في الدنيا والآخرة جميعاً .

ثم اعلم أن لهذه الأنواع من الخيرات والشرور التي ذكرناها أسباباً وعِللاً يطول شرحها ، وقد ذكرنا طرفاً في رسالة العِلل والمعلولات ، ولكن نذكر في هذا الفصل منها ما لا بد منه فنقول : إن الخيرات التي تُنسَب إلى سعود الفلك هي بعناية من الله تعالى وقصدٍ منه لا شك فيه . وأمــا الشرور التي تُنسَب إلى نحوس الفلك فهو عارض لا بالقصد . مثال ذلك إشراقُ الشمس وطلوعها على بعض البقاع تارة، وتسخينُها الماء مدة ، ومغيبُها عنها تارة أخرى كيما تبرد تلك البقاع مدةً مّـا ، فهو بعناية من الله تعالى وواجب حكمته ، لما فيه من الصلاح والنفع للعموم كما قال تعالى : « قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة مَن إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون » وقال : « ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون » . وإنما ذكر الله تعالى إنعامَه على عِباده ، وإحسانه إليهم وإفضاله عليهم .

فأما التي تعرض لبعض الحيوانات ولبعض النبات من الحر المُفرط والبرد المُتلِف في بعض الأوقات وفي بعض الأحايين وفي بعض البقاع ، فليس ذلك بالقصد الأول . وهكذا أيضاً حُكم الأمطار فإنما يُرسلها لكيما يُحيي بها

البلاد ، ويصلح بها شأن العباد ، فإن عرَض من ذلك أذيّة لبعض الحيوانات أو تلف النبات ، أو تحزنت به العجائز ، فليس ذلك بالقصد الأول . وعلى هذا القياس حكم جميع ما يُنسَب إلى نحوس الفلك من الأُمور العارضة للحيوان والنبات والمعادن ومواليد الناس ، وما يُحكم في تحاويل من السنين وأحكام القِرانات وما شاكل ذلك ، وما ينسب إلى نحوس الفلك من الشرور والفساد جميعاً عارضاً بالقصد الأول .

وأما الخيرات التي تنسَب إلى الأُمور الطبيعية فهي كونُ الحيوان والنبات والمعادن ، والأسباب المُعينة لها على النشوء المُبلغة إلى أتم حالاتها وأكمل نهاياتها ، فهي كلها بقصدٍ من الله تعالى وعناية من تفضُّله وإنعامه .

وأما الشرور التي هي الفساد والبِلى الذي يلحقها بعد الكون والفساد ، والأسبابُ التي تعوقها عن البلوغ إلى التمام والكمال ، فهي عارضٌ لا بالقصد الأول ولكن بالقصد الثاني ، وذلك أن هذه الكائنات التي هي دون فلك القمر ، لما لم يكن أن تبقى أشخاصُها في الهيولى دائماً في هذا العالم ، تلطفت الحكمة الإلهية والعناية الربّانية أن يكون بقاؤها بصوَرها ، وإن كانت الأشخاص في الذّوبان والسيلان دائماً . والمثال في ذلك صورة الإنسانية التي هي خليفة الله في أرضه فإنها باقية منذ خلق الله تعالى آدم أبا البشر إلى يوم القيامة ، وإن كانت الأشخاص في الذهاب والمجيء ، فهكذا حكم سائر الحيوانات والنبات والمعادن ، وأنواعها باقية بصوَرها ، وإن كانت الأشخاص في السيَلان والذوَبان . وإنما كان ذلك بواجب الحكمة ، لأن في القوة فضائل وخيرات بلا نهاية لا يمكن خروجها من القوّة إلى الفعل ، والظهور دفعةً واحدة في وقت واحد ، لأن الهيولى لا تتسع لقبُولها الأشياء شيئاً بعد شيء على التدرُّج وبمرّ الأوقات والزمان دائماً أبداً . والمثالُ في ذلك أنه لو خلق الله بني آدم كلهم ، من مضى منهم ومن هو موجود الآن ، ومن يحيا من بعدُ إلى يوم القيامة في وقت واحد ، لم تكن تسعهم الأرض برَحبها ، فكيف حيوانُهم

ونبات غذائهم وأمتعتهم ، وما يحتاجون إليه في أيام حياتهم ؛ فمن أجل هـذا خلقهم قرناً بعد قرن ، وأمةً بعد أمة ، لأن الأرض لا تسعهُم ، والهيولى لا تحملهم دفعـةً واحدةً . فقد تبيَّن بمـا ذكرنا أن النقصان ليس من قِبَل الله تعالى .

وعِلَّة أُخرى أيضاً لأسباب الشرور . وذلك أنه لما كانت هذه الكائنات يبتدىء كونـُها من أنقص الوجود وأضعف القوى مُترقـِّية إلى أتم الحالات ، وأكمل الغايات بأسباب مُعِينة لهـا على النشوء والنمو ، ومُبلِغـة إلى أكمل غاياتها بعناية من الله تعالى ، سُمِّيت تلك الأُمهات خيرات ، وكذلك كل سبب عـارَض بلوغَـهـا عن ذلك يُسمَّى شرّاً ، وهي عـارضة لا بالقصـد الأول ، والمثالُ في ذلك ما تقدم ذِكره من أمر الشمس والمطر .

فصل

ـ في بيان الفرق بين القصد الأول والقصد الثاني على قول الحكماء ـ

فنقول : أمـا الخيرات الـتي تـُنسَب إلى جِبلة الحيوانات وما في طبـاعها وأخلاقها وأفعالها بقصدٍ منها وإرادةٍ فهي بالقصد الثاني لا بالقصد الأول .

ثم اعلم أن معنى قول الحكماء : القصدُ الأول ، والقصد الثاني ، أن الفرق بينهما هو أن ما كان من قِبل الباري تعالى من الإبداع والإيجاد والاختراع ، والبقـاء ، والتمام والكمال والبلوغ ، ومـا شاكل ذلك من الأوصاف يسمى القصد الأول . والقصد الثاني هو كل ما كان من قِبَل نقصِ الهَيُولى ، إنه لم يجيء منها إلاّ هذا ، ولم يقبل إلاّ هذا ، وما شاكل ذلك من الأوصاف .

وأما بيان أنواع الشرور ، والمنسوبِ إلى بعض الحيوانات ، وإلى الجِبلة المركوزة فيهـا فنقول : إن الشرور التي تنسب إلى جِبلة الحيوانات ومـا في طباعها هي ثلاثة أنواع : فمنها الآلام التي تـَعرض لها دون سائر الموجودات .

ومنها العداوة التي في جبلتها . ومنها أفعالها التي بقصدٍ منها وإرادة .

فأما آلامها فتكون من ثلاثة أوجه: أحدها ألم الجوع والعطش عند حاجة أجسادها إلى المادّة والغِذاء . والثاني ألم الضرب والصّدم والكسر المُضِر بأجسادها المُتلف لهياكلها . والثالث ألم الأمراض والأسقام المفسِدة لِمزاج أجسادها وأخلاط أبدانها .

فأما الآلام التي تعرض لنفوسها عند الجوع والعطش فإن ذلك بالقصد الثاني . وذلك أنه لما كانت هذه الأشخاص كلُّ واحد منها مركّب من جسد جسماني ، ونفس روحاني ، وكانت الأجسام مركّبة من الأخلاط المركّبة المتضادّة ، وهي دائمة في الذوَبان والسَّيلان ، ومحتاجة في بقائها إلى المادّة والغِذاء ، جُعلت لنفوسها آلام عند حاجتها إلى الغِذاء والمادّة ، لتكون تلك الآلام باعثةً لنفوسها لتنهض بأجسادها في طلب الغِذاء . فلو لم تكن تعرِض لها تلك الآلام ، لتهاونت بها وتركتها بلا غِذاء ، وكانت تذوب وتضمحلّ كلها ، وتبطُلُ لأقرب مدةٍ وأهون سعي . وكانت تبقى تلك النفوس إمّا بأجساد أو بلا أجساد، ناقصةً غير تامة ولا كاملة . وكانت تعوقُها المآرب التي هي مقصودة بها، كما بيّنا في رسالة البعث والقيامة، وجُعِل لها أيضاً عند تناول الغِذاء لذّة وشهوة . أما الشهوة فلأن لا تتناول من الغذاء ما لا يَصلُح لها . وأما اللذّة فلأن تأكل وتشرب ما دامت الطبيعة محتاجة لها ، وإذا اكتفت زالت اللذة . فهذه كلها بقصد من الله الواحد القهار ، ومن أجل النقص الذي في الهيولى كيما تتمّ النفوس وتكمل ، وأما الضرب والكسر والصدم والجرح والحر والبرد والأمراض والأسقام، وبالجملة كل أمر مُضِرّ بالجسد مُفسد فإنما جَعل للنفوس ألماً لكيما تحثّها تلك الآلامُ على حِفظ أجسادها وصيانة هياكلها، إذ كانت الأجساد لا حيلةَ لها في جَرّ منفعةٍ ولا دفع مَضَرّةٍ عنها .

ومن الدليل على صحة ما قالوه ما تبين منها أنها كيف تنتبه من حال النوم ، وكيف تتيقظ من حالة الغفلة ، وكيف تُحِسّ وتشعر بالأشياء المؤذية

المُفسدة من الجسد ، وكيف تدفع تلك الأشياء عن جسدها ، إما بالفرار والانقباض عنها ، وإما بالقوة والجَلادة والمجاهدة ، وإما بالحيلة والمداراة . ولو لم تفعل ذلك لهلكت الأجسادُ في أقرب مدة وأهونِ سَعي قبل التمام والكمال . فإذا جاءتها المقادير والوقت المعلوم والأسباب الغالبة القاهرة ، فانظُر كيف تُسلِّمها إليها ، وكيف تفارقها على غير اختيار منها .

فأمّا ما دام له طمع في دفع تلك الآلام الواردة المؤذيات فهي في العلاج والجهاد ، رجاءً للصلاح ، وحِرصاً على البقاء ، ومحبة على الوجود على أتم ما يمكن ، إذ كان هذا هو الخير ، وكراهيةٌ منها للفناء على هذا النقص ، إذ كان هو الشر ، لأن العدَم المُطلَق ليس للأجسام ولا للنفوس ، ما دام العالم موجوداً . فقد تبيَّن من ذلك أن الآلام أيضاً بقَصدٍ وعِناية واقتضاء الحكمة .

فصل في بيان الشرور

التي في جبلة الحيوانات المختلفة الصور والأشكال هي بالقصد الثاني

فنقول : أما الخيرات التي في جبلة الحيوانات وأخلاقها التي هي الإلْف والمحبة ، والشرورُ التي هي العداوة والغلَبة والقهر فهي أيضاً بالقصد الثاني . وذلك أنه لما كانت الحيوانات مختلفة الصُّوَر والأشكال والطباع والعادات والأخلاق والأفعال لأسباب يطول شرحها – وقد بيّنا طرَفاً في رسالة العلل والمعلولات – جَعَل بين بعضها وبعضٍ أُلفةٌ ومحبةٌ ومودة، لكيما يكون ذلك سبباً لاجتماعها واتفاقها ، لما في ذلك من صلاح الكل والنفع على العموم . وجعل أيضاً بين بعضها وبين بعض نفوراً وعداوة ، ليكون سبباً لتباعدها وتفرقها، لما في ذلك أيضاً من صلاح الكل والنفع على العموم. مثالُ ذلك إلْفُ بعض الحيوانات للإنسان وانقيادُها للطاعة، كالبقر والغنم والخيل والبغال والحمير

والجمل والفرس، لما في ذلك من صلاح ونفع للناس معروف مشهور - ولا حاجة إلى تفصيل كيفيّة ذلك - ولما لها أيضاً من النفع في مراعاة الناس بالعَلف والسَّقْي والكِنّ من الحر والبرد، ومنع السباع عنها، ومداواتها من الآفات العارضة، وما شاكل ذلك. ومثالُ نفور بعض الحيوانات من الإنسان وتباعدها عن طاعته، مثل السباع والحيات، وجملة الحيوانات القليلة النفع، الكثيرة الضُّرّ لما فيه من صلاح الكل والنفع للعموم.

وعلى هذا القياس حالُ سائر الحيوانات بعضِها مع بعض، فيما بينها من الإلف والمحبة، والبُغض والعداوة، لما فيها من النفع والصلاح.

وأما الشرور التي تُنسَب إلى بعض أفعال الحيوانات بالقصد منها والإرادة، فمنها أيضاً عارضة من أجل الهَيُولى التي هي مادة لأجسادها وقِوامٌ لهياكلها: وذلك أن المنافع لما كانت مُشتركةً بين الجميع، وكان في جِبلتها طلبُ المنافع ودفعُ المَضارّ بالقصد الأول من الله تعالى - كما تقدم ذكره - وقعت بينها هذه المُنازَعة في طلَب تلك المنافع ودَفع تلك المضارّ بالعَرَض لا بالقصد.

وأما عِلّة كون الحيوانات بعضها آكلة، وبعضها مأكولة، فقد بيّنا طَرفاً منها في رسالة الحيوانات.

فصل في بيان أنواع الشرور

التي تنسب إلى الأنفس الإنسانية من جهة أحكام الناموس

فنقول: اعلم أن الخيرات والشرور التي تُنسَب إلى الأنفس الإنسانية الجزئية من جهة أحكام الناموس هي نوعان: فمنها ما هي أعمال لها واكتساب منها، ومنها ما هي جَزاءٌ لأعمالها ومكافأةٌ لها.

فأما التي هي الاكتساب فهي خمسة أنواع: منها ما هي علوم ومعارف، ومنها ما هي أخلاق وسجايا، ومنها ما هي آراء واعتقادات، ومنها ما هي

كلام وأقاويل ، ومنها ما هي أعمال وحركات . وهذه الخصال الخمس تسمى خيرات وشروراً من وجهين : إما عقلية وإما وضعية . والوضعية منها هو كل شيء أمر به الناموسُ ، أو حثّ عليه أو مدحه ، فيسمى ذلك خيراً . وكل شيء نهى عنه أو زجر عنه يسمّى ذلك شرّاً .

أما العقلية من هذه الخصال فهي كل شيء إذا فعل منه ما ينبغي على الشرائط التي تنبغي ، في المكان الذي ينبغي ، في الوقت الذي ينبغي ، من أجل ما ينبغي ، يسمى ذلك خيراً . ومتى نقص من هذه الشرائط واحد يسمّى ذلك الأمر شرّاً . ومعرفة هذه الشرائط ليس في وسع كل إنسان في أول مرتبته إلاّ بعدما تتهذب نفسه وتترقى في العلوم والآداب . ومن أجل هذا يحتاج كل إنسان إلى معلم ومؤدب أو أستاذ في تعلمه وتخلّقه وأقاويله واعتقاده وأعماله وصنائعه .

ثم اعلم أن أصحاب الناموس هم المعلمون والمؤدبون والأُستاذون للبشر كلهم . ومعلّمو أصحاب النواميس هم الملائكة . ومعلم الملائكة هو النفس الكلية . ومعلمها العقل الفعال . واللهُ تعالى مُعلّم الكل .

وإنما طوّلنا الخطاب في الكشف عن الخيرات والشرور ، لأن هذه المسألة من إحدى مسائل أُمهات الخلاف بين العلماء ، المتشعّبة منهم الآراءُ والمذاهب الكثيرة ، كلُّ ذلك لقِلّة معرفة ، من يتكلم ، منها ، وهو لا يدري ما الخير — على الحقيقة — وما الشر ، وما السبب العارض .

وإذ قد تبين مما ذكرنا عِلل اختلاف العلماء في الآراء والحكمة، وحدوث العالم وقِدَمه ، نريد أن نذكر أيضاً طرفاً من عِبادة الأصنام التي هي أقدم الديانات وأغلبها من الكل .

فصل

في بيان طباع الناس في الرغبة في الدنيا والآخرة

فنقول : اعلم يا أخي أن الناس ، وإن كان أكثرهم مطبوعين على الرغبة في الحياة الدنيا ، والحِرص على طلب شهواتها ، والميل إلى التمتع بلذّاتها ، غافلون عن أمر الآخرة ونعيمها وسرور أهلها ودوام لذّاتها ؛ وأنّ كثيراً من الناس أيضاً كلهم مجبولون على التديّن والورع والخير ، والزهد في الدنيا وترك شهواتها ، والرغبة في الآخرة وطلب نعيمها ، وكثرة التفكّر في أمر المَعادِ بعد الموت ، والرغبة في معرفته وحقيقة الحال في المُنقلَب ، وهم في دائم الأوقات يسألون الله الرحمة والمغفرة ، ويطلبون منه حسن التوفيق وخيرَ الآخرة ، ويتقربون إليه بالصلاة والصوم والتسبيح والقرآن والدعاء وفنون العبادات ، كلُّ ذلك بحسب ما يمكنهم ويؤدي إليه اجتهادهم ، ويَحسُن في عقولهم ، ويتحققُ في نفوسهم .

ثم اعلم أن الله تعالى ما بعث الرسل والأنبياء ، عليهم السلام ، إلى الناس إلاّ بالتأكيد لما في نفوسهم من أمر الدين بطلب الآخرة ، إرشاداً لهم إلى ما هو أصلح مما اختاروه بعقولهم ، وأقربُ مسلكاً ، وأفضل سيرة ، وأحسنُ طريقة ، فيما أدّاهم إليه اجتهادهم ، وتحقّق في نفوسهم بآرائهم . والدليل على صحة ما قلنا قوله تعالى لنبيه ، عليه السلام : « قل أو لو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم » . وذلك أن القوم الذين بُعث إليهم النبي ، عليه الصلاة والسلام والتحية والرضوان ، كانوا يتديّنون بعبادة الأصنام ، وكانوا يتقرّبون إلى الله تعالى بالتعظيم لها والسجود والاستسلام والبَخورات ، وكانوا يعتقدون أن ذلك يكون قُربةً لهم إلى الله وزُلفى . والأصنام هي أجسام خُرسٌ لا نُطق لها ولا تمييز ولا حِسّ ولا صورة ولا حركة ! فأرسلهم الله ودلّهم على ما هو أهدى وأقْوَمُ وأولى مما كانوا فيه : وذلك أن الأنبياء ، عليهم السلام ،

وإن كانوا بشراً فهم أحياء ناطقون مُميّزون ، علماء مُشاكِلون للملائكة بنفوسهم الزكيّة ، يعرفون الله حق معرفته ، والتقرُّب إلى الله تعالى بهم أولى وأهدى وأحق من التوسُّل بالأصنام الخُرْسِ التي لا تسمع ولا تبصر ، ولا تُغني عنك شيئاً .

ثم اعلم أنّا نبيّن هاهنا بَدء عِبادة الأصنام ، فنقول إنّ بدء عبادَة الأُمم للأصنام أولاً كان عبادةَ الكواكب ، وبدءُ عبادة الكواكب كان عِبادَة الملائكة ، وسببُ عبادة الملائكة كان التوسّل بهم إلى الله تعالى وطَلَب القُربة إليه : وذلك أن الحكماء الأولين ، لما عرَفوا ، بذكاء نفوسهم وصفاء أذهانهم ، أن للعالم صانعاً حكيماً ، وذلك لتأمُّلهم عجائبَ مصنوعاته ، وتفكّرِهم في غرائب مخلوقاته ، واعتبارهم تصاريفَ أحوال مخترعاته ، ولما تحقّقت في نفوسهم هَوِيّتُه ، أقروا له عند ذلك بالوَحدانية ، ووَصفوه بالرُّبوبيّة ، ولما علموا أن له ملائكة هم صفوتُه من خَلقه وخالص عِباده من بريّته ، طلبوا عند ذلك إلى الله القُربة وتوسّلوا إليه بهم ، وطلبوا الزُّلفى لديه بالتعظيم لهم ، كما يفعل أبناء الدنيا ويطلبون القُربة إلى ملوكهم بالتوسل إليهم بأقرب المختصين بهم ، وكان من الناس من يتوسّل إلى الملك بأقاربه وندمائه ووزرائه وكُتّابه وخواصّه وقواده وبمن يمكنه بحسَب ما يتأتّى له ، الأقربَ فالأقربَ والأدنى فالأدنى ، كلُّ ذلك طلَباً للقُربة إليه والزُّلفى لديه.

فهكذا وعلى هذا المثال فعلت الحكماء وأهلُ الديانات ، ومن عرف الله وآمن به وأقرّ به ، فإنهم طلبوا القُربة إليه والزلفى عنده : كلٌّ واحد بحسب ما أمكنه وتأتّى له وأدى إليه اجتهاده وتحقّق في نفسه .

فلما مضى أُولئك الحكماء والرّبّانيون العارفون بالله حقّ معرفته وانقرضوا، خلَفهم قوم آخرون لم يكونوا مثلَهم في المعرفة والعلم ، ولم يعرفوا مغزاهم في دياناتهم ، فأرادوا الاقتداء بهم في سيرتهم ، واتخذوا أصناماً على مثل صورتهم ، وصوروا تماثيل على مثل ما فعلت النصارى في بِيَعهم من التماثيل

والصُّور مثلِ أشباه المسيح ، عليه السلام ، ومِثلِ رُوح القدس ، وجبرائيل ، ومريم ، عليها السلام ، وكذلك أحوالِ المسيح في متصرّفاته ، ليكون ذلك تذكاراً لهم بأحواله كيفما يمّموا تلك التصاوير والتماثيل .

فصل

ثم اعلم يا أخي أن من الناس من يتقرّب إلى الله بأنبيائه ورُسله ، وبأئمتهم وأوصيائهم ، أو بأولياء الله وعِباده الصالحين ، أو بملائكة الله المقرّبين والتعظيم لهم ، ومساجِدهم ومَشاهِدهم ، والاقتداء بهم وبأفعالهم ، والعمل بوصاياهم وسُنَنهم على ذلك ، بحسب ما يُمكنهم ويتأتى لهم ، ويتحقق في نفوسهم ويؤدي إليه اجتهادهم .

فأما من يعرف الله حق معرفته فهو لا يتوسّل إليه بأحد غيره ، وهذه مرتبة أهل المعارف الذين هم أولياء الله .

وأما من قَصُر فهمه ومعرفته وحقيقته فليس له طريق إلى الله تعالى إلاّ بأنبيائه . ومن قَصُر فهمه ومعرفته بهم فليس له طريق إلى الله تعالى إلاّ بالأئمة من خُلفائهم وأوصيائهم وعباده الصالحين . فإن قَصُر فهمه ومعرفته بهم فليس له طريق إلاّ اتباع آثارهم ، والعملُ بوصاياهم ، والتعلقُ بسُنَنهم ، والذهاب إلى مساجدهم ومشاهِدهم ، والدعاء والصلاة والصيام والاستغفار وطلب الغفران والرحمة عند قبورهم ، وعند التماثيل المصوّرة على أشكالهم ، لتذكار آياتهم ، وتَعرّف أحوالهم من الأصنام والأوثان ، وما يشاكل ذلك طلباً للقُربة إلى الله والزُّلفى لديه .

ثم اعلم أنه على كل حال من يعبُد شيئاً من الأشياء ، ويتقرّب إلى الله تعالى بأحد ، فهو أصلحُ حالاً ممن لا يَدين شيئاً ، ولا يتقرّب إلى الله البتّة ! وذلك أن قوماً قد رُزقوا من الفهم والتمييز قَدْراً ، فخرجوا بذلك من

جملة العامّة ، ولم يحصّلوا في جملة الخاصّة ، فهم لا يعرفون الله حق معرفته ، ولا يتحققونه بصفات وحدانيته ، ولا يعرفون الآخرة علماً واستبصاراً ، ولا يرضَون الدين تقليداً وإيماناً ، فهم مذَبذَبون بين ذلك ، لا إلى هؤلاء ، ولا إلى هؤلاء ! فاحذر أنت يا أخي أن تكون من جُملتهم ، فإنهم جنود إبليس وإخوان الشياطين « يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً » يعيبون الديانات ، ويُزرُون على أهلها ، ويهلكون أنفسهم ولا يشعرون .

ثم اعلم أنهم أسوأُ حالاً من عابدي الأصنام على كل حال ، لأن عابدي الأصنام يدينون بشيء ، ويتقرّبون إلى الله ويخافونه ويرجونه . فأمّا هؤلاء فلا دين لهم ، ولا يعتقدون شيئاً ، ولا يعبدون ، ولا يخافون ، ولا يرجون شيئاً .

ثم اعلم أن علّة تركهم الدين أصلاً من أجل أنهم لما تأمّلوا بعقولهم اختلاف أهل الديانات ، وجدوا دين كل قوم معيوباً عند قوم آخرين ، ولم يجدوا مذهباً ولا ديناً بلا عيب ، فتركوا الدين جملةً من أجل هذا ، ولم يتأمّلوا ولا فكّروا بأن كون العاقل بلا دين أعيبُ وأقبحُ من كل عيب .

ثم اعلم أن في ذكر أهل الديانات عيوب بعضهم بعضاً حكمةً جليّة قد بيّناها في رسالة العلل والمعلولات ! وليس ذلك بأن الدين معيوب ، ولكن كانت مفروضاتُ واضعي الشريعة وسُنَنهم مختلفةً لأغراض شتّى . والأغراضُ يطول شرحها ، وتكون تلك السُّنن عند قوم محمودةً صالحة ، لسبب نشوئهم عليها ودُربتهم في طول الزمان ، وجريان عاداتهم عليها. ويكون الدينُ معيوباً ومُنكَراً عند قوم آخرين ، لأنهم نشأوا على غيرها ، واعتادوا سواها ، وألِفوا خلافها ، لا بأن الدين معيوبٌ وسُنَن الديانات قبيحة .

ثم اعلم أنه لما كانت طباع الناس مختلفةً ، وأخلاقها متغايرة ، وإراداتها مُفنّنة ، والنفوس يَعرِض لها أمراض مختلفة بحسب الزمان والأمكنة والطباع

والأمزجة والعادات ، وكان واضعو النواميس هم أطباء النفوس ومنجموها ، كقول النبي، صلى الله عليه وسلم: «إن مثل أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم» وغرض كلهم اكتساب الصحة وحفظ السلامة عليها من الآفات العارضة . فمن أجل هذا اختلفت مفروضاتهم وتغايرت سُنَنهم حسب ما يليق بأمةٍ أمةٍ ، وطائفةٍ طائفةٍ ، من الناس والأمم ، من المداواة لنفوسهم ، والحِمية لها من المُحرَّمات عليهم ، كما يفعل أطباء الأجسام في العِلاجات المختلفة بالبلدان المختلفة ، لأجل الأمراض المختلفة في الأزمان المختلفة ، من تغيير الأشربة ، وتبديل الأدوية ، وتقليل الأوزان وتكثيرها ، بحسب اختلاف الأزمنة والأمكنة ، ولا سيما بحسب اختلاف أمْزجة الإنسان ، ومراعاة العادات : وذلك أن غرضهم حِفظُ الصحة الحاصلة واستردادُ الصحة المفقودة . فهكذا أفعال الأطباء من النواميس ، واختلافُ سننهم ، وترتيب أوضاعهم وأمرهم ، وإجازتُهم في شيء ، ونهيُهم وتحريمهم عن شيء ، تُشبه بعينها أفعالَ أطباء الأجسام ومداواتهم قَطْعاً .

ولا يخفى عليك ، أيها الأخ ، مُداواةُ المسيح لأقوامٍ شتى ، وإحياءُ الموتى ، وإبراء الأكمه والأبرص ، حتى نجت نفوسُ قوم ضالّين من أمراض الجهالة المُزمنة ، العَسِرةِ الزوال ، بشربات الأسرار والحِكم ، ومعاجين التوحيد والتمجيد ، ومسهِلات الحِلم والاستغفار ، وحُسن تحمية ترك الشهوات ، وبرحلة الشتاء والصيف من غليان نار الغضب وبرد البلادة . وكذلك إبراءُ الأكمه بالمُداواة اللائقة بالعين ، إذ العمى عمى القلب لا عمى العين ، كما أن الغنى غنى القلب لا غنى المال .

وكيف داوى الأكمه ؟ فيا عجباً كل العجب ، إنه أبرأ الأكمه باكتحال الجواهر الروحانية ، وبتأليف الأسرار الربّانية ، وبذر البذورات المُفردات الهيولانية ، وبسائط الأركان الناموسية ، والمائعات التي أُنزِلت من السماء ، فسالت أودِيةٌ بقَدرِها، فلا جَرَم أنه يحيي الموتى، ويُبرِئ الأكمه والأبرص

بهذه المداواة ، بإذن الله وتوفيق الله !

فانتبه يا أخي من نوم الغفلة ورقدة الجهالة ، ولا تظن بالله ظنّ السوء ، واطلب أولياء الله الكرام ، ومجالسة واضعي النواميس ، لتنجو بشفاعتهم ، وتنال ببركاتهم سروراً ونعيماً في دار القرار .

فصل

في بيان علة الاختلافات التي بين أهل الديانات النبويّة بعضها في الأُصول ، وبعضها في الفروع

وذلك لأسباب شتى نحتاج إلى أن نذكرها ، ولكن من أجل أن كثيراً ممن ينظر في الآراء ، ويتكلم في المذاهب ، لا يعرف الفرق بين ذلك ، لكنا نذكر ههنا طرفاً فنقول :

ان معنى الدين في لغة العرب هو الطاعة من جماعة لرئيس واحد ، ولما كانت الطاعة لا تتبيّن إلا بالأوامر والنواهي ، والأمرُ والنهيُ لا يُعرفان إلاّ بالأحكام والحدود والشرائط في المعلومات ، سُمّيت هذه كلها شريعة الدين وسنن أحكامه .

فلما كان الإنسان هو جملة مركّبة من جسد جسماني ظاهر جليّ ، ومن نفس روحانية باطنة خفية، صارت أحكام الدين والإسلام وحدودُ الشريعة على وجهين : ظاهر وباطن . والظاهرُ هو أعمال الجوارح ، والباطنُ هو اعتقادات الأسرار في الضمائر، وهو الأصل ، كما قال ، عليه السلام : الأعمال بالنيّات ، ولكل امرىء ما نوى .

ثم اعلم أن الأنبياء ، عليهم السلام ، لا يختلفون فيما يعتقدون من الدين سرّاً وعلانية ، ولا في شيء منه البتة ، كما قال تعالى : « أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » وقد بينّا أنها اثنتا عشرة خصلة يعتقدها الأنبياء وأصحابُ

النواميس الإلهية أجمعون لا يختلفون فيها ، كما بينّا في رسالة النواميس .

وأما الشرائع التي هي أوامر ونواهٍ وأحكام وحدود وسُنن ، فهم فيها مختلفون كما قال تعالى : « ولكلٍّ جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً » . وقال : « لكلّ أمة جعلنا منسكاً هم ناسكوه »

ثم اعلم أن اختلاف الشرائع ليس بضارّ ، إذ كان الدين واحداً ، لأن الدين هو طاعة وانقياد للرئيس الآمر فيما يأمر وينهى المرؤوسين بحسب ما يليق بواحد واحد ، وما يرى أنه يَصلُح له ويصلح فيه ، لأن أوامر أصحاب النواميس ونواهيهم مماثلة لأمر الطبيب الرفيق الشفيق ، فيما أمر العليل من الحِمية في الصيف من تناول الأشياء الحارّة بالطبع ، وإجازتهِ شُربَ المبرّدات في البلدان الحارّة ، وفيما يرى ويأمر له .

فمن أجل هذا اختلفت شرائع الأنبياء ، عليهم السلام . وكذلك إن اختلفت سُنَن الدين وقواعد النواميس لأنهم أطباء النفوس ومنجموها ، وذلك أن في الأدوار والقِرانات والألوف قد تعرضُ للنفوس من أهل كلّ زمان أمراضٌ وأعلالٌ مختلفة من الأخلاق الرديئة ، والعادات الجائرة ، والآراء الفاسدة من الجهالات المتراكمة ، كما يَعرض للأجساد من الأمراض والأعلال من تغييرات الزمان والأهْوية والأغذِية ، فبحسب ذلك يجب أن يكون اختلاف عِلاجات الأطباء ومداواتهم .

فهكذا شرائعُ الأنبياء واختلافُ سُنَنهم بحسب أهل كلّ زمان وما يليق بهم أمّةً أمّةً ، وقرناً قرناً ، مثل شريعة نوح ، عليه السلام ، في زمانه ، وشريعة إبراهيم ، عليه السلام ، بعده في زمان آخر وقومٍ آخرين ، وشريعة موسى ، عليه السلام ، في زمان آخر وقوم آخرين ، وشريعة المسيح بعده في زمان آخر وقوم آخرين ، وشريعة سيد الأنبياء محمد ، عليه الصلاة والسلام والتحية والرضوان ، في زمان آخر وقوم آخرين ، كما قال تعالى : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا اليك » فهؤلاء كلّهم دينهم

واحد ، وإن كانت شرائعهم مختلفة ، وإنما ذكرنا في هذا الفصل من هذه الأشياء ، لأن الذين أنكروا نسخ الشرائع من هذا الباب لم يعرفوا الفَرْق بين الدين والشريعة .

وأما الاختلافات التي وقعت بين شريعة واحدة ، بعضُهم مع بعض ، كالذي بين طوائف اليهود فيما بينهم ، وبين طوائف النصارى ، وكما بين طوائف المسلمين كذلك ، فهي خمسة أنواع : منها اختلاف في ألفاظ التنزيل كالذي بين القرّاء ، ومنها اختلاف في المعاني كالذي بين المفسّرين ، ومنها اختلاف في أسرار الدين وحقائق معانيه الخفية كالذي بين المقلّدين والمُستبصِرين ، ومنها اختلاف في الأئمة الذين هم خلفاء الأنبياء كالذي بين الشيعة ، ومنها اختلاف في أحكام الشريعة وسُنَن الدين كالذي بين الفقهاء .

فعلّة اختلاف القراء هي من أجل الألفاظ المشتركة المعاني والمُترادفة والمُتباينة والمُتواطِئة والمشتقّة – كما بيّنا معاني هذه الخمسة الأنواع في رسالة المنطِق – وإنما يستعمل صاحبُ النواميس هذه الألفاظ في تنزيله وخُطَبه لأن كلامه على العموم للناس : الخاصّ والعامّ ، وفي المخاطبين : نساء وصبيان ، وعلماء وجهال ، وعقلاء وأغبياء ، ما بيّن ذلك إلاّ لكي يَعقِل ويكمّل كلُّ إنسان منهم معاني ألفاظه بحسب فهمه وذكائه وصفاء جوهره . فلا يخلو أحد منهم من فائدة إذا سمعوا قراءة التنزيل ، وهذا هو من أجَلّ المُعجِزات في كتب الأنبياء ، وخاصّة القرآن منها ، ومن أجل هذا قال النبي ، صلى الله عليه وعلى آله وسلم : « نزل القرآن على سبعة أحرف كلُّها شافٍ كافٍ ، كلُّ آية لها ظاهرٌ وباطن » .

أما سبب اختلاف المفسّرين المُقرئين في معاني ألفاظ التنزيل فهو من جهتين : إحداهما احتمال الألفاظ لتلك المعاني ، والأخرى من جهة مراتبهم في المعارف ، وصفاء جوهر نفوسهم ، وذكاء أفهامهم ، فيسنَح لكل واحدٍ شيء خلاف ما يسنح للآخر ، إذا نظر في معاني كتب الأنبياء ، عليهم السلام ،

بحسب اجتهاده وفهمه ودقة نظره ومبلغ علمه ، كما قال تعالى : « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات » وقال : « وفوق كل ذي علم عليم » .

وهكذا حكم اختلاف العلماء والفقهاء الذين أصّلوا الآراء والمذاهب في فِقه الدين والأحكام والحدود ، فمنها معانٍ أخذوها من ظاهر ألفاظ التنزيل ، ومنها معانٍ أخذوها من أقاويل المفسّرين، ومنها قياسات واجتهادات ، ومنها أخبار وروايات أخذوها لمن طريق السمع . واجتهادُ كل واحد منهم بحسب قوة نفسه ، وصفاء جوهره ، واجتهاده وبحثه ، سنح له شيء خلاف ما سنح لصاحبه ، فتعلقوا واجتهدوا واحتجوا على صحتها .

وهذا الذي كلّف عباده معنى الاجتهاد في الطلب كما قيل : لكل مجتهد نصيب ، يعني في اجتهاده . وكما قال : « لا يكلف الله نفساً إلاّ وسعها » .

وأما سبب اختلافهم في الأئمة الذين هم خلفاء الأنبياء ، عليهم السلام ، في أممهم بعدهم ، فمن أجل أن صاحب الناموس يحتاج في وضعه للناموس وتتميمه وتكميله إلى نيّف وأربعين خصلةً من الفضائل البشرية والملكية جميعاً – كما بيّنا في رسالة لنا – فإذا أحكم صاحب الناموس أمرَ الشريعة وسُنن الدين ومِنهاجه ، وبيّن المنهاج ، وأوضح الطريق ، ومضى لسبيله ، بقيت الخصالُ وِراثةً في أصحابه وأنصاره الفضلاء من أمته ، ولكن لا تكاد تجتمع كلها أجمعُ وِراثةً في واحد منهم ، ولا يخلو أحد من شيء منها .

فإذا اجتمعت تلك الأمة، بعد وفاة نبيها، وتعاونت وتعاضدت وتناصرت مع ائتلاف القلوب ، كما أمرها صاحبها وأوصى بها ، بقُوا هادِين راشِدين منصورين على أعدائهم ، سُعداء في الدنيا والآخرة جميعاً .

ثم إذا مضى أولئك على مِنهاج الذين تقدموهم ، خَلَفهم من بعدهم قومٌ آخرون من ذُرّياتهم وتلامذتهم ، متمسكين بسُنَنهم في أي بلد كانوا ، وأي منازلَ نزَلوا ، هادِين راشدين ، كما قال ، عليه السلام : « إن مثلَ أصحابي

كالنجوم بأيّهم اقتديتُم اهتديتُم » . فإذا ما تنازعوا وتخاصموا وتقاطعوا ، وتركوا وصيّة نبيهم ، وتفرّد كل واحد برأيه ، مُعجَباً بنفسه ، شُتّت شَمْلُ أُلفتهم ، وتفرقت جماعتهم ، وضعفت قوتهم ، فأُفسِد عليهم أمرُ دينهم ، وشَمِت بهم حسّادهم ، وظفِر بهم عدوهم ، إذا تفرّقوا في البلدان النائية ، وشرَع كلٌّ واحد لنفسه مذهباً ، واعتقد رأياً ، وتفرّد به ، وربما دعا الناس إليه . فبهذا السبب تصير الأمة بعد نبيها فِرَقاً وأعداءً وخوارج . ولكن من أجل أن هذه المذاهب إنما هي فروع على الدين ، تفرّعها أصحاب الناموس على أصله ، تكون تلك المِلّة واحدةً بذلك السبب ، والمذاهب مختلفة ، وإلى هذا أشار تعالى : « ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله » .

ثم اعلم أن في اختلاف العلماء ، في الآراء والمذاهب ، فوائد كثيرة تخفى على كثير من العقلاء ، فمن أجل ذلك تجد إلى العقول بتفاوُتِها اختلافات كثيرة لا يحصي عددها إلاّ الله الواحد القهار . وقد ذكرنا في كتب المَنطِق طرفاً من ذلك بشرح طويل ، ولكن نذكر لذلك مثالاً واحداً ليكون دليلًا على ما وصفنا ، فنقول : اعلم أن العقلاء كما وضعوا القياسات إلى كل من أحدث مذهباً ، واعتقد رأياً من الآراء ، فإن ذلك يصير داعياً إلى طلب الحُجّة عند خُصمائه ، وعُذراً عند العقلاء ، ويكون سبباً لغوص النفوس في طلب المعاني الدقيقة ، والنظرِ إلى الأسرار الخفية ، ووضع القياسات ، واستخراج النتائج ، واتساعاً في المعارف ، ويكون سبباً ليَقظة النفوس من نوم الجهالة ، وانتباهاً لها من السهو والغفلة .

وخصلة أخرى من الفوائد في اختلاف العلماء ، وذلك أنه لما كان الإنسان لا يخلو من محاسن وفضائل ، ولا ينفك عن مساوىء ورذائل أيضاً في أخلاقه وسيرته ومذهبه وأفعاله ، وكان أكثر الناس تجدهم يتزيّنون بمحاسنهم ، ويفتخرون بفضائلهم ، ويغفُلون عن رذائلهم ، وينسَون عيوبهم ومساوئهم ،

صار يدعوهم اختلافهم في الآراء والمذاهب إلى كشف عيوب بعضهم لبعض ، وذِكر مساوىء بعضهم لبعض ، ويكون ذلك تنبيهاً للجميع على ترك الرذائل ، وحَثّاً لهم على اكتساب الفضائل ، ويكون في ذلك صلاح الكل إذا فعلوا ما يؤمَرون به ، وتركوا ما يُعابون عليه . ومن أجل هذا قيل : اختلاف العلماء رحمة .

وخصلةٌ أخرى من فوائد العلماء في الاختلاف في أحكام الدين وشرائعه ، وفنون المذاهب ، وهو أن لا يكون أمر الدين ضيّقاً حَرِجاً لا رُخصةَ فيه ولا تأويل ، كما قال تعالى : « ما جعل عليكم في الدين من حرج . » وقال ، عليه السلام : « ادرَأوا الحدودَ بالشُّبُهات » . فبهذا الوجه أيضاً اختلافُ العلماء رحمةٌ ، واختلافُ أهل الديانات في أمر الدين وسُنن أحكامه حِكمةٌ جليّة لا يَعرِفها إلاّ المُحقّقون المُستبصِرون .

- فصل في بيان أنه لا يمكن وصول الأنفس الجزئية إلى الآخرة إلا بعد الورود إلى الدنيا

فنقول : اعلم ، أيّدكَ الله ، أن الله تعالى لما خلق الإنسان ، وجعل أقصى غرضه بلوغَه إلى دار الآخرة ، وكان لا يمكن أن يصل إلى هناك إلاّ بعد أن يَمكُث في الدنيا زماناً ، كما لا يُمكن أن يمكث في الدنيا على أتمّ الحالات إلاّ بعد أن يَمكُث في الرَّحِم زماناً ، ولما كان الغرضُ من المكث في الرَّحِم هو تتميم بِنْية الجسد ، وتكميل الصورة ، حتى إذا خرج إلى الدنيا من الرحم كاملاً تامّاً ، انتفع في الحياة الدنيا ، والتمتُّعِ بلذاتها ونعيمها ، فلهذا كان الغرضُ من الكَون في الدنيا والمكثِ فيها زماناً ممّا هو تتميم صورة النفس وتكميل فضائلها ، ولم تكن تتِمُّ فضائلها إلاّ بهذا الجسد المملوء من

آثار حكمة الله ، كما بيّنا في رسالة تركيب الجسد ورسالة الإنسانُ عالَمٌ صغير .

ثم اعلم أن النفس إن لم تَتِمّ صورتها ما دامت مع الجسد ، ولم تَكمُل فضائلها مع الجسد ما دامت في الدنيا ، لم تنتفع في الدار الآخرة بعد الموت على التمام والكمال ، كما أنه إن لم تتمّ بِنيةُ الجسد في الرَّحِم ولم تَكمُل هناك صورته ، لم ينتفع الإنسان في الحياة الدنيا .

واعلم أن الله تعالى جعل الدين طريقاً من الدنيا إلى الآخرة ، وجعل في قِوام الدين صلاحاً للدنيا والآخرة جميعاً : وذلك أن الدين له ظاهرٌ وباطن ، وقِوامُه بهما جميعاً . فمن الناس من لا يريد بتمسكه بالدين إلاّ صلاحَ الدنيا ومنافِعها، فيحرص في أحكام الدين وشريعته من الصلاة والصوم وما شاكلهما، ويرائي الناسَ وبذلك يطلب منافع الدنيا ، فيكون في حِفظه أحكام الدين قِوامٌ له ، كما قيل : « إن الله يَنصُر هذا الدينَ بأقوامٍ لا خَلاقَ[1] لهم » ! ومن الناس من يريد الدنيا لطلب الآخرة وصَلاح المَعادِ ، فهم يزهدون في الدنيا ، ويتركون الشرور ، ويؤدُّون الأمانات سِرّاً وإعلاناً ، ويعاملون الناس بالصدق والورَع من غير غِشّ ولا دَغَل ، وفي ذلك صلاحُ أمر الدنيا والآخرة جميعاً .

ثم اعلم أن كلّ من أحدث في شريعة أصحاب النواميس حدَثاً من تغيير في أحكامها وتبديل في حدودها ، وطلب بذلك عرَضَ الدنيا ، فإن صاحب الناموس هو خَصمه يوم القيامة . ومن فعل شيئاً من ذلك وأراد به صلاحَ ذاتِ البَينِ – ولكن دخلت عليه شُبهةٌ من غير عِنادٍ ونفيٍ أو طلب في سَبَبِ عَرَض الدنيا – فإن ذلك يُغفَر له ولا يُؤاخَذ به .

---

[1] الخَلاق : النصيب الوافر من الخير .

فصل

في بيان سبب اختلاف العلماء في الإمامة

فنقول: اعلم أن مسألة الإمامة هي أيضاً من إحدى أُمّهات مسائل الخلاف بين العلماء، قد تاه فيها الخائضون إلى حُجَج شتّى، وأكثروا فيها القيل والقال، وبدت بين الخائضين فيها العداوة والبَغضاء، وجرت بين طالبيها الحروب والقتال، وأُبيحت بسببها الأموال والدماء، وهي باقية إلى يومنا هذا لم تنفصل، بل كل يوم يزداد الخائضون المختلفون فيها خِلافاً على خِلاف، وتتشعب فيها ومنها آراءٌ ومذاهبُ، حتى لا يكاد يحصي عددَها إلاَّ الله، فنحتاج أن نذكر أولاً ما الأصلُ المتَّفقُ عليه بين أهلها، ثم نذكر أسبابَ الخِلاف في فروعها فنقول:

اعلم أن الأمة كلها تقول إنه لا بدّ من إمام يكون خليفة لنبيها في أمته بعد وفاته: وذلك لأسباب شتّى وخِصال عِدّة: أحدُها هو أن يحفظ الإمامُ الشريعة على الأمة، ويُحيي السُّنّة في المِلّة، والأمرَ بالمعروف، والنهيَ عن المنكر، وتكونُ الأمة تَصدُر عن رأيه.

وقومٌ آخرون يكونون خلفاءه في سائر البُلدان للمسلمين بالنيابة عنه في جباية الخَراج، وأخذِ الأعشار والجِزية، وتفريقها على الجُند والحاشية، ليَحفظَ بهم ثُغورَ المسلمين، ويُحصِّن بهم البَيضة، ويقهر الأعداء، ويحفظ الطرقات من اللصوص والقُطّاع، فيمنع الظالم، ويردع القوي عن الضعيف المظلوم، ويُنصف ويَعدِل بين الناس فيما يتعاملون به، وما شاكل هذه الخصالَ التي لا بد للمسلمين من قَيّمٍ بها في ظاهر أمور دنياهم.

وخَصلةٌ أخرى هي أن يَرجع فقهاء المسلمين وعلماؤهم عند مُشكِلاتهم في أمر الدين إليه، وعند مسائل الخلاف، فيحكم هو بينهم فيما هم فيه يختلفون من الحكومة في الفقه والأحكام والحدود والقصاص، والصلوات والجُمُعات

والأعياد ، والحجّ ، والغزو ، وتولية القُضاة والعُدول ، وفتوى الفقهاء ، ويَصدُرون كلهم عن رأيه وتدبيره ، وأمره ونهيه ، فهذا هو الأصلُ المتّفق بينهم في حاجاتهم إلى الإمام .

وأما من ينبغي أن يكون الإمام ، ومن هو ، فهم فيه مختلفون على رأيين ومذهبين ، فمنهم من يرى ويعتقد أنه لا ينبغي إلاّ أن يكون أفضلَهم كلّهم بعد نبيها ، وأقربَهم إليه نِسبة ، ويكون قد نُصّ عليه ، ومنهم من يرى بخلاف ذلك. ولهم في هذين الرأيين منازعاتٌ وخصومات، يطول شرحُها، مذكورةٌ في كتبهم ، ولكن نحتاج إلى أن نذكر عِلّة اختلافاتهم من أين كان بَدؤها ، ومن أين أُشكِل الأمرُ عليهم فيه .

واعلم أن الإمامة إنما هي خلافة ، والخلافة نوعان : خلافة النبوة ، وخلافة المُلك . والكلام في خصال الإمامة وتعديد شرائطها قبلَ معرفة خِصال النبوّة وتحصيل شرائطها ، وقبل معرفة خصال المُلك وشرائطه والفَرق بينهما ، كلامٌ على غير أصله . وكل كلام على غير أصلٍ هذيانٌ لا تحقيق له! ونحتاج إلى أن نذكر أولاً خِصالَ النبوّة قبل خصال المُلك فنقول :

إن أول خصال النبوة الوحيُ ، والأنبياءُ من الملائكة ، ثم إظهار الدعوة في الأمة ، ثم تدوين الكتاب المُنزَل بالألفاظ الوجيزة ، وتبيينُ قراءته في الفصاحة ، ثم إيضاحُ تفسير معانيه وبلوغ تأويله ، ثم وضع السُّنن المركّبة ، ومُداواةُ النفوس المريضة من المذاهب الفاسدة ، والآراء السخيفة ، والعادات الرديئة ، والأعمال السيئة ، والأفعال القبيحة . ثم نقلُها من تلك العادات وتلك الآراء ، ومَحوُها عن ضمائرها بذكر عيوبها ، ومداواتها من أسقام تلك العادات بالحِمْية لها من العود إليها ، وإشفائِها[1] بالرأي الرصين، والعادات الجميلة ، والأعمال الزكية ، والأخلاق الحميدة ، بالمدح والترغيب في جزيل الثّواب ليوم المآب .

---

[1] اشفاؤها : اعطاؤها الشيء لتشتفي به ، وتأتي بمعنى شفائها .

وأيضاً من خِصال النبوّة معرفةُ كيفيّة سياسة النفوس الشريرة عن قصد سبيل الرّشاد ، وردها عن سلوكها في وعور طريقة البَغي بالتمادي ، ومعرفة كيفية سياسة النفوس الساهية والأرواح اللاهية من طول الرقاد ، ونسيانها ذِكْرَ المَعاد بالتذكار لها يوم المَعاد ، لئلا يقولوا : ما جاءنا من بشيرٍ ولا نذيرٍ ولا كتاب !

ومن خِصال النبوة أيضاً إجراءُ السُّنّة في الشريعة ، وإيضاح المنهاج في المِلّة ، وتبيين الحلال والحرام ، وتفصيل الحدود والأحكام في أمور الدنيا جميعاً ، ثم التزهيد في الدنيا ، وذمُّ الراغبين فيها ، وتفصيل أحكام الخاصّ والعامّ وما بينهما من سائر طبقات الناس ، وما شاكل هذه الخصالَ المعروفة بين أهل العلم ، الموجودَ وضْعُها في الكتب المُنْزَلة من التوراة والإنجيل والقرآن وصُحُف الأنبياء عليهم السلام .

فأما خِصالُ الملك فأولها أخذ البَيعةِ على الأتباع المستجيبين ، وترتيبُ الخاصّ والعام مراتِبَهم ، وجِبايةُ الخراج والعُشر والجِزية من المِلّة ، وتفريق الأرزاق على الجند والحاشية ، وحِفظُ الثغور ، وتحصينُ البَيضة ، وقَبولُ الصُّلح والمهادَنة من الملوك والرؤساء من الأمور المستحبة ، والهدايا لتأليف القلوب وشَملِ الألفة ، وما شاكل هذه الخصالَ المعروفة بين الرؤساء والملوك .

ثم اعلم أنه ربما تجتمع هذه الخصال في شخص واحد من البشر في وقت من الزمان ، فيكون هو النبيّ المبعوث وهو الملك ، وربما تكون في شخصين اثنين : أحدهما النبي المبعوث إلى تلك الأمة والآخَرُ المسلَّط عليهم.

واعلم أنه لا قِوام لأحدهم إلاّ بالآخر كما قال ملك الفرس أردَشير في وصيته : إن الملك والدين أخوان توأمان لا قِوام لأحدهما إلاّ بالآخر، وذلك أن الدين أُسُّ الملك والمُلك حارسه ، فما لا أسّ له مهدوم ، وما لا حافظ له ضائعٌ ، ولا بُدّ للمُلك من أسٍّ ، ولا بد للدين من حارس .

ثم اعلم أن الله تعالى قد جمع لنبيه محمد ، عليه الصلاة والسلام والتحية ، خصالَ الملك والنبوة جميعاً ، كما جمعها لداود وسليمان، عليهما السلام، وكذلك جمع ليوسف الصّدّيق ، عليه السلام . وذلك أن النبي ، صلى الله عليه وسلم، أقام بمكة في أول مَبعثه نحواً من اثنتي عشرة سنة يدعو الناس ويعلّمهم معالِم الدين ، حتى استوفى خِصال النبوّة وأحكمها، ثم هاجر بعد ذلك إلى المدينة، وأقام بها نحواً من عشر سنين في ترتيب أمر الأمة ، وتحذير الأعداء ، وجباية الخراج والعُشر ، ومُصالحة الأعداء والمُهادنة ، وقبول الهدايا وحملها ، والتزويج منهم وإليهم ، حتى أحكم أمر المُلك .

ثم اعلم أن الله تعالى لما أضاف إلى نبوّته المُلك ، لم يُضِفها لرغبته في الدنيا وحرصه عليها ، ولكن أراد الله تعالى أن يجمع لأمته الدين والدنيا جميعاً ، وكان القصد الأول هو الدين ، والملكُ عارضٌ لأسباب شتى : أحدها أنه لو كان الملك في غير أمته ، لم يكن يُؤمَن أن يردّهم عن دينهم أو يسومَهم سوء العذاب من كان مُسلّطاً عليهم ، مثل ما كان يفعل فِرعون ببني إسرائيل .

والخَصلة الأخرى ما قال أردشيرُ : «أن الملك والدين أخوان توأمان».

وخَصلة أُخرى هي أن الناس في طِباعهم وجِبِلّتهم لا يرغبون إلاّ في دين الملوك ، ولا يرهبون إلاّ منهم، وبهذه الخِصال وخِصال أُخرى يطول شرحها جمع الله المُلك والنبوة لنبيه محمد ، عليه الصلاة والسلام والتحية والرضوان .

ولما أُشكِلت هذه المسألة على اليهود والنصارى ، ارتدّوا وشكّوا في نبوّته، لما رأوا أن الملك والنبوّة لمحمد ، عليه السلام . فلما أنزل الله ، عزّ وجلّ ، قصة داود وسليمان ليُحاجّ بها اليهود والنصارى ، إذ كانوا مُقرّين بنبوتهما ، وقد جمع الله لهما من الملك والنبوّة ، ولم يكن الملك قادِحاً في نبوّتهما ، فهكذا كان حكم محمد ، عليه السلام ، فإن الملك لم يكن قادحاً في نبوّته .

واعلم يا أخي أن الله تعالى قد جمع لمحمد ، عليه السلام ، الملك والنبوّة، وأيّده بروح منه، حتى إنه قام بواجب حقّهما لما خصّه الله به من الجبلة القوية ،

والقوّة المتينة ، كما قال تعالى : « وإنك لعلى خُلُق عظيم ». وقلّ من يكون كذلك ، لأن النبوّة تتمّ بنيّف وأربعين خَصلة من فضائل البشرية ، والمُلك يحتاج إلى شرائط أُخَر غيرها .

فصل

فاعلم أن في بعض أخلاق الملوك مُضادّة لخِصال النبوّة ، وذلك أن المُلك أمر دُنيوي، والنبوّة أمر أُخرَوي، والدنيا والآخرة كأنهما ضدان. وأكثر الملوك يكونون راغبين في الدنيا ، حريصين عليها ، تاركين لذكر الآخرة ، ناسين لها ، والأنبياء ، عليهم السلام، من خِصالهم التزهيد في الدنيا ، والترغيب في الآخرة ، يأمرون بها ويحثّون عليها، فعلى هذه الدرجة يكون بعضُ حال الملوك مُضاداً لحال النبوة ، ولكن الأنبياء ، عليهم السلام ، الذين جمع الله لهم الملك والنبوّة ، لم يكونوا شديدي الرّغبة في الدنيا ، ولا حريصين على شهواتها ، كما حكى الله تعالى عن يوسف الصّدّيق ، عليه السلام ، حين قال : « رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث » الآية . فهذا يدلّ على أنه كان من الزاهدين في الدنيا. فهكذا كان داود، عليه السلام، وسليمان، عليه السلام .

ولقد ذكر الله تعالى في قصة داود ، عليه السلام ، أنه كان أوّاباً حليماً ، وفي قصة سليمان « هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر » وهكذا كان النبي ، عليه السلام ، زاهداً في الدنيا ، راغباً في الآخرة . وقد روي في الخبر أن جبريل ، عليه السلام ، عرض عليه مفاتيح خزائن الأرض ، فقال : خذها ولا يَنقُصك ما عند الله شيئاً. فقال عليه السلام : « لا حاجة لي في شيء من ذلك ، حلالها حساب ، وحرامُها عذاب » . وإنما جعل ذلك إشفاقاً على أمته ، لئلا يرغبوا فيها ، ويحتجوا إليها بقول الله تعالى : « يريدون عرَض

الدنيا والله يريد الآخرة » . وقوله : « بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى » . وقال : « والآخرة خير لك من الأولى » .

فصل في مسألة الجبر

فنقول : اعلم أن مسألة الجبر هي أيضاً من إحدى مسائل الخلاف بين الناس ، المُنبثّة منها الآراءُ والمذاهب : وذلك أنه منذ كان العلماء وأهلُ الجَدل هم فيها مختلفون فيما مضى من الأزمان والدهور ، وهم طائفتان : الجَبريّة والقَدَريّة . فأما الجَبريّة فإن الذي أدّاهم إلى ما يعتقدون في هذه المسألة هو نظرهم واعتبارهم عواقبَ الأمور وخواتيمها ، وذلك أنهم لما تبيّن لهم أن الأمور كلها التي تخرج إلى الكون والفساد والوجود والعدم فعلى ما في مقدور الله وسابق علمه ، لا يكون خلافَ ذلك شيءٌ . وزعموا عند ذلك وظنوا أنهم لا يَقدِرون على شيء من الأفعال التي تظهر على أيديهم ، ولا يستطيعون الامتناع عن شيء من ذلك ، ولا التركَ لها بالحقيقة ، ونسبوها كلّها إلى القضاء والقدر .

وأما خصماؤهم ومخالفوهم فكان نظرهم واعتبارهم في هذه المسألة الأوامرَ والنواهي والمدحَ والذمّ والوعد والوعيد المتوجهة على الإنسان العاقل المستطيع . ورأوا أنه محجوج بها ، مُزاحُ العلة فيها ، وليس له أن يحتج على أحد ، لا عند الله ولا عند الناس ، بالقضاء والقدر ، وعلمِ الله السابقِ في الكائنات ، لأنه لا يدري أحد في مبدإ أمره وأول أفعاله قضاء الله وقدَره وعِلمه السابق ، وإنما تبيّن له ذلك بعد فراغه مما قد فعل أو ترك ما أمر الله به . وهذا النظر نظر أولئك واعتبارُهم ، فلا جَرَم أن المسألة قائمة بحالها ، والخلاف باقٍ ، والحكومة لم تنفصل إلى يومنا هذا ، بل كلما ازدادوا فيها نظراً واعتباراً وبحثاً وجدالاً ، ازدادوا خلافاً على خلافٍ إلى يوم القيامة

« والله يفصل بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون » .

ثم اعلم أن ليس أحد من المخلوقين بقادر على شيء من الأشياء ولا عمل من الأعمال إلاَّ ما أقدره الله تعالى عليه وقوّاه ويسَّره له .

واعلم أن إقدار الله القادرين ، وتقويتَه الأقوياء ، وتيسير الأمور ليس بمُجبِر لأحد منهم على فعلٍ من الأفعال ولا عملٍ من الأعمال ولا تركِه .

واعلم أن كل قدرة في أحد من القادرين ، أو قوةٍ في أحد من الأقوياء على فعل من الأفعال وعمل من الأعمال فهو بتلك القُدرة وتلك القوة بعينها التي يَقدِر بها على الفعل ، ويقدِر أيضاً على ترك الفعل بعينه . مِثالُ ذلك القوّة التي جُعلت في لسان المتكلم على الكلام ، فهو بتلك القوة بعينها يقدِر على السكوت ، وبالقوة التي في الرجلين كذلك ، وفي العينين على فتحهما كذلك ، فإنه بتركه ذلك الفعل أيضاً قادر .

وعلى هذا القياس حُكم سائر القوى التي يقدر على الأفعال بها ، ولكن رُبَّ فعلٍ تَرْكُهُ أسهلُ من أخذه ، ورُبَّ فعلٍ أخذُه أسهلُ من تركه . ويوجد ذلك بحسب الأسباب الداعية إلى الأمور الميسَّرة بها. مثالُ ذلك اللص وسرقته بالليل ، فإن النوم على الفُرُش الوطيئة ، على كل حال ، أسهلُ من الذهاب في ظُلَم الليالي إلى المواضع البعيدة الشاقّة ، ونَقْبِ الدور ، وتسلُّق الحيطان العالية مع الخوف والوَجَل . ولكن الحِرص والرغبة ، وشدة الحاجة ، وطولَ الأمل ، وشهوات النفوس ، وتركَ النظر في العواقب ، والغرورَ بالأماني ، ووساوس الشيطان ، وما شاكل هذه من الأسباب ، تدعوهم إلى فعلِ ما هو أصعب ، وعمل ما هو أشقّ ، وتَركِ ما هو أيسرُ وأسهل !

وعلى هذا المثال حُكم سائر الأعمال الصعبة والأفعال الشاقة التي يفعلها الفاعلون ، فإن تَركَها أسهلُ من أخذها ، ولكن قيل : « كلٌّ مُيسَّر لما

خُلِق له » فمن الناس من تَيسَّر له أخذُ الفعل ، ومنهم من تيسَّر له تركه .

فلا تظن يا أخي أنه قد يقع من أحد فعل ، ولا يُيسَّر له عمل ، ولا تركُ شيء مما هو مندوبٌ إليه ، إلاَّ ما قد سبق له في علم الله الذي يُسمَّى القضاءَ المُبرَم والقدَر المحتوم اللذين هما مُوجِبات أحكام النجوم وتأثيرات الأشكال الفلكية ، كما بيّنا في رسالة الإيمان، فليُعرَف من هناك .

فصل

ثم اعلم أن أحكام النجوم هي أيضاً من إحدى أُمهات الخلاف بين الناس مذ كانوا، والعلماءُ في حُكمها على ثلاثة أقاويل : فمنهم من يرى ويعتقد أن الأشخاص الفلكية دلالةٌ على الكائنات قبل كونها في هذه الأشخاص السُّفْليّة ، ولها أيضاً فيها أفعال وتأثيرات . ومنهم من يرى ويعتقد أن لها دَلالات ، ولكن ليس لها فعل ولا تأثيرات . ومنهم من يرى ويعتقد أنه لا تأثير لها ولا دَلالة البتّةَ، ولكن حُكمها حُكمُ الجمادات والأحجار المطروحة في البراري والقفار . وإنما قالوا هذا وأنكروا دلالتها وأفعالها ، لتركهم النظرَ في علم أحكام النجوم ، وإغفالِهم تعليمها ، وإعراضهم عن البحث عنها .

وأما الذين قالوا بأن لها دلالاتٍ فإنما عرفوا ذلك وتبين لهم صحته ، لطول التجارب ، وكثرة الاعتبار في مرور الأيام والشهور والسنين الكثيرة ، أُمةً بعد أُمة ، وقرناً بعد قرن ، كما تبيّن ذلك في كتب الأحكام .

وأما الذين قالوا إن لها دَلالاتٍ وأفعالاً وتأثيرات ، ولهم أحياءٌ ناطقون ، وهم ملائكة الله ، وملوك أفلاكه ، وسكان سمواته ، فإن ذلك عرفوه بعد النظر في العلوم الإلهية وأحكامها . والعلومُ الإلهية عرفوها بعد النظر في العلوم الطبيعية وأحكامها . والعلومُ الطبيعية عرفوها بعد النظر في علوم الرياضة وأحكامها . وعلومُ الرياضة عرفوها بعد التعلم لها والتدرُّب بطول الزمان من

الدهور والأيام ، فسموا المؤثرات روحانياتِ الكواكب في الكائنات .

ثم اعلم أن العلماء لا يشكّون في علم وأدب قد تعلموه وفكّروه بقول المنكرين له والجاهلين به، وهكذا العقلاءُ مجبولون على أن لا يترك أحدهم ديناً ومذهباً قد نشأ عليه وأنس به ، وقد اعتاد التعبُّد بطول الزمان على سُنته ، وأخذه عن آبائه وشيوخه وأستاذيه ، من غير أن يتبين له بُطلانه وينكشف له عَوَارُه[1] ، وهكذا لا يرغب أحد منهم في الدخول في دين أو مذهب لم تتبين له صحته ، ولم تصِح له حقيقته ، ولا قامت عنده حُجته ، فلا تَلُمِ الناس على تمسكهم بدين آبائهم ومذاهب أسلافهم .

فاعلم أن الحق في كل دين موجود ، وعلى كل لسان جارٍ ، وأن الشُّبهة دخولُها على كل إنسان جائز ممكن ! فاجتهد يا أخي أن تبين الحقّ لكل صاحب دين ومذهب مما هو في يده ، أو مما هو متمسك به ، وتكشف عنه الشُّبهة التي دخلت عليه ، إن كنت تُحسن هذه الصناعة ، وإلاّ فلا تتعاطَها ولا تدّعِها إن كنت لا تُحسِنها . ولا تُمسِكْ بما أنت عليه من دينك ومذهبك ، واطلب خيراً منه ، فإن وجدتَ فلا يسعك الوقوفُ على الأدْوَنِ ، ولكن واجبٌ عليك الأخذُ بالأخيرِ الأفضلِ ، والانتقالُ إليه . ولا تشتغِلنَّ بذكر عيوب مذاهب الناس ، ولكن انظر هل لك مذهب بلا عيب .

واعلم أن الإنسان العاقل قد تخفى عليه عيوبُ مذهبه ، كما تخفى عليه مساوىء أخلاقه وقبائح أفعاله وسيئاتُ أعماله ، وتسنح له عيوبُ غيره ومساوىء أخلاقه وقبيح أفعاله ، كما قيل في المثل : « يا ابن آدم لك مخلاّن : أحدهما فيه عيوب نفسك ، وفي الآخر عيوب غيرك ، وأنت قد جعلت التي فيها عيوبُ غيرك قدّام وجهك ، ولا تزال تَطّلِع عليها ، والتي فيها عيوب نفسك تجعلها خلفَ ظهرك فلا تلتفت إليها . » قال حكيم اليونانيين : « الإنسانُ يعمى ويصَمّ

---

١ عواره : عيبه .

عن عيوب نفسه ، لأن نفسه أحبُّ الأشياء ، وحب الشيء يُعمي ويُصمّ » .

ثم اعلم أن العلوم أجناس كثيرة ، ولكل جنس أنواع متفننة ، وكل نوع منها بجزء آخر ، وأهل كل علم متفاوتو الدرجات فيها : مبتدىءٌ متعلم ، وعالم راسخ ، وما بينهما من الطبقات . ولأهل كل علم ومذهب أدلّة قد نصَبها لهم الباري تعالى، فهم يصيبون ويخطئون في أحكامهم والاستدلال بها، فمُقِلٌ ومُكثِر . كل ذلك بحسب قوى نفوسهم ، وطول دُربتهم ، ودقة نظرهم فيها . ولا يظن أن الصناعة تبطُل ، أو تكون الأدلّة غير صحيحة من أجل خطاياهم وزلتهم في الاستدلالات إ! فعلم النجوم وأدلّتها صحيحة وحقّ ، وهي الأشخاص الفلكية التي نصَبها الباري تعالى ، وأجراها مجاريها . وإن كان المنجمون يخطئون في بعض استدلالاتهم أو في أكثرها ، فلا تَبطُل صناعة علم النجوم من أجل ذلك ، وهو علم جعله الله تعالى مُعجزة لإدريس النبي ، آمَن به مَلِك زمانه . وله قصة يطول شرحها . كذلك الطبُّ صناعةٌ ، فإن دلالته صحيحة ، وقد يصيب الأطباء ويخطئون في قضاياهم باستدلالاتهم التي نصبوها في أكثرها ، فلا تَبطُل صناعة الطب من أجل ذلك ، والأدلّة التي نصبها الباري سبحانه وتعالى هي اختلاف حَركات النَّبْض وأصباغ البول، وتغيُّر أحوال المريض للعِلَل . وهكذا أيضاً الفقهاء والحكام والمُفتُون في أحكام الدين من الحلال والحرام قد يُصيبون ويخطئون في قضاياهم واستدلالاتهم التي نصَبها لهم الباري من آيات كتبه المنزّلة ، وسُنن أحكام الشريعة ، ومفروضات النواميس الإلهية ، فخطؤهم وزللهم لا يُبطِل العلم والصناعة والأدلّة المنصوبة ، ولكن التقصير والعجز موكولان بالإنسان لنَقصه عن التمام .

ثم اعلم أن مسألة الوعيد هي أيضاً إحدى أُمهات مسائل الخلاف بين العلماء، وذلك أن منهم من يرى ويعتقد أنه واجب في حكم الله وعدله أن يفي بوعيده كما وفى بوعده، لأنه إن لم يفعل كان كاذباً، تعالى الله عن ذلك عُلوّاً كبيراً.

ومنهم من يرى ويعتقد أنه لا يكون كاذباً ، لأن الكَذِب هو الخبر بأنه قد فعل ولم يكن فعل ، أو يقول : ما فعلت وقد كان فعل . فأما إذا قال : سأفعل ثم لم يفعل ، فيكون مخالفاً ، والمخالف في الوعد يكون مذموماً غير وفيّ . فأما في الوعيد فربما كان الخلافُ عفواً وصفحاً ورحمةً وتحنّناً وإشفاقاً وكرماً وسماحة وإنعاماً ، وكذلك هذه الخصال ممدوحة محمودة تليق بفضل الله ورحمته وكرمه وإحسانه . ومنه قول بعض العرب :

وإني إذا أوعدتُه أو وعدتُه ، لمخلِفُ إيعادي ومُنجِزُ موعِدي

فإن إخلاف الوعيد مكرُمة افتخر بها ، وذلك أن وعيد الله تعالى لعبيده مماثِل لوعيد الأب الشفيق الطبيب العالم للولد الجاهل العليل ، يقول : لا تأكل ولا تشرب كَيتَ وكَيتَ ، وافعل كَيتَ وكَيتَ ، فإنك إن لم تفعل ولم تقبل نصيحتي ، ضربتك وحبستك وعاقبتك . فإن لم يفعل الولد ، ولم يقبل نصيحة والده ، ولم يأتمر له ، ولم ينته عما نهاه عنه ، وأكل وشرب ما نهاه عنه ، وترك ما كان مأموراً به ، بقي عليلا سقيماً وفاتته الصحة والأنفعُ والأصلحُ ، وبقي متألماً وجيعاً ، فإن الأب الشفيق يشفق عليه أن يفي بوعيده فيضربه ويزيده ألماً وعذاباً . فهكذا حكم عذاب الله ووعيده لعباده ، وهذا أليقُ به وبرحمته وجوده وكرمه وإحسانه .

وأما وقتُ وفاء الوعد لثواب المحسنين متى يكون وكيف يكون ؟ فإن هذه المسائل هي من غوامض العلوم ودقائق الأسرار ، وقد أكثر العلماء فيها القال والقيل ، وتحيرت فيها عقول كثير من الناس أولي الألباب ، فمنهم من يرى ويعتقد أنها في الدنيا قبل الممات . ومنهم من يرى أنها تكون في الآخرة بعد الممات . وأما كثير من الناس فينكرون أمر الآخرة فلا يعرفونها ولا يُقرّون بها . وأما المقرّون بها فمختلفون أيضاً فيها وفي ماهيّتها وكيفيّتها وأبنيتها على مذاهب شتى : فمنهم من يرى ويعتقد أن الآخرة ودار الجزاء إنما تكون بعد خراب السماء وفناء الخلق أجمعين ، ثم إن الله تعالى يُعيدهم

مرةً ثانية خلقاً جديداً ، فيُثيبهم ويُجازيهم ما كانوا يعمَلون في الدنيا من خيرٍ أو شرٍّ ، أو عُرفٍ أو نُكرٍ ، وهذا جيّد للعامة ولمن لا يعرف من الأمور شيئاً ، ويرضى الدين تقليداً وإيماناً ، وأما الخاصّ ومن قد نظر في بعض العلوم الرياضيّة والطبيعية ، فإن هـذا الرأي لا يَصلُح لهم ! وذلك أن كثيراً من العقلاء الحكماء يُنكِرون خراب السمَوات ، ويـأبون ذلك إباءً شديـداً ، والجيّدُ لهم إذن أن يعتقدوا أمر الآخرة أن لها وجوداً متأخراً عن الكون في الدنيا ، كما كان في الدنيا موجوداً متأخّراً عن الكون في الرَّحِم ، وكما كانت أيام الشيخوخة متأخرة عن أيام الشباب ، وأيامُ العقل والتميز والحكمة والكمال كانت متـأخرة عن أحوال الجهل ، وهي أحوال تطرأ على النفس بعد مفارقتها الجسد إذا هي انتبهت من نوم غفلتها في الدنيا ، واستيقظت من رقدة جهالتها قبل الممات ، ونظرت إلى الدنيا واعتبرت أحوالها وتصاريف أمورها ، ليكون ذلك دلالةً على معرفة الآخرة . فـإذا لم تفعل وماتت ميتةً جاهلية بعمائها ، فتكون بَعدُ بأمر الآخرة أعمى وأضلّ سبيلاً . وقد بيّنا في رسالة الآلام واللذات طَرَفـاً في كيفية ثواب المُحسنين وجزاء المسيئين بعد الممات ، وطَـرَفـاً آخر منها بيّناه في رسالة البعث والقيامة ، ونريد أن نذكر هاهُنا طرفاً آخر .

فصل في جزاء المحسنين

فنقول : اعلم يا أخي أن جَزاء المحسنين يتفاضـــل في الآخرة بحسب درجاتهم في المعارف واجتهادهم في الأعمال الصالحة ، والناسُ متفاوتو الدرجات في أعمالهم ، كلٌّ على شاكلته ، وأجودُ أحوال العامة والجهّال كَثرةُ الصوم والصدَقة والصلاة والقراءة والتسبيح ، وما شاكل ذلك من العبادات المفروضة والمسنونة في الشرائع ، المُشغِلة لهم عن فُضول وبَطالة ، وما لا ينبغي لهم كيلا يقعوا في الآفات .

وأفضل أعمال الخواصّ التفكُّرُ والاعتبار بتصاريف أمور المحسوسات والمعْقولات ، وبخاصّة ما يتعلق بالدين . وقد قيل: أفضل أعمال الخير خَصلةٌ واحدة وهي التفكر . قال الله تعالى : « قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا » .

ثم اعلم أن الإنسان ، إذا عقَل الأُمور المحسوسة وعرفها ، وتفكر في الأُمور العقلية وبحث عنها وعن عللها ، استقبلته عند ذلك طريقتان: إحداهما ، ذاتَ اليمين ، تؤدّيه إلى الهداية والرّشاد ، والأُخرى ، ذاتَ الشّمال، تؤدّيه إلى الغَيّ والضلال . وذلك أن أُمور العالم نوعان : كليات وجزئيات لا غير . فإذا أخذ الإنسان يفكر في كلياتها ، ويعتبر أحوالها وتصاريفها ، ويبحث عن الحكمة فيها بانت له ، وأمكنه أن يعرفها بحقائقها وأُرشِد إليها ، فكلما تقدم فيه زاد هِداية ويقينـاً ونوراً واستبصاراً وتحقُّقاً ، وازداد من الله قرباً وكرامة . وإذا أخذ يتفكّر في جزئياتها، والبحث عنها وعن عِلَلها ، خفيت وانغلقت مناحيها ، وكلما ازداد تفكراً ازداد تحيراً وشكوكاً ومن الله بعداً ، وكان قلبه من أجل ذلك في عذاب أليم .

مثال ذلك أنه إذا ابتدأ الإنسان أولاً وتفكر في نفسه ، ونظر إلى بنية هيكله ونفسه ، وكيفيّة تركيب جسده ، وكيف كان أولاً في صُلب أبيه ماء مَهيناً ، ثم كيف صار نُطفةً في قَرار مكين ، ثم كيف صار مُضغة ، ثم كيف كسا العظامَ لحماً ، ثم كيف صار جنيناً بعد أطوار متعاقبة ، ثم كيف قَبِلت فتيلة جسده نور شُعاع فيض روح القدس الإلهي ، ثم كيف أُخرج من الرّحم الذي هو عالم كَونه إلى الدنيا التي هي عالم آخرته ، ثم كيف صار طفلاً حسّاساً ، ثم كيف تربّى وهو طفل صبي جاهل ، ثم كيف نشأ وصار شابّاً عالماً أو جاهلاً ، ثم كيف صار رجلاً عالماً فيلسوفاً حكيماً مدبّراً متملكاً على ما ملك ، ثم كيف صار زاهداً عابداً ، ثم ، إن طال عمره ، كيف يرجع كما كان بَديّاً ضعيفاً ذاهبَ القوة ، ثم كيف ظهر بعد

الشَّبَابة[1] والقوة والضعف والشَّيبة « الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوةٍ ضعفاً وشيبة يخلق ما يشاء ». فإذا فكَّر الإنسان في هذه الحالات التي يُنقل فيها من أَدْونها إلى أَتمّها ، ومن أفضلها إلى أكملها ، فيعلم بالضرورة ويشهد له عقله أن له صانعاً حكيماً هو الذي اخترعه وأنشأَه وأَنماه . فإذا تحقق عنده ما وصفنا من هذه الحالات ، جعل نفسه عند ذلك مقياساً على سائر أبناء جنسه ، فعلم علماً يقيناً أنه قد فُعل بهم مثل ما فعل به ، وهكذا سائر الحيوانات . وكلما ازداد تفكراً في هذا الباب ، ازداد بربه يقيناً وبأوصافه معرفة .

واعلم أن الله تعالى حيٌّ عالم قادر عليم حكيم مُحسن جواد كريم مُشفق رحيم . ولو نظر في التشريح ، أو في كتاب منافع الأعضاء ، أو كتاب الحيوان ، أو كتاب النبات ، أو كتاب المعادن ، أو كتاب الآثار العُلْويّة ، أو كتاب تركيب الأفلاك ، وما شاكلها من الكتب والعلوم والمعارف من وصف مصنوعاته وعجائب مخترعاته ، فإنه كلما ازداد فيها نظراً ازداد بالله علماً ، وبأوصافه اللائقة به معرفة واستبصاراً ، وإليه قُربة ، وإلى لقاء الله اشتياقاً ، فهذا هو الطريق ، ذات اليمين ، المؤدّي سالكه إلى الله تعالى وإلى نعيم جِنانه .

وأما الطريق الآخر ، ذات الشمال ، المؤدّي إلى الشكوك والحيرة والضلالة والعمى فهو أن يبتدىء الإنسان ، قبل النظر في العلوم والآداب والرياضيات ، وقبل أن يُحسّن أخلاقه ويهذّب نفسه ، بالكشف عن الأمور الجزئية الخفيّة المُشكِلة على الحُذّاق من العلماء والفلاسفة فضلاً عن غيرهم نحوَ معرفة ألم الأطفال ، وطلب معرفة مصائب الأخيار ، والبحث عن الأنباء وتيسير أمور الأشرار ، ولِمَ زيدٌ الحازمُ فقير ، وعمرو العاجز غني ؟ ولِمَ

---

[1] الشبابة : أي النشاط .

جعفر الغبيّ أمير ؟ وعبد الله الحكيم حقير ؟ ولِمَ هذا الرجل ضعيف ، والآخر قوي صحيح ؟ ولِمَ هذه الدودة صغيرة ، وهذا الجمل كبير ؟ ولِمَ الفيل ، مع كِبَرِ جُثته ، له أربع قوائم ، والبقُّ ، مع صِغَرِ جُثته ، له ست أرجل وجناحان ؟ ولماذا يَصلُح البقّ والذُّباب والقِردانُ والبراغيث ؟ وأي فائدةٍ في خلق الخنازير والوزَغ[1] ؟ وأي حكمة في خلق العقارب والحيّات ؟ وما شاكل ذلك من المسائل التي لا يحصي عددها إلاّ الله ولا يعلم سواه عِلَلها . فأما الإنسان فإنه لا يعرف الحكمة في عللها إلاّ بعد النظر في العلوم الإلهية ، وهو لا يعرف إلاّ بعد النظر والتفكُّر في الأمور الطبيعية ، وهو لا يعرف إلاّ بعد النظر في الأمور المعقولة ، وهو لا يعرف إلاّ بعد النظر والتفكُّر في الأمور المحسوسة . فمن لم يكن مرتاضاً بهذه العلوم والمعارف ، ولا متأدباً بها ، ولا صافي النفس ، ولا صالح الأخلاق ، فيبتدىء أولاً بطلب الأمور المُشكلة التي تقدم ذكرها فلا يُدركها ولا يعقلها ، فيرجع عند ذلك خاسراً متفكّراً متحيّراً غافلاً بنفسه ، وسواساً في قلبه ، فينظر عند ذلك إلى أمر العالم مُهملاً ، والكائنات باتفاق لا بعناية حكيم ، ولا صنع صانع عليم ، أو نظَر إلى أن رب العالمين غافلٌ عن أمر عالمه ، حتى يُجري فيه ما لا يليق بالحكمة ، أو يظن أنه لا يعلم ما يجري فيه ، أو أنه لا يفكر في هذه الأمور الجزئية ولا يهمه ، أو يظن أنه قاسٍ قليل الرحمة والنظر لضعفاء الخلق ؛ أو أنه جائر في قضائه وأحكامه ، مُتعبٌ لخلقه ، مُفرِط في تقديره ، غير عَدلٍ ولا حكيم في كثير من أفعاله ، لا يرحم الضعيف ، وما شاكل هذه من الظنون والشكوك والحَيرة والضلال الذي قد تاهت في طلب معرفته عقولُ كثير من العقلاء المتقدّمين المُرتاضين بالعلوم الحِكَمية ، فكيف غيرهم ممن ليست له رياضة ولا معرفة بحقائق الأسرار المعروفة . وقيل إن حكيم الفرس بُزُرجُمهْرَ لما تفكّر في هذه الأمور

[1] الوزغ : جمع وزغة ، وهي المعروفة بسامّ أبرص ، وأبي بُريص .

المُشكلة ولم يعرف عللها ، قال عند ذلك احتجاجاً لنفسه ، إذ قد تبيَّن له بأن الله حكيم عَدل : « إن مصائب العباد إذاً لعللٍ لا يعرفها » إقراراً على نفسه بالعجز عن معرفة هذه الأمور المُشكِلة .

ويقال إن نبيّاً اجتاز مرة عيناً من الماء في سفح جبل فتوضأ منها ، ثم ارتقى إلى الجبل ليصلي ، فبينما هو كذلك إذ نظر إلى فارس قد أقبل على تلك العين فشرب من الماء وسقى فرسه ، ثم ركب فمضى ، ونسي عند العين صرّةً فيها دراهم . ثم جاء من بعده راعي الغنم ورأى الكيس فأخذه ومضى . ثم جاء بعده شيخٌ حطّاب عليه أثر البؤس والمَسكنة ، على ظهره حُزمة من الحطب ثقيلة حَملها ، فحطّ هناك حُزمته ، واستلقى يستريح مما به من شدة الضعف والتعب والريق والانبهار [1] . ففكر النبي وقال في نفسه : لو أن هذا الكيس مكانه، لكان هذا الشيخ الضعيف أولى بأخذه من ذلك الراعي الشاب الغني القوي! فما كان إلاَّ قليلاً حتى إن الفارس قد رجع إلى مكانه الذي شرب الماء منه ، وطلب الكيس فلم يجده ، فطالب الشيخ ، فأبى الشيخ وقال : ما عندي خبر هذا ، فضربه وعذّبه حتى قتله ومضى الفارس . فقال عند ذلك: يا رب ما وجه الحكمة في هذه القضية وأين هذا من العدل ؟ فأوحى الله تعالى إليه أن أبا الشيخ قتل في الزمان الماضي أبا الفارس ، وكان على أبي الفارس دين لأبي الراعي بمقدار ما في الكيس ، فأخذتُ القَوَدَ ، ورددت الدينَ ، وأنا حكيم عادل .

وكذلك يحكى أن نبيّاً من أنبياء الله تعالى اجتاز نهراً فيه صبيان يلعبون، وبينهم صبيٌ مكفوف ، وهم يغوّصونه في الماء ، ويولَعون به ، وهو يطلبهم ولا يظفر بهم . ففكر النبي في أمره ودعا ربه أن يردّ بصره ويساوي بينه وبين الصبيان ، فلما ردّ الله بصره ، فتح عينيه ، فقرُب إلى واحد من أولئك

---

١ الانبهار : انقطاع النفس من الإعياء .

الصبيان ، فتعلق به وغوّصه في الماء ولم يفارقه حتى قتله ، وطلب آخر كذلك وهرب الباقون . فدعا النبي حين ذلك ربّه أن يكفيهم شرّه ، فأوحى الله تعالى إليه وقال : إني قد فعلتُ ، ولكن لم ترض بحكمي ، وتعرضت في تدبيري لخلقي . فتبين للنبي أن كل ما يجري في العالم من أمثال هذه الأمور فلله تعالى فيه سر وتدبير وحكمة لا يعلمها إلاّ هو .

وقد أخبر الله تعالى في القرآن من حديث نبيين وما جرى بينهما من الخطاب في هذا المعنى ، أحدهما موسى ، عليه السلام ، وهو صاحب شريعة وامر ونهي وحدود ورسوم وأحكام ، والآخر الخضر ، عليه السلام ، وهو صاحب سر وغَيب وكتمان ، وكيف تعرّض له موسى ، عليه السلام ، فيما يفعله بواجب حكمة ، وكيف اعتذاره إليه لما لم يستطع معه صبراً . وإنما ذكرنا هذه الحكايات في هذا الفصل لأن أكثر الآراء والمذاهب تتشعب في هذه الأمور المشكِلة التي فكّر فيها العلماء ، وطلبوا عِللها ، فلما لم تبلُغ أفهامهم كيفيّة معرفتها ، تفرّقت بهم الآراء والمذاهب عند ذلك ، إلاّ من عصمه الله وهدى قلبه وعرّفه . كما قال : « ولا يحيطون بشيء من علمه إلاّ بما شاء » وقالت الملائكة : « لا علم لنا إلاّ ما علمتنا » وقوله : « ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً » .

فصل

ثم اعلم أن الأمور المشكلة كثيرة لا يحصي عددها إلاّ الله تعالى ، ولكن يجمعها كلها ثلاثة أنواع : فمنها ما هي أمور جسمانية طبيعية محسوسة ، ومنها ما هي أمور روحانية معقولة ، ومنها ما هي أمور رياضية متوسّطة بين الجسمانية والروحانية فأما الأمور الجسمانية فثلاثة أنواع : منها ما هي ظاهرة جليّة ، ومنها ما هي لطيفة دقيقة، ومنها ما هي بين ذلك ، وقد ذكرنا طرفاً

من هذه الأُمور في رسائلنا الطبيعية وتكلمنا عليها في كل رسالة حسب ما يليق به ويقتصر غرضُها .

وأما الأُمور الروحانية فهي تنقسم ثلاثة أنواع : فمنهـا ما هي قريبة من الأَوهام ، ومنهـا ما هي بعيدة لا يمكن الأفكار تصوُّرها والأَوهام تخيُّلها ، ومنها مـــا بين ذلك . وقـد ذكرنا طرفاً من الأُمور الرياضية والإلهية في رسائلنا العقليات .

وهكذا حُـكم الأُمور الرياضية فإنها ثلاثة أنواع : فمنها ما هي قريبة من الأَوهام يكفي أدنى تأمّل فيهـا ، ومنها ما هي بعيدة جدّاً تحتاج إلى تأمّل شديد وبحث دقيق في تصوُّرها ، ومنها ما هي بين ذلك . وقد ذكرنا طرفاً منها في رسائلنا الرياضيات .

فهذه تسعة أنواع لا يخرج عنها شيء من الأُمور المُشكلة المختلفة فيما بين العلماء . فأَما فروعها فكثيرة لا يحصي عددها إلاَّ الله تعالى .

ثم اعـلم أن الله تعـالى خلق لكل نوع من هذه العلوم والآداب أمّةً من الناس ، وجعل في جبلة نفوسهم محبّة معرفتها ، ومكّنهم من طلبها وتعلُّمها والبحث عنها، والنظر فيها، لتكون العلوم والآداب محفوظة عليهم لا تنقرض، كما خلق لكل صناعة وتجارة أُمةً من الناس وجعلها سبب معاشهم طول حياتهم في دنياهم ، لتكون كلهـا محفوظةً باقية لحاجة الإنسان إليهـا في الدين والدنيا جميعاً .

ثم اعـلم أن العلوم والآداب تتفاضل كما أن الصنائع والتجارات والأَعمال تتفاضل ، وأن أهلهـا يتفاضلون فيهـا . وأفضل كل أهل علم هم الراسخون في العـلم ، العارفون بأُصوله وفروعـه ، كما أن أفضل أهل الصنـاعة والتجارة هم الحذّاق بها الأُستاذون فيها .

ثم اعلم أنه ليس كل عـلم وأدب يليق بكل إنسان أن يتعلمه ويتعاطاه ، ولكن أَولى العلوم بكل إنسان أن يتعلمه ما لا يسعه جَهلُه ، وواجبٌ عليه

طلبُه. فانظر يا أخي أولاً بعقلك، وميّز ببصرك، واختر من العلوم والآداب ما لا بد لك منه ، كما تختـــار من الأعمال والصنائع والتجارات مـا لا بد لك منها .

ثم اعلم أن الناس على طبقـات كثيرة في أحوالهم من الصنـائع والأعمال والأخلاق والآراء والمذاهب والعلوم والمعارف ، لا يُحصى عددها ، ولكن يَحصُرهم كلّهم ثلاثُ طبقات : فمنهم العامة من النساء والصبيان والجهـال ، ومنهم الخاصة من العلماء والحكماء البالغين فيها الراسخين ، ومنهم متوسطون بين ذلك . ولكل طائفـة من هؤلاء عِلم هو أولى بهم وأليق : فالتي تصلُح للخاصة لا تصلح للعامـة ، والتي تصلح للعامـة لا تصلح للخاصة ، ولكن الذي يصلح للخاصّ والعام وما بينهما من سائر الطبقات جميعاً من العلوم والمعارف والآداب هو عِلم الدين وآدابه وما يتعلق به من الأعمال .

فصل

ثم اعلم ، أيّدك الله ، أن علم الدين وآدابه وما يتعلق به نوعان : فمنها ظاهر جليٌّ ، ومنها مـا هو باطن خفي ، ومنها مـا هو بين ذلك . وأولى ما يصلحُ للعامة من حُكم الدين وآدابه ما كان ظاهراً جليّاً مكشوفاً ، مثل علم الصلاة والصوم والزّكاة والصدقات والقراءة والتسبيح والتهليل وعلم العِبادات؛ ومثلَ علم الأخبار والروايات والقِصص ، وما شاكلها تعليماً وتسليماً وإيماناً . وأولى علوم الدين بالمتوسّطين بين الخاصة والعامة هو التفقّه في أحكامها ، والبحث عن السّيرة العادلة ، والنظر في معاني الألفاظ، مثل التفسير والتنزيل والتأويل، والنظرُ في المُحكمات والمتشابهات ، وطلبُ الحُجة والبرهان ، وأن لا يرضى من الدين تقليداً ، إذا كان يمكنه الاجتهاد ودقة النظر .

والذي يَصلُح للخواص البالغين في الحكمة ، الراسخين في العلوم من علم

الدين أن يطلبوه ، ويليق بهم أن ينظروا فيه ويبحثوا عنه ، هو النظر في أسرار الدين وبواطن الأمور الخفيّة ، وأسرارها المكنونة التي لا يَمَسُّها إلاَّ المطهَّرون من أدناس الشهوات ، وأرجاس الكِبْر والرِّياء ، وهي البحث عن مَرامي أصحاب النواميس في رموزهم وإشاراتهم اللطيفة ، المأخوذة معانيها عن الملائكة ، وما تأويلُها وحقيقةُ معانيها الموجودة في التوراة والإنجيل والزّبور والفُرقان وصُحُف الأنبياء ، عليهم السلام ، من الاخبار عن بَدء كون العالم وخَلق السموات والأرض في ستة أيام ، ثم استوى على العرش وخلَق آدم الأول التُّرابيّ ، وأخذ الميثاق عليه وعلى ذُرّيّته ، وعِتاب الملائكة لربها ، ومراجَعتِها إياه في الخطاب ، وسجودِهم لآدم ، عليه السلام ، وعِصيانِ إبليس واستكبارِه عن السجود ، وما شجرة الخُلْدِ والمُلكُ الذي لا يَبلى ، وما شاكل هذه الإشارات والمرامي عن أمور قد مضت مع الزمان وانقضت مع الأيام ، وما يُنتظر في المستقبَل كالمكث في البَرزخ ، والبعث والقيامة . والحَشر والنشر والميزان والوقوف على الأعراف ، والجَواز على الصراط ودُخول الجنة ، وما نعيمُها وكيفيّةُ لذاتها ، وماهيّة دركات النّيران وعذاب أهلها ، وما شاكل هذه الأمورَ المذكورة في كتب الأنبياء ، عليهم السلام . وأما حقائقُ معانيها فقد بيّنا طرفاً من هذه العلوم والمعارف في رسائلنا الناموسية الإلهية .

ثم اعلم أن رجال هذه الطبقات الثلاث ، المقدّم ذِكرُها ، متفاوتو الدرجات في علومهم ومعارفهم ، فإن استوى أن تكون في أعلى المراتب وأعلى الدرجات ، فلا ترضَ لنفسك بالدُّون ، واجتهد في الطلب ، فإن الذين هم فوقك قد كانوا وليست هذه مراتبهم ، ثم اجتهدوا في الطلب وبلّغهم الله كما وعد فقال : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا » .

فصل

ثم اعلم أن أشرف العلوم وأجلّ المعارف هي معرفة الله وصفاته اللائقة به، وأن العلماء قد تكلموا في ماهيّة ذاته، وأكثروا القيل والقال في حقيقته وصفاته، وتاه أكثرهم في العَجاج عن المنهاج والفلَح، والعلّةُ في ذلك هو من أجل أن هذا المطلبُ من أبعد المرامي إشارةً، وهو أقرب المذاهب وجداناً كما قال تعالى، وضرب لهذه المعاني مثلاً فقال: «كسراب بقاع يحسبه الظمآن ماء.» الآية.

ثم اعلم أنه لم يَفُتْ من فاته وجدانه من أجل خفاء ذاته ودقة صفاته، وكتمانها، ولكن من شدة ظهوره وجلالة نوره، وإنما ذهب على من ذهب معرفةُ ذاته وحقيقة صفاته، من أجل أنهم طلبوه كطلبهم سائر الأشياء الجزئية المحسوسة، وبحثوا عنه كبحثهم عن سائر الموجودات الكليّات المبدَعات المختَرَعات المصنوعات الكائنات، من الجواهر والأعراض والصفّات الموصوفات، المحتوية عليها الأماكنُ والأزمانُ والأكوانُ والأشخاص والأنواع والأجناس. وذلك أن كل واحد من هذه الموجودات يطلب فيه ويبحث عنه بتسعة مباحث وهي: هل هو؟ وما هو؟ وكم هو؟ وكيف هو؟ وأيُّ هو؟ وأين هو؟ ومتى هو؟ ولِمَ هو؟ ومن هو؟

ثم اعلم أن مُبدع الهُويّات، ومُمهي الماهيّات، ومُوجد الكميّات، ومُكيّف الكيفيات، ومُميّز الأينيّات، ومرتّب الأنيّنات، وعلّة اللّميّات لا يقال له: ما هو؟ ولا يسأل عنه كيف هو؟ وكم هو؟ وأيُّ هو؟ ومتى هو؟ ولِم كان؟ وإنما يجوز ويسوغ فيه وعنه، من هذه المباحث والسؤالات، اثنان حَسْبُ وهما: هل هو؟ ومن هو؟ كما يقال: هو الذي فعل كَيتَ وكَيت، وهو الذي وضع كَيت وكيت. ومن أجل هذا أجاب موسى عليه السلام فِرعَون، إذ سأله: «ما رب العالمين؟» فلم يجبه

موسى عن جواب (ما) بل أجاب عن جواب (من) الذي يليق به وبربوبيّته ، فقال : « رب السموات والأرض وما بينهما .» فلم يُرض فِرعَون الجوابُ ، فقال لمن حوله من الناس المتكلمين : « ألا تستمعون ؟ » أسأله (ما هو ؟) ويجيبني (من هو ؟) وكذا سأل مُشركو قريش ومُجادلوهم النبيّ ، عليه السلام ، فقالوا نعبدُ أصنامنا وآلهتنا ، ونحن نراها ونُشاهِدها ونعرفها ، فأخبرنا عن إلهك الذي تعبده ما هو ؟ فأنزل الله تعالى قوله : « قل هو الله أحد » فقالوا : لا يُفهم ولا يُعرف ! يريدون ماهيّة ذاته ، أجوهرٌ هو أم عرض ؟ أنور هو أم ظلمة ؟ أجسم هو أم روح ؟ أداخل هو أم خارج ؟ أقائم هو أم قاعد ؟ أفارغ هو أم مشغول ؟ وما شاكل هذه المباحث والمطالب التي لا تليق بربوبيّته ، تعالى الله عما يقول الظالمون عُلوّاً كبيراً .

فصل

ثم اعلم أن مسألة الخلاف للذات والصفات هي أيضاً من إحدى المسائل الخلافية بين العلماء في الآراء والمذاهب ، وذلك أن كثرة الظنون والتخيّلات العارضة للأفهام ، إذا تفكرت النفوس في ماهيّة الله ، وكيفيّة صفاته اللائقة ، فلا تهتدي الظنونُ ولا تَقرّ الأفهام عن الجولان ، ولا تسكُن النفوس إليه ولا تطمئن القلوب له حتى يعتقد الإنسان رأياً من الآراء ، وتسكُنَ نفسه إليه ، ويطمئن قلبه به .

فمن الناس من يرى ويعتقد أن الله تعالى شخصٌ من الأشخاص الفاضلة ، ذو صفات كثيرة ممدوحة وأفعال كثيرة متغايرة ، لا يُشبه أحداً من خلقه ، ولا يماثله سواه من بريّته ، وهو منفرد من جميع خلقه في مكان دون مكان. وهذا رأي الجمهور من العامة وكثير من الخواصّ .

ومنهم من يرى ويعتقد أنه في السماء فوق رؤوس الخلائق جميعاً . ومنهم من يرى أنه فوق العرش في السموات ، وهو مُطَّلِع على أهل السموات والأرض ، وينظر إليهم ، ويسمع كلامهم ، ويعلم ما في ضمائرهم لا يخفى عليه خافية من أمرهم .

واعلم أن هذا الرأي والاعتقاد جيّد للعامة من النساء والصبيان والجهّال ، ومن لا يعلم شيئاً من العلوم الرياضية والطبيعية والعقلية والإلهية ، لأنهم إذا اعتقدوا فيه هذا الرأي تيقنوا عند ذلك وجوده ، وتحققوا وعلموا وصاياه التي جاءت بها الأنبياء ، عليهم السلام ، من الأوامر والنواهي ، وعلموا عِلمَها وعملوا بها خوفاً ورجاء من الوعد والوعيد، وتجنبوا الزور والشرور، وعملوا الخير والمعروف ، وكان في ذلك صلاح لهم ولمن يعاملهم ويعاشرهم من الخاص والعام، وليس يَضُرّ الله شيئاً مما اعتقدوه.

ومن الناس طائفة أُخرى فوق هؤلاء في العلوم والمعارف ترى بأن هذا الرأي باطل ، ولا ينبغي أن يعتقدوا في الله تعالى أنه شخص يحويه مكان ، بل هو صورة روحانية سارية في جميع الموجودات ، حيثُ ما كان لا يحويه مكان ولا زمان ، ولا يناله حِسّ ولا تغيير ولا حدثان ، وهو لا يخفى عليه من أمر خَلقه ذَرّة في الأرَضِين والسموات ، يعلمها ويراها ويشاهدها في حال وجودها ، وكان يعلمها قبل كونها وبعد فنائها .

ومن الناس طائفة أُخرى فوق هؤلاء في العلوم والمعارف والعقل ترى وتعتقد أنه ليس بذي صورة ، لأن الصورة لا تقوم إلاّ في الهَيُولى، بل ترى أنه نور بسيط من الأنوار الروحانية « لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار » .

ومن الناس ممن فوق هؤلاء في العلوم والمعارف والنظر والمَشاهد يرى ويعتقد أنه ليس بشخص ولا صورة بل هُويّة وَحدانيّة ، ذو قوة واحدة وأفعالٍ كثيرة وصنائعَ عجيبة ، لا يعلم أحد من خلقه ما هو ، وأين هو ،

وكيف هو ، وهو الفائض منه وجودُ الموجودات ، وهو المُظهِر صوَر الكائنات في الهَيُولى ، المُبدِعُ جميع الكيفيّات بلا زمان ولا مكان ، بل قال : كن فكان ، وهو موجود في كل شيء من غير المخالطة ، ومع كل شيء من غير الممازجة ، كوجود الواحد في كل عدد . كما وصفنا في رسالة المبادىء .

ثم اعلم أن الله تعالى جعل بواجب حكمته ، في جِبلة النفوس ، مَعرفةَ هُويّته طبعاً من غير تعلم ولا اكتساب ، لتكون تلك المعرفة داعية لها ومؤدّية إلى طلب ماهيّته ومعرفة آنيّته ، ولتكون طَلِبتُها في هذه المعارف داعيةً لها ومؤدّية إلى أحكام جميع العلوم والمعارف الإلهيّة والطبيعيّة والرياضية والعقلية والحِسيّة، حتى إذا أحكمت هذه العلوم والمعارف ، عرفته عند ذلك حق معرفته ، وسكنت إليه واطمأنت وثبتت معه ، ونالت السعادة القصوى التي هي سعادة الآخرة .

ثم اعلم أن السعادة نوعان : دنيوية ، وأخرويّة ، والسعادة الدنيوية هي أن يبقى كل شخص في هذا العالم أطولَ ما يمكن على أحسن حالاته وأكمل غاياته . والسعادة الأُخرَوية أن تبقى كل نفس بعد مفارقتها الجسد إلى أبد الآبدين على أتمّ حالاتها وأكمل غاياتها .

ثم اعلم أن أحسن حالات النفوس أن تكون عالمة بالأُمور الإلهية ، عارفة بالمعارف الرّبّانية ، ملتذّة بها ، مسرورة فرحانة، منعّمة أبد الآبدين ، خالدة سرمدية ، كما قال الله تعالى : « فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون » وقال، عليه السلام: « فيها ما لا عين رأت، ولا أُذُنٌ سمعت، ولا خَطر على قلب بشر » .

فصل

ثم اعلم أن مسألة الصفات هي أيضاً من إحدى مسائل الخلاف بين العلماء ، ولكن من المسائل ما هي فروع مَبنيّة على أصل : فمن ذلك قول القائلين بخلق القرآن ، فإن هذا الحُكم مبنيٌّ على أن الكلام إنما هو حروف وأصوات يُحدثها المتكلم في الهواء ، فعلى هذا الأصل يجب أن يكون القرآن مخلوقاً . وأما على أصل من يرى أن الحروف والأصوات إنما هي سِماتٌ وآلات ، والكلام إنما هو تلك المعاني التي في أفكار النفوس ، فعلى هذا الأصل يجب أن لا يكون القرآن مخلوقاً ، لأن الله تعالى لم يزل عالماً بتلك المعاني التي هي في علمه ، وتلك المعاني لم تزل معلومة له . ومنهم من يرى أن كلام كل متكلم فهو إفهامُه غيرَه معنًى من المعاني، بأيّ لغةٍ وأيّ عبارةٍ وأيّ إشارة كانت ، فكلام الله لجبريل ، عليه السلام ، هو إفهامه تلك المعاني ، وكذلك جبريل ، عليه السلام ، لمحمد ، وكذلك محمد لأمته ، وأُمته بعضُهم لبعض ، وكلّها مخلوقة .

فأما إفهامُ الله لجبريل، عليه السلام ، فليس مخلوقاً ، لأن إفهام الله إبداعٌ منه ، والإبداع غير المُبدَع ، كما أن العلم غير العالِم وغير المعلَّم . وكثير من هؤلاء المُجادلة لا يعرفون الفرق بين المخلوق وبين المُبدَع ولا بين الخلق والإبداع .

ثم اعلم أن الخلق هو إيجاد الشيء من شيء آخر كما قال الله تعالى: « خلقكم من تراب » وأما الإبداع فهو إيجاد الشيء من لا شيء ، وكلام الله هو إبداع أبدع به المُبدَعات كما قال : « إنما قولنا لشيء إذ أردناه — أي أبدعناه — أن نقول له : كن فيكون » . والمكوَّنات إنما تتكوَّن بقوله : كن . فكُن بأي شيء يتكوَّن إن كان مخلوقاً على زعم هؤلاء المخالفين .

ثم اعلم أن اختلاف العلماء في معلومات الله لم يزل أيضاً من إحدى أمهات

المسائل للخلاف . وذلك أن منهم من يرى ويعتقد أن معلومات الله لم تزل هي أشياء في القِدَم جواهر أو أعراض، لأن الشيء عندهم هو الذي يُخبَر عنه ويعلم ، فقد علم الله الأشياء قبل أن أخرجها من العدم إلى الوجود واخترعها. وهذا رأي بعض القدماء وبعض متكلمي أهل هذا الزمان .

ومن العلماء من يرى أن الله لم يزل عالماً بأنه لا شيء سواه ، وكان عالماً بأنه سيخلُق الأشياء ويجعلها جواهر أو أعراضاً، ويؤلفها على ما هي عليه الآن ثم فعل كما علم .

وأما مسألة المشيئة والإرادة فهي أيضاً من إحدى مسائل الخلاف وأمهاتها بين العلماء : وذلك أن منهم من يرى أن في علم الله تعالى أشياء لا يريدها هو ولا يشاؤها البتّة ، وهي الشرور والعصيان والمُنكر .

ومنهم من يرى ويعتقد بأنه لا يجوز أن يكون في علم الباري أشياء لا يريدها هو مع قُدرته على تغييرها ، وعلمه بكونها شرّاً كان أو خيراً .

ومنهم من يرى أن الله تعالى لا يُوصَف بالإرادة والمشيئة إلاّ على سبيل المجاز ، وإنما يوصف الباري تعالى بالعلم ، وما علمه بأنه سيكون فلا بد من كونه ، كونه هو ، أو كونه غيرَه . وما علم بأنه لا يكون ، فلا يكونه هو وعباده . فالإرادة لا يحتاج إليها ولا معنى لها، لأن الإرادة يوصَف بها من لا يدري هل يكون الشيء أم لا ، فإن اختار أراد أن يكون ، وإن لم يختر فلا يريد أن يكون .

فعلى هذا الأصل كِلتا الطائفتين الخائضتين في إرادة الله ومشيئته على غير تحقيق ، بل على سبيل المجاز .

وأما احتجاج من يَزعمُ ويقول : إذا كان لا يقع من العباد ما أُمروا به ونُهُوا عنه إلاّ بما قد سبق العلم به أن يكون أو لا يكون ، فالأمر والنهي والوعد والوعيد والمدح والذم لماذا ؟ وما وجهُ الحكمة فيها ؟ فليعلم قائل هذا القول بأن اللوم والذم ليس يلزَمُ العبدَ من أجل وقوع المعلوم منه، بل من

أجل تركه الاجتهادَ بما أُمر به أو نُهي عنه . فإذا اجتهد العبد ووقع المعلوم منه فهو ممدوح مُستوجِبٌ للوعد والثناء عليه ، وإذا اجتهد العبد ولم يقع المأمور به ، أو وقع المَنهيُّ عنه ، فهو معذور يستحق العفو والغفران من أجل اجتهاده .

ثم اعلم أن الله تعالى أمر أيضاً بالتوبة والندامة والاستغفار ، وهي أيضاً طاعة الله والدين. ويستحق العبدُ الثواب والجزاء. والتوبة والندم والاستغفار لا يكون إلاّ بعد الذنب .

وقد روي عنه ، عليه السلام ، أنه قال : « لولا أن بني آدم إذا أذنبوا تابوا ، فيغفِرُ لهم الله ، لخلق اللهُ تعالى خَلقاً جديداً أذنبوا وتابوا فيغفِرُ لهم ».

ثم اعلم أن الله تعالى إنما يَمُنُّ ويتفضل على عبيده بالعفو والمغفرة إذا أذنبوا ، كما منّ عليهم بالعِصمة والتوفيق واللُّطف في الطاعة ، كما قال تعالى : « قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم ، لا تقنَطوا من رحمة الله » وقال : « إنه لا ييأس من روح الله » وقال : « ومن يقنَط من رحمة ربه إلاّ الضالون » .

ثم اعلم أن من أفقه الفقهاء وأحكَم الحكماء من كان يُحسِن أن يعظ الناس ، ويدعوهم إلى الله ، ويَهديهم إليه ، ويُزهّدهم في الدنيا ، ويرغّبهم في الآخرة ، ويخوّفهم سَخط الله ، فلا يُؤيسهم من روحه ، ويُحذّرهم الله ولا يُقنطهم من رحمة الله ، ويُحسِن أن يصف لهم فضل الله وإحسانه ورحمته ، ولا يُرخّص لهم مَعصيته ولا تركَ طاعته ، لأن ذلك يكون استجراء على الله لا اتكالاً على رحمته، بل يُقيمهم بين الرجاء والخوف وبين الرَّغبة والرَّهبة إلى يوم يَلقَونه ، فيفعل بهم ما يشاء ، ويحكُم فيهم ما يُريد ، لا رادَّ لحُكمه ، ولا مُعقّب لقضائه ، فعّال لما يُريد .

واعلم يا أخي ، أيّدك الله وإيانا بروحٍ منه ، أن من الآراء والمذاهب والاعتقادات ما هي مؤلمة لنفوس معتقديها ، مُعذّبة لقلوبهم ، وهي الآراء

الفاسدة والاعتقادات الرديئة ، ومنها ما هي مَلَذّة لنفوس معتقديها ، مفرحة لقلوبهم ، وهي الآراء الصالحة والاعتقادات الجيدة .

ثم اعلم أن الآراء الفاسدة كثيرة لا يُحصى عددها ، ولكن نذكر منها طرفاً ليُعرف القياس بها ويُحذر منها ومن أمثالها . فمن ذلك رأي من رأى واعتقد أن العالم قديم لا صانع ولا مدبّر له ، وإن هذا الرأي مؤلم لنفوس معتقديه ، معذّب لقلوبهم ، وذلك أنه لا يخلو من أن يكون صاحبُ هذا الرأي سعيد أهل الدنيا أو من أشقيائهم ، فإن كان من سعدائهم فإنه لا يدري من أين له هذا ، وما هو فيه ، ولا يدري من أعطاه ذلك ليشكر له، ويطلب منه المزيد ، ويرجو منه خيراً مما أعطى ، إمّا من الدنيا وإمّا في الآخرة . وقد علم يقيناً أن الذي هو فيه من النعمة ورغد العيش لا يدوم له ، وأنه مُفارقه على رغمه ، مع شدّة محبته للبقاء فيما هو فيه من النعمة ورغد العيش ، ومع شدّة شهواته لدوام تلك النعمة عليه، كلما ذكر الموت والفناء نغّص عليه شهواته ، ويمرّ الموتُ عليه لذاته ، فيعيش طول عمره خائفاً من الموت ، وجِلًا من الفناء ، مشفقاً من الهلاك ، ثم يموت على رَغمٍ وحسرة وندامة لا يرجو بعد الموت خيراً ، ولا يُؤمّل بعد الفراق مَعاداً ولا ثَواب عمل ولا جَزاء إحسان . فهذه حاله في الدنيا، فأما في الآخرة فالحسرة والندامة والويل الطويل والخُسران المُبين وتمنّي الرّجعة وقد حيل بينه وبين ما يشتهي .

وإن كان من أشقيائها فهو أسوأ حالاً وأمرّ عيشاً وأشرّ سيرةً من غيره ، وذلك أنه يفني عمره كله بجهل وعناء وتعب وشقاء في طلب ما لم يقدّر له ، وهو لا يدري أن طلبَه لا يزيد في رزقه شيئاً ، أو لا يدري أن الذي أعطاه ما أعطاه ، ومنعه ما منعه ، من هو ! فيطلب منه فيسأله ويرجوه ويؤمّل منه خيراً عوَضاً عما فاته في وقت آخر ! فهو ، بجهله بربّه ، يعيش طول عمره مغتمّاً حزيناً ضَجِراً لما رأى أنه فاته ما وجد غيرُه ، ثم يموت بحسرة وغصّة وندامة لا يرجو بعد الموت خيراً ، ولا بعد الفراق ثوابَ عمل ولا جَزاء

إحسان « خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين » .

ومن الآراء الفاسدة والاعتقادات الرديئة المؤلمة لنفوس معتقديها المُعذِّبة لهم رأيُ من رأى واعتقد أن للعالم صانعين : أحدهما خيِّر فاضل ، والآخر شرير رَذل ، وهما متجاوران مختلطان ، أو مُتباينان مُتنازِعان ، كلٌّ واحد مخالِفٌ للآخر في شيء أو أشياء ، طولَ الدهر كلٌّ واحد في جَهد وعناء وبلاء من صاحبه ، يريد غلبَته والخلاص منه . فمن يعتقد مثل هـذا الرأي فهو لا يدري أين ذلك الخيِّر الفاضل فيطلبه ويأوي إليـه ويُصيِّره في خيره ، وأين ذلك الشرير فيعرفه ويهرب من عذابه ويتخلص من شره وينجو من جوره . فهو يعيش طولَ عمره حَيرانَ متبلبلاً ، مؤتَلِمةً نفسُه ، معَذَّباً قلبُه ، وجلاً خائفاً ، لا يدري كيف وجهُ الخلاص مما هو فيه ، ولا كيف وجهُ النجـاة من المُنقَلَب .

ومن الآراء الفاسدة الرديئة المؤلمة لنفوس معتقديها رأيُ من يرى ويعتقد أن العـالم مُحدَث مصنوع وله صانع واحـد حكيم ، ولكن لا يرى البعث والنشور والقيامة ولا الحَشر والحساب ولا لِقاء ربه ! فمن يعتقد هذا الشأن فهو يرجو الوصول إلى الآخرة، ولا يُؤمِّل ثواب العمل ولا جَزاء الإحسان، فيكون حال من يعتقد هذا الرأي وحُكم نفسه في آلامها وعذابها وعذابِ قلبه كحُكم من يعتقد بأن العالم قديمٌ ولا صانع له ، كما تقدم ذكره ، وإليه أشار بقوله تعالى : « إن هي إلاَّ حياتنا الدنيا نموت ونحيا » ردّاً عليهم قولهم .

ثم اعلم أن أسوأ الناس حالاً ورأياً ، وأشرَّهم اعتقـاداً من لا يؤمن بيوم الحساب ، ولا يرجو الآخرة ، ولا يخاف العاقبـة ، وذلك أنه يفني عمره كله في طلب الدنيا وإصلاح أمر المَعاش لجرّ منفعة إلى جسده ، أو دفع مَضرّة عنه ، أو نَيل شهوة ، أو الوصول إلى لذة متمنّياً للخلود في الدنيـا ، مع علمه ويقينه أنه لا يُدرك فيها ولا يبقى هو له ، وأنه لا بد من الموت ، ثم لا يرجع ولا يرجو بعـد الموت ثوابَ عمل ، ولا جزاء إحسان ، بل يموت

بحسرة وندامة آيِساً بما يرجوه المؤمنون ، قَنوطاً بما يؤمّله العارفون من الخيرات والنعيم واللذات .

ثم اعلم أن الله تعالى ، بواجب حكمته ، جعل في طبع النفوس محبة الوجود والبقاء أبداً سَرْمداً ، وجعل في جبلتها كراهيّة العدَم وبُغضَ الفناء ، ثم منعها ذلك في الدنيا لكي تركُن إليها وتسكن فيها وتطمئن بها ، لا لكون النفوس في هذه الدنيا حال نَقص ٍ دون التام ، وكونِها في الآخرة حالَ تمام ٍ وكمال ، والبقاءُ على حال التام والكمال أفضلُ وألذّ وأشرف ، كما أن حال الأَجساد في الأرحام حالُ نَقص من التام ، وحالها بعد الولادة حال تمام وكمال ، لا يخفى هذا على العقلاء .

ثم اعلم أنه لا يُمكن الوصول إلى حال التام والكمال في الدنيا ، إلاّ بعد تقدم حال النقص في الرّحم والجواز عليه ، فهكذا حال النفوس في الدنيا يشبه حال الأجساد في الأرحام ، وحال النفوس بعد مفارقتها الأجسادَ يشبه حالَ الأَجساد بعد مفارقتها الأرحامَ ، لأَن الموت ليس شيئاً سوى مُفارقة النفس الجسد ، كما أن الولادة ليس شيئاً سوى مُفارقة الجسد الرّحِم ، كما بيّنا في رسالة حِكمة الموت .

فصل

ثم اعلم أَن العلماء إذا قالت قولاً على حكومة ٍ ما ، فهي مقدّمة لها نتيجة ، فقولهم إن الطبيعة لم تفعل شيئاً باطلاً ، يعنون بهذا القول أنه ليس شيء من الأَشياء الموجودة في العالم إلاّ بحكمة ٍ مّا عُرِفت أو لم تُعرف ، فشهوة النفوس البقاءَ أبداً ، وكراهيَتها الفناءَ ليست إلاّ بحكمة ٍ ما . فلو لم يكن للنفوس بقاء بعد مفارقة الأَجساد ، لكان وجود هذه الشهوة في جِبلتها وكراهية الفناء في طباعها باطلاً ، لأن البقاء في الدنيا أبداً ليس بموجود لشخص

من الأشخاص الحيوانية البتّة — فإذاً البقاءُ بعد الفناء .

ثم اعلم أن ذِكرَنا هذه الحكومةَ في هذا الفصل هو من أجل أنه ليس من علمٍ بعد معرفة الباري تعالى أشرفُ وأجلُّ وأنفعُ للنفوس من معرفة حقيقة أمر المَعاد والنشأة الآخرة ، فليس للنفوس طريق أفضل وأجود إلى معرفة أمر المَعاد من معرفتها ذاتها وعلمِها بجوهرها وصفاتها اللائقة بها ؛ وهو أن تعلم كل نفس بأنها جوهرة روحانية ، حيّة بذاتها ، علاّمة بالقوة ، فعّالة بالطبع ، وأنها باقية بعد مفارقة الجسد ، إما ملتذّةً مسرورةً فرحانةً ، وإما مغتمّةً خاسرةً ، كما بيّنا في رسائلنا وكما ذكر الله تعالى في نحو من تسع مائة آية في القرآن .

فصل

وأيضاً من الآراء الفاسدة ، والاعتقادات المؤلمة لنفوس معتقديها ، رأيُ من يرى أن بارئه وإلهه روحُ القُدس الذي قتلته اليهودُ وصلبت ناسوتَه ، وذهب لاهوتُه لما رأى ما نزّل بناسوته من العذاب ، فتركه مخذولاً .

ثم اعلم أن هذا الرأي والاعتقاد يُكسب صاحبَه غيظاً على القاتل وحنقاً ، وعلى المقتول حُزناً وغمّاً ، ثم يبقى ، طولَ عُمره ، متألمةً نفسُه ، معذّباً قلبُه ، مشتهياً للانتقـــام من عدوه ، ثم لا يظفر بشهوته ، ويموت بحسرته وغصته . وهكذا أيضاً حكم من يرى ويعتقد أن الإمام الفاضل المنتظر الهادي مُختفٍ لا يظهر من خوف المخالفين .

واعلم أن صاحب هذا الرأي يبقى ، طولَ عمره ، منتظراً لخروج إمامه ، مُتمنّياً لمجيئه ، مستعجلاً لظهوره ، ثم يفنى عمره ويموت بحسرة وغُصّة لا يرى إمامه ، ولا يعرف شخصه من هو ، كما ذكر الشاعر[1] :

[1] الشاعر : دعبل الخزاعي، وقوله هذا من قصيدة له في رثاء اهل البيت .

أَلَمْ تَرَ أَنّي، مُذ ثلاثين حِجَّةً أروحُ وأغدو دائِمَ الحسَرات ؟

ثم اعلم أن أمثال هذه الآراء الفاسدة ، والمذاهب والاعتقادات ، كثيرةٌ لا يحصي عددها إلاّ الله ، وإنما ذكرنا منها طرَفاً ليعلم أنها كلها مؤلمة لنفوس معتقديها ، وهو جزاءٌ لها وعقوبة لاشتغالهم بغير الله وتركهم لذكر الله ، كما قال تعالى : « نسوا الله فأنساهم أنفسهم » . يعني تركوا ذِكر الله وتركوا طاعته واشتغلوا بذكر غيره ، وطاعةِ من سواه ، فتركهم معهم معذّبةً قلوبُهم ، ومؤتَلِمةً نفوسُهم ، كما ذكر الله تعالى : « ومن يعشُ عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين » .

ثم اعلم أن هذه الآراء الفاسدة والاعتقادات الرديئة في الله تعالى وصفاته وأحكامه وآدابه ، نيرانٌ ملتهبة في نفوس معتقديها ، وحرَقاتٌ مشتعلة في قلوبهم ، مؤلمة لها إلى وقت معلوم ، ومعذّبة لها إلى أجل معدود ، كما قال : « نار الله الموقدة التي تطّلع على الأفئدة » .

ثم اعلم أنه لا يصل إلى معرفة الله تعالى أحد من الناس إلاّ بعد جَوازه على الآراء الفاسدة ، إما في أيام صباه ، أو بعد ذلك ، ثم الله يهدي من يشاء إلى صِراط مستقيم من نَفي الشّرْك ، وينجّيه منها كما وعد فقال : « وإن منكم إلاّ واردها » .

واعلم أن أهل الآراء الفاسدة والاعتقادات الرديئة طائفتان : إحداهما شياطين الإنس . فشياطين الإنس هم أهل الآراء الفاسدة الظاهرة التي ألِفُوها وأنِسُوا بها . وشياطين الجن هم أهل الآراء الفاسدة الباطنة التي أسَرُّوها واستجَنُّوا بها ، وإخوانُهم وأتباعُهم وتلامذتهم وشيعتهم الذين يقتفون آراءهم ، ويسلُكون مناهجهم .

واعلم أنه كلما مضت طائفة منها وانقرضت وبَلِيت أجسادها ، ألحِقت نفوسُها بنفوس من مضى قبلها من رؤسائها ومعلميها وأستاذيهم من القرون

الماضية ، ثم خلفتها أخرى على سَنَنِها ومِنهاجها . وهكذا دأبهم إلى يوم القيامة كما قال تعالى: « حتى إذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم قالوا أين ما كنتم تدعون من دون الله » يسألهم مَلَكُ الموت وأعوانه « قالوا ضلوا عنا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين قال ادخلوا في أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس » واخسأُوا بالعذاب ! وعلموا أنهم كانوا ظالمين . فعندَ ذلك قالت أُخراهم لأُولاهم ، يعني أتباعَهم وتلامذتهم المتأخرين ، لأُولاهم يعني لرؤسائهم المتقدّمين: « ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفاً من النار . » وآيات كثيرة في حق هؤلاء ، وخطاب بعضهم بعضاً كيف يكون في جهنم ، وهي طبقات النيران ودرَكاتهم .

ثم اعلم أن في آلام النفوس ، لمعتقدي الآراء الفاسدة وعذابِ قلوبهم ، حِكمةً جليلة وخصالاً عدّة ، فمنها أن تكون تلك الآلام والعذاب كفّارةً لذنوبهم ، وتمحيصاً لسيئاتهم ، وأخرى أن تكون رياضةً لنفوسهم ، وترقيةً لها من الحالات الأدْوَنِ إلى الأتمّ والأكمل ، لأن الدنيا دارُ رياضة وبَلوى ومِحنة وتجربة واعتبار ، والأخرى أن يتبيّن لهم فضلُ الله ونعمته ورحمته وإحسانه ، إذ نجاهم منها ، وهداهم إلى صِراط مستقيم ، كما فرَض على أهل الدين دين الإسلام في كل يوم وليلة سبع عشرة مرة أن يقولوا : « اهدنا الصراط المستقيم » إلى آخره ، وكما حكي عنهم قولهم لما اهتَدوا : « الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله » .

ثم انظر وتأمل كيف نسبوا هم الهدايةَ إليه ، ونسب هو الخيرَ والثوابَ والجزاءَ إلى أعمالهم .

فصل

واعلم أن الله جعل في جِبلة الإنسان وطبيعته ألاّ يأتمِرَ أحدٌ من العقلاء لغيره ، ولا يطيعه إلاّ رغبةً أو رهبة .

واعلم أن المرغوب والمرهوب نوعان: عاجل حاضر، وآجل غائب. والعاجل الحاضر هو ما تشاهده الحواس ، والآجل الغائب هو الذي لا تشاهده الحواس، ولكن قد تصوّره الأوهام بالوصف والنعت . واعلم أن الغائب الآجل لا تقع الرّغبة والرهبة إليه ومنه إلاّ بالوعد والوعيد الصادق من العالم القادر ، وكلما كان المرغوب أشدّ عند الراغب وأقربَ تحقيقاً، كانت الرغبة إليه أوكَد وأشدّ! وهكذا حكم المرهوب منه . وقد رغّب الله تعالى خَلقه من الجِن والإنس في نعيم الجنان وجعل الوعد للمؤمنين ، ورهّبهم أيضاً من عذاب النيران ، وجعل الوعيد أيضاً للكافرين والأشرار ، وجعل ميعادَهم يوم يلقونه، إما في الدنيا قبل الممات ، وإما في الآخرة بعد الممات والفراق . وبعث إليهم الرسل والشُّهداء والأنبياء الصادقين ، وأنزل معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقِسط، وذكر فيه الوعد والوعيد ، وضمِن وأقسم وحلف كما قال الله تعالى : «بعث الله النبيين مبشرين ومنذرين» وقال: «وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات » ثم أقسم تعالى وحلف على تحقيق وعده فقال: « فوربّ السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون » ثم قرّب فقال : « وما أمر الساعة إلاّ كلمح البصر أو هو أقرب » .

ولكن من أجل أن موعده غائب عن إدراك الحواس ، صار أكثر الناس له منُكرين ، وفيه شاكّين ، وفي ماهيّته وآنيّته ، ومتى وقتُـه ، متحيرين ، كما أخبر عنهم بقوله : « هيهات هيهات لمـا توعدون » « لقد وعدنا نحن وآباءنا من قبل » .

وأما المؤمنون فهم مُقرّون بمواعيده ، منتظرون لها ، ولكن من الآراء الفاسدة والاعتقادات الرديئة ، ربمـا ترِدُ على قلوب المـُقرّين شكوك وحيرة

وإنكار! من ذلك من يرى ويعتقد أنه لا يجازى ولا يكافأ على إحسانه وسيئاته إلاّ في الآخرة بعد الموت ، أو يرى ويعتقد أنــه لا تكون الآخرة إلاّ بعد خراب الأرضين والسموات . وهذا الرأي والاعتقاد يُبعد عن صاحبه طريق الآخِرة ، ويقلل رغبته في ثواب أعماله وجَزاء إحسانه ، ويقلل رهبته وخوفه من عقوبات سيئاته — وإليه أشار بقوله : « إنهم يرونه بعيداً ونراه قريباً » . وبقوله : « أولئك ينــادون من مكان بعيد » . وهكذا رأي من يعتقد أن الجنة التي وُعِد المتقون ليست بموجودة ، وكذلك النار الـتي حذّر الله عبادَه منها ليست بموجودة. ومثل هذه الآراء والاعتقادات وأمثالها تشكّك معتقديها في الوعد ، وتقلل رَغبتهم فيه . وهكـذا حُكمهم في الوعيد والرّهبة منه ، وهكذا أيضــاً رأي من يرى ويعتقد أن أولياءه وأمناءه ورسله وأهل جنّته لا يرونه ولا يدرون رُتبته وما هو ، إن هذا الرأي يؤيِس من روح الله ، وهكذا رأيُ من يعتقد أن الله لا يغفِر الذنوب ولا يعفو عن السيئات والخطإ، وهذا يُقنِط من رحمة الله تعالى ، وهذا أيضاً وما شاكل هذه الآراء المُقلّلة للرغبة والرّهبة في نِعَم الجنان وعذاب النيران .

ومن الآراء الفاسدة أيضاً رأيُ من يعتقد الترخيص في الشُّبُهات ، والإباحة في المحظورات المحرّمات ، فإن صاحِب هــذا الرأي يُكسِبه اعتقاده جُرأة على الله ، وتعدّياً لحدوده، وارتكاباً لمحارمه ، ويكون صاحبه في السر مخالفاً لأبناء جنسه ، ومُنافقاً مُرائِيــاً لا يَصدُق في معاملته ولا يفي بعهده ، ولا ينصح في أمانته . وفي مثل هذه الخصال فساد الدين والدنيا جميعاً .

ومن الآراء الفاسدة أيضــاً رأيُ من يرى ويعتقد أن الله الرحيم الرؤوف الحنّان يعذّب الكفّار والعصاة في خندقٍ في النار غيظاً عليهم وحنقاً ، وكلما احترقت أجسادهم وصارت فحماً ورَماداً ، عادت فيهــا الرطوبة والدم لتُحرق مرّة ثانية .

واعــلم يا أخي أن هــذا الرأي يسيء ظنّ صاحبه بربه ، ويعتقد فيه قِ

الرحمة ، وشدّة القساوة ، تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيرا .

ومن الآراء الفاسدة أيضاً أنه يرى بأن أهل الجنة أجسادُهم لحمية ، وأجسامُهم طبيعية مثل أجساد أبناء الدنيا ، قابلة للتغيير والاستحالة ، متعرّضة للآفات . فإذا تأمّل ما وصف الله تعالى في صفات أهل الجنّة ، لا يمسُّهم فيها نَصَبٌ ، ولا يذوقون فيها الموت إلاّ الموتة الأولى ، وأنهم خالدون ، وما شاكل هذه الأوصافَ المذكورة في القرآن التي لا تليق بالأجساد اللّحميّة والأجسام الطبيعية .

واعلم أنه لا يليق بالعقلاء أن يعتقدوها ، فضلاً عن عقول الحكماء ، بل النساءُ والجهّالُ والصبيان جيّدٌ لهم ، فإن هذا الرأي يليق بأفهامهم ، ويصلُح لهم ، ويُقرّب من عقولهم ما وُعِدوا به ويوعَدون من نعيم الجنان ، ورهبتهم من عذاب النيران ، ويزيدهم خوفاً من سوء أفعالهم فيتركونها ، ويقوى رجاؤهم لثواب أعمالهم . وعليكم بدِين العجائز لائقٌ في هذا المقام لا في مَقامٍ آخر .

وأما من رزقه الله قليلاً من التمييز والعقل والفهم ، ونظر في علوم الحكمة ، فإن هذا الرأي لا يَصلُح له ولا يليق به ، لأنه إذا عرضه على عقله ، أنكره عليه ، فيقع عند ذلك في شكّ وحيرة وسوء ظن وتخيّلات فاسدة .

ثم اعلم أن أسوأ الناس مذهباً ، وأشنعهم رأياً ، من يعتقد أمراً ، ويكون عقله مُنكِراً عليه ، ونفسه مرتابةٌ ، وظنه سيئاً بربه ، كما قال : « ذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين » الآية .

ومن الآراء الفاسدة من يعتقد أن الله خلق خلقاً وربّاه وأنماه وأنشأه وسلّطه وقوّاه على عِباده متمكّناً في بلاده ، ثم ناصبَه بالعداوة والبَغضاء ، وهو إبليس وجنوده من الشياطين ، وهم يفعلون ما يريدون على رغم منه ! وهو الجاعل لهم المشيئة ، والإرادة ، والعداوة ، والاستطاعة ، وطولَ العمر ، والمُهلة ، وسَعة الرزق ، والنعمة . فإن صاحب هذا الرأي ، إذا فكر في أمر

إبليس وجنوده ، وما نَسب إليه من السرور ، وما يعتقده من مخالفتهم لله وعداوتهم ، فإنه امتلأ منهم غيظاً وحِقداً عليهم ، وناصبهم العداوة والبغضاء ، حتى إنه لو أمكنه قتلهم كلّهم ، أو قَدِر على قطع أرزاقهم ، فعل من شدة غيظه عليهم ، وإذا لم يَقدِر على ذلك بقي ، طولَ عمره ، مغتاظاً مغتمّاً متألماً نفسُه ، معذباً قلبُه ، حتى إنه ربما فكّر في خلق الله لهم ، وتربيته إياهم ، وسَعة رزقه عليهم ، وتمكينه لهم فيما يفعلون ، وإمهاله لهم ، فعاتب ربه في الضمير ، وخاصمه في السر ويقول : لِمَ خلقهم ، ولِمَ رباهم ورزقهم ، ولِمَ مكّنهم وسلّطهم ، ولماذا ، ولِمَ ، وكيف ؟ وما شاكل هذه الوساوسَ والظنون المُوبِقَة المؤلمة لنفوس المُعترضِين على الله في تدبير خلقه ، وإنفاذِ مشيئته ، وإجرائِه المعلومَ على ما كان في سابق علمه .

فصل

واعلم أن ذِكرَنا لهذه الآراء الفاسدة، والاعتقادات الرديئة المؤلمة لنفوس معتقديها ، لتُعرفَ وتكونَ دليلاً على أن هاهنا رأياً مُلِذّاً لنفوس معتقديه ، مُفرّحاً لقلوبهم ، مُبشّراً لأرواحهم ، وهو رأي أولياء الله ، واعتقاد الخواص من عباد الله الصالحين ، ومذهبُ الرّبّانيين الذين أسلموا لربهم ولم يُشرِكوا معه غيره لا سِرّاً ولا عَلانِيةً ، وهم الذين صفت قلوبهم عن دَرَن الشهوات الجسمانية ، وطَهُرت أخلاقهم من العادات الرديئة ، واضمحلت عن ضمائرهم الآراءُ الفاسدة ، وصانوا جوارحهم عن الأعمال السيئة ، وألسنَتهم عن الفحشاء والمُنكَر ، وأخلصوا سرائرهم مع الله ، ولم يعترضوا عليه في شيء من تدبير خلقه سِرّاً وعَلانية ، فأصلح الله قلوبهم ، وزكّى نفوسهم ، وطهّر أخلاقهم ، فهم لا يُضمِرون لأحد من خلق الله سوءاً ، ولا يرون لهم على أحد فضلاً . صالحوا الخلقَ سِرّاً وجهراً ، كما وصفهم الله تعالى بقوله : « وعباد الرحمن

الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً » الآية . فهم يمشون على الأرض بأجسادهم ، ونفوسُهم متعلقة بالمحل الأعلى . ذلك أنهم لما عرفوه ، تركوا كل شيء سواه ، واشتغلوا به وبذكره ، وأحسنوا ، إن الله لمعَ المحسنين « وما على المحسنين من سبيل . » وسئل النبي ، عليه السلام: ما هذا الإحسان ؟ فقال : « أن تعبُد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه ، فإنه يراك » كيف لا يراه أولياء الله ، ولا يشاهده أصفياؤه ، وهم معتقدون متحققون بقوله : « ما يكون من نجوى ثلاثة إلاّ هو رابعهم ولا خمسة إلاّ هو سادسهم » الآية. وبقوله : « ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد » وقوله: « واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا » وقوله : « إنني معكما أسمع وأرى » وقوله : « وهو معكم أينما كنتم » .

فصل

ثم اعلم أنه ليس من لذّة النفوس، ولا سُرور الأرواح، ولا فرح القلوب، ألذُّ وأروَحُ من رُوح نورٍ تردُهُ اليقين في قلوب أولياء الله بما وعدهم من يوم يلقَونه من نعيم الجِنان ، وما يرجونه من نيل الثواب وجزيل العطاء من الآخرة ، وما يجدونه في نفوسهم من شدة الشوق إلى رؤيته لشدة محبتهم إياه وكثرةِ ذكرِهم إحسانَه ، كما قيل : جُبِلت القلوبُ على حُبِّ من أحسن إليها وبُغض من أساء إليها . وقال : « والذين آمنوا أشد حبّاً لله » . وقد وبّخ الله من يُحبّ غيره وذمّهم بقوله : « ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حبّاً لله » .

ثم اعلم أن هذه اللذة التي وصفنا أن قلوب أولياء الله تجدها في دار الدنيا، إنما هي ثمرة بعض سَعيهم، ومُقدّمة بعض ثواب أعمالهم، عُجّلت لهم في الدنيا،

لأنهم لما عرفوه حقّ معرفته ، تركوا كل شيء سواه ، واشتغلوا به وبذكره سِرّاً وإعلاناً : « لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله » فعند ذلك اضمحلت الآراء الفاسدة عن ضمائرهم ، وانحلت الاعتقادات الرديئة عن أفكار نفوسهم ، فوجدوا رَوْحاً وراحة ورَيحاناً ولذةً يَقصُر الوصفُ عنه .

وإذ قد تبين في المباحث الحِكميَّة أن بعض اللذات إنمــا هو خروج من الآلام ، فاعلم أن الله تعالى جعل هذه اللذة والسرور بُشرى لأوليائه في الحياة الدنيا ، فأما التي في الآخرة فهي عند الله خيرٌ وأبقى ، كما قال تعالى : « قل من حرّم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة » الآية . لا يشاركهم فيها غيرهم .

واعلم أن عِلّةَ انحلال الآراء الفاسدة ، واضمحلالها عن قلوب أولياء الله عند معرفتهم بربهم ، هو من أجـل أنهم اعتقدوها في طلب معرفته ، فلما تبين لهم الحق وعرفوا الله حقّ معرفته ، انحلت واضمحل مـا كان منها فاسداً أو زُوراً أو بُهتاناً ؛ كما حكي عن إبراهيم ، عليه السلام ، في أول مبدئه في طلب معرفة الله تعالى: « فلما جن عليه الليل » إلى قوله: « وما أنا من المشركين » . وهكذا كان بدء معرفة الأنبياء ، عليهم السلام ، بربهم في أول نظرهم وعلومهم بصفاته اللائقة من الأولين والآخرين من ذرية آدم ونوح وإبراهيم ، وممن هداه الله واجتَباه كما قـال تعالى : « والله أخرجكم من بطون أُمهاتكم لا تعلمـون شيئاً » وقال : « وعلمتم ما لم تعلموا » وقال لنبيه ، عليه السلام : « ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان . » وقال له : « قل ربّ زدني علماً » وقـال : « أفمن كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي » الآية . وقال : « هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون » الآية . وقال : « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أُوتوا العلم درجات » الآية . وقال : « هم درجات عنـد ربهم » يعني العلماء . وقال : « إنما يخشى اللهَ من عباده العلماءُ . » وآياتٌ كثيرةٌ في مدح العلماء وحسنِ الثناء عليهم ، وذمّ الجهّال .

ثم اعلم أن نفوس الجهال كلّها موتى بالقياس إلى نفوس العلماء ، وذلك أن قلوب العلماء مفتوحة ، وصدورهم منشرحة متسعة ، ممتلئة من نور الهدى ، وروح المعارف، وزهرة العلوم . وقلوبُ الجهال حَرِجة منغلقة، وصدورهم، من الوَسواس والخيالات، ضيّقة مظلمة ، وأوهامهم هائمة ، وأفكارهم تائهة في ظلمات الجَهالات المتراكمة ، ونفوسهم ممتلئة من الوَساوس والخيالات ، كما قال الله تعالى في عِدّة آيات من القرآن ، مثل قوله : « فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام » إلى قوله : « الذين لا يؤمنون . » ومثل قوله : « مثل نوره كمشكاة فيها مصباح » إلى آخر الآية . أو : « كظلمات في بحر لُجّيّ يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور » .

واعلم أن حياة النفوس ويَقظتَها هي المعارف والعلوم ، كما أن حياة الأجساد ويَقظتَها بالحس والحركة ، وأن لكل جنس من الحيوانات ضُروباً من المأكولات هي غذاء لأجسادها، من نبات الأرض وثمار الشجر وأوراقها، تشتهيها بطباعها ، وتلتذ بها بنفوسها ، كلُّ ذلك بحسَب امتزاجها ، وتركيب أجسادها وعاداتها في تناولها .

وهكذا أيضاً حكم شهوات النفوس ولذاتها في مأكولاتها ومشروباتها ، واختلاف ألوانها وفنون طعومها ، تشتهي هذا وتلتذ هذا بما لا يلتَذُّ به هذا ، وتشتهي وتلتذ في وقت ، ولا تشتهي في وقت آخر، بل تكرهه وينفُر طبعها منه ويتأذى .

وهكذا حُكم لذاتها وشهواتها في المعارف والعلوم والصنائع والتجارات والأعمال والحِرَف وتصاريفهم في الأمور ، وذلك أن من الناس من تكون نفسه مطبوعةً على محبة الصنائع والحِرَف في تعليمها مشتهياً لها مُستلذّاً بها . ومنهم من يكون مطبوعاً على محبة التّجارات والبيع والشراء، مشتهياً لذلك، ملتَذةً به نفسُه . ومنهم من تكون شهواته وعشقه في جَمع المال والأثاث

والأمتعة ، والادخار لها . ومنهم من تكون شهوته ولذته في إنفاق المال ، واتخاذ المنازل ، وإنشاء العقار وبنائه ، وعمارةِ الأرضَ ، والحرثِ ، والنسلِ ، ورَبطِ الدواب وتربيتها والاستكثار منها . ومنهم من تكون شهوته ولذته في الأكل والشرب ، وعشق النساء والغلمان ، واللهو واللعب والغناء ، ولعب النرد ، والقِمار والافتخار بها ، والمباهاةِ والعصبية والخصومات ، وما شاكل ذلك من المبارزة في الحرب والقتال ، والغارات والنهب ، والفِتَن والشرور والعداوة . ومنهم من تكون محبته للصوم والصلاة ، والصدَقات ، والقراءة والتسبيح ، والخشوع والبِرّ والتقوى والعبادة ، وما شاكل هذه من أعمال الخيرات ، وتكون نفسه مشتهية لها ملتذة بها . ومنهم من تكون محبته في لقاء أهل العلم ، واستماع كلام العلماء ، وطلب العلوم والأدب ، ومعرفة الأخبار والروايات والآثار . ومنهم من تشتهي نفسه علم النحو ، والشعر ، والخُطَب ، والفصاحة ، والأقاويل ، والكلام وما شاكل هذه ويلتذ بها ، ومنهم من يشتهي علم الحساب والهندسة ، والنجوم ، والطب ، والمنطق ، والرياضيات الحِكميّة ، وما شاكلها ويكذّبها ، ومنهم من تشتهي نفسه علم العَزائم والرُقَى والسّحر والكيمياء والحِيَل وما شاكلها وتلتذ بها . ومنهم من يشتهي النظر في علوم الطبيعيات والإلهيات والبحث عنها ، وعن حقائق الموجودات الكائنات الفاسدات والباقيات المخلّدات ، كل ذلك على ما توجبه أحكام النجوم في أصول مواليدهم وعاداتهم ، عند نشوئهم على سُنَن آبائهم وأُستاذيهم ومعلميهم ، ومن يصحبونه في الطلب طولَ أعمارهم من إخوانهم وأصدقائهم .

فانظر يا أخي بعقلك وميّز ببصيرتك ، واختر لنفسك من هذه المشتهيات ما يليق بها وترضى لها به . واعلم أن من الأمور ما هي جبلةٌ مركوزةٌ في النفس ، ومنها ما هو عادة جارية ، وأُلفةٌ معتادة ، إذا دام عليها الإنسان ، صارت جبلةً وطبيعة ثانية .

فصل

واعلمْ يا أخي أن حُسن الخُلُق ، والسِّيرَة العادِلة هما من أخلاق الملائكة ، ولكن بعضها في جبلة النفوس مركوزة فيها ، وبعضها عادةٌ جارية معتادة ، وهكذا أيضاً حُكم الخُلُق السُّوء والسيرةِ الجائرة هما من أخلاق الشياطين ، بعضها جبلة مركوزة في النفس ، وبعضها عادة جارية ، وهي التي نشأ عليها الصبيان من الصِّغَر يتربَّون من الصبى عليها ، أو يأخذها الناس ممن يصحبه ويتربى معه من الآباء والأمهات والإخوة والأخوات والجِيران والمعلِّمين والأُستاذِين .

واعلم أنه ربما لا يتفق للإنسان هذه الأمورُ المحمودة من الصِّغَر على حسَب ما ينبغي ، ولكن يجب على العاقل أن يتفقد أحواله وأخلاقه وسِيرته وعاداته واعتقاداته ، ويستبصر ، فيترك ما كان فاسداً رديئاً ، ولا يتكل على العادات الجارية ، ولا يحتج بالطبع المركوز ، بل يجتهد وينظر ويميز ويبحث ، فإن الله تعالى ما بعث الحكماء والرسل والأنبياء إلا لإصلاح الأمور الفاسدة النابتة مع الطبائع الرديئة والعادات الجارية . وقد ذكر العلماء والحكماء في كتب السياسات أنه ينبغي لكل إنسان أولاً أن يبتدىء بإصلاح أخلاق نفسه وعاداته ، فإذا عدّلها واستوت ، فعند ذلك رام أن يُصلح غيره. وقال ، عليه السلام : « كلُّكم راعٍ وكلُّكم مسؤول عن رعيّته » . وقال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم » .

ثم اعلم أن أكثر الناس قد تركوا وصية ربهم ونصيحة نبيهم فيما أمرهم به من إصلاح ذات بينهم ، وما فيه نجاةُ نفوسهم من العذاب الأليم بما رسمه لهم من التعاون والتعاضُد والتناصُر والتحابّ والتودُّد والألفة فيما بينهم ، واشتغلوا بما نُهُوا عنه من ذكر عيوب بعضهم بعضاً ، وشنعةِ بعضهم على بعض ، وصاروا فِرَقاً ومذاهب وشِيَعاً ، وتوقدت بينهم نيران العداوة والبغضاء إلى

يوم القيامة . وذلك أنهم يُعيب بعضُهم بعضاً بحرقة قلوبهم وألم نفوسهم ، وهم في العذاب مشتركون ، أولهم مع آخرهم كما ذكر تعالى : « كلما دخلت أمّة لعنت أختها » التي خالفتها . وقالوا : « لا مرحباً بهم إنهم صالو النار . » وقالوا : « ربنا هؤلاء أضلونا . » يعني من كان موافقاً لهم . وقيل لهم : « ذوقوا عذاب النار بما كنتم تكسبون » لما تركتم وصية ربكم ونصيحة نبيكم ! وقال : « وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » فكانوا هم الظالمين بتركهم الوصية .

فصل

واعلم أن الآراء الفاسدة كثيرة ، وفيما حكينا كفايةٌ للمعتبر المتفكّر ، وأن أهلها جَمٌّ غفير لا يُعرَفون ولا يُطاقون ولا يُؤمن من غوائلهم ، وهم جنود إبليس أجمعون ، وهم الأشرار والكفّار والفُسّاق والمنافقون وأهل البِدَع والضلالات ، ولكن أشرّهم على أهل الدين والورع ، وأضرّهم على العلماء ، وأشدّهم على عداوة الحكماء ، هذه الطائفة الظلَمةُ المُجادِلة المُخاصمة الكفَرةُ الفَجَرة الذين يخوضون في المعقولات وهم لا يعلمون في المحسوسات ، ويتعاطون البراهين والقياسات وهم لا يحسنون الرياضيات ، ويتكلّمون في الإلهيات وهم يجهلون في الطبيعيات ، ويتصدّرون في المجالس ويتجادلون في أشياء لا تفيد في الدين علماً ، ولا تنتج في الحكمة فائدة ، مثل كلامهم في التعديل والتجويز والجُزء الذي لا يتجزّأ ، وما شاكلها من المسائل المُمَوّهة المُزَخرَفة التي لا حقيقة لها ولا وجود ، إلاّ في الأوهام الكاذبة ، ولا يصح للمدعي فيها حُجّة ، ولا السائل عنها برهان ، وهم خائضون فيها في مجالسهم ، مُضيّعون فيها أوقاتهم بالخصومات والجدالات والمعارضات والمناقضات ، وإذا سُئلوا عن أشياء هي موجودة ، مقدّرة بين الناس ، ومعروفة مشهورة عند

الحكماء ، لا يحسنون أن يجيبوا عليها . فإذا استعصى عليهم بالسؤال والبحث أنكروها وجحدوها، ويأنفون أن يقولوا : لا ندري، أو يقولوا: الله ورسوله أعلم . بل يخوضون في طغيانهم وجَهالاتهم ، ويدّعون فيها المحالات ، وربما يَضعون في إبطالها المقالات المُزخرَفة ، ويعارضون بها الحكماء والعلماء ، ويُشنّعون بها عليهم مثل قولهم: إن علم الطّب والنجوم باطل، وإن الكواكب جَمادات ، وإن الأفلاك لا وجود لها ، وإن علم الطب لا منفعة فيه ، وإن علم الهندسة لا حقيقة له ، وإن علم المنطق والطبيعيات كفر وزندقة ، وإن أهلها مُلحِدون ، ويدّعون عليهم المحالات ، ويحكون عنهم الخُرافات ، ويقولون : هذا كلامهم ومذهبهم ورأيهم واعتقادهم . ولعل القوم لا يقولون قليلًا ولا كثيراً ، ولا يعتقدونها ، وإن كان الاعتقاد لهم ورأيهم ، فلا يسمع منهم أحد ذلك ، ويموتون مع اعتقاداتهم واندراس مذاهبهم ، فلا يعلم ولا يحس به أحد . أولئك كالأنعام بل هم أضلّ سبيلًا .

وأما هؤلاء المُجادلة فيَظهرون بها في أهل المجادل ، ويوردون تلك الاعتقادات الفاسدة والمذاهب الرديئة بفصيح العبارات ، ويُبيِّنون عنها بأوضح الاحتجاجات . ويكتبونها بأصحّ الخطوط وأجود ورق ، ينسبونها الى أقوام قد عُرِفوا بالعلم والحكمة وجودة الرأي وصحة التمييز ، على سبيل الشُّنعة عليهم والوقيعة بهم، بسخيف الرأي، ويسمونها الأحداث ، ويصورونها في قلوبهم ، ويمكّنون في نفوسهم تلك الآراء الفاسدة والمذاهب الرديئة ، ويحيّرونهم ويشتّتونهم في الحقائق. فلو أن أهل تلك الآراء والمذاهب اجتهدوا بجهدهم ، وأنفقوا الأموال في اظهار مذاهبهم ، والاحتجاج على آرائهم ، والإيضاح عن اعتقاداتهم ، لما بلغوا عُشر العُشر مما قد بلغ هؤلاء المجادلة في تملّكها في أكثر النفوس .

ومع هذه البليّة كلها يدّعون أنهم بهذا الفعل يَنصُرون الإسلام ويُقرّون الدين ! والى يومنا هذا ما رُوي أن يهوديّاً تاب على يد واحد منهم ، ولا

نصرانياً أسلم ، ولا مجوسياً آمن بآرائهم ، متمسكين باعتقاداتهم محتفظين ، بل يزدادون باعتقادهم ومذاهبهم احتفاظاً ، إذا نظروا إلى هؤلاء المُجادلة فرأوا خصوماتهم في أحكام الدين، وكثرة خلافهم ومنازعاتهم بعضهم لبعض، وعداوة بعضهم مع بعض، ويلعنُ بعضُهم بعضاً، فاعتبروا أن ليس مثل هؤلاء المُجادلة فيما هم فيه ومن يدخل في مذاهبهم إلاّ كما ذكر الله تعالى : « كلما دخلت أمة لعنت أختها » « وقالوا لا مرحباً بهم» فهذا حكم المجادلة فيما هم فيه من الخصومات والعداوات في الدين .

ثم اعلم أنك إذا تأمّلت طبقات النـاس وجماعاتهم في أحوالهم من الدين والمذاهب ، والعلوم والصنائع، والتجارات والحرف، لم تجد بينهم من العداوة والبغضـاء والطعن واللعن عُشر العُشر ممـا تجد بين أهل هذه الطبقة المجادلة . وذلك أنك تراهم يُكفّر بعضُهم بعضاً ، ويتبرأ بعضُهم من بعض ، ويرى كل واحد منهم حِلّ أخذ مال مخالفيه ، ويشهد عليهم بالكفر والزندقة والخلود في النار أبد الآبدين. فلا جَرَمَ قد بغّضوا العلماء إلى الناس، وزهّدوهم عن تعلم العلم والأدب وطلب المعارف . وذلك أن الناس ، إذا نظروا إليهم وهم بهذه الأوصاف ، فلا هم يتعلمون ولا يتركون غيرهم يتعلم ، ومـا مثَلهم في ذلك إلاّ مثل الكلب ينـام في المعلِف وهو لا يأكل ولا يـدع الخيل تأكل ، حتى يموت هو وهي ضُرّاً وهزالاً .

يحكى عن الحسين بن علي ، عليه السلام ، أنه كان يقول : « يا علماء السُّوء جلستم على باب الجنة ، فلا أنتم تعملون فتستوجبون الجنّة ، ولا تركتم غيركم يجوزكم فيَدخُل الجنة ! » وذلك أنهم إذا نظروا إليهم وما هم فيه من هذه الأوصاف التي ذكرنا ، فاحذرهم فإنهم أعداء أهل العـلم ، ومخالفون لأهل الورع ، مضادون لإخوان الصفاء ، لأن أحوالهم وأخلاقهم أخلاق الشياطين ، وقوتهم قوة الدجّالين ، ذلِقو اللسان ، عميان القلوب ، فصحـاء الألفاظ ، جاهلون بالمعاني ، قد نَصَبوا أنفسهم للمجادلة مع العلماء ، ومناقضة الحكماء ،

ومماراة السفهاء ، لا الحِكمةَ يعرفون ، ولا أحكامَ الشريعة يتحققون ، ويُحاجُّون بآيات كتب إلهية وهم فيها شاكّون! يتبعون المتشابهات، ويتركون العلم بالمُحكَمات كما وصفهم الله تعالى بقوله : « هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أمّ الكتاب » الآية .

ثم اعلم أن الله تعالى يتلطّف ويتكرم مع أوليائه ، وانظر إلى حُكم الله لخاصته من أوليائه ، وتلقينه لهم ، وحكايتهم وأقاويلهم ودعائهم واقتدائهم ، فإن أردت أن تكون هادياً مهدِيّاً ، مؤيّداً رشيداً بالدين الحنيفي والمنهاج السَّلَفي ، فاعمل بأحكام الشريعة والوصايا النبوية وإشارات الحكماء، واترك الخصومات والأخلاق الرديئة والأعمال السيئة والأفعال القبيحة ، واجتنب الآراء الفاسدة ، وتَعلّم العلم ، أيّ علم كان : حِكْميّاً أو شرعيّاً ، رياضيّاً أو طبيعيّاً أو إلهيّاً، فإنها كلّها غِذاءٌ للنفس وحياة لها في الدنيا والآخرة جميعاً، ولا تتبع سبيل الذين لا يعلمون، وهم الذين وصفهم الله بقوله : « ومن الناس من يجادل في الله بغير علم . » إلى آخر الآية .

وقد عملنا في هذه العلوم والآداب إحدى وخمسين رسالة ، كل واحدة منها في فن من العلوم ونوعٍ من الآداب ، فاطلبها واقرأها ، تَجِدْها سهلةً من غير تعب وكَدّ . وفقك الله وإيّانا وجميعَ إخواننا إلى طريق السَّداد ، وهداك وإيانا وجميعَ إخواننا سبيل الرشاد ، إنه رؤوف رحيم بالعباد ، والصلاة والسلام على النبي محمد وآله أجمعين .

تمت رسالة الآراء والديانات ويليها رسالة في ماهية

الطريق إلى الله ، عز وجل

فهرست المجلد الثالث

الجسمانيات الطبيعيات

الرسالة الثالثة عشرة

صفحة

الرسالة الرابعة عشرة

الرسالة الخامسة عشرة

الرسالة السادسة عشرة

الرسالة السابعة عشرة

النفسانيات العقليات

الرسالة الاولى

الرسالة الثانية

الرسالة الثالثة

الرسالة الرابعة

الرسالة الخامسة

العلوم الناموسية الإلهية والشرعية

الرسالة الأولى

صفحة

صفحة